تيارات مسمومة
ونظريات هدّامة معاصرة

تحاصر الإسلام وتحمل لواء هدم قيمه الأساسية

بقلم
أنور الجندى

مكتبة التراث الإسلامي

مقدمة البحث

أعتقد أننا فى هذه المرحلة من حياة الأمة الإسلامية فى حاجة إلى إعادة النظر فى كثير من المفاهيم التى كنا ومازلنا نتعلق بها، وذلك لتصحيحها وتحريرها من الزيف والخطأ نتيجة التجارب العديدة التى مرت بها الأمة الإسلامية فى العقود الأخيرة، مما يتطلب الانطلاق من نقاط جديدة تمثل ثوابت أساسية لحماية الصحوة وترشيدها ودفعها إلى الطريق الصحيح على تخويل الثقة بمنهجنا الإسلامى والقرآنى الذى يدعونا إلى أن نلتمس الحكمة والموعظة الحسنة، والتيسير والمرونة دون أن نفقد ثوابت القيم وضوابط الحركة والإصرار على تبليغ رسالة الله تبارك وتعالى إلى العالمين.

وأعتقد أننا، نحن المسلمين، نملك أعظم منهج وأشرف رسالة، وإنها هى وحدها طوق النجاة للبشرية كلها، لإنقاذها من الأزمات الطاحنة التى تمر بها، وأننا قد وصلنا فى مطالع القرن الخامس عشر الهجرى إلى مرحلة الرشد الفكرى التى تقتضينا أن نتحرر تماما من أى نظام وافد من الأنظمة التى فرضت التبعية لأى منهج وافدوأن نتحرر تماما من كل ماحجب منهجنا الإسلامى وشريعتنا السمحة.

ومن هنا فنحن مطالبون بإعادة صياغة المجتمع الإسلامى بالدعوة للعودة إلى فريضة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر والعودة إلى فريضة الجهاد وإقامة قاعدة القدرة على الردع وأن نعمل على بناء أجيال صامدة مسلحة بالإيمان تحمل أمانة العمل الإسلامى، مع تقديم حلول إسلامية لقضايا العصر المعقدة، وأن تكون على وعى كامل بأبعاد المؤامرة التى تحاول أن تحاصر الأمة الإسلامية وتحتويها، وأن نكون على وعى بالتيارات والرياح التى تهب على أبوابنا ونوافذنا الخارجية.

ذلك أن هناك مخططا واسعا تشترك فيه القوى الثلاثة الغربية والصهيونية والماركسية للعمل على إخراج الإسلام من ذاتيته الخاصة، وإخراج المسلمين من مفهومهم الجامع الصحيح بوصفه منهج حياة، ونظام مجتمع، وصهرهم فى أتون الحضارة العالمية التى تواجه الآن الانهيار بعد سقوط الإيديولوجيات. وليس هناك من سبيل أمام المسلمين

اليوم أزاء تكثيف عوامل الهدم إلا العودة إلى الوحدة الجامعة بين مختلف عناصر المسلمين والتخفيف من الخلافات العقيدية والمذهبية والالتقاء على القرآن والسنة فى إقامة نظام الإسلام الموحد كعامل أساسى فى إعادة المسلمين إلى الأخوة الجامعة: هذه العودة هى وحدها السلاح القادر على دفع مؤامرة أعداء الاسلام.

وأن توضع الصيغة الجامعة بين الانتماءات الوطنية والقومية داخل دائرة الانتماء الإسلامى وتطبيق أكبر قدر من العدل الاجتماعى بمفهوم الإسلام، وعلى المسلمين أن يعودوا إلى مفهومهم الأصيل فى كثير من القضايا المثارة فى الفن والاقتصاد والاجتماع والترويح، وهو المفهوم الذى يبنى قيم المجتمع على قاعدة الأخلاقية أساسا وحكما.

وكذلك عودة المسلمين إلى المفهوم الإسلامى للجهاد وتحرير القدس.

ولقد كان مفهوم الإسلام مرنا وسمحا فى سبيل إقامة قاعدة الالتقاء مع حضارة العصر عن طريق اقتباس مافى الحضارة الغربية من عناصر صالحة لدفع عجلة الحياة فى المجتمع الاسلامى، على طريق قيام مجتمع قادر على العطاء فى مجال الاقتصاد والمعاملات دون الخروج على ضوابط الإسلام وقيمه وحدوده، وذلك لحماية المنهج الإسلامى من الاحتواء، وليبقى نقيا سليما على النحو الذى تركه رسول الله صلى الله عليه وسلم لنا، ليصل الى كل البشر الى يوم القيامة.

مدخل الى البحث

قبل ظهور الاسلام كان قد تشكل الفكر البشرى فى صورة تصور فلسفى له قالب العلم فى محاولة لرسم صورة للبشرية والتاريخ وعالم الغيب.

هذا التصور كان مختلطا يجمع بين خيوط من تراث النبوة مع مفاهيم معينة من نظريات الفلاسفة وتصوراتهم التى تركزت فى (الفلسفة اليونانية) والتى انقسمت الى خطين مختلفين لا يلتقيان يتمثلان فى الفلسفة المادية (أرسطو) والفلسفة المثالية (أفلاطون) ، ومن خلال مدرستين تقوم إحداهما على (الإباحة) والأخرى على (الرهبانية).

وكان العلم قد جاء الأمم بغيا بينهم متجاوزاً الحق إلى الباطل، وانتقلت الفلسفات من مراحل وثنية الى مراحل مسيحية غربية (تقوم على التثليث) والتعدد، ثم غلا الفكر البشرى فأنكر وجود الخالق تبارك وتعالى ورسالات الانبياء والغيبيات والبعث والجزاء. وعاد إلى مصادر أساطير الأولين القديمة يحييها ويبنى عليها.

وتمثل فى هذه المرحلة السابقة لظهور الإسلام فى صور متعددة مضطربة غاية الاضطراب، تمثل فى قشور من رسالات الأديان وتصورات مادية تنكر وجود الإله الخالق وتتوزع على عشرات من التصورات الإلحادية، كعبادة الكواكب ، وعبادة الأصنام ، والشرك بالله ، وظهرت مفاهيم الانشطارية سواء فى جانب الفكر المادى أو الفكر الروحى.

وعاشت أوربا والغرب قرونا فى مرحلة الوثنية قبل عبور المسيحية إلى أوروبا ، ثم لما عبرت المسيحية بصورتها الغربية دخل الفكر البشرى مرحلة استمرت حوالى ستة قرون حتى ظهر الاسلام.

وبذلك كان الإسلام بحق دعوة لإخراج البشرية من الظلمات إلى النور، وفى هذه المرحلة التى تتجاور الألف عام استشرت الفلسفات اليونانية والفارسية والغنوصية والمجوسية والفرعونية، وكل لها مفاهيمها الخاصة، وقد عملت الفلسفة على اقتحام عوالم الغيب بتصورات ساذجة أفسدت بها عقولاً وقلوبا كثيرة.

ولما جاء الإسلام قدم تصوراً كاملا جامعا للمعرفة الإنسانية حيث أصبحت البشرية

قادرة على تلقى هذه المنظومة الجامعة التى شاء الله تبارك وتعالى أن تلقى إلى البشرية لترفعها إلى مرحلة الإنسانية.

ومن هنا فقد أوضح القرآن الكريم قضيتين كبيرتين :

الأولى : تقديم التصور الربانى الأصيل والصحيح للعالم والكون والحياة والانسان والمجتمع، على النحو الذى شاء الله تبارك وتعالى أن يعمل فيه الانسان بحكم كونه مستخلفاً ومسئولا وملتزما التزاما أخلاقيا لأداء دوره الحقيقى فى تعمير الأرض والسعى فيها. وبذلك زوده بتصور كامل عن عالم (ماوراء المادة) الميتافيزك حتى لايشغل نفسه به على النحو الذى شغل به العلماء أنفسهم قبل ذلك دون أن يصلوا إلى أى حقيقة.

الثانية : كشف ودحض وتزييف كل التصورات والنظريات التى كانت تمثل (المعرفة البشرية) وتحذير المسلمين من الوقوع فيها أو الاستسلام لها أو الجمع بينها وبين التصور الاسلامى الربانى الصحيح. ولما كانت المنظومة الإسلامية قد تكاملت قبل اختيار الرسول صلى الله عليه وسلم للرفيق الأعلى ممثلة فى القرآن الكريم والسنة النبوية، فقد تشكلت العلوم الاسلامية كلها مستمدة من هذا النبع الربانى بشقيه (لقد أوتيت هذا القرآن ومثله معه) (القرآن والسنة التى هى الحكمة).

ولكن مالبث المسلمون أن تعرضوا لترجمة بعض العلوم اليونانية كالطب وغيره ثم انحرفوا تماما عن الغاية وأخذوا فى ترجمة الفلسفة اليونانية وشئ غير قليل من الفلسفات الهندية والفارسية.

وأصبح هناك تياران هما الفلسفة اليونانية، والغنوصية الشرقية. وحاول الفلاسفة (الكندى ـ الفارابى ـ ابن سينا) الربط بين الفلسفة اليونانية ومفاهيم الإسلام، وقد بلغوا فى ذلك مبلغا خطيرا دون تذكر أو وعى لاختلاف الوجهة بين اليونانية والإسلامية، فى جذورها الأساسية، حيث تقوم الفلسفة اليونانية على العبودية والرق، ويقرر كبيرا فلاسفتها (أرسطو وأفلاطون) أن هناك طبقتين هما السادة والعبيد، وأنه لايمكن الاستغناء عن العبودية البشرية، ثم جاءت المسيحية (الغربية) فذهبت نفس المذهب. وكانت عملية الترجمة من اليونانية إلى العربية من أ[illegible] السحابات السوداء المظلمة التى ألمت بالأمة الإسلامية وأثارت فيها انحرافات خطيرة بالرغم من محاولات العلماء الأبرار الذين واجهوا هذا التيار منذ اليوم الأول وكشفوا زيفه، ذلك أنه من خلال ترجمة الفلسفة اليونانية والغنوصية تشكلت مجموعة خطيرة من المفاهيم امتدت

إلى العقيدة وإلى الأخلاق، وتركت آثارها فى علم الكلام والاعتزال والتصوف الفلسفى و شوء الفرق الضالة والتيارات الهدامة.

وقد واجه المسلمون هذه المحاولة الخطيرة بأمرين :

(١) بالكشف عن زيف التيار الفلسفى الوثنى الإباحى وخاصة فيما يتعلق بمنطق أرسطو.

(٢) الكشف عن منطق القرآن على النحو الذى قام به (الشافعى وابن حنبل وابن تيمية) وغيرهم.

ولقد قام مفكرو الاسلام وعلماؤه بدحض هذه الفلسفات والمعارف المنحرفة الضالة حتى توقفت أخطارها.

غير أنه ماكاد النفوذ الغربى يزحف على بلاد المسلمين فى العصر الحديث حتى جعل من أهم وأخطر مؤامراته ، اعادة طرح الفلسفات مرة أخرى وبصورة جديدة، ومن خلال الفلسفة المادية الحديثة فى جو لايمتلك فيه المسلمون الإرادة القادرة على إيقاف هذا الخطر، فاتسع نطاق الترجمة من الفلسفة اليونانية القديمة ومن الفلسفة الغربية الحديثة حيث كان المسلمون يعانون سيطرة استعمارية ، تشمل كل مقدراتهم ووجوه ثقافتهم وتعليمهم، فضلا عن فرض المذاهب السياسية الغربية، وحجب الشريعة الإسلامية والتصور الإسلامى الجامع الأصيل، وذلك فى محاولة لتقديم تصور للإسلام يقوم على عنصر اللاهوت والعبادة والصلاة وغيرها. وينحصر فى المسجد دون أن يكون له وجود فعال فى مجالات السياسة والاقتصاد والاجتماع والتربية.

كان الميراث البشرى للمعرفة والفكر الإنسانى الذى تشكل قبل الإسلام خليطا مضطربا من مواريث الأديان ومن أهواء الفلاسفة.

وكان هذا الفكر الذى تشكل يجرى فى ثلاث دوائر كبرى:

هى (الفلسفة الهندية ـ الفلسفة الفارسية ـ الفلسفة اليونانية) وكان ذلك قبل ميلاد الديانة المسيحية بستمائة عام ـ أى فى نطاق الاضطراب الذى أصاب الفكر اليهودى الذى اختلط فيه التوحيد بالعجل الذهبى، وامتزجت مفاهيم الفلاسفة اليهود بالفكر الإغريقى من ناحية والفكر الغنوصى الشرقى من ناحية أخرى.

ثم جاءت المسيحية التى انتقلت إلى الغرب فى ثوب مختلف عن طابعها الإلهى حيث سيطر الفكر اليهودى الوثنى ممثلا فى (بولس) اليهودى الأصل الذى دخل المسيحية بعد أن حاربها طويلا، وفى عملية الخلط والتشكيل مع الفكر الوثنى الذى كان سائداً فى أوروبا وقت هجرة المسيحية إليها. وهكذا امتزج بالفكر الغربى الذى كان يحمل فى هذا الوقت (خلاصة المعرفة البشرية) رواسب ثقافات مختلفة ذات أصول فارسية وهندية وفرعونية وذات توجهات يونانية (وثنية) ويهودية ومسيحية حاولت كلها أن تؤثر فى عقيدة التوحيد الخالص التى جاء بها الأنبياء منذ خلق الإنسان والتى أخذت صورة جديدة على يد رسالة إبراهيم الخليل أبى اليهود والنصارى والمسلمين، فى بداية هذه المرحلة التى تعيشها البشرية اليوم والتى بدأت بالحنيفية السمحة ثم جاءت رسالة موسى ورسالة عيسى عليهما السلام، ووقع الاختلاف فيهما حين انحرف بهما الأحبار والرهبان إلى مفاهيم الإعلاء اليهودى بدعوى شعب الله المختار، والتعدد المسيحى بدعوى الأب والابن والروح القدس ، وهكذا عاد الفكر البشرى قبل الإسلام إلى الوثنية والمادية كما عرفه الغرب والشرق جميعا ، ومن خلال اضطراب مفهوم الألوهية حيث سيطرت الأسطورة فى مرحلتى الإباحة والرهبانية.

أما أوروبا فقد عرفت الإباحية من خلال الفكر اليونانى الوثنى حتى جاءت المسيحية فدخلت فى مرحلة الزهد والرهبانية ﴿ رهبانية ابتدعوها ماكتبناها عليهم إلا ابتغاء رضوان الله فما رعوها حق رعايتها ﴾.

فعاشت فى هذا الوضع ستمائة عام.

ثم لم تلبث بعد أن أوقفها الإسلام وقدم المنهج العلمى التجريبى، أن دخلت مرحلة الإباحة والانطلاق من خلال إنكار الله تبارك وتعالى وإسراف فى الفاحشة والانحلال، فلم تزد بذلك الفكر البشرى المضطرب الوثنى إلا انحلالا وإباحية.

وبعد أن قدم الإسلام مفهومه للتوحيد الخالص ونشر كلمة الله فى الآفاق حيث كشف القرآن زيف كل النحل والمذاهب والدعوات المنكرة والمعددة والمشركة، جاءت مرحلة ترجمة الفكر اليونانى إلى اللغة العربية فأحدثت اضطرابا شديدا مزعجا، حيث اعتنق هذا الفكر بعض المشائين وحاولوا خلط الفلسفة اليونانية بالشريعة الإسلامية. وأحدث ذلك اضطرابا شديدا وترك آثاره على الأدب والأخلاق والقيم والمفاهيم مما كان له نتائج خطيرة فى تلك الدعوات الهدامة التى ظهرت: القرامطة والمزدكية والمانوية

والتصوف الفلسفى وأصحاب الحلول ووحدة الوجود، والتى خدعت الكثيرين وامتدت سنوات وسنوات بالرغم من الموقف الحاسم الذى وقفه العلماء لدحض شبهات فلسفة اليونان وفارس والهند.

ولما جاءت الحروب الصليبية حيث هاجم الغرب المسيحى بلاد الإسلام بحجة استعادة بيت المقدس وامتدت قرنين كاملين ارتد بعدها الغرب والكنيسة مهزومين، تبين الغرب أن الحرب لاتهزم المسلمين ولكن تهزمهم الكلمة، وكانت الماسونية قد جمعت ذلك التراث القديم كله وأعادت إحياءه لضرب الأديان جميعا وضرب الإسلام بالذات.

هنالك بدأ الاستشراق والتبشير خطوات فى مجال إحياء هذا الفكر الوثنى من جديد، وربطه بالفكر الغربى الذى تنقل بين الفلسفة المدرسية والفلسفة المثالية إلى الفلسفة المادية ، ونقل كل هذا الفكر اليونانى القديم والغربى الحديث إلى أفق الفكر الإسلامى لتزييفه وتدميره وتحطيم مقوماته.

لقد تولت الماسونية الطامعة فى تدمير (الجوييم) وإعلاء شأن عبادة العجل الذهبى، وإقامة حكومة الربا العالمية فقادت هذه الدعوة فى سبيل العمل على سيطرة الصهيونية وإقامة مفاهيم التلمود فى مخطط مرسوم لهدم كل النظم الإسلامية وإقامة هيكل سليمان.

وكان طابع هذا الفكر المتحول (الوثنى المادى) دعوة إلى الاندفاع وراء أهواء النفس والمطامع والتحلل والترف واستعلاء العنصر الأبيض على كل العناصر، والإيمان بضرورة السيطرة وفق قانون العبودية البشرية التى قامت عليها الحضارات القديمة ، والاندفاع وراء الغايات المادية والإباحية، فلم يكن من الممكن أن يقدم هذا المفهوم الذى تعتنقه الحضارة الغربية التى زحفت وسيطرت وامتلكت الثروات واستنزفت ونهبت خلال أكثر من أربعة قرون ثروات المسلمين من خلال تقديم منهج زائف يستمد مفاهيمه من ميكافيلى ، والبرجماتية والاستعلاء العنصرى.

ومن هنا فقد كان هذا الفكر البشرى حصاد الهشيم وقبض الريح.

ومن هنا نشأت هذه النظريات المسمومة التى أريد لها أن تحاصر الإسلام وأن إن استطاعت.

لقد عمد الغرب إلى صهر الإسلام وفكره ومعرفته فى بوتقة الوثنية والمادية والإباحية من خلال تقديم مفاهيم الفلسفة المادية التى سيطرت على المذهبين الاقتصاديين: الرأسمالية والماركسية.

وقد بدأ ذلك كله من نقطة واحدة هى نظرية دارون ومفهوم التطور البيولوجى الذى انتهى إلى التطور الاجتماعى حتى أصبح قانونا ثابتا: هو التحول إلى مالانهاية، وإنكار الثوابت عامة ومهاجمة القديم والماضى والتراث (واعتبر الدين من القديم)•

وجرت الدعوة إلى الدهرية، وإلى أن الكون موجود بنفسه أزلى لا ينتهى، وجرت الدعوة إلى الحرية المطلقة وإلى المسئولية الجماعية.

وحملت الدعوة إلى التقدم مفهوما ماديا خالصا.

وحملت الدعوة إلى العقلانية مفهوما مجردا بينما يقدم الإسلام مفهوما جامعا بين العقلانية والوجدان.

وطرحت نظرية النسبية التى تقول بأن الأخلاق من عناصر المتغيرات حسب الأزمات والبيئات بينما يقرر الإسلام أنها من الثوابت التى لا تتغير.

وكان أسوأ ماقدمه الفكر الغربى مفهومه للألوهية وهو على مختلف وجوهه ناقص مضطرب يعجز عن الفهم الحقيقى الذى قدمه الإسلام

﴿وماقدروا الله حق قدره﴾.

وكان إنكار الصانع وإنكار الوحى وإنكار الغيب وإنكار الآخرة علامة على اضطراب هذا الفكر وعجزه عن العطاء.

وكان أخطر مفاهيم الفكر البشرى اضطرابا هو مفهومه للإنسان حيث ادعى أن الإنسان صانع نفسه ، وأعلى شأن الجنس والعرق والدم.

وكان مفهومه للكون مفهوماً خاطئا ومضطربا حيث ادعى أن الكون موجود وباق، وأنه قادر على الحركة الذاتية، وأنكر وجود الخالق تبارك وتعالى وقدرته وأنه يمسك السموات والأرض أن تزولا.

وكان التفسير المادى للتاريخ من التصورات الفاسدة.

وأسوأ منها تطبيق منهج العلوم التجريبية على العلوم الإنسانية والاجتماعية.

وكانت مفاهيم دارون وفرويد وماركس وسارتر ودوركيم كلها مضطربة، وقد ثبت فسادها وعجزها، فقد قامت فى الأغلب على الأساطير القديمة ، مثل نظريات التوتم وعقدة أوديب، وكان مفهوم الطبيعة بديلا عن الله تبارك وتعالى علامة على اضطراب هذا الفكر وفساده حيث إن للطبيعة خالقا ومحركا هو الله تبارك وتعالى.

وكان مفهومها للنفس الإنسانية باطل وزائف، حيث ادعى الفلاسفة أن النفس بعد اتصالها بالبدن أصبحت مثل سجين مقيد بالسلاسل، وكذلك فقد قدم الفكر البشرى سموما تحت عنوان نظريات ومفاهيم اللاأدرية، المادية التاريخية، العدمية، العبثية، الدهرية.

ولم يتوقف الأمر عند ذلك بل لقد ذهب الاستشراق والتغريب إلى تقديم خلاصات السموم القديمة التى كشف الإسلام عن زيفها عند ترجمة الفلسفات اليونانية الفارسية والهندية ، وكانت نظرية الشك الفلسفى هى أخطر هذه النظريات.

كما طرحت نظريات الأفلوطينية والغنوصية، ونظريات الفيض والعقول العشرة، والصدور، ومنطق أرسطو، والعالم من نور وظلمة كما يقول المانوية ، والفلسفة البوذية والتناسخ ، والفكر الباطنى والبرجماتى والتجسيم ، كذلك الجبرية والحتمية، وإحياء أساطير الغصن الذهبى، فضلا عن وحدة الوجود فضلا عن المدرسة الإشراقية.

وقد كان هذا الخليط المضطرب كبير الأثر على عقيدة المسلمين ممن لم تكن لهم خلفية عميقة فى مفاهيم الإسلام فضلوا وأضلوا، وقد جاءهم العلم، بغيا بينهم دفعا إلى الإلحاد والزندقة.

لقد قدمت الفلسفات القديمة والمادية والباطنية مصطلحات ومفاهيم لم يعرفها الإسلام فى منهجه الأصيل (القرآن والسنة).

ولقد كانت التعبئة خطيرة وضاغطة ، ولكن المسلمين استطاعوا معرفة أبعاد المؤامرة وكشفوا زيفها وردوا على الأخطاء ودحضوا الشبهات.

وكانت نظرية التطور التى هى قاعدة هذا النظام كله قد تبين فسادها وانهيارها كما انهارت نظرية التفسير المادى للتاريخ وأعلن فساد منطق أرسطو وتحليل فرويد.

وتبين أن التشاؤم الذى هو طابع الأدب الغربى إنما جاء نتيجة نظرية الخلاص المسيحية و النجاة من الخطيئة والألم فى البوذية والمسيحية، ويكشف منطق القرآن على

يدى ابن تيميه ردا على منطق أرسطو، وأكد المسلمون أن للمعرفة أربعة أبعاد وليست ثلاثة، وأن أهمها الوحى وأن الحرية المنضبطة هى الحرية المقبولة فى الإسلام وليست الحرية المطلقة.

لقد طرح النفوذ الأجنبى فى أفق الفكر الإسلامى حصاداً مختلطا من الفكر اليونانى والرومانى والمسيحى والغربى والباطنى الشرقى ، وذلك لخلق الشبهات وزلزلة النفوس وإثارة الريب فى القلوب (وهذه هى الموجة الثانية بعد موجة عصر المأمون).

ويخشى أن تهدف هذه المحاولة إلى تقديم مفهوم للإسلام مفرغ من مضمونه الصحيح للالتقاء فى منتصف الطريق مع فكر الغرب المعاصر الوثنى الإباحى.

ولذلك فنحن مطالبون بأن نقف فى وجه هذه الموجة وأن نكشف فساد هذا الاتجاه الزاحف، وهذا ماتقوم به الآن الصحوة الإسلامية التى كشفت عدة حقائق:

- كشفت فشل الإيديولوجيتين اللبيرالية والماركسية .
- كشفت فساد القانون الوضعى وعجزه عن العطاء الحقيقى.
- فشل النظام التربوى العلمانى.
- كشفت فساد النظام الربوى الذى يقود الاقتصاد العالمى.
- فساد ظاهرة القومية المستعلية بالعنصر، والتى كانت محاولة لتحطيم الوحدة الإسلامية.
- خطأ نظرية الوحدة البشرية التى يراد فرضها على المسلمين بتدمير خصوصيتهم.
- فساد فكرة فصل الروحية عن المادية وإعلاء المادية.
- فساد فكرة تطوير الدين ، وتطوير الشريعة وتطوير اللغة.
- خطأ استبعاد البعد الأخلاقى فى الفلسفات الغربية السائدة.
- إخفاق الفلسفات المعاصرة فى كسب ثقة الإنسان المعاصر.
- فساد مفهوم العلمانية وانهيارها.
- فساد نظرية التفسير المادى للتاريخ.
- إثارة الخلاف بين الدين والعلم وبين العروبة والإسلام، وبين التراث والعصر.

ـ تقديم مفاهيم مادية منفصلة عن قاعدة تكامل الإسلام كمفهوم التقدم المادى.

ـ إنكار الوحى والنبوة والغيب وإحلال مصطلح الطبيعة بديلا عن الله تبارك وتعالى.

ولقد كان لتكشُّف هذه الحقائق الدامغة أثرها الحاسم فى انهيار مشروع التبعية الذى يراد فرضه على المسلمين، وهزيمة الطروحات الغربية فى أفق الإسلام بعد هزيمة النظام الغربى (بشقيه) فى بيئته الأصلية، وكان لسقوط الشيوعية أخيرا دليل جديد على عجز الفكر البشرى عن العطاء.

فقد قام هذا الفكر على أساس العنف والنهب والاستعلاء، ولم يستطع أن يقدم للعالم نموذجا حضاريا يرتقى بعلاقات الانسان بأخيه الإنسان.

وقد نما النموذج الأوروبى للحضارة فى ظل السيطرة على العالم ونهبه، وقد قدم الفكر البشرى دعوات مضللة ثبت فسادها (تحرير المرأة ـ الانفجار السكانى ـ الفلكلور وإحياء التراث الزائف) والواقع أن مايثيره التغريب والغزو الفكرى (من خلال طرحه مفاهيم العلمانية والتفسير المادى للتاريخ) لا يصمد أمام حقيقة الإسلام الجوهرية وتكامله بين الروح والمادة وقدرته الفائقة بمرونته الباهرة فى الاستجابة والالتقاء مع المجتمعات فى مختلف ضروبها والعصور فى عديد مراحلها، والواقع أن منهج الإسلام هو منهج متميز مستقل له ذاتيته الخاصة منذ بزغ فجره، وأنه كان شديد الحرص على ألا ينصهر فى أى منهج آخر مهما بدا له من بريق شديد يخطف الأبصار.

ولقد كان أكبر مجاهدات علماء المسلمين على مدى العصور: هو الحفاظ على استقلالية المنهج الإسلامى وخصوصيته، وكان موقفهم من كل فكر هو موقف الحرص الشديد فإذا أخذوا تنظيمات صهروها فى بوتقة فكرهم دون أن يكون لها مظهر واضح يغير طابعه الأصيل.

ويتميز الإسلام بميزة جمعه بين العناصر التى تبدو متعارضة فى الفكر البشرى أو متصارعة لأنه يجمع بين طرفى الأمر: قبضة الطين ونفخة الروح.

ففيها التكامل الذى ينقص الفكر البشرى الذى يقوم على المادة وحدها. ومن هنا فنحن فى حاجة إلى الكشف عن هذه الزيوف من أجل تحصين الفكر الإسلامى من محاولة الاحتواء الغربية.

ولقد أتيحت الفرصة فى العقود الأخيرة لاكتشاف كثير من خيوط هذه المؤامرة

الغربية، وأهمها وثائق التبشير ومخططاته التى جمعها السيد محب الدين الخطيب فى كتابه (الغارة على الإسلام) و(بروتوكولات حكماء صهيون) وكتاب (أحجار على رقعة الشطرنج) وكتاب (لعبة الأمم).

ومازال خطة تزييف تاريخ الإسلام لحساب القوى المتسلطة (الصهيونية والشيوعية والغرب) من الأعمال الضخمة التى قام بها الاستشراق الغربى المسيحى واليهودى.

ولقد كانت الخدعة الكبرى هى فرض مفاهيم التوراة على التاريخ، وفى مقدمة ذلك فكرة (السامية) التى وضعها باحث يهودى لتكون بديلا عن الحنيفية الإبراهيمية التى استمدت مفهومها من الدين المنزل، ثم دعاوى أخرى تحاول أن تخضع تراث إبراهيم عليه السلام كله لأبناء إسحق دون أبناء إسماعيل.

ومازال قوى التغريب والغزو الثقافى تصب سمومها فى أفق الفكر الإسلامى، وتفرض قضايا ساذجة وأطروحات ملغزة ومسائل فرعية لتملأ الساحة بكلام ولغو هو مقصود لذاته حتى لا ينفسح الطريق للكلمات الأصيلة ، وهناك من يطرح الفكر المادى الغربى فى محاولة للإيهام بأنه هو المنطلق الحقيقى للمسلمين والعرب.

وهناك من يدعو إلى مايسمى بالحداثة عن طريق تقديم الشعر الحر والقصة المكشوفة من خلال إحياء الأساطير القديمة.

وهناك أعداء الشريعة الاسلامية وأعداء القرآن واللغة العربية ودعاة المفهوم الإقليمى والقومى والطائفى بعد أن انكشف فساد هذه الدعاوى.

ولقد تواطأت على الإسلام جماعات اليهودية والبهائية والمجوسية والبوذية والصليبية يحملون الفكر الإلحادى والإباحى مغلفا بزخارف تدعى العلمية، فى محاولة لتمزيق وحدة الوطن الإسلامى السياسية والثقافية، وجندت لذلك الأسلحة الظاهرة والخفية، وفتحت الثغور الإسلامية لإرساليات التبشير والبعثات العلمانية.

ولما عجزت دوائر التنصير عن تنصير المسلمين عمدت إلى اختلاق أفكار هدامة تتزيا بالإسلام ظاهرا لتقويض دعائم الإسلام من داخله على أيدى أبناء المسلمين مثل

البابية والبهائية والقاديانية وجمعت لذلك الأموال والرجال والسلاح، ونشرت ذلك بالقوة ومازال قوى النفوذ الأجنبى ترعاها فى عقر دارنا، وتبنى لها المعاهد فى الغرب، وتمهد لها الطريق إلى البلدان التى تخضع حكوماتها لنفوذها المعنوى مستغلين بعد هذه الحكومات عن الإسلام، ومايجرى فى نيجريا والفيلبين وأندونيسيا بعض ذلك حيث تريد القاديانية أن تقطع الطريق على الإسلام الذى ينتشر بسرعة بين الوثنيين.

إن الهدف كما كشفت عنه كثير من الوثائق هو:

إخراج المسلمين من ذاتيتهم باسم المعاصرة، وإخراج المسلمين من قيمهم باسم التحرر.

إنهم يعملون على تسميم العقل الإسلامى بالفلسفات المادية والمذاهب الوافدة، وغرس قيم دخيلة وإعلائها على القيم الأساسية مع إحالة القيم الأساسية إلى مستوى القيم الفرعية.

ومايخشاه أصحاب الفكر البشرى المادى اليوم هو أن يكون سقوط الفكر الشيوعى الإلحادى مقدمة لسقوط مجمل الأفكار المادية والإلحادية فى الغرب، ونقطة انطلاق جديدة للبشرية نحو التوحيد والخضوع لله الواحد القهار، بعد أن أرهقتها الفلسفات المادية المدمرة التى اقتصرت على نزوات الجسد، وكذلك بعد أن فقدت الكنيسة دورها فى المجتمعات الغربية.

ولكن علامات الفجر الصادق تقترب مهما تجمعوا على مؤامرة جديدة.

سموم الفكر البشرى

جاء الإسلام ليقضي على الفكر البشرى الزائف ، ويكشف عن أخطائه وفساده، ويقدم مفهوم التوحيد الخالص **﴿ليظهره علي الدين كله﴾**.

ولكن الفكر البشرى (يونانيا ومجوسيا وهندوكيا وفارسيا) لم يلبث أن خلط نفسه باليهودية والمسيحية وسيطر عليهما.

ثم جاءت بعد ذلك المرحلة الخطيرة : حيث ترجم هذا الفكر البشرى (الوثنى المادى) كله وطرح فى أفق الإسلام مرتين:

المرة الأولى: فى عصر المأمون حيث واجهه الشافعى وابن حنبل والغزالى وابن تيمية وأدالوا منه ونقضوه، وقدموا وجهة النظر الاسلامية الصحيحة فى كل القضايا التى أثارها هذا الفكر.

ثم جاءت **المرة الثانية:** اليوم مع سيطرة النفوذ الأجنبى على بلاد المسلمين، حيث أعيد طرح سموم الفلسفات البشرية القديمة فى أفق الإسلام ، وقدم معها ماصار إليه هذا الفكر فى مرحلته التالية فى الغرب بعد أن تحول إلى المسيحية، ثم سيطرت الفلسفات القديمة وأنشأت فلسفات ومذاهب أخرى من خلال مراحل الفلسفة المسيحية، الفلسفة المثالية، الفلسفة المادية على النحو الذى نجده اليوم، والذى أدخل إلى مفاهيمنا ومدارسنا وجامعاتنا حيث ألقى إلى أبناء المسلمين أن هذا هو العلم، وإنه هو الحقائق المجردة، بينما لم تزد هذه النظريات المسمومة عن أن تكون وجهات نظر وفروضا قابلة للصحة والخطأ.

ولما كان هذا الركام من تراث الفكر البشرى قد انهار اليوم تماما، وتحطمت نظرياته تحت أضواء الحقائق الإلهية والفطرة والعلم الصحيح، فقد كان لابد من تقديم هذه الصورة حتى يثق شباب الإسلام أن هذا الفكر زائف ومبطل وفاسد، وأن مايقترب منه مع مفهوم الإسلام ففى الإسلام الغناء عنه، وماهو غير ذلك فلا حاجة للمسلمين به.

أولا: سموم الفكر اليوناني

قامت الحضارة اليونانية على تعدد الآلهة، بينما قامت الحضارة الاسلامية على التوحيد الخالص صادرة عن كتاب سماوى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وضع للحياة والعقيدة أسسا راسخة تختلف اختلافا جذريا مع الفكر اليونانى فى أبرز معالمه.

أول هذه الفوارق: قيام الحضارة اليونانية على أساس العبودية والرق حيث يعتبرهما أساسا لا يجوز التخلى عنه.

بينما يقوم الإسلام على أساس تحرير الإنسان من العبودية وتحرير عقله وقلبه من الوثنية.

وثانيها: فساد مفهوم الألوهية وهو أكبر أخطائهم ، حيث ينفون وحدة الذات الإلهية وقدرتها وحكمتها وعدلها **﴿تعالى الله عما يقولون علوا كبيرا﴾**.

كما يقوم فى الفكر الشرقى على وحدة الوجود بمفهوم الاتحاد بالله والفناء فيه.

ويرى أرسطو رأيا مضطربا جرد فيه الله تبارك وتعالى من كل شئ، فهو عنده المحرك الذى لا يتحرك، وأنه مفارق للعالم لا يعنى به ولا يعلم عنه شيئا.

وهو مفهوم مختلف تمام الاختلاف مع مفهوم المسلمين الذين يرون أن الحق تبارك وتعالى هو الفاعل الأول والمحيط بكل شئ علما، وأنه هو الذى يدبر هذا الكون ويمسكه ويصرف أمره، وقد صان العلماء المسلمون نظرتهم إلى وحدانية الله تبارك وتعالى وتنزيهه عن ملامسة المادة وحرصوا ألا يقعوا فى هوة مذهب وحدة الوجود الذى لايفرق بين الله والعالم.

ثالثها : فساد مفهومهم للإنسان، فهم يرون أن الإنسان وجد اتفاقا وأن الموت لا حشر بعده وأن العالم كله من عمل الصدفة.

ويرون أن السعادة الزمنية هى الخير الأعظم، وأن اللذة هى الغاية من الحياة الدنيا، وأن الإنسان ليس مكلفا باتباع الفضيلة.

وقد فتحت هذه المفاهيم أمام المسلمين عندما ترجمت الفلسفة اليونانية أبواب

الفساد والشر فقد اعتبرها بعضهم منطلقا إلى الاندفاع نحو الترف والاستسلام للذات والرذائل.

رابعها: فساد مفهوم أفلاطون وشيوعية المال والنساء والأولاد، حيث يرى أن تكون جميع النساء حقا مشاعا للحكام وأنه يجب ألا يعرف والد ولده ولا مولود والده.

ويقرر أفلاطون وأرسطو شرعية الرق، وأن هؤلاء العبيد يجب أن يظلوا فى موقع العبودية ولا يحق لهم أى مطمع فى الحرية، ويختلف هذا عن مفهوم الإسلام تماما الذى جاء دعوة الى تحرير الرقيق. ويجرد أفلاطون الفرد من قيمته الفردية ليجعل منه أداة مسخرة لخدمة الدولة ويصهر كيانه فى جهازها الكبير.

كما يجرد أرسطو الفرد من حريته ويرى أن السادة لا يجوز استرقاقهم لأنهم جمعوا بين الروح العالية والشجاعة ، وعلى الأعلى أن يبسط نفوذه على الأدنى، كما أن على الأدنى أن يخضع للأعلى ويطيعه.

وعنده أن الحر حر رغمماينزل به من عسف وعبودية والعبد عبد رغم مايحققه من نصر.

خامسها : فساد مفهوم تقديس العقل الذى يستعلى عند اليونان.

سادسها : فساد مفهوم الأخلاق اليونانى، فأخلاق اليونان أخلاق سعادة ، حيث يرون أن المطلب الأسمى للإنسان هو السعادة ، فالسعادة بمفهوم اللذة والترف، والإباحة، هى الغاية القصوى للحياة. وقد فصل أرسطو الأخلاق عن العقيدة وجعلها فلسفة نظرية بينما هى فى الإسلام مستندة إلى العقيدة.

سابعها : فساد المثل الأعلى اليونانى القائم على أن الإنسان هو مقياس كل شئ فى العالم، ويتحدد تميزه بكمال الأجسام والجمال والأناقة، حيث أعلنوا تمجيد الجسم الإنسانى الذى هو وعاء الوجود فى نظرهم ، وأعلنوا تأليه الجمال الجسمى.

وهذا المفهوم لا يقبله الإسلام الذى يرى أن عمل الإنسان الصالحات هو مقياس فوزه ومرضاة الله تبارك وتعالى عنه.

« إن الله لا ينظر إلي صوركم ولا أجسامكم وإنما ينظر إلي أعمالكم » .

وقد عارض علماء المسلمين مفاهيم الفكر البشرى العامة بعد ترجمة الفلسفة اليونانية والفارسية والهندية ، وكشفوا عن تباينها أشد التباين مع روح الحضارة الإسلامية ، فقد قامت الحضارة الإسلامية أساسا على القرآن والسنة ، ولذلك رفضت مقولات الفكر الهلينى والغنوصى والمجوسى. حيث رفضت:

١ـ التماثيل والصور. ٢ ـ رفض الإلهيات وتعدد الإلهة.

٣ ـ رفضوا آراء أرسطو فى الله تبارك وتعالى ٤ ـ أصلح المسلمون نظام بطليموس، وكشف جابر بن حيان والجاحظ عن أكبر أخطاء أرسطو، كما كشف علماء المسلمين أخطاء أفلاطون وأبقراط وإقليدس.

❑❑❑

وخالف الإمام الغزالى فلاسفة اليونان وغيرهم فى ثلاث مسائل:

١ ـ قدم العالم ٢ـ أن الله لا يحيط بالجزئيات ٣ ـ إنكارهم بعث الأجساد.

وعارض كل مايصطدم بالشرع، وقال: أعارض الطبيعيين الذين قالوا بأن النفس تموت ولا تعود، وأنكروا الآخرة والثواب والعقاب، كما عارض فلاسفة الدهرية والزنادقة الذين قالوا أن العالم لم يزل موجوداً، وأعلن موقف الإسلام من الطبيعة، فالطبيعة مسخرة لله تبارك وتعالى لا شئ فيها يعقل بذاته عن ذاته، كما كشف عن أن المادة أزلية ومخلوقة معا، وأن العالم محدث بدأ فى زمن معين، وأن الله تبارك وتعالى هو صانع المادة والعالم، وأن علم الله محيط بكل شئ.

كما كشف علماء المسلمين أن اليونان لم يكونوا صانعى هذا الفكر البشرى ، وإنما كان ذلك تراث المصريين والكلدان والفرس ، وأنه مر بمراحل متعددة من التلاقح والتفاعل والتطور ، وقد شهد بذلك وول ديورانت (قصة الحضارة)، إن ماورثه اليونان أكبر مما ابتدعوه ، وقال جورج سارطون (تاريخ العلم) إن المعجزة اليونانية قد سبقها آلاف الجهود العلمية فى مصر وبلاد مابين النهرين ، وأن العلم اليونانى كان إحياء أكثر منه اختراعا.

ومع ذلك فهم لم يعرفوا طريق التجريب ، وكان عملهم مقصورا على التمثل والتجريد الفلسفى.

وقد كان للفلسفة اليونانية الأرسطية أثرها البعيد على الديانتين السابقتين للإسلام: اليهودية والمسيحية ، فقد طبق موسى بن ميمون الفلسفة الأرسطية على اليهودية، كما طبق توماس الإكوينى الفلسفة الأرسطية على المسيحية.

أما الإسلام فقد عجزت الفلسفة اليونانية عن احتوائه إلا بقدر الأثر الذى وقع فيه الذين جروا وراء مظهرها البراق ، وخدعوا بها قبل أن تكشف أقلام الشافعى وابن حنبل والغزالى وابن تيمية عن مخاطرها وفسادها، وقد تبين فساد كل محاولات الفلاسفة المشائين أمثال (الفارابى) و (ابن سينا) فى التوفيق بين الفلسفة اليونانية، وبين مفهوم الإسلام، وقد تجاهلوا الفوارق العميقة بين دعوة الإسلام إلى تحرير العقل البشرى من الوثنية وتحرر الإنسان من العبودية ، وبين قيام الفكر اليونانى على أساس العبودية والرق.

وكان المأمون قد فتح الباب واسعا أمام الفلسفة اليونانية واحتضن مفهوم (خلق القرآن) فراج الباطل، وهبت الرياح الصفراء من وراء هذه الإباحية التى تحمل فى طياتها جراثيم المذاهب المختلفة والنحل المتعارضة الدخيلة، فلم تلبث الدولة إلا قليلا حتى حطت عليها جحافل المغيرين من التتر و المغول فقوضت دعائمها، وكان تناول العرب للفلسفة اليونانية وغير اليونانية طالع شؤم ونذير سوء وإيذانا بزوال ملكهم.

وقد انتشرت مذاهب الإلحاد والتحلل واللاأدرية ووحدة الوجود ونفذت من خلال كتابات الكتاب وشعر الشعراء ، ووقف الإمام أحمد بن حنبل ستة عشر عاما يدافع عن القرآن ودعوى أنه مخلوق.

ولقد توجهت جهود علماء المسلمين إلى نقد الفكر اليونانى ، وفى مقدمتهم أرسطو والمنطق، وقد سبق المسلمون فى هذا روجر بيكون ورامبوت وفرنسيس بيكون، وكان ابن تيمية فى قمة هذا النفر الذى فند الأسس العقلية المجردة لمنطق أرسطو، فرفض القول بالكليات والمفاهيم العامة المجردة، وجعل من المحسوسات والجزئيات أساسا للمعرفة ، وانتهى إلى تحديد ملامح المنطق الإسلامى الخاصة.

وهكذا فإن الفكر الإسلامى قد رفض المنطق الأرسطى الذى يقوم على القياس والاستدلال، وأقام منطقا جديدا أكثر تعبيرا عن خصائصه، هو المنهج الحسى التجريبى.

واعتبر الكندى والفارابى وابن سينا وابن رشد مجرد شراح امتداداً للروح الهلينية، أما العلماء المسلمون فهم الأصوليون والفقهاء والعلماء الكيمائيون والطبيعون.

وأعلن ابن تيمية عبث محاولة الفارابى وابن سينا وعقم تجربة التلفيق عندهما بين الاسلام والأفلاطونية المحدثة.

كما رأى أن هدف التلفيق هو هدم الإسلام من الداخل، كما هاجم ابن تيمة المتكلمين، واتهمهم بمخالفة الكتاب والسنة، وكشف عن ضعف أدلتهم. وأقام ابن تيمية العقل فى ضوء الوحى وقال:

«إن صريح العقل لا يمكن أن يكون مخالفا لصحيح المنقول»، ورفض ماقرره البعض من تقديم العقل على النقل إذا تعارضا، إذ من يدعى خلاف ذلك فقد قدح فى الرسول.

وقال ابن تيمية إن منطق أرسطو يمثل خصائص العقلية اليونانية التى تباين العقلية الإسلامية تماما، فالعقلية اليونانية يسيطر عليها الطابع النظرى فى التفكير، وعندهم أن العلوم النظرية أشرف من العلوم العملية، بينما الإسلام رفع من أوضاع الحياة العملية، ومن ثم نشأت العلوم الإسلامية تبعا لحاجات الحياة والمجتمعات.

وهذا يعنى أن لكل ثقافة خصائصها الذاتية، ويعنى اختلاف خصائص الثقافة الإسلامية عن ثقافة اليونان.

وأكد ابن تيمية أن التسليم بمنطق اليونان باعتباره منهج ثقافتهم يقوض أساس الحضارة الإسلامية، إذ سيلزم عند ذلك إيجاد أحكام عامة تهدم مابناه المسلمون من أحكام ولاسيما فى نطاق الإلهيات.

❑ ❑ ❑

ولم يتوقف جهد علماء المسلمين عند معارضة أرسطو والفكر اليونانى بل شمل توجههم الفكر البشرى كله، وفى مقدمته الفكر الهندى : فكر حدسى قاصر على جانب واحد ، وقد نكب منذ البداية بمذهب وحدة الوجود ، وأتلفته أوهام الكشف والذوق، كما يقول دكتور عبدالرحمن مرحبا (والخلاصة أن التفكير الهندى قد حطم الإنسان وهو يدعى تأليه الإنسان).

أما نظرية النيرفانا فهى خدعة من خدع البرهمية والبوذية، حيث تقدم التأمل الخالى من كل مضمون حتى يفنى فى نفسه، وتغيب عن ذكره وفكره كل الرسوم والصور .

يقول بوذا : كل شئ فارغ ، والكل لا جوهر له، لا شئ موجود ، الكل يصير، الكل فى صيرورة بغير جوهر.

هذا هو لب مذهب بوذا.

ومن هذه المفاهيم، ومفاهيم الأفلاطونية المحدثة، نشأت أفكار الإشراق ووحدة الوجود والحلول وغيرها، التى رددها بعض دعاة التصوف الفلسفى (ابن عربى ـ الحلاج ـ السهروردى . إلخ).

وقد التحمت الإشراقية بالفكر الباطنى، وكان امتداد هذا الفكر فى جماعة من الباطنية الغالية: ابتداء من ابن سينا إلى نصرالدين الطوسى، وقد امتدت هذه المدرسة فى إيران إلى منتصف القرن التاسع عشر.

ويرجع (كوربان) المذهب الإشراقى إلى اصول فارسية قديمة ، وكان تأثير الفلسفة الإغريقية بعيد الأثر فى تزييف مفهوم الأخلاق فى الإسلام، فقد كانت كتابات ابن مسكويه وابن عربى وغيرهم فى الأخلاق مستمدة من النظرية اليونانية ، وليست مستمدة من القرآن والسنة حتى جاء الدكتور محمد عبدالله دراز فى العصر الحديث.

❑❑❑

وهناك تأثيرات الفكر المجوسى الفارسى القديم التى تمثلت فى كتابات ابن المقفع الذى يسمى (روزبة) وقد كان من أكبر المروجين للفلسفة الفارسية فيما قدمه للقضاء على نظام الإسلام الاجتماعى فى كتاب (مزدك)، ثم كتاب (بروزويه) الذى يفتتح به كتاب كليلة ودمنة، ليثبت تناقض الأديان وبخاصة الإسلام وعدم يقينيتها، ومايظهر له من تناقض، بينما يؤكد يقين الفلسفة ووصولها الى الحق المطلق، ثم قدم أو دفع ابنه محمد بن عبدالله بن المقفع ليقدم أول ترجمة لعلم ظن أنه الصورة الكبرى.

فإذا أعلن المسلمون أن كتابهم المقدس لايأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، أشار لهم إلى باب (بروزيه) الذى يقرر خطأ الكتاب وتناقضه، وأن طريق الفلسفة هو

طريق اليقين، ثم يدعم هذا كله بصورة المنطق الأرسطاطليسى البناء المتكامل اليقينى فى نظره.

لقد غرس روزبة الفرس أول ثمرة، فنشأت مجامع الغنوص الخطيرة على أثر روزبة، كما تناول المنطق متفلسفة ظهروا فى الإسلام ومجدوه ورفعوه فوق كل يقين، وحاولوا مزجه بكل علم إسلامى، ولم تكن الجماعة الإسلامية غافلة عن كل هذا، فسرعان ماتناولت المنطق الأرسطى بالدراسة والتمحيص فمزقته كل ممزق، وأنشأت نهجها، وإن خلفاء (روزبة) كثيرون فى عصرنا، وقد تعددت أشكالهم وتنوعت صورهم، ولكنهم جميعا نسخ مشوهة لابن المقفع، وقد فشل ابن المقفع من قبل وهم أيضا فاشلون.

❑ ❑ ❑

أما قضية الترجمة فقد كانت بعيدة الأثر فى اضطراب هذا الفكر المنقول، وكان الذين قاموا به يدخلون مفاهيم أديانهم إلى الفلسفة ويصبغونها بصبغته، وخاصة السريان، وكان القسم الأكبر من النقلة من السريان والأقل من اليهود، وقد نقلوا مانقلوه إما عن التراجم السريانية القديمة ، وإما عن اللغة اليونانية رأسا، وكانت الترجمات تمثل تكسبا للمال لا حبا للعلم ، وكان لنقلة السريان أهواؤهم الخاصة.

وكانت الترجمة من لغة اليونان إلى العبرانية ومن العبرانية إلى السريانية ومن السريانية إلى العربية قد أخلت بخواص المعانى فى أبدان الحقائق إخلالا لا يخفى على أحد.

وأكثر النقلة (كما يقول الدكتور عبدالرحمن مرحبا) لم يكن غايتهم البحث فى الحقيقة، فهم إذا كانوا جلهم من النصارى النساطرة واليعاقبة فقد كان أكبر همهم الدعوة إلى شيعتهم، وتزيين أهوائهم الدينية، ولذلك كانوا يغيرون ويبدلون فى النصوص التى بين أيديهم خدمة لأغراضهم الدينية وعقائدهم بالزيادة والحذف، تبعا لأهوائهم. كذلك فقد نقلت كتب باسم أفلاطون إلى العربية، وهى ليست له ، وكذلك نقلت كتب باسم أرسطو وهى ليست له.

وكان لهذه الكتب تأثير ضار كبير على الفكر الإسلامى ، وكانت أزمة الفارابى تتركز فى محاولته التوفيق بين آراء لأرسطو تعارض آراء أخرى له، إذن لابد أن كتابا

من الكتابين منحول، والحقيقة أن الفارابى كان يعارض بين نصوص تلقاها من كتاب الحروف (الميتافيزيقيا) لأرسطو ونصوص أخرى تلقاها من كتاب (أثولوجيا) والأولى نصوص حقيقية لأرسطو، أما الأخرى فهى ليست له، ولم يكن الفارابى على علم بذلك فأخذ يحتال تعسفا للتوفيق بين الآراء المتناقضة.

منهج الإسلام يدحض الفكر اليونانى

جاء منهج الاسلام ليدحض الفكر اليونانى ويضع القيم الأساسية لمجتمع الإيمان والرحمة والتقوى، الذى سرعان ماتشكل فى أقل من ثمانين عاما حيث أخذ العالم يفكر بعقلية القرآن ويكتب بقلمه ويؤلف بلسانه.

١ـ كانت القضية الأولى هى: تحرير عقل الإنسان وتفكيره وتحطيم الأغلال المتراكمة الموروثة عن الأجيال الماضية التى عزلت العقل عن تفكيره، والقلب عن إحساسه، فهو يخاطب العقل ويدعوه إلى التأمل والتفكير كما يخاطب القلب والضمير.

٢ـ أكد الاسلام الوحدانية لله تبارك وتعالى، حيث قدم أسهل العقائد وأبعدها عن التعقيد بالمراسم والطقوس، وأكثرها تحررا من الوثنية والكهنوتية، وأبطل القرآن سلطان الأحبار والرهبان والوسطاء بين العبد والرب، لم يفرض على الإنسان قربانا يسعى به إلى المحراب بشفاعة من ولى، فلا ترجمان بين الله تبارك وتعالى وعباده، فهو وحده الذى يملك التحليل والتحريم والمغفرة ويقضى بالحرمان أو النجاة.

٣ ـ يتوجه الخطاب القرآنى إلى عقل الإنسان حراً طليقا من سلطان الهياكل والمحاريب وسلطان كهانها وسدنتها.

وليس بين الكتب التى توصف بالقداسة وتنسب إلى السماء كتاب كالقرآن، يدعو أتباعه على الدوام إلى أن يكونوا أعزة أقوياء، ولم يفلح فى هذه الدعوة كتاب كما أفلح القرآن.

وقد علم القرآن أتباعه أن يواجهوا الحياة بواقعية ورباطة جأش لا مثيل لها فى الأديان والمذاهب، وحثهم على الإقبال على الدنيا والزهد فيها فى آن واحد فى توازن مدهش لا تفريط فيه ولا إفراط، وقد جاء القرآن بمجموعة من العقائد اليسيرة التى توافق العقل السليم، والبعيدة عن تعقيد الفلسفة، يجد فيها مايحول دون الفراغ الخلقى والخواء الروحى الذى خلقته الوثنية المحتضرة والعالم الذى أنهكته القوة والوحشية والظلم.

وجاء القرآن للإنسانية بالآمال والعزائم والمثل العليا.

والقرآن يدعو للإيمان بكل القوى الإنسانية: الغريزة والعقل والفطرة والاكتساب، ومن هنا كانت دعوة الإسلام صريحة فى أن العقل لا يمكن أن يستقل بمعرفة الله تبارك وتعالى ، ولا أن يهتدى إليه إلا إذا صحب فى تطوافه إلى تلك الغاية قلبا يتلقى عنه كل مدركاته، وقد اعتبر الفلاسفة العقل هو الأول واعتبر الصوفية القلب هو الأول، ولكن مفهوم الإسلام الصحيح يجمع بين العقل والقلب.

❑❑❑

كذلك فقد حدد القرآن مسائل مابعد الطبيعة (الميتافيزيقيا الإسلامية) تحديدا خاصا، وطلب عدم الجرى فيما خلفها، وأن يبحث المسلم فى الكون وآفاقه، ولكن لا يحاول أن يبحث فى الجوهر الذى لا يصل إلى حقيقته، فالبحث يكون فى الخصائص ولا يبحث عن الماهية، « **تفكروا في خلق الله ولا تفكروا في ذات الله فتهلكوا**» .

وقد قرر الإسلام قصور العقل الإنسانى عن التوصل إلى الشيء ذاته، وقد انتهى الإسلام إلى وضع الميتافيزيقيا وضعا ربانيا، ولم يترك للعقل مجالا للاجتهاد وحدد معالمها تحديدا كاملا، ونهى أشد النهى عن تجاوز تلك المعالم.

❑❑❑

وكان علم أصول الفقه هو منطلق العلم فى الإسلام، وعلم أصول الفقه يرمى إلى إدراك القوانين التى يتوصل بها إلى استنباط الأحكام الشرعية الفرعية.

وفى علم أصول الفقه صاغ المسلمون منهجهم فى البحث واكتشفوا فيه روح الإسلام العظيم، وحين اكتمل هذا العلم أصبح منهج البحث للحضارة الإسلامية.

وقد وضع قواعده الصحابة حين تكلموا فى نقد الأخبار، وعن القياس، وأضاف إليه التابعون بعد ذلك عناصر متعددة ثم وضعه الإمام الشافعى وتلاميذه فى صورته الكاملة.

والإسلام يجمع بين الدين والشريعة..

أما الدين فقد استوفاه الله تبارك وتعالى فى كتابه الكريم ولم يكل الناس إلى عقولهم فى شئ منه، وأما الشريعة فقد استوفى أصولها ثم ترك للنظر والاجتهاد فى الفروع، وقاعدة الاجتهاد ثابتة فى الكتاب والسنة فلا بد من إعمالها.

وقد وضع المسلمون المنهج الاستقرائى كاملا.

وأهم خصائص المنهج التجريبى الإسلامى أنه منهج إدراكى ، فقد أدرك مفكرو الإسلام تمام الإدراك أنه لابد من وضع منهج فى البحث يخالف المنهج اليونانى، حيث إن هذا المنهج الأخير إنما هو تعبير عن حضارة مخالفة وتصور حضارى مختلف، وقد ثبت ثبوتا قاطعا عدم قبول مفكرى الإسلام للمنطق ، الأرسطاطاليسى، ومحاربتهم له ونقدهم لجميع عناصره، وانتهت الفكرة القائلة بأن المسلمين أخذوا المنطق اليونانى واعتبروه منهجا لأبحاثهم.

وبذلك سقطت مقولة لطفى السيد وطه حسين وإبراهيم مدكور ومن وراءهم من اتفاق فلسفة أرسطو مع الفكر الإسلامى ، أو مقولة سيطرة منطق أرسطو على الفكر الإسلامى.

وقد نشأت علوم الطبيعة والفلك والطب والرياضيات من حساب وجبر وهندسة ومختلف العلوم فى ضوء المنهج التجريبى الإسلامى الذى اكتشفه علماء الفقه، وأوغل علماء المسلمين فى التجربة والتجريب وسادوا الحياة الإنسانية بهذا العمل إلى اليوم وإلى قرون قادمة.

❑❑❑

وفى هذا المجال يتكشف خطأ مقولة أن الفكر الإسلامى أخذ يتدرج وينمو شيئا فشيئا على مر الزمن، وذلك أن الفكر الإسلامى تكون أساسا من خلال القرآن الكريم والسنة الشريفة التى تمت باختيار الرسول للرفيق الأعلى ، وقد تشكل هذا الفكر قبل ترجمة الفلسفة اليونانية، وقد اعتمد القرآن الكريم فى طريقة الإقناع على

الفطرة لاعلى الجدل وخاطب فيهم عاطفتهم وعقولهم بعيدا عن مفهوم المنطق الأرسطى.

وهكذا حرر الإسلام التوحيد من الاثنينية والتعدد ، وحرر الأخلاق من وحدة الوجود والفلسفة الإشراقية ، وحرر العقائد من عبادة الأبطال.

وحرر الشرائع من عبادة القوة والمجتمع العبودى.

وبذلك جاء الإسلام فيصلا قاطعا بين عصر وعصر وعهد وعهد وفكر وفكر وحضارة وحضارة مختلفا تماما عن الفرعونية والإغريقية والفارسية والهندية.

وماقيل عن التوحيد عند الفراعنة أو الهنود أو غيرهم مختلف عن توحيد الإسلام.

وبالجملة فقد لفظ الإسلام منهج اليونان الفكرى (الأرجانون) وكشف زيفه ومعارضته لأبسط قواعد الإسلام، إذ كانت الروح الإسلامية تستمد مقوماتها من بيئة مخالفة وجنس مخالف وتصور حضارى مختلف، فنأى أشد النأى عن النظر فى العوالم اليونانية الفكرية من ميتافيزيقيا وفيزيقيا وغيرهما، وكان من المحتم أن يكون له منهج فى البحث مختلف أشد الاختلاف عن منهج اليونان، يستمد مقوماته من التوحيد الخالص.

أما المتكلمون والأصوليون الإسلاميون فإنهم لم يقبلوا المنطق الأرسطى على الإطلاق، وحاولوا إقامة منطق جديد بالكلية فى جوهره، وموقف فقهاء أهل السنة والجماعة من المنطق الأرسطى بل من المنطق اليونانى عامة موقف العداوة التامة، واصطنع بعضهم موقفا مقاوما وموقفاً إنشائيا.

ولم يكن من يسمون فلاسفة الإسلام إلا شراحا هم امتداد للعقل الهلينى أشبه بالشراح اليونان.

ووضع الإمام الشافعى علم الأصول: أول محاولة لوضع فهم أصولى عام يحدد للفقه الطرائق التى يجب أن يسلكها فى استنباط الأحكام، واعتبر علم الأصول بالنسبة إلى الفقه كاعتبار المنطق بالنسبة للفلسفة.

وألفت كتب كثيرة فى نقد المنطق الأرسطى:

ـ الدقائق لأبى بكر بن الطيب.

ـ الآراء والديانات لابن النوبختى.

ـ ابن حزم فى نقد منطق أرسطو.

ـ الغزالى والجوينى إمام الحرمين.

وقد جاء ذلك بعد أن أحدثت الفلسفة اليونانية آثارها البعيدة المدى، وماأحدثه تطبيق المنطق اليونانى على الأبحاث الإسلامية من مناقضات عدة ومن مخالفة لمفاهيم الإسلام فى التوحيد.

وقال الإمام الشافعى : إن هناك اختلافا عميقا بين خصائص اللغة العربية واللغة اليونانية.

وقال ابن تيمية : إن المنطق الأرسطى يقيد الفطرة الإسلامية بقوانين صناعية متكلفة فى الحد والاستدلال، وأن علماء المسلمين وصلوا إلى كل نواحى العلم من غير الاشتغال بالمنطق الأرسطى.

❑❑❑

ولا ريب أن العلة الحقيقية لنقد المسلمين للمنطق الأرسطى كانت لأن هذا المنطق يقوم على المنهج القياسى، لأن هذا المنهج هو روح الحضارة اليونانية القائمة على النظر الفلسفى والفكرى، حيث لم تترك الحضارة اليونانية للتجربة مكانا فى هذا المنهج، وهى إحدى ركائز الإسلام الكبرى ، وقد هاجم علماء المسلمين من حاولوا مزج المنطق الأرسطى بعلوم المسلمين دون أن يتثبتوا من التناقض القائم بين روح الإسلام والروح اليونانية.

وقال ابن تيمية إن خصائص المنطق اليونانى أنه منطق لغوى يستند إلى خصائص اللغة، فاعتماده على خصائص اللغة اليونانية يجعله مخالفا للمنطق الإسلامى الذى يعتمد على خصائص اللغة العربية.

❑❑❑

ولقد حاولت الفلسفة اليونانية أن تنشئ فى إطار الفكر الإسلامى قواعد وأسسا

أهمها: الاعتزال، والتصوف الفلسفي من خلال تقديس العقل في الأولى ووحدة الوجود في الثانية، ومايزال التغريبيون حتى اليوم يعتبرون هذه النتوء المغربة التي انهزمت وتحطمت من أسس الفكر الإسلامي، بينما ينكر المسلمون هذا الأثر ويتجاوزونه، ويرون أنه كان عاملا من عوامل الضعف والتخلف فقد غالى المعتزلة في تقدير العقل وأعطوه أكثر مما له.

وكان أكبر أخطائهم استغلال سلطان الخلفاء (المأمون والمعتصم والواثق) لسلب الناس حريتهم في التفكير بالدعوة إلى فتنة خلق القرآن وإكراه الناس على الإيمان بما لاتنطوي عليه صدورهم، ولقد كانت فتنة خلق القرآن نكسة في التاريخ العقلي بكل المقاييس.

وقد رد علماء المسلمين كل مادخل على الإسلام من:

(١) إلهيات اليونان وأخلاقهم.

(٢) عقائد الفرس.

(٣) الأفكار الصوفية الهندية.

وكانت الترجمة في المرحلة الأولى مقصورة على الكتب الطبية، وكتب الهندسة ثم انحرفت في عهد المأمون بانحراف المترجمين وانحراف الفلاسفة.

وقد رد الإسلام:

(١) وثنية الإغريق

(٢) سلبية التصوف الفارسي

(٣) عزلة الاتجاه الهندي

(٤) جدل الكلاميين من اليهود والمسيحيين.

ويحفظ التاريخ الفكري الإسلامي مقاومة علماء المسلمين للفلسفة اليونانية مقاومة لا هوادة فيها، منذ بدأ (الكندي) وابن كرنيب وتلاميذهما يمزجون الكلام بالفلسفة ويخطون الخطوة الأولى نحو تكوين مدرسة مشائية إسلامية فماتت مدرسة الكندي ثم ماتت مدرسة الفارابي ومالبث أهل السنة أن قاوموا أشد مقاومة.

وقال ابن تيمية: إن معنى كلمة فلاسفة بالمعنى اليونانى أنهم شراح يونانيون أو امتداد للروح الهلينية فى العالم الإسلامى، وقد أشار ابن كثير إلى أن علوم الأوائل (الفلسفة اليونانية وعلم النجوم) وغيرهما من معارف يونانية لم يوافق عليها العقل الإسلامى.

وتشير المصادر إلى أن نصارى المناطقة أدركوا أن هذه الفلسفة ونقلها إلى المسلمين هى إحدى الوسائل لتقويض العقائد الإسلامية وهدم الفكر الإسلامى، ومن هنا كان على الإسلام أن يقاومها.

وقد قاومها المعتزلة قبل أن يتقلدوا أسلحتها، ثم أتى أهل السنة ووقفوا بالمرصاد للفلسفة اليونانية، وقام أئمة الأشاعرة (الباقلانى وإمام الحرمين) بمحاربتها أشد حرب، ثم انقض عليها الغزالى انقضاضه الأكبر فماتت موتتها الأخيرة.

وقد اعتبر فلاسفة الإسلام الحقيقيون ـ هم ـ متكلمى الإسلام، وقد قاوموا أرسطو فيلسوف الإلحاد الكبير، الذى تكلم عن قدم العالم، وعن فناء النفوس، وأنكر وجود العالم فى زمان، ومن ثم لم يكن الله﴿**سبحانه وتعالى عما يقولون علوا كبيرا**﴾ وحده منفرداً بالقدم، ولم يكن محركا للمادة القديمة، وأنكر علم الله (جل شأنه) بالجزئيات، وقد أجمع مفكرو الإسلام على تكفيره. ولم يكن ابن سينا مفكرا إسلاميا على الإطلاق، ولم يمثل الحضارة الإسلامية أدنى تمثيل، ولا يتصور أن يكون كتابه (الشفاء) ممثلا لفكرة الإسلام، إنه فلسفة يونانية بحتة بينما يمثل (تهافت الفلاسفة) للغزالى روح الإسلام الحقيقى.

كما أنه لا يمكن أن يكون المنطق القياسى اليونانى القائم على ميتافيزيقا أرسطو تعبيرا عن حضارة الإسلام التى يعبر عنها المنطق الاستقرائى الإسلامى الذى استند على القرآن والسنة ، وهو الممثل الحقيقى للفكر الإسلامى البحت.

ودياناتها، وخاصة ديانة متراس وديانة إيزيس المصرية، فقد اختلطت المسيحية بعد أن تركت مسقط رأسها فى المشرق حيث لم تتمكن من تحرير الفكر الغربى الوثنى بل اندمجت فيه وانصهرت فى داخل هذه التركيبة المعقدة من الفكر الوثنى والفلسفى المادى ومذاهب الشك والإلحاد والتحلل التى احتوتها مفاهيم الفكر البشرى القديم إلى الغرب من المجوسية الفارسية، ومن البوذية والغنوصية جميعا.

فلم تعد المسيحية المنزلة إلا خيوطا دقيقة جداً، حيث إن بولس الذى نقل المسيحية إلى الغرب قد ترخص لكسب العناصر الوثنية فقبل مايتوافق مع عقائدهم القديمة ومع الفكر الوثنى القائم فعلا ليلتقى به وليس بديلا عنه.

ولكن هذا كله لا يمنع من تأكيد الأثر المسيحى الذى دخل على الفكر الغربى جملة وكسر حدة العنف والطغيان وتسلط السادة الأقوياء وإذلال الرقيق، حيث أنشأت المسيحية ذلك الجانب الروحى القائم على الرحمة والسماحة التى تحولت تدريجيا إلى الرهبانية، فبلغت أقصى درجات الغلو فى التحرر من طبيعة الإنسان ورغباته

﴿ورهبانيةً ابتدعوها ماكتبناها عليهم إلا ابتغاء رضوان الله فما رعوها حق رعايتها﴾.

وكان أخطر ماهنالك ذلك التصور المضطرب للألوهية وقضية التثليث الخطيرة وتفسيراتها الفلسفية.

وكان هذا التحول الكبير الذى طرأ على الفكر البشرى قد حمل معه مفاهيم التثليث والتجسيد والخطيئة الأولى والتكفير والتعميد والعشاء الربانى، وكانت فكرة التثليث مصرية فرعونية أساسا انتقلت إلى الغرب وتحولت من إيزيس وأوزوريس وحورس إلى الأب والابن والروح القدس.

وعلى كل حال فقد حدث تحول عن عبادة الأوثان إلى عبادة الله ممثلا فى الثالوث.

وقد حاول أتباع المسيح فى أكثر من مكان تقديم مفهوم الإله الواحد، وأن عيسى عليه السلام رسول الله، غير أن طغيان الكنيسة الرومانية قد سيطر على الموقف فأقر مفهوم التثليث، وأبعد كل من قال بالإله الواحد ونبوة عيسى عليه السلام، وخاصة الراهب أريوس وجماعته، كما لم يعترف بغير الأناجيل التى أقرت التثليث، ورفض

غيرها وخاصة (إنجيل برنابا) الذى يقر التوحيد ونبوة عيسى، وقد كان برنابا من الحواريين الذين شاهدوا المسيح بينما لم يكن بولس الذى حمل لواء هذا التحول كله ممن شاهدوا المسيح، بل جاء بعده بثمانين عاماً.

ولكنه بالرغم من كل حركات الإصلاح التى أدخلت إلى المسيحية وخاصة عن طريق لوثر وكالفن وغيرهما فإنها وقفت جميعها عند مفهوم التثليث ولم تستطع تجاوزه.

وهكذا تشكل الفكر الغربى الحديث فى حلبة الصراع بين مفاهيم الفكر البشرى (الوثنى اليونانى القديم) وبين مفاهيم المسيحية بفرقها المختلفة والمتعارضة حول طبيعة السيد المسيح وحول التثليث والصلب والخطيئة، حتى حدث الصدام بين الكنيسة والعلماء ثم وقع الانفصال الذى أدى إلى غلبة الفلسفة المادية التى تحررت تماما من مفاهيم الألوهية والنبوة والغيب والبعث والجزاء.

وقد كان الغرب حريصا على أن ينقل هذا التراث المضطرب الخطير الذى يمثل صراعات الفكر الغربى مع المسيحية ومع اليونان ومع الفكر الباطنى والوثنى والمجوسى الشرقى، والذى تشكل من خلال مفاهيم مضطربة ورثها خلال العصور رغبة منه فى أن يزعزع إيمان المسلمين بعقائدهم ومفاهيمهم.

وقد عملوا فى سبيل ذلك جهدا ضخماً، فقد توزع عملهم على الصحافة والمدرسة والثقافة فى محاولة لتدمير مقومات الفكر الإسلامى المستمد من القرآن والسنة المطهرة، وقد عملوا أيضا فى نفس الوقت على هدم قيم الفكر الإسلامى والتشكيك فيه وإثارة الشبهات حول أصوله ومقوماته.

ثالثا: مهمة الاستشراق فى محاصرة الإسلام

كانت الخطة قد رسمت فى ذلك التحول الخطير بعد الحروب الصليبية الذى يهدف إلى احتواء الإسلام وتزييف مفاهيمه وإثارة الشبهات حول قيمه ومعانيه، (الهدف هو الحيلولة دون اقتناع الغربيين به من ناحية ومعارضة المسلمين له نتيجة ما أثير من شكوك).

يقول ألفريد كانتول سميث :

إن الغرب كان ولايزال يخاف القوة المعنوية الكامنة فى عالم الإسلام الذى تجمعه وحدة التوحيد الخالص، يخاف هذه القوة ويخشاها ويعمل منذ سنوات بعيدة على سحقها والقضاء عليها وتمزيقها وبعث الخلاف والفرقة والصراع والخصومة والتناحر بين أجزائها.

ولعل حماقة الغرب فى مقاومة هذه القوة هى التى دفعته إلى الالتقاء والتوحيد والتجمع فى كتلة واحدة.

لم يستطع الغربيون خلال هذه المرحلة الطويلة أن يكسبوا ود المسلمين، بل حصلوا على شعور جماعى بالانتقاض عليه، وهم ومن حاول أن يعينهم داخل أرض الإسلام، وقد زاد هذه الكراهية قوة أن استعمل الغرب عمليات التبشير والتغريب والغزو الثقافى وسيلة للإذلال إلى جوار السيطرة الاقتصادية والمالية.

وأعلن شعور القسوة والعنف والحقد والتعصب إزاء كل ماهو عربى وإسلامى، وقد تجمع الغرب كله لإخراج المسلمين من أوروبا (مرحلة الحروب الصليبية) الفاتيكان وبريطانيا والفرنجة والألمان والسكوت، كل القوى تضافرت من ناحية الأندلس ثم تضافرت بعد ذلك من ناحية البلقان، وجاء رجالهم ليقولوا: **اليوم انتهت الحروب الصليبية.**

وقد حرص الغرب بمختلف الوسائل على تحطيم قيم الفكر الإسلامى واللغة والعقيدة والتراث فى نفوس المسلمين ، وزعزعة هذه العقائد وتحطيم القوة التى مكنتهم من الحياة والمقاومة خلال أربعة عشر قرنا، ولم يكن انتصار أوروبا على المسلمين فى بلاط الشهداء انتصاراً حقيقياً ، ولكن كان فى تقدير الباحثين تأخيراً للحضارة الإسلامية من أن تدخل أوروبا سبعة قرون كاملة.

يقول هونشو : المؤرخ الإنجليزى :

خرج الصليبيون من ديارهم لقتال المسلمين فإذا هم جلوس عند أقدامهم يأخذون عنهم أفانين العلم والمعرفة، وقد نهج أشباه الهمج من مقاتلة الصليبيين عندما رأوا الكفار الذين ينكرون من الناحية اللاهوتية ديانتهم على حضارة دنيوية ترجح حضارتهم ترجيحا لا تصح معه المقارنة بينهما.

ويقول جيمس برستد :

إن العصر الإسلامى فى أسبانيا كان أكبر عامل من عوامل المدنية فى أوروبا، وإن انخذال المسلمين فى أسبانيا كان بمثابة سقوط المدنية أمام الهمجية ، ولكن بدا الغرب فى صورة غير المعترف بالجميل، وغير المنصف للحقيقة العلمية أو التاريخية، وكان فى مفهوم ثقافته لا يرغب إلا فى السيطرة ولا يرى العدل والحرية إلا للجنس الأبيض.

إن إنجلترا لأنها كانت تعادى الأتراك بحثت عن خصومة شريفة فلم تجد إلا الدولة الصفوية التى كان بينها وبين العثمانيين حروب اكتست بلباس الدين، لأن الصفويين شيعة إمامية والعثمانيين سنة حنفية، ولذلك ترددت السفراء بين الصفويين والإنجليز واستعان بهم الصفويون على تنظيم جيشهم فيما بعد.

ويقول جان بول رو فى كتابه (الإسلام والغرب) :

«كانت خريطة العالم الغربى ترسم آنذاك أوروبا أرض المسيحية يجب أن تبقى مسيحية بكاملها وأفريقيا أرض الإسلام يجب أن تكون ملجأ للمسلمين ويجب أن توضع تحت الحماية.

وكان الغرب فى علاقاته الثقافية والسياسية والاقتصادية يهدف إلى مسخ مقومات هذه الشخصية حتى تظل تابعة له. وكانت دعوتها إلى وحدة الحضارة العالمية إنما تستهدف احتواء الأمم.

وعجز الغرب عن تحويل نظرة الكراهية إلى نظرة تقدير.

ولذلك فقد ووجه بنظرة الحذر والشك من عالم الإسلام..

ولم تكن محاولة الغرب لدرس الفكر الإسلامى عن طريق الاستشراق خالصة لوجه العلم ولكن من أجل أمرين :

ـ معرفة النفس الإسلامية للسيطرة عليها من جوانب ضعفها والقضاء على المقومات التى تعطى هذه الأمة القدرة على المقاومة أو الوقوف كشخصية مستقلة غير قابلة للانصهار فى الفكر الغربى العالمى أو الحضارة العالمية أ. هـ



هذه ملامح الصورة من وجهة نظر الغرب، وفى رسم مهمة الاستشراق كما صورها

هاملتون جب (فى الفصل السابق) وصورها هؤلاء العلماء فى هذا الفصل، وهى فى كلمات قليلة ، حصار المسلمين واحتواء فكرهم واستبقاؤهم فى دائرة مغلقة حتى لا يستطيعوا يوما ما أن يمتلكوا إرادتهم. والوسيلة إلى ذلك تبدأ بعمل المستشرقين.

يقول ماريد ديفن عما نقله إدوارد سعيد :

إن الهدف من الاستشراق ودراسات المتخصصين الغربيين للشرق الأوسط هى خدمة الإمبريالية الغربية ، أى أن الهدف هو فرض المصالح الغربية على العالم الإسلامى. ذلك أن المعرفة لا تكون فى فراغ ، وإنما تنشأ على العلاقات السياسية والاجتماعية السائدة: هؤلاء النفر من الخبراء المتخصصين لشئون المناطق العربية والإسلامية لم يكونوا مراقبين حياديين، بل هم لتعريفهم بموضوع تحقيق بادروا بتأديته.

وقد جرى استخدام هؤلاء للحكومات الاستعمارية كعملاء للسيطرة الغربية، إن بعض الخبراء الغربيين البارزين عملوا مستشارين لحكومات الإسلام، وسمحوا لمعارفهم أن تستغل لإلحاق الإضرار بالشعوب، ومنهم من أرشد الحكومات على أسلوب لاقناع المسلمين.

وقال إن المستشرق جرونباون قد أسهم فى بناء صورة للعالم الإسلامى فى نظر الأمريكيين تظهر ذلك المجتمع كأنه وثبة معادية للغرب، ومتخلفة عن ثقافتنا، هذه الصورة كان لها تأثير على صانعى السياسة الأمريكية.

❑ ❑ ❑

ويقول ليوبولد فابس ـ محمد أسد :

إن أبرز المستشرقين الأوروبيين جعلوا من أنفسهم فريسة للتحزب غير العلمى فى كتاباتهم عن الإسلام، ولذلك يظهر الإسلام فى تلك الكتابات ليس على أنه موضوع بحث علمى بل على أنه متهم يقف أمام قضاته يلتمسون الأدلة الباطلة لإدانته..وقد يمثل بعضهم دور المحامى المقتنع بإدانة المتهم، ولكنه يلتمس له الرأفة باعتبار الظروف المحيطة، ذلك أن طريقة المستشرقين تشبه طريقة محاكم التفتيش فى أوروبا فى القرون الوسطى، حيث كانت كل دعوة تبدأ باستنتاج متفق عليه من قبل قد أملاه عليها تعصبها لرأيها، وكذلك يختار المستشرقون شهودهم حسب الاستنتاج الذى يقصدون إليه مبدئيا فإذا تعذر عليهم عمدوا إلى كتمان الشهادة أو تحريفها أو تأويلها.

وقد نتج عن هذه المحاكمة صورة مشوهة للإسلام تواجهنا فى كل ماكتبه مستشرقو أوروبا.

هذا التشويه الشامل والمتعمد للإسلام فى دراسات المستشرقين إنما يهدفون به بوجه عام إلى صد الناس جميعا عن الإسلام.

﴿ ودوا لو تكفرون كما كفروا فتكونون سواء﴾.

﴿ يأيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوى وعدوكم أولياء﴾.

﴿ يأيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء﴾.

﴿ ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم﴾.

﴿ ود كثير من أهل الكتاب لو يردوكم من بعد إيمانكم كفارا حسدا من عند أنفسهم ﴾.

هذه هى محاولة المستشرقين للمسلمين: تشكيكهم فى دينهم وتنفيرهم منه نتيجة الارتباط بخدمة الاستعمار وخدمة التنصير.

وقد جسم النبى صلى الله عليه وسلم هذه القضية حين قال :

(لا تسألوا أهل الكتاب عن شئ فإنهم لن يهدوكم وقد ضلوا وإنكم إما أن تصدقوا بباطل وإما أن تكذبوا بحق وإنه والله لو كان موسى حيا بين أظهركم ماحل له إلا أن يتبعنى) «رواه الحافظ أبو يعلى».

ويقول دكتور مصطفى هدارة: إن هناك علاقة مريبة بين المستشرقين وأجهزة المخابرات فى الغرب ، ولا شك أن وجود مستشرقين متخصصين فى العربية وآدابها ومعظمهم يأتى للبلاد العربية ويقيم فيها فترات قد تطول يحصلون على قدر كبير من المعلومات التى قد تفيد مؤسسات الاستخبار فى بلادهم، وإن لم يكونوا كما كان أسلافهم من المستشرقين العملاء مرتبطين ارتباطا كاملا كليا بأجهزة هذه المخابرات أو موجهين للدراسات العربية من أجل تحقيق هذه الغاية.

وإن مؤسسات الاستشراق المعاصرة متهمة بارتباطها ببعض أجهزة المخابرات فى العالم لمعرفة اتجاهات الرأى العام وطبائع الشعب وطرق تفكيره عن طريق هؤلاء العملاء.



وقد جاء رأى المنصفين من الغربيين مؤكدا لرأى المسلمين فى مهمة الاستشراق والدور الذى قام به ، وكيف طرحت هذه المفاهيم المسمومة عن الإسلام، فى أفق الإسلام لتزييفه وتدميره واحتوائه.

والحقيقة أن المستشرقين غير مؤهلين فى الحديث عن الإسلام لافتقارهم إلى كل خصائص الأمانة العلمية ، وذلك بسبب بغضهم التاريخى الصليبى للإسلام، وافتراءاتهم على نبيه صلى الله عليه وسلم وإنكارهم الوحى المنزل عليه، وعجزهم عن إدراك القرآن وجهلهم باللغة العربية وأسرار بلاغتها فضلا عن مواقفهم المعروفة فى تأييد اليهود والصهيونية ضد العرب والاسلام.

نقول هذا مع تقديرنا لاختلاف مفهوم التسامح مع أهل الكتاب الذى يقوم على قواعد فصلتها الشريعة الإسلامية وهى شئ مختلف عن التقارب المزعوم الذى يراد به الحط من مكانة الإسلام وتحريف معنى القرآن.

ذلك أن المؤامرة على الإسلام بدعوى (التقارب بين الأديان) تتلخص فى معاملة الإسلام على أنه مجرد دين من الأديان لا يتميز على أيها بشئ بل تتميز عليه اليهودية والنصرانية استناداً إلى الزعم الكاذب بأن الإسلام آخذ عنهما، وأن فى القرآن الكريم آيات تشابه مافى التوراة والإنجيل حتى تكاد تكون نقلا حرفيا عنها، وهذا مايسمونه بالأصل اليهودى المسيحى للإسلام.

وهم يحاولون بذلك تحقيق هدف مسموم هو أن القرآن الكريم فى مرتبة دون التوراة والإنجيل لأنه فى مرتبة النقل الأخير، وأن التوراة والإنجيل بصورتهما الحالية ليس فيهما تحريف، وعلى المسلمين أن يقبلوهما على أنهما وحى من الله على قدم المساواة على الأقل مع القرآن الكريم.

❑ ❑ ❑

وليس هذا هو الهدف الوحيد، ولكن المستشرقين كانوا يعملون فى الدرجة الأولى على أن يكشفوا لقومهم من خلال مايدرسون عن الإسلام (عقيدة وتاريخا وتراثا وثقافة) عن نقاط الضعف لدى المسلمين قصد الاعتماد عليها والولوج من خلالها إلى الحياة الإسلامية لتمييع مقوماتها وزلزلة بنيانها.

وقد اقترح (سنوك هرونجه) فى أندونيسيا تشكيل تيارين رئيسيين: هما التيار القومى

والتيـار الماركسى، وطرحهـما فى ديار المسلمين لضرب قوتهم وتذويب فاعليتـهم وتفتيت وحدتهم.

التيار القومى ليتكفل بإضعاف الحركة الإسلامية

والتيار الماركسى ليتكفل بنشر الفساد والإلحاد.

كذلك فقد أشارت بروتوكولات حكماء صهيون إلى مهمة العلوم الإنسانية والاجتماعية الغربية، فقالت: لقد رتبنا لنجاح دارون وماركس وفرويد بالترويج لهم، وإن الأثر الهدام للأخلاق الذى تحدثه علومهم فى الفكر غير اليهودى هى واضحة لنا بكل تأكيد.

كما قالت البروتوكولات:

يجب أن نعمل على أن تنهار الأخلاق فى كل مكان لتسهل سيطرتنا. إن فرويد منا، وسيظل يعرض العلاقات الجنسية فى ضوء الشمس لكى لا يبقى شئ مقدس فى نظر الشباب ويصبح همه الأول إرضاء غرائزه الجنسية.

❑ ❑ ❑

ويؤكد بعض الباحثين أن غاية الاستشراق هى التقليل من أهمية العرب والمسلمين فى الحضارة المعاصرة، وإدخال اليأس إلى قلوبهم وأنهم لن يستطيعوا فى الوقت الحاضر نجاحا أو تقدما. والقول بأن العرب لم يكونوا إلا نقلة وأن الحضارة العربية ليس لها تأثير أو أثر على الحضارة الغربية، وأن العقل العربى متهم بالجمود والتقليد وأن المسلمين عاشوا عالة على الآخرين (حسن الشرقاوى).

وفى تقدير الكثير أن الاستشراق ليس علما بأى مقياس وإنما هو عبارة عن (إيديولوجية) خاصة يراد من خلالها ترويج تصورات معينة عن الإسلام بصرف النظر عما إذا كانت هذه التصورات قائمة على حقائق أو مرتكزة على أوهام وافتراضات.

إن الدارس لأعمال الاستشراق لا يحتاج إلى بذل جهد كبير ليرى تعمدهم تزييف الحقائق واللجوء إلى منطق فاسد للوصول إلى نتائج تهدف فى النهاية إلى رسم صورة مشوهة سقيمة عن الاسلام فى نظر القراء الغربيين وإلى زعزعة عقيدة الإسلام وتمييعها فى عين أبنائها من المسلمين.

أهداف الاستشراق هى أهداف السيطرة الاستعمارية

تتمثل أهداف الاستشراق فى تأكيد السيطرة الاستعمارية والنفوذ الأجنبى تحت أسماء جديدة هى التبادل الثقافى والوحدة العالمية.

أولا : القضاء على وحدة الأمة الإسلامية، وذلك بإضعاف روح الإخاء بين المسلمين والتفريق بينهم لإحكام السيطرة عليهم، وقد بدأ ذلك فعلا بإسقاط الخلافة، وتأكيد مبدأ القوميات.

قال وزير المستعمرات: إن الوحدة الإسلامية هى الخطر الأعظم ، وفرحتنا عظيمة بذهاب الخلافة إلى غير رجعة.

ثانيا : العناية باللهجات العامية فى سبيل هدم اللغة العربية والنيل منها واتهامها بالعجز عن مسايرة التطور.

(والهدف هو فصل القرآن الكريم عن أسلوب البيان الحديث)

ثالثا : التشكيك فى صحة رسالة الإسلام والنبى والقرآن والسنة.

والتقليل من قيمة الفقه الإسلامى.

والزعم بأن القرآن ليس كتابا سماويا وأنما هو من تأليف محمد (جورج سيل).

رابعا : إرجاع الإسلام إلى مصادر يهودية نصرانية والادعاء بأن النبى محمد صلى الله عليه وسلم قد استمد هذا القرآن من أساطير يهودية ومن العهد القديم.

خامسا : تنصير المسلمين وعقد الاجتماعات وجمع الملايين لتنفيذ خطة أجلة العالم الإسلامى.

سادسا : الادعاء بأن الشريعة الإسلامية هى القانون الرومانى بعد أن تم تعديله.

سابعا : تقديم تفسير للتاريخ الإسلامى يستمد مفاهيمه من التفسير المادى القائم على إنكار الوحى والنبوة ، والتقليل من عظمة الأحداث ووصف الفتوح بالمطامع والاسترزاق وعدم تقدير الجانب المعنوى للعقيدة وأثره فى الأحداث، وتشويه مكانة المرأة فى الإسلام والتشكيك فى أن الجهاد فريضة ماضية إلى يوم القيامة ، والادعاء بأن الإسلام متعدد بتعدد شعوبه.

ثامنا : الدعوة إلى إحياء الماضى السابق للإسلام فى كل البلاد الإسلامية والعربية ، الفرعونية فى مصر والفينيقية فى الشام والأشورية فى العراق والزنجية فى السودان والبربرية فى المغرب.. إلخ.

تاسعا : إثارة الشبهات حول المفاهيم الأساسية :

(١) مفهوم أن الإسلام دين ودولة (٢) حول مفهوم الجهاد

(٣) الترويج لفكرة تطوير الاسلام (٤) تبنى دعوات هدامة مثل البهائية والقاديانية واعتبارها دعوات تجديدية.

عاشرا : إحياء الفكر الباطنى والوثنى والإباحى والتركيز على الأساطير.

حادى عشر : الدعوة إلى وحدة الأديان ، والحوار فيها من منطلق الحصول على إقرارات من علماء المسلمين بالاعتراف بالمسيحية الغربية ومحاولة تصوير الأديان كلها بصورة واحدة.

ثانى عشر : محاولة التفرقة بين اليهودية كدين والصهيونية كدعوة عنصرية سياسية.

ثالث عشر : الاهتمام بتأثيرات الفكر الغربى فى بعض المجالات كالفلسفة والاعتزال والتصوف الفلسفى ومحاولة جعل هذه التأثيرات التى رفضها الفكر الإسلامى أساسا لنهوضه.

وقد قدم المستشرقون خدماتهم فى سبيل تمكين الاستعمار من البلاد الإسلامية.

كارل بيكر ـ دراساته حول إفريقية.

بارتولد ـ دراساته لخدمة المصالح الروسية فى آسيا الوسطى.

سنوك ـ خدمة الاستعمار الهولندى.

وقد تدخل الاستشراق فى صياغة مختلف العلوم الإسلامية.

كما قدم المستشرقون ٦٠ ألف كتاب عربى عن الإسلام مكتوبة من وجهة نظر الاستشراق المعادى للإسلام، كتبت خلال المائة والخمسين عاما الماضية وهى مع الأسف مصدر معلومات المسلمين فى الغرب عن الإسلام اليوم.



الترابط الجذرى بين التبشير والاستشراق :

يجب أن يكون واضحا أمامنا ذلك الترابط الجذرى بين التبشير والاستشراق، بل لقد تبين اليوم من دراسة عدد من المستشرقين أنهم فى حقيقتهم مبشرون خلعوا لباس الكنيسة وارتدوا لباس العلم ليتمكنوا من الإمعان فى خداع الناس عن هويتهم الأصلية.

وقد حرصوا على أن يقولوا إن الإسلام دين بشرى ملفق من الديانتين اليهودية والمسيحية.

وتعمل قوى التبشير فى مجالات ثلاثة : هى المدرسة والمستشفى والملجأ ، وتحاول أن تجتذب المرضى والفقراء، وإن كثيراً من المسلمين فى مناطق متعددة فى أفريقيا وأسيا يتعرضون تحت تأثير الفقر والحاجة إلى الخضوع لضغوط الكنيسة.

ومن هنا فإن هناك ظاهرة خطيرة : هى إغراء بعض المسلمين بالعودة إلى المسيحية فى بلاد أفريقيا وجنوب شرق آسيا لعجز المسلمين عن حمايتهم ومعونتهم، ولما تفرضه بعض الدول من توزيع المعونات التى تصلها فى قضايا التصحر والمجاعة إلى غير المسلمين وحرمان المناطق الآهلة بالمسلمين إغراء لهم بالتخلى عن الإسلام.

منذ أن تشكلت المسيحية (الغربية) قامت على أساس أن الدين المسيحى هو أن خلود الروح ينال بالتضحية والانقطاع لعبادة وتقديم القربان إلى الله ، وفقا لما نسب إلى السيد المسيح من قوله «إن مملكتى ليست فى هذا العالم».

ومن هنا دخلت المسيحية فى نظام الرهبنة الذى بلغ مراحل واسعة من اعتزال الحياة والتماس كل وسائل تعذيب النفس والقسوة فى التعامل مع طيبات الحياة.

وقد امتدت هذه المرحلة إلى أن جاء الإسلام الذى أخرج أوروبا والمسيحية من هذه المرحلة إلى مرحلة أخرى.

وقد كانت هذه المرحلة التى تسمى بالمرحلة الرهبانية مضطربة أشد الاضطراب من عدة نواح، من حيث تراث المسيحية والمسيح وتاريخ المولد والنهاية ، واضطراب الأناجيل ماقبل منها ومارفض، واختلاف المفاهيم فى الأمور الأساسية ، وفى علاقة المسيحية باليهودية، وفى شأن الطقوس والمراسم الدينية مايتصل منها بالفرعونية ومايتصل بالأديان الأخرى ، وقد أشار كثير من الباحثين إلى أن مايسجله الكتاب المقدس وخاصة (العهد الجديد) من أقوال للسيد المسيح إنما يتصف بالضآلة والضحالة لأن هذه النصوص مجرد ادعاء واضح محدد لقدسية وألوهية السيد المسيح نفسه.

وقد اختارت الكنيسة ومؤتمراتها رفض كل مايقرر نبوة المسيح وبشريته، وقبول كل مايجعل المسيح إلها أو ابن الإله .

ويقول العلامة (جارى ميلر) بعد إسلامه : إن ماورد فى الكتاب المقدس (العهد الجديد) من إثبات وبرهان حول ألوهية وقدسية السيد المسيح إما غير كاف أو يتصف بالغموض واللبس .

وقد وصلت الكتب المنسوبة إلى السيد المسيح عليه السلام أكثر من سبعين كتابا أو إنجيلا ورفعها البعض إلى مائة كتاب.وكان مؤتمر نيقية ٣١٥م بحضور ٣١٨ من الأساقفة الذين يؤمنون بمبدأ التثليث حيث أبعد الذين أعلنوا أن المسيح نبى مرسل وبشر، وعندما اعتنقت الدولة الرومانية النصرانية قرر المؤتمر (عقيدة التثليث ـ وألوهية المسيح) أحرقت جميع الكتب التى لا تقول بألوهية المسيح، وتقرير قدسية الكتب الأربعة المتداولة (متى ـ مرقص ـ لوقا ـ يوحنا) .

وقد استطاع الملك قسطنطين والأساقفة مساعدة الملك الوثنى فى إعلان صيغة الأمان التى تتضمن تأليه السيد المسيح وفرضوها على الناس بالبطش والإرهاب.

وفى هذا المجمع أتم المتآمرون مابدأه (بولس) اليهودى ، وحققوا ماأرادوه حينما حولوا المسيحية من دين ربانى كما جاء به السيد المسيح (صلوات الله وسلامه عليه) إلى دين خليط من الوثنيات والخرافات والأساطير.

والحقيقة أن المسيحية ليست دينا عالميا مستقلا، ولكنها إحدى الرسالات الموجهة إلى بنى إسرائيل استكمالا لرسالة موسى وأنبياء بنى إسرائيل من بعده، وهى ختام الرسالات السماوية الموجهة إلى بنى إسرائيل، وقد بشر السيد المسيح بالنبى الخاتم محمد صلى الله عليه وسلم، ولعل هذا الاضطراب الذى أصاب المسيحية هو الذى أعجزها عن أن تلتقى مع العلم وتسلم نفسها كحلقة من رسالات السماء إلى الإسلام، فكان اضطراب تشكيلها العقدى هو الذى كشف عجزها عن العطاء، وهو الذى أصاب حضارتها بهذا الانحراف الشديد فى حمل أمانة المسئولية الفردية والالتزام الأخلاقى.

ولقد كان أخطر ماأصابها هو «تحريف» النص المنزل ونقله من حلقة فى سلسلة إلى دين جديد، وكان اضطراب مفهوم الألوهية وقبول مفهوم التثليث الذى عرفته الأديان الوثنية من أخطر التحديات.

يقول شارل جينيز رئيس قسم الأديان فى جامعة باريس:

إن النصرانية الحاضرة بكل مافيها من عقائد وطقوس وشعائر غريبة وبعيدة كل البعد عن رسالة السيد المسيح عليه السلام، وقد بدأت النصرانية تنفصل منذ أن دخلها القديس بولس، وإن عقيدة بنوة المسيح إنما كانت من أثر الخطأ فى ترجمة كلمة (عبدالله) التى يقولها السيد المسيح كثيرا، كيف يترجمها بولس : عبدالله طفل أم خادم، واختار بولس كلمة طفل (طفل الله)، وقد أحدث ذلك تغييراً هائلا بالفكرة الدينية عن صورة الإله فى الفلسفة العامة وفى الدين النصرانى خاصة.

ويقول شارل جينيز : إن المسيح لم ينشئ الكنيسة ولم يرها، ولعل هذه القصة أكثر الأمور المحققة ثبوتا لدى أى باحث يدرس النصوص الإنجيلية فى غير ماتحيز، بل إنه يؤكد أيضا أن الغرض العكسى لايمكن أن يوجد له سند تاريخى مقبول.

ويقول : إن نصرانية القرون الوسطى كانت دينا يبغى العالمية ، ويتخذ الحرب وسيلة لها، دينا متعصبا شديد التعصب لا يقبل بالنسبة للعالم الخارجى أنصاف الحلول.

وكانت النصرانية ملتقى لكثير من العقائد التى لا يستسيغها المنطق، ومن الطقوس الدقيقة المتشعبة التى حملت قدراً وافرا من رموز السرية والفعالية ، ومع ذلك فالحقيقة الثابتة التى لا جدال فيها هى أن الكنيسة لم تتمكن مع الانتصار خلال القرن الرابع إلا بفضل انهزام الإيمان الأول الذى يمكن أن نسميه إيمان الاثنى عشر (الحواريين)، وانهزمت النصرانية الأولى فى الصراع الروحى الذى خاضته، وقبلت الكنيسة فى الواقع هذا الانهزام واعتمدته مكتفية بأن يتحول إلى موضوع للتأمل الدينى لدى المؤمنين.

ويقول المؤلف : نستطيع القول بأن الغربيين لم يكونوا مسيحيين قط، ولم يفهموا العقائد المسيحية فى العصور اللاحقة، وأن الديانة التى أنشأوها على أساس منهار باجتهادهم الخاص كانت ديانة مختلفة تمام الاختلاف فى روحها وجوهرها عن المسيحية الشرقية، ديانة مختلفة نبعت قبل كل شئ من رصيدهم الفكرى والروحى متمشية مع عواطفهم ونزعاتهم، وإن صبت فى قوالب تعبيرية لا توافقها كل الموافقة.

وخلاصة القول إن الغربيين لم يكونوا مسيحيين فى يوم من الأيام وصدق من قال «ترومت المسيحية ولم يتمسح الروم». (الترومِ أى أصبحت رومية) .

ولقد كشف الإسلام تحريف النصرانية للكتاب المقدس (الإنجيل) بالنسبة للرهبانية والصلب والخطيئة والتثليث.

وقد أكد الباحثون الغربيون المثقفون أن التصور النصرانى كما أورده الدكتور شارل جينيز فى كتابه : (المسيحية نشأتها وتطورها) بكل مافيها من عقائد وطقوس وشعائر غريبة وبعيدة كل البعد عن رسالة السيد المسيح، وأن المسيح عليه السلام كان يعلن التوحيد ويؤكد أنه عبدالله ورسوله، وأنه بعث لخراف بنى إسرائيل الضالة ، وأن رسالته كانت خاصة ببنى إسرائيل وأن دعوته إلى الرحمة والمحبة والتعاطف.

وهذا ماكشفه القرآن الكريم: إن الله تبارك وتعالى لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد، فقد صحح الصورة الدينية، وقدم التصور الصادق الذى أنزله الله تبارك وتعالى على رسوله.

﴿قل ياأهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئا ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون﴾ .

التحول فى الفكر الغربى المسيحى بعد ظهور الإسلام

حدث أخطر تحول فى المسيحية والغرب بعد ظهور الإسلام، فسرعان ماأقام الإسلام دولته الممتدة من حدود الصين، إلى قلب أوروبا بعد أن اقتحم الأندلس ووصل إلى نهر اللوار، وقد هز ذلك الكنيسة المسيحية هزة شديدة ، وكانت الأندلس هى بؤرة الصراع بعد أن وصلت علوم المسلمين إلى جامعاتها، وأخذ الأوروبيون من مختلف أقطار أوروبا يردون عواصم الأندلس ليلتحقوا بجامعاتها.

وقد أوصت الكنيسة سفراءها من الشباب النصرانى بالحذر من نقل العقيدة والاكتفاء بنقل العلوم وترجمة الكتب.

يقول الدكتور عمر فروخ:

أرسلت البابوية رهبانا من الكاثوليك لنقل الكتب العربية إلى اللغة اللاتينية بهدف فهم واقع الحضارة الإسلامية كمدخل إلى اتخاذ الطرق المثلى لتقويضها، ولكن هنا حدثت المعجزة من خلال الثقافة، فقد أصبحوا جنودا مدافعين عن الثقافة الإسلامية، بل إن الكثير من هؤلاء الرهبان قد أسلم فعلا بفضل الحضارة الإسلامية الكامنة فى الكتب العربية.

وإلى ذلك فإن أكبر ضربة تعرضت لها الكنيسة الكاثوليكية فى تاريخها تلك التى جاءت على يد ثورة مارتن لوثر البروتستانتية، كانت غير بعيدة عن استيحاء مؤثرات الحضارة الإسلامية نفسها.

ومن ذلك إبطال سلطة رجال الدين فى غفران الذنوب، فالله وحده هو الذى يغفرها، وإبطال الرموز الوثنية بعد أن كانت الكاثوليكية ترى فى الصور والتماثيل شيئا من الحضور الإلهى ، كذلك فقد أخذت البروتستانتية من الإسلام: «**الاستغناء عن نظام البابوية**» والقول بأن أعمال الإنسان هى التى تنجيه يوم القيامة وليس مجرد إيمانه بالمسيح، وكذلك إلغاء الرهبنة والسماح لرجال الدين بالزواج.

ومامن شك أن مارتن لوثر أخذ أشياء كثيرة من الإسلام.



وهنا حدث التحول الخطير الذى حققه رجال العلم الذين أخذوا أصوله من التجريب الإسلامى الذى كانت تدرسه جامعات الأندلس.

وكان حقدهم على الإسلام دافعا لهم إلى أمرين أساسيين:

(١) سبق المسلمين فى مجال التجريب والعلوم، وقد حققوا فى ذلك قدرتهم على الخروج بالبواخر من البحار إلى المحيطات.

(٢) إخراج المسلمين من الأندلس أساسا ومتابعتهم فى أفريقيا والوصول بوساطة علوم المسلمين وخبراتهم فى البحر إلى الهند، وإلى ماهو أبعد منها، وقصة الحرب التى أعلنتها أسبانيا والبرتغال بعد إخراج المسلمين من الأندلس معروفة.

هذا التحول مكن للفكر الغربى المسيحى التحول من مرحلة إلى مرحلة، وكانت خصومة العلماء مع الكنيسة هى العامل الأول فى قيام الفلسفة المادية والعلمانية والحملة على القرآن والسنة بوساطة المستشرقين ، والتبشير بالمسيحية فى أوساط المسلمين حيث فتح لهم الاستعمار الباب واسعا أمام السيطرة علي المسلمين فى أفريقيا وآسيا.

ونشأت فلسفة الاستعمار الخطيرة المستمدة من الفكر المسيحى الغربى الذى اعتمد أساسا على نظرية دارون، وعلى فكرة سيطرة الجنس الأبيض على الأجناس الملونة، وعلى عملية نهب ثروات المسلمين، وبناء هذا الكيان الاقتصادى الرأسمالى الغربى خلال أكثر من خمسمائة سنة.

وحدث ارتباط واضح بين الاقتصاد الحر وبين الإيمان بالفرد فى المسيحية، وتحولت أوروبا المسيحية من الرهبانية إلى منطلق خطير من السيطرة على الأمم الملونة واغتصاب ثرواتها وتدمير مقومات قدراتها على الحياة والحركة وربطها برباط الاستدانة والتبعية والعبودية.

وفرضت أوروبا المسيحية على الأمة الإسلامية قوانينها الوضعية ونظامها التعليمى، واقتصادها الربوى ، وحجبت الشريعة الإسلامية لأول مرة ، وحاولت أن تجعل من الإسلام دينا عباديا مقصورا على اللاهوت.

وكان أخطر ماقامت به الحضارة الغربية المسيحية فى سبيل السيطرة على الإسلام والأمة الإسلامية تكوين أجيال التبعية الذين علمتهم وشكلتهم ليكونوا خلفاء لها بعد انسحاب قوات الاحتلال.

وقدم الغرب مفهوم الليبرالية التى تمثل حرية فردية مطلقة فى مجال الاقتصاد والعمل.

وكانت أخطر المحاولات التى قام بها النفوذ الغربى هو فرض مفهوم العلمانية على الأمة الإسلامية، وهو مفهوم تشكل خلال الصراع بين العلماء الغربيين والكنيسة، وقام فى سبيل تحطيم سيطرة الكنيسة على السياسة مما كان يطلق عليه الدولة الثيوقراطية.

وهذا كله مما لم تعرفه البلاد العربية والإسلامية.

وكان حجب النظام الإسلامى فى مجال الاقتصاد والاجتماع والتربية والسياسة، وفرض النظام الليبرالى الغربى من أكبر الآثار الخطيرة التى واجهها المجتمع الاسلامى.

ولم يتوقف عمل الفكر الغربى المسيحى المطروح فى أفق الإسلام على هذه المحاولة الخطيرة ، بل إنه ذهب إلى أبعد من ذلك؛ إذ أنكر دور المسلمين فى بناء المنهج التجريبى والحضارة والعلم والتمدن، وأعلن أن الإسلام لم يقدم إلا مجموعة من المعطيات التى أخذها من اليهودية وهى مقولات لا تصلح إلا لمجتمع البداوة الذى ظهر فيه الإسلام، ولم تعد صالحة لهذا العصر.

بل لقد أنكر عطاء الشريعة الإسلامية كاملا حتى بعد أن اعترف به أساطين فقهاء القانون فى عديد من مؤتمراتهم.

وقد ظل هذا الموقف الذى أطلق عليه (مؤامرة الصمت) ممتدا عقودا عدة فى محاولة لحجب المسلمين عن قيمهم وتراثهم، ورغبة فى فرض مفهوم الفكر الغربى المسيحى عليهم وخاصة فى مجال السياسة والاقتصاد والاجتماع والتربية.

وهكذا دارت المعركة من جانب واحد : الفكر الغربى المسيحى يحاول أن يفرض مفاهيمه على مجتمع الأربعة عشر قرنا من الإسلام فى محاولة لحصاره واحتوائه بهدف صهره فى الفكر الغربى المسيحى، بينما لا يملك المسلمون فى هذه المرحلة أى قوة يدفعون بها عن أنفسهم وعن عقيدتهم تلك المحاولة الخطيرة الضخمة التى توزعت بين التبشير والتعليم والصحافة والثقافة وأدوات الترفيه، ومن خلال تنظيمات ضخمة قوامها الاستشراق والتغريب والغزو الثقافى ، مع استسلام الحكومات والقوى السياسية لهذا الاتجاه، حتى أن الأحزاب السياسية التى قامت فى هذه المرحلة كانت كلها موالية

للنفوذ الغربى.

وكان أخطر الأهداف هو:

١ـ تحطيم وحدة الأمة الإسلامية على النحو الذى جرى بإيقاع الصراع بين عنصرى الدولة العثمانية : دولة الخلافة = العرب والترك، وقيام مستشرقين بالدعوة إلى إحياء الطورانية التركية بهدف تدمير الوحدة والدولة والخلافة.

٢ـ تركيز فكرة الفصل بين الدين والدولة بهدف حجب الإسلام عن الحياة، وحصره فى المسجد والعبادات، لقد كانت هذه الفكرة التى تسمى (العلمانية) من إخراج العقلية الغربية فى صراعها مع المسيحية الغربية (لا المنزلة) ومع الكنيسة.

وهى قضية منفصلة تماما عن مفهوم الإسلام الذى لم يكن دينا لاهوتيا (أى بمعنى العبادة وحدها) بل كان جامعا بين علاقة الإنسان مع الله تبارك وتعالى من ناحية، وبين المجتمع من ناحية أخرى، وقد وردت عبارة الحكم بما أنزل الله تبارك وتعالى فى القرآن الكريم مؤكدة هذا المعنى فى بضع عشرة آية.

﴿إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس بما أراك الله﴾

﴿وأن احكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم﴾.

(أما العلمانية) فإنها مصطلح أوروبى يعتمد على مصدر واحد للمعرفة هو العقل، ويرفض المصادر الأخرى: كالوحى والإيمان بالغيب، فالعلمانية تقف فى الطريق المعاكس لكل دين من الأديان.

العنصر اليهودى فى الفكر الغربى المسيحى

من الواضح أن العنصر اليـهـودى فى الفكر الغـربى المسـيـحى هو عنصـر أسـاسى وجذرى باعتبار أن المسيحية وليدة اليهودية، وهى فى المفهوم الصحيح آخر رسالات السماء لبنى إسرائيل فعلاقتها بالمسيحية أساسية.

وقد انحرفت كما انحرفت المسيحية وشكلت لها تصوراً خاصا بها يبدو واضحا فى الدراسات التى قام بها علماء الغرب للتوراة ومصادرها، وماتحمله من تحريفات وأخطاء وإضافات على مدى الأزمنة، فضلا عن أن التوراة الموجودة الآن (العهد القديم) ليست هى التوراة التى نزلت على موسى، ولكنها التوراة التى كتبها الأحبار فى المنفى البابلى بعد تدمير الهيكل وطردهم من أورشليم.

ويظهـر هذا الأثر واضحا فى الصـورة التى رسـمـتـهـا، والتى تحـمل صـورة الانتـقـام الشـديد والحقـد الشـديد على كل الأجناس والأديان، فـالفكر اليـهـودى كـان له دوره الخطير فى تحويل المسيحية المنزلة إلى التبعية لمفاهيم اليـهـود واستـهـدافـهم السيطرة العالمية، والتى ظهرت من بعد فى الفلسفة الماسونية، وفى بروتوكولات صهيون.

ثم كان المفهوم الربوى الذى سيطر على الغرب والمسيحية، ثم على العالم كله من بعد، كان مفهوما يهوديا أساسا مرتبطا بمحاولتهم إقامة الحكومة العالمية التى تجعل من جميع الشعوب عبيداً وتابعين لليهود على نحو ماتصوره الصهيونية.

ومن هنا فإن السيطرة الاقـتـصـادية العـالمية لليـهـود قـد خـضـع لهـا الفكر الغـربى المسيحى، كـما سيطرت خطة اليهـودية فى تدمير القيم الأخلاقية وإثارة روح التحلل والجنس والإباحـة على النحو الذى هو قـائم اليـوم، حـتى ليـمكن القـول بأن الفكر البشرى العالمى اليوم المرتبط بالمسيحية والغرب قد أصبح يهوديا تماما، من حيث جمعه بين إحياء الفرق الضالة وتدمير مقومات الأخلاق خاصة والدين عامة فى العالم كله.

وقـد توجـهـت هذه الخطط بعـد احـتـواء المسـيـحـيـة إلى الاسلام لاحـتـوائه، حيث أصبحت الليبرالية الغربية والشيوعية الماركسية وجوها متعددة للفكر الماسونى اليهودى الزاحف، ممثلا فى الفلسفة المادية والعلمانية، وفتح الطريق واسعا أمام مفاهيم الفرويدية والوجودية، ومفاهيم مدرسة العلوم الاجتماعية (دوركايم وليفى بريل) تتفتح أمامها

الصحافة والمدرسة والإعلام وأدوات الترفيه والمسرح، كلها تعمل فى خدمة هذه الأهداف وتقدمها فى نفس الوقت الذى تصور الدين بصفة عامة والإسلام بصفة خاصة على أنه دين عبادى لا صلة له بالمجتمع أو السياسة أو الاقتصاد أو التربية.

لقد جرى احتواء الإسلام بالفلسفة اليونانية فى العصر الحديث حيث أعيد طرحها فى مناهج التعليم والجامعات مع التوسع فى ترجمة الآثار اليونانية من مسرحيات وأساطير فى محاولة لضرب مفهوم التوحيد الخالص، وقيام تصور وثنى فى قلب الفكر الإسلامى.

وإذا كان المسلمون فى مرحلة ترجمة الفكر اليونانى فى العصر العباسى قد قاوموا ودحضوا فإننا عجزنا عن مقاومة هذا التيار التغريبى الخطير الذى ارتبط مع قضية الإسرائيليات مما كان له أسوأ الأثر فى فهم الإسلام فهما صحيحا مؤصلا.

ولقد كانت الخدعة الكبرى هى فرض (مفاهيم التوراة على التاريخ الإسلامى) وفى مقدمة ذلك فكرة (السامية) التى وضعها باحث يهودى متعصب فى محاولة لتكون بديلا عن (الحنيفية الإبراهيمية) التى استمدت مفهومها من الدين المنزل، ثم دعاوى أخرى تحاول أن تخضع تراث إبراهيم عليه السلام كله لأبناء إسحق دون أبناء إسماعيل.

وقد تبين أن علماء أوروبا دونوا تاريخ الشرق القديم فى ضوء التوراة قبل انتشار البعثات التبشيرية وتحليل نتائجها العلمية، وكانوا غالبا يستفيدون من نصوص التوراة بالرغم مما فى هذه النصوص من تناقضات واضحة، وقد أكدت هذه التناقضات بعد ظهور الكشوف الأثرية فى مناطق كثيرة أن هناك هوة واسعة بين الحقيقة التاريخية وبين ماتخيله الذين عملوا فى نقل التوراة وتحوير نصوصها لغايات أساسية كان القصد الرئيسى منها هو الحط من مكانة الشعوب المعادية لإسرائيل وتزوير الأحداث لصالح اليهود والغض من شأن العرب.

وبالرغم من الأبحاث الضافية التى كشفت عن مصادر (التوراة) الموجودة الآن وأنها من كتابات اليهود فى إبان النفى البابلى فإن هناك من لايزال يدافع عنها.

يقول الدكتور أحمد سوسة فى موسوعته الضخمة عن تاريخ العرب قبل الإسلام: إن أهم الأكاذيب العلمية التى أوضحتها الاكتشافات توصل إلى أن الكثير مما أوردته

التوراة من قصص وأساطير وشرائع يرجع إلى أصل قديم وجد مثاله أو مايشابهه فى المدونات الأثرية ، وأن شرائع التوراة نفسها هى الشرائع التى كان يمارسها الكنعانيون والبابليون من قبل، وقد اقتبسها اليهود ومارسوها ثم أدخلوها فى كتبهم المقدسة.

وقال إن التوراة الحالية كتبها اليهود فى القرن السادس قبل الميلاد أى بعد عهد موسى بثمانية قرون.

وقال الدكتور أحمد سوسة :

إن بين شريعة التوراة وشريعة حمورابى تشابها إن لم يكن تماثلا فى ثمانى فقرات من تشريع العقودات الجنائية والأخلاقية، وفى ثلاثة من تشريعات المعاملات وفى التزوج بأكثر من واحدة مع إضافات من مدونات (أوغاريثية) كنعانيه جاء فى التوراة ما يماثلها.

وقال : إنما يغيب عنهم أن القرآن الكريم ينفرد ببيانه الخاص لأخبار الأولين لايتعلق فيها بذكر ما ليس مناط اعتبار من أسماء أشخاص وأزمنة وأحداث وأمكنة ووقائع .

وقد كتب كثير من علماء الغرب عن تحريف التوراة:

١ـ باروخ سبينوزا: شن حملة شعواء فى كتابه (المقالة اللاهوتية) لما وجد فيها من التناقضات الفادحة.

٢ـ القسيس الفرنسى ريتشارد سيمون فى كتابه (التاريخ النقدى للعهد الجديد ١٦٧٨) على أن التوراة المتداولة ليست مما أنزل على موسى.

كذلك فقد كتب حسين ذو الفقار (العربى ـ نوفمبر ١٩٧٩) تحت عنوان : لماذا أسقطت التوراة أربعة قرون من التاريخ؟

قال : التوراة هى الأسفار الخمسة التى يطلق اليهود عليها هذا الاسم، والتى يعتبرونها (أسفار الشريعة) ، ادعوا أن موسى عليه السلام هو صاحبها، ألهمه الله (تبارك وتعالى) إياها، فى حين يطالعنا الكتاب الكريم (القرآن) بما يدحض ذلك؛ إذ يقول سبحانه وتعالى:

﴿وجعلنا قلوبهم قاسية يحرفون الكلم عن مواضعه ونسوا حظا مما ذكروا به﴾ [سورة المائدة: الآية ١٣]

وقال إن إبراهيم بن عزرا هو أول من حاول تقديم دراسة نقدية لأسفار التوارة: (ولد ١٠٩٢م) والعالم الفرنسى ريتشارد سيمون الذى أصدر عام ١٦٧٨م كتابه (التاريخ النقدى للعهد القديم) ينفى فيه نفيا قاطعا نسبة أسفار الشريعة إلى موسى عليه السلام، مؤكداً أنها مجموعة من مدونات مختلفة الأصول عكفت أجيال متعاقبة من الأحبار على إعادة تسجيلها باجتهاد وهوى (تحويرا وحذفا وإضافة)، حتى يتوفر عليها آخر الأمر (عزرا ومريدوه) خلال القرن الرابع قبل الميلاد، فتستقر على الوحدة التى تطالعنا بها اليوم.

وقد تصدى لها أساقفة الكنيسة الكاثوليكية (وعلى رأسهم يوسيفى) دفاعاً عن قدسية العهد القديم .

وقد عارض التوراة بعد ذلك كثيرون في مقدمتهم: باروخ سبينوزا الذى تعرض لنصوص التوراة، وقد تأثر بالتعليقات النقدية (إبراهيم بن عزرا) تلك المحاولات التى شجعت الباحثين فيما بعد على إخضاع النصوص ذاتها لتحليل دقيق من حيث أصولها إذ اتضح أن هناك اختلافات بينه وبين الأساليب والتراكيب المستحدثة.

ويسترعى الانتباه تعارض من حيث التفاصيل المتعلقة بأحداث بعينها:

أولها: روايتان متناقضتان افتتح بهما سفر التكوين وصفا لبدء الخليقة فى الأولى بخلق الله (ألوهم) الإنسان في صورته ذكرا أو أنثى بعد أن كان ملء الأرض نباتا وحيوانا.

أما الرواية الثانية فإنها تقرر أن الرب الإله (يهوه ألوهيم) جعل آدم من تراب ونفخ فى أنفه نسمة حياة، وذلك قبل أن يكون ثمة نبات وحيوان.

ويلحظ الدارسون: إن ازدواجية الروايات هى ظاهرة متفشية فى جوانب الكتاب المقدس وليست مقصورة على أسفار الشريعة الخمسة، وقد انكب الدارسون على توراة اليهود بحثا عن الاصول، وقد لوحظ تكرار ازدواجية الروايات، مما تقودهم إلى يقين

بأنها قد استقيت من نصين متقابلين، وإن اتسما ببعض تواز فأحدهما إسرائيلى الأصول (نسبة إلى مملكة إسرائيل فى الشمال) والآخر يهودى (نسبة إلى مملكة يهودا فى الجنوب)، بينما يزايد على الأقل من حيث الاسم المستخدم علما على الرب المعبود.

ويكاد الخبراء يجمعون آخر الأمر على أن أسفار التوراة تعود إلى توليفات مستقاة من أربعة مصادر رئيسية على الأقل، غير عديد من روافد فرعية ربما عاد فعلها إلى مأثورات لم تكن تمت إلى بنى إسرائيل أو بنى يهودا إلا أنها صارت بمرور الزمن شائعة بين شعوب المنطقة جميعا.

أما قصة الخلق فى التوراة فهى شبيهة بالأساطير السومرية والملحمة البابلية، وشبيهة بهذا قصة الطوفان، وبالجملة فهى أربعة مصادر مختلفة الأصول استقيت منها نصوص التوراه».

❑❑❑

فإذا قيل لماذا حرّفت التوراة وأسقطت منها نصوص فإنما كان ذلك لتحريف الحقيقة الخاصة بميراث إبراهيم عليه السلام فى ابنه إسماعيل وفى تأكيد النبوة لمحمد ﷺ:

﴿الذين يتبعون النبى الأمى الذى يجدونه مكتوبا عندهم فى التوراة والإنجيل﴾ وقد أشار كثير من الباحثين إلى تجاهل التوراة لذكر الكنعانيين وأن ماذكره سفر التكوين (الإصحاح العاشر) عن أنساب نوح عليه السلام قد تجاهل ذكر الكنعانيين، وقال بروكلمان: إن بنى إسرائيل أقصوا الكنعانيين من جدول بنى سام لأسباب سياسية ودينية مع أنهم كانوا يعلمون حق العلم ما بينهم وبين الكنعانيين من الصلات العنصرية واللغوية المثبتة.

كذلك تنكر التوراة رحلة إبراهيم عليه السلام إلى مكة المكرمة، وإقامة ابنه إسماعيل بها وإعادة بناء البيت الحرام، فضلا عن تقديم إسحق على إسماعيل وفساد رأيهم فى إمامة إبراهيم المشروطة بصلاح الأخلاف الذى يدخلون به هذه الإمامة:

﴿وإذ ابتلى إبراهيم ربه بكلمات فأتمهن قال إنى جاعلك للناس إماما قال ومن ذريتى قال لا ينال عهدى الظالمين﴾.

أما هم فقد جعلوها إمامه مطلقة غير مشروطة فكذبوا على الحقيقة.

ولقد امتدت إمامه إبراهيم عليه السلام فى أبناء إسماعيل وتحققت إقامة الملك العظيم الذى أشار اليه القرآن الكريم:

﴿أم يحسدون الناس على ماآتاهم الله من فضله فقد آتينا آل إبراهيم الكتاب والحكمة وآتيناهم ملكا عظيما﴾

وهذا كله يؤكد فساد الدعوى المدعاة من أن إقامة إسرائيل تمثل تحقيق نبوءه وعد الله لإبراهيم عليه السلام.

وقد حاول اليهود أن يرسموا لهم دوراً فى الحياة العربية قبل الإسلام، ردده كثير من أتباعهم وفى مقدمتهم الدكتور طه حسين وإسرائيل ولفنسون.

كما كانت روح الماسونية واضحة فى كتابات فيلكس فارس وإسماعيل أدهم.

وهى دعاوى باطلة كشفها كثير من المؤرخين المنصفين .

كذلك فقد جرت المحاولات لإيجاد علاقة وهمية بين العرب والعبرانيين فى مناهج الدراسات الجامعية، وإذاعة مقولات باطلة على نحو ماكتبه إسرائيل ولفنسون عن اليهود فى جزيرة العرب.

ولقد بلغ الأمر بالدكتور طه حسين أن قال : « للتوراة أن تحدثنا عن إبراهيم وإسماعيل، وللقرآن أن يحدثنا عنهما أيضا، ولكن ورود هذين الاسمين فى التوراة والقرآن لايكفى لإثبات وجودهما التاريخى، فضلا عن إثبات هذه القصة التى تحدثنا بهجرة إسماعيل بن إبراهيم إلى مكه ونشأة العرب المستعربة بها» .

«ونحن مضطرون إلى أن نرى فى هذه القصة نوعا من الحيلة فى إثبات الصلة بين اليهود والعرب من جهة وبين الإسلام واليهودية والقرآن والتوراة من جهة أخرى» .

«وأقدم عصر يمكن أن تكون قد نشأت فيه هذه الفكرة إنما هو هذا العصر الذى أخذ اليهود يستوطنون فيه شمال البلاد العربية ويبنون فيه المستعمرات»

« أمر هذه القصة إذن واضح، فهى حديثة العهد، ظهرت قبل الإسلام واستغلها الإسلام لسبب دينى وقبلتها مكة لسبب دينى وسياسى أيضا» . ا.هـ

وهكذا حاولت المفاهيم اليهودية أن تقتحم التاريخ الاسلامى والعقيدة الإسلامية أيضا، ولقد كان هذا كله تمهيدا للدعوة الجديدة التى بدأتها الصهيونية من أجل احتلال بيت المقدس وفلسطين، ومن هنا اتسع نطاق الحديث عن السامية بوصفها اليهودية وليست العربية .

من الحروب الصليبية إلى هاملتون جب وكتابه (وجهة الإسلام)

من انتهاء الحروب الصليبية ١٢٥٨م إلى الحملة الفرنسية ١٧٨٩، وهى مسافة ستة قرون كاملة لم يتوقف الغرب عن المؤامرة ضد الإسلام ووضع الخطط لتدمير الدولة العثمانية والخلافة وتمزيق وحدة الأمة الإسلامية، وقد استطاع الغرب التهام علوم المسلمين فى الأندلس والتقدم فى مجال الحرب وصناعة القتال، حتى أمكن تصفية وجود المسلمين فى الأندلس وأوروبا ١٤٩٢م، وكان ذلك مقدمة للغزو الغربى المسلح لتطويق عالم الإسلام من نفس نقطة انتهاء وجود المسلمين فى الأندلس إلى السيطرة على أفريقيا وآسيا، ومحاولة التآمر على الدولة العثمانية حتى تمزقت بالفكرة القومية التى بثها المستشرقون فى تركيا بالعودة إلى الماضى القديم وإحياء الطورانية، ومن ثم بدأ تمزق الكيان الإسلامى المتحد المتكامل.

وفى ذلك الوقت تمكن القناصل الفرنسيون والإنجليز من التدخل والسيطرة وجمع ذخائر التراث الإسلامى ونقله إلى أوربا.

ثم كان مشروع الوزير البريطانى (كامبل بترمان ١٩٠٧) الذى كان يرمى إلى مواجهة التجمع الإسلامى وتمزيقه بوضع عازل غريب بين شطرى الأمة الإسلامية على النحو الذى تحقق بمؤامرة السيطرة اليهودية على فلسطين وبيت المقدس.

وقد جاء هذا المخطط تاليا للحملة الفرنسية ١٧٨٩ التى حاولت السيطرة على مصر والشام وإقامة إمبراطورية فرنسية تنافس نفوذ بريطانيا فى الهند.

وتوالت الأحداث بالسيطرة على الهند (بريطانيا) وأرخبيل الملايو (هولندا) ثم الجزائر ومصر والمشرق كله.

ثم كانت مؤامرة الدونمة بإسقاط الدولة العثمانية وإسقاط الخلافة والسيطرة عن طريق الاتحاديين على فلسطين وتوزيع أجزاء الوطن الإسلامى على إيطاليا وفرنسا وبريطانيا فى مؤامرة معروفة، ولقد كان دور كرومر فى مصر وزملائه فى أقطار الوطن العربى مهما فى توطيد التغريب.

كان ذلك كله مقدمة لتحقيق خطة(تغريب العالم الإسلامى) التى درسها هاملتون جب وزملاؤه على نحو ما بيناه.

جاء تقرير كامبل (لندن) ١٩٠٥_١٩٠٧.

وقد اشتركت فيه لجنة من كبار علماء التاريخ والاجتماع والاقتصاد، تمثل كل الإمبراطوريات الاستعمارية ومن أعضائها البروفسور چيمس مؤلف كتاب (زوال الإمبراطورية البريطانية) ولوى دمادلن مؤلف كتاب (نشوء وزوال إمبراطورية نابليون) والبروفسور ليسترولنسج وغيرهم.

هذا التقرير الذى يعيد الأساس الذى تقوم عليه إستراتيجية الاستعمار تجاه الوطن العربى مازال ضمن الوثائق التى تحافظ بريطانيا على سريتها التامة.

ومن أبرز التوصيات العاجلة:

«إن إقامة حاجز بشرى قوى وغريب على الجسر الذى يربط أوروبا بالعالم القديم ويربط معا بالبحر الأبيض المتوسط بحيث يشكل فى هذه المنطقة وعلى مقربة من قناة السويس قوة عدوة لشعب المنطقة وصديقه للدول الأوربية ومصالحها: هذا هو التنفيذ العاجل للوسائل والسبل المقترحة».

وقد جاء هذا التقرير ردا على سؤال أساسى هو: هل لديكم وسائل وأسباب تحول دون سقوط الحضارات والإمبراطوريات، أو يؤخر مصير الاستعمار الأوروبى، وإن الاستعمار الاوروبى قد بلغ الذروة، وأصبحت قارة قديمة استنفدت مواردها وشاخت معالمها، بينما العالم الآخر لايزال فى شبابه يتطلع إلى مزيد من العلم والتنظيم والرفاهية.

وجاء فى نهاية التقرير ما يلى:

إن كان هناك خطر فإنه يكمن فى البحر المتوسط بالذات باعتباره همزة الوصل بين الشرق والغرب ويعيش على شواطئه الجنوبية والشرقية بصفة خاصة شعب واحد تتوافر له وحدة التاريخ والدين واللغة، وكل مقومات التجمع والترابط، فضلا عن نزعاته

الثورية وثرواته الطبيعية الكثيرة، فماذا تكون النتيجة لو نقلت هذه المنطقة الوسائل المدنية ومكتشفات الثورة الصناعية الأوربية وانتشر التعليم والثقافة، وإذا حدث هذا فسوف تحل حتما الضربة القاضية بالإمبراطوريات القديمة» .

وكانت الإجابة: إقامة حاجز بشرى مغاير لأهل المنطقة هو إسرائيل، وخلق تيارات قومية وإقليمية ونحل عرقية وانعزالية، وتدمير وجود شباب قادر على العطاء لا يشغله إلا اللهو والترف والتحلل.

❑❑❑

دخلت بريطانيا مصر فاتحة ١٨٨٢ وعين اللورد كرومر قنصلا عاما ١٨٨٤ ، وبقى هو الحاكم الفعلى لمصر حتى عام ١٩٠٧ .

ومن المعروف أن كرومر لم يكن حاكما عسكريا، ولكنه كان مفكراً سياسياً استعمارياً واسع الحيلة والأفق .

ولقد حمل كرومر قيادة الفكر الاستشراقى التغريبى الذى ما يزال قائما إلى اليوم ١٩٩٢(أى بعد مائة وعشرة من الأعوام) فهو يعزو تأخر مصر إلى الإسلام، وقد كشفت كتاباته عن حقد شديد، فضلا عن الغرور والاستعلاء.

وهو يرى أن العقلية الشرقية التى كونها الاسلام هى بمثابة عقبة كأداء تسد على الشرق طريق التقدم، وهو يدعو الى استبدال هذه العقلية بعقلية غربية متطورة، وقد سعى خلال ربع قرن الى تكوين جيل جديد من الشباب المؤمن بالغرب والموالى لبريطانيا.

وقد بلغ من غرور كرومر أنه رفض أن يتعلم اللغة العربية،وقد حاول طيلة حكمه أن يبتعد بمصر عن الأصالة الإسلامية والعربية، وكان لطفى السيد يتقدم بآرائه وكأنها النموذج الذى يرغب الغرب أن يقام فى مصر، دولة مصرية فرعونية كارهة للعروبة والإسلام، وإيمان أعمى بالديمقراطية الغربية والمفاهيم الأوربية التى هى نتاج شعوب تختلف فى الجنس والدين واللغة.

❑❑❑

ومن كرومر يتشكل ذلك الفكر التغريبى والاستشراقى الذى ظل يهاجم الإسلام خلال أكثر من قرن كامل دون التنبه إلى قدرة الإسلام على استعادة المؤمنين به ومواجهة هذه المحاولة الخطيرة.

كان الغرب يريد ألا يصل المسلمون إلى شىء من النهضة أو التقدم، وكان حريصا على ألا يتحقق لهم قيام الإسلام بمعناه الجامع: بوصفه منهج حياة ونظام مجتمع.

ومن هنا كانت حملته على القيم الإسلامية، وعلى فريضة الجهاد، وإثارة الشبهات حول النصوص القرآنية والأحاديث النبوية والفقه والتاريخ، فى محاولة لخلق تصور غربى للإسلام يخرجه عن جوهره الأصيل. (وهو الهدف القائم اليوم)

ومنذ اليوم الأول لترجمة آثار الغرب والترويج لها فى مناهج التعليم والصحافة والمسرح وأدوات الإعلام والترفيه، كان صوت الأصالة واضحا وقائما بالرغم من كل العوامل التى استطاع النفوذ الغربى بوجوده فى قلب العالم الإسلامى وسيطرته السياسية والعسكرية، فقد كشف علماء المسلمين عن هذه الحقائق: وعن الخطر الشديد الذى يواجهه المجتمع الإسلامى بحجب الشريعة الإسلامية عن التعليم والمحكمة والمصرف وإطلاق القانون الوضعى.

❑❑❑

وعندما ألغيت الخلافة كان التغريب قد أعد من يدافع عن تصرفه .

كان كتاب على عبد الرازق فى مقدمة الداعين إلى أن الخلافة ليست شرطا من شروط الإسلام، وقد هوجم على عبد الرازق هجوما شديداً ووصف كتابه بأنه ضربة موجهة إلى الإسلام، وأنه برأيه هذا يشارك الغربيين المستعمرين الذين يسعون إلى تحطيم الإسلام من الداخل ويسهل لهم السيطرة على أهله، وعلى المسلمين أن يتكاتفوا أمام هذا الغزو المركز ويقيموا لهم خليفة، ودعا علماء الإسلام إلى تكاتف العرب والترك على الرغم مما حدث بينهم من جفوة، فالعرب هم العربية وأهلها والعربية لغة الإسلام والاتراك هم القوة التى تستطيع أن تدافع عن بلاد المسلمين .

وقد دعا كتاب الإسلام منذ جمال الدين ومحمد عبده ورشيد رضا إلى إزالة

الخلافات بين السنة والشيعة بالرجوع إلى الإسلام الصحيح، كما ورد فى القرآن الكريم والسنة الصحيحة وما أجمع عليه الصحابة فى الجيل الأول الذين اتصلوا بالرسول صلى الله عليه وسلم، وذلك ليصبح المسلمون يدا واحدة تستطيع الوقوف فى وجه الدول الأوربية الغازية التى تحاول أن تقضى على المسلمين بالتشكيك فى الإسلام.

كما دعوا إلى فتح باب الاجتهاد على أن يقوم بالفتوى فى ذلك العلماء المؤهلون للإفتاء. وجعل اكتساب علوم الغرب واجبا يأمر به الدين لأن الدين يريد للمسلمين أن يكونوا أقوياء ولن يكونوا أقوياء إلا إذا أخذوا من الغرب علومه ومعارفه التى لا تتعارض مع الإسلام .

الهدف هو احتواء الإسلام

منذ اليوم الأول لظهور الإسلام أحس أصحاب الأديان والأم بخطر هذا الضوء الكاشف الذى قدم للبشرية للمرة الأولى منهجا كاملا جامعا لبناء المجتمع الإنسانى، ويكشف زيف الفكر البشرى الوثنى الإباحى الذى سيطر بانحراف الأم عن رسالة السماء، حيث تحولت المفاهيم الربانية المنزلة إلى وجهة مختلفة، حيث انحرفت اليهودية، إلى دعوة عنصرية بالغة الخطر، هى شعب الله المختار، كما انحرفت المسيحية إلى مفهوم التعدد الذى نقلته من الديانات الوثنية القديمة، كما خرجت من طبيعتها بوصفها دينا لبنى إسرائيل متابعا للتوراة ورسالة موسى إلى أن تصبح رسالة مستقلة عالمية على النحو الذى انحرفت إليه.

فلما جاء الإسلام بكشف زيف هذه المحاولة وتصحيح طريق رسالة السماء فوصل دعوة محمد ﷺ برسالة حنيفية إبراهيم السمحة بعد أن تخلت عنها: اليهودية والمسيحية، وكان هذا الأمر خطيرا إذ أعلن بوضوح أن قادة هذين الدينين قد زيفوا رسالات السماء، فأضافوا إليها وحذفوا منها لتتواءم مع أهوائهم ومطامعهم فضلا عن إنكارهم الرسالة الخاتمة التى بشرت بها التوراة وبشر بها الانجيل:

﴿تجعلونه قراطيس تبدونها وتخفون كثيرا﴾.

ومن هنا فقد ولد الاسلام فى قلب الخطر، وتألبت عليه القوتان المسيحية واليهودية جميعا، وزاد حقدهما وخطرهما عندما استطاع الاسلام فى خلال أقل من قرن من الزمان إقامة دولته الواسعة العريضة.

وقد بدأت محاولة حصاره بالضربات المتوالية من جبهة الروم وحدود الشام، ثم تحولت إلى خطة واسعة لضرب الإسلام فى كل مكان، فكانت الحروب الصليبية وحروب الفرنجة على مختلف الجبهات: دمشق وفلسطين ومصر من ناحية، والأندلس وصقلية وثغور المغرب من ناحية أخرى، ثم كان التآمر مع التتار لتدمير بغداد والزحف على الشام فى خطة مشتركة بين الصليبيين والمغول، حيث اقتحمت القوات الأوروبية

النصرانية بلاد المسلمين وأقامت إمارات المملكة الصليبية فى الرها، وأنطاكيا وطرابلس ومملكة بيت المقدس.

وامتدت هذه المعارك والزحوف على بلاد المسلمين ثلاثة قرون أو يزيد، وكان هدفهم واضحا فى السيطرة ، بل لقد بلغ الأمر بالصليبيين أن شقوا طريقهم إلى البحر الأحمر فى محاولة لضرب الحرمين الشريفين فى الحجاز.

كانت المحاولة خطيرة ومستمرة بعد أن استطاع الغرب أن يمتلك علوم المسلمين، وينشىء البواخر العملاقة ويسيطر على البحرين الأبيض والأحمر، بل إن المعركة فى الأندلس استمرت ثمانية قرون، وانتهت بإخراج المسلمين والسيطرة على مقدرات الإسلام العلمية التى كانت مبثوثة فى جامعات قرطبة وإشبيلية وبلنسية، وفى نفس الوقت بدأت المحاصرة للمسلمين على شواطىء أفريقيا وأعلنت القوى الاستعمارية المسيطرة أنها تعمل على حصار الإسلام فى كماشة لتقضى عليه وتنتهى من أمره.

وظل الاسلام يقاوم ويثبت فى المواقع ويرابط فى الثغور ويقدم الضحايا، حيث تآزرت كل قوى الغرب مع كل قوى المغول ومراكز الحبشة ولبنان وغيرها على تصفيته.

وجاءت فى قلب هذه المعركة تلك الدعوة الخطيرة التى دعا إليها لويس التاسع بعد هزيمته فى المنصورة، وهو إعلان فشل كل محاولات القضاء على الإسلام بالحرب فى مواجهة أمة تؤمن بالموت فى سبيل الله، وتقدم أرواحها دفاعا عن الإسلام، أما الدعوة فهى التحول إلى حرب الكلمة والعمل على تزييف مفهوم الإسلام وإخراجه من جوهره الأصيل ليكون دينا لاهوتيا مقصورا على العبادة بعيدا عن السيطرة على المجتمع أو الاقتصاد أو السياسة أو التربية ونبتت فى هذا الموقع دعوات :

١ ـ التبشير (تحويل المسلمين الى النصرانية) .

٢ ـ الاستشراق وهو العمل على تزييف مفاهيم الإسلام.

٣ ـ تحطيم الوحدة الإسلامية بإقامة مشاريع القوميات والأقليات.

٤ ـ حجب الشريعة الإسلامية وإقامة المجتمع على القانون الوضعى.

٥ ـ إقامة نظام الاقتصاد الربوى بديلا للاقتصاد الإسلامى.

٦ـ تفريغ التعليم والتربية من مقومات الإسلام.

٧ ـ إقامة نظام العلمانية حيث يجرى الفصل بين الدين والدولة.

٨ ـ إقامة عنصر غريب فى قلب الوطن الإسلامى، كالصهيونية للحيلولة دون تحقق وحدة الأمة الإسلامية.

٩ ـ فتح الباب أمام الفكر الماركسى والإباحى والإلحادى وإحياء فكر الفرق القديمة والدعوات الهدامة.

وهكذا هبت الريح الصفراء على أفق الفكر الاسلامى على نحو أشد خطورة من مؤامرة ترجمة الفكر اليونانى فى العصر الأول.

وقد تحقق للغرب العودة فى حرب تاسعة بالسيطرة على بلاد الإسلام وأخذ فى تنفيذ البرنامج ونشأت فى ظل هذا التحول مؤسسات التنصير والاستشراق، وجرت ترجمة القرآن للبحث عن مواضع التشكيك، وجرى الحصول على التراث الإسلامى ونقله من المعاهد والمساجد إلى مكتبات الغرب للانتفاع بما فيه، ولحجب الصالح منه وإحياء التراث الزائف والعمل على نشره وشغل الباحثين به فى الجامعات والمعاهد.

وقد مضت القوى المسيطرة على مقدرات الأمة الإسلامية و(خاصة الوطن العربى) فى العمل على تحقيق هدف أطلق عليه لأول مرة اسم (التغريب)، حتى جاء هاملتون جب وأربعة من المستشرقين ليكشفوا عام ١٩٣٢ عما حققت التجربة التى أريد بها تغريب الإسلام وإلى أى مدى حققت من النتائج، وماهى العوامل التى تمكن من إتمام هذه التجربة:

يقول هاملتون جب فى مقدمة كتابه (وجهة الإسلام)

إن من يتبع أسباب وحدة الحضارة الإسلامية التى لم تستطع العوامل الإقليمية المختلفة أن تؤثر فيها أو تنال منها على تعاقب الأزمان وتباين الأصقاع مما جعل العالم

الإسلامى كتلة سياسية خطيرة: ذلك العالم المترامى الأطراف الذى يحيط بأوروبا إحاطة محكمة تعزلها عن العالم .

ولقد كانت عملية (التغريب) من أجل تحطيم هذه الحصون الحامية له بإدخال الآراء والثقافات الغربية لزلزلة قواعد هذه الوحدة، ولتنقل المجتمع الإسلامى إلى حالة من الاضطراب والقلق النفسى.

وقد تحقق ذلك فعلا عندما تمكنت أوروبا من السيطرة على البلاد الإسلامية وفرض أنظمتها. [**التعليم ــ القانون ــ النظام السياسى**]

كما فرضت مفاهيمها وثقافتها. ويصل (جب) إلى أن التغريب قد حقق نتائج ذات أهمية كبيرة جعلت الإسلام هو العبادة وحدها، وقد انجاب الإسلام عن المجتمع، وإن الثقافة العربية (المستمدة من المسيحية) قد استطاعت أن تحقق الهدف فى أن تفتت الإسلام إلى وحدات فوقية تعكس التأثرات الأوروبية.

إن عوامل الوحدة هى اللغة والعقيدة والتراث والتاريخ، وإن تركيا استطاعت أن تقطع كل صلة بالماضى الإسلامى وتستبدل الحروف اللاتينية بالحروف العربية.

وليس من الممكن أن يحدث فى الأقطار العربية شىء مثل ما حدث فى تركيا، ولن ينفصل العرب عن الماضى المجيد فى التاريخ الإسلامى والأدب الإسلامى ، بل إن استعادة هذا الماضى وتجديد الحديث عنه هو أحد العوامل اليومية فى حركة البعث الإسلامى.

ومن هنا نفهم سر التركيز عل اللغة والتراث والتاريخ، لأنهم يعلمون أن تدمير هذه الحصون سيفضى إلى انهيار تام للوحدة الإسلامية.

وقال جب فى صراحة: إن الجهود المبذولة الآن لحمل العالم الإسلامى على الحضارة الغربية إنما تهدف إلى هدم وحدة الحضارة الإسلامية التى تقوم على وحدة المسلمين، لأن كل قطر سيتجه إلى اقتباس ما يلائم ظروفه من هذه الحضارة، وعندئذ تتعدد أساليب الاقتباس بتعدد البيئات الإسلامية المختلفة فتفقد الحضارة الإسلامية طابعها الموحد، بل لا يعود هناك شىء اسمه حضارة إسلامية .

أما الخطر الخطير فهو فقدان الذاتية الإسلامية والطابع الإسلامى تحت تأثير القوميات والتأثير الغربى فإن معنى هذا هو :

أن تسقط وحدة الفكر والحضارة وأن تتلاشى مهمة المسلمين المنوطة بهم وهى تبليغ الإسلام.

ويتساءل (جب) هل سيكون هناك ميول مشتركة بين الشعوب الإسلامية، وهل سيقوم إحساس بوحدة العمل ووحدة الهدف، أم أن الآراء الجديدة وحاجات الحياة الجديدة ستنجح آخر الأمر فى تشتيت المجتمع الإسلامى وتحطيم وحدته.

وتحدث عن أهمية التعليم والصحافة فى تحطيم الوحدة الإسلامية، وأن السبيل الحقيقى للحكم على مدى التغريب (الذى كان يسميه كرومر: الفرنجة) هو أن نتبين إلى أى حد يجرى التعليم على الأسلوب الغربى، وعلى المبادئ الغربية وعلى الفكر الغربى.

والأساس الأول فى كل ذلك هو أن يجرى التعليم على الأسلوب المادى ـ التفكير الغربى ـ وهذا هو السبيل الوحيد ولا سبيل غيره .

ويتساءل جب: هل استطعنا أن نعمل شيئا فى سبيل تحرير التعليم من تبعية العرب والإسلام، وما هو مدى تأثير مدارس الإرساليات والابتعاث ومدارس اللغات وغيرها على تفكير الزعماء المدنيين وقليل من الزعماء الدينيين؟

أما الصحافة فقد دعا إلى أن يكون الاهتمام الأكبر منصرفا إلى خلق رأى عام، والسبيل إلى ذلك هو الاعتناء بالصحافة.

ويقرر جب أن الصحافة من أقوى الأدوات الأوروبية وأعظمها نفوذا فى العالم الإسلامى.

ويقرر أن معظم هذه الصحف واقع تحت تأثير الآراء والأساليب الغربية، وهى لاتلعب دورا فى تشكيل الرأى العام بالقياس إلى الأحداث المحلية فحسب، ولكن صحفهم تحتوى كذلك على مقالات تشرح الحركات السياسية والاقتصادية فى أوروبا.



إذن فإن ا خطة التى جرى تدبيرها وقطعوا فى تنفيذها شوطا طويلا كانت ترمى إلى نشر ما يسمـيه هاملتون جب (الآراء الغربية من الواجهة الاجتماعية ومن الناحية السياسية) على نحو يحجب المفاهيم الإسلامية القائمة، وفى محاولة لحصر الإسلام فى دائرة ضيقة هى دائرة العبادات، وأن يجرى ذلك على نحو يقضى على (التميز) الذى تمثله خصائص الإسلام فى هذا المجتمع، والعمل على (توهين) الروابط المقدسة وإحلال روابط أخرى، والعمل على ابتعاث الطاقات القومية فى أقاليم الإسلام بما يحقق تفرقة وحدتها وعزل كل منها بطابع مختلف عن الأقاليم الأخرى وبذلك يختلف معنى الوحدة الإسلامية فى هذا العصر الحديث اختلافا تاما عن معناها فى العصر الوسيط.

ويتساءل هاملتون جب عن مدى أثر الأفكار الجديدة (الغربية الوافدة) هل تنجح هى والنظم الداخلية فى تبديد (وحدة الفكر) الإسلامى؟

وهل تنجح آخر الأمر فيما يسميه «زلزلة بناء المجتمع الإسلامى وتقويض أركانه» أم هل يطرأ على الموقف فى أى وقت (عامل جديد) لانراه الآن ولا نتوقعه، وإن كان ما حدث فى تركيا مقدمة وإرهاصاً لما يحدث فى الأقطار الإسلامية.

ويرى جب فى هذا موقفه فى ثلاثينيات القرن الحالى: إن الأحزاب السياسية تقبل بالأوضاع الغربية الحديثة فى السياسة والاقتصاد بالرغم مما يوجه إلى المدنية الأوروبية من نقد.

ويقول: ومع مراعاة فوارق النشأة والتاريخ والتقاليد بين الشرق والغرب، فإن الجميع يعدون المدنية الغربية أساسا لمنهجهم، حتى هؤلاء المسلمون الذين يلتمسون المثل العليا فى ماضيهم وحده، ويذكرون من أمثله تاريخهم ما يدل على أن الإسلام قد سبق إلى جميع المبادئ التى تسعى إليها الآن .

ونقـول: إن مسـتر چب لـم يكن صـادقـا فى هذه الدعوى المدعاة، فـقـد تنبـه قـادة المسلمين مبكرا إلى مدى الخطر الذى يواجه المجتمع الإسلامى من التبعية للحضارة الغربيـة، وإن هذه الأحزاب القابلة لمنهج أوروبا هى صناعة غربيـة أسـاسـا، وقد اتخذت الدعوة الإسلامية منذ اليـوم الأول لاستقلالها موقفا واضحا إزاء الحضـارة الغربيـة، وخطرها على الإسلام، وأعلنت معارضتها الصريحة لمخططاتها، ورفضت قبول الانصهار فيهـا، وأكدت أن حاجة المسلمين والعرب تقتصر على نقل العلوم التجريبية ولكنها تعارض تماما قبول الأخلاق أو القيم أو المفاهيم الاجتماعية الغربية.

وهذا هو معنى «التكيف» فى مجتمع تسيطر عليه القوى الغربية سياسيا وعسكريا، ويفـرض عليه القـانون الوضعى والنظام الاقتـصادى الربوى، فضـلا عن طرح مفـاهيم القومية والعثمانية والسماح للشيوعية بنشر أفكارها.

وتحدث هاملتون چب عن الصحافة والتعليم والعلوم الاجتماعية الغربية فى محاولة لحجب الإسلام عن دوره الحقيقى فى بناء المجتمع وقصره على العبادات.

وعبارته فى هذا خطيرة حيث يقول :

«أدت هذه الحركة (أى حركة الاستشراق والتبشير) التى قام بها التعليم والصحافة إلى تحرير المجتمع الإسلامى من سيادة الدين».

«نعم: إن الإسلام من حيث هو عقيدة دينية لم يبق إلا قليلا ولكنه تنحى عن عرشه من حيث هو قوة اجتماعية تسود الحياة وتوجهها، ذلك أنه قد قامت إلى جانبه قوى جديدة تحكم فى بعض الأحيان بما يناقض تعاليم الإسلام، وبذلك تغير وجه الأمر فى العالم الإسلامى تغيرا أكيدا».

ثم يتحدث هاملتون چب عن التطورات التى حدثت فى المجتمع الإسلامى ابتداء من تركيا التى تغربت وإيران التى تخطو ومصر التى قطعت الطريق بخطى فسيحة،

وتونس التى هى على الطريق والأفغان التى تتراجع، وكيف انطوى المسلمون فى الهند على دينهم.

ويصل هاملتون جب إلى موقف خطير:

هو العمل على هدم الوحدة الإسلامية وتغليب القوميات، ويدعو إلى التقليل من المعاهد الدينية، وحفظ القرآن ودراسته، ويرى جب أن خطة التغريب بدفعها هذه النظريات والفلسفات والمناهج الوافدة تقترب كثيرا من صهر العالم الإسلامى فى بوتقه الحضارة الغربية، وهو يرى أن القوميات إذا قامت ستقضى على وحدة المسلمين، لأن كل قطر سيتجه إلى اقتباس ما يلائم ظروفه من هذه الحضارة، وعندئذ يتعدد أسلوب الاقتباس بتعدد البيئات الإسلامية المختلفة فتفتقد الحضارة الإسلامية قالبها الموحد بل لا يعود هناك شيء اسمه الحضارة الإسلامية.

حمايـة التميـز الذى يمثلـه الإسـلام
والتصـور الخـاص للحيـاة والمجتمـع والأخـلاق

تشكل العمل الخطير الذى أعده الغرب للسيطرة على الإسلام والمسلمين من أجل هدم مفهوم الإسلام الأصيل، وذلك من خلال (حرب الكلمة) بتحريف مفهومها الربانى والدعوة إلى التمرد على القيم والتحرر من كل قيود وضوابط الأخلاق وضوابط اللغة نفسها ووجهة الأمة أساسا.

ولقد استطاع النفوذ الأجنبى المسيطر بالاستعمار العسكرى والسياسى على مواقع القيادة بعد أن فصل بين العناصر من خلال القوميات وحجب سلطان الشريعة الإسلامية، وفرض القانون الوضعى والنظام الربوى والتعليم الغربى.

وكان الهدف واضحا وهو احتواء الأمة الإسلامية وصهرها فى بوتقه الفكر العالمى والحضارة الغربية، وتحطيم جناح الدعوة الإسلامية وتحويل الإسلام إلى دين عبادة، ولم يكن هذا العمل يسيرا أو ممكنا، وذلك أن الإسلام كان قادرا فى أشد أوقات الأزمات أن يصحح مسار أمته، ومن هنا كان عمل حركة اليقظة التى أعلنت تحرير الإسلام من التبعية والاحتواء كاشفا عن زيف دعاوى الغرب من أن الاختلاف بين الفكر الغربى والفكر الإسلامى ليس إلا جزئيات وفرعيات، وهو قول باطل وزائف، ذلك أن أخطر ما يختلف فيه الفكر الإسلامى عن الفكر الغربى يتمثل فى الأسس الحقيقية التى يتباين فيها فكر عن فكر، فضلا عن أن الفكر الغربى تشكل فى الحقيقة على النحو الذى بينّا من جماع الأساطير والوثنيات القديمة، ودعوات الإباحة والتحلل، وعصارات المجوسية والمانوية والمزدكية وعلم الأصنام اليونانى، بينما يقدمه الإسلام نفسه على أنه الدين الوحيد على وجه الأرض اليوم الذى يستمد مقوماته من كتاب لا يأتيه الباطل

من بين يديه ولا من خلفه، والحقيقة العالمية القادرة على العطاء الربانى إلى البشرية لتصحيح مسارها بتحرير قيمتها ﴿ **دينا قيما ملة إبراهيم حنيفا** ﴾. ومن هنا فإن هناك خلافا عميق الأثر بعيد الأغوار بين الفكر البشرى الذى عجز فى تجربته خلال القرون الخمسة الأخيرة عن العطاء الحقيقى، لأنه قام أساسا على الفلسفة المادية المنكرة للألوهية والنبوة والغيب والجزاء الأخروى والمسئولية الفردية والالتزام الأخلاقى، فكيف يمكن أن يلتقى الفكر الإسلامى المستمد من التوحيد الخالص والفكر الغربى القائم على الإلحاد والتعدد والوثنيات، والذى لم تستطع معطياته فى مجال السياسة والاقتصاد والاجتماع أن تحقق الأمن والسلامة للبشرية ، والتى احتاجت إلى تعديل مسارها، وتغيير طريقها بالإضافة والحذف لأنها لاتملك القدرة على مسايرة العصور أو تغير البيئات.

ولقد كان من حقنا نحن المسلمين مواجهة هذا الفكر الغربى المضطرب الغارق فى أوحال الوثنية الإباحية، وكشف الفوارق والاختلافات بينه وبين الفكر الإسلامى، وتحصين شبابنا المسلم من أن يقع فى هوة الانحراف، وذلك فى إطار إيماننا نحن العميق بدعوة الإسلام لنا أن نلتمس الحكمة أينما وجدناها، وأن نطلب العلم ولو فى الصين، بحسبان أن الإسلام دين مفتوح على الفكر البشرى كله، لايرى مانعا من قبول أساليب وتنظيمات ووسائل أى تجربة بشرية، ولكن عندما يقبل ذلك فإنما يقبل ما يقتبس بوصفه مواد خاما يجرى صهرها فى بوتقته دون أن يدع لهذا المقول أو المقتبس سبيلا إلى تغيير الطابع الاسلامى الربانى الأصيل.

وتقدير هذا القانون يصبح ضرورياً عندما نواجه (الفكر الغربى) الذى لايتقدم إلينا على أنه فكر خالص من حقنا أن نأخذ منه وندع، وإنما يزحف فى إطار النفوذ الغربى الذى يحاول أن يحتوى فكرنا ويغير طابعه الإسلامى الأصيل، وأن يزيفه ويصهره فى بوتقه الفكر الغربى باعتباره الفكر العالمى المسيطر فى هذا العصر (وهى سيطرة مرحلية

سوف تنتهى يوما ما) حيث لا يحق للفكر الإسلامى الربانى المصدر الذى تشكل منذ أربعة عشر قرنا أن يكون مبررا لحضارته المدمرة، أو يقبل بالتبعية.

والتجربة الآن فى مواجهة الفكر الوافد مختلفة تماما عن التجربة الأولى التى عاشها المسلمون فى القرن الثانى للهجرة بعد ترجمة الفكر اليونانى، حيث كان المسلمون أحراراً قادرين على قبول ما يرونه نافعا، ويرفضون ما يرونه مختلفا مع قيمهم، أما هذه التجربة التى بدأت بعد سقوط بلدان الإسلام تحت سيطرة النفوذ الغربى، فقد فرضت عملية تصدير هذا الفكر فرضا، وفى مقدمتها القوانين الوضعية بديلا للشريعة الإسلامية وهى المرة الأولى فى تاريخ الإسلام كله.

وإذا ذهبنا نستعرض وجوه الخلاف بين مفاهيم الفكر الإسلامى المستمد من القرآن والسنة وبين مفاهيم الفكر الغربى لوجدنا أمراً عجبا.

فهناك ما يعتقده أهل الفكر الغربى من دعاوى مستمدة من الفكر المسيحى والفكر اليهودى ـ المختلف تماما عن اليهودية والمسيحية نفسها، هناك دعاوى(الرهبانية ـ الصلب ـ الخطيئة ـ التثليث) فى المرحلة المسيحية، ثم هناك فى مرحلة المثالية أخطاء بارزة فى قضية تأليه (الإنسان) وتغليب كلمة (الطبيعة) على ارادة الله، وقبول فكرة التطور التى دعا إليها دارون فى الصلة بينه وبين الفرد، والحديث المتصل عن أن الإنسان حيوان ناطق، ثم تأتى أخطاء المرحلة الثالثة (الفلسفة المادية) وفيها يصل الخلاف إلى أبعد حدوده، فقد قام الفكر الغربى فى هذه المرحلة على إنكار الروحيات والمعنويات والقيم الوجدانية (واعتبارها من إفراز المادة) كما أنه يحتقر الإنسان ولايراه إلا خاضعا لشهوة الطعام فى (الماركسية) أو شهوة الجنس فى (الفرويدية).

وكانت نظرية الخطيئة من أبرز مفاهيم الفلسفة المسيحية، وعنها نبتت فلسفات الوجودية وغيرها.

وهناك فى الفلسفة المادية: الماديون المنكرون للروح إطلاقا (أو الحسيون أو الواقعيون أو التجريبيون) المنكرون لما يعلو على التجربة أو إدراك الحس أو إدراك الواقع، وهناك المنكرون للجوهر مادة وروحا.

وهكذا سيطر تيار الفلسفة المادية على الفكر الغربى واستمد منها كل الأيديولوجيات (الرأسمالية والماركسية) على السواء بتوجيه طاقات البشرية نحو اللذات والمتعة والترف والتحلل والرفاهية.

وعلا المذهب الوضعى الذى لايؤمن إلا بما يقع تحت دائرة الحس، وكان هذا بمثابة الضربة القاضية للنصرانية فى الغرب حيث أبعدت تماما عن مجال الحياة والبناء.

وتمم هذا التوجه وفرع عليه ثلاثة من الفلاسفة:

١ـ **دارون** ـ نظرية التطور والارتقاء وأصل الأنواع حيث جعل الإنسان متطورا من الاميبا إلى قرد إلى إنسان.

٢ـ **فرويد** ـ حيث جعل الجنس هو المحرك الأول والدافع الأصيل لأنشطة البشرية أفرادا وجماعات فى مجال الدين والأخلاق والفن والفكر.

٣ـ **كارل ماركس** ـ تفسير حركة التطور الاجتماعى على أساس الإشباع المادى.

٤ـ **جون ديوى** ـ نظرية المنفعة (البرجماتية) وهى أن كل عمل يعمله الإنسان له قيمة مادية.

واستطاع الفكر الغربى خلال مرحلة ما بين الحربين العالميتين أن يبنى فى البلاد العربية والإسلامية قاعدة علمانية ليبرالية قامت على أساس نشر مذهب الشك والإلحاد والإباحة عن طريق المدرسة التى أنشأها النفوذ الاستعمارى وسلمها مقاليد الأمور:

١ـ الصحافة ـ لطفى السيد.

٢ـ التعليم ـ سعد زغلول.

٣ـ القانون ـ عبد العزيز فهمى.

غير أن هذه القاعدة ما لبثت حتى تفرع منها خطان سارا فى طريق مواز هما الفكر الشيوعى والفكر الصهيونى، وقد قاما على الأصول التى رسمها الفكر الغربى ليكونا فى خدمة الفكرين اللذين هما فى الحقيقة وجهان لعملة واحدة ، ولكنهما آثرا أن يظهر كل منهما بمفرده ليكون أحدهما غربيا ليبراليا ويكون الآخر شيوعيا ماركسيا.

وحقق التحام الفكر العربى نتائج جزئية فى أفق الفكر الإسلامى:

ـ حقق على يد طه حسين الدعوة إلى بشرية القرآن، الشك الفلسفى، امتهان الصحابة.

ـ حقق على يد الدكتور هيكل إنكار المعجزات واعتبار الإسراء والمعراج حلما أو مناما.

ـ حقق على يد العقاد إعلاء العبقرية على النبوة.

ـ حقق على يد عبد الرحمن الشرقاوى والكثيرين التفسير المادى للتاريخ، وتفسير بعض أحداث التاريخ الإسلامى لتلائم الفلسفة الأوروبية. ثم امتدت المؤامرات إلى تطويع مفاهيم القرآن والسنة لتساير المذهب الماركسى فى تفسيره للتاريخ.

وقد تحولوا من الفكر العلمانى إلى الفكر الإسلامى بكتابات أسهمت فى بعض الأخطاء نقلا عن مناهج بعض المؤرخين، ومنها الادعاء بأن المنهج العلمى جديد على الفكر الإسلامى.

بينما الإسلام هو الذى أنشأ المنهج أساسا، وقد نسيه المسلمون واستفاد منه الغربيون لصالحهم كما جاء فى رد الشيخ المراغى على الدكتور محمد حسين هيكل.



وحين نقارن بين الفكر الغربى والفكر الإسلامى نجد أن هناك معالم أساسية إسلامية رفضها الغرب حين نقل العلوم التجريبية وحدها وصهرها فى بوتقة فكره الوثنى المادى واليونانى.

أولا : علاقة الدين بالدولة، وأقاموا بدلا منها (العلمانية)

وتحرير العلوم من روح الإيمان بالله تبارك وتعالى وفصل الدين عن الدولة.

ثانيا: معارضة مفهوم الإسلام فى التوفيق بين الفرد والجماعة، فكانت الليبرالية انحيازاً للفرد والماركسية انحيازا للجماعة .

ثالثا :رفض مفهوم ربط الوسائل بالغايات فى إطار الأخلاق، حيث دعا الفكر الغربى إلى الميكيافيللية والتحرر من قيود القيم فى سبيل فتح باب الدوافع الغرائزية .

رابعا: رفض تنظيم المجتمع على منهج الله تبارك وتعالى فجعلوا الانسان سيد الكون، وأعلنوا تحرير الإنسان من كل مسئولية فردية أو التزام أخلاقى ليجوزوا تحليل الحرام وتحريم الحلال.

وليس الإنسان سيد الكون ولكن الله تبارك وتعالى ذلل له الكون.

خامسا: إلغاء نظام الخلافة الإسلامية ومعارضة النظام أساسا حيث إن الحاكم منفذ للشريعة وحارس للدين بعيداً عن سلطان الكهنة.



أما ما أخذه الغرب من قيمنا وشريعتنا فقد أنكروا مصدره، وادعى البعض أنه من نتاجهم الماضى فى محاولة جريئة لحجب عطاء الإسلام.

ولقد كان القانون الرومانى الحديث من فقة الإمام مالك، وقد اعترف بذلك القانونى الكبير سانتلانا عندما أعلن أن الشريعة الإسلامية ذات الحدود المرسومة والمبادىء الثابتة لايمكن إرجاعها ونسبتها إلى شريعتنا (نحن الغربيين) وقوانيننا لأنها

شريعة دينية تغاير فكرنا أصلا.

وقد فرض الإغريق والرومان (الهلينية) على الشرق بعد غزوة الإسكندر الأكبر وفرض الغرب الاستعمارى (التغريب) على الأمم التى ابتليت باستعماره فى عصرنا الحديث.

❑❑❑

والعمل الذى يجرى الإعداد له بكل قوة وتجنيد قوى كثيرة له هو «تقديم إسلام مقصوص الجناح» يختفى جناحه المتصل بالمجتمع والمعاملات والتشريع.

ومن الأسف فإن هناك أسماء لامعة قد دخلت مجال الفكر الإسلامى منذ فترة تتصدر، وتعد نفسها اليوم للقيادة وفق مفهوم يقبل بالتسوية واعتماد الرخص والتخفيف من قيود الحدود والضوابط والقيم الأساسية، وخاصة القيم الثوابت (وأهمها الجهاد) تحت اعتذارات كثيرة.

والهدف هو القضاء على (التميز) الذى يمثله الإسلام بالنسبة للأديان، والقضاء على التصور الخاص للحياة والمجتمع والأخلاق والإنسان، والهدف هو تشويه التصور الإسلامى جملة، وإثارة الشكوك حوله حتى يعلو ويبرز التصور الغربى الوثنى الإباحى المضطرب جماع الفلسفات اليونانية والغنوصية والباطنية التى حاولت خلال كل عصر أن تدمر مقومات الدين الحق المنزل وتفرض نفسها، والتى تشكلت من فلسفة سيطرت فى العصورالماضية مع اليهودية والمسيحية، وهى الآن بصدد حصار الإسلام لاحتوائه، ولن تستطيع تحطيم أجنحة الإسلام التى يطير بها (التوحيد والأخلاق والطابع المميز).

ذلك لأن الغرب يخاف من الإسلام الصحيح بمفهومه منهج حياة ونظام مجتمع: هذا المنهج الذى يزحف الآن ليسيطر على بلاد المسلمين، والهدف هو كسر هذا المنهج وتقويضه، وذلك بإعداد الكوادر والدعاة من بين الأسماء ذات الولاء الغربى

والتى تفتح لها أبواب الصحف الكبرى بهدف إبرازها وإعلائها، وذلك حتى تسلمها من بعد زمام التوجيه والقيادة، وحتى تحول دون وصول أصحاب التصور الإسلامى الأصيل إلى تقديم تصورهم الصحيح.

والواقع الذى يبرز الآن بقوة أن المسلمين يرفضون العلمانية والدولة الثيوقراطية جميعا، وهم فى نفس الوقت لايفصلون الدين عن الحياة والمجتمع: ذلك أن الإسلام يجمع بين مفهوم العبادة لله تبارك وتعالى والعلاقة بين الناس فى المجتمع، ويرسم المنهج للحياة كلها: الحياة الفردية، والحياة الجامعة، وأن الإسلام قادر بمفهومه الجامع أن يوائم بين الثوابت والمتغيرات، وبين الإلهى والبشرى، والروحى والمادى والدنيوى والأخروى، فى تناسق كامل دون أن يطغى عنصر على عنصر أو يستعلى عليه.

ولقد وقف الإسلام هذا الموقف من قبل حين أنكر استعلاء العقلانية باسم(الاعتزال) أو الوجدان باسم (التصوف)، ودعا إلى تلاقى القيم وتكاملها دون أن يقع بينها ما يسمى بالصراع الطبقى، أو الصراع بين الأجيال، فالإسلام يقيم التوازن والتناسق بين هذه القيم جميعا، فلا يطغى بعضها على بعض، وإن الدعوى بأن تخلف المسلمين (فى هذه المرحلة القائمة) لاترجع بحال إلى منهج الإسلام،وإنما ترجع إلى تخلف المسلمين عن الإسلام وهى فترة ضعف موقوتة لاتلبث أن تزول، وإن الإسلام أقام خلال أكثر من ألف سنة نموذجا من التقدم والانطلاق نحو النماء والقوة، مما يؤكد سمتة الأساسية أنها إيجابية وقادرة على العطاء، وأن هذا التخلف والضعف ناتج عن انفصال المسلمين عن تطبيق الإسلام، والتراخى فى التمسك بمنهجه الصحيح.

الباب الأول

خطة احتواء الفكر الإسلامي

تتمثل خطة احتواء الفكر الإسلامى فى محاولتين خطيرتين:

أولا: اقتحام الفكر الإسلامى من ثلاثة جوانب:

(١) الإسلام: العقيدة ـ السيـرة ـ السنـة ـ الفقـه.

(٢) اللغة العربية ـ التاريخ، التراث ـ الأدب العربى.

(٣)الحضارة ـ المجتمع ـ المرأة ـالفـن ـ التعليـــم.

ثانيا: إقحام الفكر الغربى فى أفق الفكر الإسلامى:

(١) مقارنات الأديان ـ التفسير ـ الحـــوار اليهودى:

المسيحى، أثر الإسلام فى بقاء المسيحية.

(٢) الفلسفات والعلوم الاجتماعية والإنسانية.

(٣) الفــرق الضـــالة: البهائيـــة والقاديانيـــة.

(٤) العلمانية ـ القومية ـ الديمقراطية ـ الماركسية.

(٥) مفاهيــم الفكــر اليهــــودى الماسونـــــى.

اقتحام الفكر الاسلامى

أولا : القرآن الكريم

الدراسات التى قدمها الفكر الغربى حول الإسلام: عقيدته وفقهه وتراثه ولغته والتى تكفل المستشرقون بالكتابة عنها، والتى جمعت دائرة المعارف الإسلامية خلاصة واسعة لها فى محاولة لوضعها فى أيدى الباحثين والجامعات والمعاهد وطلاب العلم لتكون سهلة ميسرة تغنى عن البحث فى المراجع الأصلية والكتب القديمة.

وقد أريد بها فى الحقيقة تطبيق المقاييس النصرانية على الإسلام فأطلقوا على الإسلام اسم المذهب المحمدى (Mohammedanism) لإعطاء الانطباع بأن الإسلام دين بشرى من صنع محمد ﷺ، وليس من عند الله. ومن أبرز معالم هذه الكتابات:

١ـ الخلط بين الإسلام كدين وتعاليم ثابتة فى القرآن والسنة، وبين الوضع المتردى للعالم الإسلامى اليوم.

٢ـ الاهتمام بالفرق المنشقة عن الإسلام، حيث يعملون على تعميق الخلاف بين السنة والشيعة، ودائما يقيسون مايرونه فى العالم الإسلامى على مالديهم من قوالب مصبوبة جامدة، وهذا ما أشار إليه رودنسون فى قوله « لم ير المستشرقون الا ما كانوا يريدون رؤيته».

٣ ـ افتقاد الموضوعية فى معظم كتابات المستشرقين عن الإسلام فهم يكتبون بكل موضوعية عند تناولهم الديانات الوضعية كالهندوسية مثلا، ويعود ذلك إلى أن الإسلام كان يمثل بالنسبة لأوروبا صدمة مستمرة، فقد كان الخوف من الإسلام هو القاعدة.

٤ـ يعطى الاستشراق لنفسه فى دراسة الاسلام حق الاتهام والحكم وحق الرفض للأسس الإسلامية التى يقوم عليها المجتمع الإسلامى.

٥ ـ تحالف فريق من المستشرقين مع الاستعمار واضعين أنفسهم ومعلوماتهم ودراساتهم عن الاسلام والمسلمين فى خدمة الاستعمار لمكافحة الإسلام والمسلمين.

٦ ـ الدعوة إلى إصلاح الإسلام بدعوى أنه لم يعد مسايرا لروح العصر، وهذا ما عبر عنه أحدهم بقوله: إن على الإسلام إما أن يعتمد تغييرا جذريا فيه أو أن يتخلى عن مسايرة الحياة.

وتتمثل هذه الدعوة الى الإصلاح فى محاولة تغيير وجهة نظر المسلم عن الإسلام وجعل الإسلام أقرب الى النصرانية بقدر الامكان.

٧ـ فتح الطريق إلى القومية والإقليمية والعلمانية والديمقراطية والاشتراكية لحجب التصور الإسلامى الأصيل الجامع.

٨ ـ العمل على تحريف النصوص وبترها أحيانا ولى أعناقها لتخدم أفكارهم التى يعدونها مسبقا، ثم يبحثون عن النصوص لتأييدها.

٩ـ عدم تأهيل المستشرقين للحديث عن الإسلام لافتقارهم الى كل خصائص الأمانة العلمية، وذلك بسبب عجزهم الفنى عن فهم مضامين البيان العربى، فضلا عن تعصبهم التاريخى الصليبى على الإسلام، وافتراءاتهم على نبيه ﷺ وإنكارهم الوحى المنزل عليه، وعجزهم عن إدراك إعجاز القرآن وجهلهم باللغة العربية وأسرار بلاغتها، فضلا عن مواقفهم المعروفة فى تأييد اليهود والصهيونية ضد الإسلام والعرب.

وقد ظل الفكر الغربى عن الإسلام عبر السنين ومن خلال الجامعات يتحكم فى تشكيل الصورة التى يفهمها الغرب عن الإسلام، وظلت الكتابات الاستشراقية بمثابة قفازات حريرية تخفى اليد الحديدية للغرب، حيث يدرس الإسلام من أجل السيطرة على عالمه، وكانت الهجمة الاستشراقية من العنف بحيث وضعت معظم الفكر

الإسلامى فى دائرة الدفاع أو الاعتذار أو الشعور بالنقص.

❑❑❑

ولقد عمدت طائفة كبيرة من المستشرقين إلى البحث عن مواضع الضعف فى الشريعة الإسلامية والحضارة والتاريخ الإسلامى، وإبرازها لأجل غاية سياسية أو دينية بصورة مروعة متضخمة، يثيرون بذلك فى قلوب قادة العالم الإسلامى وزعمائه - ممن ثقفوا فى مراكز الغرب أو درسوا الإسلام بلغات الغرب - شبهات حول الإسلام والمصادر الإسلامية، ويحدثون فى نفوسهم يأسا عن مستقبل الإسلام فى محاولة للدعوة إلى مايسمونه تطوير الدين.

ومن يراجع هذه الكتابات فى دقة يتبين أن هناك غاية معدة قبل البحث، وأن البحث ليس إلا محاولة لجمع معلومات من كتب قد لاتكون لها علاقة بالموضوع نفسه، وتحمل فى التقاط كلمات من الروايات أو المجون والفكاهة ويلقون عليها نظرة لايكون لها وجود إلا فى نفوسهم وأذهانهم. ثم يوزعون سمومهم فى احتراس حتى لاتضعف الثقة فى المؤلف أو تؤثر فى نزاهته، وهذا النوع أشد خطرا من عمل المكاشفين بالعداء والذين يشحنون كتاباتهم بالكذب والافتراء. ولكل من كتاب الغرب واليهود والماركسية هدف محدد بارز فى كتاباته وفى الموضوعات التى يثيرها. فالكتاب الغربيون يركزون على قضية فصل الدين عن الدولة، وإبراز مفهوم العلمانية والربا والقانون الوضعى والنظام اللبيرالى. أما الكتاب اليهود فيركزون على التشكيك فى وعد الله لإبراهيم وهدم اللغة العربية والوجود العربى فى فلسطين. أما الكتاب الماركسيون فهم يركزون على نظرية التفسير المادى للتاريخ والدعوة إلى تصور مفهوم يقوم على أساس الصراع مع احتضان الدعوات الهدامة كالقرامطة والزنج،ووصفها بأنها حركات عدل اجتماعى وحرية.

❑❑❑

وقف الفكر الغربى من الإسلام موقفا أقل مايوصف به أنه موقف الحقد والكراهية، وفتح الخلاف مع الدين الجديد من كل منطلق لمعارضته والتشكيك فيه، وقد جاء ذلك نتيجة لعدة عوامل :

أهمها الخوف من إقبال الغربيين عليه لبساطته ويسره وخلوه من تعقيدات اللاهوت المسيحى، مما دفع الكنيسة ورجالها إلى حشد أكبر عدد من الباحثين لنقد نصوص القرآن والسنة وإثارة الشبهات حول اللغة والتاريخ والتراث، حتى الذين أخذوا ينظرون فى الإسلام والقرآن بعين الباحث المجرد عجزوا عن الوصول إلى الحقيقة نتيجة قصورهم عن فهم البيان العربى، وتأثرهم بالموروث من المعانى والمفاهيم والقيم التى نشأوا عليها فى أحضان اليهودية أو المسيحية، حيث إن الكتب المقدسة من كلام الأنبياء، وليست كالقرآن من كلام الله تبارك وتعالى.

وفى إطار الفلسفة المادية عجز الغربيون عن فهم الوحى فعملوا على رد النبوة والوحى إلى نوع من النشاط الذهنى غير العادى. وقد تأكد كذب هذا الادعاء بأن مانزل على النبى هو من باب الإلهام أو الحدس، وتبين أن الوحى يأتى من خارج النفس وليس نابعا من داخلها، فالوحى فى حقيقته ظاهرة روحية خص الله تبارك وتعالى بها من اصطفاهم للنبوة، وبه يكون اتصالهم بالله تبارك وتعالى من غير حلول ولا اتحاد ليكلفهم إبلاغ تعاليمه للناس.

وكان من أخطائهم الادعاء بأن محمدا ﷺ استقى مادته من الأحبار والرهبان، وقد ادعوا أن هناك تشابها بين القصص القرآنى والقصص اليهودى والمسيحى.

ولكن المراجعة المقارنة تؤكد أن القرآن قدم فى هذه الميادين نصوصا جديدة وتفاصيل لم تعرفها التوراة والإنجيل.

ويرجع الاختلاف فى فهم التوحيد الإسلامى إلى مفاهيمهم الزائفة عن التثليث،والقول بأن عيسى ابن الله وما يتصل بالصلب والخطيئة.

وقد استهدف ذلك كله نتيجة واحدة هى القول ببشرية القرآن التى حملها بعض

أتباعهم من كتاب العرب فى العقود الماضية ورددوها.

وذهبوا إلى إنكار ختام الرسالات وختام النبوة بهدف إثارة دعوات مضللة كالبهائية والقاديانية التى قال دعاتها بأنهم أنبياء بعد محمد، وذهبوا الى أبعد المدى فى ادعاء الصلة بين القرآن وبين الإنجيل والتوراة، وفى دعاويهم عن القرآن المكى (الذى يمثل جفاف الصحراء)، والقرآ ن المدنى الذى يمثل أثر اليهود فى المدينة، وكل هذه دعاوى مضللة كاذبة فندها علماء المسلمين وكذبوها تماما.

وكذلك لم يثبت صدق دعاوى من أنكروا عالميةالقرآن وختمه لرسالات السماء، وقالوا إنه منزل لعصره، فقد أثبت القرآن فى آيات نزلت فى مكة المكرمة فى أول الدعوة، وأكد عالمية الإسلام وأنه للناس جميعا وإلى أن تقوم الساعة.

وكانت أمية الرسول ﷺ آية من آيات الله تبارك وتعالى حتى تكذب دعاواهم بأن القرآن من كلام النبى ﷺ .

وقد كشف العلماء عن الفوارق بين البيان القرآنى وأسلوب الحديث النبوى، كذلك فقد خابت دعاواهم فى العمل على هدم مفهوم عالمية الإسلام وختم النبوة.

❑❑❑

وقد حاول الفكر البشرى الوافد الترويج للفلسفات المادية التى تعمل على تقويض دعائم الاعتقاد بالله تبارك وتعالى الواحد الأحد، بغض النظر عن البديل المقترح (ألوهية المادة ـ ألوهية الإنسان) فى سبيل النيل من مفهوم التوحيد الخالص من شوائب الشرك والتعدد الذى قدمه الإسلام.

فقد أوضح الإسلام (عن طريق القرآن الكريم والسنة) مفهوم ذات الله تبارك وتعالى المقدسة بما يسع العقل البشرى فهمه والإيمان به.

وليس من شروط كل موجود أن تتم رؤيته بالعين ولكنه يعرف من آثاره، وقد قال الرسول ﷺ:

« تفكروا فى خلق الله ولاتفكروا فى ذات الله فتهلكوا» ، والنفس والعقل موجودان

ولكنهما لايريان، ويقول الإمام الغزالى « وهو ـ أى العقل ـ مع القطع بوجوده لايرى له شخص، ولايسمع له حس، ولايحس له محس ولايشم منه ريح ولا تدرك له صورة ولا طعم، بل الدليل السائر هو وجود الله تبارك وتعالى فى الأزل لا إلى نهاية، وهو لم ولن يرى وذلك لايبطل وجوده أبدا»

فالله (تبارك وتعالى) قائم بذاته، وهو موجود بذاته وليس للأشياء من نفسها إلا العدم وإنما لها وجود من غيرها.

ولقد كانت للنظرية المادية التى انحرف إليها الفكر البشرى، ونشوء الفلسفة المادية، آثارها الخطيرة :

١ ـ تجاهل العامل الأول والأكبر فى تفسير الظواهر، وهو الله تبارك وتعالى.

٢ ـ التحول إلى الماديات الاجتماعية، الرفاهية المادية وإشباع رغبات الإنسان.

٣ ـ التحرر من كل الضوابط والحدود التى وضعتها الأديان بل وإنكار الأديان نفسها.

وقد تحول التفسير المادى للطبيعة إلى مذهب فكرى واجتماعى بعد أن كان موضوعا علميا، وقد تسلل المذهب المادى إلى عقول المتعلمين، وبقى الدين عادات وتقاليد، وبدأت تظهر آثار هذه الفلسفة فى مجالات الأخلاق والاقتصاد والسياسة.

وقد عمد الفلاسفة الوضعيون (أولا) ثم الماركسيون: الى التوهين من شأن الإسلام وحركة التاريخ، ولم يروا فى الإسلام إلا أنه حلقة من سلسلة تطور البشرية نحو الدين النهائى (الوضعية).

أما الماركسية فهى فى حقيقتها تدمير لمفهوم الألوهية وربط للإنسان بمصير المادية المسيحية ولتفسير التاريخ اليهودى بعوامل ليس فيها إرادة الله تبارك وتعالى .

❑❑❑

ولقد ذهب الفكر الغربى إلى أبعد المدى فى محاولة التشكيك فى القرآن لهدف بسيط هو أن القرآن كشف زيف المفاهيم الوضعية اليهودية والمسيحية . فقد جاء

الإسلام كاشفا عن التحولات التى قام بها اليهود والنصارى من أجل إنكار رابطتهم بالرسالة الخاتمة وتزييف النص الخاص بالرسول الخاتمﷺ .

فقد جاء القرآن بتصحيح مادخل إلى التوراة والإنجيل من تحريف وتزييف

﴿ وما نزلنا إليك الكتاب إلا لتبين لهم الذى اختلفوا فيه﴾

وقد عمد اليهود فى العصور الأخيرة إلى تحريف الآيات المتعلقة بهم.

وقد أولى المستشرقون اهتماما ببعض النصوص الزائفة وذلك للتشكيك فى القرآن، وقد نشر (نولدكه ـ فلوجل ـ برجستراسر) كتاب القراءات الشاذة لابن خالويه.

ونشر أرثر جفرى كتاب المصاحف لابى داود السجستانى وكتاب التيسير لابى عمرو الدانى وكتاب المقنع فى رسم المصحف.

وذلك كجزء من خطتهم الى بث الشكوك حول النص القرآنى باعتبار أن القرآن هو مصدر الفكر الإسلامى وموجهه، وهو الذى شكل العقل الإسلامى ودفعه إلى ارتياد ماارتاد من مسالك الفهم وطرق العلم وأساليب الحضارة.

وكانوا على علم بالتغيير الهائل الذى أحدثه القرآن فى حياة المسلمين.

وقد حرص المسلمون على حماية القرآن الكريم من الزيف الذى أصاب الكتب السابقة فأنشأوا علوما لهذا الغرض:

ـ أصول القراءات لقراءة القرآن قراءة صحيحة.

ـ النحو والصرف لفهم معانيه.

ـ علم الأصول والفقه لاستنباط الأحكام.

ـ علم الطبيعة لدراسة الكون.

❑❑❑

ولقد ذهب الفكر الغربى بواسطة أوليائه وأتباعه بالدعوة الى أمرين خطيرين:

ـ الدعوة إلى كتابة القرآن حسب ترتيب النزول.

ـ الدعوة إلى كتابة القرآن حسب الإملاء الحديث.

ولقد هب علماء المسلمين يردون هذه المحاولات الخطيرة فكشفوا عن أن تغيير ترتيب القرآن فيه حرمة لإجماع أئمة المسلمين كلهم عليه، فضلا عن أنه يحول دون حفظ القرآن فى الصدور، وتشويش لنظم القرآن وقضاء على روعة هذا النظم وبلاغته وعذوبته التى تصح التلاوة بها، فتقع على كل قلب مهما تكرر سماعه مصداقا لقول الرسول ﷺ **لا تخلقه كثرة الرد** ـ ويعتبر الترتيب القرآنى توقيفيا، ومعنى كونه توقيفيا، أى أنه بأمر صاحب الرسالة. ومعنى تجاوزه هدم لركن من أركان الإسلام وإيجاد اضطراب لهذا النظم الإلهى البليغ يحول دون سهولة حفظه التى يسرها الحق تبارك وتعالى بما أودع فيه من دقة فى النظم وارتباط يمسك بالفكر ويسهل له الحفظ.

❑❑❑

ولم يتوقف الفكر الغربى المحارب للإسلام وكتابه ورسوله بشتى الصور عن البحث عن شبهات ومزاعم يحاول بها انتقاص القرآن الذى كشف أمام العالمين زيف الكتب القديمة وما رفعوه من كتبهم عن نبوة محمد ﷺ وضرورة اتباعه عند ظهوره.

﴿ النبى الأمى الذى يجدونه مكتوبا عندهم فى التوراة والإنجيل ﴾

وقوله تعالى **﴿ يعرفونه كما يعرفون أبناءهم ﴾** (أى يعرفون صفته وملامحه)

بل إن المؤامرات التى يقوم بها النفوذ الأجنبى والاستعمار والصهيونية والماركسية، كل ذلك حذر القرآن منه المسلمين.

كما كشف عن فساد بنى إسرائيل وانتزاع الملك منهم وتحول الرسالة إلى فرع إسماعيل.

وليس أسهل على دعاة التغريب من أن يقولوا عن القرآن أنه كتاب يعوق النظر والفكر وأن فيه تناقضا، فذلك كلام من السهل أن يقال، ولكن من الصعب تقديم الدليل عليه.

وليس من المبالغة فى شىء أن نقول إن القرآن الكريم هو النص الموثق الباقى على الزمان ما بقى الزمان بعد أن أصاب الكتب القديمة كلها التزييف والتحريف بشهادة أهلها.

أما القرآن فلا يأتيه الباطل من بين يديه ولامن خلفه.

وقد كان هذا هو الهدف الأساسى والأكبر للحملة على الإسلام.

ومن هنا كانت تلك الحملة الضارية عليه من قوى متعددة:

اليهود والنصارى والشيوعيين جميعا بوصفه المنار الثابت المستعلى على كل المنارات، والذى تطمح كل القوى فى إسقاطه وإطفاء نوره

﴿ **يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم والله متم نوره** ﴾.

وقد شرح الأستاذ ليوبولد ڤايس (المسلم محمد أسد) أسباب هذه الحملة الضارية فقال:

«إن الغربى لايستطيع أن يقبل نظرية القرآن بأن الحياة وحدة كاملة لايمكن تجزئتها، وأن مشاكل الجسد والعقل ومشاكل الجنس والاقتصاد ومشاكل الإصلاح الفردى والعدالة الاجتماعية هى مشاكل مرتبطة ارتباطا وثيقا مع مساعى الإنسان وآماله فى حياة رضية بعد الموت».

ويقول: «إن أهم الأسباب التى حالت دون توافر التصديق الكافى للقرآن الكريم فى الغرب: تلك الصفة التى تميز القرآن جذريا عن سائر الكتب المقدسة وهى تركيزه على أهمية العقل باعتباره الطريق الوحيدة التى تفضى إلى الإيمان.

فضلا عن إصراره على ترابط المجالات الروحية والمادية والاجتماعية للنشاط الإنسانى، أى ارتباط عمل الإنسان اليومى وسلوكه الدنيوى بحياته الروحية ومصيره.

وهكذا فإن عدم تقسيم القرآن للحياة الإنسانية إلى قسمين: (روحى ومادى) يجعل من الصعب على الذين نشأوا فى ظل ديانات أخرى تشدد عادة على عنصر خارق للطبيعة، وتزعم أنه لابد أن يكون موجودا فى كل تجربة دينية أصلية عليهم أن يقدروا

النظرة العقلية التى ينظر بها القرآن الكريم لجميع القضايا الدينية.

إن تداخل التعاليم الروحية مع التشريعات العملية للحياة فى القرآن يحد العقل الغربى الذى اعتاد على قبول التجربة الدينية بنشوة الانفعال الوجدانى إزاء الأشياء الخفية المستترة بعيدا عن إدراك الحس والعقل، لذلك تتولاه الحيرة حين يجد نفسه فجأة فى مواجهة المفهوم القرآنى الذى يتولى مهمة الدليل، ليس فقط للحياة الروحية فى الآخرة. ولكن للسعادة فى الحياة الدنيا بكل مجالاتها المادية والروحية والاجتماعية.

ونستطيع أن نقول أنه لا التراجم الحديثة التى وضعها مسلمون ولا تلك التى وضعها الأجانب قد استطاعت أن تضع القرآن الكريم فى موضع أقرب لقلوب وعقول أقوام نشأوا فى مناخات دينية ونفسية تختلف عن المنهج الإسلامى أو تكشف شيئا، ولو قليلا من العمق الحقيقى للقرآن الكريم، وما ينطوى عليه من حكمة رفيعة بالغة، ويرجع فقدان التقدير للقرآن فى عالم الغرب إلى التعصب الواعى أو اللاواعى ضد الإسلام الذى سيطر على التفكير الغربى منذ زمن الحروب الصليبية، وشكل ميراثا خالط الفكر والشعور فى الغرب وترك بصماته واضحة على كل موقف إزاء كل ماله صلة بالإسلام ليس فقط بالنسبة لرجل الشارع، ولكن ربما بصورة أكثر دهاء على العلماء المتخصصين بدراسات يفترض فيها أن تكون موضوعية».

❑ ❑ ❑

وفى تقدير كثير من الباحثين أن كتاب الغرب وخاصة المستشرقين يتجاهلون المصدرين الأولين للإسلام (القرآن والسنة) ويطعنون فيهما لأنهم لايريدون معرفة الإسلام كما هو بل كما تريده الكنيسة.

ويقول إدوار سعيد: «إن السبب الثابت فى تجاهل ما يعنى القرآن وما يظن المسلمون أنه يعنى أو كيف يفكرون وأن يتصرفوا فى مواقف على أن تعاليم القرآن والإسلام قد عرضت بصورة ترضى المسلمين.

السبب: أن هناك تخطيطا استشراقيا يهدف إلى صياغة إسلام جديد: إسلام مسيحى يفتقد ركائزه الثابتة ويضمن الحفاظ على ضياع المسلمين وتخلفهم الحضارى.

ويتبين حقد الاستشراق فى أنهم جمعوا بين كراهية الإسلام وكراهية كل ماعدا العنصر الأبيض، فهى كراهية دينية عنصرية معا، سداها ذلك الفزع من توسعات الإسلام ولحمتها الاستعلاء باللون والعنصر وإنكار الإسلام لعقائد التثليث والصلب والخطيئة من ناحية، والإحساس بذلك الاجتياح الذى قام به الإسلام لمواريث الإمبراطورية الرومانية التى امتدت ألف عام، فى ثمانين عاما لاتزيد.

وزاد من ذلك الإحساس سيطرة الدولة العثمانية على أوروبا أكثر من ثلاثمائة عام حامية للعالم الإسلامى من الغزوة الاستعمارية، وهم قد حولوا هذا الحقد إلى منهج علمى خادع بظاهره البراق ومحتواه الزائف فى محاولة لتحريف المنهج الإسلامى واحتوائه، وكسب أنصار من المسلمين والعرب فى ولاء لمنهجهم وأهدافهم عن طريق المطامع والأهواء» . أهـ

❑❑❑

ولقد كان القرآن الكريم هو أكبر أهداف الفكر الغربى والاستشراقى فى محاولة صد الغربيين عنه قبل التخفيف من تأثيره فى بيئته الإسلامية، ذلك أن القرآن جاء أساسا للكشف عن انحرافات الكتب السابقة ودحض الديانات الوضعية منذ نشأة البشرية.

وقد تناول القرآن الكريم مختلف الديانات الوثنية وكشف زيف ديانات بلاد العرب وقت نزول القرآن (اليهودية والنصرانية والمجوسية والصابئة) وقد ذكر الله تبارك وتعالى هذه الأديان فى مواضع كثيرة (سورة البقرة والحج والمائدة)

كما رد القرآن على معتقدات النصارى فى أربعة مواضع : أحدها سورة النساء والباقى فى سورة المائدة، كما كشف القرآن الكريم القناع عن انحراف دين موسى (اليهودية) ، وأخلاقهم بشىء من التفصيل، ودعواهم أن (عزيرا) هو ابن الله فى سورة التوبة.

وقال إن النصارى بقولهم بالتثليث ﴿ **يضاهئون قول الذين كفروا من قبل** ﴾

ثم تناول سائر ديانات الأمم الوثنية، وأن الامة التى اقتفى النصارى أثرهم هم المصريون القدماء، وقد اتبعهم اليهود والنصارى، وقد أورد القرآن ذلك فى عدة مواضع:

١ـ الغلو فى الدين **﴿ يا أهل الكتاب لاتغلوا فى دينكم ولاتقولوا على الله غير الحق﴾**

٢ـ المسيح رسول الله وكلمته:

﴿ لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح ﴾

٣ـ التثليث

﴿ لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة ﴾

الآية الأولى ترد على الطائفة المثلثة التى تعتقد فى استقلال الأب والابن وروح القدس بالألوهية.

والآية الثالثة، ترد على النسطوريين والملكانيين (الكاثوليك) الذين يزعمون أن الأب إله تام والابن مزدوج من اللاهوتيه والناسوتية، أما روح القدس فهو أقنوم ثالث للألوهية.

والآية التى ذكر فيها

﴿ ياعيسى بن مريم أأنت قلت للناس اتخذونى وأمى إلهين من دون الله ﴾

(الآية) ترد على الطوائف التى كانت تعبد مريم مع الأقانيم الثلاثة على أنها أم الإله.

وقد اختلفت الطوائف المسيحية حول الأقانيم الثلاثة قبولا لها أو لبعضها أما آية :

﴿ ولما ضرب ابن مريم مثلا إذا قومك منه يصدون ﴾

فتكشف فساد دعوى النصارى بأن النصرانية كان لها قبول عام فى بلاد العرب.

٢ـ كذلك فقد رد القرآن على عقائد المجوس الذين كانوا يؤمنون بإلهين اثنين (الشر والخير) و(النور والظلام)

﴿وقال الله لاتتخذوا إلهين اثنين إنما هو إله واحد ﴾

﴿ الحمد لله الذى خلق السموات والأرض وجعل الظلمات والنور﴾

وأشار القرآن الكريم إلى الصابئة، ووردت كلمة الصابئين فى سورة البقرة، المائدة، الحج، وأول رسول جاء لهداية الصابئين هو إبراهيم عليه السلام.

وكانت ديانة الصابئة تقوم على أساس عبادة الكواكب، وقد جاءت قصة إبراهيم مع الكواكب فى سورة الأنعام،، ولم يكن الصابئة ينكرون الله تبارك وتعالى بل كانوا يشركون به، وكانت العرب تنسب كل حادثة طبيعية من حوادث العالم إلى الكواكب، وكانوا يزعمون أنه إذا سقط نجم طلع نجم آخر، وكانوا يسمونهم الأنواء.

قال ﷺ : عن الله تبارك وتعالى:

« أصبح من عبادى مؤمن بى وكافر، فأما من قال: مطرنا بفضل الله ورحمته فذلك مؤمن بى وكافر بالكواكب، وأما من قال مطرنا بنوء كذا وكذا، فذلك كافر بى مؤمن بالكواكب» .

□□□

ومن دعاوى الفكر الغربى شبهة أن ما جاء فى القرآن ورد فى التوراة والإنجيل، والواقع أن القرآن تفرد عن الكتب المقدسة السابقة عنه بأخبار عن بعض الأنبياء لم ترد فى الأسفار المتداولة منها :

١ ـ المحاورة بين الله (تبارك وتعالى) والملائكة فى صدد خلق آدم عليه السلام وخلافته وأمر الله تعالى الملائكة بالسجود له وامتناع إبليس.

٢ ـ تخلف أحد أبناء نوح من الركوب فى السفينة وغرقه.

٣ ـ توبة آدم وقبول الله تبارك وتعالى لها.

٤ ـ قصص إبراهيم مع أبيه وقومه وإسكان إبراهيم بعض ذريته فى منطقة المسجد الحرام وبنائه البيت هو وإسماعيل.

٥ ـ إيمان سحرة فرعون ومؤمن آل فرعون.

٦ ـ صنع داود للدروع وحكم داود وسليمان فى الحرث الذى نفشت فيه غنم القوم، وتسخير الخيل والطير لداود وتسخير الجن والريح والطير لسليمان، وبناء الجن له التماثيل والمحاريب وغوصهم له وتقييد أياهم بالسلاسل.

٧ ـ قصة الهدهد وملكة سبأ وعرشها والصرح الممرد من القوارير وإحضار الذى عنده علم من الكتاب عرشها فى لمح البصر، والجسد الملقى على عرشه والصافنات الجياد.

٨ ـ مائدة عيسى وكلامه فى المهد.

ثانيا: ورود أشياء كثيرة فى القرآن الكريم مغايرة قليلا أو كثيرا لما ورد فى الأسفار مثل نسبة صنع العجل للسامرى فى القرآن بدلا من هارون فى الأسفار.

٢ـ شق قميص يوسف وهمه بامرأة العزيز.

٣ ـ كذلك ما جاء مباينا للقرآن من قصص يونس وأيوب وزكريا ومريم وأمها وغير ذلك كثير.

❑❑❑

وفى الأسفار المتداولة إشارات إلى أسفار كانت موجودة فى القديم ثم فقد تداولها مع الأيام ومن جملتها (توراة موسى) التى كتبها الحق بيده، ودون ذلك تبليغات الله تبارك وتعالى ووصاياه والألواح ومدونة وصفت بالنشيد الربانى (انظر: عبد الوهاب النجار فى قصص الأنبياء)

❑❑❑

ويقرر الدكتور بوكاى بعد دراسة مستوعبة للقرآن الكريم:

« لقد قمت بدراسة القرآن الكريم دون أى فكر مسبق بموضوعية تامة باحثا عن درجة اتفاق نص القرآن ومعطيات العلم الحديث، وكنت أعرف قبل هذه الدراسة وعن طريق الترجمات أن القرآن يذكر أنواعا كثيرة من الظاهرات الطبيعية، ولكن معرفتى كانت وجيزة ، وبفضل الدراسة الواعية للنص العربى استطعت أن أحقق ماتم وأدركت بعدُ أن القرآن لايحتوى على أية مقولة قابلة للنقد من وجهة نظر العلم فى العصر الحديث. إن صحة القرآن التى لا تقبل الجدل، تعطى النص مكانة خاصة بين كتب التنزيل، ولايشترك مع نص القرآن فى هذه الصحة لا العهد القديم ولا العهد الجديد.

وإننى أطالب بحتمية دراسة الأمور التعليمية والتاريخية الواردة فى الكتب المقدسة على ضوء القرآن فقط دون سواه، فهو وحده الذى لايحتوى على أية مقولة قابلة للنقد من وجهة نظر العلم الحديث، ويتصل بهذا ما تحقق فى كشوف الأثريين ومطابقتها القرآن. كل هذا وغيره يدعو إلى اتخاذ القرآن مصدرا تاريخيا بديلا عن التوراة» .

ثانيا: الإسلام: المنهج والعقيدة

جاء الإسلام خاتما لرسالات السماء، وجاء فى نفس الوقت للناس كافة أى للعالمين، وهو بذلك يختلف عن الرسالات التى سبقته والتى كان الرسول أو النبى يرسل لأمته، وقد جاءت التوراة لبنى إسرائيل على موسى عليه السلام، ثم جاء الإنجيل لبنى إسرائيل على عيسى عليه السلام، وأشارت التوراة وأشار الإنجيل إلى أن محمداً ﷺ هو خاتم الرسل، ورسالته ختام الرسالات وكتابه القرآن الكريم.

﴿ النبى الأمى الذى يجدونه مكتوبا عندهم فى التوراة والإنجيل ﴾

﴿ الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم ﴾

غير أن رؤساء الأديان غيروا وجهة الرسالة، وعارض اليهود عيسى عليه السلام واختلفوا معه، ثم اختلف النصارى واليهود مع رسالة محمد وعارضوها.

أما الإسلام فقد أعلن الإيمان بكل رسل الله وكتبه جميعا،وقدم مفهوم التوحيد الخالص لله تبارك وتعالى، وهو المفهوم الذى يختلف مع مفاهيم اليهود والنصارى، كما قدم مفهوم التكامل الجامع بين علاقتى الإنسان بالله تبارك وتعالى وبالمجتمع الذى يعيش فيه.

فقد رسم الإسلام منهجا جامعا لمختلف معطيات المجتمعات السياسية والاقتصادية والاجتماعية، هذا المنهج هو الذى حاربه الغرب محاربة شديدة فى محاولة لإقرار مفهوم زائف هو أن الإسلام دين عبادى يتوقف عند العلاقة بين المسلم والله تبارك وتعالى متجاهلا وحاجبا علاقته بالمجتمع.

ولذلك فقد جاء المنهج الفكرى فى النظر إلى الإسلام ناقصا ومضطربا.

١ـ **ففى العقيدة**: كانت نظرة الغرب إلى الدين من خلال تجربته مع الكنيسة التى تصدت للأفكار العلمية وحاربت العلماء فأصبح الغرب ينظر إلى الدين على أنه علاقة بين الله والإنسان وأنها علاقة شخصية لاصلة لها بالمجتمع، ولاتؤثر فى تطور الحركة الاجتماعية والسياسية والاقتصادية.

هذا المفهوم مغاير تماما لمفهوم الإسلام الذى ينظر إلى الحياة بوصفه نظاما كاملا وتشريعا يشمل الفرد والمجتمع والدولة سواء بسواء.

٢ ـ ينظر المنهج الغربى (المستمد من الفلسفة المادية) إلى الأديان جميعا، من خلال قاعدة أساسية تقول أن الأديان ظاهرة اجتماعية، وظاهرة مرحلية، تلت مرحلة الوثنية، وتعقبها مرحلة العلم، ولذا فإن الشعوب الراقية لاتحتاج إلى الدين أصلا.

٣ ـ ينظر المنهج الغربى لنبى الإسلام نظرة حاقدة تحكمها العلاقات المتوترة بين الإسلام والغرب عبر القرون.

٤ ـ ينظر المنهج الغربى إلى القرآن على أنه من كلام محمد، فهو فيض وجدانه وصورة من انطباع نفسه، بما كان يدور حوله ويقع أمام عينيه، والوحى فى نظر الفلسفة المادية والفكر الغربى المادى ليس إلا وحيا من داخل النفس (أى من العقل الباطن) لامن رب العالمين.

٥ ـ الشريعة الإسلامية هى فى نظر المنهج الغربى استمرار للفقه الرومانى أو مستمدة من النظام القبلى الجاهلى.

٦ ـ السيرة النبوية: يزعمون أنها جمعت بعد وفاة النبى ﷺ بوقت طويل، وهى مقولة غير صحيحة ولاتعبر إلا عن أهواء ومصالح من جمعها.

٧ ـ الإسلام: مجرد دين روحى لا علاقة له بالسياسة أو الدولة: (وذلك على النحو الذى أعلنه على عبد الرازق نقلا عن المستشرق اليهودى: (مرجليوث).

٨ ـ العرب والأوروبيون : يقرر الفكر الغربى أن العالم وجد من أجل الجنس الأبيض ولو بقى العرب فى جزيرتهم لما حدثت الحروب الصليبية، وأن الشعوب كلها قد خلقت لخدمة الجنس الأوروبى.

(واليهود يرون أن الشعوب كلها خلقت لخدمة الجنس اليهودى)

٩ ـ يقرر الفكر الغربى أن النهضة والتقدم لايمكن أن يتحققا للمسلمين إلا باعتناقهم مفاهيم الحضارة الغربية، و أن يتركوا وراء ظهورهم قرآنهم ودينهم لأنه يأمرهم بالخمول والتعصب.

❑❑❑

وتقوم رؤية الغرب الأوروبى المسيحى للدين على أنه رؤية دهرية تزعم أن العالم وجد نفسه دون حاجة إلى علة خارجة عنه. (وهى فكرة مستوحاة من الفكر اليونانى: انتقلت إلى هيجل ونيتشة) .

يقول هيجل: إن العالم وجد نفسه بدون حاجة إلى علة خارجية عنه يمضى بموجبها كل أمر فى سبيله حتى يبدو كأنه نتيجة لصراع قائم بين متناقضات.

ويقول مروان جردلى: إن منهج علم الأديان لايستطيع أن يعالج الإسلام كبقية الديانات. فالإسلام فوق الحقائق الطبيعية والاجتماعية والفلسفية والعلم التى يقول بها الفلاسفة والمستشرقون، والإسلام بعيد عن المثالية التى نشأت من فلسفة الديانات .

كما أنه ليس منهجا يقتفى أثر العلوم الاجتماعية، إنه دين ودنيا ينتظم به هذا وذاك، وتعاليم لاتفرق بين العلوم الدينية والدنيوية، لهذا السبب عدت الدعوة إلى العلم عامة فى الإسلام.

ويجرى تناول الغربيين من داخل دائرة فكرهم لمفاهيم وقيم الإسلام على أنه مرتبط دائما عندهم بمفاهيم اللاهوت من ناحية والعلمانية من ناحية أخرى والمادية التى يكتبون بها أساليبهم ويصدرون بها عن عقلياتهم، فإن أحدهم لايستطيع أن يخرج عن مفهوم العلاقة بين المسيحية والمجتمع، على اساسس (فردية المسيحية) وعدم ارتباطها بالتطبيق السائد فى الغرب.

❑❑❑

ومن هنا تتفاوت وجهة نظر المستشرقين(البروتستانت ـ الكاثوليك ـ الملاحدة) حيال الإسلام. كما يتفاوت علمهم بمعناه العريض أو بتأثيرهم النفسى الخاص.

وقد عمل المستشرقون وبعض كتاب الغرب المتعصبين أو أتباع أجهزة السياسة الاستعمارية أو الكنسية على تغيير معالم العقيدة الإسلامية ولكنهم باءوا بالفشل والخسران.

ومن أوائل من افتروا على الاسلام (جولد زيهر) وكان من أهدافه هدم السنة بصفة عامة، ومن ذلك دعواه أن الحديث النبوى هو نتيجة لتطور المسلمين، وهى دعوى

منهارة أمام المقاييس الثابتة من الكتاب والسنة، فالرسول ﷺ لم ينتقل إلى الرفيق الأعلى إلا وقد ترك فى المسلمين سبيل الهداية كاملا ممثلا فى الكتاب والسنة.

« تركت فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا بعدى أبدا: كتاب الله وسنتى»

[رواه الحاكم فى مستدركه على أبى هريره]

أما الادعاء بأن الإسلام أفاد من المؤثرات الخارجية كالاعتزال والكلام والفلسفة اليونانية فإن هذه المحاولة باطلة، وهذا الادعاء غير صحيح، لأن الإسلام اكتمل فى حياة الرسول ﷺ وإنه منذ اختار الرفيق الأعلى لم يدخل إلى الدين شيء.

ولذلك فقد رفض الإسلام فلسفات اليونان لأنها لم تتفق مع جوهر التوحيد الخالص.

وخلاصة موقف الفكر الغربى من الإسلام:

١ـ أنه لايقر الربط بين الدين والدولة، وذلك انطلاقا من تجربة الغرب مع الكنيسة المسيحية ونتيجة الصراع الذى نشأ بينهما، وذلك دون تقرير أن المقارنة باطلة لأن الإسلام يختلف عن المسيحية فى عدة مواقف، فضلا عن أن المسيحية التى حاربها الغرب واختلف معها ليست المسيحية المنزلة وإنما هى مسيحية بولس.

٢ـ موقفه من الحكومة الثيوقراطية والتفويض الإلهى، ووصف حكومة الإسلام بالثيوقراطية وصف باطل وظالم، ولم يعرف الإسلام هذا النظام على مدى تاريخه الطويل، لأنه نظام غربى كانت السلطة فيه في يد رجل الدين تارة والاستبداد الأوتوقراطى تارة أخرى، كان قوامه الأمر بما يسمى بالتفويض الإلهى وطبيعة الإسلام ترفض ذلك.

٣ ـ لم يلقن الإسلام أمته مالقنه رجال الدين الأوروبيون لأقوامهم من التفويض الإلهى للحكام أو براءات الغفران، كما لم يقل علماء المسلمين أن ماكشفه العلم الحديث من اكتشافات واختراعات يتعارض مع الشأن الدينى.



الفوارق والخلافات بين الإسلام والأديان

أولا: إن الإسلام لم يأت كفكرة معينة بل جاء بالصيغة التركيبية التى تخاطب كل جيل ويمكن لكل جيل أن يسمع إلى القرآن الكريم وكأنه أنزل فى عصره وفى جيله.

ثانيا: أن الإنسان ليس مخطئا بحكم الأصل وإن كان الأب أخطأ فقد غفر الله تبارك وتعالى له واجتباه وهداه، وختمت الرسالات برفع رسالة الخاتم إلى أعلى مقام يمكن أن يحوم حوله عقل.

ثالثا: صحح الإسلام فهمنا للحياة على أساس: المسئولية الفردية والالتزام الأخلاقى والجزاء الأخروى، وأحلت لنا الطيبات وحرمت الخبائث، أما سائر المذاهب والفلسفات فقد قدمت عقائد مزيفة، أهمها تقديس الإنسان والقول بالحلول والاتحاد، وهو فى هذا يختلف مع دعوة البوذية إلى حرمة الجسد لأنه نجس وعليك فى البوذية أن تذل نفسك وتقهرها وتحطم بدنك لأنه نجس.

رابعا: خلق الله تبارك وتعالى الموت والحياة ليبلونا أينا أحسن عملا، وأن الإنسان فى الدنيا فى محل اختبار.

خامسا: جمع الإسلام بين الثبات والتطور، فأقام الثوابت فى الفرائض والحدود وهى الأصول وأباح التغيير والحركة فى الفروع وهو اجتهاد لايقتصر على مسلم أو مسلمة دون الآخرين.

ثالثا: السنة والسيرة

ركز علماء الغرب والمستشرقون على السنة والسيرة فى محاولة لإثارة الشبهات والتشكيك فى السنة ومكانها من التشريع، عاملين على عزل السنة عن القرآن، حتى يصبح التلاعب بالقرآن الكريم أمرا ميسورا.

كما طعنوا فى السنة بدعوى أن القرآن هو كلام النبى والسنة أيضا كلامه غير مفرقين بين القرآن الذى هو كلام الله تبارك وتعالى الذى يمتلك ناصية القضايا الأساسية، أما السنة فهى تفسير الرسول ﷺ وتطبيقه لمنهج الإسلام، وقد كانت أحكام القرآن تتطلب تفسيرا تطبيقيا هو السنة التى يبلغها ويطبقها محمد ﷺ .

والهدف من الطعن فى السنة هو القضاء على خصائص المجتمع الإسلامى الذى كان ثمرة النظام التشريعى والتعليمى والاجتماعى، وذلك بهدف تحويل العالم الإسلامى إلى عالم مستعبد يخضع للغرب خضوعا كاملا.

❑❑❑

وقد عمد علماء الغرب والمستشرقون إلى الطعن فى طريقة جمع السنة الشريفة زاعمين أن السنة لم يكتب لها البقاء لأنها لم تدون بل كانت تتناقل شفاهة بين الرواد ولمدة قرنين من الزمان، وكان الكذب والتضليل شأنهم فى ذلك كما كان فى كل ما تناولوه.

وقد بذل الغربيون ــ من مستشرقين ومبشرين وباحثين وأساتذة جامعات ــ جهدهم لتغيير معالم العقيدة الأصلية ولكنهم باءوا بالفشل والخسران المبين.

ومن أوائل من افتروا على الإسلام جولد زيهر، وكان من مقاصده هدم كيان السنة بصفة عامة، ومن ذلك دعواه أن الحديث النبوى هو نتيجة لتطور المسلمين، وهى دعوى منهارة أمام المقاييس الثابتة من الكتاب والسنة.

فالرسول ﷺ لم ينتقل إلى الرفيق الأعلى إلا وقد ترك فى المسلمين سبيل الهداية

ممثلة فى الكتاب والسنة « **تركت فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا بعدى أبداً: كتاب الله وسنتى**» [الحاكم فى المستدرك عن أبى هريرة].

وكذلك فعل الفكر الغربى فى السيرة النبوية، فقد عمد كتابهم ومستشرقوهم إلى دراسة السيرة من خلال أديانهم (اليهودية أو النصرانية)، حيث إنهم أساسا لايقرون بصدق الرسالة التى أعقبت النصرانية، وهم فى منهج البحث علمانيون ماديون ينكرون الوحى والغيب والنبوة أساسا.

ولقد جاء منهج الإسلام فى السيرة جامعا بين العقل والغيب، ولايمكن فصلهما، حيث تتصل السيرة بالدين والغيب والروح، أما الاقتصار فى عرضها على العقل والحس، كما يدعى العلمانيون والماديون، فإنه لايحقق تكامل التصور الحقيقى الجامع.

فالغربى بما تشكل به فكره وعقله وكيانه فى مفاهيم المسيحية يقف أمام السيرة وأمام السنة وأمام الشريعة وأمام كل هذه المعطيات موقفا غريبا لايمكن أن يتحقق فهمه عن طريق الحواس أو تحليلات العقل والمنطق، حيث تتقدم إليه كل المفاهيم المسيحية مغلفة باللاهوت.

وقد حدد الباحثون أن ثلاثة عوامل تحجب التصور الحقيقى:

١ـ الانحراف إلى الأهواء.

٢ـ معطيات اللاهوت المختلفة.

٣ ـ عدم القدرة على إخضاع الإسلام للعقل والمنطق وحده، فالغربيون بمفهوم الفلسفة المادية ينكرون ثلاثا:

١ـ المصدر الغيبى لرسالة النبى.

٢ـ حقيقة الوحى الذى يقوم عليه.

٣ـ القدرة على فهم النص العربى البيانى.

ولاريب أن هناك فارقا كبيرا بين دين سماوى وبين تجربة بشرية، ومن الاستحالة أن يحرر الباحث الغربى عقله من عوامل الموروثات ، هذا فضلا عن أن التصور الغربى للسيرة قائم على عاملين أساسيين هما التعصب العقلى والكراهية الوجدانية.

ومن هنا فإننا كمسلمين نرفض قبول نتائج بحوث المستشرقين الغربيين فى حقل السيرة لأنها تمثل القصور عن الفهم والتبعية للعقيدة القديمة.

يقول ليوبولد فايس (محمد أسد) إن الاحتقار التقليدى للإسلام هو جزء أساسى من التفكير الأوروبى، وقد أخذ يتسلل فى شكل تخريب غير مقبول إلى بحوثهم العلمية.

فالتحامل على الإسلام غريزة موروثة وخاصة طبيعية تقوم على المؤثرات التى خلقتها الحروب الصليبية.

وقال: إن الغرب يخاف من الإسلام قدرته على التوسع والإخضاع، وتتمثل فى حيويته فهو الجدار الوحيد فى وجه الاستعمار الغربى.

والخوف من الإسلام لم يضعف منذ ظهر، بل هو فى اتساع وازدياد، وهو ليس دينيا فحسب بل لأن من أركانه الجهاد ولم يتفق أن شعبا دخل الإسلام ثم عاد نصرانيا.

❑❑❑

ويقول إيتان رينيه: إنه من المتعذر بل من المستحيل أن يتجرد المستشرقون من عواطفهم وبيئتهم ونزعاتهم المختلفة، وقد بلغ تحريفهم لسيرة النبى والصحابة مبلغا يغشى على صورتها الحقيقية من شدة التحريف فيها، فقد كانوا يحتضنون فكرة مسبقة ثم يبحثون عن وقائع من التاريخ لكى يلتمسوا منها ما يؤيد فكرتهم ويستبعدوا مادون ذلك، ومن دعاواهم التى لايكفون عن ترديدها:

أولا: الإدّعاء بأن النبى ﷺ كان يرمى إلى نشر عقيدة التوحيد، أما فكرة عالمية الرسالة وإقامة النظام السياسى فيدعون أنها جاءت من بعد.

ثانيا: ومن دعاواهم: رد معطيات السيرة إلى أصول نصرانية أو يهودية، وعندما ينظرون للموضوعات الحساسة فى الإسلام يحاولون جهدهم ردها إلى أصل نصرانى، أما اليهود فيردون كل ماهو إسلامى أو عربى إلى أصل يهودى، ويتناسون وهم ينالون من قدر النبى ﷺ • بطريق مباشر أو غير مباشر كيف يقدس المسلمون السيد المسيح.

ثالثا: محاولة فهم الإسلام من خلال اصطلاحات المسيحية فهم يرفضون رأى المسلم فى المسيحية ويرفضون رأى المسلم فى الإسلام ويسعون جاهدين لنقض الرأيين.

رابعـــا: يوجد تعاطف بين العناصر والقوى المضادة للإسلام ولنبيه ﷺ .

خامسا: المبالغة فى الشك والافتراض والنفى الكيفى واعتماد الروايات الضعيفة والشاذة.

سادسا: إثارة الشكوك فى المسلمات.

سابعا: أخطر دعاواهم دعوى أن القرآن ليس وحيا، يأتيه من الخارج بواسطة الملك، وإنما هو يصدر من اللاشعور الجماعى، وكذلك دعوى الصرع وارتباطها بالوحى.

ثامنا: كلمة الروح واختلافها بين مفهوم الإسلام والمسيحية، فالروح فى المسيحية هو الله وفى اللغة العربية غير ذلك، وسمى عيسى عليه السلام روحا لأنه كان يحيى الموتى بإذن الله، وسمى جبريل روحا لأنه كان يأتى بالقرآن.

تاسعا: ظهرت عدة مناهج علمانية مادية تنكر الوحى والنبوة أحدها المنهج الغربى والآخر المنهج الماركسى والثالث المنهج اليهودى.

وقد حاولت الماركسية إخضاع حقائق السيرة للتفسير المادى للتاريخ حقدا على الإسلام وكراهية لنبيه وبعداً عن المنهجية والموضوعية.

❑❑❑

وقد عمل الاستعمار والنفوذ الغربى على إيجاد طبقة من الكتاب والباحثين العرب والمسلمين أنكرت السنة وأحاديثها.

كما جرى التشكيك فى الحديث النبوى، ومحاولة عزل السنة عن القرآن وضرب السنة، لزلزلة قواعد الإسلام نفسه بحسبانها تمثل التطبيق لنصوص القرآن ممثلا فى تصرفات النبى ﷺ، ولما كانت السنة هى المصدر الثانى للتشريع الإسلامى فإن العمل على هدمها كان هدفا من أهداف النفوذ الأجنبى للانفراد بالقرآن وتأويله، فالسنة هى

الهيكل الحديدى الذى قام عليه صرح الإسلام، وإن العمل بسنة رسول الله حفظ كيان الإسلام وعمل على تقدمه، وإن ترك السنة يؤدى إلى انحلال الإسلام.

❑❑❑

ويؤكد ليوبولد ڤايس (محمد أسد)، أن هدم الحديث النبوى هدف أساسى للغرب ورجاله وأتباعه، للعمل عل فتح الطريق أمام إنفاذ سمومهم ومفاهيمهم بتأويل أحكام القرآن على هواهم.

إن رفض الأحاديث الصحيحة جملة واحدة أو أقساما ليس حتى اليوم إلا قضية ذوق، وإن السبب الذى يحمل على مثل هذا الموقف من المعارضة بين كثير من المسلمين المعاصرين يمكن تتبعه إلى مصدره:

إن السبب يرجع إلى استحالة الجمع بين طريقة حياتنا وتفكيرنا الحاضرة المتقهقرة وبين روح الإسلام الصحيح.

ولكى يستطيع نقدة الحديث المزيفون أن يبرروا قصورهم وقصور بيئتهم فإنهم يحاولون أن يزيلوا ضرورة اتباع السنة، لأنهم إذا فعلوا ذلك كان بإمكانهم حينئذ أن يتأولوا تعاليم القرآن الكريم كما يشاءون على أوجه من التفكير السطحى، أى حسب قبول كل واحد منهم وطريقة تفكيره هو، ولكن تلك المنزلة الممتازة التى للإسلام على أنه نظام خلقى وعملى ونظام شخصى واجتماعى تنتهى بهذه الطريقة إلى التهافت والاندثار، وإن الذين خلبتهم المدنية الغربية لايجدون مخرجا من مأزقهم إلا برفض السنة على أنها غير واجبة الاتباع على المسلمين، ذلك لأنها قائمة على أحاديث لايوثق بها، وبذلك يصبح تحريف تعاليم القرآن الكريم لكى تظهر موافقة لروح المدنية الغربية أكثر سهولة».

رابعا: الشريعة الإسلامية

حاول الفكر الغربى التهجم على الشريعة الإسلامية أمدا طويلا ووصفها بأنها شريعة صحراوية تارة ومرحلة مؤقته تارة أخرى.

كما جرت عادة كتاب الغرب والمستشرقين الادعاء بأن الشريعة الإسلامية لم تطبق إلا فى العقود الأولى من حكم الخلفاء الراشدين.

وهناك ظاهرة التشكيك فى قدرة الشريعة الإسلامية على العطاء، ومنها إثارة الشبهات حول الحدود وقطع يد السارق ورجم الزانى واتهام الشريعة الإسلامية بالغلظة والجهامة.

ويرجع ذلك كله إلى هدف واضح هو حرص النفوذ الأجنبى على حجب النظام الإسلامى والتمكين للقانون الوضعى الذى يحقق له مطامعه وأهواءه.

وهناك محاولة تصوير الإسلام بأنه دين لاهوتى عبادى لاصلة له بقضايا المجتمع والسياسة والاقتصاد.

وكل هذا يكشف عن استحالة الالتقاء بين الفكر الغربى بمفهومهم للاهوت الغربى وعلاقاتهم برجال الكنيسة والصراع الذى دار بينهما، وعدم القدرة على التوفيق بين الدين الغربى(بكل تطوراته التاريخية) وبين الإسلام ، حيث تقرر فى الغرب فصل الدين عن الدولة، ولم يقر الإسلام ذلك.

وقد جاء الفصل بين الدين والدولة فى الغرب نتيجة المفهوم الدينى نفسه القائم على العبادة فقط ـ ومتمشيا مع النظرية الغربية فى الفصل بين القيم، والانشطارية بين الروح والمادة والقلب والعقل، بينما يقوم المفهوم الإسلامى على تكامل هذه القيم.

ولقد أقام الغرب مفهوم الصراع بين الطبقات والأجيال والعناصر فى الطبيعة(وهو مفهوم مادى اعتمد عليه الغرب فى بناء فكره)

وكان هذا أخطر ما حققه الفصل بين المنهج والتطبيق، أما الإسلام فإنه يحمل مفهوما جامعا بين الروح والمادة تترابط فيه القيم الاجتماعية والسياسية والاقتصادية، ويربط بين العلم والدين، وليست له خلافات كتلك التى قامت بين المسيحية فى الغرب وبين العلم، أو بينها وبين الدولة.

ولقد بطلت دعاوى الغرب حول تطبيق الشريعة فقد ظلت البلاد العربية والإسلامية حتى قبل مائة عام تقريبا (١٨٨٠) تطبق الشريعة وحدها بحكم انتمائها إلى الإسلام إلى أن تزايد النفوذ الأجنبى واستطاع السيطرة على أنظمة الحكم وأنشأ المحاكم المختلطة والأجنبية التى تحكم بقوانينه.

ولقد وضح منذ ذلك اليوم مدى الفارق البعيد بين القانون الغربى الوضعى وبين الشريعة الإسلامية الغراء.

ومن هنا كانت تلك الحملة الضارية التى تحاول تكثيف الغبار حول عظمة النص الربانى لتصرف الناس عنه بالتشكيك وإثارة الشبهات.

ومن هنا كانت الادعاءات الباطلة التى ترددت فى محاولة للقول بأن نظام الإسلام لم يطبق ومحاولة الحديث عن العادات والتقاليد السائدة فى المجتمع وتناقض بعضها فى أحيان كثيرة مع تعاليم الإسلام.

والادعاء بأن القانون الإسلامى نظام بال قد بلغ مرحلة الجمود عن التطور اللازم لأى نظام قانونى.

بينما أن القانون الإسلامى لم يتوقف عن التطور إلا أن أعداء الإسلام حجبوه بالقوة وأنه مازال قائما متفاعلا فى أعماق ضمائر المسلمين.

كذلك فقد حاول الغربيون الادعاء بجمود أحكام الإسلام باعتبار أن هذه الأحكام مستمدة من القرآن الكريم مصدر الشريعة الأول، ولكن هذا لايغض من قدر ثبات القيم الإسلامية مع وجود مجال واسع للاجتهاد فى جانب المتغيرات التى تمكن من الاستجابة لتطورات المجتمعات والبيئات .

❑❑❑

وقد ادعى البعض القول بمثالية أحكام الشريعة الإسلامية،ولكن هذا لايمكن أن يعنى عدم صلاحيتها للتطبيق.

والواقع أن هناك فوارق بعيدة وعميقة بين التشريع الإسلامى والقانون الوضعى الرومانى:

١ـ ليست الشريعة الإسلامية وقفا على القانون والقضاء وإنما هى تمتد إلى الاقتصاد والاجتماع والسياسة حتى تشمل شئون المجتمع كله، ولما كانت الشريعة الإسلامية من عند الله تبارك وتعالى فإنها تمثل شمول النظام الإسلامى وقواعده لكل ناحية من نواحى حياة المسلم .

٢ـ والفقه تعبير عن نظام قانونى وضعه الفقهاء المسلمون مستمد من القرآن والسنة تغطى أحكامه وقواعده كل ما يعرض للمرء فى حياته، بل وما يصيب ماله بعد وفاته ومايجب له من أحكام قبل ولادته، فضلا عن نظام العلاقة بين الفرد وربه.

وهذا شأن غير معهود فى النظم القانونية الوضعية فهى لاتتدخل إلا حيث يكون النزاع بين طرفين.

٣ ـ قدم القرآن الكريم التشريعات الشاملة لجوانب الحياة كلها :

(١) العبادات بما فيها الزكاة. (٢) الجهاد المشروع لنشر الدين.

(٣) التنظيمات المترتبة على القانون الدولى. (٤) النظام الاجتماعى للفرد والأسرة.

(٥) أحكام الأطعمة والأشربة. (٦) تنظيم أحكام المعاملات.

(٧) الجنايات وما يتعلق بها من قضايا وطرق إثبات وعقوبات.

٤ـ جاء الإسلام بحقيقة جديدة فى مجال التشريع كانت مطموسة فى الجاهلية وهى أن التشريع والتحليل والتحريم هو من الله تبارك وتعالى،وبأن الإسلام يطلب من معتنقيه استسلاما تاما فى شئون الحياة كلها، وليس هناك جانب من جوانب الحياة خارجا عن هذا المجال، وبأن القرآن جاء بتشريعات متعددة تشمل جوانب الحياة كلها.

٥ ـ ما جاء به القرآن الكريم من تشريعات فهى إما تشريعات جديدة أو تخالف فى أغلب الأحيان ما كان مألوفا فى الجاهلية، والرسول بصفته مبلغا عن الله تبارك وتعالى لابد أنه قد بلغها ونفذها على أكمل وجه.

﴿ ما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضي الله ورسوله أمرا أن يكون لهم الخيرة في أمرهم ومن يعص الله ورسوله فقد ضل ضلالا مبينا﴾.

ويؤكد هذا مايلخصه الدكتور عماد الدين خليل من أن الإسلام جاء بعقيدة فى مجال التشريع تنص على أن التحريم والتحليل من حق الله تبارك وتعالى، وأنه طلب من المسلمين الخضوع التام لأوامر الله سبحانه، وأنه جل شأنه أنزل لهم من أصول التشريع مايكفى لسد حاجاتهم. وامتثالا لأوامر الله سبحانه وتعالى كان رسول الله ﷺ يقضى بين الناس كما كلف عدداً من الصحابة بالقيام بهذه المهمة، وما مضى قرن إلا وظهرت الكتب الفقهية فى بيئة بنى أمية.

❑❑❑

وبالجملة (أولا) فإن الله تبارك وتعالى قد خص لنفسه حق التشريع وأعطى لنبيه ﷺ الصلاحية فى هذا المجال:

﴿ إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس بما أراك الله ولا تكن للخائنين خصيما ﴾.

﴿ إنما قول المؤمنين إذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم أن يقولوا سمعنا وأطعنا وأولئك هم المفلحون ﴾.

﴿ ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون ﴾.

(ثانيا) إن الله تبارك وتعالى طلب استسلاما تاما لأوامره سبحانه ونواهيه فى كافة أمور الحياة.

(ثالثا) ليس لأحد أن يغير أو يبدل فيما أنزل الله تعالى إطلاقا حتى وإن كان رسولا مرسلا أو ملكا مقربا.

والواقع أن هناك فوارق عميقة بين وجهة كل من التشريعين وجودا ونموا وامتداداً مما تعالت معه صيحات كتاب الغرب ومستشرقيه فى مجال التشكيك فى عظمة الشريعة الإسلامية وكمالها بالدعوات المبطلة الزائفة.

وكانت شبهة أن الشريعة الإسلامية تأثرت بالفقه الرومانى فى بداية عهد تكوينها من أولى هذه الشبهات (جولد زيهر وشاخت).

والحقيقة أن الشريعة الإسلامية لم تسلك فى نموها الطريق الذى سلكه القانون الرومانى، فإن هذا القانون قد بدأ عادات ونما وازدهر عن طريق الدعاوى والإجراءات الشكلية.

أما الشريعة فقد بدأت كتابا منزلا ووحيا من عند الله تبارك وتعالى، ونمت وازدهرت عن طريق القياس والأحكام الموضوعة إلا أن فقهاء المسلمين امتازوا على فقهاء العالم بعلم أصول الفقه.

أما ما بين الشريعة الإسلامية والقانون الرومانى القديم من اتفاق لايكاد يذكر فى بعض الجزئيات فإن هذا يجب ألا ينسينا مدى التباين والاختلاف القائم بينهما.

ويظهر ذلك فى مسائل الأحوال الشخصية ـ أحكام الملكية ـ مبادىء العقود ـ قواعد تعويض الضرر، ويؤكد كثير من الباحثين أن القرآن نزل بأحكام الفقه فى مكان مقطوع الصلة بفقه الرومان، وجاءت أحاديث الرسول لتبين للناس ما نزل إليهم من الأحكام. وقد ذهب البعض إلى الاتهام بأن الإمام الأوزاعى تأثر بفقة الرومان لأنه نشأ فى بلاد الشام ظنا بأن فقه الرومان كان مننتشرا فى الشام لعهد الأوزاعى مع أن التشريع الإسلامى قد مد رواقه على الدولة الأموية منذ أسسها معاوية بدمشق، وأن فقهاء المسلمين كانوا يعملون الرأى فى أحكام الناس دون أن يعرفوا شيئا عن فقه الرومان.

فضلا عن أن القانون الرومانى لعهد التشريع الاسلامى فى عصر الأئمة، كان مشوشا مضطربا فى موطنه الأصلى، وقد شهد مؤرخوهم بأنه ظل على أتعس صورة حتى أواسط القرن الحادى عشر الميلادى، أى بعد ظهور الاسلام بأربعة قرون ونصف، ثم جاء الحبر الرومانى سلفستر الثانى الذى جلس على كرسى البابوية ١٠٢٤م مع إخوان له درسوا الفقه الإسلامى فى مدارس الأندلس وترجموا ما درسوه إلى لغتهم فنقلوا ما يوائمهم إلى ما لديهم من القانون، بحيث تجدد الفقه الرومانى بتيار إسلامى وفد من الأندلس وجعلوا ما اقتبسوه تحت عنوان (الفقه الرومانى) ليبعدوا كل أثر لفقه الإسلام.

* هل كان الطلاق الذى جاء به الإسلام متبعا فى الجاهلية ؟
* هل حقوق المرأة كما قررها الاسلام كانت فى الجاهلية ؟
* هل كان للمرأة عند العرب أو الرومان ارادة فى تزويج نفسها والولاية العامة على مالها؟
* هل كان للمرأة كيان كامل عند الرومان أو الفرس أو البدو ؟
* هل قرر الإسلام ما قرره البدو والرومان فى ثبوت النسب ؟
* هل أقر الإسلام نظام التبنى الذى كان معمولا به عند العرب وعند الرومان ؟
* هل نظام الولاية على النفس والمال هو كما كان عند الرومان ؟
* هل نظام الميراث كما قرره الإسلام سبق به أى شرع من الشرائع ؟

«انتهى»

❑❑❑

لقد قدم الإسلام منهجا غير مسبوق هو **(علم أصول الفقة)** المعبر عن روح الحضارة الإسلامية. فهو يدرس منهج البحث العلمى بوجه عام والبحث الفقهى بوجه خاص، وقد سبق المسلمون بهذا العلم كل فقهاء القانون فى العالم، فلم يعن هؤلاء الفقهاء بالتأليف فى أصول القانون إلا منذ نحو قرنين على حين عرف فقهاء الإسلام قواعد

ومن عجب أن يأتى سانتلانا وجولد زيهر وينكرا هذه الحقائق، ويقولا أن هناك بعض التشابه بين القانون الرومانى والفقه الإسلامى . وأن هذا دليل على أن الفقه الإسلامى قد استمد من سابقه.

ومن المؤكد أن جولد زيهر مؤلف كتاب العقيدة والشريعة فى الإسلام، قد قرأ مادونه أئمة الإسلام ولم يجد فيه أدنى إشارة تدل على هذا الاقتباس، وهذا شأنهم فى التلفيق.

❑❑❑

وقد بلغ المستشرق شاخت أعلى درجات الادعاء والمبالغة فى هذا المضمار، وقد دحض الشيخ أبو زهرة ادعاءاته وكشف عن مغالطاته وتحيزه فى بحث مطول نشره فى العدد الأول من مجلة الدراسات الإسلامية (يوليو ١٩٦٨) نلخصه فيما يلى:

❑ ❑ ❑

١ـ تخصص شاخت لغوى ولم يكن من علماء القانون.

٢ـ لا يقدر الفقه الإسلامى إلا عالم فى القانون يستطيع أن يوازن بين الحلول القانونية التى اشتملت عليها أحكام الشريعة الغراء وما كان فى القوانين قديما وحديثا.

٣ ـ تابع شاخت آراء جولد زيهر اليهودى وتوسع فيها.

٤ ـ إنه يدرس الحقائق الإسلامية دراسة ذاتية ولا يدرسها دراسة موضوعية، فهو لا ينقل للغرب ما يقرره علماء الإسلام، ونظرهم إلى المصادر بل هو يدرسها كما يفكر هو وكما تهوى نفسه.

٥ ـ لم ينهج المنهج العلمى الأمين عند كلامه عن الفقه الإسلامى ولم يقدم المقدمات المقررة عند علماء الإسلام ثم ينتهى إلى النتائج التى تنتجها هذه المقدمات تاركا الدليل وحده هو الذى يسيره.

٦ـ كتابته تدرس على أنها كتابة متهجم متعصب على الإسلام.

٧ـ ساق دعوى؛ فادعى أن مكة والمدينة كانت فيهما نظم قانونية تنظم العلاقات التجارية والزراعية، وادعى أن الإسلام أخذ بها.

٨ ـ دعواه أن التشريع المتعلق بالأسرة والوراثة كما قرره الاسلام كان مستمداً من النظام القبلى أو خاضعا له.

* هل كان الطلاق الذى جاء به الإسلام متبعا فى الجاهلية؟
* هل حقوق المرأة كما قررها الاسلام كانت فى الجاهلية ؟
* هل كان للمرأة عند العرب أو الرومان ارادة فى تزويج نفسها والولاية العامة على مالها؟
* هل كان للمرأة كيان كامل عند الرومان أو الفرس أو البدو ؟
* هل قرر الإسلام ما قرره البدو والرومان فى ثبوت النسب ؟
* هل أقر الإسلام نظام التبنى الذى كان معمولا به عند العرب وعند الرومان ؟
* هل نظام الولاية على النفس والمال هو كما كان عند الرومان ؟
* هل نظام الميراث كما قرره الإسلام سبق به أى شرع من الشرائع ؟

«انتهى»

❑❑❑

لقد قدم الإسلام منهجا غير مسبوق هو (**علم أصول الفقة**) المعبر عن روح الحضارة الإسلامية. فهو يدرس منهج البحث العلمى بوجه عام والبحث الفقهى بوجه خاص، وقد سبق المسلمون بهذا العلم كل فقهاء القانون فى العالم، فلم يعن هؤلاء الفقهاء بالتأليف فى أصول القانون إلا منذ نحو قرنين على حين عرف فقهاء الإسلام قواعد وأصول الاجتهاد واستنباط الأحكام منذ فجر الدعوة وإن لم يكتبوا فيها إلا فى القرن الثانى الهجرى .

وكان أول كتاب فى الأصول صحت نسبته إلى مؤلفه ووصل إلينا هو :

الرسالة للامام الشافعى، حيث رسم المبادئ الأساسية التى ينبغى أن يأخذ بها المجتهد فى الكشف عن أحكام الله تبارك وتعالى فى أفعال عباده.

ولقد كان المسلمون هم الرواد الأوائل فى مجال تأصيل مناهج البحث العلمى، وإن علماء القانون على تعمقهم فى البحث ووضع النظريات القانونية لم يبلغوا ما بلغه فقهاء الإسلام من الاستيعاب والتعمق. أ. هـ

نظرة عامة على خطة اقتحام الفكر الإسلامى
من جانب : (العقيدة - القرآن - السيرة - السنة - الفقه)

قدم علماء الغرب والمستشرقون كتبا لها صفة العلم فى مختلف المسائل الإسلامية تدرس فى بعض الجامعات العلمية على أنها صورة صحيحة لما جاء فى الشريعة الإسلامية من أحكام وقواعد، وقد جاء بعضها محرفا وبعضها لايتقيد بحكم الشارع، ثم بولغ فى تحرير مدلولاتها ومعانيها على نحو يتعذر معه فهم الأحكام الإسلامية على وضعها الصحيح.

ولقد كانت مهمة المستشرقين قبل ذلك وبعد ذلك، أن يكونوا عيون أوروبا والغرب الناظرة إلى عقول سكان العالم الإسلامى والعمل على إلهائهم عن الثقافة الأصلية.

وقد نقلوا من بلادنا نصف مليون مجلد، نقلها القناصل من المخطوطات العربية الى مكتباتهم فى الغرب.

وكان اليهود قد كيفوا أنفسهم ليصبحوا عمودا فقريا فى كثير من حركات الاستشراق الأوروبية النصرانية التى سبقت الحروب الصليبية، فكانوا هم الكشافة الذين تقدموا الغزاة المستعمرين فى بلادنا حتى أن جولد زيهر - وهو يهودى مجرى - أصبح زعيم الإسلاميات فى أوروبا، وبذلك التسلل اليهودى كشف اليهود أنهم فرضوا أنفسهم على الحركة الاستشراقية كلها لا الحركة اليهودية فحسب.

ولقد عمد الاستشراق إلى الدعوة الى الإلحاد العلمى باسم العلمانية والفلسفة المادية، ولم يكن الإلحاد العلمى إلا هجوما على الإسلام ومبادئه والدعوة إلى جعل وحى الرسالة الإلهية عبثا وخرافة وتوجيه أبناء المسلمين فى الجامعات الغربية ليكونوا قادة الفكر العلمانى فى بلادهم بعد عودتهم، ولقد اهتم الاستشراق أساسا بدراسة الفتن الأهلية والخلافات المذهبية ومظاهر الانقسام والتفسخ، وخدمة النفوذ الغربى بفرض المصالح الغربية على العالم الإسلامى وإحياء خلافات الفرق والصراع بين المذاهب .

ومحاولة العمل على أن يقبل الإسلام المفهوم الغربى القائل بأن الإسلام قد طمس معالم كل حضارة اتصل بها.

أو محاولة الادعاء بأن الإسلام مرحلة قد انتهت، والغريب أن هذه المحاولة منذ أن قامت لم تتوقف، وهى فى كل مرحلة تختلف فى الأساليب ولكن الغاية ما تزال واحدة.

وكان الاستشراق بذلك ظاهرة فريدة من ظواهر القوى المضادة للدين الإسلامى وتراثه الحضارى، وقد تجاوزت مؤامرته عشرة قرون من تاريخها.

ويقول الدكتور محمد الدسوقى أنه لم يلق دين من الأديان ما لقى الإسلام من كيد ومن مقاومة لانتشاره والعمل لتشويه مبادئه وتوهين قوته والازدراء بالمؤمنين به.

وقد جرى تسخير الاستشراق ليكون أداة لتنفير غير المسلمين من الإسلام وزعزعة ثقة المسلمين بدينهم وصلاحيته الدائمة للحياة، وقد ظل الاستشراق فى مختلف مراحله أسير التوجيه الكنسى و الاطماع الاستعمارية التى بدأت مع الحروب الصليبية.

ويرمى المستشرقون الجدد إلى توجيه الأجيال الحديثة من الشباب المسلم الذى يدرس فى جامعات الغرب إلى الاعتماد على مصادرهم المتعصبة فى فهم الإسلام وحضارته (الاعتماد على نولدكه وماسنيون وجب).

ذلك لأن الاستشراق أساسا لايعتمد على المصادر الأصلية فى التراث الإسلامى وإنما يعتمد على ما كتبه المستشرقون عنها .

ويستشهد الباحث بما يقوله أحد أعلام الاستشراق (هرمان استجلكر) الألمانى فى قوله: « إننا يجب أن نكسب وجهات نظر جديدة لعقائدنا المسيحية بناء على فهمنا العميق للتعاليم الإسلامية، وفهمنا لنفسية المسلم المتدين، وذلك حتى نتجنب نقاط الضعف فيما نستخدمه من أدلة وحتى نتبنى من جديد دفاعا جديدا عن العقيدة المسيحية، دفاعا يضع فى حسابه روح الإسلام والتطور الفكرى للمسلمين، والهدف هو خدمة العقيدة المسيحية والدفاع عنها والتمكين لها بين المسلمين بأسلوب يبدو فى ظاهره علميا ».

هذا التحول الخطير يجب التنبه له، وفق تطور التبشير والاستشراق عن طريق نبذ الهجوم السافر أو الطعن المباشر والتخلى عن الأسلوب الاستشراقى القديم فى الهجوم على الإسلام والمسلمين.

ومن هنا يكون التحول أو التغير الذى جد على الاستشراق فى مواجهة ما طرأ على العالم الإسلامى من تغيرات فكرية وأساسية، هو انتهاج أسلوب يختلف فى الشكل وفى الظاهر، ولكن يظل المضمون قائما والهدف الأساسى مستمرا.

ومن هنا يعمل الاستشراق على الادعاء بأن القرآن كتاب معقد فى تركيبه يحوى أساطير وقصصا منقولة عن الأديان السابقة، كما أنهم يشككون فى مبدأ اعتبار القرآن منزلا ومقدسا بدعوى أن ذلك يعارض التطور العلمى ولا يتفق مع التقدم.

وهناك محاولة غزو كل ما فى الاسلام حتى الأسماء والألقاب وردها إلى العنصر اليهودى.

وهم يركزون على مايسمى «تطوير الإسلام» وهو عمل يراد به خدمة المصالح الاستعمارية والقضاء على الطابع الثابت للإسلام فى محاولة لتوظيف الفكر الإسلامى على أيدى أتباعهم من المسلمين، لمقاومة زحف الفكر الشيوعى بدعوى التعاون على حماية الإيمان من تيار الإلحاد الجارف.

كل هذا يجرى ليكون حجر الزاوية فى تشويه الفكر الإسلامى، وبتر صلة المسلمين بالمصادر الاصيلة لتاريخهم أو إضعاف الثقة به .

الباب الثانى

اقتحام الفكر الإسلامى
(اللغة ـ التاريخ ـ التراث ـ الأدب)

لم يتوقف اقتحام الفكر الإسلامى عند منهج الإسلام: عقيدتـه وشريعته، وقرآنه وسنته وسـيرة نبيـه، (وهى الحصن الأول للإسـلام) ولكنه امتد ايضا إلى المصدر الثانى وهو اللغة والتاريخ والتراث والأدب، فى محاولة لإثارة الشبهات الزائفة حول القيم الأساسية لهذه العناصر الاربعة التى تستمد وجودها من القرآن والسنة وتمثل عناصر العطاء العقلى والروحى لعلماء المسلمين فى هذه المجالات كلها .

الفصل الأول :

حرب اللغة العربية تستهدف القرآن الكريم

الحملة على اللغة العربية مستمرة على مختلف تاريخ الإسلام والعرب، ويقود هذه الحملة المستشرقون والمبشرون وأتباعهم من العرب وخاصة غير المسلمين، وتهدف الحملة فى منطلقها الحقيقى إلى : توهين علاقة المسلمين بالقرآن الكريم، وتتمثل فى أذهانهم صورة علاقة الأم ألاوروبية باللغتين اللاتينية واليونانية القديمتين اللتين اندثرتا وحلت محلهما العاميات التى ارتقت إلى لغات .

ومن العجيب أن يخدع بعض أصحاب الديانات الأخرى وقادة الفكر الغربى ودعاته من خبراء وأساتذة جامعات، يخدعون المسلمين ويسوقونهم مغمضى الأعين ليرددوا ما يريدون، ويرجع هذا إلى نقص فى وعى أهل الإسلام بغايات الأمور التى لاتنكشف لهم ويخدعهم عنها العارفون بها والذين يسعدهم أن يستغلوا غفلة هؤلاء .

ولقد جرت المحاولات فى هذا الاتجاه على أوسع نطاق من قبل، وباءت بالفشل: قام بها الفرنسيون فى الجزائر والمغرب وتونس، وقامت بها الصهيونية فى فلسطين،وما يحاوله الهندوس بين مسلمى الهند.

ويركز المستشرقون والمبشرون على ما يسمونه (التطوير)فهم يدعون أنهم يريدون تبسيط أمور النحو والصرف وإعادة النظر فيها بما يتلاءم مع حاجة العصر، أو مقولة التقريب بين لغة الكلام ولغة الكتابة على النحو الذى تقوم به الصحافة العربية الآن، غير أننا نعلم تماما مدى الأثر الذى يحدثه نفوذ اللغات الأجنبية سواء فى مجال المدرسة أو الجامعة فى محاولة لظهور أجيال جديدة من الشباب العربى المسلم . لايهتم باللغة العربية ولا يعمل لها حسابا، وقد ملأه الغرور بانتمائه إلى لغة أخرى، وثقافة أخرى فى حين أن الأمانة العقدية والقومية تتطلب منا أن يكون علمنا بكل لغة هو فى سبيل خدمة اللغة العربية والإسلام والفكر الإسلامى حماية للهوية الأصلية وتأكيدا لها.

□□□

تمتاز اللغة العربية عن لغات الأرض قاطبة بأنها لغة رسالة ولغة عقيدة، وهذه العقيدة يخاطب بها العالم أجمع، ومن ثم كانت الحملة عليها ممتدة، فى محاولة لحصارها والحيلولة بينها وبين النمو والامتداد الذى بلغه الإسلام ومايزال يبلغه، ومن هنا وجدنا أقطارا دخلها الإسلام وعجزت اللغة العربية عن دخولها، وكان لذلك أبعد الأثر فى عجز أهلها عن استيعاب مفاهيم الإسلام وقيمه عن طريق القرآن الكريم واللغة العربية.

لقد كانت اللغة العربية بالنسبة للعرب هى اللغة القومية، ولكنها بالنسبة للمسلمين والعرب هى لغة الثقافة والعقيدة، وهى بهذا تمثل نموذجا مفردا لاسبيل إلى وجود مثيل له فى علاقة اللغات بالأمم، ويرجع ذلك إلى مصدر واحد: هو نزول القرآن الكريم بها كدستور ومنهج حياة للمسلمين وللعالمين إلى أبد الدهر.

كذلك فليست اللغة العربية هى (أداة التعبير) عن الأفكار والمشاعر، وإنما هى(أداة التفكير) نفسه وأداة الإحساس والشعور.

ذلك أن اختلاف فكر الأمم إنما يكون بسبب تباين خصائص لغاتها وطبائعها، من أجل هذا ـ كما يورد الدكتور ناصر الدين الأسد ـ قيل دائما أن اللغة هى المقوم الأول من مقومات شخصية الأمة وذاتها وهويتها، وإننا لا نستطيع أن نسمو إلى فكر شامخ بلغة عامية مبتذلة وأن الترابط لابد أن يكون متلازما بين الفكر واللغة، وأن الفكر الأنيق يحتاج بالضرورة إلى تعبير رشيق.

ولقد دخلت العربية البلدان التى فتحها العرب وتمكنت فى فترة قصيرة من إزالة:

(الفارسية والسريانية واليونانية والفينيقية والبربرية واللاتينية) واكتساح معاقلها.

ولما علم رجال الكنيسة أن العربية أضحت هى الأداة الوحيدة لنقل العلوم والآداب اضطروا إلى تعريب مجموعاتهم اللاهوتية لتسهل قراءتها فى الكنائس مما جعل (ماسينيون) يقول:

إن المنهاج العلمى قد انطلق أول ما انطلق باللغة العربية ومن خلال تأثير اللغة العربية فى الحضارة الأوروبية، وقد أصبحت اليوم لغة أكثر من ثلاثمائة مليون نسمة يعيشون فى المنطقة الممتدة من خليج البصرة شرقا إلى المحيط الأطلسى غربا، ومن جبال طوروس وجبل طارق إلى جنوب السودان والصحراء الأفريقية والمحيط الهندى (الآن ألف مليون وثلاثمائة ومائتى ألف نسمة) .

وقد ظلت العربية أهم اللغات فى العالم الإسلامى على مدى عدة قرون. وقد ارتبط انتشارها بدخول الإسلام إلى أقاليم أفريقيا وآسيا، فأصبحت لغة الدين والثقافة والعلم والتأليف على مدى قرون فى إيران وتركيا وشبه القارة الهندية والملايو وشرق أفريقيا.

وقدمت عددا من المؤلفين بالعربية من الهند: أمثال التهانوى (صاحب كشاف اصطلاحات الفنون)، وعثمان بن فوديور غرب أفريقيا ـ وحاجى خليفة (آسيا الصغرى) صاحب كشاف الفنون.

ثم تغير الموقف بعد استشراء الاستعمار الأوروبى ، حيث أوقفت الدول الغربية نمو العربية وأبدلته بنفوذ لغاتها ولهجات أهلها، كما دفعت المسلمين فى أوروبا وجنوب شرق آسيا إلى تغيير الأبجديات العربية للغاتهم وكتابتها بالحروف اللاتينية.

ولقد كان المنطلق الحقيقى للعالم الإسلامى هو السعى للتوحد فى مظلة اللغة العربية، لغة القرآن، فيكون فى كل قطر إسلامى لغة عامية، وتكون اللغة العربية هى لغة الثقافة والفكر، ويكون ذلك منطلقا للوحدة الجامعة عن طريق أن تكون لغة القرآن هى الواسطة الوحيدة الممكنة للتفاهم بين جميع أهل العالم الإسلامى ولفهم الإسلام فهما صحيحا من منابعه الأصيلة.

وقد جرت محاولات متعددة فى هذا الصدد أبرزها محاولة الباكستان، ولكن خصومة الغرب للإسلام دفعته إلى الوقوف فى وجه اللغة العربية، (الفصحى لغة

القرآن) والعمل على إحياء لهجات الأمم المختلفة، ونشر لغتها وتحويل أبجدية اللغات القومية إلى الحروف اللاتينية.

بل لم يتوقف الأمر عند هذا الحد، إذ امتد إلى إثارة الشبهات حول مكانة اللغة العربية وقدرتها على استيعاب مصطلحات الحضارة، والدعوة إلى العاميات وكتابة المسرح والأغانى بها، والتخفف من أسلوب البيان العربى وإضعافه لخلق فجوة بين الأسلوب العربى فى الكتابة وبين بيان القرآن الكريم. ولاريب أن تفشى اللفظ العامى فى كتابات العصر هو جزء من مخطط عزل الإسلام وبيان القرآن عن أسلوب الكتابة المعاصر، وهى جزء من خطة معاول الهدم الممتدة إلى مجالات الشعر والسينما والمسرح والمسلسلات.

□□□

ولقد تآزرت قوى كثيرة فى سبيل دفع العامية إلى مكان الصدارة فى قلب الوطن العربى، حيث اتسع نطاق الشعوبية وفتحت لها الصحف أبوابها، فنشرت عشرات من المقاطع العامية، بل أصبح دعاة العامية يباهون بنحلتهم ويفخرون بها فى دعوى عريضة إلى تسمية اللهجة العامية باسم اللغة، وقد أعان على ذلك سيطرة الماركسيين على الثقافة والصحافة فى الفترة الماضية، والخطر هو تنشئة جيل جديد من أبناء العرب لايستطيع أن يتذوق البيان العربى الأصيل، وهى دعوة ذات أثر بعيد فى فصل الآداء العربى عن مستوى القرآن الكريم فى محاولة للتباعد عنه والانفصال حتى تنقطع صلة الأجيال المقبلة بالبيان العربى.

ولقد امتدت خلال فترة تزيد على قرن من الزمان محاولات تغريب اللغة العربية وفصلها عن البيان القرآنى، واشترك فى هذا العمل غربيون وعرب، من ويلكلوكس وويلمور ولطفى السيد وسلامة موسى ولويس عوض، ومن اعداء الفصحى مارون غصن وأنيس فريحة وسعيد عقل.

ودعا توفيق الحكيم إلى لغة وسطى بين العامية والفصحى، وكان الهدف مسموما وهو تقريب العامية إلى الفصحى، وليس تقريب الفصحى إلى العامية فالفصحى لغة والعامية لهجة.

ولقد أوجدوا لهذه المؤامرة مخططا سياسيا ومخططا ثقافيا.

أما المخطط السياسى فقد تولته الدول المستعمرة، وكان تأثيره بالغا فى أفريقيا وآسيا، فقد كان عدد اللغات التى تكتب بحروف عربية يزيد عن ستين لغة منها السواحلية بشرق أفريقيا ولغة الهوسا فى نيجيريا واللغة الصومالية.

ولقد عمل النفوذ الاستعمارى على تحويل أبجديات هذه اللغات إلى الحروف اللاتينية وأبطل استعمال الحروف العربية.

وفى نفس الوقت أهمل الاستعمار اللغات الأفريقية وحرمها من التطور لتكون المعبر عن الحضارة الأفريقية والتكنولوجيا العالمية، فقد دعم لغاته وثقافته فى أفريقيا حتى صارت هى النافذة الوحيدة التى يتصل عن طريقها الأفريقى بأخيه الأفريقى عبر القارة، وأصبحت أفريقيا تقسم لغويا وثقافيا إلى أفريقيا الناطقة بالإنجليزية و أفريقيا الناطقة بالفرنسية.

وكانت اتجاهات المستعمرين على كافة اشكالها قد اتخذت موقفا موحدا ضد انتشار العربية ثقافة ولغة وحرفا.

وبعد أن تخلصت أفريقيا من الاستعمار السياسى والعسكرى ظل الاستعمار الفكرى والثقافى مسيطرا على نظم التعليم وتوجيه الأجيال.

وظل الأوروبى فى نظر الأفريقى هو المثل الأعلى فكراً أو ثقافة ولغة، كذلك فقد ألغيت اللغة العربية من اللغات الرسمية فى أكثر دول غرب أفريقية، وهى التى كانت لغة الإدارة والثقافة حتى نهاية القرن التاسع عشر وأوائل العشرين.

فقد كانت تجمع بين القبائل، فحاول الاستعمار ابطال مفعولها حتى أن فرنسا أسندت الاشراف على المدارس العربية فى غرب افريقيا الى أجهزة الامن وليس الى وزارة التعليم .

وفى الأقطار العربية لقيت لغة العرب كثيرا من العنت بتقديم اللغات الأجنبية عليها، وفى الجزائر أصدر الحكم الفرنسى سنة ١٩٣٣ قرارا ينص على أن اللغة العربية لغة أجنبية عن الجزائر، وأولى اللغة البربرية عناية كبرى بقصد تمزيق وحدة الفكر الإسلامى.

ولما كانت اللغة العربية فضلا عن أنها لغة العقيدة والثقافة لألف مليون و٣٠٠ ألف مليون مسلم موزعين فى القارات الخمس، فإن اللغة العربية كانت عنصرا مهما فى إستراتيجية دفاع العالم الإسلامى.

□□□

وقد أدت الحرب على اللغة العربية بوصفها لغة القرآن إلى قيام الازدواجية فى أغلب بلاد العالم الإسلامى، هذه الازدواجية التى أصيبت بها الأقطار العربية حين اكتسحها الاستعمار وفرض لغته، وحين تخلصت من الاستعمار كان النفوذ الاجنبى قد فرض (الازدواجية اللغوية) فيها لتتعمق ويصعب استئصالها لعدة عوامل أهمها:

- الارتباطات الاقتصادية والسياسية وآثارها الاجتماعية والثقافية.

وقد أدى قيام هذه الازدواجية الى أخطار جسام أهمها تغيير أبجدية اللغات التى كانت تكتب بالحروف العربية كما أشرنا من قبل.

وكان من أهم أخطار هذه الازدواجية: الخلط والحيرة فى نماذج السلوك الفردى والاجتماعى، فضلا عن الخلط بين ثقافتين مختلفتين فى المصدر والاساس، وخاصة بالنسبة إلى اللغة العربية التى تستمد مصادرها الثقافية من عقيدة التوحيد، وهى بذلك

تختلف عن مصادر العقائد الغربية التى تحاول الازدواج بها.

ومن خطر ذلك تغلُّب سيطرة اللغة الأكثر قوة وهى لغة المستعمر، وأحيانا يضرب لنا المثل باللغات الأوروبية فى الالتقاء، وهذا مثل خاطىء لأن اللغات الأوروبية مهما اختلفت مصادرها فإن عقائدها وثقافتها المتصلة بالتراث اليونانى والتراث الرومانى والأساس المسيحى هو أمر موحد لاخلاف فيه، بينما تلتقى اللغة العربية فى نطاق بلادنا مع الفرنسية والإنجليزية والهولندية وغيرها، وهم فى مجموعهم يختلفون عقديا واجتماعيا عما يعتقده ويعايشه الذين يتكلمون اللغة العربية.

ويعتبر علماء النفس والاجتماع أن فرض لغة أجنبية على شعب من الشعوب جريمة خلقية وتفسيخ لإنسانية الإنسان، ذلك أن الذى يتنازل عن لغته يتنازل عن جوهره وكماله.

□□□

ولقد حرص الغرب عن طريق كتابه ومستشرقيه ومبشريه على تركيز ضربات قوية الى اللغة العربية تتمثل فى الدعوة إلى إلغاء النحو، وإلى الكتابة بالحروف اللاتينية وإلى إعلاء العاميات.

والواقع أن (نحو العربية) هو علم عربى أصيل انبثق بصورة أصيلة من اللغة العربية ذاتها، وذلك رد حاسم على مقولة أن العرب أخذوه عن الآثار اليونانية أو الهندية.

وترجع أصالة نشأة النحو فى العربية إلى أنه اكتمل على أيدى الخليل بن أحمد وتلميذه سيبويه، ويرجع أساسا إلى عمل أبى الأسود الدؤلى بتوجيه من الإمام على كرم الله وجهه.

وقد أورد الفارابى فى كتابه (إحصاء العلوم) تصوراً كاملا فى أصالة علم العربية فى ألفاظها ونحوها وصرفها ونثرها وموروثها.

وقد أرسى الفارابى دعامة العلاقة العضوية بين الفكر واللغة، وجعل منها جزءا أساسيا من النظرية الكلية لعلم اللسان، فالمنطق مشتق من النطق،ونجد عنده أصول النظرية الحديثة التى مؤداها أن الإنسان يفكر من خلال اللغة، وأن وضوح اللغة دليل على وضوح الفكرة، وبالتالى فإن سلامة اللغة ودقة التعبير يرتبطان أساسا بسلامة التفكير.

ومن هنا فإن النحو جذر أساسى فى بناء اللغة لايستغنى عنه، وأن كل حملة عليه هى جزء من مؤامرة تدمير مقومات اللغة العربية لنفس الهدف.

ـ أما الكتابة بالحروف اللاتينية التى جرت فى بعض الأقطار الأفريقية والآسيوية فإنها جاءت من خلال نفوذ غاصب مسيطر لم يترك لأهل الأقطار حرية الاختيار، وعندما نودى بها فى مصر يوما كشفت الأبحاث والدراسات عن الرفض الكامل والخطر الماثل .

(اقرأ معركة الحروف اللاتينية فى كتابنا المعارك الأدبية)

□□□

ومازال معركة اللغة العربية مستمرة، فهى تتجدد بهدف تمزيق شمل العرب متخذة عدة سبل (كما يقول دكتور عمر موسى باشا) :

أولها: إيجاد أربع لغات عربية إقليمية منفصلة تتفرع منها لهجات عامية محلية دارجة.

ثانيها: تبنى اللغات الدارجة المحلية فى المسرحيات والتمثيليات والأدب الشعبى.

ثالثها: تفريع اللهجات العامية وإلغاء حركات الإعراب، واعتماد مبدأ الوقف ومبدأ التوسط بين الفصحى والعامية.

وقد بدأت هذه الحرب اللغوية على أيدى ولكوكس فى مصر ١٨٩٢م ثم توسعت الدائرة وتركزت فى لبنان، حيث جرت الدعوة إلى وجود لغة لبنانية محلية تستمد عناصرها اللغوية من الفينيقية والآرامية والسريانية، بدأها سعيد عقل واستأنفها يوسف الخال الذى دعا إلى التحرر من قيد النظم، وقال إن الحركة الشعرية العربية الحديثة اصطدمت بجدار اللغة ولابد من وثبة جديدة فى عملية الحداثة الحاصلة، فكيف نكتب شعرا حديثا فى لغة كلاسيكية، أو على الأصح قديمة، وقال : إن ثمة تطورا فى اللغة ينبغى لنا القبض عليه ومحاربته، ومن هنا أقول: إن جدار اللغة يجب أن يحطمه الشاعر.

□□□

والواقع أن هذه الصيحة قد كشف أمرها وعرفت وجهتها وأضيفت إلى مؤامرة الاستشراق والتغريب على اللغة الفصحى: لغة القرآن.

فقد أثبتت التجارب أن الفصحى أطوع فى التعبير من بقية المستويات وأدق فى التصور وأقدر على التفنن فى الأساليب، وإننا لسنا فى حاجة إلى لغة دارجة ثالثة كحلقة وسطى بين العامية والفصحى إذ يكفينا أن نحارب عامية واحدة لاعاميتين اثنتين.

ومن هنا فقد سقطت هذه الدعوى المدعاة التى وجدت فى ظل استعلاء مد الماركسية والنفوذ الشيوعى فى البلاد العربية منطلقا سرعان ما أصابه الانهيار، فقد تبين أن المستقبل للغة الفصحى وأن الدعوة إلى إلغاء الازدواجية بإعلاء العامية هو عامل على تحطيم بنيان اللغة وهدم لصرحها إذ إنه يطلب أن تسقط حركات الإعراب جملة وتفصيلا.

وقد تبين من خلال المعارك التى دارت أنها دعوة مشبوهة مرحلية لتثبيت دعائم العامية بعد أن بدأت أركانها تتقوض نظرا لشيوع القيم وانتشار الثقافة بين الجماهير الشعبية.

وهكذا أكد عامل يبطل بالضرورة تدريجيا استخدام العامية الدارجة والمحلية.

وقد وجهت للفصحى عشرات من الاتهامات، وكلها تصدر عن حقد بالغ وعن كراهية تخفى وراءها أثر القرآن الكريم الذى لايستطيع أن يفصح عنه أعداء الاسلام.

من ذلك مقولة: كيف يحتفظ بلغة يزيد عمرها على خمسة عشر قرنا من الزمان؟

والحقيقة أن اللغة العربية تختلف عما عداها من اللغات فهى لغة متعددة مرنة قادرة على الحياة، يبدو ذلك رغم تبدل الحضارات عليها، ولقد استطاعت خلال مراحل متعددة أن تجدد نفسها فى صحوات عارمة، يبدو ذلك واضحا من خلال النظر إلى المعاجم القديمة والأخرى الجديدة لنكشف ما طرأ على اللغة من تغييرات.

فقد كانت أولى صحواتها عند ظهور الإسلام ونزول القرآن الكريم بها، وما أعطى اللغة العربية من ثروة لغوية جديدة.

ثم كانت صحوتها التالية عندما استطاعت أن تنقل المعارف الفارسية والسريانية والهندية فأدخلت إلى اللغة بالاشتقاق والنحت والترجمة مئات من الألفاظ العلمية والأدبية والفكرية.

ثم كانت صحوتها فى أول العصر الحديث على أيدى الزبيدى والبغدادى ثم دور مدرسة الألسن، حيث ترجمت عشرات المؤلفات الأجنبية إلى اللغة العربية وما جد من ألفاظ ومصطلحات.

واليوم تتجدد اللغة، حيث أضافت مجامع اللغة فى القاهرة ودمشق وبغداد أكثر من ٧٠ ألف مصطلح علمى فى مختلف الميادين الاجتماعية والاقتصادية والعلمية.

□□□

ولا ريب أن هذه السحب التى تحاول أن تحجب عبقرية اللغة العربية وما تزال عاملا خطرا فى التكوين النفسى لشباب الإسلام والعرب، حيث لاتتوقف حملة إثارة الشبهات فى قضايا يختلف فيها وضع اللغة العربية عن اللغات الأوروبية، ولتميزها الخاص الذى تفردت به وهو نزول القرآن الكريم بها، فلم تعد لغة قوم هم العرب وحدهم ولكنها لغة عقيدة وثقافة للمسلمين فى جميع أنحاء الارض فضلا عن عجز السهام التى ترشق بها من الوصول إليها.

يقول الدكتور صبحى الصالح: إن اللغة العربية هى أكثر عالمية من الفرنسية، أو الإنجليزية أو الروسية، ويكفى أن تعرف أنها صمدت واستمرت رغم جميع المحاولات: محاولات التخريب التى قامت بها دوائر الاستخبارات الأوروبية والأمريكية والتى أنفقت مبالغ هائلة من أجل تدمير اللغة سواء بإشاعة اللهجات العامية مكانها (وخاصة فى لبنان ومصر) أو بإظهارها لغة متخلفة عاجزة عن مواكبة العصر مما يصغرها فى عيون العرب والعالم.

لقد صمدت اللغة العربية فى وجه كل محاولات التغريب، ليس بفضل العرب بل لأنها تملك فى ذاتها كل مقومات الصمود والاستمرار.

وكانت مشكلة قواعد اللغة العربية فى مقدمة الاتهامات بدعوى أن أسلوبها صعب وجاف، ليس القواعد العربية بحد ذاتها بل الكتب والمناهج السائدة فى تدريسها.

وأعتقد أن مشكلة القواعد هذه هى مشكلة تقنية لابد فى النهاية من إيجاد علاج

ناجع لها، فلا تعود القواعد غولا يخيف العرب ومبررا لهم ولغيرهم للنفور من روعة اللغة العربية التى هى بوضعها الحالى أكثر عالمية من معظم لغات العالم من الفرنسية والإنجليزية والألمانية؛ وآية ذلك أن المنطلقات التى عبرت عنها العربية لاتزال وسيلة التغيير لأوسع المجالات وبشكل يعوق بمئات الأضعاف طاقات التغيير فى اللغات الأخرى.

□□□

ويربط الباحثون بين اللغة العربية والثقافة الإسلامية، حيث يقول (أوديب بيتنى) - جامعة باريس (أطروحة الدكتوراه) أنه بعد ظهور الدعوة الإسلامية أبدى العالم الإسلامى اهتماما كثيرا وعظيما باللغة العربية، وخاصة من أجل تعميق معرفة الرسالة الدينية، وفهم الفروض الدينية المتوجبة عليه واستخراج نسق حياته الاجتماعية من تلك الآيات القرآنية الكبرى.

ذلك أن الدراسات اللغوية والنحوية عرفت ازدهارا كبيرا امتد لعصور متعددة فى الشرق الإسلامى وفى عواصمه الثقافية الكبرى كالبصرة والكوفة وبغداد والمدينة، وحتى فى باكستان وإيران والهند، حيث ظهر علماء ذوو فكر أصيل مثل سيبويه مؤسس النحو العربى والخليل بن أحمد مؤسس العروض والأصمعى والكسائى والفراء وغيرهم.

وقد شارك المغرب الاسلامى فى هذه العملية اللغوية التى شملت كبرى المدن فى الشمال الأفريقى العربى مثل فاس وتلمسان، حيث برع عدد كبير من العلماء اللغويين والنحويين ووصلت أصداء ذلك التقدم حتى الأندلس.

والدليل على ذلك نبوغ لغويين معروفين فى الأندلس أمثال الشاطبى والأشبيلى:

هؤلاء اللغويون والنحاة من البلاد العربية والشرقية والأندلسية والأفريقية، توفر لهم من يعتنى بسيرتهم فى المصنفات المعروفة بالطبقات والدراسات والبحوث اللغوية التى قام بها هؤلاء العلماء، وكان لها تأثير عميق فى الحياة العقلية التى توسعت إلى فروع علمية متعددة مثل الطب والفيزياء والرياضيات والمنطق.

إن الحركة اللغوية التى بعثها الإسلام والتى كانت تستهدف تثبيت نظام متلاحم ومناهج رفيعة المستوى في البلاد والأمم التى اعتنقت الإسلام.

هذه الإشارات تبرهن على المكانة التى احتلتها اللغة العربية فى الحضارة الإسلامية.

وأشار الباحث إلى أبعاد المؤامرة التى تحاك للغة العربية الفصحى، باستبعادها من مناهج مختلف الأقطار وتشجيع العاميات حتى أن بعض الجامعات الإسرائيلية تعد مسابقة أدبية للمواطنين العرب يشترطون فيها شرطا واحدا هو أن تكون الأعمال الأدبية مكتوبة باللهجة العامية الفلسطينية، لأنهم يريدون أن يشجعوا انسلاخ اللهجات العربية عن اللغة العربية الأم، لغة القرآن بغية تمزيق العلاقة الوثيقة التى تربط البلاد العربية كلها، وذلك لتحقيق هدف إنشاء قوميات مختلفة مثل تلك التى نشأت عندما استخدمت اللهجات المحلية فى اللغة الأم اللاتينية.

❑❑❑

ويقول الباحث الذى علق على هذه الرسالة :

«إن إلحاح الإذاعة على آذاننا بالعامية هو عامل من عوامل الضعف فى اللغة العربية، والقرآن الكريم هو الوسيلة الوحيدة التى تربط ألسنتنا بالنطق الصحيح بالعربية، أما حرص كل دولة عربية على عاميتها فتلك نكبة أكبر، ولن تكون نتيجتها إلا توهين الرابطة العربية وتمزيق وحدتها، وهذا ما فطن إليه الاستعمار والصهيونية اليوم .

وتبدو أهمية اللغة فى أثرها فى توحيد الأمة أن اليهود عندما أرادوا تجميع شملهم المتفرق فى جميع أنحاء العالم أعادوا إلى الحياة لغة قديمة جدا كانت ميتة ومحنطة منذ ألفى سنة وكانت خطوتهم الأولى التى أوصلتهم إلى إنشاء إسرائيل ».

□□□

ويشير الدكتور عبد الله الطيب فى بحث ضاف إلى المحاذير التى تواجه اللغة العربية فيقول: أنبه إلى نوع جديد من الذوق جعل يدب إلى كثير من التعابير العربية مما لايمت إلى ذوق المجتمع العربى حقا بكثير صلة، وهو استعمال الأساليب المأخوذة من ترجمة الكتاب المقدس.

(وهنا نشير إلى أنه منذ الثلاثينات فى هذا القرن أولع كثير من الكتاب باستعمال مصطلحات التوراة من أمثال إبراهيم عبد القادر المازنى وحسين فوزى، وكان قد سبقهم الى ذلك جبران وميخائيل نعيمة).

ـ التعبير الأول كان إلى زمان قريب صادرا من القرآن وعن الأدب الدينى المتصل بالقرآن وعن الشعر العربى ولكن الذوق فى زماننا هذا أصبح مجهول الأمر.

لقد ترجم الكتاب المقدس (التوراة والإنجيل) فى الزمان القديم، ولكن هذه الترجمة لم ترق الإرساليين فى القرن الماضى، وأوائل هذا القرن فترجموا ترجمة أخرى هى التى طبعت فى كوبا وتوزع بأثمان غير غالية هذه الترجمة روعى فيها أن تكون قريبة من النص الإنجليزى، وذلك بأن النص الإنجليزى عند البروتستانت مقدس لأن (تنديل) الذى ترجمه أول الأمر قد حرق فى هولندا فكان شهيدا، فاتصل هذا النص بشهادته وبعقيدته فصارت له قداسة على مستوى قداسة النصوص الأصلية، ولذلك حرص البروتستانت على الاقتراب من نصه دون تجويد العبارة ولذلك حرص الذين أشرفوا على هذه الترجمة أن يكون نصها قريبا من الإنجليزية، وقربه من الإنجليزية

يفقده الفصاحة العربية، فمثلا فى إحدى الترجمات تقديمات ليس لها من معنى فى العربية يدل على المراد منها فى الإنجليزية، ولكن المترجمين حرصوا على النص الإنجليزى وتجنبوا الألفاظ التى يكون لها (نفس قرآنى).

فكلمة القربان الموجودة فى سورة المائدة لا تصلح هاهنا مع أنها كلمة قديمة فى السامية وهنا تأتى كلمة (تقديمات) التى ليس لها معنى وقس على ذلك أشياء كثيرة.

هذا النص المتعمد تجنب العربية قد (رُوِّج) فصارت كثير من ألفاظه وعباراته وسيلة للحلية والتجويد عند بعض بلغاء العصر، وصرت تجد الأسماء التى لم نكن نسمع بها فى الماضى عند القدماء وما كانوا يجهلونها مثل (عشتروت) صارت رمزا من الرموز.

وعشتروت هذه هى الزهرة أو العزى: بعض آلهة الحنث العظيم المذكور فى القرآن الكريم. وزهرى، قالوا إنها أغوت الملكين هاروت وماروت فعلقا عند برج بابل، وعشتروت كانت هى الآلهة المقابلة للزهرة والعزى، وتوجد أسماء كثيرة سوى هذا أخذت مباشرة من الكتاب المقدس، وقصص كثير من هذا، دع قضية الضحية والصليب، ويحمل صليبه ، وما أشبه ذلك مما هو غريب جدا على الروح الإسلامية، ويكفى هذا فى مجال الذوق وإفساده.

□□□

ويهاجم الدكتورعبد الله الطيب فكرة توحيد اللهجات العامية (وهى دعوة قام بها البعض بعد نجاح الأفلام المصرية حيث بدأ البعض يروج للهجة المصرية العامية أو العامية اللبنانية) ويقول: ولكن اللهجات العامية المحلية (ويسميها لغات) لاتصلح أن تكون لسانا مشتركا عاما ولاتصلح واحدة منها أن تصبح لسانا عاما.

ويتصدى لفكرة محاولة أن يأتوا بلغة مبسطة، وهى فكرة جيء بها من مصادر

أجنبية وعولت على الأخذ من الصحافة، ولكنا إذا رجعنا إلى الصحف الأفرنجية التى نقلدها (ديلى ميرور وديلى إكسبريس) نجدها تحرص فى المقالات الافتتاحية على لغة قوية رشيقة وتضمنها أساليب أدبية غاية فى الرقى مع حرص على النقاء فى الأساليب وليس هذا هو المتبع فى صحافتنا ..

وهناك عبارات ليست صحيحة لغويا فجمع مدير على مدراء خطأ وهو افتئات على العربية، وكذلك خطأ الدولتين الأعظم، ولايمكن أن يحتج لهذا التعدى بأنه تطور، إنما هو افتئات لأن اللغة العربية ليست بطفلة حتى تطور: إنها لغة ناضجة لها أصول ينبغى أن تحترم.

ويقرر الدكتور عبد الله الطيب: إن اللهجات العامية (ويكتبها اللغات) ليست بسبيل الى التعبير الجيد الصحيح الذى يوجد ويعبر عنا جميعا، إنما تصلح للتعبير الاقليمى ولها مجالاتها ولايمكن أن نبخس من قدرها، ولكن ينبغى أن يعلم لها موضعها، اللغة الفصيحة هى وحدها التى تستطيع أن تلم شعثنا وتجمع شملنا، ولكن ينبغى أن تكون اللغة الصحيحة الفصحى، وذلك لان لنا مقاييس ومعايير تعرف بها، وهى:

المعيار الأول: أن اللغة العربية هى لغة القرآن ، والقرآن هو الذى حفظها، حفظ نطقها وعن طريقه أيضا معرفة نحوها وعن طريقه أيضا معرفة بلاغتها.

وإنما درس الشعر فى العصور المتأخرة أيضا وفى العصور المتقدمة ليفسر به القرآن وتفسر به جوانب من القرآن، فاللغة العربية هى لغة القرآن، لغة الشعر، لغة النحو: لابد إذن من درس القرآن ومن درس الشعر.

ومن مدارس القرآن بدأ التعليم بتعليم القرآن والحروف الهجائية مفرقة، وبعلم حركاتها مطولة، ثم بعد ذلك يؤخذ بتعليم السور من الفاتحة والحفظ وهو فى المراحل الأولى وهو صغير غض.

أما الأسلوب الذى نستعمله الآن: الولد خرج، خرج الولد، كتب الولد.

فهو أسلوب خطأ من عدة وجوه: أحدها أن هذا الطفل يعلم لغة ليس له بها عهد، ويزعم له أن هذه لغته فيحدث بينه وبينها منذ البدء نفور، فرق كبير بين هذه وبين الطريقة القديمة التى كان يبدأ منها بالقرآن، الصغير الذى يعلم القرآن أول شيء لم يخدع بأن هذا القرآن لغة أبيه وأمه وإنما قيل له أن هذا القرآن كلام الله (تبارك وتعالى) فليس ها هنا شيء غامض، لايدريه، قد حمل عليه حملا.

الشيء الثانى: أن هذا القرآن الذى هو كلام الله شيء يختص بالكبار والطفل الآن يراد له أن يكون كبيرا،. فهو مقبل على خطوة يريد أن يقبل عليها، وهى أن ينتمى إلى الكبار، فالخطوة التى يؤخذ بها طبيعية والتأديب الذى يؤدبه طبيعى.

وكان الناس فى الماضى يحفظون الشعر ويحفظون قواعد النحو ويحرصون على ذلك حرصا شديدا، ثم جاءت دعوة التبسيط، النحو ينبغى أن يدرس نحو لاتبسيط فيه، فبدون النحو لاتستقيم العربية، والنحو البسيط كللانحو لأن النحو له قواعد وشواذ، والذين قبلنا كانوا يحفظون مقامات الحريرى والمعلقات وفى إنجلترا يحفظون شعر وبستر، وليس بالجودة البالغة وشعر شكسبير، وكل خريج فى المدارس العلمية فى أوروبا لم يدرس الإنجيل ولم يعرف فصاحة الكتاب المقدس، ونحن يلزمنا الحفظ لأنه يرسخ العبارات فى الذهن ويرسخ الذوق.

بعض الناس ينكرون الحفظ ويقولون أنه يقتل الذكاء، وقد دلت التجارب على أن هذا ليس بصحيح والحفظ من محاسن العربية ومما تفخر به ».

□□□

وإذا كانت العربية ماتزال تواجه التحدى فإن أخطر ما واجهته فى بلادنا هو المدارس الأجنبية ومدارس الإرساليات التى قامت بدور بارز فى تدهور اللغة العربية (كما يقول الدكتور سعد ظلام) بعد أن أتاحت وزارة التربية الفرصة الكاملة لإنشاء هذه المدارس لتحمل عنها بعض تبعاتها دون تحفظ أو إعداد أو دراية بكيفيه إنشائها.

وبالتالى فقد فتحت رافدا ضخما يزاحم اللغة العربية فى بلدها، وهو اللغة الأجنبية فجعلت تدرس جميع المواد حتى مادة التربية الدينية باللغة الأجنبية وهذه سابقة خطيرة.

ومن هنا فقد ظهر عندنا جيل يعرف عن الثقافة الأجنبية والفلاسفة الغربيين أكثر مما يعرف عن الثقافة الإسلامية وبطولات خالد بن الوليد وعمر بن الخطاب.

إن بعض المدارس الأجنبية تدرس القصص الإنجليزية التى تتنافى تماما مع مواريثنا الدينية والثقافية، وقد وجدت قصص تحمل فى مضمونها انحرافا أخلاقيا شديدا ولم تعلم بها وزارة التربية والتعليم إلا بعد شكوى رفعها أحد أولياء الأمور. هذه المدارس إنما تخرج مصريين أجانب، فهم مصريون جسدا ولكنهم أجانب فى الثقافة واللغة.

فإذا أضفنا إلى هذا أن أكثر من يدخلون الأزهر لايحفظون القرآن الكريم وجدنا أننا فى مأزق شديد، وهى فى حد ذاتها كارثة كما يقولون، إذ كيف يتسنى لطالب أن يجد له مكانا على الخريطة الدينية والثقافية دون أن يحفظ القرآن الكريم.

□□□

ومن دعاوى أعداء الفصحى ـ أعداء القرآن ـ أن اللغة العربية لاتصلح لكتابة الأبحاث والدراسات والرسائل العلمية التى تحتوى المصطلحات العالمية الموجودة فى اللغات الأجنبية.

يقول الدكتور على نصار: هذه الحجج ليست صحيحة لأن هذه المصطلحات غير موجودة فى كل اللغات، بل يحاول كتاب هذه اللغات استحداث مترادفات لها أو ترجمتها إلى معانيها باللغة القومية.

فإذا لم يوجد المرادف يتم كتابتها كما ينطق بها فى اللغات العالمية مع شرح وتوضيح معانيها.

وليس صحيحا أن اللغة العربية لاتصلح لكتابة الأبحاث والدراسات والرسائل العلمية، لأن اللغة العربية هى أغنى لغة فى العالم ـ ثروة ومرونة ـ فى إيجاد المصطلح المناسب للمترادفات المختلفة والمتشابهات التى تمنع تكرار نفس الكلمة.

ولعل مدى استعمال اللغة العربية (عرضا بالعصور وطولا بالأقطار) يفوق معظم لغات العالم، إذ إن أكثر من ثلثمائة مليون مسلم يقرأ بها ويسجد بها فى حياته اليومية (من بين ألف مليون و٢٠٠ ألف مسلم فى العالم يقرأون بها القرآن لكريم).

ولاريب أن اللغة العربية التى نزل بها القرآن هى إحدى معجزات الإسلام، وهى العامل الأساسى الذى يضمن عدم تحريفها ويعتبر مرجعا ثابتا للغة العربية رغم اختلاف الأقطار العربية فى لهجاتها ولكنها تشترك جميعا فى لغة واحدة ثابتة مصدرها القرآن، واستخدام اللغة العربية ينتج عنه سهولة كتابة الدراسات العلمية لأنها لغة الباحث الدارس القومية والتى قضى كل سنوات عمره وحياته الدراسية فى تعلمها بالإضافة إلى استعمالها اليومى مما يعطى للكاتب العربى بها مقدرة كبيرة وثروة لغوية لاحدود لها بمقايستها باى لغة أخرى .

أولا: أسلمـة علوم اللغات وتميز العربيـة

نشأ علم اللغات فى الغرب لدراسة اللغات التى نشأت من قلب اللغتين اللاتينية واليونانية فى العصر الحديث.

نشأ هذا العلم كعلم مستقل فى أوروبا حوالى القرن الخامس عشر فى المقارنة بين اللاتينية واليونانية، ثم بين اللغات الأوروبية ذات الأصول المختلفة (اللاتينية الرومانسية أو السلافية أوالجرمانية) أو غيرها ثم تحول إلى فقة اللغة المقارن فى القرن الثامن عشر.

وقد أفصح (ويليام جونز عام ١٧٦٨ بشكل علمى عن النظرية القائلة بوجود لغة قديمة ماتت بعد أن تطورت عنها أربع لغات كبرى هى:

(١) السنسكريتية فى الهند.

(٢) الفارسية (أو الهندية الإيرانية) والإيرانية الآرية فى فارس.

(٣) اليونانية القديمة.

(٤) اللاتينية فى اوروبا.

ثم جاء بعد ذلك (فرانز توب ١٨٣٠) فصاغ نظرية عائلة اللغات الأندو أوروبية على أساس ملاحظات وليام جونز، ووسعوا العائلة وضموا إليها بعض اللغات الأوروبية والأسيوية القديمة والحديثة وقسموا اللغات إلى أربع عائلات رئيسية:

(١) الهندأوروبية

(٢) السامية (ومنها العربية والعبرية والأمهرية والفينيقية القديمة) .

(٣) الحامية (فى أفريقيا) .

(٤) الصينية المغولية اليابانية.

ثم ظهرت نظرية علم تاريخ اللغات (اللغات الوضعية) المستعملة الآن .

ثم وضع الغربيون فى ضوء لغاتهم ما يسمى بالمنهج الوضعى الحديث الذى يجعل

أساسه دراسة اللغة ودراسة اللهجات والتركيز على الكلام المنطوق دون المكتوب، وهدفه صرف الأفكار عن علاقة اللغة بالدين فى سبيل إحياء القوميات الحديثة.

وقد جعل الأوروبيون اللغة الدينية المستعملة فى النصوص المقدسة وفى الطقوس غير تلك التى يتحدث بها الناس فى حياتهم اليومية ومصالحهم الخاصة، وهذا كله من شأن الغربيين فى دراسة لغاتهم وهم فى ذلك مدفوعون بهدف واضح يستمد وجوده من الفلسفات المادية ومن انتقاص اللغات المتصلة بالكتب المقدسة وبالمسيحية وبالكنيسة فى محاولة لتجاوز اللغات اللاهوتية، وهذا شأنهم فى مفاهيمهم كلها سواء ما يتصل منها باللغة أو بالفكر.

ومن هنا فقد كان من أكبر الأخطار نقل هذه المفاهيم تحت اسم علم اللغات وتطبيقها على اللغة العربية، فإن الفصحى فى الأساس ليست من اللغات اللاهوتية وكل ما يتصل بتقسيم العصور أو اللغات هو شأنهم هم.

أما نحن فإن لنا مقاييسنا ومنهجنا المتصل باللغة العربية الفصحى التى تختلف عن اللغات الأوربية القديمة والحديثة جميعا والتى حين نزل بها القرآن الكريم قبل أربعة عشر قرنا قد أعطاها «خصوصية» لاتصل إليها أى لغة على وجه الأرض منذ خلق الله تبارك وتعالى الكون وإلى أن تقوم الساعة. ومن يراجع هذه الابحاث يستطيع أن يكشف بسهولة أهداف الفلسفة المادية والرغبة فى التنكر لارتباط اللغة بالدين وخاصة اللغة العربية بالقرآن.

ومن هنا كان لابد لنا أن نتابع الأعمال التى قام بها علماء المسلمين الأصلاء فى هذا الشأن فى محاولة لتحرير العلوم الإسلامية من آثار التبعية.

يقول الدكتور عبد الرحمن الحاج صالح (الجزائر) : إن هذه الطروحات الجديدة هى من أهواء الفلسفة المادية المتعصبة إزاء كل ماهو مرتبط بالدين والعقيدة تحت اسم العلوم فى حاجة إلى مراجعة ورد وخاصة بالنسبة للفكر الإسلامى الذى يختلف عن الفكر الغربى فى أنه قائم على عمودين هما المحسوس والغيب معا فى إطار مفهوم الثوابت والمتغيرات.

أما أصحاب هذه النظريات الحديثة فهم يصدرون أساسا من منطلق الحقد والكراهية والهدم للدين الحق بكل مقوماته وخاصة مقوماته الأخلاقية.

وتركز هذه التيارات على الإسلام والقرآن واللغة العربية، والبلاغة القرآنية العربية أساسا فيما يسمى فى الأخير(اللسانيات) و(الحداثة) و(البنيوية) وقد اختيرت الأسماء التى وكل إليها هذا من المغربين الذين يعملون فى الجامعات والمعاهد العربية والإسلامية.

ونرى هذه النظريات قد قاسها الواضعون لها على اللغات الأوروبية مع ارتباطها باللغات اللاتينية والجرمانية منذ ساعة انفصالها كلهجات عامية عن اللغة الأم وقيامها كلغات مستقلة استجابة لتطور اللغة نفسها على مدى الأزمان وعدم قدرتها على مسايرة العصور، غير أن هذه الظاهرة لايمكن تعميمها أساسا ولايمكن بالتالى اعتماد نظرياتها على اللغة العربية التى تختلف عن هذه اللغات اختلافا عميقا، والتى جاء القرآن الكريم منذ أربعة عشر قرنا ليضع لها مقاييسها الخاصة وكيانها المستقل ويحول بينها وبين أن تخضع لما تطورت إليه اللغات الأوربية القديمة.

وبالرغم من أن هذا الكلام قيل عشرات المرات فإن المحاولة مستمرة ودائبة جيلا بعد جيل من أجل عزل اللغة العربية عن القرآن الكريم، ومن أجل إدخالها المتحف كما دخلت اللاتينية، ومن أجل تحويل العاميات فى البلاد العربية إلى لغات إقليمية منفصلة من أجل القضاء على الوحدة، ومن أجل القضاء على بلاغة القرآن ومن أجل هدم هذا الكيان الثقافى التاريخى وهذا التراث.

إن الهدف الأساسى من اللسانيات ومن الحداثة والبنيوية هو هدم القديم كله وفصل الحاضر عن الماضى وإعطاء الأسلوب ـ سواء فى الشعر أو فى النثر ـ حرية مطلقة لاتقوم على أى قاعدة أو أساس سواء كان هذا الأساس نحويا أو بلاغيا أو منطقيا.

وهذه فى حقيقتها ليست علوما قائمة على أسس علمية وإنما هى أهواء الحقد الدفين الموجه إلى القرآن والإسلام والفصحى التى عاشت أربعة عشر قرنا شامخة .

ويقول الدكتور صالح: إن تطبيق منهج الوضعية أو المعيارية على اللغة العربية يجب أن يتوقف مطولا عند الحال الذى يفضى إليه المنهج الوضعى فى دراسة العربية الفصحى.

(فالضوابط المعيارية) تشكلت عندنا لحفظ العربية الفصحى من آثار التبذل الحوارى، فكان ذلك عامل حفظها ومنع تشعبها إلى لهجات متنافرة قد تتخذ صورة تشبه ما آلت إليه اللاتينية.

والعربية عندنا ليست ميدانا محايدا تطبق عليه التقنيات الحديثة التى استخلصت من نتائج قد لاتكون صالحة دوما(على حد تعبير أحمد محمد قدور) .

وتطبيق المنهج الوضعى ينبغى أن يكون ضمن سياج معيارى واسع لضمان توجيه النتائج لصالح العربية الفصحى: لغة التراث والحضارة والحياة المتجددة، و لابأس من الإفادة من المنهج الوضعى شريطة أن نضع فى حسابنا أننا فى درسنا للعربية أمام ظاهرة قد تكون فريدة إذا قورنت باللغات الأخرى، وهى اتصال الأصول المتنامية داخليا فى تطورية مستمرة، حافظت على التوازن بين اتجاهى المحافظة والتجديد، وفى ضوء هذا التوجه يكون درس اللهجات القديمة موظفا وإن اتخذ الوضعية منهجا فى رفد الفصحى وتفسير بعض ظواهرها وما يتصل باتجاهات التطور فيها» ا. هـ.

وهذا هو الموقف بالإجمال من باحث متخصص فى اللغة العربية واللغات الأوربية، هو الدكتور عبد الرحمن صالح. هذا وقد أحصى الباحثون أخطاء اللسانيات:

أولا: اهتماهها باللهجات واتخاذها أساسا للدرس (إيمانا من أصحاب المنهج بأن هذا هو المنطلق لهدم الفصحى) .

وقد انتشرت الشكوك فى معاهد الدراسة من دراسة اللهجات العربية بما نفر من اللسانيات التى اتخذت مطية لغايات لم تكن خالصة لوجه العلم.

وترجع الشكوك المثارة حول هذه المواد التى تسمى علما أن معظم الذين يشتغلون بها هم من اليهود الذين يحقدون على اللغة العربية التى بقيت بينما فنيت العبرانية.

ثانيا: فساد مقولة أن اللغة ظاهرة عامة وليست ملكا لأحد، ولقد حاولت نظرية (الحتمية التاريخية) لأوجست كونت اتخاذ اللغة مدخلا إلى التغريب على النحو الذى حمل لواءه الدكتور زكى نجيب محمود.

ثالثا: يؤكد كثير من الباحثين أن علم اللسانيات هو جزء من خطة الحرب على

(التراث ـ القديم ـ الثوابت ـ الشريعة ـ الغيب)، على مجمل ما تهاجم الفلسفة المادية بمذاهبها المختلفة.

رابعا: الاهتمام باللغة المنطوقة لا المكتوبة، وهو خطر كبير على اللغة العربية، لغة القرآن.

خامسا: دراسة اللهجات والعاميات لاتخاذها لغات وطنية وتمزيق وحدة اللغة العامة.

سادسا: محاولة فرض مايسمى الواقع اللغوى (على اللغة العربية) على أساس أن اللغة تتطور بطبيعتها، والصواب أن نبحث عن أسرار اللغة حتى نحقق لكافة المتكلمين رغباتهم.

ثانيا: التعرف إلى حجم الدور الذى قام به علماء اللغة المسلمون

(١)

إننا لكى نعرف مدى أهمية الحفاظ على اللغة العربية الفصحى ومقاومة مؤامرة تذويبها وتدميرها التى تتكاتف عليها جهات كثيرة من المستشرقين والمبشرين ومعاهد كثيرة، ومن أخطرهم اليهود الذين يقودون معاهد علم اللغات والذين طرحوا نظريات البنيوية والوجودية والحتمية التاريخية فى سبيل تفكيك التراث اللغوى الإسلامى.

إننا فى سبيل مواجهة هذا كله يحق لنا أن نتعرف إلى دور علماء اللغة المسلمين الذى يحاول الباحثون العرب الجدد الذين يتعلمون على أيدى المستشرقين إنكاره وتجاهله.

يقول الدكتور عبد الرحمن الحاج صالح (مدير معهد العلوم اللسانية والصوتية بالجزائر):

إن العلماء المسلمين قد توصلوا فى مجال اللغة واللسانيات العربية الى ما لم يصل إليه العلم الحديث، وإنهم أشارو إلى ما وضعه المحدثون فى أحدث صورة، وخصوصا إذا كان الباحث متشبعا بما يدعيه أصحاب أوجست كونت زعيم المذهب الوضعى بأن المستوى الفكرى يرقى على خط مستقيم، وإنه وإن كان العرب لم يبلغوا مستوانا الحالى فى البحث اللغوى منذ أكثر من ألف سنة فإنما ذلك فى مجال التكنولوجيا المطبقة على الظواهر اللغوية أما التحليل والأوصاف العلمية والنظريات وكيفية التناول العلمى فلا يمكن أن يقال هذا.

إن التصور الغربى للعلماء الأولين أمثال (الخليل وسيبويه وابن جنى) لايقل أهمية عن التصورات الحديثة، ثم إننا نعرف الآن أن الكثير من المفاهيم التى تعوق العرب أنها من تراكمات الماضى التى تجاوزها الزمن، هى صحيحة بل هى أكثر إجرائية من غيرها،وقد توصل المهندسون الغربيون الآن إلى إثبات ما يقرب من هذا التصور فى مخابر العقل الاصطناعى.

هذا ومن المؤسف أن يتجاهل الباحث العربى هذه الأشياء، هؤلاء الذين بعثوا إلى البلاد الغربية لمتابعة دراستهم ينتهون آخر الأمر الى التنكر لكل ما قاله المسلمون قديما ونبذه على أساس أن كل هذا قد قيل وتجاوزه الزمان، وليس الأمر كما يتصورون فلئن

شكوا فى قيمة ما قاله المتأخرون فهذا لأننا نناقشهم فيه، أما أن يحطوا من قيمة التحليل الرياضى الذى وضعه الخليل ونظرية النحو العربى التفريعية التى بنيت على إجراء الشىء على الشىء (أو حمله عليه) لإثبات البنية التى تجمعهما، وغير ذلك من المبادىء والنظريات الرائعة فهذا دليل على عدم خوضهم فيما تركوه، ولجهلهم المطلق لجوهر تصورهم، هذا عذر على كل حال، وهو استغلاق أقوال المتقدمين من العلماء بسبب الحائل الذى أحدثته عصور الانحطاط الحالكة، فقد حاكت هذه العصور مجموعة من التصورات الجامدة أسقطتها على المفاهيم الأصلية الأولى فغطتها، وحالت دون فهمها إذ بدأ المثقفون فى القرن السادس الهجرى يبتعدون عن المفاهيم العلمية الدقيقة التى أبدعها الأولون من علمائنا، والذى ساعد على هذا الالتباس هو وجود نفس الألفاظ عند المتأخرين بدلالات أخرى غير التى قصدها الأولون.

(قارن بين ما يقصده سيبويه فى الواقع من لفظه (كلمة) مثلا وماجاء فى كتب ابن مالك وشراحه من التحديدات البعيدة لمفهوم سيبويه).

وما يؤسفنا أن يقتنع الباحثون المسلمون بما يقوله الباحثون الغربيون اقتناعا مطلقا، فيصبحون بذلك مقلدين لهم.

وقد استبدلنا بذلك «تقليد» إذ كنا لانشك أبدا فى صحة ما يقوله (ابن مالك والأشمونى والسكاكى) فيؤديهم ذلك إلى أن يطبقوا على العربية المفاهيم والمناهج التحليلية التى استخدمها اللغويون الغربيون باستقرائهم للغاتهم وبتعسف من اتبع منهم (البنيوية) فيقطع الكلام ليصل إلى (المورفيمات) وهى عنده الأجزاء الدالة على معنى، ويريد أن يجد فى جمع التكسير مثلا قطعة تدل بذاتها على معنى الجمع، وذلك ككلمة (أعلام) يبلغ به التعسف أن يقول:

إن الهمزة المفتوحة الممدودة (الفتحة الطويلة فى اصطلاحه) مورفيم ـ يتكون من قطعتين مفصولتين!

فهذه النزعة التقطيعية التى امتازت بها البنوية " **Esapmontalism** "ومما هو أخطر من ذلك، هو أن يستنتج اللسانى العربى غير الأصيل من المبدأ القائل إن النظر

والبحث فى لغة التخاطب(أى اللغة المنطوقة بالفعل) هو الأصل فى البحث اللسانى، فلابد من ترك مستويات التعبيرية الأخرى، ومن ثم القول بأن الوصف للهجات المحلية هو موضوع (اللسانيات) .

أما اللغة الفصحى فأقل أهمية لأن الفصحى عنده هى اللغة الأدبية ولغة التحرير فهى تستحق الدراسات العلمية، إلا أن اللهجات أهم منها بكثير.

❑❑❑

ويرى الدكتور عبد الرحمن صالح أن الاتجاه الصحيح هو الرجوع إلى الخليل بن أحمد، وأن نتجاوز النظريات التى جاءت فى عصور الانحطاط من أمثال ابن مالك وشراحه فإننا يجب أن ندرس التراث من خلال عصور قوته وحيويته وليس من عصور ضعفه وتخلفه.

فالقاعدة الأساسية هى العودة الى ماكتبه الأولون قبل أن يأتى المتأخرون. وإن علينا العودة إلى الأوائل والانطلاق منها، هنالك نجد من كنوز المعلومات التى لايتصورها الباحث المعاصر، ولقد اكتشف المسلمون مالم يكتشفه العلم الحديث فى النحو ومالا يقل عن الدراسات الحديثة.

أما اللسانيات فهى قلب المشاكل ويجب أن نتحفظ من أى نظرية كانت، فهذه النظريات استخرجت من لغات غير العربية، فالعربية تحتاج إلى نظرية خاصة بها.

ولابد من المحافظة على اللغة للمحافظة على فهم القرآن، إن (البنبوية) مبنية على القيم الأفلاطونية، هذا الذى سماه ابن تيمية (القياس الاشتمالى) « قياس أرسطو» وهو غير قياس العرب، إن خطأنا الأساسى أننا أسقطنا على أنفسنا عصور الانحطاط، وما قاله ابن مالك وشراح ابن مالك.

وخلاصة ما أدعو إليه هو منهج الخليل بن أحمد الذى يرمى إلى استقراء الواقع بأجمعه.

(٢)

ويؤكد الدكتور عبد الرحمن صالح فى دراسة واسعة له تحت عنوان «علم اللسان العربى وعلم اللسان العام» هذه الحقائق التى أشرنا إليها .

فيقول: إن التراث الإسلامى العربى ينقسم إلى قسمين:

ـ قسم يتصف بالإبداع والأصالة وقسم يتصف بالتقليد والجمود، وإن الأول لا سبيل إلى وجوده فى العلوم الإنسانية واللغوية خاصة إلا فى القرون الأربعة الأولى بعد الهجرة، أما التقليد فقد بدأت تلوح بوادره فى القرن الثالث الهجرى، ثم صار هو السائد بعد القرن السادس والسابع، (إلا إذ استثنينا بعض العباقرة الشواذ أمثال: السهيلى والرضى الاستراباذى) .

فالفكر العربى وخصوصا فى العلوم الإسلامية دخل شيئا فشيئا فى سبات عميق ابتداء من هذه الفترة (باستثناء بعض الفترات)، ومع ذلك فسواء عندهم أن يرجع إلى أقوال الخليل بن أحمد وأتباعه أم إلى ابن مالك وأبى البركات وابن الأنبارى، كل هذا تراث، مع ملاحظة أن ماطبع هو شرح الألفية. وكتاب سيبويه مايزال مخطوطا، وطبع أخيرا مع عدم الإقبال عليه.

ويرجع هذا إلى استمرار عهد التقليد، بدليل استئناس أكثر الناس بما ظهر فى ذلك العهد وتركهم للآثار البديعة الأولى كما تركها الناس حتى بعد القرن الخامس.

وعذرهم الوحيد فى ذلك هو استغلاق أقوال العلماء الأولين على أكثر أهل زماننا كما استغلقت على من عاش بعد القرن الخامس.

وسبب ذلك يدرك بسهولة، وهو استبدال مفاهيم نشيطة إجرائية بمفاهيم أخرى خاملة تأملية مع بقاء نفس الألفاظ التى تدل عليها فى الغالب.

ذلك أن أكثر المصطلحات اللغوية لم يتغير لفظها وإنما الذى تغير هو محتواها، وذلك مثل لفظة (كلمة) و(حرف) والمبنى والمبنى عليه، والقياس و(الكثير فى الباب) والكثير فى نفسه، وغير ذلك مما يوجد فى كتاب سيبويه بمعنى غير المعنى المعروف عند المتأخرين .

وزاد الأمر خطراً أن بعض معاصرينا ممن حظى بالاطلاع على ماظهر فى الغرب من آراء ونظريات جديدة فى الظواهر اللغوية وما إليها والدراسات الجديدة التى تنتمى إلى ماسموه (المذهب الوصفى أى النزعة التى لاتريد أن يتجاوز الوصف الظواهر، والتمسك بالظاهر ونبذ كل تعليل ونقد، بالرغم من أنها لاترمى إلى تقويم الألسنة بل تكتفى بوصف اللغة بتشخيص عناصرها وإحلاله محلها عن النظام (التقابلى فقط) الذى يندرج فيه، وينطلق أصحابها دائما من الكلام المسموع فهذه هى (نظرية البنيوية).

ثم هم نقلوا هذه الأفكار والخلافات التى كانت قائمة فى أوساط اللغوين الغربيين إلى البلاد العربية فاستبدلوا تقليدا بتقليد، إذ حاولوا أن يطبقوا هكذا جزافاً دون تمحيص سابق النظريات الغربية كأنها حقائق مسلمة تنطبق على كل لغة، وليتهم نقلوا ذلك للاختبار وبينوا بعد الاختبار مدى ملاءمتها أو عدم ملاءمتها للعربية، وبالتالى قدرتها على استيعاب الظواهر المختلفة، ونبذوا فى الوقت نفسه النحو والصرف بدعوى أنهما معياران بعيدان عن التصور العلمى للغة، ولم يقفوا عند ذلك بل تهجموا على النحويين المبدعين وتعسفوا فى انتقاداتهم لهم إذ أسقطوا على أقوالهم النظريات الغربية،ولم يحاولوا أن يتفهموها فى ذاتها، وكل مالم يجدوه فى النظريات الغربية استصغروه وقللوا من قيمته، بل حكموا عليه بالبدائية أو التخيل الخاطىء، وذلك مثل مفهوم الحرف(وحرف المد بالخصوص) وكذلك الحركة والسكون، وقالوا: لماذا لم يعرف النحاة العرب المقطع والمصوتات القصيرة والطويلة، وغير ذلك من المفاهيم التى ترجع غالبا إلى التراث اليونانى.

إن كل هذا تشويه للنحو العربى وحط من قيمته، وإذا كان بعض المستشرقين يجعل نظرية الغربيين هى الأصل الذى يجب أن يصل إليه كل شئ، فما هو عذر الذين يتصفحون كتاب سيبويه وعلى عيونهم نظارات صنعت فى معمل البنيويين الظاهريين، أو المستشرقين الذين يرجعون كل شىء إلى المفاهيم اليونانية.

وكان من الممكن أن يتجنبوا هذا التعسف بالبحث أولا فى أصول المفاهيم الغربية للتمييز بين ماهو جديد حقا وماهو قديم جدا لم تأت به العلوم ولا التقنيات الحديثة، بل توارثه الناس جيلا بعد جيل، ثم البحث عما كان عليه العلماء بالفعل فى أقوالهم التى تركوها لنا فى كتبهم مثل كتاب سيبويه وشروحه مما أكدته التكنولوچيا الحديثة. أ.هـ

❑❑❑

من الشبهات المطروحة فى أفق اللغة العربية دعاوى حول نشأة النحو العربى.

والواقع أن أساس نشأة النحو العربى يرجع إلى القرآن الكريم والرغبة فى صيانته من اللحن والخطأ، فقد روى أن أبا الأسود الدؤلى المتوفى سنة ٦٩ هـ وهو أول من وضع أسس علم النحو بالبصرة سمع قارئا يقرأ قوله تعالى:

﴿ إن الله برئ من المشركين ورسوله﴾.

بكسر اللام فى رسوله، والصحيح هو ضم اللام فكان هذا الخطأ فى القراءة وما تبعه من قلب المعنى من الأسباب الرئيسية التى دفعت أبا الأسود الدؤلى إلى وضع أسس النحو العربى، وقد ظل ارتباط اللغة العربية بالقرآن الكريم قائما، وكان الهدف الأساسى من دراسة اللغة العربية هو فهم الدين فهما كاملا، والوقوف على مفاهيمه باعتبارها وسيلة إلى فهم الأحكام الشرعية، وقد أكسب هذا الارتباط تلك اللغة نوعا من القداسة التى للقرآن الكريم. وأصبح الحفاظ عليها حفاظا على القرآن، والتفريط فيها تفريطا فى القرآن الكريم، وكان ثمرة هذا الارتباط كثيرا من الدراسات النحوية واللغوية المتعلقة بالقرآن الكريم منها:

- إعراب القرآن للنحاس ٣٣٨ هـ.
- معانى القرآن للفراء ٢٠٧ هـ.
- معانى القرآن وإعرابه للزجاج ٣١١ هـ.

وألف الثعالبى (فقه اللغة) وضمنه طوائف من الكلمات، وصنفه بحسب مدلولاتها، ثم ظهر فرسان علم اللغة (الخليل بن أحمد وسيبويه وابن جنى).

(١) معجم العين: الخليل بن أحمد أول معجم فى تاريخ اللغة العربية.

وأقدم تصنيف للأصوات اللغوية عند العرب.

(٢) قدم سيبوية تحديدا لمخارج الأصوات وصفاتها ومايزال هو الأساس الذى قامت عليه دراسة الأصوات فى العصر الحديث.

(٣) ابن جنى قدم (سر صناعة الإعراب).

وقد محص السلف (النحو والصرف) وكانوا صادريرع فى محاولتهم عن خدمة كتاب الله وتيسير قراءته وفهمه لسائر الناس.

وكانت محاولتهم فى العصور الأولى متسمه بالأصالة، فهم لم ينقلوا (نحو اليونان) أو (نحو الهنود) فقد كانت محاولتهم قبل أن تترجم علوم اليونان وآثارهم.

ومن هنا كله يتبين استقلالية العمل العربى فى هذا المجال.

وهناك دعاوى أخرى بأن اللغة العربية صعبة، ومعقدة ومتخلفة وعاجزة عن مسايرة التقدم العلمى والتقنى.

وليس هناك من دليل على بطلان هذه الدعاوى الحاقدة إلا أن اللغة العربية الفصحى أقامت حضارة استمرت أكثر من ألف عام واستوعبت علوم العصر والدين جميعا، واستطاعت تقديمه للبشرية وهى اليوم قادرة على إعادة الكرة.

ثالثا: (العامية واللهجات)
سهام العامية الموجهة الى الفصحى

قال كرومر: إن القرآن الكريم هو العقبة الكؤود فى سبيل ارتقاء مصر والأمة الإسلامية.

وكانت مقولته هذه منطلق دعوة صريحة إلى نبذ العربية الفصحى والاستعاضة عنها بالعامية، ولاسيما فى مصر، واستبدال الحرف العربى بالحرف اللاتينى فى الكتابة، وفى المغرب كانت الخطة موضوعة لإحلال الفرنسية محل العربية.

وجاءت الدعوة إلى (العامية) و (التمصير) و(الحرف اللاتينى) أول ما جاءت على لسان مستشرق ألمانى كان يعمل مديرا لدار الكتب المصرية تحت سيطرة النفوذ البريطانى: ولهلم سبيتا الذى وضع كتابا بعنوان (قواعد اللغة العامية) فى مصر، يحمل لواء الدعوة إلى اتخاذ اللهجة العامية لغة أدبية.

ومن هذا الكتاب انبعثت الشكوى من صعوبة الفصحى، وناصر هذه الدعوة وتابعها مستشرقون استعماريون وتلامذة وإخوان لهم، سائرون فى ركبهم أو مأخوذون به من أبناء العربية، وكان بعضهم فى دعواه أخطر من الأجانب.

وقد تكشفت من وراء دعاواهم خطط ومنطلقات لتجريد الثقافة والفكر من العقيدة والروح الإيمانية، وتوجهها نحو تدمير كل منطلقات العرب نحو الوحدة والتحرر والحرية، وإنهم يرمون إلى قطع ساق شجرة الثقافة من جذرها الأصيل وتكريس التفتت والتفرقة على أسس صلبة قطريا وسياسيا وثقافيا.

وفى مقدمة جهودهم كان أمر فصل مصر عن الأمة العربية لغة وثقافة وصلات ومصالح وربطها بتبعية تامة للغرب.

وقال وليم ويلكوس: لِم لَم توجد قوة الاختراع لدى المصريين الآن؟ فى محاضرة ألقاها بالقاهرة ١٨٨٣.

يقول: عشت فى مصر أربعين سنة فلم أجد فيها مصريا يفكر تفكيرا حرا، فإن قوة المصريين الذهنية يستنفدها على الدوام جهدهم فى أن يترجموا ما يقرأونه باللغة

الفصحى إلى اللغة المصرية المألوفة، ثم هم عند الكتابة يترجمون مافهموه بهذه اللغة إلى اللغة الفصحى، وهذا العمل ضرب من السخرة العقلية.

ووصف ولكوكس العرب بأنهم كسالى قتلة لصوص قطاع طريق، أما القاضى ديلمور الذى جاء بعده يحمل الدعوة إلى العامية فقد أنذر المصريين بأنه إذا لم تتخذ طريقة جديدة للكتابة واتخاذ الحروف اللاتينية للكتابة بالعامية فإن لغة الحديث ولغة الأدب سينقرضان وتحل محلهما لغة أجنبية نتيجة لزيادة الاتصال بالأمم الأوروبية.

وكانت هذه المؤامرة تهدف إلى :

(١) محاولة عزل مصر عن العرب.

(٢) محاولة تحويل اللغة العربية: لغة القرآن الكريم والثقافة العربية كلها وكل ماتحمل إلى لغة متحفية، ومقبرة للمعلومات والتراث العربى الإسلامى كله، وعززوا منهجهم ذاك بشكل مستمر، وبكل الوسائل.

ويقول ويلكوكس: مصر ستتخلص بدورها من لغتها العربية الأكاديمية وستخدم لغتها القومية (يقصد العامية) وستنهض كما ينهض الرجل القوى بعد سبات وستجد شبابها الذى عرفه العالم.

وانطلقت الدعوة :

أولا : إلى مايسمى «تطوير» العربية ولو على حساب النحو والصرف، وأسلوب رسم الكلمات وإدخال الجديد من الكلام واستعمال الكلمات الأجنبية بالرسم العربى للحروف.

(ثانيا) : الدعوة إلى وضع قواعد للعامية.

(ثالثا) : الدعوة إلى نبذ الفصحى بعد تحميلها مسئولية التخلف واتهامها (بالجمود والفقر والبدائية والتحجر والعقم والموت) !!

وقد حمل مسئولية هذا فى كتّاب العرب: رفاعة الطهطاوى ولطفى السيد وأمين الخولى وقاسم أمين ومحمود تيمور، من المسلمين بالإضافة إلى لويس عوض وسعيد عقل وسلامة موسى.

بل لقد ذهب البعض إلى تفجير قضية موهومة بالقول بأن هناك لغة مصرية قديمة ، قبل اللغة العربية هى اللغة العامية.

ويتمسك هذا الفريق بالعامية وبكتابتها بالحرف اللاتينى.

ومنهم من دعا إلى نبذ العروبة صراحة وكل ما تحمله العربية ضمنا :

(عبد العزيز فهمى ـ سلامة موسى ـ جورج زنانيرى، أمين شميل، إسكندر المعلوف، جورج الكفورى ـ هارون غصن، القس يوسف حبيقه، ميشال فنقالى، فليب حتى، روفائيل نخلة وأخيرا أنيس فريحة).

ومايزال الجيل التالى من هذا التيار يعمل.

ولا ننْسَ جهودَ سعيد عقل وكتبه التى نشرها بالحرف اللاتينى (يارا، شعراء فينيقيا، آيات وصور).

سموم اللهجات:

وقد أولى المستشرقون اللهجات العامية عناية كبيرة، فصيحها وعاميها، وعمل أطالس لها ومعاجم، ولهجه بها فى شمولية وتفصيل بالنسبة للغة العربية بالذات، وعمل على دراستها لتمزيق اللغة الأم والظهور بها كندب أسود فى وجه اللغة، وللتشويش عليها والعمل على تشجيع أبنائنا على تأليف أطروحات لنيل درجات علمية تارة باسم الأدب الشعبى، وكان يمكن تطويره لو حسنت النيات إلى فصحى مقبولة ومتوسطة وتخصيص منح دراسية لإحياء لهجات عفا عليها الزمن، أو تستعمل محليا فى أضيق نطاق مثل البربرية فى شمال المغرب ولهجات المشرق فى سوريا ولبنان ومصر.

ومنح أرفع الدرجات العلمية على ذلك وإنشاء كراسى لدراستها فى الجامعات فى الشرق والغرب على السواء فى محاولات للتشويش على الفصحى، ولغة الضاد بالذات لأنها وعاء الوحى للقرآن الكريم والسنة النبوية، وقد جرّ هذا وذاك إلى المناداة بالعامية كلغة تأليف وكتابة وخطابة فى كل بلد عربى يحمل لواءها أبناء عاقون للعربية أكثر مما حمله غرباء وأعداء.

والواقع أن دراسة اللهجات لخدمة الفصحى عمل مشكور أما تشويهها والتشنيع عليها وتمزيقها فعمل منكور يجب أن يقاوم، ومايبذل فى دراسة ذلك من جهد ومال يجب أن يبذل فى خدمة الفصحى. فالضرورة تقضى بإحياء الغيرة على الفصحى والنهوض بها وجعلها أمانة مرتبطة بالقرآن والعقيدة (توفيق شاهين).

والمعروف أن هدف الدعاة إلى العامية هو تفتيت هذه الأمة وإيجاد لغة خاصة لكل فئة من الناس ولكل قطر من أقطارها للعمل فى تدوين معارفهم وعلومهم وآدابهم، وبالتالى لايستطيع أى مواطن فى أى قطر أن يفهم ما ينشر فى القطر الآخر، وتوجه بذلك ضربة قاصمة إلى اللغة الفصحى التى هى الركيزة الأساسية فى وحدة الأمة.

ولم تتوقف مؤامرة حرب اللغة العربية عند محاربة الفصحى من خلال تشجيع العامية، بل امتد الخط إلى غزوها من الداخل أى من خلال مفاهيم الفكر والثقافة والعلوم.

ومحاربة الجامعات الإسلامية أمثال الأزهر والقرويين والزيتونه.

إن الهدف الأساسى من محاربة اللغة يجرى باعتبارها الحبل المتين الذى يربط هذه الأمة من نواكشوط إلى جاكرتا وفصل هذه الأمة عن مصدرها الأول: القرآن الكريم .

التميز الخاص للفصحى لغة القرآن

فى كل قضية ثقافية أساسية تجرى مقارنتها بما يماثلها فى الفكر الغربى نجد ظاهرة (التميز الخاص) واضحا بحيث لايمكن القول بأن هناك تشابها عاما أو غالبا، سواء أكانت هذه القضايا هى اللغة أو التاريخ أو التراث أو القانون أو التربية أو الاقتصاد.

وذلك يرجع أساسا إلى اختلاف المنابع والجذور التى صدر عنها الفكر الغربى وتلك التى صدر عنها الفكر الإسلامى، حيث يتباين الميراث العقدى والأخلاقى والروحى، من حيث أن الفكر الغربى المعاصر منابعه من (الفكر الإغريقى ـ الفكر الرومانى ـ الفكر اليهودى ـ الفكر المسيحى)

وهى منابع مضطربة اختلطت فيها الأساطير بالفلسفات ولم يتضح فيها ميراث الأنبياء إلا قليلا فى اليهودية والمسيحية.

وتمثل هذه الفلسفات وخاصة الأفلوطينية ونظرية العقول العشرة ووحدة الوجود والحلول والتعدد والتثليث والوثنية مما جعل هذا الرصيد الموروث للفكر الغربى ركاما مضطربا غاية الاضطراب تغلب عليه الأهواء والشهوات وعبادة الجسد والتجسيد وفلسفة النسبية التى لاتقر فى الأخير ثوابت عامة تقوم عليها العقائد والثقافات.

هذا كلام عام ولكنه مرتبط بالتميز الخاص للفصحى لغة القرآن إزاء المؤامرة العريضة عليها بوصفها اللغة المشتركة لكل مسلمى العالم على اختلاف أجناسهم وألوانهم وألسنتهم، فهى لغة القرآن الكريم، وبها تؤدى الصلوات ومناسك الحج، وقد اعتبرت اللغة المصاحبة لكل اللغات التى تتكلمها الأمم الإسلامية.

فاللغة العربية كانت ولاتزال عنوان حضارتنا ولولاها لتفرق العرب.

أما الارتباط بين الإسلام واللغة العربية فهو حقيقة أساسية لاسبيل إلى تجاوزها، وقد بلغ هذا الارتباط من العمق إلى الحد البعيد حتى يمكن أن يقال أن تلك الثقافة متميزة عن كل لغة وعن كل دين.

فالدين واللغة منذ النشأة الأولى متداخلان تداخلا غير قابل للفصل، هذا شأن كل البشر على اختلاف مللهم وألوانهم، فلا تكاد تجد أمة منذ خلق الله تبارك وتعالى الكون وليس لها دين بمعناه العام.

وعلى قدر شمول الدين لشئون حياة الإنسان، على قدر ما يحصل الناس، يكون أثره بالغ العمق فى لغته التى يفكر بها وفى معارفه التى تنبنى عليها، كذلك فإنه باطل كل البطلان ما يدعى مما يمكن أن يسمى (ثقافة عالمية) أو ثقافة واحدة يشترك فيها البشر جميعا ويمتزجون على اختلاف لغاتهم ومللهم، هذا تدليس كبير، إنما يراد بشيوع هذه المقولة هدف آخر يتعلق بفرض سيطرة أمم غالبة على أمم مغلوبة لتبقى تبعا لها، فالثقافات متعددة بتعدد الملل ومتميزة بتميز الأمم، ولكل ثقافة أسلوب فى التفكير والنظر والاستدلال. منتزع من الدين الذى تدين به لا محالة، فالثقافات تتجاوز ولا تتداخل تداخلا يقضى على الامتزاج ألبته ولا يأخذ بعضها عن بعض شيئا إلا بعد عرضه على أسلوبها فى التفكير والنظر والاستدلال.

مع ملاحظة الفصل بين الثقافة والعلوم البحتة لأن لكل منهما طبيعة منافية للآخر، فالثقافة مقصورة على أمة واحدة تدين بدين واحد، والعلم مشاع بين خلق الله جميعا.

❑❑❑

ولعل أخطر الأباطيل المغرضة تلك التى تدعى أن اللغة ليست إلا أداة أو شكلا أيا كان، وأن المحتوى هو الأهم، وبالتالى نستطيع أن نستمر فى تدريس العلوم باللغات الأجنبية ، ولهؤلاء نقول:

إن اللغة ليست شكلا ولا أداة بل هى محتوى أيضا، إذ هى قالب تصاغ فيه أفكارنا وأحاسيسنا، نعبر بها عن كنهنا وخصوصيتنا، تصطبغ بها هذه الأفكار والأحاسيس بالضبط كما تتأثر هى (أى اللغة) بهذه الأفكار والأحاسيس التى تعبر عنها والتى تحملها شحنة معنوية قوية تعطيها طابعها المميز لها الخاص بها».

مولود قاسم

الفصل الثانى
المؤامرة على التاريخ الاسلامى

تفسير التاريخ الإسلامى من خلال تصور مادى غربى وماركسى

كان الهدف الأساسى من دراسة الغرب (الاستشراق والتبشير) للإسلام وتاريخه هو تتبع العورات واقتناص الهفوات وتسقط العثرات ليشنعوا بها على المسلمين ويشككوهم فى عقيدنهم، ويحولوا دون غير المسلمين من الوقوع فى دائرة جذب الإسلام إلا من عصم الله.

ولذلك فقد قام منهج دراسة التاريخ الإسلامى فى الغرب على تشويه الحقائق وتحريف الوقائع للوصول إلى الغاية المسمومة، فقد درسوا الإسلام أساساً بقلوب مشبعة بالحقد وعقول أعماها الهوى والغرض، وكان الهدف فى الأساس هو طمس الحقيقة وتزييف الوقائع بعشرات الحيل وأساليب الخداع وعلى رأسها تجزئة النصوص وإخفاء أجزاء منها، واعتماد الروايات الضعيفة وضرب الوثائق بعضها ببعض.

ولم تقتصر المؤامرات على الإسلام وتاريخه عند أعمال بعض الأوروبيين، وعلى تقليد بعض العرب للفلسفة الأوربية، بل امتدت إلى تغيير بعض أحداث التاريخ الإسلامى ليلائم الفلسفة الأوربية، ثم امتدت المؤامرات إلى تطويع مفاهيم القرآن والسنة لتساير المذهب الماركسى فى تفسيره المادى للتاريخ، وكان الرواد الأوائل فى ذلك بعض صبيان الرأسمالية الغربية، ثم أتباع الماركسية من الأعراب، وبعض من تحولوا عن الماركسية، ولكن مازالت آثارها فى فكرهم (وفى مقدمة هؤلاء هذا الدور الذى قام به طه حسين وأحمد عباس صالح وعبد الرحمن الشرقاوى) .

ويركز الدكتور محمد رشاد خليل على أقسى أخطاء التصور الغربى للتاريخ الإسلامى فى عدة عناصر:

(أولاً) : جعلوا مقاييس الحكم فى أوروبا تنسحب على العالم كله، فى حين أن نصف العالم وخاصة الشرق الإسلامى لم يعرف عصر الاقطاع أو عصر الرأسمالية المحتكرة.

(ثانياً) : لم تطبق الشيوعية التى قطع ماركس أنها أمر حتمى ونتيجة صراع الطبقات وانتصار طبقة العمال فى المجتمعات الصناعية.

(ثالثاً) : جعل ماركس المجتمعات الأوروبية حكماً عاماً على الإنسانية فمظالم الكنيسة جعلته يرفض الأديان.

❑ ❑ ❑

أولا : التفسير الماركسى للتاريخ

وقد حاول الماركسيون تطبيق نظريتهم فى التفسير المادى للتاريخ، على أساس أن الحاجات المادية للإنسان هى التى تؤثر فى الأحداث التاريخية، وتحدد شكل المجتمع وتدفعه للتحول من نظام اقتصادى إلى نظام آخر، وهذه التحولات عند ماركس حتمية ، ولكن الواقع كذب ذلك، فهذه المراحل، وهى عند ماركس حتمية تاريخية، لم توجد فى المجتمعات الإسلامية، كما أن هذه الحتمية لم تصل إليها الشيوعية فى روسيا، كما أن الدول التى تبنت هذا النظام تراجعت فى التطبيق فى أمور ثبت عدم صلاحيتها.

وبالرغم من فساد التصور الماركسى لتاريخ الغرب فقد حاول الماركسيون تطبيق منهجهم على التاريخ الإسلامى فى محاولة لجعل العامل الاقتصادى هو العامل الوحيد المحرك للتاريخ الإسلامى، كما ينظر إلى التاريخ الإنسانى كله على أنه تاريخ صراع بين الطبقات.

كما ذهب التصور الماكسى إلى أن التاريخ الإسلامى هو تاريخ الصراع بين الأغنياء والفقراء والسادة والعبيد، وأن الإسلام جاء بثورة على الطبقة الارستقراطية، كذلك اعتبار حركات الملاحدة والزنادقة من الباطنية والقرامطة على أنها تمثل اليسار.

وهو التفسير الذى اعتمده طه حسين فى (الفتنة الكبرى) وعبد الرحمن الشرقاوى وأحمد عباس صالح ومحمود اسماعيل فى كتاباتهم عن الإسلام، هذا فضلاً عن خطأ مارسته الماركسية من حيث إنها ستؤدى إلى اختفاء الحكومات وتحول العالم إلى أسرة عالمية.

وآية فساد نظريات ماركس أن روسيا لم تستطع التمسك بها، وبذلك ثبت فشل مقولة (الحتمية التاريخية) التى قال بها ماركس، كذلك فإن النبوءات التى قال بها ماركس باسم الحتمية التاريخية قد كذبها التاريخ، فلم تظهر الماركسية فى البلاد الرأسمالية.



ثانياً: التفسير الغربى لتاريخ الإسلام

كذلك فقد جاء التصور الغربى للإسلام تصوراً خاطئاً .

(أولاً) : فى اعتبار أنَّ ما قبل العصر الحديث هو عصر القرون الوسطى المظلمة ـ وليس هذا صحيحاً بالنسبة لعالم الإسلام، بل كان من شأن أوروبا وحدها، أما العالم الإسلامى فكان مضيئاً بنور الإسلام ألف عام متصلة، ومن هنا فقدكانت عصور الظلام فى أوروبا هى عصور الفتوحات الإسلامية التى نشرت العلم والنور والحضارة والعدل فى البشرية كلها، كذلك فقدكان من الخطأ القول باعتبار عصر النهضة فى أوروبا عصراً للنهضة فى العالم كله.

ومن أكاذيب التصور الغربى:

(١) فساد نظرية الكشف الجغرافى، فإن كلمة الكشف هى أكذوبة كبرى، وإنما كان فى حقيقة عملية تبشير بالمسيحية من خلال حركات عسكرية يقودها جبابرة مدمرون أمثال البوكرك و هنرى الملاح وغيرهم.

وكان الكشف فى حقيقته إبادة وقهراً للأجناس الأصلية سواء فى آسيا وأفريقيا أم فى أمريكا.

هذا فضلاً عن سيطرة الكنيسة خلال القرون العشرة السابقة على نهضة أوروبا، وعودة أوروبا إلى النظام الرومانى القائم على سيادة الجنس الأبيض.

(٢) محاولة الغرب فرض نموذج قديم بإلزام البلاد التى وقعت تحت سلطانها بإحياء الحضارة المصرية القديمة والفارسية والبابلية.والاهتمام بالتاريخ الفرعونى القديم وتسييده على التاريخ الإسلامى، وإحياء فكرة أن المصريين أحفاد الفراعنة واللبنانيين أحفاد الفينيقيين والعراقيين أحفاد البابليين.

(٣) وقد تبين بوضوح خطأ اعتماد مفهوم أوروبا فى تفسير التاريخ وخطأ الفلسفة الأوروبية فى أن تجعل تاريخها هو الميزان الذى توزن به الأحداث التاريخية فى العالم كله.

(٤) كذلك فقد قام عصر النهضة فى أوروبا على أساس عزل الدين عن الحياة ومحاولة إخضاع النفس الإنسانية للعلم التجريبى والمادى وحجبها عن تكامل النظرة الجامعة للروح والمادة والعقل والعقيدة والدنيا والآخرة.

وكذلك فى محاولتهم اعطاء صورة كاذبة عن انسانية الحضارة ومدنيتها، بينما هم فى الحقيقة قد استعادوا عصر الامبراطورية الرومانية فى الظلم والتسلط، حيث كانت الديموقراطية لسادة القوم وليست للعامة، ونهب الثروات من خلال غلاف براق تحت اسم المدنية، وقد قامت الحضارة المدنية على نظام الامبراطورية الرومانية القديمة، من التفوق العسكرى، والطغيان الرومانى واستضعاف الشعوب المغلوبة وإذلالها.

(ثانياً) كذلك فقد اعتمد كتاب الغرب ومؤرخوه منهج التفسير المادى للتاريخ الذى ينبنى على تفسير انتصار الإسلام وأحداثه تفسيراً مادياً فى محاولة لجعل العوامل الاقتصادية والاجتماعية والسياسية هى الدافع إلى نجاح الدعوة الإسلامية واستجابة الجماهير لها.

وقد تبنى هذا الاتجاه كتاب العرب (سواء منهم العلمانيون أو الماركسيون) طه حسين فى كتابه الفنية الكبرى. وعبد الرحمن الشرقاوى فى كتابه محمد رسول الحرية، وأحمد عباس صالح حين ادعى بصراع اليمين واليسار فى الإسلام.

وقد أخطأهم التوفيق فى الإدعاء بأن رسالة الإسلام إلى النبى ﷺ كانت وليدة انفعال بين النبى والمجتمع، وإنما هى وحى من الله تبارك وتعالى وأن المنهج الإسلامى للحياة الإنسانية لم يكن رد فعل لعوامل اجتماعية أو اقتصادية أو سياسية، بل كان وحيا من الله تبارك وتعالى يخضع له الغنى والفقير والحاكم والمحكوم.

ولا ريب أن القول بأن رسالة الإسلام تأثرت بالعوامل الاقتصادية والاجتماعية والسياسية كرد فعل لها تنطوى على خبث وافتراء يوحى بأن هذا الدين ليس وحياً من الله تبارك وتعالى بل هو مجرد محاولة إصلاحية من محمد كبشر مصلح، وليس كرسول من عند الله، كذلك فقد كان باطلا من الباطل القول بأن العوامل

الاقتصادية والاجتماعية هى التى دفعت هؤلاء المستضعفين إلى الانضام إلى جماعة رسول الله ﷺ، وآية ذلك أن التشريعات الاجتماعية والاقتصادية لم تنزل فى فترة المجتمع المكى قبل الهجرة.

فإلغاء الربا وفرض الزكاة وكفالة حقوق الفقراء فى مواجهة الاغنياء كلها تشريعات مدنية، ولم يثبت فى أى مصدر أن النبى ﷺ انشتغل بها فى بدء الدعوة.

هذا فضلا عن أن الذين اتبعوا النبى ﷺ واستجابوا له لم يتبعوه لمغنم مادى أو مظهر اجتماعى.

دكتور محمد رشاد خليل

❑ ❑ ❑

وهكذا تحالف الاستعمار مع الاستشراق لتحقيق غاية أساسية هى أن تعاد صياغة الإسلام فى قوالب غربية تحت اسم العصرية أو الإصلاح أو التجديد، وكان الغزو فى مجال التاريخ والسيرة قدتمكن من تلقين المسلمين والعرب أن مناهج الفلسفة الأوروبية مناهج عالمية وعلمية، ومن هنا تمكن من إسقاط الخلافة الإسلامية بأيدى بعض المسلمين فى الظاهر بترويج الفكر الغربى والدفاع عنه ولا سيما فيما يقال من تعارض الدين والعلم، وحتمية انفصال الدين عن السياسة.

ولقد كان من تعدد فساد هذا التصور الغربى للتاريخ الاسلامى آثار ه البعيدة فى كتابات العرب والمسلمين، مما دفع (أولا) طه حسين إلى القول ببشرية القرآن والدعوة إلى الشك الفلسفى، وامتهان الصحابة، كما دفع (محمد حسين هيكل) إلى انكار المعجزات فيما سوى القرآن، ودعا العقاد إلى إعلاء العبقرية على النبوة (وحمل عبد الرحمن الشرقاوى) إلى تصور أن محمداً ﷺ المؤيد بالوحى داعية للحرية (والحرية فى مفهوم الغرب كلمة سيئة السمعة لأنها ارتبطت فى العصر الحديث بالماسونية والثورة الفرنسية والفكر الإباحى والوثنى)، وكلها محاولات رمت أساساً إلى تفسير أحداث التاريخ الإسلامى تفسيراً غربياً يلائم اتجاهات الفلسفة الأوروبية المادية، ويخدم هدف النفوذ الأجنبى فى احتواء الإسلام وتغريبه وضربه من الداخل على النحو الذى دعا إليه لويس التاسع بعد هزيمته فى الحروب الصليبية.

ثالثاً: تشويه التاريخ الإسلامى

لا ريب أن تشويه التاريخ الإسلامى هو جزء مهم من مخطط عالمى استعمارى للقضاء على الإسلام، وقد تعاون المستشرقون والمبشرون والتغريبيون من أبناء العرب والإسلام على القيام بهذا التشويه وفق خطوط فكرية ثابتة:

(١) الادعاء بأن الالتزام بالإسلام لا تعدو أن تكون فترة عصر الخلفاء الراشدين.

(وقد جرى هذا فى محاولة لضرب الدعوة الإسلامية المتجددة الداعية إلى تطبيق منهج الإسلام القائم على مفهوم الإسلام دين ودولة).

(٢) التركيز على فترات الخلاف بين المسلمين وتوسيع دائرة الحديث عنها والإغضاء بالتالى عن المساحات الكبيرة المتألقة.

(٣) إثارة العنصريات وتعميقها بين العرب والبربر والأتراك بهدف إضعاف روح الإخاء الإسلامى بين المسلمين.

(٤) محاولة إحلال كلمات العروبة والعرب والفكر العربى والحضارة العربية بديلاً من الفكر الإسلامى والحضارة الإسلامية وذلك بغرض إثارة الشعوب المسلمة التى ساهمت فى صنع الحضارة الإسلامية وتأليبها ضد العرب.

(٥) إثارة الأقليات غير المسلمة وتحريكها فى محاولة لخلق فتن وانقسامات فى نسيج المجتمع وبدعوى أنها ظلمت وانتهكت حقوقها.

(٦) تشويه صور كل الدول والجماعات التى أنقذت المسلمين ووقفت ضد الزحف الصليبى: مثل المماليك والأيوبيين والعثمانيين ويفوز فى هذه الحملة (العثمانيون) بالنصيب الأوفر.

(٧) محاولة إرجاع ما يوجد من صور النهضة فى الحياة الإسلامية إلى هجمات الاحتلال الأولى: مثل الحملة الفرنسية على مصر وبعثات محمد على إلى أوروبا.

(٨) تمجيد كل الذين خانوا الإسلام وحاربوه مثل: مصطفى كمال أتاتورك تركيا، وأكبر شاه فى الهند والانتقاص من قدر المجاهدين والمصلحين وتلفيق التهم ضدهم.

(٩) التشكيك فى التراث الحضارى الاسلامى بدعوى أن الحضارة الإسلامية منقولة عن الحضارة الهيلينية وأن المسلمين بالتالى لم يكونوا إلا نقلة ومترجمين.

(١٠) تشويه منصب الخلافة الإسلامية ورميه بأبشع الصفات وإعلان حرب دائمة عليه حتى بعد زواله.

رابعا: إطفاء نور التاريخ الإسلامى

ولقد اتضح من خلال عشرات الوثائق أن هناك محاولة لإطفاء نور التاريخ الإسلامى، وقد حشد كثير من الكتاب فى معركة ترمى إلى وصم التاريخ الإسلامى.

(أولا) بكثرة الفتن والحروب والمكائد والاضطرابات.

وليس هناك مجال للرد عليهم إلا من خلال النظرة الصحيحة إلى التاريخ من خلال عوامله العديدة التى تعطى البيان الواضح عن أن الوصمات لا أصل لها وأن كل ما فى الأمر أن هناك تفاعلات فى المجتمع الإسلامى العربى كانت تأخذ طريقها فى ذلك المجتمع وأن هذه التفاعلات سنة من سنن الله تبارك وتعالى ولن تجد لسنة الله تبديلا، وهى تفاعلات تحدث فى كل أمة، بل إن الأمم الأخرى كانت تتلقاها بعنف أكثر مما تلقاها المسلمون والعرب.

وتاريخ الأمم ممزوج بالحروب والفتن والاضطرابات أكثر من تاريخ العرب والمسلمين، فهذا تاريخ فرنسا وألمانيا منذ الثورة الفرنسية، وإن تاريخها ملئ بالحروب: حروب الثورة الفرنسية (حروب نابليون) حروب ١٨٧٠، حرب ١٩١٧ حرب ١٩٣٩.

كل ذلك فى مدى لا يتجاوز قرنا ونصف قرن والضحايا التى وقعت فى هذه الحروب تتجاوز أضعافاً مضاعفة ضحايا الحروب فى تاريخنا بأجمعه».

❑ ❑ ❑

ولقد كان كتاب الغرب (المستشرقون والمبشرون جميعا) قد جندوا أنفسهم لتصيد النصوص المغرضة : وهذه النصوص بكل أسف لم يخل منها حتى أشهر الكتب التاريخية الإسلامية كالطبرى والمسعودى والبلاذرى وغيرهم، وإن كان بعضهم قد رواها بصيغة التحريض وأخرها فى الترتيب وشكك فى روايتها، وأقحمها فى باب التوسع فى الرواية وإيراد الأخبار المختلفة عن الحادثة الواحدة.

وإن كان جماعة من جهابذة علماء السنة قد عملوا على تفنيد الأخبار المزورة الواردة فى حق الصحابة والتابعين.

(١) الإمام أبو بكر الباقلانى فى كتابه التمهيد.

(٢) الإمام أبو بكر بن العربى المغافرى فى كتابه (العواصم من القواصم).

(٣) الإمام تقى الدين بن تيمية فى كتابه (منهاج السنة) وغيرهم.

عمل هؤلاءعلى تنبيه المسلمين عما فى كتب تاريخهم من النصوص المزورة، المدسوسة التى اقتحمت عن قصد سيئ أو عن قصد اللمز للصحابة، وقد نقل المستشرقون هذا كله وخلطوه وأوعزوا إلى أتباعهم وأوليائهم بإعادة كتابته من جديد تحت عنوان مضلل وهو (إعادة) كتابة تاريخ الإسلام.

❑ ❑ ❑

هذا من ناحية ومن ناحية أخرى فقد تكشف فساد التاريخ الغربى المكتوب عن علاقة أوروبا بالإسلام والعالم الإسلامى.

هذا التاريخ الذى كتبته أوروبا لتضع نفسها فى قمة العالم وفى مكان السيطرة والتوجيه والتأثير لكل الأمم، والذى يحمل صورة الاستعلاء والسيطرة والادعاء بأن الغرب هو مبدأ تاريخ العالم، وهو النهاية له حيث بدأت حضارة اليونان والرومان وانتهت بحضارة الغرب المعاصرة، بحيث يصبح الشرق الإسلامى جزءا ضائعاً فى عالم ينسى أن الإسلام أضاء العالم كله خلال ألف سنة كاملة أطلق عليها القرون الوسطى المظلمة، حيث لم يكن وجود لحضارة الغرب.

وقد جاء من منطلق زائف وباطل باعتبار أن القوى هو الذى يكتب التاريخ وإن كان تاريخ أوروبا المكتوب هو تاريخ القوى المسيطرة التى استخدمت كتابة التاريخ كوسيلة من وسائل شتى لتبرير السيطرة أو تفسير السلطة، ويرجع هذا كما يقول بعض الباحثين إلى: (مرض الامتلاء بالذات وإسقاط الآخرين إسقاطاً نهائياً يلغيه أو يلحقه بها) حتى أن الشرق هناك هو شرق الغرب، والغرب نفسه هو غرب السلطة المسيطرة).

❑ ❑ ❑

وقد كان هذا هو أخطر ما واجه التاريخ الإسلامى من تزييف وتشويه من منطلق تصور خاطئ يتمسك به الغرب وهو مقولة : إن الإسلام قد استولى على أراضٍ كانت ملكاً للمسيحية أو الغرب: مثل مصر والشام وأفريقيا.

والحقيقة أن هذه الأراضى لم تكن ملكا للغرب ولكنها كانت تحت نير الاحتلال الرومانى، يستعمرها الرومان خلال ألف عام.

ولقد قبلت بحكم الإسلام لأنها وجدت فيه رحمة لها ومخرجا من ظلم الرومان، حيث سمح لها الإسلام أن تبقى على عقيدتها ولم يلزمها الخروج عنها.

ولم يكن لورد سالسبرى عادلا حين قال : وجوب إعادة ما أخذه الهلال من الصليب، أو قول بييرس سميث فى كتابه عن سيرة المسيح:

(إن هذا الاستيلاء على بيت المقدس كان حربا صليبية ثامنة أدركت فيها المسيحية غايتها) .

وقد جاء ذلك من منطلق مقولة التعصب الغربى برفض مزاحمة الإسلام له فى أوروبا فى مقولة ظالمة: إن على المسلمين أن ينتهوا من أوروبا بالهجرة أو التنصير من ناحية الأندلس ومن ناحية البلقان.

ويرتبط بهذا الاستعلاء بالعنصر الأبيض وإنكار فضل المسلمين على الحضارة الحديثة عن طريق مؤامرة الصمت وسرقة التراث من بلاد المسلمين على مفاهيم الفكر الإسلامى، فى مجال العلم والقانون والفلك وعدم الإشارة إلى مصادرها فضلا عن تزييف تراث المسلمين وعرضه مشوها عن طريق الحقد والتعصب وبث السموم والزيوف والأسواء التى احتواها الفكر الغربى لبلبلة تفكير المسلمين وإحياء تراثهم الوثنى والغنوصى والباطنى لتحريف مفهوم الإسلام عندهم.

❑ ❑ ❑

ولقد كانت محاولة المسيحية الغربية لتزييف تاريخ الإسلام بالغة أشد محاولات التزييف، فقد اعتمدت على إحياء الفكر الوثنى والباطنى وفى تشويه صورة الرسول ﷺ وسيرة الخلفاء الراشدين.

ويأتى الأب لامنس فى مقدمة من رسموا هذا المخطط الذى سار عليه من بعده كثير من المستشرقين المسيحيين المبغضين ، وكتاب العرب المغربين فقد تجرأ على تاريخ الصدر الأول من الإسلام فعمد إلى تشويهه استجابة لحقد داخلى يملأ جوانب نفسه، فهو ـ كما يقول الدكتور رجب البيومى ـ يتعرض إلى تاريخ الجاهلية ليرفع من قدر أمية بن عبد شمس مفضلا إياه على هاشم بن عبد مناف لأمور مبالغ فيها دون دليل، ثم يمضى بالكلام إلى ولده حرب بن أمية ليفضله على شيخ قريش عبد المطلب بن هاشم جد رسول الله ﷺ.

فإذا انتقل إلى تاريخ الإسلام أكثر من الإشادة بأبى سفيان بن حرب ليجعل منه شيئاً أمام رسول الله ﷺ .

ثم يتدلى إلى معاوية بن أبى سفيان ليذكر له كل مأثرة فى مواجهة على بن أبى طالب الذى يخصه بصفات هو منها براء، فإذا جاء إلى يزيد بن معاوية فإنه يضع فيه كتابا كبيرا لينثنى باللوم على الحسين بن بنت رسول الله ﷺ.

ومن أشنع ما أذاعه لامنس ما زعمه من وجود مؤامرة يوم السقيفة قام بها أبو بكر وعمر وأبو عبيدة ضد على بن أبى طالب، إذ اتفق ثلاثتهم فى مرض الرسول الأخير أن يجمعوا المسلمين على مبايعة زبى بكر وإقصاء على ليكون عمر بن الخطاب ولى عهده ثم يليه فى الخلافة أبو عبيدة.

وهكذا ورث الأب لامنس الحقد على نبى الإسلام فساقه مساق من يحتفل بكل من عارض بيته الظاهر فى الجاهلية والجاهلية والإسلام، ووجود من ضعف الأخبار ما أجراه على صياغة بناء متهافت.

❑ ❑ ❑

وقد أولت الكنيسة الغربية اهتمامها بالتاريخ الإسلامى وتجنيد عدد من المبشرين الذين يلبسون ثياب العملاء لإثارة الشبهات، وقد تتلمذ على أيديهم بعض النصارى العرب أمثال سلامة موسى وجرجى زيدان وفيليب حتى ولويس عوض ويوسف الخال وغيرهم.

وتخصص عدد منهم فى التقاط الشباب المسلم الذاهب إلى الغرب كما فعل جومار مع رفاعة الطهطاوى ولويس ماسينون بطه حسين.

وقد تبين أن هدف الحملة الفرنسية كان القضاء على اليقظة الإسلامية فى عقر دارها، وتشتيت شمل تلامذة الجبرتى والبغدادى والزبيدى وتفريقهم فى الأرض.

وكان مخطط الاستعمار الغربى يقوم أساساً على تمزيق الإسلام وتقطيع أوصاله وهدم الخلافة وتحويلها إلى دويلات ترتبط فى تاريخها بما قبل الإسلام وهو مسيحى الوجهة فى الأساس .

ومن ذلك مقولة أن الحروب الصليبية هى صراع بين العرب وأوروبا لا شأن لها بالإسلام.

وقد جاءت كتابات كل كتاب الغرب المسيحيين عاملة على ترسيخ الحقد الدفين على الإسلام والمسلمين وتشويه صورة الإسلام فى وجدان الغرب المسيحى، وقد ظل هذا الحقد يغلف علاقة الغرب والشرق إلى اليوم.

❑ ❑ ❑

أما محاولة اليهود فى تزييف التاريخ الإسلامى فهى أبعد مدى.

وقد حاول المستشرقون اليهود التزوير والتجاهل، وكان لهم تأثير على بعض المستشرقين لتغيير الحقائق.

وتركز محاولة اليهود فى تزييف التاريخ الإسلامى بالنسبة لفلسطين وتشويهه بطمس دور العرب والمسلمين وإبراز النقاط السود فى توظيف المواقف الهدامة.

ولقد كشف القرآن الكريم الزيف الذى ظل المؤرخون الغربيون (من اليهود والنصارى) يدعونه سواء فى مسألة وجودهم فى فلسطين أو خروجهم منها، أو بالنسبة لعلاقتهم بأبى الأنبياء إبراهيم ووعد الله تبارك وتعالى له، وكذلك دعوى (شعب الله المختار) أو أرض الميعاد.

ويتصل بموقف اليهود عن الإسلام: تلك المؤامرة الكبرى التى رسمتها بروتوكولات صهيون كمخطط لنشر الدعوة الماسونية وإدخال الغافلين من المسلمين فيها لخدمة أهدافهم.

وكان أبرز ما حرص عليه مكسيم رودنسون أو توراندريه أو بروكلمان أو فيشر أو مونتجمرى وات، أو بتوار أو فيليب حتى أو برنارد لويس، هو إنكار دور اليهود فى التحريض على غزوة الخندق، واستغلال الأسلوب الملتوى لتزييف الحقائق وهو إحدى السمات البارزة المميزة لكتابات المستشرقين اليهود والصهيونيين والمسيحيين.

❑ ❑ ❑

ومن يراجع كتابات بروكلمان يجده لا يشير إلى دور اليهود فى تأليب الأحزاب على المدينة ولا إلى نقض قريظة عهدها مع الرسول ﷺ فى أشد ساعات الأزمة، ولكنه يقول:

(ثم هاجم المسلمون بنى قريظة الذين كان سلوكهم غامضاً على كل حال).

ويتغاضى إسرائيل ولفنسون عن حادثة (نعيم بن مسعود) فى معركة الخندق كسبب فى انعدام الثقة بين المشركين واليهود، ولعله يريد أن يوحى بأن اليهود لا يمكن أن يخدعوا.

أما إميل دور منجم فى كتابه عن (محمد) ﷺ فإنه لا يتعرض مطلقا لعلاقة النبى باليهود فى المدينة.

❑ ❑ ❑

أما رودنسون فى كتابه عن النبى محمد فهو يهدف إلى التأكيد بأن العرب تكونوا تاريخياً نتيجة عدة عوامل محيطة بهم كقومية موحدة كانت تبحث عن نبى قائد فوجدته فى محمد ﷺ وهو يحاول أن يفسر فترة النبوة باعتبارها بدايات النهوض القومى العربى.

وهو يرمى بذلك إلى تجاهل النبوة ومحاولة تصوير الدعوة الإسلامية على أنها عمل مصلح من المصلحين.

❑ ❑ ❑

وقد أشار كثير من الباحثين إلى محاولة اليهود فى إحياء التاريخ اليهودى لتحقيق غايتهم إلى تزييف التاريخ الإسلامى وتشويهه بطمس محاسنه وتوظيف المواقف الهدامة وإثارة الجدل حول قضايا الشعوبية والباطنية من جديد.

وقد أشارت الصهيونية فى البروتوكولات إلى هذا المعنى ففى البروتوكولين١٤ و١٦ من بروتوكولات حكماء صهيون.

سنوجه عناية خاصة إلى الأخطاء التاريخية للحكومات الأممية التى عذبت الإنسان خلال قرون كبيرة جداً، وسنطمس من ذاكرة الإنسان العصور الماضية التى كانت شؤما علينا ولا نترك إلا الحقائق التى ستظهر أخطاء الحكومات الأممية فى ألوان القائمة .

ومن ذلك قدرتهم على تركيز الدراسات فى الشرق القديم حول التوراة بالرغم مما فيها من أكاذيب.

فقد استطاعات خلال هذه الفترة القصيرة منذ بدأت دعوتهم إلى اعتبار التوراة وكأنها المصدر الأساسى لدراسة فترات معينة من تاريخ الشرق القديم (رغم أنها غير موثوقة السند) .

ودعم وجود مئات الأبحاث التى كتبها المؤمنون بالتوراة نفسها وهى تثير جدلا طويلا حول وثاقة نصها.

ولليهود محاولتان:

(الأولى) توظيف الحدث التاريخى عن طريق التوراة فى سبيل إعادة الدولة اليهودية .

(والثانية) تزييف التاريخ الإسلامى حتى لا يتحقق للمسلمين الانتفاع به.

ومن ذلك عملهم على إحياء الدعوات الهدامة بمقولة أن الدعوة القرمطية دعوة للعدل الاجتماعى وثورة الزنج حركة تقدمية.

وقد حاولت الصهيونية عن طريق بعض الكتاب العرب أمثال طه حسين وغيره احتضان كتابات تدعى أن اليهود قبل الإسلام كان لهم دور فى الثقافة العربية فى الجزيرة العربية، وأن العرب تأثروا بثقافة يهود، وأنهم أخذوا عنهم فلسفتهم فى أن الحياة وسيلة لا غاية، وأن اليهود عاونوا العرب على الفتح بعد الإسلام، وأنهم كانوا عنصرا أساسياً فى فتح بلاد الأندلس ومساعدة طارق بن زياد.

وأنهم عاونوا العرب فى إدارة البلاد الإسلامية سياسيا واقتصاديا، وأنه لولا هذا التعاون الوثيق لما كانت الامبراطورية العربية الضخمة، وإليهم يرجع الفضل فى نقل ثقافة العرب إلى أوروبا.

(مجلة الشمس ٧ يناير ١٩٤٤).

وقد ثبت كذب الإدعاءات التى أريد بها توسيد مخططات الصهيونية فى السيطرة على فلسطين.

وقد أشار الأستاذ اسماعيل الكيلانى فى بحث مستفيض إلى المخطط اليهودى فى محاولة بعث الحس التاريخى والعقدى ولتعميق تعاليم التوراة وتقوية اللغة العبرية.

كما أشار إلى اتجاه اليهود إلى توظيف الأحقاد التاريخية الكامنة فى لا شعور الغربيين على الإسلام والمسلمين واستخدامهم من خلاله فى خدمة أغراض اليهودية وتحقيق مخططاتها.

وقد أشار لبولبدفايس فى كتابه (الإسلام على مفترق الطرق) إلى ما يسمى بالاحتقار التقليدى فى الغرب بالنسبة للإسلام، والذى أخذ يتسلل فى شكل تخريب غير معقول إلى بحوثهم العلمية حتى:

« أصبح احتقار الإسلام جزءاً أساسياً من التفكير الأوروبى» .

فضلاً عن أن المستشرقين الأول كانوا نصارى يعملون فى البلاد الإسلامية، وكانت الصورة المشوهة التى اصطنعوها من تعاليم الإسلام وتاريخه مدبرة على أساس يضمن التأثير فى موقف الأوروبيين من المسلمين» .

والواقع أن محاولة إعطاء التوراة دوراً مرجعياً فى البحوث التاريخية السابقة للإسلام قد تحطم كثيراً فى السنوات الأخيرة وتراجع تراجعاً واضحاً بعد أن ثبت فساد التفسيرات اليهودية فضلاً عن كشف الباحثين عن زيف مصادر التوراة، وكان أخطر من ذلك كله ماكشفت عنه الحفريات (وآخرها أوراق دير قمران)، من عدم صحة ما أوردته الكتب المقدسة، وكان القرآن الكريم منذ أربعة عشر قرناً قد كشف ذلك فى وضوح تام فى عدد من آياته الكريمة.

﴿ فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون هو من عند الله ﴾.

وقد شملت أبحاث علماء اللاهوت مجموعة ضخمة من هذه الأخطاء، وكانت مراجعات الدكتور موريس بوكاى بعيدة الأثر فى تأكيد:

(فساد النص التوراتى وصحة النص الإسلامى) .

كما كشف الداعية المسلم: أحمد ديدات فى مراجعاته الدقيقة والصحيحة ذلك التعارض الواضح بين أسفار التوراة : العبرانية والسامرانيةمن حيث عدد الأسفار والنصوص وما يوجد من طبعتين مختلفتين إحداهما فى الكنائس البروتستانتية والأخرى الكاثوليكية والأرثوذكسية، وجاء القرآن شهادة على علماء الغرب أنفسهم بما توصلوا إليه استمداداً من سلامته الخاصة التى لم تصب بأى شبهه حول نصوصه، (وهو ما شهد به نولدكه: حيث قال : إن النص القرآنى يحمل أحسن صورة من الكمال والمطابقة).

ولقد كانت كتابات أقطاب الفكر اليهودى عن الإسلام (رودنسون) مليئة بالأخطاء والأحقاد فى نفس الوقت بالرغم مما حاولت أن تبدى به من طابع التحقيق العلمى.

❑ ❑ ❑

وفى العصر الحديث ومن خلال الكتابات العربية اشترك فى مؤامرة تدمير التاريخ الإسلامى : القوميون والماركسيون والشعوبيون، حيث تجددت الكتابة عن الحركات الباطنية كالقرامطة والاسماعيلية ووصفها بأنها حركات تحرر ورفع مظالم.

وقد جاء ذلك على إثر قرارات مؤتمر بلتيمور الذى عقد تحت اشراف الصهيونية عام ١٩٤٢.

وكان أخطر ما حاولت الصهيونية العمل على تأكيده بالباطل:

الفصل بين الإسلام وحنيفية إبراهيم عليه السلام (على النحو الذى سجله طه حسين أساساً) وذلك لقطع المسلمين عن ماضيهم وتبرير مقولتهم التى سفهها القرآن الكريم حيث زعموا أنهم شعب الله المختار، وكذلك الحيلولة دون قيام وحدة فكر بين المسلمين (مقولة طه حسين فى أن العرب استغلوا فكرة الوحدة بين أبناء اسماعيل وإسحق .. إلخ).

(٣)
الحقائق الرئيسية التى عمل الغرب على تزييفها

عمد كتاب الغرب إلى ضرب الحقائق الرئيسية فى الإسلام والتاريخ الإسلامى، وإثارة الشبهات حولها وتمجيد الفرق الضالة من أصحاب النزعات المادية، ووصف القرامطة والراوندية والباطنية بالتقدمية والثورية، وتصوير التاريخ الإسلامى بصورة صراع بين الإقطاع وطلائع البرجوازية والادعاء بأن التشريع الإسلامى لم يطبق إلا فى زمن قصير هو زمن الرسول صلى الله عليه وسلم، ومن ذلك إحياء علاقات ما قبل الإسلام وتصوير الفتح الإسلامى، على أنه كان من أجل الطعام ومحاولة القول بأن العرب كانوا مستعدين للنهضة فلما جاء الرسول نهض بهم.

ومحاولة تصوير الإسلام على أنه كان نهضة مرحلية انتهت، ومحاولة رسم صورة للحكم الإسلامى على أنه كان خلافاً وصراعاً وتضارباً بين القادة والحاكمين.

١ ـ إحياء تاريخ ما قبل الإسلام

عمل النفوذ الغربى من خلال تجنيد عدد كبير من المبشرين الذين يلبسون ثياب المستشرقين (وقد تتلمذ عليهم فيليب حتى وسلامة موسى وجرجى زيدان ولويس عوض) للدعوة إلى فرض نظرية الإقليميات والقوميات والتركيز عليها بهدف هدم الوحدة الجامعة للمسلمين وفصله عن تاريخ الإسلام العام.

وقد عنوا بالحفريات التى تتناول الفرعونية والفينيقية والأشورية والبابلية، ودعم مفاهيم القبلية العرقية والطائفية وتأكيدها فى محاولة واسعة للحيلولة دون قيام وحدة إسلامية جامعة بعد سقوط الخلافة، كما عمدوا إلى خلق وحماية وتوجيه الفرق الضالة : كالأحمدية والقاديانية والبهائية، ودعمها وإتاحة الفرص لها للعمل والظهور فى سبيل القضاء على مفهوم الثقافة الإسلامية الجامعة، بالدعوة إلى التحلل الخلقى وإنكار ختم الرسل وإحياء مفاهيم الباطنية والحلول والاتحاد والمذاهب الفلسفية الضالة، وكذلك العمل على تعميق الخلافات بين العرب والبربر والأتراك والفرس، بهدف إضعاف روح الإخاء الإسلامى.

٢ ـ ضرب وحدة الأمة الإسلامية.

كان التركيز الشديد من كتابات الغرب فى التاريخ الإسلامى على هدم الوحدة الإسلامية ووحدة الدولة الإسلامية.

فهم يصرون على تقسيم التاريخ الإسلامى إلى دول (أموية ـ عباسية ـ عثمانية) وهم لا يعترفون بامتداد الدولة الإسلامية ووحدتها عبر العصور المختلفة منذ نشأتها فى المدينة المنورة، ويتجاهلون أن الدولة الإسلامية استمرت متكاملة الحلقات ممتدة منذ إعلانها إلى أن أسقطها الاستعمار حين أسقط الخلافة العثمانية على يد صنيعهم مصطفى كمال أتاتورك ١٩٢٤ ، وهم كذلك يشيدون بالحركات الانفصالية عن جسد الدولة الإسلامية، ووصفها بالثورة وإسباغ اسم الدول الاستقلالية عليها، ويهدفون من ذلك إلى إجهاض مفهوم الخلافة والترويج للشعوبية والأممية، وتشجيع تمزيق جسد الأمة الإسلامية وقطع الصلة بين حاضر المسلمين وماضيهم.

لقد كان تغييب مفهوم الوحدة الإسلامية الجامعة هدفا أساسيا حتى لا تنطبع فى أذهان الشباب والطلاب، وقد ضمت الوحدة أجناساً مختلفة وشعوباً متباينة، ولم يكن العرب وحدهم قوام الأمة الإسلامية بل ارتفعت راية الخلافة لترفرف على كل الجنسيات والبلدان، وانتظم الجميع فى وحدة إسلامية كبرى حيث لا فضل لعربى على أعجمى إلا بالتقوى، حتى الولاة الذين انفصلوا وكونوا دويلات كانوا يستمدون شرعيتهم من تبعيتهم للخليفة العباسى، وقد عمد الأتراك إلى توحيد الولايات الإسلامية تحت راية الخلافة العثمانية.

٣ ـ استخدام منهج التجزئة وحجب مرحلة التيارات الإسلامية .

ومن أخطر مؤامراتهم : التركيز على الحقبة الأولى من تاريخ الإسلام التى فتح فيها العرب المنطقة التى يعيشون فيها فيسمونها التاريخ العربى تارة وإمبراطورية العرب مرة أخرى، وحضارة العرب مرة ثالثة : هذه الحقبة لا تتجاوز ثلاثة قرون من تاريخ الهجرة ظهر بعدها المسلمون من غير العرب الذين ضربوا بسهم وافر فى الحضارة، وعملوا بصدق فى سبيل نشر الإسلام فى آسيا وأفريقيا ووقفوا بحزم فى وجه الهجمات التى شنها أعداء الإسلام من مغول وتتار.وفرنجة مع العالم الإسلامى، وأحرزوا من الانتصارات

الباهرة مايستحق أن نفخر به، والخطأ فى ذلك هو التركيز على ماقام به القواد العرب الأوائل (عمرو وسعد وخالد وعقبة) لأن التقسيم الغربى للتاريخ الإسلامى يقوم على الفصل بصورة متعسفة بين المرحلة الأولى من عصر الدولة الإسلامى والمراحل التالية التى آل فيها الحكم إلى غير العرب من الشعوب الإسلامية.

ولم يكن صلاح الدين هو القائد الوحيد الذى خاض غمار تلك الحروب، والتى دارت على مدى ثلاثة قرون، وهناك غيره ممن لم يكشف عنهم الغرب لا يريد للمسلمين أن يعرفوا أنهم هزموه وقضوا على جيوشه وحطموا آماله وكبرياءه، لذلك يتعمد استخدام منهج التجزئة فلا يتكلمون عن التاريخ الإسلامى ككل بل يتكلمون عن التاريخ العربى.

٤ـ دعوى توقف تطبيق الشريعة.

حاول كتاب الغرب الادعاء بأن الشريعة الإسلامية لم تطبق إلا فى عهد الراشدين، وهذه مقولة مضللة دحضها كثير من كتاب الإسلام ومفكريه.

يقول دكتور عبد الجليل شلبى : لم يتوقف تطبيق الشريعة عند عهد الخلفاء الراشدين، فنحن لا نزال نجد على مر التاريخ الإسلامى قمما من قمم العدالة والتقوى والتفكير، مما لا نجد له مثالا فى الأمم والدول الأخرى، ومع ذلك لا نستشهد بهم لأنهم ليسوا مصادر للتشريع، وقد وجد على مر التاريخ دول إسلامية كثيرة حكمها الإسلام فى جميع شئون حياتها (الأموية، العباسية، العثمانية)

ولم تكن الدولة العثمانية دولة ظالمة كما تصورها بعض الكتاب الذين لم يعرفوا تاريخها، وإنما كانت دولة محكومة بكتاب الله وسنة رسوله، ولذلك استمرت نحو ستة قرون.

ومن الظلم أن نتهم الشريعة الإسلامية بأنها لم تطبق بصورة ناصعة إلا فى عهد الرسول والخلفاء لأن التاريخ الإسلامى ملئ بالكثير من الأمثلة الدالة على تطبيق الشريعة الإسلامية إلى أوائل القرن العشرين، وقد طبقت الشريعة الإسلامية فى ظل الدولة العثمانية، رغم الضعف والحملات التى وجهت إلى تلك الدولة إلا أنها كانت تسير على نهج الشريعة الإسلامية.

وإذا لم تكن الشريعة مطبقة إبان الدولتين الأموية والعباسية فكيف تحققت لهما هذه الدرجة من الرقى الحضارى فى الطابع الإسلامى الذى لا مراء فيه .

إن الحكم على أزهى عصور الحضارة الإسلامية دون أن نستند إلى أى إحصاءات دقيقة عن الحياة الاقتصادية والتشريعية لا يستطيع أن يكشف عن مدى التعارض بين الشريعة المطبقة والحياة الاقتصادية المزدهرة التى ما كان لها أن تبلغ هذا المدى إلا فى حماية الشريعة الإسلامية.

لقد حثت الشريعة الإسلامية فى كل العصور عقول الناس فأبدعوا وأنتجوا، وبذلك كان محصلة الدولتين تاريخاً عريقا على الرغم من اضطراب الأحوال أحياناً وتصارع القوى نظراً إلى سعة المساحة وكثافة السكان وتعدد انتماءاتهم.

وقد قال ابن خلدون فى صدق : إن العرب لا تقوم لهم قائمة ولا يصبحون قوة يخيفون أعداءهم تحت أى نوع من الزعامات إلا تحت زعامة دينية مخلصة.

أما الخلاف الذى رددته كتب التاريخ عن الخلافات بين الأمراء والملوك فقد قصد به إيجاد دليل على تفسخ المجتمع الإسلامى، وهو دليل كاذب فإن هذه الخلافات لم تكن بهذه الصورة، ثم إن المجتمع نفسه ظل سليما قويا متماسكا، وإن الذين رتبوا هذه الخلافات لم يذكرو المسافات الواسعة بينها أو الإيجابيات العديدة خلال أربعة عشر قرناً.

٥ ـ تدمير الصحابة والشخصيات الإسلامية.

عمد كتاب الغرب إلى إشاعة روح الانتقاص والنقد والسخرية لعدد كبير من الشخصيات الإسلامية البارزة استمداداً من بعض كتب الصراع بين الفرق أو كتب الأدب أمثال الأغانى وغيرها، وقد أخذ هذه الخيوط أمثال جرجى زيدان فى قصصه الزائفة وفيليب حتى وطه حسين.

وقد عمد فيليب حتى إلى اتهام الصحابة بالاتفاق حول موضوع السقيفة، فكانت المبايعة مطابقة لمشروع دبر من قبل أبى بكر وعمر وأبى عبيدة وذلك محض اتهام كاذب متخيل.

كذلك اتهام خالد بن الوليد بقتل مالك بن نويرة من أجل تزوج امرأته، وقالوا إن عبد الملك بن مروان بنى قبة الصخرة ليحول الحجاج من مكة إلى بيت المقدس، كما

وجهت تهم إلى عبد الملك وابنه الوليد وهشام اعتماداً على روايات ضعيفة مما جمعه الأصفهانى فى كتابه الأغانى.

كما ربط هارون الرشيد بكتاب ألف ليلة.

أما صلاح الدين فقد وصف بأوصاف لم تعرف عنه كقولهم بأنه كان يتظاهر بأنه نبى غيور، أما محمد الفاتح فقد وصف بأنه متصلب الخلق عنيفاً .

وكان كارل بروكلمان يعتبر الحجر الأسود دينا يعبده المسلمون، وأن القرآن انبثق من اليهودية والنصرانية ثم كيفه محمد (صلى الله عليه وسلم) تكييفاً خاصاً وفقاً لحاجات عصره.

وهذا كله محض اختلاق.

وقد رسمت مجموعة من الأساطير الكاذبة.

١ ـ منها أسطورة هارون الرشيد كما رسمتها ألف ليلة وروايات الأغانى للأصفهانى.

٢ ـ وكافور الأخشيدى وقد اعتمدوا فى الحملة عليه على شعر المتنبى .

٣ ـ شخصية قراقوش أحد قواد صلاح الدين اعتماداً على كتاب ابن مماتى (الفاشوش فى حكم قراقوش) .

قال ابن خلدون إن قراقوش كان إلى أمانته صاحب منجزات عظيمة فى مصر .

ولكن لماذا يحاربون هارون الرشيد بهذه العاصفة، حيث يجعلونه رمزاً للرجل الشهوانى الذى لا يكاد يفيق من الخمر وتجرى على لسانه عبارات ساخرة يتخذها وسيلة للنقد الاجتماعى، وفى بعض الأفلام السينمائية تبدو صورته متحللة وسط أصوات ضحكات النساء المحيطات به.

لماذا هذا كله؟ لأنه حارب الروم ووقف منهم موقفا حاسماً.

هذا الرجل الذى كان يحج عاماً ويغزو عاماً، والذى تعرف عنه ثلاثة مواقف :

(١) موقفه من العلم والمعرفة ، إذ أمر ولديه يوما وكان الكسائى العالم كفيف البصر يعلم ولديه، أمر الأمين والمأمون أن يأتيا له بحذائه فحملا الحذاء للمعلم، فسأل سائل

لعله أحد خدم أمير المؤمنين فقيل له: هما أبناء أمير المؤمنين. هذا التقدير العلمى لم يحدث فى تاريخ البشرية ولم يعرف مثله الناس جميعاً.

(٢) أما موقفه السياسى، فعندما تولى الإمبراطور تقفور ووجد أن الملكة كانت تدفع الجزية للمسلمين فأرسل يخبره بأننا لن ندفع لك شيئا، وعليك أن ترسل لنا جزية أنت وأن ترد الأموال التى أخذتها من ملكة الروم فماذا فعل الرشيد :

أرسل برقية : الجواب ما ترى لا ما تسمع.

(٣) وهو الذى قال للسحابة : أمطرى حيث شئت فسيأتينى خراجك.

ومن ذلك ما كتبه بعض العرب والمسلمين حول خلفاء الإسلام أمثال :

جلال عيسى ومحمد أحمد برانق الذى كتب عن مجموعة أمهات المؤمنين، يقول عبد القادر العافية : عندما نقرؤه نجد أن الكاتب ينقل الأخبار من غير تمحيص ولا روية، ولا يكلف نفسه انتقاء الأخبار الصحيحة الموثقة بل ينقل الأخبار التى تتهم الصحابة بالكيد والزور والتحايل واختلاف الوعد.

فهو يذكر (نقمة) السيدة عائشة على سيدنا عثمان، وأنها كانت من المؤلبين والمحرضين عليه. يذكر ذلك فى عبارات صفيقة فى حق سيدنا عثمان ويتعرض لقضية الكتاب الذى تذرع به قتلة عثمان ويؤكد صدور الكتاب عنه وأنه يحمل خاتمه.

وقد ذكر المؤرخون كابن العربى وغيره أن هذا الكتاب مختلق ومزور ومع ذلك يصر الكاتب على نسبته إلى سيدنا عثمان.

ويطلق الكاتب لقلمه العنان لتصوير هواجس السيدة عائشة تصويراً شائنا وهى تفكر فى انتقال الخلافة إلى سيدنا على.

ويذكر أن حب الرسول صلى الله عليه وسلم لفاطمة ملأ قلب عائشة حقداً عليها وعلى زوجها وأولادها، ويقول : لقد كانت فاطمة تعد عائشة ضرة أمها الحقة، وكانت فاطمة تنفس على عائشة حب الرسول لها.

وكل هذا كلام باطل مضلل تورط فيه (برانق) وكان ذلك مصدر اهتمام دار المعارف فى ذلك الوقت بنشر كتبه.

قال ابن حجر عن الإمام أبى زرعة:

(إذا رأيت الرجل ينتقد أحداً من الصحابة فاعلم أنه زنديق).

وقد كان من مؤامرات التغريب التى احتضنها بعض كتاب العرب المسلمين اتخاذ كتب الأدب مصادر للتاريخ الإسلامى ورسم صورة المجتمع الإسلامى اعتماداً على بعض الكتب المسمومة (الأغانى) والكتب اللقيطة (ألف ليلة) وكان أخطر ما فى ذلك الترويج لنظرية تعتمد كتب الأدب فى مسائل التاريخ والفقه، وهذا من أكبر الأخطاء التى اعتمد عليها كتاب الغرب لإدخال السرور على قلوب الأمراء.

ولقد كان كتاب على عبد الرازق عن الإسلام وأصول الحكم، من أكثر الكتب الفقهية اعتماداً على مصادر كتب الأدب.

ومن هذه الأخبار مسألة العباسة وجعفر البرمكى، وحيث تكون هناك عدة روايات فإن سوء النية يدفع إلى تقبل رواية واحدة منها وهى الرواية المتهمة، وترك الروايات المبرئة، وقد جرى انتقاء أبشع الروايات ودعمها بما ورد فى الكتب العربية للتدليل على صحة وجهة نظره.

وواضح فى هذا اتباع هوى النفس مع خبث الغاية وغلبه الحقد والرغبة فى تلوين الحديث بلون منفر.

ومن ذلك اتهام بعض الخلفاء بالمجون وغيره، ويرجع ذلك إلى مصادر ليست موضع ثقة الباحثين وخاصة فى هذا المجال.

مثل كتب الرافضة (أمثال مؤلف الأغانى) أو الحاقدين (مثل ألف ليلة)، والتاج فى أخلاق الملوك للجاحظ والعقد الفريد لابن عبد ربه، وكان أخطر ما فى ذلك من انعدام أمانة النقل والاستشهاد بالآيات القرآنية والروايات التاريخية مع بتر النصوص.

ويرى الدكتور أحمد شلبى أمر الخلافات التى وقعت فى التاريخ الإسلامى بأنها تعود إلى أسباب خارجية أساسها الفرس الذين لم يعتنقوا الإسلام اعتناقاً صحيحاً، وقاموا

بالانتقام من الدولة الإسلامية بوضع الدسائس والفتن، أما الدولة الأموية فقد كتب تاريخها فى عهد الدولة العباسية التى اختلفت مع الأمويين، والمعروف أن تدوين تاريخ الأمويين كتب عام ١٥٠ هـ بينما سقطت الدولة ١٣٢هـ مما جعل الكثيرين عند قراءة تاريخهم يكرهونهم نتيجة للصورة التى رسمت لهم فى العصر العباسى وخاصة بالنسبة لمعاوية وعبد الملك بن مروان والوليد بن عبد الملك.

مع أن هؤلاء شخصيات عظيمة وممتازة خدمت الإسلام فى مختلف المجالات حيث تم فتح الأندلس فى عهدهم، وهم الذين عربوا الدواوين ووضعوا نظام النقود وهكذا.

أما بالنسبة للشبهة التى يرددها التغريبيون عن اتّسام التاريخ السياسى للدولة الإسلامية بكثرة الدماء والصراعات. فيقول الدكتور أحمد شلبى، نؤكد أن ما يقال عن الدماء والصراعات لم يكن صحيحاً تماما، كان يوجد دماء وصراعات ولكنها لم تكن مظلمة تماما، فالخلط الذى يقع فيه الكثير من الباحثين سواء كانوا مسلمين أو مستشرقين أنهم يقارنون العهود الماضية بعصرنا الحالى، وهذا خطأ لأن معايير كلا العصرين تختلف تماماً، ولكن إذا قارنا بين ما حدث فى الدولة الإسلامية منذ ١٢٠٠ سنة، وما حدث فى أوروبا فى ذلك الوقت أو الهند أو الصين نجد أن المسلمين كانوا أكثر تحضراً وأقل توحشاً وسفكاً للدماء، ولو أننا قارنا (**حكم المماليك**) بحكم الملك هنرى فى إنكلترا أو لويس فى فرنسا وغيرهم نجد هؤلاء مفرطين غاية الإفراط فى سفك الدماء.

وهناك خطأ آخر هو أن الذين كتبوا التاريخ الإسلامى ركزوا على العرب فقط، على أن الإسلام امتد حتى الصين والهند وفى أفريقيا والنيجر وموريتانيا.

وخطأ آخر فى كتابة التاريخ تجدونه فى مراجعة الغزوات، لم تكن مذابح كما وصفها بعض المؤرخين، ذلك أن كل الذين قتلوا من المسلمين ١١٢ والكفار ١٢٠ فى كل الغزوات.

أما بالنسبة للدولة العباسية فإن الفرس ساعدوهم على إسقاط الأمويين بعد السيطرة على العباسيين، ولكن هؤلاء كانوا أقوى من الفرس ، وأحب أن أقول أن مؤامرة فارسية هى التى دبرت مقتل كل من : عمر وعلى وعثمان.

أحب أن أنبه أن بلاد الفرس كانت بؤرة الخلاف حيث لم تنس للمسلمين هزيمتها فى القادسية.

٦ : تشويه التاريخ

تتم عملية تشويه التاريخ الإسلامى فى كتابات الغربيين والمستشرقين من عدة جوانب:

أولا : لا يريدون عرض أدوار الجهاد والاستشهاد والبطولة التى قام بها المسلمون فى مواجهة الحروب الصليبية وحروب الفرنجة فى المغرب ومعارك الاستعمار الحديث (وخاصة حرب فلسطين وحرب القنال) ونسبة هذه البطولات إلى آخرين بل إعطاء القائمين بها صورة أخرى مزرية مشوهة، وذلك بالرغم من تأكد المنصفين أن كل حملات مقاومة الاستعمار فى مختلف أجزاء العالم الإسلامى، فى الهند وأندونسيا وبلاد العرب والمغرب كانت تحت لواء الإسلام ومفهوم الجهاد.

ثانيا : الإصرار على تقسيم التاريخ الإسلامى على عصور ودول، وتمزيق وحدته فضلاً عن أنهم لا يعترفون بامتداد الدولة الإسلامية ووحدتها عبر العصور المختلفة منذ نشأتها فى المدينة المنورة، فالدولة الإسلامية ممتدة منذ إعلانها إلى أن أسقطها الاستعمار حين أسقط الخلافة العثمانية على يد صنيعهم مصطفى كمال أتاتورك ١٩٢٤.

ثالثا : الإشادة بالحركات الانفصالية عن جسد الدولة الإسلامية ووصفها بالثورية وإسباغ اسم الدول الاستقلالية عليها، يرجع هذا، إلى أنهم يريدون أن يحكموا على قصور الدولة الإسلامية وإجهاض مفهوم الخلافة والترويج للشعوبية والأممية والضرب على أوتار القوميات والأقليات، وتشجيع تمزيق جسد الأمة الإسلامية وقطع الصلة بين حاضر المسلمين وماضيهم فى حين أن الدولة الإسلامية ممتدة امتداد التاريخ الإسلامى.

رابعاً : ترويج فكرة السبعة آلاف عام وفكرة التراب الوطنى فى محاولة لحجب مفهوم الوحدة الإسلامية الجامعة وتثبيت قواعد الأقليات وتدمير الرابطة الأساسية.

إن قصة السبعة آلاف عام من الأوهام التى ابتكرها دعاة الإقليمية والاعتزاز بالفرعونية، أما أمام البحث العلمى الصحيح فإنها لا تعنى شيئا حقيقيا، فأين وحدة التاريخ أو وحدة الثقافة المتصلة سبعة آلاف عام، لا اللغة واحدة ولا الدين واحد ولا القيم ظل مفهومها ثابتا، وإنما كل شئ قد تغير بالإسلام وبقى شئ واحد هو الحنيفية السمحاء، دين إبراهيم، وهذه لا تمثل مصر وحدها ولكنها تمثل هذه المنطقة كلها التى تحرك فيها إبراهيم عليه السلام وأبناؤه من بعده، ورفع عليها علم التوحيد الخالص، هذه الفكرة لم تعد تجد قبولا بعد أن وضع الإسلام قاعدة الانقطاع الحضارى، وقد تبين أن كل ما قبل الإسلام هو تمهيد للإسلام .

٧ - الحملة على المماليك

اقتحمت أوروبا بلاد المسلمين بثمانى حملات صليبية خلال قرنين من الزمن، فى محاولة للسيطرة على الشام ومصر تحت اسم استرداد قبر السيد المسيح، وكانت مرحلة من مخطط تدمير الإسلام بعد الجولة الكبرى بين عالم الإسلام والدولة البيزنطية خلال أكثر من خمسة قرون .

وقد عمل اليهود جهدهم لنشر الدعاية الفاسدة فى الأوساط الأوروبية ضد الدولة الإسلامية، حتى قامت الحروب الصليبية، وكان القصد الحقيقى مِنها القضاء على التوسع الإسلامى.

وتكشف أن المؤامرة كانت ترمى إلى الترابط مع التتار فى محاولة لحصار الأمة الإسلامية والقضاء عليها.

ولما كان المماليك هم الذين قاموا بالدور الأكبر فى تصفية الوجود الصليبى وطرد الصليبيين من الشرق فقد حمل كتاب الغرب والمستشرقين على المماليك لجهادهم ومقاومتهم للصليبيين والتتار، وحاولوا استخدام بعض كتابات المؤرخين ذوى الغرض ونشر كتاباتهم وتجنيد عدد من الباحثين العرب فى إحياء هذا التراث، وكان فى مقدمتهم ابن إياس وابن تغرى بردى، وهى كتابات مغرضة منقوصة تحاول انتقاص شأن قادة المماليك الذين قاموا بدور ضخم وحاسم فى سبيل استنقاذ الأمة الإسلامية وتصفية الوجود الصليبى فى منطقة الشام، بعد أن امتد أكثر من مائتى عام، وخاصة الدور الذى قام به قطز والظاهر بيبرس وقلاوون وابنه خليل، وهم السلاطين الأربعة المماليك الذين استردوا كل شبر من الأرض العربية، وأخذ فيها هؤلاء الغزاة مناطق شاسعة من سوريا وفلسطين ولبنان والأكراد والتركمان والأجناس المملوكية.

ومنهم من قضى حياته كلها يحارب فى جبهتين إحداهما جبهة التتار والأخرى ساحل فلسطين ولبنان وسوريا، مثل السلطان الظاهر بيبرس وعلى يديه تحررت يافا وحيفا وعكا وحلب وأنطاكية.

وقد حاول كتاب الغرب ترديد مقولة انتقاص المماليك أو الأكراد على أنهم من عنصر آخر غير العنصر العربى، والواقع أن الإسلام لا يعرف هذه العنصرية، ويرى أن كل العناصر الإسلامية من حقها أن تعمل وتتقاسم مراكز النفوذ فى عالم الإسلام مادامت تؤدى واجبها فى الدفاع عن هذه الأمة.

والواقع أن المماليك وقفوا فى وجه القوات الأجنبية التى تقع فعلا ضمن الاحتلال الأجنبى والسيطرة الخارجية التى أرادت أن تنال من الإسلام وأهله من خلال الخطرين: التتاروالصليبيين.

ولم يكن عصر المماليك عصر تراجع كما يصوره بعض أعداء الإسلام، بل كان عصر ظهور الموسوعات الكبرى فى الأدب والنحو وعلم الحديث والفقه والتاريخ:

القلقشندى = صبح الأعشى

ابن منظور = لسان العرب

ابن تيمية = الفتاوى

ابن خلكان = وفيات الأعيان

ابن كثير = البداية والنهاية

الذهبى = سير أعلام النبلاء

كما شجع المماليك اللغة العربية لأنها لغة القرآن الكريم حرصاً منهم على تدارك النقص لكونهم غير عرب.

وقد حاول كتاب الغرب ومن ورائهم بعض أوليائهم من الكتاب العرب والمسلمين التحامل على حكم المماليك وهدم مقولة بطولتهم، واستغلال بعض النصوص من كتابات المقريزى فى النجوم الزاهرة والكندى فى كتاب القضاة وتأثر بذلك محمد عبد الله عنان، والواقع أن هناك مرحلة فى ختام عصر الدولة العثمانية كان للمماليك بعض المواقف التى تؤخذ عليهم، ولكنها لا تنقص من الدور الضخم الذى قام به بيبرس وقطز وقلاوون فى مواجهة الصليبيين والتتار.

٨ ـ القرصنة الأوروبية والجهاد البحرى الإسلامى

حاول مؤرخو الغرب إطلاق لفظ (قرصنة) على العمليات الحربية الإسلامية التى وجهوها ضد السفن الأوروبية وغيرها التابعة لأعداء الإسلام، فى حين أن هذه الحملات الحربية الإسلامية كانت موجهة بالدرجة الأولى للدفاع عن العقيدة الإسلامية وأمن المسلمين، ولم تكن موجهة أو مستهدفة بسبب ما تحمله سفن الغير، فهى جهاد بحرى إسلامى بامتداد الجهاد الإسلامى من الأرض إلى البحر، لأن المسلمين استندوا إلى مبدأ الجهاد الإسلامى رداً على اعتداءات القوى المعادية للإسلام والمسلمين.

وبالرغم من أن أرض العرب والمسلمين كانت محتلة من جانب القوى الأوروبية النصرانية إلا أن المؤرخين الأوربيين أطلقوا على عمليات دفاع المسلمين والعرب عن أرضهم وحياتهم ضد أعدائهم اسم (قرصنة) بينما هى فى الواقع دفاع مشروع عن الأرض والعرض وجهاد إسلامى.

ومن هنا لا يمكن أن يطلق على العمليات الحربية للبحرية الإسلامية أنها عمليات قرصنة غير مشروعة فى حين أنها عمليات جهاد إسلامى بحرى من أجل الإسلام، وضد دعوى معادية متربصة بأرض المسلمين.

«رأفت الشيخ»

❑ ❑ ❑

وهكذا يحاول كتاب الغرب قلب الأمور واتهام الدفاع المشروع عن النفس وتسميته باسم القرصنة التى كانوا يقومون بها ضد سفن المسلمين وضد المهاجرين من الأندلس بعد سقوطها فى أيدى الفرنجة.

ويؤكد الدكتور رأفت الشيخ أن العمليات التى قام بها المسلمون فى قيادة البحر المتوسط ضد سفن أسبانيا والبرتغال وفرسان القديس يوحنا طوال الفترة من القرن الخامس عشر إلى التاسع عشر كانت جهاداً بحرياً إسلامياً جاءت بداية رداً على اعتداءات تلك القوى المسيحية الصليبية على المسلمين فى أسبانيا وملاحقتهم أثناء فرارهم من الاضطهاد إلى أقطار شمال أفريقيا العربية الإسلامية.

هذه العمليات بين البحرية العربية (الإسلامية) والبحرية الأوروبية إنما حدثت من منطلق دفاع العرب والمسلمين ضد أطماع الأوربيين الصليبية وروحهم العدوانية لكل ماهو إسلامى، صورها بأنها ثأر من العرب والمسلمين الذين تجرءوا يوما مافغزو الأرض الأوربية.

وكان من بين دوافع ما سمى (حركة الكشوف الجغرافية) التى بدأت من القرن الخامس عشر على أكتاف البرتغاليين والأسبان محاربة الإسلام والمسلمين فى أفريقيا وفى البحار الهندية، ومن ثم تم للبرتغال والأسبان الاستيلاء على المدن العربية بشمال أفريقيا فى القرنين ١٥، ١٦ مثل مدينة سبتة المغربية والمرسى الكبير وحجر باديس ووهران وبجاية بالجزائر وطرابلس الغرب.

وقد تذرع المسلمون بحق الجهاد الإسلامى فى مقاومة القوى المسيحية الغازية،بل فى مهاجمة سفن الدول الأوروبية فى البحر المتوسط واستمرار هذا الهجوم حتى ظهرت قوة الدولة العثمانية التى استعان بها المغاربة كدولة إسلامية قوية للوقوف أمام القوى المعادية للمسلمين.

وقد أطلق المؤرخون الأوروبيون على دفاع العرب والمسلمين عن أرضهم وحياتهم ضد أعدائهم أنها عمليات قرصنة بينما هى فى الواقع دفاع مشروع عن الأرض والعرض وحرب وجهاد إسلامى.

ولم ينته الصدام البحرى بين سفن المسلمين المغاربة وسفن القوى الأوروبية المتحالفة إلا بوقوع أقطار الشمال الأفريقى تحت الاحتلال الفرنسى والإيطالى.

٩ - الحملة على الدولة العثمانية

لم يوجه كتاب الغرب ومستشرقوه حملة أشد ظلما على الدول الإسلامية فى تاريخها كله كما فعلوا فى الحملة على الدولة العثمانية.

ومرد ذلك واضح، فإن الدولة العثمانية هى التى استولت على القسطنطينية والتى أوغلت فى أوروبا قروناً متعددة.

ويرى بعض المؤرخين أن هذه الحملة هى نتاج طبيعى للصراع السياسى والصدام بين الشرق والغرب، فمثلاً تجد مؤرخاً كبيراً مثل (أرنولد توينبى) يتساءل متعجباً :كيف استمرت الدولة العثمانية ستة قرون وهى الدولة التى أقامها البدو القادمون من سهوب آسيا الوسطى والتى حكمت إمبراطورية ضخمة بقوة السلاح، والذين انتقلوا من رعاة البقر إلى رعاة البشر.

ويرى أن استمرارها يتناقض بوضوح مع القاعدة التى توصل إليها خلال استقرائه لتاريخ الحضارات التى تؤكد انهيار دولة البدو، فيتوصل إلى تفسير بأن نظام الإنكشارية القائم على استخدام الرقيق هو الذى ساهم فى استمرار هذه الدولة، وأنه عند قضاء السلطان محمود على هذا النظام عام ١٨٢٩ بدأت الدولة تتصدع.

أما برنارد لويس (اليهودى) فيخالفه ويدرك سر استمرار وقوة هذه الدولة حين يقول : نشأ الإسلام في بلد صغير وبين شعب خرج حديثاً من نطاق البداوة فكان العامل العام

فى قيام هذه الدولة، ويؤكد على هذا التفسير عندما يورد رسالة بعثها كوجوبيك إلى السلطان مراد الرابع ١٦٣٠ م يقول فيها :

إنه منذ عهود خلفاء الإسلام الأوائل لم تكن هناك أية سلالة من الحكام أكثر ولاء وإخلاصاً للإسلام من السلاطين العثمانيين، ولا أبدت أى منها احترام مبادئ الشريعة ورفعتها كما أبدى هؤلاء السلاطين. ويقول: إن الأتراك الذين دخلوا القسطنطينية فاتحين لم يكونوا البدائيين المتوحشين كما صورهم بعض كتاب الغرب، بل كانوا حملة وورثة حضارة قديمة ورفيعة.

وهكذا ظلت نظرية البدو المتوحشين تتردد بين كتاب الغرب فى محاولة لانتقاص شأن الدور الخطير الذى قامت به الدولة العثمانية فى حماية الإسلام من حملات الغزو الغربى خلال أكثر من أربعمائة سنة.

ولقد كانت الحملة المثارة على الدولة العثمانية تعمل فى أربعة ميادين:

١ ــ توجيه تهم الانتقاص إلى الأمة التركية.

٢ ــ محاولة إيقاع الخلاف بين الأتراك والعرب.

٣ ــ إثارة الحملة الضارية على الدولة العثمانية لسيطرتها على أوروبا.

٤ ــ الاهتمام بالمؤرخين الذين عاشوا عصر المماليك المتأخر.

❑ ❑ ❑

ولقد كتب الأتراك العثمانيون تاريخاً ناصعاً فى مقاومة الغزو الغربى وحماية أرض العرب والمسلمين : ذلك الدور التاريخى الذى أداه العثمانيون فى سبيل حماية ديار الإسلام ورفع رايته، أما عظماؤهم الذين نذروا أنفسهم لدين الله، وكانوا يعتزون بلقب الغازى بمعنى المجاهد من عثمان الأول إلى محمد الثانى فاتح القسطنطينية إلى السلطان سليم الذى لمّ شمل الديار المتغيرة والسلطان سليمان القانون الذى صد زحف البرتغاليين إلى مكة والمدينة.

❑ ❑ ❑

ولقد استعملت أوروبا عدة أسلحة لتدمير الدولة والخلافة، وأدخلت إلى قصور الأمراء جاسوسات جميلات من أجناس مختلفة فرضت عليهن إخفاء هويتهن، والعمل مع الأجهزة التى فرضها الأوروبيون على قصور الأمراء، وقد أحدث هذا الاتجاه آثاراً بعيدة المدى إذ إن كثيراً من الجاسوسات قد أصبحن من زوجات الأمراء ومن ثم أصبح لهن

سلطان مفروض، وكان لهذا آثاره فى ذريتهم التى تولت الملك من بعد وهى آثار خطيرة، وبما كان يقع من مؤامرات بين ولاءات مختلفة لجاسوسات أرمنيات أو فرنسيات أو صقليات.

وقد كتبت فى هذا الشأن كتابات كثيرة يظلها الحقد وتملؤها المبالغة، ويحاول كتاب الغرب رسم صورة مزرية لهذا المجتمع، وقد جاء هذا التأثير الخطير فى حالة ضعف الدولة وفى مراحل تمزقها وانحدارها.

وقد ركز كتاب الغرب على هذه المعانى وتوسعوا فيها وأحيوا كتابات قديمة ليس لها أى قيمة تاريخية، كما عنوا بما كتبه ابن إياس وابن تغرى بردى (وهم مؤرخون إقليميون) خضعوا لسيطرة الحكام فى ذلك الوقت فكتبوا تاريخ مصر والشام على نحو تبدو فيه الدولة العثمانية، وكأنها قادت البلاد العربية بالسلاسل وهو ما يطلق عليه كذبا (الاستعمار العثمانى)، وهى كلمة مضللة ثبت أنها لم تكن موجودة فى هذا التاريخ وإنما ظهرت بعد ذلك، ولم تكن العلاقة بين البلاد العربية وبين الدولة العثمانية إلا علاقة (الوحدة الإسلامية) والإخاء الإسلامى واحتماء المسلم بأخيه المسلم فى مواجهة الخطر الصليبى الزاحف من الغرب، وقد قامت الدولة العثمانية فعلا بحماية الشام ومصر ثم كان لها دورها الكبير فى حماية تونس والجزائر والمغرب مما يصوره المستشرقون بأنه تسلط واستعمار.

ولا ريب كان الغربيون ولا يزالون يكرهون الدولة العثمانية التى استولت على القسطنطينية واقتحمت الغرب حتى وصلت إلى أسوار ڤيينا وأقامت فيه أكثر من أربعمائة عام.

وهم من أجل ذلك يحملون عليها ويزيفون تاريخها ويستقطبون بعض رجال القلم من العرب ليوقدوا هذه النيران فى وجه دولة حمت الإسلام وحملت لواءه فى قلب أوروبا على نحو كريم، فلماذا يكره العرب والمسلمون هذه الدولة، ويرددون حولها اتهامات زائفة ثبت كذبها وتضليلها.

❑ ❑ ❑

ولقد كان أكبر أهداف الغرب هو ضرب الوحدة القائمة بين الترك والعرب من ناحية وبين الترك والفرس من ناحية أخرى، وقد استطاع الغرب بأساليب التآمر والمكر ضرب الوحدة القائمة بين العرب والترك معتمداً على موجات التنافر التى كانت تظهر

بين وقت وآخر فى الوقت الذى لم ينتبه فيه المسلمون إلى أبعاد المؤامرة وإمكان إقامة تفاهم وتلاق بين القوميات المختلفة.

وما يزال هذا العمل ممتداً فى الصراع بين إيران والعراق ونشأة أحزاب سياسية تحارب الوحدة الإسلامية وتحمل روح الصراع بين العرب والفرس وإعلاء شأن القوميات..

ولقد ظلت الدولة العثمانية منذ نشأتها ١٥١٧ إلى ١٩٢٤ إحدى العقبات الرئيسية أمام أوروبا، وعند ضعفها أصبحت المسألة الشرقية ضاغطة على السياسات الأوربية، وقد قامت الخلافات بين الدول الأوروبية على وراثة رجل أوروبا المريض، وكانت الهزائم قد بدأت بعد فشل حصار ڤينا الثانى ١٦٨٣ واستمرار التراجع طيلة القرن ١٨ واستولى الروس على الساحل الشمالى والشرقى للبحر الأسود.

❑ ❑ ❑

وقد وصف كتاب الغرب العصر العثمانى بالاستعمار والاحتلال ولو أنهم استوعبوا حقيقة امتداد تاريخ الدولة الإسلامية عبر التاريخ لأدركوا أن العثمانيين يمثلون عهداً من العهود التى عملت على إقامة الوحدة الإسلامية التى يجب أن ينضوى تحت رايتها كل المسلمين، ولما وصفوها بأنها دولة معتدية.

ولقد كان دور العثمانيين فى تجديد شباب الدولة الإسلامية فى المشرق واضحاً فى الوقت الذى كان الفرنجة يقومون فيه بالعدوان ضد مسلمى الأندلس وبسط نفوذهم على البلاد التى دانت بالإسلام.

وقد تمكن العثمانيون من إسقاط عاصمة البيزنطيين القسطنطينية ١٤٥٣ ووصلوا إلى أسوار ڤيينا ثم اتجهوا شرقاً ليوحدوا العالم الإسلامى (مصر والشام والحجاز فالمغرب العربى فإيران فاليمن)

وكانت الدولة العثمانية أطول الأسر الإسلامية حكماً.

لقد ملأ كتاب الغرب وأتباعهم من العرب مؤلفاتهم حديثاً ظالماً عن الدولة العثمانية والأتراك، متجاهلين ما قام به العثمانيون من وقف زحف الجيوش الأوروبية الجرارة، التى أقبلت لتنقض على عالم الإسلام.

١٠ ـ الخلافة

وكانت المؤامرة على الدولة العثمانية هى المدخل إلى إسقاط الخلافة الإسلامية والتمكين للنفوذ الصهيونى بالسيطرة على فلسطين، وقد قام السلطان عبد الحميد بدور ضخم لا يستطيع التاريخ أن ينساه أو يتجاهله فى رد كيدهم، فأسقطوه.

ولقد كان إسقاط النفوذ الأجنبى للخلافة الإسلامية عام ١٩٢٤ حدثاً خطيراً مازال فى حاجة إلى دراسة واسعة، وتقييم كامل، وقد جاء إلغاء الخلافة فى أعقاب رفض السلطان عبد الحميد بيع فلسطين لليهود وتهديد الزعيم اليهودى، (قرصو) رئيس المحفل الماسونى فى سالونيك له بقوله:

«سترى كم يكلفك هذا الرفض»

لقد كانت الخلافة العثمانية الإسلامية على الرغم من ضعفها وعلاتها الكثيرة ـ كما يقول كمال المنيجى ـ هى الراية التى اجتمع عليها المسلمون والتفوا حولها، وهى الرباط الوحيد الذى كان يجمع المسلمين فى العالم، والذى انقطع بعد إلغاء الخلافة فتمزقت الأمة الإسلامية الواحدة إلى أكثر من خمس وأربعين دولة، وبعد أن هزمت تركيا فى الحرب العالمية الأولى اندفعت جيوش أوروبا المسيحية إلى احتلال العراق وسوريا ولبنان وليبيا،وأقاموا ذلك الكيان الغريب فى أرض فلسطين وما كانوا يستطيعون ذلك قبل إلغاء الخلافة.

١١ ـ الحملة على المماليك والعثمانيين

ركز كتاب الغرب (المستشرقون والمبشرون جميعاً) على قيادة حملة شديدة الخطر على المماليك والعثمانيين : وصف فيها المماليك بالظلم والجهل ووصف العثمانيون بالقسوة، وادعوا أن الأتراك حملوا إلى العرب التخلف والجمود، وأنهم كانوا سبب التأخر الذى وقع بالمسلمين، وهم فى ذلك غير صادقين أو منصفين، وإنما هى محاولة للاتهام لفئتين من أكرم الفئات الإسلامية على الله، ومن الذين قاموا بدور عظيم فى حماية الإسلام ورد أعدائه وتحريره من نفوذ التتار والصليبيين فقد كانوا مجاهدين، وهبوا أنفسهم لحمل لواء الجهاد فى سبيل تحرير الأمة الإسلامية.

ولكن الخطة هى جزء من مؤامرة النفوذ الأجنبى، ومعلم من معالم التغريب الذى يرمى إلى التركيز على العثمانيين والمماليك، والهدف هو تسميم الآبار حتى تظل الفجوة قائمة بين العرب والأتراك وهما عنصرا الأمة الإسلامية الذى ألح عليها النفوذ الأجنبى لهدم الوحدة الإسلامية التى أقامتها الدولة العثمانية أكثر من أربعمائة عام ولإسقاط الخلافة الإسلامية ولإلغاء مفهوم الجهاد الذى عرفه المسلمون وقاموا به حين وصلوا بجيوشهم إلى أسوار ڤيينا فى قلب أوروبا مرتين بعد أن وصلوا من ناحية الأندلس قبل ذلك إلى نهر اللوار.

لقد عرف النفوذ الأجنبى أن مدخله الأساسى لهدم الوحدة الإسلامية هو إسقاط الدولة العثمانية وهزيمتها وهو المخطط الذى استمر الغرب بحقده وتعصبه فى تغذيته أكثر من مائتى عام بهدف تدمير الرابطة التى أقامتها الدولة العثمانية.

إن دعاة القوميات الذين أنشأتهم القوى الأجنبية وغذتهم بالأحقاد نحو الوحدة الإسلامية هم الذين لا يتوقفون عن الهجوم على الدولة العثمانية والمماليك، وهو سلاح مايزال مشهراً بأيدى أعداء الإسلام وخصوم الخلافة والنظام الإسلامى، يخفون وراءه كلمات براقه عن الإسلام لا تخدع أحداً، ومنهم من هم دعاة لأحزاب قامت على عداوة الإسلام أساساً واحتوت عناصر من الفرق الحاقدة التى جددت نظريات قديمة بائدة والتى لا تريد أن يقوم كيان إسلامى جامع لأنه يقضى على نفوذها الذى امتلكته بالاغتصاب والسرقة والخديعة وبالولاء للقوى الأجنبية التى تريدها قائمة حتى يتحقق لها دائما تمزق الجبهة الإسلامية.

١٢ ـ معارضة الوحدة الإسلامية

يقول أحد الباحثين : هذه الحملة المركزة على الدولة العثمانية وعلى المماليك هى حملة يراد بها الحيلولة دون قيام الوحدة الإسلامية مع نسيان الدور الخطير الذى قام به المماليك فى سبيل تحرير أرض الإسلام من الصليبيين والتتار، وهو الدور الذى قام به الظاهر بيبرس .

وكذلك كانت الحملة على كل ملون والادعاء بأنه عبد، فى سبيل الحيلولة دون

وحدة مصر والسودان، وما يزال الاستعمار يعمل على إثارة الأحقاد بين العناصر المختلفة: البربر فى الجزائر، الأكراد فى العراق.

وكذلك هناك الدعوة إلى تصنيف مفكرى الإسلام إلى أصلهم الأول، فيقال أن الفارابى تركى والغزالى فارسى، ومن هذا التشكيك فى نسب جمال الدين الأفغانى وهل هو سنى أم شيعى، أفغانى أو إيرانى.

❑ ❑ ❑

وعندما تجددت الدعوة إلى الوحدة الإسلامية تحت أسماء كثيرة منها الجامعة الإسلامية، وهو الاسم الذى أزعج أوروبا، وكانت العروة الوثقى هى لسانه الناطق وكانت القضية مطروحة على أساس أن : (الدين الإسلامى هو العروة الوثقى التى تجمع شتات المسلمين وتنظم شملهم وتمحو ما بينهم من تفاضل الأجناس والأقوام جاءت شريعته وافية بوضع حدود المعاملات بين العباد وبيان الحقوق كليها وجزئيها للحاكم والمحكوم، فقضت على فوارق الجنس وفواصله ولم تدع مجالاً للمنافرة والتسابق.وكان جمال الدين الأفغانى يقول عن الوحدة الإسلامية:

«لا ألتمس بقولى هذا أن يكون مالك الأمر فى الجميع شخصاً واحداً فإن هذا ربما كان عسيراً، ولكن أرجو أن يكون سلطان جميعهم القرآن ووجهة وحدتهم الدين وكل ذى ملك على ملكه يسعى بجهده لحفظ الآخر ما استطاع فإن حياته بحياته وبقاءه ببقائه».

وكان محمد عبده يقول : « إن المحافظة على الدولة العثمانية ثالثة العقائد بعد الإيمان بالله ورسوله، فإنها وحدها الحافظة لسلطان الدين الكافلة بقاء حوزته»

وقال رشيد رضا : « الاعتقاد بأن الأخوة فى الإسلام تمحو الفوارق الجنسية والوطن يؤلف بين المسلمين جميعاً باعتبارهم أمة واحدة وأنه فى مقدور الشريعة أن توحد بين جميع الأجناس بمساواتها بين المسلم وغير المسلم فى الحكم»

وفى هذه الفترة كانت الدعوة الوطنية مرتبطة بمفهوم الوحدة الإسلامية الجامعة وليست منفصلة عنها وإن كل الحركات الوطنية التحريرية قامت تحت لواء الإسلام.

وربط كرومر بين المعتدلين فى الوطنية وبين كراهيتهم لفكرة الجامعة الإسلامية ورغبتهم فى التعاون مع الأوربيين على إدخال المدنية الأوروبية إلى مصر، وهى ما عبر عنه كرومر فى تقريره سنة ١٩٠٦ (حركة وطنية أقلامية فى مصر مع العامية بديلاً عن العربية).

١٣ ـ الماركسيون والتاريخ الإسلامى

وظف الماركسيون التاريخ الإسلامى لخدمة إيديولوجيتهم فخرجت كتب جامعية أعطت الصحابى الجليل (أبا ذر الغفارى) رضى الله عنه لقب زعيم المعارضة والداعية الأول إلى الاشتراكية، وفسرت حركة الخوارج بتمرد ماكر على الأوضاع التقليدية، أسقط هيبة الخلافة وأرخص دماء الصحابة فدية للتعبير وضريبة للتطور، كما اعتسفت توجيها إيديولوجياً بالغ الغرابة والفحش لحركات المغامرين السفاحين الذين خرجوا على الدين فى العصر العباسى وعاثوا فساداً.

وقد ظهر فى البصرة مغامر ادعى النسب العلوى واندفع مع جماعته كإعصار جامح يخرجون ويذبحون خمس عشرة سنة (٢٥٥ ـ ٢٧٠) هـ وقتلوا ٢٤ ألفاً ـ حركة الزنج هذه تفسيرها الإيديولوجى ثورة على الوضع الطبقى، وفى أواخر القرن الثالث كان ظهور القرامطة بالبحرين ثم اكتساحهم ديار العراق والشام والحجاز حيث انتزعوا الحجر الأسود وحملوه إلى عاصمة ملكهم.

وتفسر هذه الأعمال المخزية فى نظر الماركسيين بأنها حركات تقدمية رائدة لتحرير الناس من أفيون الشعوب.

❑ ❑ ❑

وقد أحدثت نظرية التفسير المادى للتاريخ فتنة كبرى بين أبناء الزمان، رغم ظهور مناقضتها لقانون التطور المقول بأنه دعامة المذهب المادى وجوهر فلسفته، ولم يقدم إلى أبنائنا تفسيراً لتاريخ أمتهم يجلو لبصيرتهم أن الموقع الدينى كان وسيظل أبداً مناط فهم هذا التاريخ وتفسيره.

ومعنى التفسير المادى أو الطبيعى هو تفسير وقائع التاريخ على أنها أفعال وردود أفعال متبادلة بين أفراد الإنسان أو الأمم فى عالم أرضى مغلق هو كل ما يوجد ولا توجد وراءه قوة أخرى.(حيث يستبعد أى مبدأ روحى أو إلهى)

ولعل أوضح مثل للتفسير المادى للتاريخ هو التصور الماركسى أو الشيوعى:

١ ـ أن الناس وحدهم هم الصناع الحقيقيون للتاريخ وخاصة الطبيعة الكادحة العاملة.

٢ ـ أن الإنتاج المادى والوضع الاقتصادى يشكلان أساس التطور الاجتماعى .

٣ ـ صنع الشعب للتاريخ ليس بمحض الإرادة وقوة الاختيار، وإنما هو رهن الظروف الموضوعية، وفى مقدمتها حالة الإنتاج المحددة (والضرورة التاريخية) .

٤ ـ كلما تقدمت البشرية مادياً زاد دور الشعب فى صنع التاريخ .

٥ ـ الضرورة والحتمية التاريخية لا يمكن أن تتخلف.

وهذه الأمور كلها مضطربة ومتناقضة وترمى إلى شئ واحد هو تجاهل الإرادة الإلهية المحركة لكل أمر فى هذا الكون، هذا فضلاً عن التناقض حيث اعترفت بدور القادة فى صنع التاريخ واعتبار ظهور الشخصيات العظيمة ضرورة تاريخية.

وأخطر ما هناك من الخطأ هو الزعم بأن الاقتصاد يفسر كل شئ فى حياة الإنسان .

❑ ❑ ❑

وتختلف نظرة الإسلام إلى التاريخ بالمقارنة مع نظرة الماديين واليهودية والمسيحية حيث تتميز نظرة الإسلام إلى التاريخ عن سائر النظريات الأخرى بأمرين : (أولاً) بشمولها، (ثانياً) بواقعيتها.

وتقوم نظرة الإسلام إلى التاريخ على أساس مفهوم الإسلام للإنسان وعلاقته بالله تبارك وتعالى وبالكون، فالإسلام يقدم مفهوماً متميزاً يختلف عن نظرية (وحدة الوجود) التى تقول أن الله والعالم والإنسان شئ واحد، أو نظرية الحلول (حلول الله «جل شأنه» فى الكون أو الإنسان) ونظرية وحدة المصدر الذى يقضى بوجود حقيقة واحدة، وتلغى الوجود الشخصى الفردى للظواهر.

ففى الإسلام تقوم العلاقة بين الله تبارك وتعالى والكون (ومعه الإنسان) على أساس علاقة مخلوق بخالق عظيم ذى سيطرة كاملة شاملة، وفى كل ملكه، ففى كل طاقة وفى كل عضو من الكيان الإنسانى شاهد ناطق بهذه العبودية وهى عبودية لا تفقد الإنسان مقوماته الذاتية التى هى منحة من الله تبارك وتعالى فالإنسان، يصنع تاريخه بحكم الدور الإيجابى الذى يقوم به حيث يستعمل فى صنع ذلك طاقاته وملكاته التى هى من صنع الله تبارك وتعالى.

وقد فصل الإسلام فصلاً حاسماً بين ما لله (جل شأنه) وبين ما للإنسان، يسمى الفرق بين القدم والحدوث، الذى هو عماد التوحيد الأساسى ومن أجل ذلك أقام الإسلام ذلك التكامل الجامع:

ـ أقام العلاقة بين منهج الدين ومنهج العلم.

ـ أقام العلاقة بين العلم والأخلاق.

(حيث يؤدى الفصل بينهما إلى تدهور القيمة الإنسانية فى وجه المخترعات العلمية)

ـ قدرة الله تبارك وتعالى على خرق القوانين والنواميس

ـ تقوى الله فى استهلاك ثمار الأرض ومخزونها.

❑ ❑ ❑

وتلتقى الأديان عند فكرة وحدة التاريخ، بل عند وحدة الحياة من حيث كونها مشروعاً إلهيا ونظاماً سماوياً ينبغى أن يكون مؤدياً إلى غاية محدودة، وهناك خيط عام ينتظم الأديان كما ينتظم السمط الحبات المتناثرة.

ويرجع اختلاف المسيحية الغربية عن هذا المنطق هو لأنها تشكلت فى ظل مفاهيم الفلسفة الرومانية الغربية، وكان تجسيد الوجود الإلهى عن طريق الحلول هو الذى جعلها مغايرة للمفهوم الأصيل، ثم تأتى فكرة الفداء الإلهى والصلب حيث حملت فكرة أن السيد المسيح قد جاء فداء للبشر عن خطيئة آدم، وبذلك جاء الخطأ فى تغيير صفة السيد المسيح النبى المرسل إلى ثالث ثلاثة أو ابن الله (جل شأنه عن ذلك وتعالى) .

والصعوبة التى تواجهها المسيحية هى إصرارها على فكرة الأقانيم وفكرة الحلول(أى حلول اللاهوت فى الناسوت) .

❑ ❑ ❑

لقد حاول الكتاب الماركسيون خلق جو من (المراوغة) و(المبالغة) والمغالطة فى سبيل إثارة الشبهات والتشكيك فى الحقائق الأصيلة.

(١) فهل كانت حروب الردة حقيقة تمثل ارتداداً عن الإسلام، إن دوافعها (اقتصادية) مالية ولا صلة لها بالعقيدة، أم أن بواعثها العصبية القبلية التى أنفت أن تبقى فى قريش بالحكم، أم كانت ثورة دينية مضادة، وهل يستوى شعار الخليفة الأول (لو منعونى عقالا) حياة عشرات المئات من خيرة الصحابة والقراء الذين استشهدوا.

وماذا عن فتوى الخليفة عثمان بجواز توزيع الزكاة فى أماكن استحقاقها دون داع لنقلها إلى المدينة المنورة.

(٢) ومنها موضوع الخوارج : ذلك أن كتب التاريخ والفرق تصورهم جميعا غالين ومعتدلين على أنهم سفاحون ومخربون مع أن من رؤسائهم صحابة أجلاء اختار الرسول الرفيق الأعلى وهو عنهم راض.

ومنهم من حضر بيعة العقبة وبيعة الرضوان وشهد المشاهد كلها معه عليه الصلاة والسلام، ومنهم تابعون كبار عرفوا بالصلاح والتقوى.

(٣) ومسألة الأرض المفتوحة التى رفض الخليفة عمر بن الخطاب تقسيمها على جنود الفتح رغم وجود آية صريحة تنص على ذلك، ويرى الماركسيون أن عدم توزيع الأرض كان أحد الجذور المبكرة للفتنة الكبرى ظل كامناً فى الصدور.

وكل هذه المسائل والشبهات المثارة كان موضوع بحث ومراجعة من جانب الفقهاء المسلمين فى مجال المعاملات، وقد وصلوا فيها إلى آراء إيجابية صحيحة، ولكنها الفتنة العارمة المتدفقة وراء كل شبهة لإثارة الخلافات وفتح أبواب الأحقاد والصراع ـ إن مفتاح هذه الأمور كلها هى أولاً الإيمان بالغيب والوحى وتكامل النظرة الإسلامية بوجهيها (مادية وروحية) فى آن.

أما إعلاء مفهوم التفسير الاقتصادى أو المادى أو الصراع الطبقى فإن ذلك لا يحقق شيئاً.

❑ ❑ ❑

ومنهم من أرجع أسباب القتال بين المسلمين والمشركين إلى أسباب مادية إذ يرون أن العامل الاقتصادى هو الأساس، ويرجعون معارضة المشركين للدعوة والخلافات التى جرت بين الصحابة وبينهم هى نتيجة الصراع الطبقى.

وذهب بعضهم إلى تقسيم الصحابة إلى : يمين ويسار (أحمد عباس صالح)

فقد جعل عثمان وطلحة والزبير من اليمين وعلياً وعماراً وأبا ذر من اليسار و أن أبا بكر وعمر من الوسط، وجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم على رأس قائمة اليسار، ولكنه هادن اليمين تأليفاً لهم وأملاً فى كسبهم.

ويرون أن مقتل عثمان هو ثورة مسلحة من اليسار بعد أن سيطر اليمين على الحكم، وهذه كلها ترهات وأهواء ومحاولة وضع نظام ربانى كالإسلام فى إطار نظريات ماركسية علمانية ملحدة لم تلبث أن سقطت وانهارت لأنها لم تقم على أصل وطيد من الحق أو الفطرة أو العلم.

ومن ذلك مفاهيم عبد الرحمن الشرقاوى: الذى رسم صورة لمجتمع الجزيرة العربية جعلها تتمثل فى مصارف، يوظف التجار فيها أموالهم، بساتين تنتج النخيل وترعى فيها الخنازير وتستقطر الخمر. حيث كبار المرابين من أصحاب القوافل والمصارف والخمارات، وقد كانوا يسرقون المدين العاجز عن الوفاء، وبيوت فاحشة مسرفة لبيع المتعة للتجار الوافدين، وهى صورة غريبة كل الغرابة منقولة عن التراث اليونانى وليس لها صلة مطلقاً بجزيرة العرب.

❏ ❏ ❏

ولقد حاولوا عرض تاريخ الإسلام على أنه معارك وحروب ودماء ومؤامرات بعيدة عن روح الإسلام، وعملوا على التشكيك فى الدعوة والوحى والقرآن والطعن فى خلفاء الإسلام وقادتهم وإخضاع تاريخ الإسلام للمناهج التى يدرسون فى ضوئها التاريخ الغربى من غير أن ينظرو إلى الفروق العميقة بين التاريخين من حيث الظروف والطبيعة والمقومات ففسروا تاريخنا تفسيراً مادياً.

وأقل ما يصل إليه التفسير المادى للرسول صلى الله عليه وسلم أن يجعل منه رجلاً عبقرياً كسائر العباقرة أو بطلاً كسائر الأبطال مع تجريده من أهم خصائصه، وهى صفة النبوة وتجريده أيضاً من المعجزات.

يقول العلامة تريتون: إن صح فى العقول أن التفسير المادى يمكن أن يكون صالحاً فى تعليل بعض الظواهر التاريخية الكبرى وخاصة فى أسباب قيام الدول الكبرى وسقوطها فإن هذا التفسير المادى يفشل فشلا ذريعاً حين يرغب فى أن يعلل وحدة العرب، وغلبتهم على غيرهم وقيام حضارتهم واتساع رقعتهم وثبات أقدامهم.

يقول الدكتور عدنان زرزور : إن الماركسية بفلسفتها وتفسيرها الاقتصادى هى واحد من أوهام الأوروبيين عموماً فى وضع أنفسهم موضع العالم جغرافياً وتاريخياً وحضارياً.

ولا شك أن المادية الجدلية التى يراد لها أن تصبح دين العالم الإسلامى أسلوب مترد يصيب الكون والعقل وينسحب فى بعض جوانبه الرئيسية على التاريخ، وهو يتضاءل حتى يجعل التاريخ الإنسانى كله ليس أكثر من صراع على الطعام والشراب.

❑ ❑ ❑

وعندما يحاول ماركسى عتيق الدس والحقد أمثال صلاح عيسى عندما يطرح سمومه فى كتابته عن (مرج دابق) نجده يصطنع أكبر قسط من المراوغة لإقامة تصور باطل مليء بالمغالطة.

فالحقيقة أن دولة المماليك لم تكن على حافة الانهيار عندما جاء السلطان سليم، بل إن الوضع كان يختلف، فقد كانت المؤسسات فى وضع حسن وأن أهل الشام ومصر قد مارسوا قسطاً غير قليل من الحرية فى تصريف شئون البلاد، ولم تكن هذه الحرية للمسلمين فقط بل كان يتمتع بها ويمارسها أهل الذمة من اليهود والنصارى ، وكان هذا سبباً أساسياً للتقريب بينها، وإزالة أسباب العداء ولم يكن هناك اتفاق فيما بين الغورى والشاه إسماعيل ملك الصفويين ـ كما يدعى الكاتب الماركسى ـ فضلاً عن أن مدن الشام ومصر ابتهجت بانتصار العثمانيين على أعدائهم من الصفويين.

وقد ركز صلاح عيسى كثيراً على الجنايات والمؤامرات التى زعم أن المماليك حاكوها لبعضهم البعض وخاصة اتهامه جابراً بالخيانة للسلطان الغورى وانضمامه للعثمانيين فى معركة مرج دابق وهو أمر لم تؤكده المصادر التاريخية التى يعتمدعليها.

كذلك ادعاؤه بأن اكتشاف فاسكو دى جاما لرأس الرجاء الصالح وجه ضربة قاسية إلى الدولة المملوكية وهو أمر مبالغ فيه إلى حد كبير .

(٤)
مراجعة عامة

تبين من مراجعة كتابات الغرب والمستشرقين عن الإسلام : أن أعداء الإسلام لم يدخلوا على الإسلام ويطعنوه إلا من باب التاريخ، فلم يستطيعوا أن يدخلوا من باب القرآن الكريم لأن الله تبارك وتعالى حفظه، أو الأحاديث والسنة فقد كان هناك من يدافع عنها.

ولقد كان اهتمام المستشرقين بالتاريخ الإسلامى ودراسته يرمى إلى الطعن فى الإسلام وفى سيرة الرسول وسيرة الصحابة.

ويرى كثير من الباحثين أن سياسة الهدم للتاريخ الإسلامى سياسة قديمة بدأت مع انبلاج فجر الإسلام على يد هؤلاء الذين دخلوا الإسلام ليشوهوا تعاليمه بما يدسونه من أفكار وسموم وهم المنافقون، ثم أصحاب الديانات والملل الأخرى الذين ظهروا فى أوائل القرن الثانى من الهجرة على أثر دخول اليهود والنصارى والمجوس والدهريين إلى الإسلام، فهؤلاء دخلوا الإسلام ورءوسهم مملوءة بأديانهم القديمة ولم يدخل الإسلام فى قلوبهم فأثاروا الشكوك والشبهات حول الإسلام.

ظهرت فرق المجوسية والباطنية والشعوبية وأخذت تعمل بالاشتراك مع نتاج ترجمة الفكر اليونانى والفارسى والهندى القديم فأثار ذلك كله جوا مريباً.

وجاء الصليبيون بعد ذلك بقرون فأكملوا السلسلة فى الهجوم على الإسلام ومن بعدهم الاستعمار الأوروبى الذى كان من أكبر أهدافه طمس معالم التاريخ الإسلامى وتشويه صفحاته . وانتقل ذلك إلى المبعوثين الذين خضعوا لبرامج تعليمية كلها طعن فى الإسلام.

❑ ❑ ❑

بدأ المجوس واليهود حملتهم مبكرين وكانوا من أنشط الطوائف كيداً للإسلام وتحريفاً لتاريخه، وعلى رأس هؤلاء (عبدالله بن سبأ) الذى بدأ حملة من الدس والتحريف.

وخطور هذه الفترة تأتى من أن بعضهم ادعى الإسلام كذبا ونفاقاً، واندس بين صفوف المسلمين على أنه منهم مما أعطى لهم الفرصة فى محاولات التغريب.

ثم جاء غلاة الباطنية والخوارج، وهؤلاء دفعتهم أحقاد الشعوبية التى توارثوها إلى تشويه سيرة عظماء المسلمين لدرجة أن طائفة منهم حاولت تشويه صورة الرسول صلى الله عليه وسلم، وآخرين منهم غلفوا حقدهم بتشويه سيرة الخلفاء الراشدين تحت ستار الحب لآل البيت فظهرت روايات تطعن فيهم وفى بعض أزواج الرسول.

ومن هنا فقد كان من الضرورى الالتفات إلى مجموعة من الحقائق :

أولاً : خطر الاعتماد على المصادر الأجنبية ووضع المصادر الإسلامية تحت دائرة الجرح والتعديل، وعدم اعتماد كتب الأدب كمراجع لدراسة المجتمع الإسلامى أو التاريخ الإسلامى، والتنبه إلى مصادر الخلاف فى كتابات العباسيين عن العصر الأموى وكتابات الشيعة فى بعض الظروف عن الحكام الأمويين.

وقد تبين فساد كتابى الأغانى وألف ليلة فى اتخاذهما مرجعاً، لأن كتاب الأغانى يمثل شريحة معينة من المجتمع، وليس المجتمع الحقيقى ولا أغلبه، أما ألف ليلة فهو كتاب لقيط ومجموعة حكايات من عصور مختلفة .

ثانياً : الاهتمام بالدور الذى لعبه اليهود فى التآمر على الإسلام، وإيقاد الفتنة ابتداء من عبد الله بن سبأ ودعوته المستقاة من الفكر اليهودى إلى الوصاية وفتح باب التأويل فضلاً عن الفتنة التى قادها وانتهت بمقتل عثمان.

وقد اتصلت هذه الفتنة خلال معارك التتار والصليبيين.

وقد كشف التاريخ أن غارة التتار على بغداد كانت حملة صليبية اشترك فيها مخططون فى الفاتيكان ومن ساسة أوروبا لتنفيذ الخطة المرسومة، وقد تبين أن زوجة هولاكو كانت نصرانية وأن الهجوم كله كان جزءاً من مؤامرة محبوكة الأطراف.

ثالثاً : الاعتقاد الأكيد بأن هذا الصراع هو بين الإسلام والكنيسة فى الغرب، وحقد غريب على تمكن الإسلام من إقامة دولته الواسعة على أراض كانت مستعمرة للرومان من قبل ولكنها لم تكن ملكاً لها.

وليس هو صراع أوروبى عربى كما يدعى البعض، إنما هو عمل منظم يرمى إلى

تدمير الوجود الإسلامى أساساً ثم تدمير الإسلام كمنهج حياة يطرح الفكرة العلمانية والفصل بين الدين والسياسة.

وقد عملت الكنيسة منذ القدم على يد يوحنا الدمشقى وبطرس المبجل على التشكيك فى قيم الإسلام ودس الأساطير وتوجيه العبارات غير اللائقة إلى النبى والإسلام والقرآن.

وقد كشفت المستشرقة الفرنسية (آن مارى ويلكر) النقاب عن حقيقة الدور الذى تقوم به الكنيسة ولا تزال تقوم به ضد الإسلام والمسلمين، وكيف استطاعت توجيه المستشرقين وكبار الأدباء فى الغرب فى القرون الماضية لخدمة أغراضها فى تشويه الإسلام فى العالم.

وقالت إن الغربيين لا يعرفون عن الإسلام إلا القليل ويجهلون كثيراً من الحقائق عنه وعن نبى الإسلام وهم فى أغلب الأحيان يتجاهلون الحقائق التى تصل إليهم وأن اتهامات المستشرقين تقوم على نظرة عاطفية لا علمية، ويدعون أنهم يصدرون عن موقف علمى عقلانى بينما هم يرفضون الإسلام فى حكم مسبق.

رابعاً : يجمع كل كتاب الغرب والمستشرقين وأتباعهم من العرب على موقف واحد :

هو : إنكار الدين والغيب والروح والوحى.

وإنكار نبوة محمد صلى الله عليه وسلم والوحى الإلهى باالقرآن، والادعاء ببشرية القرآن، وتشكيك المسلمين فى الحقائق الغيبية.

ولقد كان منهجهم فى البحث مغرضاً يقوم على الأهواء والأحقاد وإن كان يغلف نفسه بثوب علمى براق وكاذب فى نفس الوقت، ومن هذا مقولة على عبد الرازق : أن محمداً (صلى الله عليه وسلم) ما كان إلا صاحب سلطان روحى كالخالدين من الرسل لم يقم دولة ولم يرأس حكومة، فرسالته كسابقها : ندع ما لقيصر لقيصر وما لله لله.

أو كما قال خلف الله : إن للمؤمنين أن يؤمنوا ماشاء لهم الإيمان بقصص القرآن، ولكن الباحثين لابد لهم من الشك فيه، أو مقولة طه حسين بأن ما ذكره القرآن والتوراة من وجود إبراهيم وإسماعيل يفتقر إلى التحقيق العلمى.

خامساً : إحياء التاريخ القديم السابق للإسلام (وخاصة تاريخ سوريا ومصر) والترويج لادعاء التوراة بمملكة داود وسليمان، وهى لم تزد فى الحقيقة عن بضع قرى ومواقع ومضارب على طريق القوافل الدولى شرقى البلاد، وأن المساحة التى تنقلوا فيها فى هذه المنطقة لا تتعدى بضعة كيلو مترات.

سادساً : محاولة عزل الإسلام عن حركة المجتمع المعاصر، وقصر تأثير القرآن على العبادات والادعاء بالباطل بأن الإسلام لم يطبق بعد عصرى عمر، ومحاولة القضاء على التصور الإسلامى الجامع بين الروح والمادة، وإنكار مفاهيم الغيب والميتافيزيقا، واتهام العقل الإسلامى بأنه عقل غيبى، وإن العقل التقدمى هو العقل الذى يتعامل مع الأرض والواقع، ووصف الفكر المعادى للإسلام بالفكر المستنير.

سابعاً : محاولة هدم وتدمير أعلام ونوابغ الفكر الإسلامى وتصوير ابن خلدون بأنه مفكر يسارى، واتهام هارون الرشيد بالخمر والنساء، وهو الخليفة الذى كان يغزو عاماً ويحج عاماً، وكان يستثير الوعاظ ويبكى عند النصيحة . ويقوم الليل ويكرم العلماء.

ثامناً: محاولة الادعاء بأن العرب والمسلمين هم أبناء حضارة البحر المتوسط، وان عقلهم يونانى لم يغير القرآن من يونانيته كما لم يغير الإنجيل يونانية العقل الغربى كما قال طه حسين:

وإن الإسلام ليس إلا رسالة روحية لا سياسة فيها ولا دولة ولا حكم بل يأبْعُدَ مابينها وبين السياسة كما ادعى على عبد الرزاق.

تاسعاً : بطلان مقولة حركة الاكتشافات الجغرافية فهى ليست حقيقة تاريخية وإنما هى دعوى ومنطلق للاستعمار الحديث، وهى تمثل الاحقاد الأوروبية فى محاولات البرتغال الالتفاف حول العالم الإسلامى والإساءة إلى المشاعر المقدسة (مكة والمدينة). وكان البرتغال تحت الحكم الإسلامى قبل القرن الثامن الهجرى، ثم بدأت حملة الاستعمار الأولى للوصول إلى الموانئ الساحلية فى الهند والخليج العربى، وتطويق العالم الإسلامى وإنشاء مراكز تجارية تخدم أهدافهم الاستعمارية.

وكانت اعمال البوكرك وفاسكو دى جاما وهنرى الملاح فى السكان العرب والمسلمين غاية فى العنف والقسوة..

وكانت الخطة هى إطفاء شعلة الإسلام وإضعاف قوة المسلمين، وقد كان الزحف لمحاصرة عالم الإسلام: الزحف بالقوى الصليبية عبر البحر المتوسط امتداداً إلى الهند لتدمير مدائن الإسلام تحت اسم استعادة بيت المقدس، وقد تم التآمر بين الصليبيين وبين التتار والبحث عن مواقع تؤازرهم كالحبشة، وغيرها، وكذلك فقد تحالف الباطنية فى بلاد الشام مع الصليبيين ضد صلاح الدين، ومن ذلك ما فعله الأسبان بالمسلمين بعد سقوط غرناطة من إكراههم على التنصر وترك دينهم ثم إخراجهم من بلادهم ثم القضاء عليهم وهم مهاجرون على السواحل.

عاشراً: إطلاق اسماء غريبة لحجب حقائق إسلامية، ومن ذلك ابتداع كلمة (السامية) لحجب الحنيفية السمحاء التى جاء بها إبراهيم عليه السلام فالحضارة السامية إنما هى حضارة إسلامية عربية أساسا يراد حجبها لإبراز مفاهيم وافدة.

وكلمة (السامية) مصطلح أطلقه العالم النمسوى سلوتزر عام ١٨٧١ وهى تسمية لا تستند إلى واقع تاريخى ولا إلى أسس علمية صحيحة، أو وجهة نظر لغوية فهذه الأقوام هى أقوام عربية أساسا.

الفصل الثالث
المؤامرة على التراث الإسلامى

ينظر الفكر الإسلامى إلى (التراث الإسلامى) على أنه عمل العقل المسلم، ونتاج المفكرين المسلمين، استمداداً وتفسيراً على (الميراث الإسلامى) الذى هو القرآن الكريم والسنة المطهرة.

ولذلك فإن المسلمين لا يعطون القداسة إلا للميراث الذى جاء عن طريق الوحى والنبوة، ولكنهم فى نفس الوقت يؤمنون بأن التراث الإسلامى ضوء كاشف للمسلمين على متغيرات عصورهم وبيئاتهم، وما يجد من قضايا يحتاجون فيها إلى التعرف على موقف الإسلام منها، فهم لا يقدسونه ولا يحتقرونه، ولكنهم يضعونه موضعه الصحيح بوصفه العمل العقلى الفكرى الذى قدمه علماء المسلمين ومفكروهم خلال أربعة عشر قرناً، من أجل تطبيق الإسلام وتحكيمه فى المعاملات والعبادات.

والتراث الإسلامى فى الأساس هو تراث الأصالة.

ولكنه اختلط فى بعض مراحل التاريخ بتراث الفلسفات المترجمة (اليونانية والفارسية والهندية)، وما اتصل بها من فكر باطنى ووثنى ومجوسى ومادى.

وهذا كله يحتاج إلى التحذير منه والنظر إليه فى دائرة ظروفه وأوضاعه الخاصة.

كذلك فإن هناك كتابات مرحلة الضعف والتخلف التى مرت بالمسلمين قبل اليقظة الإسلامية، وهذا يجب وضعه فى مكانه الصحيح (وخاصة كتب التفسير فى العصور المتأخرة وغلبة الإسرائيليات) .

ولقد حرص النفوذ الاستعمارى على العمل على إذاعة هذا التراث الزائف وتراث مرحلة الضعف وتوجيه النظر إليه، وفرضه على الباحثين المسلمين الذين يتلقون دراساتهم فى الجامعات الغربية .

وفى نفس الوقت حجب التراث الأصيل ما أمكن ذلك، وذلك جريا مع هدفهم البعيد وغايتهم المسمومة وهى محاولة فرض تصور يوحى بأن نهضة الفكر الإسلامى

بدأت من ترجمات اليونان والغرب فى العصر السابق ومن ترجمة كتابات الغرب فى العصر الحديث.

ومن هنا فإن من أخطر ما نتوجه إليه فى البحث هو التفرقة بين التراث الأصيل والتراث الزائف، من حيث إن التراث الزائف هو ثمرة مفاهيم وقيم وفلسفات تتعلق بأمم وأديان وعقائد مختلفة تماماً عن الإسلام، فقد جاءت قبله وجاء الإسلام لكشف زيفها والتحذير من خلطها مع مفهوم التوحيد الخالص الذى جاء به الإسلام.

وأخطر ما فى قضية التراث الإسلامى أنه تراث جامع (وليس تراثا دينياً كما يسميه التغريبيون) فالإسلام فى كل محاوره يجمع القيم ولا يفرقها، والإسلام يضع كل أنواع التراث العلمى والسياسى والاقتصادى والاجتماعى داخل دائرته، وكلمة التراث الدينى كلمة ماركسية وعلمانية.

ويجب أن يكون معلوماً أن هناك فوارق عميقة بين التراث الإسلامى والتراث العربى الأوروبى (منذ عصر اليونان إلى العصر الحديث) من حيث إن تراث الإسلام مرتبط أساساً بالميراث المقدس (القرآن والسنة) فهو ثمرة النظر والبحث فيها، أما التراث الرمزى فليس مرتبطاً بشئ من أصول الدين الحق، إلا خيوطاً قليلة ضاعت فى غمار مجموعات الأساطير والفلسفات حتى فى اتصالها بالإنجيل والتوراة الحاليين فإنهما ليسا الكتابين المنزلين على النبيين (موسى وعيسى) وإنما هما من كتابات الأحبار والرهبان وقد حملا أهواء ومطامع رؤساء الأديان.

فإذا قيل لنا أن الغرب قد عامل تراثه على نحو من الأنحاء فنحن لسنا فى حاجة إلى متابعة ذلك لسبب واضح أساسى هو الفارق البعيد بين تراثنا الأصيل المتصل بالتوحيد الخالص والألوهية والنبوة والعقيدة والبعث والجزاء والمسئولية الفردية والجزاء الأخروى.

كذلك فإن تراثنا الإسلامى قد جاء نتيجة علوم إسلامية استطاع العلماء استخلاصها من القرآن الكريم والسنة الشريفة. فقد أعطى القرآن للبشرية (بوصفه

الكتاب السماوى الخاتم والذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه) أعطى أصولاً عامة، وترك للمسلمين التطبيق بما يوائم العصر.

ومن هذا التراث الذى قدم الإسلام للبشرية:

١ ـ المنهج العلمى التجريبى.

٢ـ منهج المعرفة ذو الجناحين.

٣ ـ قوانين قيام الأمم والحضارات وسقوطها.

كما قدم الفقه فى صياغته وصناعته فى أرفع منزلة من الفقه الرومانى.

كما قدم منهج نقد التاريخ المستمد من نقد الحديث الشريف والذى لا يشبه فى دقته منهج أية أمة.

وبالجملة فإن التراث هو ما فجره القرآن الكريم والسنة النبوية من قضايا معرفية هائلة تتمثل فى علوم لم تكن موجودة من قبل كعلوم التفسير والفقه والأخلاق والتصوف وغيرها.

والعصمة للقرآن والسنة، ولا عصمة للفكر البشرى، أما الميراث (القرآن والسنة) فنلتزم به وأما الثانى فنستضيء به فى دراسة الظروف المتغيرة.

وإذا كان للغرب وأوروبا أن تنظر إلى تراثها نظرة النقد والانتقاص فتعلن الثورة عليه فإن لذلك أسبابه ـ على حد تعبير الدكتور محمد إبراهيم الفيومى ـ فلقد ساد أوروبا فى العصور الوسطى فكر شوهه الكهنة، وكان من نتاج ذلك صكوك الغفران ومحاكم التفتيش واضطهاد الفكر، ومن هنا حق لأوروبا أن تستعمل كلمة (ثورة) بمعنى القضاء على الفكر الكهنى القديم، أما فى عالمنا الإسلامى فموقفنا من التراث يتمثل فى (الإحياء) لأن جذورنا الفكرية تستند إلى الوحى الإلهى من جانب والعقل الإنسانى من جانب آخر فنحن لا نستطيع أن نثور على الوحى الإلهى أو على العقل الإسلامى الحر لأن الوحى الإلهى فى الإسلام له كتابه المحفوظ الذى يتناول شئون الدين والدنيا، كما أن للعقل الإسلامى مكانته، لأن الوحى الإلهى أعانه على حرية الفكر، لقد طلب القرآن نفسه من العقل أن يفكر فى ذات القرآن وفى مصدره

﴿ **أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا** ﴾.

فللعقل الإسلامى مكانته، لأن الوحى الإلهى أعانه على حرية الفكر، إن العقل لم يحجب بالقرآن كما أن القرآن لم يحجب بالعقل، إن بين العقل والقرآن مساحات واسعة من التفاعل الفكرى.

❑ ❑ ❑

ومن هنا فإن نظرة الفكر الغربى إلى «التراث الإسلامى» هى نظرة معادية وظالمة، ونحن الذين نؤمن بأن لنا مفاهيمنا وقيمنا وفق ذاتيتنا الخاصة لا نقبل التصور الغربى للتراث الإسلامى....لأنها:

(أولاً) : تنطلق من منهج مختلف فى أصوله وجذوره، فضلاً عن أنها تنطلق من حقد وكراهية للإسلام وأهله، ومن هنا حق لنا أن تكون لنا تحفظات على دراسات الغرب للتراث الإسلامى، حيث تحاول القوى التغريبية والشعوبية والإلحادية أن تركز على التراث الإسلامى بهدف تدميره.

(ثانياً) : فساد المراجعات التى يقوم بها الاستشراق الصهيونى والماركسى والغربى للتراث والتاريخ الإسلامى، لأنها لا تعتمد الموضوعية ولا النزاهة ولا سلامة النفس من الهوى والغرض، فضلاً عن قيام هذه التفسيرات وفق منهج الفلسفة المادية أساساً التى تتنكر للتصور الإسلامى الجامع بين المادة والروح.

كما أنها تحاول محاكمة التراث الإسلامى على النحو الذى يحاكم عليه التراث الغربى، مع الفوارق العميقة بين التراثين من حيث إن التراث الغربى إنما هو تراث بشرى فى أغلبه، وتراث أسطورى فى عامته حيث لم يتصل بالفكرة الدينية والربانية إلا فى هوامش قليلة اختلطت بالفكر البشرى، والهدف من هذه النظرة على التراث الإسلامى هو عزل الأمة الإسلامية عن ذاكرتها التراثية، وتشويش رؤية المسلمين

المعاصرين لتراثهم، وهم يعملون لهذا عن هدف مبيت، هو أنهم يعلمون أن المسلمين سوف يعودون إلى هذا التراث ليبدءوا منه نهضتهم، فهم يعملون على تدميره ليحولوا بينه وبين هذه الخطوة الأساسية لأى نهضة، وبهدف إحداث حالة انقطاع بين مسار الأمة التاريخى والذوبان فى الغرب والاستقطاب حول مناهج واحدة، فهم مثلاً يصورون الحروب الصليبية على أنها حروب قومية عربية ضد الاستعمار الأوروبى (ويضعون موقعة حطين فى هذا السياق)

(ثالثاً): محاولة إيجاد تصور بإنكار الدور الرائد الذى قام به المسلمون فى بناء المنهج العلمى والمنهج التجريبى، وحجب كل ما يؤكد هذا المعنى من التراث الإسلامى الذى تحفل به جامعات أوروبا، والهدف هو إبراز النشاط العلمى الأوروبى على أنه فكر رائد، متجاهلين المراحل التى قام بها العلماء المسلمون فى إنشاء هذه العلوم سواء الاجتماعية أو الاقتصادية أو السياسية حيث يجرى اليوم تعتيم واسع على السبق الإسلامى.

فإذا ظهر نصر جديد يؤكد ريادة المسلمين جرى العمل على التشكيك فيه وحجبه والمراوغة فى إطلاقه.

والمعروف أن القانون المدنى الفرنسى الذى وضعه نابليون قد نقلت أصوله والكثير المستفيض من مواده عن الشرح الكبير للشيخ الدردير المصرى على مختصر خليل فى الفقه المالكى. وكذلك فإن قاعدة المنع من التعسف فى استعمال الحق، والتى أشار إليها الفقهاء الألمان وأثارت إعجاب العالم هى قاعدة إسلامية أصيلة.

❑ ❑ ❑

وتتمثل الحملة على التراث الإسلامى بهدف تقليص أثره وخلق روح النفور منه فى عدة دعاوى مسمومة أبرزها :

١ ـ ليس التراث العربى إلا ترديداً للفكر اليونانى القديم بعد مسخه وتشويهه.

٢ ـ التشكيك فى قيمة الإسهام العربى فى التراث .

٣ ـ الإدعاء بأن الذين قاموا بالإسهام الفعال فى الفكر الإسلامى مفكرون من الفرس أو اليونان أو من الفينيقيين ممن دخلوا إلى دين الإسلام.

٤ ـ القول بأن التراث القديم يجب التخلص منه من أجل اللحاق بركب المدنية الحديثة.

٥ ـ القول بأن الحضارة الإسلامية لم تكن أكثر من جسر أو معبر عبرت عليه الحضارة اليونانية وعصور سابقة على عصر النهضة والعصر الحديث.

وهذه كلها اتهامات باطلة كشف علماء المسلمين فسادها بعد أن اعترف عدد من علماء الغرب بأصالة التراث الإسلامى وأهمية الدور الرائد الذى قام به المسلمون فى وضع أساس منهج المعرفة، ومنهج البحث العلمى، ومنهج التجريب من أمثال (سيديو وسارتون ودرابر وسجريد هونكه وجوستاف لوبون إلخ)

كل هؤلاء شهدوا بأصالة التراث الإسلامى، من ذلك قول سيديو إن الكنوز الأدبية العظيمة التى أوجدها العرب، فى ذلك العصر ونتاج نبوغهم العلمى تنهض دليلاً على نشاطهم الفكرى، وتؤيد الرأى بأن العرب هم أساتذة الغرب فى كل شىء.. إلخ.

أما أن الحضارة الإسلامية كانت ذات دور مؤثر فذلك أمر واضح، ففى خلال ألف سنة كانت الحضارة الإسلامية تضىء المنطقة من أسبانيا إلى حدود الصين فى سنوات عرفت فى الغرب بالعصور الوسطى المظلمة.

أما الذين أسهموا فى هذا التراث وهذه الحضارة فهم جميع أهل الأمة الإسلامية سواء منهم الذين آمنوا بالإسلام أم لم يؤمنوا، فقد أوجد الإسلام نهضة فكرية جمعت كل العناصر تحت لوائها، وكانت اللغة العربية هى منطلقها الأصيل ذلك لأن الإسلام وحده هو الذى شكل عقلية العلماء سواء كانوا فرساً أو هنوداً أو تركاً أوعرباً، فهم قد شاركوا بعقيدة الإسلام وعقليته ومفاهيمه فهم ليسوا فرساً أو تركاً إنما هم مسلمون كتبوا باللغة العربية ودليلهم القرآن.



إن القول بأن التخفف من التراث مطلب ضرورى من أجل اللحاق بالحضارة فتلك دعوى مضللة، بل العكس هو الصحيح، فقد أكد العلماء التجريبيون أن النهضة الإسلامية لا يمكن أن تُستأنف إلا بالاتصال بنهاية التراث الإسلامى الذى توقف من قبل للبناء عليه، فالذين يدعوننا إلى التخفف من التراث إنما يدعوننا إلى التيه حتى نفقد طريقنا ومنطلقنا الحقيقى إلى النهضة المرتقبة، ذلك أن أبرز مظاهر تراثنا الفكرى والحضارى الصالحة لنهضة عربية إسلامية جديدة هى تلك العناصر الأساسية للمنهجية العلمية والتقنية التى ارتكز عليها الانبعاث فى أوروبا بعد عصر النهضة، وانطواء العصور الوسطى التى ظلت قرابة ألف عام هى الإطار الزمنى لازدهار الحضارة الغربية فى مختلف مجالاتها الإنسانية، حيث برهن العرب خلال ذلك على أصالة نادرة، وروح خلاقة، واستعداد للتكيف، فقد أعدوا منهجاً تجريبياً رصيناً لم يكن للإنسانية عهد به ، وطوروا الاختصاص التقنى، وحرروا الفكر وعززوا شمولية الكشف العلمى بربط الماضى بالحاضر (كما يقول عبد العزيز بن عبد الله) .

يقول الدكتور أحمد سعيدان : إن المهمة الفريدة للبحث فى هذا التراث هى أنه يمكننا من إقامة بنيان المعرفة العلمية لدى أجيالنا القادمة على خلفية من إنجازاتنا. إن عرض مسيرة العلم كما لو كان مقصوراً على الإنجازات الغربية لا يخلق حافزاً للأجيال الصاعدة، ولا يقيم فى أذهانهم قيماً ومثلاً بقدر ما يضع فى نفوسهم أن يعرفوا أن لأجدادهم إنجازات واكتشافات واختراعات و إن قصر البحث على الإنجازات الغربية وحدها يفقدهم شخصيتهم ويشعرهم بالنقص، وهو يعوق استقلالهم الفكرى ويحول دون الأصالة والإبداع، إن موضوعية البحث لاتتناقض بتنشئة المواطنين تنشئة فيها الاعتزاز بماضيهم والانتماء إلى أصولهم والثقة بقدراتهم دون تهويل إلى حد الادعاء الأجوف .

إحياء التراث الزائف

تتمثل أبعاد المؤامرةعلى التراث الإسلامى التى قام بها كتاب الغرب والمستشرقون والمبشرون ومن تابعهم من العرب والمسلمين فى عدة أوضاع أساسية:

أولاً : فساد المراجعات التى قدمها الغرب لتفسير التراث الإسلامى : سواء أكان تفسيراً غربيا ليبرالياً أم ماركسياً، وخاصة المحاولات التى جرت فى إحياء التراث الوثنى القديم، فقد أحيا الغربيون وأحياناً تابعوهم من العرب والمسلمين بتوجيه منهم تراث الإغريق والفلسفة المادية ممثلة فى تراث فارس والهند والرومان والفراعنة.

كذلك فقد أحيوا تراث الاعتزال والتصوف الفلسفى وكتابات وحدة الوجود والحلول (ابن عربى والحلاج وابن سيعين).

وإحياء الأغانى وألف ليلة ورسائل إخوان الصفا.

وكذلك عمد الماركسيون من خلال الجامعات التى سيطروا عليها فى مصر والعراق وسوريا إلى العمل على إحياء تراث الفكر الباطنى وتقديم تاريخ الفرق الضالة والدعوات الهدامة : القرامطة ، المزدكية ، البابكية، والشعوبية، فى كتابة دراسات وأطروحات حول هذه القضايا باعتبارها قضايا عدل وحرية.

وكان أول من هاجم التراث الإسلامى وعمل على تدميره: الدكتور طه حسين فى قضية الشعر الجاهلى، والعمل على هدم صلة الشعر الجاهلى بتفسير القرآن والتشكيك فى الشعر الجاهلى بدعوى أنه نظم بعد الإسلام.

وكذلك فى تطبيق منهج الشك على التراث العربى الجاهلى وكان من أخطر أعماله محاولة إحياء الأساطير بكتابه (على هامش السيرة) وتغليب وجهة نظر خصوم الإسلام بكتابته عن الفتة الكبرى.

كما أحيا شعر الأغانى وأبى نواس وجماعة الزنادقة فى العصر العباسى، وقد اعتبرهم ممثلين لعصرهم مع تجاهل علماء المسلمين البارزين فى القرن الثانى،

وكانت محاولته فى (الفتنة الكبرى) تصوير الصحابة فى صورة زعماء السياسة المحترفين فى العصر الحديث، وأزال عنهم مكانتهم التى حفظها لهم الإسلام بوصفهم الذين أرسوا قواعد الأمة الإسلامية.

(وقد عالج كتاب كثيرون هذه القضايا فى مظانها ومن شاء فليرجع إلى كتابنا محاكمة طه حسين)

وكذلك مشى الدكتور محمد أحمد خلف الله على خط العميد، وكانت دراسات الشيخ أمين الخولى عن القرآن الكريم فى كلية الآداب متصلة بهذا الهدف وما ألقاه طه حسين عن نقد القرآن بوصفه كتابا أدبيا على النحو الذى نشره محمود المنجورى فى مجلة الحديث الحلبية (وقد أوردناه فى كتابنا (طه حسين : حياته وفكره فى ميزان الإسلام).

كما مضى كثيرون على نفس الطريق من بعد فى مقدمتهم الدكتور زكى نجيب محمود الذى خطا خطوات واسعة فى تزييف التراث الإسلامى وإحياء تراث الفرق الباطنية ودعاة وحدة الوجود والحلول فى كتابيه عن (تجديد الفكرالإسلامى) إذ ركز على تراث الفرق الضالة والمذاهب الهدامة وأحياه واعتبره من تراث الإسلام، وتجاهل تماما تراث الأصالة الحى.

وجاء عبد الرحمن الشرقاوى وأحمد عباس صالح، فكتبوا عن تفسير التراث من خلال مفهوم ماركسى، وقسموا زعماء المسلمين إلى يمين ويسار، وكانت جملة أهداف الحملة على التراث :

أولاً : ليس التراث العربى الإسلامى إلا ترديداً للفكر اليونانى القديم بعد مسخه وتشويهه.

ثانياً : التشكيك فى قيمه بالإسهام الغربى فى التراث.

ثالثاً : الادعاء بأن الذين قاموا بالاتهام الفعال فى الفكر الإسلامى مفكرون من الفرس أو اليونان أو الفينيقيين ممن دخلوا إلى دين الإسلام.

رابعاً : القول بأن التراث القديم عبء يجب التخلص منه أو على الأقل التخفف منه، حتى يمكن اللحاق بركب المدنية الحديثة.

خامساً : القول بأن الحضارة الإسلامية لم تكن أكثر من جسر أو معبر عبرت علية الحضارة اليونانية وعصور سابقة على عصر النهضة ثم العصر الحديث.

❑ ❑ ❑

ولقد كانت تجربة اليسوعيين من قساوسة الطائفة الكاثوليكية فى بيروت الذين أسسوا جامعة القديس جوزيف فى مجال تزييف التراث الإسلامى تجربة خطيرة وبعيدة المدى فى نشر سموم وتحريفات خطيرة للكتب الأصيلة، فقد طبعوا طائفة من كتب التراث الإسلامى وأحدثوا فيها تحريفات غريبة وعجيبة تدل على شدة بغضهم وحقدهم على الإسلام، وفقدانهم نزاهة العلماء وأمانة النقل.

١ ـ فقد طبعوا كتاب (فقه اللغة للإمام أبى منصور عبد الملك الثعالبى) فاستبدلوا عبارة المؤلف عند ذكر النصوص القرآنية (قال تعالى) بعبارة (يقول القرآن) وهذا منتهى التعصب، فهم لا يريدون أن تمر أبصارهم أو تنطق ألسنتهم وألسنة قراء مطبوعاتهم بعبارة تتضمن حقيقة أن القرآن كلام الله.

٢ ـ وطبعوا كتاب ابن عبد البر الذى جمع فيه شعر أبى العتاهية فى الزهد والحكم ودافع عنه فى كتابه (الاهتبال بما فى شعر أبى العتاهية من الحكم والأمثال).

وكان لويس شيخو قد طبع ديوان أبى العتاهية وفيه تحريفات كثيرة، لفتت نظر الشيخ أحمد محمد شاكر أثناء تحقيقه لكتاب الشعر والشعراء لابن قتيبة فعلق على ترجمة أبى العتاهية، وهو ديوان معروف مطبوع طبعة الآباء اليسوعيون وهم قوم لا يوثق بهم .

وقد أماط شكرى فيصل فى كتابه (أبو العتاهية) حياته وشعره (دمشق ١٣٨٤) اللثام عن تحريفات الأب شيخو.

وقد طمس لويس شيخو عمل الحافظ بن عبد البر فكتب عنوان الكتاب (الأنوار الزاهية فى ديوان أبى العتاهية).

وقال شكرى فيصل : لقد لفتنى عنف تحريفات غريبة وقعت عليها، فلما مضيت أستقصى بدت لى هذه التحريفات وكأنها عمل مقصود .

وقد عنيت مطبعة الآباء اليسوعيين فى بيروت لإحياء ألف ليلة وليلة والأغانى ويتيمة الدهر فى محاسن أهل العصر كما عنوا بكتاب الزهرة لأبى بكر الأصفهانى وكلها تحمل ثماراً مسمومة مضللة.

٣ ـ ويتصل بهذا عملهم فى (كتاب المنجد) الذى ألفه يوسف معلوف ١٩٠٨ وفى عام ١٩٥٦ أضيف إليه (المنجد فى اللغة والأدب والعلوم) للأب فريناند توتل.

ويتضمن المنجد فى اللغة ١٠٦٠٠ مادة منها ٥٩٤٠ مادة عن العالم الإسلامى تتضمن :

ـ أخطاء علمية وتاريخية متعمدة فى كثير من الأحيان.

ـ تحريفات ومطاعن فى تاريخنا قد تخفى على الناشئة.

وقد توالت كتابات الباحثين المنصفين لنقد هذا الكتاب فكتب عبد الله كنون رسالة ضافية انتقد فيها ٦٧٢ مادة.

وكتب منير العماوى نقداً فى مجلة مجمع اللغة ومجلة المعرفة بدمشق وصدر تقرير عن أخطاء المنجد للأستاذ سعيد الأفغانى، وكتب عبد الستار فراج دراسة فى مجلة العربى عن نواقص المنجد وما فيه من عورات ومثالب، وأورد أمثلة عديدة لما وقع من تحريف الأسماء وتشويه الحقائق التاريخية وأخطاء بسبب الترجمة السيئة.

وكتب الشيخ ابراهيم القطان (عثرات المنجد) صدرت فى نيف وخمسين وستمائة صفحة.

وقال إن لغة المنجد فيها عجمة وعامية ولحن فى بعض المواد فضلاً عن أن بعض المصطلحات تعبر عن مفهوم مسيحى وليس إسلاميا.

❑ ❑ ❑

ويمتد أمر تزييف التراث الإسلامى إلى أبعاد كثيرة أهمها ما ورد فى دائرة المعارف الإسلامية (التى كتبها متعصبة المستشرقين) وما يتصل بها مما أوردته دوائر المعارف البريطانية والفرنسية وما أورده الكتاب الذى أصدرته مؤسسة اليونسكو عن (تاريخ العالم) .

وهو «الجزء الرابع الذى خصص للعالم الإسلامى» .

وكان همهم هو البحث فى التراث الإسلامى الذى تجمع فى جامعاتهم عن كتب الإباحة والانحلال وعملوا على إحيائها ونشرها، بل لقد ذهبوا إلى أبعد من ذلك إذ جمعوا شعراً كثيراً من شعر الإباحة والإلحاد اللذين عرفا فى الأدب الفارسى القديم ونسبت إلى عالم الفلك الأشهر : (عمر الخيام) وتولاها مستشرق انجليزى (فتزجرالد) وعمدو إلى عدد من شعراء وكتاب العرب ليترجموها ويذيعوها فى البلاد العربية لإفساد أخلاق المسلمين وإذاعة فكرة شرب الخمر بينهم.

كما أولوا كتب الزنادقة اهتماماً كبيراً إلى حد أنهم جمعوا أشتاتا من التراث الضال الباطنى، وأخرجوها بأسماء قديمة كأنها كتب حقيقية، وتصور هذه المعانى الدكتورة بنت الشاطىء فتقول :

«اتخذوا من التراث ثغرات ينفذون منها إلى عقولنا ونفوسنا رجاء أن يشوهوا فى عيوننا صورة أمسنا ويطفئوا نوراً لنا أضاء للبشرية طريقها وسط الظلمات، وحتى نقتنع أخيراً بأن بقاءنا فى عالم اليوم رهن تنكرنا لشرفنا وعروبتنا وتعلقنا بركاب (رسل الحضارة وسادة العصر) وإذ ذاك يهون علينا أن نراهم يستبيحون حمانا ويقومون أوصياء علينا، ويأخذون بأيدينا نحو التمدن».

ولقد كان التركيز على كتابات التصوف الفلسفى شديداً ومتصلاً واهتم المستشرقون بنوعية معينة من كتاب التصوف، وهم الذين ركزوا على الاتحاد والحلول ووحدة الوجود، فاهتم المستشرق ما سنيون بالحلاج وأمضى أربعين سنة فى جمع تراثه، وهناك مستشرق هولندى هو الذى اكتشف النفرى الصوفى (القرن الرابع الهجرى) صاحب كتاب المواقف والمخاطبات، وكان صوفياً سائحاً ضارباً فى الصحراء لا يستقر فى مكان،

وقد أولاه اهتماماً شديداً لأنه يسير على نهج ابن عربى وكان قد ذكره فى مواضع متعددة من كتابة الفتوحات المكية.

❑ ❑ ❑

وممن اهتم به المستشرقون (ابن مسكويه) وكتابه تهذيب الأخلاق الذى أخذ نسقه ومنهجه من مفاهيم الفلسفة اليونانية، وقد كان موقع حفاوة شديدة بدعوى أنه يمثل مفهوم الإسلام للأخلاق، والحقيقة أن ابن مسكويه تأثر فى آرائه بمفهوم الأخلاق

اليونانية، أو كما قال البعض :

إنه تأثر فى رأية فى الأخلاق وفى مفهوم الاعتداد بالذات فى إثباته لهذه الفكرة فى شقها الأول بأفلاطون وفى جمهوريته، وفى شقها الثانى بأرسطو فى كتاب الأخلاق إلى نيقوماخوس.

❑ ❑ ❑

ولقد أوردنا فى فصل التاريخ أن المستشرقين عنوا بمؤرخين ثلاثة هم : ابن إياس والمقريزى وابن تغرى بردى، لأنهم حملوا حملة شديدة على المماليك والدولة العثمانية، فاهتم بهم المستشرقون ووكلوا بكتاباتهم باحثون عرب عاشوا سنوات طوالا يحققون تاريخهم ويوالون نشره بالعربية لإذاعة آرائهم ووضعهم على رقاب الناس بالرغم من كل ما تحوى كتاباتهم من أخطاء وتحاملات ومن نزعة إقليمية تقف فى وجه الوحدة الإسلامية.

ويشير الدكتور أكرم ضياء الغمرى إلى مؤامرة نقل التراث بمفاهيم الفلسفة المادية إلى الأجيال المعاصرة، فيشير إلى التحريف المتعمد للقيم التراثية التى تعتبر من أبرز الأخطار التى وقعت بما تم فى هذا المجال بسبب الغزو الثقافى الذى تعرضت له أرض الحضارة الإسلامية والذى أدى إلى إحلال قيم ثقافية جديدة تتصل بالحضارة الغربية ولا تركز على جذورنا الثقافية.

ذلك أن التيسير المطلوب (والذى يدعون أنهم يقومون به) إنما يحتاج إلى أقلام تؤمن بعقيدة الأمة الإسلامية، وتقر بجدوى تجديد روح الأمة وقيمها بالارتكاز على جذورها الحضارية والثقافية.

وأشار إلى اختلاف موقف الصحوة الإسلامية من التراث عن حركة (الرينسانس الأوروبية) بكون الصحوة تلتصق بالجذور الأصيلة ولا تعانى مشكلة حذف مرحلة تاريخية معينة كما حدث لحركة الإحياء الأوروبية.

والواقع أنه لابد من وصل حاضر الأمة بماضيها، ولابد من إضاءة الطريق إلى التراث لتكون الخطوة القادمة متصلة، فقد حرص النفوذ الأجنبى على الفصل بين الحاضر والماضى عن نحو بدأ كتاب (الرواد والقمم الشوامخ) فى العصر الحاضر الذين وقفوا

بماضيهم عند الحملة الفرنسية، وبدأوا يعالجون التراث معالجة عبثية قائمة على إخضاعه للنظريات الغربية المعاصرة القائمة على :

أولاً : النظرية المادية واعتبار الإنسان حيوان ناطقا ومحاكمته على هذا النحو بمفاهيم (تين وبرونتير وروسو)

ثانياً : إعلاء شأن العناصر والدماء وتجاهل الحقيقة الواضحة من أن الإسلام هو الذى صنع العقل الإسلامى والفكر وليس العنصر والدم.

❑ ❑ ❑

إن نظرية فصل واقع الأمة وحاضرها عن التراث هى أكبر مؤامرة تواجه الفكر الإسلامى الذى لم تنقطع مسيرته خلال أربعة عشر قرناً.

أما المعاصرون فهم يريدون فصله عن الإسلام وربطه بالعصر السابق كما حدث للفكر الأوروبى الذى انفصل عن العصر المسيحى وربط نفسه بالعصر الهلينى.

ومن هنا يتبين خطر تجاوز مرحلة التراث فى النهضة الجديدة، وكذلك خطر تجاوز الفقه الإسلامى فى البحث عن مفاهيم الشريعة.

إن الفهم القاصر والتشويش الظاهر هو أثر من آثار التلقى المباشر من الكتاب والسنة دون ترشيد من العلماء أو معرفة المصادر الأصلية والمصادر الفرعية، وهنا يتبين صعوبة الأخذ المباشر من الكتاب والسنة دون ترشيد من العلماء أو دون إفادة من التراث الفقهى الذى يوضح مفهوم العلماء المجددين وتقديرهم لهذه الآيات والأحاديث فى عصور الاجتهاد.

❑ ❑ ❑

ومن وجوه الخلاف الواسع العميق بين منهج البحث الإسلامى فى التراث والمنهج الغربى، فقد طبق الغربيون المنهج الغربى الذى عارضوا به الإنجيل والتوراة فى دراسات الإسلام والقرآن دون أن يتبينوا الخلافات العميقة بين الإسلام والمسيحية وبين القرآن والإنجيل (الموجود الآن)، إن منهج البحث الغربى تشكل فى ضوء الصراع مع المسيحية

وكان الغربيون فى مواجهة الفكر الدينى الأوروبى يصدرون عن خصومة وهوى.

فلما جاءوا يواجهون الفكر الإسلامى كانت خصومتهم أشد وهواهم أشد عنفاً، إنه منهج ظاهره العلم والموضوعية والتجرد وباطنه قائم على التعسف والتعصب أما التعسف فهو تطبيق منهج وضع للحكم فى تراث صاغته يد البشر ليطبق على منهج أساسه ربانى الأصل.

أما المنهج الإسلامى فيتسم بالأصالة والإنصاف.

ولقد عمل علماء الإسلام على تحاشى تحكيم المنهج الإسلامى فى الكتب الدينية السابقة رغبة فى الحفاظ على وحدة الأمة بمختلف عناصرها ، يقول أحد الباحثين : ماذا لو اعتمدنا شروط المحدثين فى قبول الرواية بأن يكون من نقل العدل الضابط إلى منتهاه، ماذا لو حكمنا هذا المقياس فى دراسة الكتب الدينية كالتوراة والإنجيل والتلمود.

إن أى قراءة فى (المفصل لابن حزم) أو (هداية الحيارى) لابن القيم، ستوضح أن إعمال المنهج الإسلامى فى دراسة عقائد وأديان النصارى واليهود ستهدم معظم جوانبها وتشكك فيها دون تعسف أو تعصب.

لقد ولد الأسلوب العلمى من تزاوج مذهبين فكريين:

تنظير الإغريق وتجريب العرب (اختبار العرب) : التنظير هو بناء الفرضيات وتخيل النظريات لتفسير العلم الطبيعى فقد تخيلوا أن المادة مكونة من أجزاء منفصلة سماها العرب بعدهم (الجوهر الفرد) ونحن نسميه الآن (الذرة) أما العرب فقد كانوا سادة التجريب والاختبار يعيشون ويفحصون ويشاهدون ويدونون.

وعندما تزاوج هذان المذهبان فى أوروبا فى عصر النهضة ولد من تزاوجهما (الأسلوب العلمى) فى قاعدتيه الرئيسيتين :

(١) النظرية : التى يفرضها ليقربها شيئا من ظواهر الطبيعة .

(٢) الاختبار: الذى يخضع له هذه النظرية لنقدها وكشف عيوبها.

ومعنى هذا أنه لولا (تجريب العرب واختبارهم) ما استطاعت أوروبا الوصول إلى ما وصلت إليه من فتح فى مجال العلم، ولكن الأوروبيين يقيمون مؤامرة الصمت ولا يعترفون بفضل المسلمين.

❑ ❑ ❑

لقد كان من آثار المؤامرة على التراث الإسلامى أن أولت قوى الاستشراق والنفوذ الأجنبى التركيز على جوانب الفلسفات والفرق والتصوف الفلسفى والفكر الباطنى بينما تقهقرت عملية إحياء التراث الأصولى والإيجابى فى ميادين الشريعة والفقه وعلوم الاجتماع والأخلاق والسياسة والاقتصاد والتربية إلى مراحل متأخرة، وما أحيى فيها حيث حاول القائمون عليه إبراز التراث المتأثر بالفكر اليونانى ومترجمات العصر العباسى المحاطة بكثير من الشبهات.

وقد كان من الضرورى أن توضع قاعدة أساسية فى هذا المجال تفصل بين تراث الإسلام وبين تراث الأمم قبل الإسلام، حيث لا يمكن الجمع بينهما على النحو الذى يدعو إليه التغريبيون، ذلك لأن الإسلام حين جاء أحدث فاصلاً عميقاً بين ماضى البشرية وحاضرها، أطلق عليه المؤرخون اسم (الانقطاع الحضارى) فقد قامت الحضارات الكبرى السابقة للإسلام : (اليونانية والرومانية والفرعونية والهندية والفارسية).

على أساس الوثنية وعبادة الفرد والرق، وجعلت الرقيق عنصرا أساسياً فى ثباتها بينما جاء الإسلام لهدم كل عبودية لغير الله تبارك وتعالى الواحد القهار، فالتوحيد الخالص الذى هو أساس الإسلام حال دون وحدة التراث الإنسانى والبشرى على النحو الذى يدعو إليه الشعوبيون والماسون.

❑ ❑ ❑

كان من أخطر محاولات كتاب الغرب فى مجال التراث الإسلامى حجب الدور الرائد الذى قام به علماء المسلمين فى إنشاء المنهج التجريبى الذى صنع الحضارة الحديثة، ومنهج المعرفة ذا الجناحين، وقوانين قيام الأمم والحضارات وسقوطها.وقد أطلق على هذا الحجب عبارة (مؤامرة الصمت).

فقد حصل الغربيون أولاً على أغلب التراث الإسلامى عن طريق القناصل الأجانب فى أوائل عهد الاستعمار، وقد قدر هذه التراث بحوالى ثلاثة ملايين كتاب نقلت إلى مكتبات أوروبا وحيل بين المسلمين وبينها حتى لا يستأنفوا مسيرتهم العلمية من ناحية وحتى لا يكتشفوا المعطيات التى أخذها الأوروبيون وانتفعوا بهـــا فـــى مجالات العلوم

التجريبية والفلك والجغرافيا والطب وغيره[1]

كذلك فقد قام أعداء الإسلام بعمليات حرق واسعة للتراث الإسلامى فى عديد من البلاد وفى مقدمتها الأندلس ، فقد قام الأسبان بعد خروج المسلمين من الأندلس بقيادة الكردينال (خمنيس) مطران طليطلة بجمع الكتب العربية فى غرناطة وأحرقوها فى ساحات المدينة وتقدر بنحو مائة ألف مخطوط.

فضلا عما أغرقه التتار فى نهر دجلة حيث أغرقوا مكتبة بغداد، وما فعله الصليبيون فى الشام حيث أحرقو مكتبة طرابلس، هذه القضية الكبرى الخطيرة التى يجب عرضها.

❑ ❑ ❑

ولقد عمد علماء المسلمين إلى بناء المنهج التجريبى ومنهج المعرفة من مصدر أساسى هو القرآن الكريم والسنة النبوية حيث لم يكن العالم كله يعرف حتى تلك اللحظة ماسمى بالمنهج التجريبى، ولم تكن أعمال اليونان إلا قطرات تأملية فلسفية.

كذلك فقد صحح العلماء المسلمون أخطاء علماء اليونان: جالينوس وبطليموس وأقليدس وأرسطو وأبقراط، قام بذلك ابن الهيثم وابن حزم وجابر بن الأفلح والغزالى والجاحظ.

فالإسلام لم يقبل الفكر الوافد (اليونانى والفارسى والهندى) أساساً ، لأنه صدر عن أساس قائم هو علم الأصنام، وإن كان موجهاً وجهة العبودية فقد قام على نظام الرق وعبودية البشرية الذى أقره زعماء الفكر اليونانى (أفلاطون وأرسطو).

وقد ألف علماء المسلمين :

الرازى ـ الشكوك على جالينوس

ابن الهيثم ـ الرد على بطليموس

جابر بن الأفلح ـ الرد على المجسطى وبطليموس

الغزالى ـ الرد على بطليموس

(١) كان الاستيلاء على المخطوطات العربية أحد البنود المذكورة فى وثيقة انسحاب الحملة الفرنسية من مصر عند الجلاء حيث استولت على مخطوطات عربية لا حصر لها من الجامع الأزهر والزوايا والمساجد وكانت نواة الاستشراق.

ابن الهيثم ـ الرد على إقليدس وبطليموس
ابن حزم ـ الرد على أرسطو
الجاحظ ـ الرد على أبقراط وجالينوس وأرسطو.

❑ ❑ ❑

وقد تعددت معطيات التراث الإسلامى فى مختلف ميادين الفكر الإسلامى : وفيها ما لا يقل عن ثلاثة ملايين من المخطوطات المحفوظة فى مكتبات العالم منها ثلث هذا العدد تقريبا بمكتبات الخلافة العثمانية (إستانبول) والباقى فى مكتبات مصر والشام والعراق وتونس والمغرب وعواصم عربية أخرى.

وتتناول علوم الفلسفة والتشريع واللغة والتاريخ والأدب والطب والهندسة والفلك والرياضيات وتقويم البلدان والتراجم، فضلاً عن التراث الحضارى فى المعمار والبناء والزخرفة.

❑ ❑ ❑

ويشمل التراث الإسلامى للحضارة تجربة واسعة للتعامل الاقتصادى والاجتماعى قوامها تدوين الدواوين لضبط الأسماء وتنظيم الأعطيات والنظم الخاصة بالمقاضاة والتعامل والحوائج والمنهج والإشراف على أعمال الرى، وكان للمسلمين بادرة واسعة فى أعمال الضرائب والجيش والرسوم والحقوق والعمال وبيت المال والدخل والخرج.

ويضم التراث الإسلامى حصيلة ضخمة فى مجال الزراعة والتجارة والصناعة والمال والحرف يمثل قدرة المسلم على الحركة فى صميم العالم واستثمار كنوزه وطاقاته وتنمية موارده من أجل توسيع مصادر الثروة وارتفاع مستوى المعيشة باستمرار.

وكان شعار المسلمين واضحاً فى هذا الميدان مستمداً من كتاب الله تبارك وتعالى نفسه، ﴿ **فامشوا فى مناكبها وكلوا من رزقه** ﴾.

❑ ❑ ❑

وقعّد المسلمون القواعد فى مختلف مجالات العلوم :

١ ـ ففى مجال الاقتصاد :

ـ كتاب الخراج لأبى يوسف.

ـ كتاب الأموال لأبى عبيد الله القاسم بن سلام.

ـ كتاب الخراج : ليحيى بن آدم .

وقد تناول أبو يوسف أغلب أموال مالية الدولة حب ورودها فى الشريعة الإسلامية من غنائم وفيء وخراج وعشور.

٢ ـ وفى مجال التربية:

١ ـ القابسى ـ تفضيل أحوال المعلمين والمتعلمين.

٢ ـ ابن مسكوية.

٣ ـ برهان الدين الزرنوجى.

٤ ـ الإمام الغزالى.

٥ ـ ابن خلدون.

❑ ❑ ❑

٣ ـ أما فى مجال العلوم التجريبية فقد كانت هناك أسماء لامعة أضاءت العالم كله فى مقدمة هؤلاء ابن الهيثم أعظم عالم طبيعة فى زمانه، وكتابه(المناظر) هو ذلك الكتاب الذى يضم نظرياته فى علم البصريات من انكسار الضوء إلى كيفية الرؤية، وغير ذلك من الأمور التى تعتبر أساساً للتقدم العلمى الحاضر فى هذا المجال.

وقد أقر علماء الغرب أنه أعظم علماء عصره.

ـ ابن النفيس صاحب الموجز فى الطب ومكتشف الدورة الدموية الصغرى والكبرى، وكانت له خبرته الواسعة فى مختلف عوارض الأمراض، وقد وصف ابن النفيس الدورة الدموية الصغرى وصفاً صحيحاً يخالف وصف ابن سينا وجالينوس كل المخالفة، وذلك قبل أن يكتشفها الأوروبيون بثلاثمائة سنة تقريباً.

ـ الخوارزمى : وهو رياضى مسلم من أكبر الرءوس فى كل زمان برع فى الجبر والحساب والموسيقا والفلك.

وكتابه : حساب الجبر والمقابلة، كان له الحظ الأوفر فى إدخال الأعداد العربية إلى أوروبا فأسموها الخوارزميات وكان علماء المسلمين هم الذين اكتشفوا (الصفر) فكان أثمن هدية للبشرية.

ـ البيرونى وكتابه الجماهر فى معرفة الجواهر:

حيث يعتبره المستشرق سخاو أكبر ظاهرة علمية فى الحضارة الإسلامية كما يسمى جورج سارتون القرن الحادى عشر الميلادى قرن البيرونى.

وقد تنازعه الروس والإيرانيون والأتراك والهنود.

يقول جورج سارتون : إنه عالم مسلم رفع العلوم الإسلامية إلى الأوج فى عصر كانت أوروبا فيه تذكر بالجهالة.

إن البيرونى هو فخر الرياضيات والفلك فى الحضارة الإسلامية فى شرقها،كما أن الزهراوى فخر الجراحة فى غربها، والمجريطى فخر العلوم والبطروجى فخر الرياضيات والفلك فى الأندلس.

ـ أما الرازى فقد ألف ٢٢٠ كتاباً أشهرها كتاب الحاوى فى الطب والمنصورى فى التشريع، وقد ظلت كتبه تدرس فى جامعة مونبيليه حتى القرن الثامن عشر.

ـ الخليل بن أحمد علامة العربية قال فى كتاب العين : إن عدد أبنية كلام العرب المستعمل والمهمل (١٢/٣٠٥/٤١٢) كلمة ولعله أراد ما يمكن تكوينه بتركيب أحرف الهجاء على كل شكل من الثنائى والثلاثى والرباعى والخماسى.

وقال الحسن الزبيدى إن عدد الألفاظ العربية ٦/٦٩٩/٤٠٠ لفظ لا يستعمل منها إلا ٥٦٣٠ لفظاً والباقى مهمل.

ويقول الدكتور أحمد سعيدان: لقد تقدمت العلوم الرياضية على يد رياضيى الإسلام حتى قرعت ابواب حساب التكامل واليوم صار حساب التكامل وتطبيقاته يدرس فى مرحلة متقدمة، وقد تصور علماء المسلمين المجموعة الشمسية على اعتبار أن الأرض كوكب يدور مع الكواكب الأخرى حول الشمس، وقد مهد لذلك ابن الشاطر الدمشقى ووضعه كوبرنيكوس البولونى.

ويؤكد سوزانتا جونا نيليك فى كتابه «الاكتشاف المحيط» ترجمة دكتور أمين العيوطى أن عصر النهضة الأوروبية لم يكن عصر العودة إلى اليونان وإنما بدأ بمعطيات العرب والإسلام، وأن العرب هم الذين نقلوا إلى أوروبا أن الشمس هى مركز الكون وهو المفهوم الذى استخدمه كوبر نيكوس وجاليليو، أما الرومان فإنهم لم يصنعوا شيئا.

ومن الملاحظ أن تطور العلم فى الغرب قد صاحبه صراع بين العلم والدين فى حين لم يشهد الشرق مثل هذا الصراع، وهو صراع فقد فيه الكثيرون حياتهم فى ثورة كوبرنيكوس وعند ظهور نظرية دارون فقد تصادفت هذه النظريات مع تفسيرات المسيحية لتعمير الكون ومركزية الأرض واعتقادها بأن الإنسان مركز الكون .

وقد كرس الباحث الأسبانى «أسين بلاسيوس» أكثر من خمسة وعشرين عاما من حياته فى بحث وتمحيص الفكر الإسلامى الفلسفى والدينى فى القرون الوسطى فاستطاع أن يكتشف كشوفا مهمة فيما يتعلق باللاهوت وكيف أثر ابن رشد فى القديس توماس الإكوينى و ابن عربى فى «ريموند لال» وأهم اكتشاد قامت عليه شهرته اكتشافه أن النماذج الإسلامية هى التى أوحت إلى دانتى الكوميديا الإلهية، بل إن شعر التربادور وقصة دون كيشوت تعود إلى أصول عربية.

كما سبق المسلمون إلى إنشاء الموسوعات العامة وتراجم الأعلام وفق منهج التحقيق العلمى. وكان لابد أن يتصل هذا العمل فى العصر الحديث حيث لاتخلو الموسوعات الأجنبية من دس على حضارة المسلمين وعقيدتهم وتاريخهم ، وبعض هذا الدس يحاول أصحابه إكسابه ثوب العلم والتحقيق العلمى.

وقد أشار الباحثون أن بدء سرقة التراث الإسلامى الكبرى كان جماعة علماء فرنسا الذين قدموا إلى مصر مع نابليون. وقد امتدت إلى مختلف مدائن الإسلام من الهند وجمهوريات وسط آسيا وإيران والعراق ودمشق والقدس وفارس وغيرها، وكان هدف السرقة تحقيق أمرين أساسيين:

«١» إثراء النشاط الفكرى العلمى والأدبى فى أوروبا.

«٢» عملية سطو تم دون إثبات الحق لأصحابه أو حتى دون الإشارة إلى وجود أصحاب هذا التراث فى التاريخ.

وأبرز الغايات الإنسانية إنكار الغرب أن العلماء المسلمين هم مؤسسو المنهج العلمى فى البحث التاريخى. ولم تعرف أمة من الأمم هذه القدرة العالية فى جمع المادة التاريخية وضبطها وترسيخها واستخلاص المنهج العلمى من خلال التجربة والملاحظة والقياس والمقارنة .

ويقول الدكتور جمال سلطان : إن أهم ما وصلت إليه السرقة هى السيطرة على اتجاهات الفكر الإسلامى الحديث وتوجيه طلائع النهضة نحو مجالات فكرية محدودة وأصول تراثية معينة تخدم فى مجملها المذاهب الأوروبية الحديثة. وذلك فى محاولة الاستشراق لاعادة ترتيب العقل الاسلامى الحديث وفق منهجية فكرية وإنسانية علمانية.

وقد اكتشف اليوم أن القانون المدنى الفرنسى الذى وضعه نابليون قد نقلت أصوله والكثير المستفيض من مواده عن الشرح الكبير للشيخ الدرديرى المصرى على مختصر خليل فى الفقه المالكى وأن قاعدة المنع من التعسف فى استعمال الحق «والتى أشار إليها الفقهاء الألمان فنالت إعجاب العالم كانت إسلامية. وقد أقروا بها قاعدة إسلامية أصلية «إلى أبحاث أخرى» .

والأهم والخطير فى الأمر أيضا من محاولة تفسير التراث الإسلامى عن طريق الفلسفة المادية والعلمانية والتفسير المادى للتاريخ هو استبدال مضامينه وتفسيره تفسيراً فاسداً على النحو الذى قدمه طه حسين وعبدالرحمن الشرقاوى وغيرهم، والهدف هو تشويش رؤية الأمة الإسلامية المعاصرة لتراثها. وهم يعلمون أن المسلمين سوف يعودون إلى هذا التراث ليبدأوا منه نهضتهم، ومن هنا فهم يحاولون تدميره حتى يحدثوا حالة انقطاع فى مسار الأمة، للإبقاء على التبعية والذوبان والاستقطاب من الغرب للمسلمين.

ومن هنا كانت تلك المقاومة المتصلة التى قام بها.

- الشافعى بالنسبة للغة العربية وأرجانون اليونان.
- ابن حنبل وفتنة خلق القرآن وفرض الفلسفة اليونانية.
- الغزالى ومقاومته لمفاهيم الفلسفة ودحضها.
- ابن تيمية ونقض المنطق الأرسطى وإقامة منطق القرآن .

كذلك فقد كشفت ريادة الغزالى لنظرية ديكارت التى أخذها من كتاب « المنقذ من الضلال» .

ويجيء العصر الحديث ليحمل عشرات من الثمار اليانعة تبدأ بكتاب جمال الدين الأفغانى فى الرد على الدهريين وكتاب محمد عبده فى الرد على هانونو وفرح أنطون صاحب مجلة الجامعة.

والردود التى تثبت فى مواجهة سموم كرومر:، كتبها فريد وجدى ورشيد رضا ومصطفى الغلاييني.

وكان محب الدين الخطيب قد وجه لمخططات التبشير ضربة قوية فى كتابه:
«الغارة على العالم الإسلامى» ثم تابعه الدكتور عمر فروح فى كتابه «التبشير والاستعمار»

ثم جاءت خطوات أخرى مهمة أولها:

تصحيح مصطفى عبد الرازق لمبدأ التفكير العلمى فى مصر حيث يبدأ بالإمام الشافعى وليس بأرسطو. وماكتبه دكتور ضياء الريس عن الفكر السياسى الإسلامى فى مواجهة من قالوا إن الإسلام ليس له فكر سياسى إلا ما نقله من اليونان.

وهناك ما قدمه دكتور محمد عبد الله دراز عن نظرية الأخلاق فى القرآن فى الإسلام داحضا محاولات كثيرة حاولت ربط الأخلاق الإسلامية بالنظرية اليونانية.

ثم جاءت كتابات كثيرة فى مقدمتها ما كتبه محمد المبارك وحسن الشرقاوى وغيرهم عن إسلامية علم النفس، علم الاجتماع وعلم الأخلاق.

كذلك فقد كشف النقاب عن أن منهج فرنسيس بيكون الذى بدأ به الفكر الغربى الحديث لم يكن إلا ترجمة لكتاب الأم للإمام الشافعى دون الإشارة إليه «عبدالحليم الجندى ـ القرآن والعلم الحديث»

وتمضى الخطة إلى غايتها على طريقة «أسلمة العلوم والمناهج والمصطلحات» وتقديم البدائل الإسلامية للفكر الغربى، وتأصيل المفاهيم الإسلامية والتاريخ والعلوم.

وقد تحدث الباحثون حول مشكلة الانتفاع بالتراث الإسلامى فى بدء مسيرة الباحث المسلم الحديث، ذلك أن تصنيفات العلم الحديث لا توجد ولاحتى أسماؤها فى التراث على هذا النحو.

كذلك فإن التراث قد يحتوى على معلومات قيمة لايمكن تصنيفها طبقا لأى تصنيف حديث ولا ربطها به .

إن العالم المسلم الذى تدرب فى الغرب كثيرا ما ينهزم أمام استغلاق التراث الإسلامى الأمر الذى يدفعه بقوة إلى الإعراض واليأس والحكم بأنه ليس فى التراث شئ حول موضوع البحث مع أن الحقيقة أنه هو الذى لاخبرة له بتصنيفات التراث التى تندرج تحتها مثل تلك المادة الملائمة لموضوعه . كذلك فإن العالم المسلم الذى تدرب فى الغرب لايمتلك الأوقات ولا الحيوية المطلوبة للقيام باستطلاع ناجح للمؤلفات الضخمة والكثيرة التى تضم تراث الإسلام.

هذا فى الوقت الذى تسربت فيه النظريات والعلوم الاجتماعية والإنسانية المخالفة للفطرة إلى العالم الإسلامى . ومن هنا أمكن عزل الإسلام إلى أضيق الحدود فضلا عن عدم القدرة على التمييز بين مايتلاءم مع حضارتنا وما ينقصها كل النقص.

والواقع أنه ليس هناك موقف اسلامى حتى اليوم ليست له علاقة بتراث الإسلام مما يتطلب دراية كاملة بالتراث من حيث نواحى القوة والضعف فيه، بل إن الموقف الإسلامى فى الحاضر وفى المستقبل يجب أن يأخذ صورة مصاحبة للتراث دائما وليست انطلاقا جذريا منه.

والمفروض أنه قبل تفصيل العلاقة والملاءمة بين الإسلام وعلم معين يجب أن يكتشف ماذا فى تراث الإسلامممايتصل بهذا العلم. إن تراث أسلافنا يجب أن يظل بالنسبة لنا نقطة الانطلاق نحو الارتباط بالإسلام.

وإن «أسلمتنا» للعلم ستكون ضحلة جدا إذا لم نأخذ تراثنا فى الحسبان. ولم ننتفع بنظرات أسلافنا الثاقبة.

❑ ❑ ❑

الفصل الرابع
خصوصية الثقافة الإسلامية

من أ- طر المقولات التى ترددت فى العقود الأخيرة والتى تمثل قمة التبعية والغزو الثقافى هى مقولة «عالمية الثقافة» أو «عالمية الحضارة» فى محاولة لصهر الأمة الإسلامية ذات العقيدة الخاصة والمثمرة بالربانية والقائمة على أساس التوحيد الخالص، فى الأممية والفكر البشرى المختلط بين الوثنية والمادية والإباحية وخطوط قليلة مضطربة من ميراث رسالات السماء التى سبقت الإسلام والتى دخلت دخائل كثيرة جعلتها بعيدة عن وضعها الطبيعى من رسالة الأديان إلى البشرية .

فالثقافة تختلف عن العلم وعن المعرفة وتتميز بأنها رؤية قائمة على العقيدة والتاريخ واللغة والقيم التى شكلت الأمة أساسا، وهى فى مجال الإسلام قد شكلت مزاج الأمة وعقليتها وروحها منذ أربعة عشر قرنا.

أما العلم فإنه منهج متصل بالعقل والتجربة وهو عالمى التشكيل اشتركت فيه كل الأمم، وتميز فى مجال الإسلام بالمنهج التجريبى الذى قدمه الإسلام استمدادا من القرآن الكريم الذى دعا إلى البرهان والبحث ووضع المسائل موضوع الاختبار.

أما المعرفة فإنها منهج فى البحث يتشكل من ثلاثة عناصر متكاملة هى العقل والعلم والوحى، ولا يقر الإسلام إخراج عالم الغيب من المفهوم العلمى أو اعتبار المنهج التجريبى هو المنهج الوحيد، ومن هنا فقد أعاد الاسلام تعريف المعرفة، وهى أن المعرفة هى كل معلوم خضع للوحى أو العلم أو الحس أو التجربة.

كما لايقر إخضاع العلوم الإنسانية لمناهج العلوم المادية.

وإن محاولة الفكر الغربى وضع الوحى، والغيب فى دائرة الخرافة هو مما لا يقره المفهوم الإسلامى. كما لا يقر تصورات الفكر الغربى عن الألوهية والنبوة والكون والحياة.

وقد قدم الإسلام فى مجال المعرفة منهجه ذا الجناحين «الروح والمادة» كما قدم سنن المجتمعات والحضارات وكشف عن أن الأمم التى تخرج عن الإيمان بالله تبارك وتعالى لابد أن يدمرها انحرافها ويسلمها إلى الفناء.

وقد قدم القرآن عن ذلك عشرات الأمثلة فى الآيات الكريمة ، وقد تميز الإسلام فى هذا المجال بظاهرة التكامل الجامع بين القيم التى تبدو فى نظر الثقافة الغربية متعارضة:

١ ــ الثوابت والمتغيرات

٢ ــ العروبة والإسلام

٣ ــ الاصالة والمعاصرة

٤ ــ الدين والعلم

٥ ــ الدين والدولة

كما أكد الإسلام أن «الدين» هو فى مقدمة العناصر التى استعان بها الإنسان فى محاولته الوصول الى الكمال:

والدين فى مفهوم الإسلام = (عقيدة وشريعة وأخلاق) . فالثقافة الإسلامية هى الشكل الذى يقوم على هذه العناصر الثلاثة، ولقد كان ارتباط الثقافة بالعقيدة أساساً أكبر من ارتباطها باللغة أو العرف، فالثقافة إما إسلامية أو غربية مسيحية أو ماركسية، وهكذا فإن الثقافة ذات خصوصية لمفهوم متكامل جامع بين العقيدة والقيم والعادات والتقاليد، بينما يمثل العلم تراثا إنسانيا عاما. والثقافة فيما يتعلق بالتقاء الفكر البشرى العالمى والمعارف والعلوم فى مجال الاقتباس والتبادل وهى متميزة بخصوصيتها التى لا تنصهر ولا تحتوى.

وهى ضرورة وجود بالنسبة للكيان الفردى والاجتماعى فى المجتمع الإسلامى لأنها هى الحصن الحصين والقلعة الصامدة التى تحول دون انصهار الأمة فى الفكر البشرى أو العالمى أو الأمم مع مرونة واضحة فى أخذ الأساليب والوسائل والتنظيمات دون أخذ النظم والمناهج . فاذا أخذناها حولناها لتصبح مادة خاما يشكلها الفكر الإسلامى فى داخله وتنصهر فيه .

وتتميز الثقافة الإسلامية بطوابع ثلاثة أساسية:

(١) الوحدة الجامعة بين العناصر.

(٢) الأخلاقية.

(٣) الربانية.

(١) كما تتميز بطابع القدرة على «المقاومة» لمحاولات الاحتواء والانصهار، فنحن المسلمين لا نقر «عالمية الثقافة» المفروضة فى هذا العصر على الأمم التابعة.

(٢) كما تتميز بطابع «التبليغ» الذى هو فريضة على المسلمين فى تقديم ثقافتهم وعقيدتهم إلى العالمين مما يستدعى الحفاظ على معالمها كاملة ـ فى أشد أوقات الأزمة ـ حتى لا تحتوى أو تذوب فى الكيانات العالمية المسيطرة.

هذا مع اليقين الواثق بصلاحية المنهج الإسلامى للعالم كله فى هذا العصر وفى كل العصور.

(٣) ضرورة وضوح المعنى الخاص، والذاتية، التميز ، والخصوصية، ذلك «أننا أمة لها خصائصها المميزة وكيانها الحضارى وتاريخها العريق» .

هذا بالإضافة إلى العطاء الإسلامى الذى تحقق للبشرية فى مجال العلوم التجريبية والحضارة.

مهمة الثقافة:

(١) وتلتزم الثقافة الإسلامية بتطوير حركة الفكر الإسلامى بحيث يتمكن العقل الإسلامى من تطبيق النظم الإسلامية فى مجالات الحياة المختلفة «اقتصادية واجتماعية وسياسية»

(٢) ولا نكتفى بأن نرفض المفاهيم المتعارضة مع الإسلام، بل علينا أن نقدم البدائل التى تظهر إمكانية تطبيق معطيات الإسلام، وخاصة فى مجال : الربا والفنون الهابطة والعلوم الإنسانية.

ذلك أن أخطر ما يواجه الثقافة الاسلامية تلك المحاولة التى ترمى إلى تفريغها من محتواها العقائدى بهدف هدم قاعدتى الربانية والأخلاقية فى:

«التعليم ـ الصحافة ـ الفن»

إن مهمة الثقافة الإسلامية هى بناء الإنسان والدفاع عنه ضد التيارات المعادية فعلى الثقافة أن ترصد وتقاوم كل محاولات الغزو الفكرى.

إن أعظم ما تتميز به الثقافة الإسلامية إقرار مبدأين أساسيين:

الأول: أخلاقية الحركة الإنسانية جميعها فى كل ميدان.

الثانى: الحرية المنضبطة.

وقد ثبت بالدليل القاطع وبشهادة علماء الغرب أنفسهم أنه لا توجد ثقافة عالمية يشترك فيها جميع البشر، وأن الثقافة مرتبطة أساساً بالعقائد والأديان والتاريخ واللغة.

وتتشكل الثقافة من عناصر ثلاثة:

«١» التراث التاريخى والحضارى.

«٢» المؤثرات الداخلية المتفاعلة مع مكونات البناء الاجتماعى.

«٣» المؤثرات المتصلة بالعالم الخارجى ومحاولة فرض الثقافات الأخرى.

أولا: أما التراث التاريخى الحضارى فهو ذلك العمل الذى قام به علماء الإسلام فى تفسير وتوضيح وكشف علوم الإسلام المستمدة من القرآن الكريم والسنة النبوية.

وقد وضح فى مفهوم الإسلام الأصيل: تلك التفرقة الواضحة بين «الميراث» الربانى الأصيل «القرآن والسنة» وبين «التراث» الذى هو بمثابة ضوء كاشف أمام المسلمين فى حياتهم وتفكيرهم، فهم لا يقدسونه ولا يضعونه فى درجة القرآن والسنة، ويعرفون أنه عطاء مرتبط بعصره. وظروفه ولكنهم أيضا لايحتقرونه ولا يسخرون منه، ولا ينظرون إليه نظرة الغربيين إلى تراثهم . بينما تراث الغرب مستمد أساسا من الوثنيات والأساطير التى وقف فيها العصر الحديث موقف السخرية والتهكم.

ومن هنا يظل ذلك الاتهام الذى يردده بعض العلمانيين والماركسيين حين يدّعون أنه كلما واجهت أمتنا أزمة أو محنة لجأنا إلى التراث، فهذه مقولة باطلة أساسا، والحقيقة أننا إنما نلجأ إلى المنهج الإسلامى الذى كنا خرجنا عليه فأصابتنا هذه الأزمة أو المحنة، فنحن فى الحقيقة لا نلجأ إلى «التراث» وإنما نعود إلى «الميراث» الذى هو المنهج الأصيل الربانى.

«إذ تخلط عليهم الفوارق العميقة فى الإسلام بين الميراث والتراث» فكون أنهم يسمونه تراثا إنما هى مغالطة صعبة، ولو كانوا أكثر دقة وأقل حقدا لما خلطوا بين المنهج الإسلامى والتراث، ونحن نعرف المسافات بين التراث والميراث ، وهم قد يعرفون ولكنهم يغالطون.

وليس من شك أن أكبر أخطاء التقدميين هو السخرية بالتراث الإسلامى والنظر إليه باستخفاف أو احتقار ويجرون محاولة العبث به والعمل على تدميره من خلال ما يتخوفون من بقائه والمحافظة عليه ـ وليس تقديسه ـ بوصفه الأساس الأول والثابت للبناء عليه وعامل النهضة الحقيقية».

ومن هنا نرى كيف يغتال أدونيس التراث ويصب عليه أحقاد وكراهية خصوم الإسلام.

ثانيا : المؤثرات الداخلية المتفاعلة للتراث تتمثل فى:

التعليم ـ الجامعة ـ المسرح ـ اللغة العربية .

حيث تقدم فى هذا المجال برامج تختلف عن سلوكنا ونعرض أطفالنا للاغتراب ونظامنا الاجتماعى للتفكك والانهيار.

ثالثا: المؤثرات الخارجية المتصلة بالعالم الخارجى ومدى تاثير الثقافات الأخرى على البناء الاجتماعى والقضاء على روح الانتماء، وتتمثل المؤثرات الخارجية فى الاحتلال الثقافى والقانون الوضعى والربا والمصرف ومفاهيم التعليم الوضعى.

ومنها تحويل الاقتصاد الإسلامى إلى اقتصاد ربوى بالإضافة إلى البعوث والاستشراق والترجمة من اللغات الأجنبية.

وهنا تتمثل التبعية الثقافية الناتجة عن الغزو الثقافى وما تعمل له من محو التمايز العقدى وتدمير الشخصية الأساسية.

وتترابط التبعية مع الهيمنة الأجنبية والغزو الثقافى وما تقدمه الهيمنة الأجنبية من إمكانات هائلة لفرض نماذج الحياة والسلوك والتوجيه، سواء فى مجال التعليم أو الصحافة ، ويتمثل الغزو الثقافى فى حركة انتقال الأفكار والعقائد والقيم والعادات الغربية بشكل مكثف وغير مسيطر عليه إلى المجتمع الإسلامى.

وقد تمثل هذا الغزو فى العقود الأخيرة فى ذلك الصراع بين الليبرالية والماركسية، وتبعية الأقطار الإسلامية لهذا الاتجاه أو ذاك ومن هنا فلابد من التفرقة بين التبعية الثقافية والتبادل الثقافى، وفى هذا المجال يجب الحذر الشديد حيث تستطيع الثقافات العالمية أن تفرض مفاهيمها، وفى هذا ما فيه من الخطر على الذاتية الإسلامية.

وتحاول كثيرمن المؤسسات الغربية الزاحفة إلى بلاد الإسلام أن تحتوى الثقافة الإسلامية، وتفرض التبعية، وفى مقدمتها اليونسكو والحوار وجمعيات الروتارى والليونز والإسلام والغرب.

وهذا بالإضافة إلى محاولات الماركسيين الذين تحولوا إلى العلمانية والذين لايستطيعون أن يرسموا مستقبل الثقافة الإسلامية، فهم ليسوا موضع ثقة الناس ولايقبل منهم ما يقدمونه، وذلك بعد أن تحولوا من الماركسية إلى الولاء الغربى، والذين ليس لهم منهج واضح أو محدد، ولكنهم يعملون لخدمة مطامعهم وأهوائهم، ولقد كشفت المتغيرات فشل النموذج الاشتراكى وعجز المشروع الرأسمالى، وكان المسلمون قد كشفوا منذ وقت بعيد هزيمة التجربة الغربية فى بلاد المسلمين حيث أثبت الكيان الإسلامى أنه لا يقبل الجسم الغريب، وهو رافض له من اليوم الأول، وكذلك كان موقفه من التجربة الماركسية.

ومن هنا فإننا فى أشد الحاجة إلى الوعى والحرص إزاء مضاعفة القوى المعادية فى العمل على فرض التبعية على الاسلام والمسلمين والفكر الاسلامى فى مرحلة الضعف الحالية.

وهنا تبدو حاجتنا إلى الدفاع عن خصوصية الثقافة الإسلامية فى مقاومة الغزو الكاسح الذى يمارسه الغرب على مستويين: إعلاميا وإيدلوجيا.

ولا ريب أن الأمة الأسلامية مكبلة وغير قادرة على التحرك وكل ما تتحرك إليه نتيجة التبعية ليس محسوبا عليها حتى تستطيع أن تكسر قيودها وتتحرك من خلال مفاهيمها الاصيلة.

إن العودة إلى الأصالة والدعوة إلى العودة للمنابع ليست أمرا غريبا ولا مستغربا ولكنه من طبيعة الأمور أن يعود المسلم إلى منهج انحرف عنه أو فرضه عليه سواه أو حجب عنه. فما هو وجه الغرابة التى تدهش العلمانيين والشعوبيين اليوم حين يرون المسلمين وهم يلتسمون طريقهم الأصيل بعد أن خدعتهم جماعة المجددين والتقدميين حين أغروهم بالتماس منهج الغرب، أو منهج الماركسية، وخدعوهم عن حقيقة منهجهم الربانى، ثم تبين لهم بعد الضربات التى وجهت إليهم أن مادعو إليه لا يصلح لهم، وأن المسلم الذى نشأ خلال أربعة عشر قرنا فى محيط التوحيد والفطرة والأصالة لا يستطيع أن يجد نهضة بلاده أو سعادة وجوده إلا فى ظل منهجه الأول الأصيل.

ومن هناكان موقف اليقظة الإسلامية وصولا إلى الصحوة الإسلامية، فى مواجهة تحديات العصر وأخطار التغريب والإذابة وطغيان التغيرات العصرية.

ولقد تبين لهم عجز الإيديولوجيتين الكبيرتين : «الرأسمالية والماركسية» عن العطاء الحقيقى فى أفق الإسلام، وأن كل المذاهب والفلسفات والنظريات التى طرحت عبارة عن فكر بشرى وتصورات آنية وفروض قد تصح وقد تخطئ. وهى فى بيئتها ردود أفعال وليست صالحة لتطبق فى المجتمعات الأخرى وخاصة فى المجتمع الإسلامى الذى يختلف اختلافا واضحا فى ثقافته عن المجتمع الأوروبى من خلال العقيدة واللغة والقيم والمفاهيم.

وقد تبين للمسلمين أن كل ماحاول أقطاب الفكر الغربى وأتباعهم تقديمه للمسلمين لم يكن من التراث الأصيل وإنما كان من التراث المنحرف أو التراث العامى.

لقد تبين فساد ابن المقفع وابن عربى والحلاج والسهروردى وإخوان الصفا وكتاب الأغانى وألف ليلة وأسطورة عمر الخيام، كل هذا تبين أنه من الفكر الباطنى والوثنى والإباحى الذى لم يجد فى يوم من الأيام قبولا فى العقلية الإسلامية القائمة على التوحيد، وأن جميع الذين تصدوا له كانوا مرفوضين من المجتمع الإسلامى يصنفون بين الزنادقة والصعاليك، ولم يكن لهم قبول حقيقى، وكان طه حسين كاذبا حين قال أنهم كانوا يمثلون المجتمع الإسلامى.

وقد جاءت دعوة العلمانيين والمغربين لتضليل المسلمين عن حقائق وجودهم حين دعت إلى العصرية والتقدم، ونحن نؤمن بالتقدم بمفهومه الصحيح جامعا «ماديا وروحيا» وأن تكون الأصالة مرتبطة بالمعاصرة وأن تكون المعاصرة قائمة فى إطار الأصالة وألا تطغى العصرية على القيم الثوابت أو تفرض علينا تحولا عن أصالتنا أو تهز خصوصيتنا.

❑ ❑ ❑

ولقد حاولت دعوة التغريبيين إلى هدم التراث الأصيل أن يقوم على أساس آفاق التراث المنحرف والتراث العامى.

من خلال عديد من محاولات: (١) استبدال الحروف اللاتينية بالحروف العربية «سعيد عقل ـ عبد العزيز فهمى» إلى: (٢) تغيير قواعد اللغة العربية فى ضوء قواعد اللغات الأوروبية وعن طريق إلغاء الإعراب: (٣) أو تسكين نهاية الكلمات «قاسم أمين»، (٤)وعن إحلال اللهجة المحلية محل اللغة الفصحى واعتمادها لغة الكتابة الأدبية والثقافية «لطفى السيد ـ لويس عوض ـ خليل حاوى»

إلى دعوات مشبوهة تقف وراء ترويجها جهات ومؤسسات شعوبية واستعمارية.

وكان هذا كله يصور مدى ما تكن هذه الجماعات من عداء للعروبة والإسلام وحقد على التراث الأصيل، وقد تبين فساد القول بأن هناك ثقافتين: فصحى وعامية، أو لأن هناك ثقافتين إسلامية عربية وأخرى فرعونية أو بابلية.

❑ ❑ ❑

إن العودة إلى الأصالة فى مجال التراث يجب أن تكون قائمة على أن الإسلام ليس دينا بمفهوم الغرب أو مفهوم اللاهوت ولكن بوصفه منهج حياة ونظام مجتمع.

وإننا فى ارتباطنا بالتراث لا نرتبط بماض بائد أو أسطورى ولسنا نقدس هذا التراث أو نحاول إعادة تطبيقه، ولكنا نؤمن بأنه ضوء كاشف نستفيد من إيجابياته وسلبياته فى طريقنا إلى مجتمع الإسلام الجديد الذى تقوم على أساسات الإسلام وروح العصر دون تجاوز أى قيمة من قيم الأصالة أو حد من حدود الضوابط التى قدمها الإسلام.

ومفهوم جامع بين الثوابت المتغيرة وبين حركة المتغيرات بالتطور والتغيير فى إطار القيم الأصيلة.

فى إطار من الالتزام الأخلاقى والحرية المنضبطة، لقدجاء الإسلام لإخراج البشرية من ظلمات الأساطير والخرافات ومفاهيم الفلسفة إلى منهج أصيل واضح جامع قدم للبشرية تصورا ميتافيزيقيا كاملا لا تحتاج بعده إلى أساطير الفلاسفة عن الألوهية أو خلق العالم أو حركة الكون.

إن مفهوم المعرفة يقوم على الوحى والعلم والعقل.

أما الوحى فليس موجودا فى المفهوم الغربى وليس خطأ أشد من إخراج عالم الغيب من المفهوم العلمى أو اعتبار المنهج التجريبى هو المصدر الوحيد للمعرفة.

نحن نؤمن بالعقل والنقل «والنقل هو الوحى» والعقل سراج زيته الوحى. فليس للعقل أن يسبق الوحى ولكن يفسره، وليس صحيحا أنه إذا اختلف العقل والوحى قدمنا العقل فهذا مفهوم خاطئ قال به بعض الفلاسفة أمثال ابن رشد، ولكن مفهوم أهل السنة والجماعة يرى أن العقل يخضع للوحى، فإذا اختلفا أعيد النظر فى تصور العقل، كذلك فنحن المسلمين لا نقر مفهوم الحس كمصدر واحد للمعرفة، والحس كل ما يتصل بالمحسوس، وإنكار ما لايراه الإنسان أو يلمسه لايعنى عدم وجود هذا الشيء، ومن هنا كان لابد أن يكون الوحى «أو الغيب» أحد المصادر الأساسية للمعرفة العلمية إلى جوار العلم والحس والتجربة.

وحين يحاول أمثال «مراد وهبة» الاستشهاد بابن رشد فى تقديم العقل وتأويل الدين فإن أحداً لا يقره على هذا التصور الذى رجع عنه ابن رشد فى نهاية عمره، والذى عارضه فيه كل العلماء والفقهاء المسلمين فإن ما يسمى العقلية الغيبية ليس صحيحا بالنسبة للإسلام الذى يجعل الغيب عنصرا من عناصر المعرفة وليس المعرفة كلها.

❑ ❑ ❑

لقد عمد كتاب الغرب ومستشرقوه ومبشروه إلى هدم التراث الأصيل وبناء التراث المنحرف الزائف، والتراث العامى فى حرب معلنة على اللغة العربية الفصحى وإحياء مايسمى التراث العامى الشعبى لهدم قاعدة التراث الأصيل.

ولقد وضح أن هذه الكلمات التى جمعها البعض وحاول أن يجعل لها كيانا مستقلا لم تكن إلا تصورات عامية ساذجة عمد النفوذ الاستعمارى إلى الاهتمام بها وكلف بعض ر]اله فى التغلغل خلال الأوساط المحلية لجمع كلمات عامية تقال بين السذج والبدو والأميين، وكان أحدهم فى مصر يكتبها على كم قميصه حتى لا يلحظ أحد أنه يجمعها.

وهى ليست فى حقيقتها تراثا له قيمة بالنسبة للتراث الأصيل الذى يتمثل فى الشعر العربى والحكمة وكتابات أعلام الفكر والأدب، وكان هذا التراث العامى موضع اهتمام الماركسيين جريا وراء الأساطير والخرافات القديمة ومحاولة إحيائها وادخالها فى الشعر، وفى النظريات الحديثة على النحو الذى قام به فرويد حين جمع أساطير اليونان وشكل منها نظريته.

ولقد اهتم الغرب بالأساطير حيث كتب (فريزر) الغصن الذهبى، وحاول دعاة إحياء الفرعونية والفينيقية والاشورية والبابلية البحث عن تراث يجعلونه ظهيرا لدعوتهم فلم يجدوا إلا تفاهات ونثراً مبعثرة لا قيمة لها.

ولقد كان دعاة العامية يهتمون بمثل هذه المحاولات والتصورات دون أن يحققوا شيئا ذا قيمة وعجزت محاولاتهم عن أن تجذب الناس إليها.

ولم تستطع هذه النتف أن تعطى عالم الاجتماع أى إشارات حقيقية، فقد تمثلت فى بيئات الجهل والضعف ولم تمثل المجتمع الأصيل عبر الأدب الأصيل.

ولقد كان هذا العمل فى جملته مهددا للغة العربية الفصحى بكل ما ترمز اليه من موروثات وقيم روحية وفكرية وقومية توحد بين أبناء الأمة العربية الإسلامية فضلا عن تشجيع اللهجات المحلية، وبعثا للنعرات الإقليمية وتكريسا لعوامل الفرقة بين أبناء الوطن العربى الكبير.

وكان غاية ماوصف هذا الخليط بأنه خرافات وترسبات تمثل عصور الجهل والتخلف.. وقد جعله المستشرقون سلاحا لهم فى سبيل هدم مقومات الفصحى والأصالة والأدب العربى البليغ.

الفصل الخامس
تغريب الأدب العربى

أولا: وسائل وأهداف تغريب الأدب العربى

إن الهدف من (تغريب) الأدب العربى هو إخراجه من أخلاقيته أساساً، ومن القيم والأصول العقائدية، التى قام عليها، وفى مواجهة ذلك فإن هناك حقيقتين أساسيتين :

أولاً : أن الأدب العربى ليس إلا قطاعاً من الفكر الإسلامى، يجب ألا ينفصل عنه، ومعنى ذلك أن الأدب العربى يستمد مقوماته من الفكر الإسلامى ومفهوم الإنسان فى الإسلام.

ثانياً : أن الأدب يجب أن يتحرر من الخضوع للمناهج الوافدة فى النقد أو كتابة تاريخ الأدب فإن للأدب العربى تاريخاً عريضاً.

ومن هنا نصل إلى قاعدة أساسية : إن الأدب العربى يستمد مفهومه من التصور الإسلامى القائم على وحدة الأمة الإسلامية، وليس الوقوف عند الإقليمية أو القومية، هذا مع تقدير أثر الإقليم والعنصر فى الأدب، وهو تأثير مقبول مالم يكن هناك تصور عنصرى أو عرقى أو إعلاء للدم أو الجنس...

❑ ❑ ❑

وعندما بدأت حركة إحياء الأدب العربى فى العصر الحديث كان أمام المسلمين أساسان :

الأول : دراسة الأدب العربى فى مراحله السابقة للعصر الحديث.

الثانى : الاستهداء بالمفاهيم الغربية فى النقد وتقويم الأنواع الأدبية (وفى مقدمتها الشعر والقصة).

وذلك فى نطاق اليقظة العربية فى مجالات الفكر كله.

ولقد كانت الجامعة المصرية هى منطلق هذه الدراسات من خلال المستشرقين الذين دعوا إلى تدريس مواد الأدب والفلسفة والتاريخ، وكانوا فى الأغلب من الفرنسيين، وهم الذين ابتعثوا عدداً من الشباب العربى إلى جامعات الغرب وفى مقدمتهم (منصور فهمى

وطه حسين وهيكل وزكى مبارك)، وكان بعض هذا الرعيل قد عمد إلى دراسة الأدب الغربى والاستهداء بالأساليب الغربية فى كتابة الشعر والقصة والنقد، وفى مقدمة هؤلاء عباس العقاد وإبراهيم عبد القادر المازنى وعبد الرحمن شكرى، وقد مالوا إلى دراسات الأدب الإنجليزى، وبذلك تشكل فريقان من أدباء الموالاة : أحدهما إلى الأدب الإنجليزى، والآخر إلى الأدب الفرنسى وهم من عرفوا بعد بعبارة (لا تينيون وسكسونيون).

ومن هنا دخلت التبعية إلى الأدب العربى الحديث، وخاصة فى مجال استحداث القصة على النمط الغربى.

وفى هذه المرحلة بدأت عملية التماس نظريات الأدب الغربى وتطبيقها على الأدب العربى، وانقسم الكتاب العرب بين المدرستين الفرنسية والإنجليزية، نظريات (سانت بيف وبرونتير وتين) وقد دعا إليها طه حسين، وماكولى وهازلت وقد دعا إليها أو التمسها : عبد الرحمن شكرى والعقاد والمازنى.

ومن ثم بدأت تدخل إلى الأدب العربى المعاصر عناصر جديدة عن الأدب المكشوف وقصة الخيانة والجريمة والانحراف الإباحى.

وكان أخطر ما تم فى هذه المرحلة إعادة إحياء شعراء الإباحة والغلمة والفاحشة والغزل بالمذكر أمثال أبى نواس والحباب و الحُطّيْئَة والشعراء الصعاليك.

وتلك مهمة المستشرقين الذين يوجهون من يلجأ إليهم من الباحثين إلى هذه الجوانب لإحيائها وتضخيمها.

وكان من وراء ذلك دسائس الصهيونية التى غلبت صور الانحراف فى الأدب العربى. وأبرزت الزنادقة والصعاليك، وإخفاء النماذج الكثيرة من الأسوياء العباقرة.

وفى هذه المرحلة كان الأدب الأوروبى هو المثل الأعلى، وكان المستشرقون هم الذين يرسمون خطوات تغريب الأدب العربى وإخراجه من مفاهيم الإسلام والعروبة جميعاً.

❑ ❑ ❑

لقد فرض اليهود أنفسهم على حركة الاستشراق لتحقيق أهدافهم فى النيل من الإسلام بإدخال أسلوب (الشك الفلسفى) إلى الأدب العربى والفكر الإسلامى، للتشكيك فى القيم الإسلامية وإثارة جو من السخرية والاحتقار إليها، والعمل على تشويه الأدب العربى والتاريخ الإسلامى.

وكانت قضية انتحال الشعر التى كتب عنها مرجليوث، ومن قبله (أرنست رنيان) والتى تلقفها طه حسين للقضاء على مصدر مهم فى فهم القرآن الكريم وتفسيره، ذلك هو التشكيك فى الشعر الجاهلى والادعاء بأنه كتب بعد الإسلام.

وقد أشار إلى ذلك الدكتور مصطفى هدارة فى حديث مستفيض (الأهرام ١٩٨٩/٩/٢١) حيث قال : لقد أمكن للاستشراق المعاصر أن يوجه الثقافة العربية وجهة غربية بسلوك أحد طريقين:

الطريق الأول : محاولة فك الارتباط بالتراث، ولو أن المستشرقين عنوا بهذا التراث عناية فائقة، ولكن كانت لهم رؤيتهم الخاصة، التى تشككنا فى تراثنا وتجعل قيمته متدنية إلى أبعد حد، ويذكر فى هذا ما كتبه مرجليوث عن أصول الشعر العربى التى أنكرها جملة وتفصيلاً، وادعى عدم وجود شعر ينتمى للعصر الجاهلى، وإنما هو من وضع (الرواة) ، ومن آرائهم التى تفقد تراثنا الأدبى قيمته على سبيل المثال قولهم : إن الشعر العربى (غيرى) بمعنى أن الشاعر لا يتحدث عن نفسه أبداً وإنما يتحدث دائماً عن غيره، فهو يمدح ويهجو ويرثى، بل إنه فى غزله لا يتحدث عن مشاعره وإنما عن أمور جنسية فى محبوبته، مثل هذه الأقوال تحقق الاتجاه الذى رمى إليه الاستشراق بدعوى خدمتهم للتراث العربى، ولكن النتائج التى توصلوا إليها تفقد هذا التراث أصالته وقيمه.

الطريق الثانى : وهو الذى توصل إليه الاستشراق المعاصر، إنه يركز على الأعمال الأدبية المتأثرة بالغرب فكراً وأداء يبين أن ثقافته هى التى سادت أخيراً، ولعلك تعنى أن (حركة الحداثة) بمعناها الإيديولوجى الذى سار وراءها أمثال (أدونيس) قد تركت آثاراً مدمرة فى اتجاهاتنا الأدبية المعاصرة التى أصبحت محاكاة للفكر الغربى، ولا تعبر عن مجتمعنا ولا شخصيتنا، بل تعجب عندما تجد كاتباً اسرائيلياً يكتب عن يوسف إدريس

ويهاجم كل الذين انتقدوا جنوحه إلى العامية فى بعض أقاصيصه، وهو ما يذكرنا بالمعركة الاستشراقية القديمة التى حاولت فرض السيادة للعامية على الفصحى ليفقد العرب أحد مقومات وحدتهم بل أهم هذه المقومات، وهو وحدة اللغة والأنساب ووحدة الفكر.

ولا شك أن حركة الاستشراق فى بدايتها كانت موجهة لمعرفة تفصيلات الحياة الاجتماعية والنفسية للشعوب الواقعة فى قبضة الاستعمار، بالإضافة إلى ما يقوم به الاستعمار من أمور سياسية واتجاهات الفكر والعناصر الاقتصادية، ثم عدل الاستشراق مساره بعد أن زالت دولة الاستعمار وحل محلها استعمار من نوع جديد هو :

استعمار الفكر وتسليط المبادئ الاجتماعية وبسط الحياة وصولاً فى النهاية إلى الخضوع السياسى والاقتصادى.

وقد حدث رد فعل فى المجتمعات العربية والإسلامية ضد هذا التيار منذ وقت بعيد، وكانت (العلمانية) من بين الأغراض المهمة التى أراد الاستعمار بثها عندما وجد أن الإسلام خاصة يرتبط باتجاهات الشعوب الإسلامية الفكرية والاجتماعية والاقتصادية، فكانت الخطوة الأولى (تحييد) المسلمين بدعوة الليبرالية المطلقة وعدم الخضوع للغيبيات فيما يسمونه، وقد أثرت هذه المعركة على بعض المفكرين ووجدوا أن نمط الحياة الأوروبية قد يكون مثلاً أعلى يحقق لمجتمعنا التقدم والرفاهية، ولكنهم أخذوا بالظاهر دون الجوهر، وكانت هناك دعوة ربما أخلص أصحابها فى إعلانها كدعوة (طه حسين) إلى تعلم اللاتينية واليونانية حتى فى مدارسنا الثانوية تقليداً لنمط التعليم فى أوروبا، بالإضافة إلى اتخاذ النمط الأوروبى سبيلاً لحياتنا فى كل جوانبها، ولم يتحرج من الدعوة لخروج مصر من آسيا وأفريقيا إلى حوض البحر المتوسط.

لقد تطورت المخابرات الغربية والشرقية تطوراً هائلاً فى السنوات الأخيرة، وأصبحت فى حاجة إلى معلومات، قد تبدو تافهة فى نظر الآخرين، ولكنها تستطيع أن تؤلف منها معلومات على قدر كبير من الخطر والأهمية.

ولاشك أن وجود مستشرقين متخصصين فى العربية وآدابها ومعظمهم يأتى البلاد العربية ويقضى فيها فترات قد تطول يجمعون قدراً كبيراً من المعلومات التى قد تفيد

مؤسسات الاستعمار في بلادهم وإن لم يكونوا، كما كان أسلافهم من المستشرقين القدماء، مرتبطين ارتباطاً كلياً بأجهزة هذه المخابرات أو موجهين للدراسات العربية من أجل تحقيق هذا الهدف .

ومن هنا فإن على مؤسساتنا أن تكون على وعى بما ينبغى أن تؤديه من دور، وأن يكون مواطنونا وعلماؤنا مساهمين فى إثراء هذه المؤسسات بما تحتاج إليه من معلومات عن البلاد الأخرى» . أ . هـ

❑ ❑ ❑

ولقد بدت تبعية الأدب العربى لموجة التغريب العاصفة واضحة، واحتفل بها الاستشراق وذكر أصحابها دون كل كتاب العربية وترجم آثارهم وأدخلهم دائرة الأدب الغربى.

جبران خليل جبران، نجيب محفوظ، عبد الرحمن الشرقاوى، توفيق الحكيم، سلامة موسى، لويس عوض، الطيب صالح، الطاهر وطار، غادة السمان، أدونيس، ليلى العثمان.

هذه الأسماء التى تروقهم ويترجمون لها ويعلنون اهتمامهم بها ويرسمون تاريخ الأدب العربى وتطوره من خلالها، أما ما سوى ذلك من أهل الأصالة والغيرة على تراثهم وقيمهم، وحاملى لواء الدعوة إلى المنابع فلا ذكر لهم.

يقول المستشرق الروسى، فلاديمير شاغان:

لقد تعرفنا على الأدب العربى من خلال ألف ليلة ومن الموروثات والسير الشعبية التى ترجمت، ومن كتابات أمثال الطيب صالح حيث قرأت (موسم الهجرة إلى الشمال) ولم أستطع النوم وأقسمت أن أترجم هذه الرواية، فهذا هو الأدب العربى.

نعم ، هذا هو الأدب العربى الذى يهمهم.

ومن هنا تكون الإجابة على السؤال الذى يتردد دائماً:

لماذا لا يختارون من الأدب الأوروبى غير العناصر المتمردة الحاقدة المسرفة فى الإباحة البشعة فى النظرة إلى الحياة إلا إذا كان هذا الأدب الغربى كله كذلك ـ أما إذا كان هناك جانب سام فلماذا لا يقدمونه لنا.

إن القصة نفسها ـ كما صنعها الغرب ـ لا تقوم إلا على الصراع وعلى تقديم أسوأ الصور أو المأساة أو الدراما التى تحرق كل خير وضياء ونور وتغرق الناس فى الأحقاد والخلافات والمؤامرات والصراعات.

ومن هنا فنحن قد غفلنا عن أصول مفهوم الإسلام للأدب، واندفعنا وراء التبعية والتصور الغربى المختلف تبعاً لمجتمع مختلف.

ولم نفرق بين التصور الغربى المستمد من ثقافة وعقيدة وقيم مجتمع غير مجتمعنا، ومن هنا كانت المأساة أو الأزمة التى وقع فيها الأدب العربى من خلال انسياقه وراء الأدب الغربى سواء من ناحية اتخاذ أساليبه أو تصوراته أو حتى مقاييسه، سواء بإحياء الأساطير أو الفلكلور أو كتابة الشعر الحر أو تقبل مفاهيم غريبة، خالصة كالسريالية والحداثة والبنيوية، أو تقسيم العصور إلى : رومانسية وواقعية ورمزية ورومانتيكية، وحتى حين وجدنا من يحفل بالدين وقيمه أمثال (إليوت) تجاوزنا مفهومه الأصيل ولم نعبأ به.

ولقد كانت المحاولة كلها ترمى إلى الخروج من الأصالة ومن الوضوح ومن الصدق ومن قيم الإسلام الأصيلة إلى التيه الغريب المليء بالجنس والإباحية والحقد والصراع، والدخول فى مرحلة الغموض والإبهام والصور الذهنية.

وبدأ هذا الاهتمام الكبير بتأكيد (الكلمة الخبيثة) التى اجتثت من فوق الأرض، بمحاولات صلاح عبد الصبور والسياب وأدونيس وأمل دنقل فى الشعر وإحياء الأساطير، وفى القصة المكشوفة : إحسان عبد القدوس ونجيب محفوظ ويوسف السباعى والطيب صالح.

وكان عمل المهجريين بالغ الخطورة والأثر وعلى رأسهم جبران خليل جبران وميخائيل نعيمة وإيليا أبو ماضى.

فقد كانوا ممتلئين بأحقاد كراهية الإسلام يحملون فى أعماقهم (المارونية الكاثوليكية)، وقد عرض جبران مفاهيم خطيرة فى كتابه (النبى) يراد بها هدم المفهوم الأصيل للدين الحق، وكانت قصيدة (اللا أدريه) لإيليا أبو ماضى تشكيكاً خطيراً فى الألوهية الحقة. وقد قوبلت بغفلة شديدة دون نظر لمخالفتها لمفهوم التوحيد حتى وصلت إلى مرحلة أن تغنى على لسان موسيقار عربى فتذاع فى كل مكان.

وهل كان إيليا أبو ماضى حقيقة لا يعرف من أين جاء (جئت لا أعرف من أين ولكنى أتيت) .

وكان الأمر كذلك بالنسبة لإدخال أكاذيب على عمر الخيام لنشر شعر فارسى قديم يشيد بالخمر والإباحة ويجند له عشرات الشعراء العرب لترجمته أمثال أحمد رامى (الذى كان فى حقيقته من جماعة الباطنية أتباع الحاكم بأمر الله) .

ولقد كانت وراء ذلك كله مؤامرات لم تكشف لإخواننا الذين حملوا لواء دراسة الأدب العربى فغابت عنهم هذه المؤامرة الخفية.

وكان أخطر أعمال المهجريين : إدخال الأسلوب الكنسى التوراتى ومنه نشأت فكرة الظلال والأضواء والفكر الباطنى الذى يلتمس مظهراً من التصوف الخادع.

وكان هدف نشر هذا هو التحول عن الأسلوب القرآنى ومنه خرجت فكرة (الحداثة) التى دعا إليها أدونيس، والبنيوية وغيرها.

وقد ورث يوسف الخال ميخائيل نعيمة على طريق هدم البيان العربى.

❑ ❑ ❑

وكان للترجمة دورها الخطير... فقد ترجم المارون أكثر من عشرة آلاف قصة من القصص النازلة الإباحية الفرنسية، وطرحوها فى الأسواق، وكانت تباع بأسعار زهيدة، ومعظم ما نقل من الفرنسية إلى اللسان العربى كان مشحوناً بالمخازى والجرائم مما ينسب إلى الإباحية فى شتى مجالات الحياة وخاصة فى مجال الكنيسة (المجلة الجديدة ص ٤٤م ٣ سنة ١٩٣٤).

وكان طانيوس عبده فى مقدمة هؤلاء وتبعه نقولا رزق الله، يقول كاتب المقال : وكان طانيوس عبده يهبط إلى مستوى الجمهور بنقله (كذا وكذا) والقصة الفرنسية الشائعة التى تعالج الموضوع الجنسى كمثل بارز من أمثلة الانحطاط فى فرنسا التى تصدر فيها مجلات حاملة لصور النساء والعرايا طبق الأصل.

وفى سبيل الوصول إلى تغريب الأدب وتدمير مقوماته قامت هذه الدعوات المختلفة إلى ما يسمى (عصرنة الأدب) ودفعه إلى مجال العالمية، وذلك بالثورة على قوالبه اللغوية

وقيمه الاجتماعية والأخلاقية، ومن هنا كان قيام «المدرسة الإسلامية» فى الأدب مرحلة طبيعية للخطوات التى سبقت والتى ارتبطت باليقظة الإسلامية التى حددت منذ ثلاثينات هذا القرن الميلادى المفهوم الإسلامى المتميز للأدب، ولانغلو فى القول إذا قلنا أن الأستاذ الإمام حسن البنا هو أول من تحدث فى هذا الموضوع منذ مناقشة كتاب (الشعر الجاهلى) لتقييم موقف الدكتور طه حسين كأستاذ للأدب العربى، وقد أثار هذا الموضوع معى أخى الدكتور نجيب الكيلانى ونحن نشهد أحد مؤتمرات الأدب الإسلامى فأشرت إلى أن الاستاذ البنا ذكر فى مقال مطول نشرته مجلة الفتح (م٥ ـ ١٣٤٩ هـ) أن المدرس فى أى مادة ينظر إليه من جهات ثلاث (١) من ناحية مواهبه فى المادة التى يدرسها (٢) ومن مادته التى يقدمها لتلاميذه (٣) ومن طريقته فى التفكير. وقال إن طه حسين لا يجيد أسلوب الكتابة إذا حاكمته إلى الذوق العربى والبلاغة اللغوية وقسته بما وضعه الأئمة من أوزان البيان ومقاييسه، وما هو بالناقد الذى يحسن النقد الصحيح، وبعد فليس الدكتور طه حسين متخصصاً فى دراسة تاريخ أدب العرب، لم يتلقه من أستاذ ولم يلم به فى مدرسة وإنما علم من ذلك ما تعلق بذهنه من مطالعة كتب الأدب لا لتدرس ولكن ليقرأها، وما نيل الدكتور طه حسين إجازته فى تاريخ اليونان أو تاريخ العرب قبل الإسلام وتعد أقوى الدعائم التى يستند إليها الكاتب إذا أراد أن يكتب فى الأدب العربى، فمن فاتته روايته فقد فاته أس البحث ونبراسه وسار على غير هدى» وهذه العبارات تمثل أول ما قيل فى إرساء المفهوم الإسلامى للأدب.

❑ ❑ ❑

أما بالنسبة لطه حسين والعقاد فإنهما لا يمتان أصلاً إلى المدرسة الإسلامية من الناحية الفكرية ـ كما يقول الدكتور محمد محمد حسين ـ ولكنهما يمتان منذ نشأتهما إلى المدرسة الليبرالية المحررة التى يعتبر لطفى السيد أستاذها الأول فى جيلهما، والمدرسة الليبرالية تحكم العقل المجرد والمتحرر من كل المواريث الفكرية والسلوكية فى كل شئ ولا تبالى أن تلتقى مع الدين فى كل وجهات النظر أو فى بعضها أو تتعارض معه وتخالفه، ولقد كان طه حسين أكثر عنفاً أو أكثر جرأة فى معارضة الدين وفى المجاهرة بما يثير الناس ليلفت إلى نفسه الأنظار.

وقد هاجم طه حسين (أباه) فيما كان يتلوه من أوراد فى أعقاب الصلاة وفى الليل فى كتاب الأيام.

وعندما اكتسحت الموجة الإسلامية العامة طه حسين والعقاد تتابعت كتبهما الإسلامية بعد أن أصبح ذلك هو البدع الشائع الذى يغمر الأسواق، ولم يعد التشدق بالكفر ونظراته المستوردة سمة من سمات المفكرين تستهوى الأغرار من الشباب كما كان فى العشرينات، ويرجع هذا الانقلاب الفكرى إلى عدة عوامل عدلت بالناس وبكثير من المفكرين عن طريق احتذاء الحضارة الغربية والفكر الغربى، وردتهم إلى طريق الإسلام ومن ذلك (موجه التبشير ـ وهجرة اليهود إلى فلسطين) وسقوط الخلافة على يد الكماليين و ظهور جمعية إسلامية عظيم نفوذها هى الإخوان والشبان.

ويقول الدكتور محمد محمد حسين : « نظرية فى المعرفة، ولذلك كان من المهم أن لا يقبل فكر إسلامى أو أدب إسلامى من مفكر أو أديب لا يمارس الإسلام ولا يلتزم به، ومعروف أن طه حسين والعقاد لم يكونا ممارسين للإسلام فى أصوله الأصيلة.

ومن وراء وسائل الإعلام جهات مختلفة ذات نفوذ وسلطان تجمعها عداوة الإسلام والكيد له، وهى بأيدى ضعاف المسلمين الذين يغريهم بريق المال والجاه.»



ثانيا: أثر الفكر الغربى فى الأدب العربى

طغى على الأدب العربى مفهوم الشعر الحر، وفى القصة برز مفهوم الدراما الغربى، وخضع الأدب العربى فى مجال النقد وتاريخ الأدب إلى مناهج الغرب تماماً دون وعى بالتفرقة الواضحة بين مفهوم الإنسان فى الإسلام من حيث إنه جماع روح ومادة، وعقل وقلب، وبين مفهوم الإنسان فى الفكر الغربى من حيث إنه حيوان ناطق خاضع للغريزة كما صوره فرويد أو خاضع للمعدة كما صوره ماركس.

وكان الفكر الغربى ـ الذى أصبح فى تلك الفترة ثم بعده الفكر الماركسى منذ الستينات ـ قد انتقل إلى مراحل متعددة من الفكر اليونانى القديم بمفهوم الإباحة إلى عبادة الجسد وتقديس الشهوة من ناحية ومن الإلحاد من ناحية أخرى تحت اسم (علم الأصنام) ومنها تحول الغرب إلى اللاهوت المسيحى فى مفهوم ثلاثى خاطئ:

هو التثليث والصلب والخطيئة، بالإضافة إلى ما نسب إلى الكتاب المقدس من إباحيات.

(ومما يذكر أن ما يقرب من ثلث القرآن جاء ليكشف مؤامرة أهل الكتاب فى تجاوز الأصل المنزل).

وقد كان من أخطر أعمال اليهود والنصارى إحياء المجوسية والنصرانية المحرفة والباطنية.

ومن ذلك نظرية تطور العائلة على أساس مقولة أن المرأة كانت مشاعة فى عهد البشرية الأولى ثم تكونت العائلة بفعل عامل اقتصادى، وهذه النظرية باطلة وهى من سموم الأنتر بولوجية.

ومن ذلك أيضاً نظرية تقول بأن البشرية كانت وثنية ثم ظهر التوحيد بظهور اليهودية، والحق أن البشرية بدأت موحدة بآدم ونوح ثم دخلها الانحراف وجاءت الأنبياء تترى، ولما جاءت رسالة موسى عليه السلام حرفها اليهود.

وقد جاء كتاب العرب ليتحدثوا عن الحملة الفرنسية ويتخذوا منها علامة على عصر حديث، وينظروا إلى ما قبله كأنه منفصل تماما وفى هذا خطآن كبيران:

أما الأول: فإن الحملة الفرنسية جاءت لهدم النهضة التى كانت قد بدأت بقيادة الزبيدى والجبرتى الكبير وابن عبد الوهاب وتدميرها.

أما الثانى: فإن من أكبر أخطاء المجددين فصل العصر الحديث عن تاريخ الأدب العربى منذ فجر الإسلام، والنظر إليه كأنه أحد مراحل منفصلة، وتحكيم التفسير المادى فيه وإحياء الجوانب الإباحية والمنحرفة منه، وحجب الجوانب الإيجابية والشخصيات ذات العطاء الروحى والاجتماعى.

(وقد حفلت كتب الأدب العربى المقررة بأسماء الشخصيات التافهة والمنحرفة أمثال أبى نواس والحطيئة من شعراء الإباحة والهجاء) بينما تجاهلت عشرات الأعلام فى الأدب والفكر والعطاء الاجتماعى والأخلاقى.

❑❑❑

وقد جرى التياران جنبا إلى جنب : تيار الفكر المادى (الإلحاد) وتيار الإباحة والجنس، حيث كان كتاب المارون : جرجى زيدان وصروف ونمر ومكاريوس يقدمون فى الهلال والمقتطف، هذا الفكر المسموم الذى تأثر به الكثيرون واستطاع أن يكسب عدداً من الشباب المثقف الذى كان يقرأ ما ينشر للمعرى والأشعار المنسوبة للخيام، وتلك الدعوة العريضة التى تقول أن العلم هو مفتاح أسرار الكون، وأن كل ما سوى العلم هو أساطير، وقد ورث شبلى شميل: إسماعيل مظهر، ثم سلامة موسى، وقد روى نجيب محفوظ تجربته فى هذا المجال فى قصة (بين القصرين) : لقد كانت نظرية دارون هى منطلق الفكر المادى والإلحادى فى البلاد العربية، ولم تكن معارضة يعقوب صروف صاحب المقتطف إلا خدعة الذين يقتسمون العمل بينهم: معارض ومؤيد حتى يكسبوا الناس إلى صفهم بالخداع والباطل.

وقد أشار دكتور سعيد على فى بحث له بمجلة الهلال (أبريل ١٩٨٨) إلى هذه المعانى حيث قال : كان من الطبيعى أن يعمم شبلى شميل نتائج نظرية التطور على الظواهر الأخرى حتى ولو كانت من الظواهر النفسية والاجتماعية، ولهذا نجده يعتبر علم النفس فرعاً من علم الفسيولوجيا فيجد النظر فى العقل كالنظر فى وظائف الأعضاء، إنه عمل مادى.

وقد حرص شبلى شميل على الدعوة إلى ماسماه (مادية الكون)
حيث يقول : إن القول بمذهب النشوء يستلزم ضرورة القول بمادية الكون
(عام ١٨٥٩ ـ نشر دارون كتابه فى أصل الأنواع). ونشر شبلى شميل كتابه (شرح بخنر على مذهب دارون عام ١٨٨٤).

ثم دخل سلامة موسى مضمار التطور فى وقت لاحق حيث ينظر سلامة موسى إلى جميع الكتب المقدسة على أنها سواء، لكنه يضيف إليها عشرات من المؤلفات الأخرى فى الفلسفة والأدب، ويقول إن بعض ديانته ترجع إلى جمهورية أفلاطون وإلى الإنسان والسوبرمان لبرناردشو وإلى مؤلفات روسو وتولستوى ودستوفسكى وإلى أخناتون.

وهو بهذا يقدم مفهوما للدين يختلف تماماً مع ما هو مقرر فى الأديان السماوية. (وقد أخذ به كثيرون فمنهم من خلط بين محمد وعيسى وتولستوى) ووضع صورهم فى غرفته على أنهم جميعاً أنبياء.

لقدكانت نظرية دارون فى الأساس نظرية فى البيولوجيا وعلم الأحياء، ولكن سرعان ما تلقفتها الأيدى فامتدت نظرية التطور إلى الاجتماع والاقتصاد والدين، فصادفت ثوابت الكيان الحضارى العام، ومرد ذلك إلى عقل الرأى العام الذى كان قوياً مسلحاً فتغلب، وانتقم وأصبحت له السلطة التامة، فقد رأى الرأى العام فيها غلوا علمياً مكروهاً، وثبت بمفهوم الإسلام أن الدين الحق لا يعارض العلم الحق، بل إن العلم والدين شئ واحد، ولم تلبث هذه الثورة الفكرية أن خبت بالسرعة ذاتها، ولم تكن إلا ومضة خاطفة دون أن تمر بأدوار نضج واستقرار.

وتوالت بعد نظرية دارون فى العلوم الطبيعية، نظرية هيجل فى التاريخ والفكر ثم نظرية كارل ماركس فى علم الاجتماع.

❑ ❑ ❑

وقد حرص الأدباء المجددون على تقديم مذاهب الأدب الغربى واعتبارهما مثلاً عاليا للأدب العربى الحديث وللفن، فى محاولة للخروج من الضوابط والقيم جميعاً، فقد اصطلح على أن (السريالية) تهدف إلى كسر القيود الفنية الجمالية وتحرير الفنان

والقصاص والشاعر للتوصل إلى درجة اللاوعى، إلى ما يسمى (فوق الحقيقة) واستخدموا موضوعات هى مزيج غريب من الأحلام والهلوسة والعقل الباطن.

وقد ارتبط اتجاههم إلى الماركسية فقالوا: إن العلم الفنى ينبع من الثورة الاجتماعية، وكان أكبر تأثرهم بآراء فرويد.

وأطلق على السريالية تعبير (فوق الواقعية) أو الأخلاقية الجديدة. فى محاولة لطرح جميع الضوابط والقيم الأخلاقية وتحطيم كل القيود للدخول فى عوالم الطفولة والحرية والخيال والجنون وما يتصل بها جميعاً من هذيان وهلوسة. مع ذم الواقع والوضوح والإيجابية.

و هو بالجملة العمل على الخروج من سلطان العقل والمنطق اعتماداً على اكتشافات فرويد حيث وجه اهتمامه إلى الحلم والخيال. ومن ثم جرى التركيز على حكايات الجن والخرائب والقصور المهجورة والوساطة الروحية والاهتمام بحكايات المشى خلال النوم والخضوع للمصادفة، وبالجملة الخروج التام على كل ما تجمعنا فيه العقيدة، والتوغل الخطير فى مناطق شيطانية على حد تعبير أقطابهم.

وقد كان (بودلير) من آباء هذه المدرسة.

وكان من تعبيراتهم «إيجاد تلقائية يقصد بها التعبير عن العمل الحقيقى للفكر فى غياب كل ضابط يمارسه العقل خارج كل احتياط فنى أو أخلاقى».

وكان هدف السريالية تحطيم المجتمع الرأسمالى ونشر المفاهيم المضللة فى حملات عنيفة على مختلف الاتجاهات والمعتقدات، وما تزال هذه القواعد وخاصة ما يتعلق باللجوء إلى اللاشعور والخيال وتحطيم القيم والخروج من سلطان العقل والمنطق ممتدة فى جميع النظريات والفلسفات التى ظهرت بعد ذلك . سواء فى مجال الشعر والمسرح أو الفلكلور أو الدراما أو المسرح بجميع أعماله، ومازال هذه المفاهيم ممتدة ومستمرة، بل ولقد تحولت من مجال الأدب إلى مجالات أخرى منها اللغة والتراث، وتأتى الحداثة على رأس تحولات هذه الفلسفة المادية الهدامة.

بل لقد ذهب البعض فى جرأة إلى عرض هذه المفاهيم من خلال دراسات عن التأويل فى محاولة لإخضاع القرآن الكريم إلى هذه الترهات.

تشكلت هذه المذاهب المنحرفة فى إطار القصة والشعر والمسرح، وتحولت من السريالية إلى الرمزية إلى الدراما ثم استمدت الأساطير والفلكلور، والأنثربولوجيا فى محاولة لإحياء الأساطير القديمة، وتحطيم كل مقررات العقل والمنطق والقيم الأخلاقية، والفطرة وطبائع الإنسان السوية.

أما فى الشعر فقد أطلق فى دعوة إلى الشعر الحر وقصيدة النثر وشعر التفعيلة.. وهدمت فى خلال قاموسه كل القيم وتعثرت دلالات الألفاظ إلى حد قلب المعانى على نحو (أرى أنيناً وأسمع دمعاً).

وهى مقاييس مضللة جرى نقلها من الآداب الأجنبية فى محاولة لتطبيقها على الشعر العربى الأصيل، وهى أبعد ما تكون عن أذواقنا وثقافتنا.

«وجاء البلاء الحقيقى على أيدى الشعراء اللبنانيين الذين هاجروا إلى الغرب فى (النصف الثانى من القرن التاسع عشر)والذين كانوا أكبر جرأة فى الهجوم على اللغة العربية والوزن والقافية : تلك الدعائم الثلاث التى يقوم عليها شعرنا العربى، وتزعّم هذه الحملة :

ميخائيل نعيمة ـ جبران خليل جبران ـ أمين الريحانى ، ويعتبر ميخائيل نعيمة الرائد لهم بمهاجمته اللاذعة التى رددها فى كتابه (الغربال) ١٩٢٣، وخاصة مقالة : (نقيق الضفادع) هاجم فيها المنادين بالمحافظة على اللغة وقال : (إن شأننا مع ضفادع الأدب لشأن والله عجيب) .

وجرى جبران على نفس الاتجاه مقال (لى لغتى ولكم لغتكم) وقد بدأت فى كتاباتهم الاستهانة بالقواعد والأصول اللغوية ، ولم يكتف نعيمة بالتمرد على اللغة بل هاجم عروض الخليل بن أحمد واتهموه بأنه حول الشعر إلى نظم.

وكان لخروج نعيمة على الوزن والقافية ردود فعل واسعة لدى أدباء المهجر فسرعان ما انطلقوا نحو التخفف من القيود وأخذوا فى التصرف فى الأوزان القديمة بالزيادة فى التفاعيل والمزج بين التام والمجزوء مع الميل إلى استعمال البحور الصغيرة والخروج على التزام قواعد العروض إلى جانب نظم الشعر المرسل الذى يختص كل بيت بقافية.

وكان الهدف: هو تغيير قيم الأدب العربى بإدخال أسلوب جديد مستغرب يصادم مفاهيم البلاغة.

وكان الهدف هو : التوراتية، أى فرض طابع التوراة والمجاز الغربى، وقد ثبت أن الشعر الغربى لا يلائم طبيعة اللغة العربية ولا الذوق العربى لخلوه من عنصر القافية وخروجه على اللغة والأدوات العروضية المعهودة، ومع أن الوزن والقافية ظاهرة موسيقية من إلزام العناصر للغة الشعر وأسلوبه ، ومن أدق مقاييسه النقدية،كما أن الوزن من أخص ميزات الشعر وأكثرها تأثيراً فى أسلوبه.

والقافية ظاهرة شعورية تصور المقطع الذى تنتهى به أبيات القصيدة ويبقى وزنه مردداً آخر كل بيت لنحفظ لها وحدتها أو نغمتها الأخيرة فاللغة العربية لا يصلح شعرها بدون قافية لأنها لغة قياسية رنانة يجب أن يراعى فيها القياس والرنة، وفيها من القوافى المتناسبة ما يتعذر وجود نظيره فى سائر اللغات».

والواقع أن تلك الدعوات التى روجت ذلك النمط من الشعر غريبة عن بيئتنا، وليست نابعة من الوجدان الحقيقى لتقاليدنا الفنية المألوفة، ولكنها دعوات وافدة قصد من بعضها تخريب شعرنا ومسخ صورته المشرقة وإبعاده عن القيم والأذواق الفنية وتقليد أداب أمم أخرى لها تقاليدها الخاصة النابعة من بيئتها الخاصة والمغايرة تماماً لتقاليد أدبنا وأعرافه.

❑ ❑ ❑

هذا الشعر الحر هو نتاج المواريث التى قدمتها الفلسفة المادية ونزعات السريالية والرمزية ومفاهيم الرومانتيكية .

وهى فى مجموعها تقوم على المادية الجدلية والفكر الباطنى، وقد أفرزت كثيراً من التغريبيين وفى مقدمتهم أدونيس وعبد الصبور والبياتى والسياب.

❑ ❑ ❑

ولقد قطعت تجربة الشعر الحر شوطاً طويلاً وأتيحت لها كل فرصة وأيدها الماركسيون، وفتحوا لها أبواب الصحف والمجلات الأدبية وصدرت عشرات الدواوين، ولكن النتيجة كانت واضحة منذ اليوم الأول فقد كانت سبحاً ضد التيار لم ينتج إلا الفشل الذريع..

يقول الدكتور عبده بدوى : رأينا على الساحة فى السبعينيات عدداً من الشعراء يتعامل مع الغموض والتجريد بصور سريالية والعبث باللغة، كما رأينا من يشغل نفسه

بالرموز والأساطير والأقنعة، بالإضافة إلى التدوير الذى لا تدعو إليه حاجة من يكتب بطريقة الشعراء. وكان الهدف إشغال النفس بإزاحة التراث التقليدى ليحل محله عالم (المتصوفة السرى) ثم تكون القفزة الأخيرة إلى ما يسمى (قصيدة النثر). ومن هنا نعلم أننا إذا كنا فقدنا نصف النثر الموسيقى فى الشعر عند التعامل مع الشعر الحر فإن النصف الثانى صار مهدداً فى الصميم عند التعامل مع قصيدة النثر.

فإذا تجاوزنا شعر السبعينيات وجدنا شعراً يتكون حول مفهوم الغربة والاغتراب متابعاً رحلة السبعينيات مع الشكوى من القهر والتعامل مع اللغةبعنف ، ومن المحاكاة أو التعبير عن الأشياء من غير الوصول إلى عالم الخلق أو على الأقل إعادة الخلق لما يتعرض له الشاعر.

وفى ضوء هذا نرى عجزاً واضحاً فى الوصول إلى آفاق إنسانية عليا».

ويتساءل الاستاذ كمال النجمى: ماذا يحدث للشعر العربى إذا انقرض شعراء الأوزان والقوافى ولم يبق إلا شعراء التفعيلة، ويرى مدى خطر هذا التيار الذى سيؤدى إلى عجز الجيل القادم من التفعيليين عن نظم الشعر موزوناً بالتفعيلة. لأن سليقة الشاعر العربى تقوم على استيعاب الأوزان الشعرية حتى تنطبع فيه كما تنطبع الألحان ذات الأصول الإيقاعية الراسخة، والبحور المتكاملة هى الأصول التى تفرز فى الشاعر مقدرته العفوية على النظم الموزون بالتفعيلة أو بالبيت، فلا فرق بين شاعر التفعيلة، وشاعر القافية فى الحاجة إلى المعرفة التامة بالبحور، لتتكون فيه مقدرة عميقة الجذور كأنها جزء من طبيعته، ويسمى عندئذ شاعراً مطبوعاً، لأنه ينظم بطبعه وعفويته كما يدق قلب الإنسان، والتفعيلة بمفردها منفصلة عن البيت عاجزة عن غرز هذا الطبع فى الشاعر العربى، لأنها بمفردها لا تؤلف لحناً شعرياً متكاملاً، ولا تتألف منها فى السمع نغمة ذات أصول، وبدون المعرفة الكاملة بالبحور تتكسر التفعيلة لأنها جزء من البحر، ولا يتم معرفة الشاعر بها إلا بعد معرفته التامة بالبحر الذى ينتمى إليه.

والمعروف أن أغلب شعراء التفعيلة نظموا الشعر بتقليد للشعر التفعيلى، فلم ينشأ بينهم وبين الشعر العربى وأوزانه صلة حقيقية، ولم تدخل فى طبائعهم أوزانه المتكاملة التى هى أساس المعرفة بأوزان التفعيلات الجزئية، وهكذا تغلب التفعيلة على رأس هذا الفريق فهجرها أو كاد يهجرها، عجزاً عن النهوض بعبئها الثقيل، ولو مضى الشعراء

الجدد جيلاً بعد جيل فى هذا الطريق لانقطعت العلائق وبينهم وبين الأوزان، ونعنى أوزان التفعيلات فقط لأن أوزان البحور مقطوعة أصلاً.

وسوف يأتى جيل من شعراء التفعيلة يجهل أوزان التفعيلات ويراها ألغازاً وطلاسم لاحد لها، وفى آخر الأمر يأتى جيل ممن يقاطعون التفعيلة ويطالبون بإلغائها، وسوف تكون النتيجة موت الشعر العربى ثم موت اللغة العربية.

ويرد الأستاذ كمال النجمى هذا الاتجاه إلى فورة الشباب التى أدت إلى الظن بأن تحطيم البحور والأوزان هو تحطيم لصنم قديم يقف فى طريق الفكر الجديد، وقد أثبتت الأيام عكس ظنه.ويرى أن النتيجة التى يسعى إليها دعاة الشعر الحر هى موت الشعر العربى ثم موت اللغة العربية، وهو الهدف الذى يسعى إليه المستعمرون الجدد وهى التى تتحرق إليها الصهيونية و الشعوبيون، وجميع الحاقدين (على الوطن العربى والأمة الإسلامية) وقد يريدون تجريدها من شخصيتها ومزاياها القومية.

إنها فئة ضئيلة من الشعوبيين والباطنيين أمثال الشعرور المهرج الذى يسمى نفسه أدونيس.

ومن العيب أن يكون شعرنا طفيليا فى أساسه وطابعه على أشعار الأمم الأجنبية وطريقتها فى الأداء إلى حد التقليد الفردى الأعمى والنقل الحرفى.

لقد جاءت التفعيلة مطية ذلولاً للعدميين والفوضويين والوجوديين والدجالين والجاهلين من جميع الاتجاهات».

❑ ❑ ❑

ولقد حققت التجربة الشعرية فشلاً ذريعاً وكشفت الأصالة عن نهاية عهد العبث واللامعقول الذى انتهى إلى غير رجعة، لأن الخروج عن القواعد الفنية هو أمر شاذ والشذوذ لا بقاء له فى عالم محكم النواميس منذ بدء الخليقة إلى أن تقوم الساعة.

يقول الأستاذ إبراهيم صبرى: الشعر العمودى لا يمر بأزمة إبداع وإنما يمر بأزمة إعلام فقط، فكل المنابر الإعلامية لا يأخذ فيها الشعر العمودى حقه المطلوب والمفروض.

إن مسألة الحداثة والأصالة أصبحت نغمة ممجوجة من كثرة العزف عليها طوال العقد الماضى.

إن القصيدة الجميلة جديدة، ولوكان عمرها ألف عام، وقد تكون قصيدة من الشعر التقليدى أكثر معاصرة وحداثة من حيث البناء الدرامى والتناول الإبداعى من ألف قصيدة مما يدعيه هؤلاء.

الشعر العمودى أحق باستلهام التراث من الشعر، أما هم فيرجعون إلى غير المألوف وغيرالمسلم من التراث، إنهم يختارون مناطق معينة من التراث تتعارض مع القمم الأصيلة لأمتنا العربية والإسلامية، ومن كتب التراث ما يحمل نزعات إلحادية ومادية كأصحاب مذهب وحدة الوجود والمذاهب الهدامة التى يستدعونها من قبورها لنشرها من جديد بين الناس، ولا يمنع الشاعر العمودى من استعمال الرمز واللغة فى بعض الأحيان، ولكن بشرط ألا يصل إلى الغموض المبهم الذى لا يستطيع معه المتلقى أن يفهم شيئاً.

ويقول : الشعر العمودى باق ما بقيت اللغة العربية الأصيلة، وهو لا يتراجع ولا ينحسر مهما انحسر عنه الضوء الإعلامى الذى يسيطر عليه للأسف أعداء الشعر العمودى، أما نحن فلا نعادى الشعر الحر ،ونرفض بكل إصرار أى زعم يقول أن الشعر العمودى قد انتهى زمانه، إنها فرية يتمسح بها العاجزون عن إفراغ تجربتهم الشعرية فى القالب الفنى السليم المتشمل فى الأوزان والقوافى حيث يستطيع الشاعر المتمكن أن يفرغ تجربته مهما تعددت جوانبها».

❑ ❑ ❑

ويقول يوسف العظم : أرفض ما يسمونه الشعر الحديث أو الشعر الحر أو شعر التفعيلة، كما أرفض ادعاءات الذين يعتبرونه الأصل ويعدونه التطور نحو الأفضل على أنه الجدول الصغير الذى لا يحمل سفينة، ولا يفسح صدره لشراع أمام البحر اللجى العميق (الشعر الأصيل) بكل ما فى جوفه من لآلئ وأصداف.

إن الفصل فى مفهوم الشعر بين ما هو إسلامى وما هو غير إسلامى كالفصل بين الجسد والروح وبين كلام لا معنى له».

❑ ❑ ❑

وبعد : فلقد عجز دعاة الشعر الحر عن أن يحدثوا أثراً، كما عجز من قبلهم المهجريون، وكان الغموض فى كل ما قدمته هذه المذاهب هو « الغموض المبهم» الذى حطم قلاعهم.

إن ظاهرة الغموض هى مصدر تدمير هذه المذاهب التى تختلف مع مفهوم الإسلام فى الأدب وفى كل معطيات الفكر الذى هو «الوضوح» والضوء الكاشف والكلمة الطيبة والإيمان بالغيب والوحى، فى تصور كامل للمعرفة يجمع بين الروح والمادة ويحول دون التناقض والصراع، ويقر مفهوم التكامل الجامع والتوازن بين القيم على نحو مختلف اختلافاً واسعاً وعميقاً عن تصور الجدلية الذى يعلى من شأن جانب على جانب، ثم لا يلبث أن يسقط الأول ليحل محله الثانى، وبذلك تظل القاعدة صراعاً لا ينتهى بين الفردية والجماعية، وبين الثابت والمتغير، فقد كان مذهب أرسطو هو الثبات الدائم وجاء هيجل ليقول بالحركة ـ التطور الدائم (وجاءت الماركسية لتقلب رأس الهرم)، وكان ذلك هو سر الصراع الذى يواجهه الفكر الغربى والحضارة الغربية، التى خرجت من الثبات الدائم إلى التطور الدائم، والتى أقرت مفهوم النسبية الباطل، وهى فى هذا تتداول الأمور بين عنصرين فتتحقق «الانشطارية» التى لا تكتمل أبداً.

أما الإسلام فيقيم مفهوم التكامل الجامع بين القيم التى تبدو متعارضة أو متصارعة فى الفكر الغربى على نسق التوازن، حيث يجمع الإسلام بين الروح والمادة، والعقل والقلب، وبين الفرد والجماعة وبين الثبات والحركة وبين الثوابت والمتغيرات، مما يقضى تماما على محاولة الغرب والتغريبين فرض نظرية باطلة كنظرية (الجدلية) على الفكر الإسلامى.

هذه النظرية الهيجيلية) التى جعلت التغيير بمثابة (المطلق) ولم تعط الانتباه الكافى لعناصر الثبات التى تظل قائمة فاعلة رغم تغير الواقع المادى، والتى تحفظ على المسيرة الحضارية ـ رغم التطور ـ وحدتها وخصوصيتها، كما تحفظ (البصمة) على الإنسان تفرده وتميزه، رغم مايتغير فيه عبر مسيرته من الولادة إلى الممات.

وكان خطأ الفلسفة المادية التى قام عليها الفكر الغربى أنها جمدت كل المتغيرات الدنيوية من الواقع المادى إلى الفكر والعلم، ففرضت الثبات على ما هو متطور ومتغير

بحكم سنن الله فى الكون، هذه الحضارة التى غالت عندما حكمت فى الثبات على حساب التغيير فجاءت نهضتها كرد فعل معاكس لتغالى فى التغيير على حساب الثبات فكان افتقارها إلى الوسطية التى هى أبرز خواص الحضارة الإسلامية».

وكانت ظاهرة (الغموض المبهم) قد صبغت كل شئ، وخرجت كل تلك المذاهب الأدبية والفلسفية منها فى محاولة خطيرة من ورائها نفوذ الماسونية وبروتوكولات صهيون لتدمير كل ثوابت الإسلام من القوالب اللغوية والشعرية فضلاً عن تدمير المضمون وإفساده.

وكان (مضمون الغموض) هو الربط بين القصيدة الشعرية والأساطير القديمة والتاريخ والنصوص الدينية والصوفية ومفاهيم الباطنية حيث يرون أن الوضوح جريمة، وحيث يسقطون فى أوحال اللامعقول واللاوعى والظلام والنرجسية العمياء، حيث تكون القصيدة مغرقة فى الظلال والدوامات الضبابية وتفاهة الوجود، وكانت الفرويدية والوجودية والماركسية هى الأعمدة الثلاثة لهذا الاتجاه.

ومن هنا كان نتاج هؤلاء الذين حملوا لواء هذا الاتجاه هو الإلحاح على استفزاز الموروث الكامن فى اللاشعور، ويقدمون نماذج تصل إلى حد الانغلاق والغموض بهدف تدمير الهوية العربية الإسلامية الأصيلة.

ولقد كان هذا الحصاد كله زيفاً أعطى بريقاً خاطفاً فى لحظات ثم كشف عن مضمونه وسمومه وهدفه الحقير.

فقد كان الرمز والأسطورة والملاحم القديمة هدفاً واضحاً للقضاء على الوضوح والقيم الأساسية.

وبالرغم من سقوط هذه التجربة فما يزال بعض الماركسيين مجدداً يستعملون هذه الأساليب المستمدة من مقولة التحليل النفسى لفرويد التى تقول بأن العقل الواعى ما هو إلا مظهر من مظاهر العقل الباطن الكامن فى اللاشعور، وهذه محاولة أخيرة لمهاجمة قيم المجتمع الأصيلة، وسوف لا تجد إلا مزيداً من الانهيار والسقوط.

ثالثا: الأساطير والفلكلور والأنتربولوجيا

كان من أخطر محاولات كتاب الغرب والمستشرقين والمبشرين إحياء التراث الباطنى والمادى والإباحى والوثنى القديم (اليونانى والرومانى والفارسى والهندى) وطرحه فى أفق الفكر الإسلامى، وخاصة من خلال المسرح، وقد عمد النفوذ الغربى إلى الدعوة إلى دراسة الموروثات الشعبية القديمة وإحيائها، وجرى البحث عن الأنتربولوجيا فيما يتعلق بحياة الأمم القديمة ومفاهيمها، وخاصة ما يتعلق بالمجتمعات الضالة الفاسدة، وكان الاهتمام بالأساطير فى مقدمة هذا العمل كله فى محاولة لاستلهام الأساطير (زيوس وباخوس وجوبيتر) وتوظيفها فى الشعر الحر وفى المسرح، وكان ذلك بعد أن قضى الإسلام على كل مظاهر الشرك والخرافات، ويجرى هذا الإحياء لعصر ما قبل الإسلام وتجاهل حقائق التاريخ الإسلامى وبطولات خالد بن الوليد وسعد بن أبى وقاص، بل لقد شنوا الحملات المكثفة على هارون الرشيد وصلاح الدين الأيوبى ومحمد الفاتح وبيبرس وقطز وقلاوون وهم الذين واجهوا الغرب وأدالوا منه وحطموا مشروعه فى الحروب الصليبية.

ويقرر الإسلام أنه من الخطر الخلط بين ما هو أسطورى، وما هو حقيقى سواء فى مجال الاعتقاد أو مجال التاريخ.

بل وعمد الاستشراق إلى إحياء هذا التراث الزائف من الأساطير فترجمت قصة مثل جلجامش إلى اللغات الأوروبية ومثلت على مسارح باريس، وجرت محاولة إحياء هذا التراث الوثنى فى كل بلاد الإسلام تحت أسماء خادعة فى مجال إحياء الفرعونية والفينيقية والأشورية والبابلية.

❑ ❑ ❑

أولاً: الفلكلور: (الأدب الشعبى)

وقد جرى الاحتفاء بما يسمى الأدب الشعبى (الفلكلور) والعمل على رعايته وإحيائه، وهو كما يقول الدكتور محمد محمد حسين : هو امتداد للدعوة إلى استبدال اللهجات المحلية العامة مكان اللغة الفصحى. يقول : أما الفلكلور فهو اصطلاح ظهر فى

أوروبا فى منتصف القرن الميلادى الماضى، ليدل على الدراسات التاريخية التى تتصل بعادات الشعوب وتقاليدهم وطقوسهم وخرافاتهم وأساطيرهم ومعتقداتهم، ومفهومهم، وما يجرى على ألسنتهم من أغان أو أمثال أو شتائم أو تراث أو أهازيج، يدرس هذا كله من خلال الآثار والعادات كما يستقصى آثاره الباقية فى الجماعات البشرية المعاصرة.

وقد انصرفت هذه الدراسة عند نشأتها إلى المجتمعات المتخلفة والمستعمرات بقصد التعمق فى دراسة سكان هذه المناطق للتوصل إلى أمثل الطرق وأحذق الخطط للتمكن منهم واستغلالهم واستدامة عبوديتهم، ثم امتدت إلى المجتمعات البشرية على مختلف المستويات، واستخدمت فى توجيه كثير من الفنون كالرقص والموسيقى والآثار من وجهة قومية تميز كل بلد عن غيره من البلاد والقوميات.

ولجهلنا بأهدافها الحقيقية ولحب التقليد نقلنا (الفنون الشعبية) واتجه همنا إلى الدفاع عنها وتمجيدها والمحافظة عليها، وكثر خلط المخلطين وتهريج المهرجين باسم الشعب والشعبية.

ولا ريب أن تغذية هذا التيار وتنمية هذا الاتجاه لا تساعد على تدعيم الوحدة الإسلامية أو الوحدة العربية التى هى بلا شك نواة الوحدة الإسلامية التى لا تصح بغيرها، بل هى على العكس من ذلك تماماً تساعد على تفتيت الجامعة الإسلامية والجامعة العربية بما تحييه من نعرات عنصرية وطائفية كانت تجتمع على الإسلام وقيمه.

ويتصل هذا التيار بالدعوة إلى إحلال اللهجات العامية المحلية محل العربية الفصحى، وقد وجهت هذه الدعوة مواجهة عنيفة وهى تستخفى حينا لتظهر من جديد، حاول الداعون بها أن يوجهوا العناية إلى الجمال الفنى الذى تمثله بعض الأمثال والقصص والأغانى التى يتداولها العامة، وقد دونوا مالم يكن مدوناً وألقوا مزيداً من الأضواء على ما كان مدوناً بعربية ركيكة ملحونة مثل ألف ليلة وغيرها، فلما برزت الدعوة إلى العناية بالفنون الشعبية (الفلكلور) وتمسح الداعون بهذه الدعوة بين العرب بالشعب وللشعب زاعمين أن إهمال هذا اللون من الفنون ترفع عن العناية بالطبقات الفقيرة الكادحة وما يتصل بها من شئون، نشط دعاة اللهجات العامة للتحمس لهذا الاتجاه ومساندته، لأنهم وجدوا فيه متنفساً لدعوته ومجالاً فسيحاً ليصنفها الفن فى صورته الكاملة وسيلة من

وسائل السحر فوق الواقع المسف والفن الذى لا يستحق أن يجهد النقاد أنفسهم فى تذوقه، وهو لأثر الذى أجهد الفنان نفسه فى إنتاجه، فالنقاد غير مكلفين بعرض خواطر البدو والعوام التى لا تصلح إلا للهو أمثالهم من العوام، ولا ينبغى أن يكون من أهدافنا التسفل بالأذواق المهذبة، بل العكس تهذيب الأذواق الخشنة البدائية، ولقد كان هذا التهذيب من أبرز آثار الإسلام فى البدو، وقد شملت آدابه مختلف نواحى الحياة الفردية والاجتماعية من مأكل وملبس، بل تغلغلت آدابه إلى أبعد المعاملات فى معاشرة الرجل لزوجه وامتد إلى أخفى الشئون فى خلوة المرء لقضاء حاجته. إن الذين يدعون إلى الأدب الشعبى من منطلق ترويج العامية بزعم أنها لغة حية وأن الفصحى لغة ميتة مهجورة ينسون أن الأدب بطبعه متعة عقلية وروحية، وهو بهذا الاعتبار ليس هواية شعبية، وليست المشكلة مشكلة الألفاظ فحسب، ولكنها مشكلة الأفكار والأخيلة التى تحتاج فى تذوقها إلى مستوى ثقافى معين، فمهما نعمل على تيسير الألفاظ وجعلها فى متناول عامة الناس فلن يستطيعوا إلا فهم ما يلائم عقولهم وثقافتهم من الآداب السطحية التى لا تعبر عن أغوار الحقائق وأعماقها.

فالأدب الشعبى لا يتميز بلغته فحسب، بل يتميز أولا وقبل كل شئ بسطحيته فى التفكير وبساطته التى تلائم السذج من البدائيين، ولكنها لا تشبع حاجات المثقفين وطلاب المعرفة من أصحاب الفكر الرفيع والمزاج الصافى الصقيل.

ومن هنا يتبين أن تشجيع ما يسمى بالأدب الشعبى ينطوى على ضرر بالغ من ناحيتين:

(أولاهما): هى تميز كل جماعة بطابع خاص يتعصب له مما لايعين على دعم الوحدة المرجوة.

(وثانيتهما): أنه يعين على تقطيع ما بين الأمة من وشائج فيصبحون لا يفهم بعض عن بعض.

والمسلمون والعرب لا يجتمعون على فهم شئ مما يذاع فى مختلف أجهزة البث إلا ما يذاع منه بالفصحى.

وأمر آخر أنه يدعو إلى التسفل الفنى بدل أن يأخذ الأذواق إلى الأسمى والأفضل».

❑ ❑ ❑

ثانياً : «المثيولوجيا» الإسلامية

وكان من أخطر أعمالهم خلق «مثيولوجيا» إسلامية بعد أن قضى الإسلام على كل أنواع الأساطير، وكشف زيفها وعمل علماء المسلمين على مدى تاريخهم على تحرير السيرة النبوية والسنة المطهرة من الدخيل.

وكان الدكتور طه حسين فى مقدمة من أحيا هذا الاتجاه المسموم والخطر بكتابه (على هامش السيرة) على نحو ما يكشف عنه البحث فى كتابنا (المعارك الأدبية) و(محاكمة فكر طه حسين).

يقول الدكتور محمد رجب البيومى:

إن أنصار هذا الاتجاه أعطوا الأساطير الخرافية أكثرمما تستحق، فقد اتجه فريق من الباحثين إلى رصد الأساطير الشعبية التى أضيفت إلى السيرة النبوية، وما لفقه القصاص حول سيرة الرسول وعده أثراً أدبياً، هذا الاتجاه يخلط الواقع بالخيال، ويموه الحق بالباطل وهو خطر شنيع يهدد السيرة الصادقة.

وتلك هى الغاية التى اتجه إليها المستشرقون حين اهتموا بدراسة الأساطير الشعبية لتصبح تاريخاً فيما بعد، وتمتد إلى سيرة الرسول ﷺ فيحوطها بركام كثيف يحجب الساطع، إن الرواة اعتمدوا فى رواية الأساطير الشعبية على خيالهم أكثر من اعتمادهم على النص الأصلى للسيرة أو النصوص المدونة الأخرى.

هذه الأساطير لا تقدم ولا تؤخر فى مقياس العظمة النبوية الغنية بجهادها وصفاتها وأثرها فى المحيط الإنشائى ما جمعه كل تلفيق زائف.

وكانت إحدى الجهات دعت إلى مسابقة لتأليف قصة المولد النبوى بعيداً عن الأساطير الخرافية التى لا تمت إلى الواقع بصلة، وقد رحبت الهيئات العلمية بهذه الخطوة ولكن الدكتور طه حسين اعترض وحده على هذا الاتجاه وكتب مقالاً ضافى الذيول يعارض فيه فكرة المسابقة كتاب (قضايا إسلامية ـ رجب البيومى جـ ٢ ص ١٠٣) وباركته الدكتورة نبيلة إبراهيم سالم) التى استشهدت بما قاله الدكتور (ملحق السياسة الأسبوعية ـ ديسمبر ١٩٣٣) من مثل قوله : (وأى بأس على المسلمين فى أن

تتحدث إ ـهم قصص كثيرة الأحاديث الحلوة فتنتهم بأن أم الطير والوحش كانت تختصم بعد مولد النبى كلها تريد أن تكفله لأن القضاء سبق بأن رضاع النبى سيكون إلى حليما السعدية، وأى بأس على المسلمين فى أن يستمعوا أن الجن والإنس والحيوان والنجوم تباشرت بمولد النبى وأن الشجر أورق بمولده وأن الروض ازدهى لمقدمه وأن السماء دنت من الأرض حين مس الأرض جسمه الكريم.

لم تأت الأحاديث بشئ من هذا، ولكن الناس يحبون أن يسمعوه ويرون فى التحدث به والاستماع إليه تمجيداً للنبى الكريم لا بأس به ولا جناح منه، وأى بأس على المسلمين أن يسمعوا أن نفراً من الملائكة أقبلوا على النبى وهو طفل يلعب فأضجعوه وشقوا عن قلبه.

إن من فاحش الخطأ أن نضيق على الجماهير حتى فى القصص البرئ، وإن من فساد الذوق ألا يتاح للجماعات إلا الحق الذى لا حظ للخيال فيه، وإن من سوء العناية بالدين أن يكف الخيال عن تأييد الدين» ا . هـ

وقد رد الدكتور هيكل على طه حسين فى السياسة الأسبوعية يعلن أن ما ذكره طه حسين ليس حقاً إذ يعنى بإسرائيليات سطرت لإفساد العقول وتشكيك المستنيرين ودفع الريبة إلى نفوسهم فى شأن الإسلام ونبيه الكريم، وقد وضعت هذه الأساطير فى تواريخ الأديان السابقة فنادى المصلحون بضرورة محوها وستكون هاتان الشعبتان أداة طعن فى الإسلام حين ينهض من الخصوم من لا يفرق بين الواقع والخيال، وكأنها حقائق يعتنقها المسلمون، ولذلك يجب تنقية السيرة منها.

إن الغرب دعا إلى دراسة الأدب الشعبى لحاجة فى نفوسهم فسرنا وراءهم شبراً شبراً حتى تجرءوا على تاريخ نبى الإسلام (مجلة عالم الفكر - يناير - مارس ١٩٨٢).

ولقد كانت إشارة الدكتور هيكل إلى عمل طه حسين فى كتابه (على هامش السيرة) من الإشارات الفارقة فى حياتهما وفكرهما بعد أن تكشفت للدكتور هيكل مؤامرة الفكر الغربى فى احتواء الفكر الإسلامى وتزييفه.

يقول الدكتور هيكل (ديسمبر ١٩٣٣ ـ ملحق السياسة الأسبوعية) :

«..طه إنما سلك فى هامش السيرة طريق كتاب الغرب ممن يتحدثون عن الأساطير القديمة ينشرونها ويزينونها، وطه إنما قصد إلى إحياء أدب الأساطير حين أملى هذا الكتاب، أو حين دفع إلى ذلك وأكره عليه إكراهاً إذ رأى نفسه يقرأ السيرة فتمتلئ بها نفسه.

ويقول : ويجب أن نذكر أن هذا الدافع قد بلغ من القوة ما لا يستطيع أحد من الناس مقاومته، فهو كما رأيت قد خطا فى هذا الكتاب من تحقيق العلم الذى ظل عاكفاً من قبل عليه سنين إلى أدب الأسطورة المثيولوجية فى حياة العرب وفى سيرة النبى، وهو إذ خطا هذه الخطوة يعلم أن كثيراً من هذه الأساطير التى روى إنما هى بعض الإسرائيليات التى روج اليهود بعد عصر النبى متأثرين بحقدهم على محمد ﷺ لأنه حاربهم وأجلى الأكثرين منهم من بلاد العرب، ومهد بذلك لإجلاء البقية الباقية بعد زمن قصير من وفاته متأثرين بحفيظتهم على المسلمين، حفيظة جعلتهم يروجون الألوف من الأحاديث المكذوبة على النبى، ومن القصص الذى تنافى تعاليمه منافاة صريحة.

فما عسى يكون هذا الدافع القوى الذى دفع طه إلى هذا التطور فلم يجد بداً من الإذعان ومن صياغة هذه الأساطير فى الصورة البديعة الرائعة التى تنفس فيها كتابه الأخير؟

وقال هيكل : إن أدب الأسطورة هو أخصب ألوان الأدب، وأشار إلى ما اتصل بسيرة النبى ساعة مولده وما روى عما حدث له من إسرائيليات روجت بعد النبى ثم قال :

ولهذا وما إليه يجب فى رأيى ألا تتخذ مادة لأدب الأسطورة فإنما يتخذ من التاريخ وأقاصيصه مادة لهذا الأدب ما اندثر و ما هو فى حكم المندثر، وما لا يترك صدقه أو كذبه فى حياة النفوس والعقائد أثراً ما ، والنبى ومسيرته وعصره تتصل بحياة ملايين المسلمين جميعاً، بل هى فلذة من هذه الحياة ومن أعز فلذاتها عليها وأكبرها أثراً فى توجيهها، وطه يعلم أكثر مما أعلم أن هذه الإسرائيليات إنما أريد بها إقامة أساطير مثيولوجية إسلامية لإفساد العقول والقلوب من سواد الشعب، ولتشكيك المستنيرين ودفع

الريبة إلى نفوسهم فى شأن الإسلام ونبيه، وقد كانت هذه غاية الأساطير التى وضعت عن الأديان الأخرى ومن أجل ذلك ارتفعت صيحة المصلحين الدينيين فى مختلف العصور لتطهير العقائد من هذه الأوهام».

«المعارك الأدبية ص ١٤٨ وما بعدها»

ومن هذه النصوص يتضح أن محاولة طه حسين للإبقاء على القصص الأسطورى والدعاية له كانت مقدمة للعمل الذى قدمه من بعد لإقامة (أساطير مثيولوجية إسلامية) على النحو الذى كشف عنه الدكتور هيكل.

(ثالثا) : المسرح والدراما:

قامت حركة الإحياء الغربى (الرينسانس) فى أوروبا من خلال الصراع مع مفاهيم المسيحية الغربية وعلاقات الكنيسة، فكانت تدميراً للطابع المسيحى (الذى لم يكن مستمداً من الدين المنزل على نبى الله عيسى وإنما كان مستمداً من المفاهيم التى شكلها بولس من بعد متصلة ومستمدة من الوثنية اليونانية كالمتراسية وغيرها) وبذلك كانت تراجعاً وردة مفزعة إلى تراث الرومان واليونان، فكان أكبر أهدافهم إحياء التراث الوثنى وإبرازه لقطع الصلة بالحاضر والماضى النصرانى، ومن ثم أخذت الآداب الغربية تستوحى الآداب اللاتينية واليونانية وتستمد منها مادتها (الكلاسيكية والرومانتيكية) قادها ديدرو وفولتير وروسو، وغلب عليها التحلل من الدين والقيم والأخلاق، ثم سيطرت (العبثية والوجودية) وفقد اليقين الدينى ونجحت حركة الإحياء الأوروبية فى عزل الأجيال الصاعدة عن النصرانية، وظهر لمسرحيات اللامعقول لكامى وسارتر أثرها فى ضياع اليقين وفقدان المثل الاجتماعية الإيمانية والعقدية.

وكان للمسرح الغربى ـ المستمد من المسرح اليونانى القديم ـ أثر كبير فى مجال تغير القيم الدينية، كما عبر الكاتب الغربى ديليو أرمسترولك عن هدف المسرح فقال: لقد جعل كتاب المسرح، منه مركز تجمع لصراع الخيال البشرى الدائم ضد القناعة الدينية وعدم الاكتراث الخلقى وبروز الإمعية الاجتماعية، فلا غرابة إذا ما عانت حضارة الغرب من الخداع الروحى والإفلاس القيمى مما يعرضها للشطط، كما عبرت عنه

كتابات كولن ولسون، لقد تأثرت الآداب الأوروبية بالأساطير اليونانية التى ظهرت فى أعمال سارتر وكامى وفرويد، ونقلت الأساطير اليونانية إلى الفكر الغربى الصراع وحب القسوة والانغماس فى الإباحية حتى أصبح سمة للحضارة الغربية المعاصرة التى لم تعد النصرانية تمثل فيها أكثر من صبغة باهتة».

ثم جاء لينين ليعلن أن المسارح هى كنائس الماركسية ومعابدها،وعن طريقها يمكن تلقين كل مفاهيم الصراع الطبقى وإنكار الأديان التى هى أفيون الشعوب.

❑ ❑ ❑

(٢) ثم انتقل ذلك كله إلى أفق الفكر الإسلامى حيث دعا كتاب التغريب وفى مقدمتهم طه حسين إلى ترجمة المسرح الغربى بكل سمومه وآثامه (حيث كان يلخص) كل أسبوع فى جريدة السياسة اليومية مسرحية مكشوفة عابثة من الأدب الفرنسى ويعرف بكتاب الغرب الهدامين.

وقد جرى العمل أيضاً على ترجمة مسرحيات اليونان القديمة التى رفض مفكرو المسلمين فى عصر الترجمة (فى القرن الثانى) ترجمة الآداب القديمة إيماناً بأنها لا تصلح للمسلمين ولاهم فى حاجة إليها لأن عندهم المفاهيم الإنسانية والاجتماعية الخاصة بهم، ولكن لما كان المسلمون فى هذا العصر (مطالع القرن العشرين) مرتبطين بالتبعية الغربية السياسية فقد توسع هذا الاتجاه وطغى وامتد مع مفاهيم فرويد وماركس وسارتر ودوركايم فى دراسات الجامعات أقسام (علم النفس والآداب والأخلاق والاجتماع والفلسفة).

وامتدت هذه الموجة إلى المسرح فقدمت الدراما وامتدت حتى وصلت إلى مسرح اللامعقول ثم إلى مسرح التجريب إلى حد أن استضافت الأوبرا فرقاً مسرحية أجنبية تقدم الجنس وتصعد راقصة فوق نموذج للكعبة (أشرف بناء فوق الأرض قاطبة) لترقص فيما عرف بمسرحية اللعبة، وأن يقدم أفلام ومسرحيات مليئة بالشذوذ والجنس والعرى والمشاهد الفاضحة حيث يقوم هذا كله الآن فى بلادنا العربية تحت مسمى الحرية من خلال مفهوم مسئول عن الفن والثقافة وهدف واضح:

«إحلال القيم المادية محل القيم الغيبية».

وهكذا تمضى عملية التبعية إلى غايتها الخطيرة تحت اسم عالمية الفن ومقولة أن الفكر ينطلق دون الاعتراف بالحدود التقليدية بين الدول، والواقع أننا لا نقر مقولة تداخل الثقافات واختلاطها وخاصة أن ما يسمى مسرح التجريب هو خطوة جريئة لتدمير كل مقومات القيم الأخلاقية والاجتماعية فى المجتمع الإسلامى العربى.

والمعروف أن (فن التجريب) هذا محاولة جديدة من القوى الصهيونية والعلمانية العالمية للانفصال عن المجتمع، وإلغاء قاعدة الثبات والتشبث بالمتغيرات الاجتماعية والفكرية إلى تدمير قواعد البناء الأساسية، وهو يعتمد على مفهوم غريب عن الفكر الإسلامى، وهو «تداخل الثقافات» وهو حين يدعو إلى تجاوز الواقع إنما يرمى إلى تدمير القيم الأخلاقية والثوابت التى رسمها الإسلام فى محاولة للانصهار فيما يسمى (لغة الفن).

وقد وصف هذا الفن بأنه «فن التخريب» وليس التجريب، وإلا فما معنى أن تلوث كل القيم والأصول والقواعد بدعوى التجريب.

فالكعبة المشرفة تتحول إلى برميل بترول ترقص عليه راقصة عارية أو تمثال نهضة مصر الذى يتحول إلى نصب يبول عليه السناكيح والكلاب، والمرأة التى تمزق جسد زوجها وتضعه فى أكياس البلاستيك.

وكل هذه الصور النازلة تعرض باسم فن التجريب، ويراد بها تدمير القيم الأساسية التى يقوم عليها ماضينا وحاضرنا ومستقبلنا من دين وثقافة وقيم.

❑ ❑ ❑

والواقع أن المسرح والدراما كلاهما نبت غريب على الفكر الإسلامى، والأدب العربى، وأن كل المحاولات التى تبذل سواء فى الترجمة من الآداب الأوروبية أو المسرحيات والدرامات والمسلسلات التى تقدم لا تزال تمثل شيئاً مختلفاً ومتعارضاً مع قيم الإسلام ومفاهيم الفكر الإسلامى.

يقول الاستاذ زكى طليمات أحد عمداء المسرح العربى الحديث:

الإسلام دين التوحيد فلا بدع أن يناهض الوثنية التى تقوم على تعدد الأرباب، فلا

غرابة فى أن يعمل على محو آثارها المادية المجسمة واستئصال جذروها المعنوية من نفوس العرب، إن العقيدة الإسلامية فى وقفتها الأولى لمحاربة الوثنية أحدثت فى النفوس التشكيكية حدثاً ليس له مثيل إذ حولت مواضع الإلهام فيها من الطبيعة وصورها إلى الذهن وأخيلته، سبب آخر لا يصرف الذهنية الإسلامية عن الأخذ بأسباب التعبير عن طريق المسرحية واتخاذ المسرح وسيلة للدعاية والتفسير، ذلك أن العقيدة الإسلامية على وضوح أركانها وجلاء معانيها ومنطق أحكامها عقيدة لا يشوبها لبس ولا غموض يتطلبان تحايلاً فى التفسير، فالوحدانية لا تقبل التأويل ولا تحتمل الشرك، ليس هناك أرباب ولا أنصاف أرباب كما هو الحال فى الوثنية، كذلك لا توجد عقيدة يتعذر فهمها إذ لا يوجد أب ولا ابن ولا روح قدس، كما هو الحال فى العقيدة المسيحية، وشعائر الإسلام على بساطته غنية على تقشف ظاهر فليس فى حاجة إلى عازف يعزف على آلة موسيقية أو منشد ينشد نداءات كهنوتية أو راقص يدور على نفسه، مثل هذه العقيدة القوية فى معنوياتها البسيطة فى شعائرها القائمة على مناهضة كل مظهر من مظاهر تعدد الأرباب وما يتصل به من فنون السحر لإحياء طقوسه ومناسكه لا يمكن أن تتمخض عن فن تمثيلى، فإذا أضفنا إلى ذلك أن العرب بطبيعة عقولهم ينظرون إلى الكليات عرفنا إلى أى مدى نجد التباين الضخم بين الأدب العربى وبين الآداب الغربية فى مجال القصة والمسرح.

ومن ناحية أخرى فإن الصراع المأسوى أو الدرامى الذى هو عقدة المسرحية والقصة لا يجد بيئة طبيعية فى إيمان العرب ومعتقداتهم، ذلك أن البطل المأساوى هو فى صراع دائم مع الآلهة والقدر.

أما المسلم بحكم وحدانيته فإنه لا يستطيع أن يتصور الصراع مع القدر والآلهة على نحو ما كان يتصوره اليونان الذين يؤمنون بقوى متعددة ويؤمنون بأن الحرب مع القدر وإن كانت آخرتها الهزيمة المأساوية فإنها حرب تدل على تجبر الإنسان، إن الصراع مع الآلهة لا يفهم أصلاً مع التوحيد، أما الإنسان العربى فهو فى سلام مع الله الواحد الأكبر ، لا يستطيع أن يتصور الصراع مع القدر والآلهة على نحو ما كان يتصوره اليونان. ولا ريب أن

رؤية العربى واضحة غير مضببة ولا يشوبها سحاب من الغمام، وليست بين بين، وليست فى صراع مع الطبيعة، وكل هذه الرؤى تنعكس فى الأدب العربى وهى مضادة لرؤية الغربى.

□ □ □

(٤) ومن هنا نصل إلى جملة من الحقائق:

أولاً : يستمد المسرح مفاهيمه من الصراع، كان أولاً بين الآلهة نفسها ثم بينها وبين الإنسان.

وهذه المفاهيم تتعارض مع إيمان العرب والمسلمين بالخالق الواحد وإكباره، وتعاليمه عن مثل ما توصف به آلهة اليونان من صراع وشهوات، ومن هنا نأى الأدب العربى عن ذلك وسما بالألوهية عن مضاهاة البشر.

ثانياً : الوضوح فى المفهوم الإسلامى: وضوح فى العقيدة والفكر لا يقبل التأويل ولا يحتمل الشك ولا يقبل التجسيم.

ثالثاً: من أكبر وجوه الخلاف والتباين بين الأدب العربى والدراما ما يتمثل فى ذلك الصراع المأساوى الذى هو حياة الحدث فى المسرح مما لا يجد بيئة طبيعية فى إيمان العرب ومعتقداتهم.

ذلك أن البطل المأساوى هو دائماً فى صراع مع الآلهة والقدر، بينما الإنسان العربى فى سلام مع الله الواحد الأكبر ومع إيمان بالقدر لا يحول دون السعى وإن كان يحول دون المصارعة، ومن هنا فإن العقل العربى لا يتصور الصراع بين الإنسان والله على نحو ما كان يتصور اليونان.

رابعاً: صراع الإنسان مع الله (تبارك وتعالى) أمر لا يفهم ولا يقبل مع التوحيد الذى هو قمة العقائد فى الإسلام.

ولذلك فإن العرب لم يجدو أنفسهم يوماً من الأيام فى صراع مع القدر.

خامساً : تقوم المأساة الغربية على الخطيئة والقصاص والغفران، وترى أن الإنسان مرتبط بخطيئة أولية هى خطيئة آدم. وهناك مفهوم الصراع بين الآلهة والقدر وبين الإنسان والخطيئة.

ويبدو البطل فى صورة المتحدى لإرادة الله والمتحدى للقدر، هذا اللون غريب على الذوق العربى وعلى مزاج النفس العربية، وهو خلاصة مفاهيم وثنية أو غربية مسيحية تقوم على فلسفة أساسية قوامها الخطيئة التى لا يعترف بها الإسلام ولا يقرها، وليس لها أى صدى فى الأدب العربى فضلاً عن صراع القدر وصراع الآلهة، وكلاهما غريب على النفس العربية.

ومصدر هذا أن التراث اليونانى الغربى كله يرى أن الإنسان ثمرة الخطيئة وأن حياته تكفير عن هذه الخطيئة.

بينما يرى الأدب العربى وفكره وآدابه (المستمدة من مفهوم الإسلام) أن الإنسان كائن حى وحياته لها قيمها الخاصة، وأنه ليس مسئولاً عن خطيئة آدم التى غفرها الله تبارك وتعالى له.

ثالثاً : الأنتربولوجيا

هذا المنهج ـ ولا نقول العلم لأنه لا تكتمل فيه منهجية العلم ولا موضوعيته، وإنما ينطوى على مؤامرة خطيرة تمسك الصهيرنية التلمودية بخيوطها من أجل تحقيق أهداف خطيرة، وقد كشف هذا كثير من العلماء المتجردين للحقيقة، ومنهم الدكتور زيدان عبد الباقى حين قال : ليس لعلماء علم الإنسان (الأنتربولوجيا) أن يحتجوا على تقرير عالم النفس الاجتماعى«يلز» الذى يؤكد وجود تعارض بين قضايا البحث الأنتربولوجى والأخلاق، أو فى حكمه على الأنتربولوجية بالأرستقراطية العلمية اللاأخلاقية للأسباب التى أوضحها هذا العالم الكبير، إن عليهم أن يسلموا بها وذلك أن الطريقة فى البحث الأنتربولوجى القائم على الملاحظة الشخصية يعتمد على الانطباعات الذاتية، وكل ما هو ذاتى وليس بموضوعى، علماً بأن الأنتربولوجيا قد نشأت بتشجيع ورعاية الاستعمار لكى يتمكن من قهر الشعوب المتخلفة وامتصاص ثرواتها تحت زعم العمل على الرضى بها.

وهذه الأنتربولوجيا لا يقرها قانون الأخلاق كما يؤكد ذلك علم الاجتماع. إن حركة التحرر والاستقلال جعلت من الاستعمار عملية غير مربحة، ومن ثم كف الاستعمار عن تمويل البحوث الأنتربولوجية، وبالتالى لا يجوز للجامعات أن تحل محل الاستعمار فى تمويل الأنتربولوجية، إن وظيفة (أنتربولوجى) لا توجد إلا فى البلاد الاستعمارية.

رابعاً: الحداثة : الباطنية الجديدة

حرب على العقيدة، على اللغة، على التراث الأصيل، على البيان العربى».

هى حرب على العقيدة : لأنها تحارب التراث والماضى والثوابت والمقدسات، وتفرض على اللغة النظام الرمزى الباطنى الذى انتقل من إبداع الحداثة، إلى الرسائل النقدية.

وهى حرب على التراث الأصيل لأنها تقوم على إحياء التراث الباطنى سواء ما كان منه متصلاً بالعقيدة مثل وحدة الوجود والحلول والاتحاد أو ما كان متصلاً بالدعوات الهدامة، الزنج والقرامطة والمانوية والمزدكية، وهى حرب على الأصالة بالدعوة إلى الشعوبية وانتقاص العرب الذين حملوا لواء الدعوة الإسلامية إلى العالمين.

وهى حرب على البيان العربى لمحاولة إحياء لغة ومصطلحات فارسية وباطنية ويهودية ومجوسية مما استعمله جماعة الزنادقة والملاحدة.

وهى محاولة لإحياء ابن المقفع وعبد الله بن سبأ وابن عربى والحلاج والسهروردى وابن سبعين.

وتقديم صورة جديدة للمفاهيم الغامضة التى لم يعرفها البيان القرآنى والحديث النبوى وخاصة فيما يتصل بالحدس والإشراق والغموض والرمز والإيماء والظلال والأضواء.

وقد بدأت الحداثة بالمهجريين المارون الذين أعلنوا فى مهجرهم عداءهم للعربية الفصحى وبدأوا محاولة «التوراتية» فأخذوا يكتبون فى مقدمة أبحاثهم آيات من الكتاب المقدس، وسايرهم فى هذا بعض المسلمين والعرب الذين غفلوا عن الهدف المقصود والغاية المسمومة.

وقد كان المنفلوطى فى هذه المرحلة وبيانه القرآنى هو السلاح الماضى الذى حطم محاولتهم التى تجددت من بعد على أيدى القس يوسف الخال ثم تحولت إلى الشعر وحمل جريرتها بدر شاكر السياب وبلند الحيدرى وعبد الوهاب البياتى وصلاح عبد الصبور.

وكان قائد الركب الدكتور لويس عوض مما يوحى بوجهتها كما حددها يوسف الخال ونفذها أدونيس الذى كان يسمى (على أحمد سعيد) وتوالت الظاهرة، جذب عناصر من مختلف أنحاء الوطن العربى من الماركسين البارزين : محمد عابد الجابرى (المغرب) محمد أركون (الجزائر) وأحمد عبد المعطى حجازى ونزار قبانى بلونه الإباحى الفاقع.

وامتدت من القصيدة إلى القصة : فى الطيب صالح (موسم الهجرة للشمال) وكتابات فلسفية خطيرة ساند بها عابد الجابرى وجهة أدونيس الذى تكفل بالنظر إلى الشعر بينما توجه الجابرى إلى هدم البيان العربى بنظريته المسماة(العقول الثلاثة: البيانى والعرفانى والبرهانى) والتى تحاول أن تجعل من العرفانى (الفكر الصوفى) والبرهانى (الفكر العقلانى) وكلاهما مستمد من الفكر الغربى أساساً هو دعامة الفكر الإسلامى، بينما أعطى القطاع الثالث (البيانى) المتعلق بالقرآن والسنة والبيان العربى كله درجة ناقصة لا قيمة لها، وقد هاجم هذا المفهوم كثير من الباحثين الإسلاميين الذين قالوا إن الجابرى قد تأثر فى ذلك بالنقد الفلسفى الفرنسى وخاصة ما كتبه الفليسوف المنتحر (التوسيد) الذى اكتشف فى آخر أيامه أنه راح ضحية مفاهيم مضللة فى الفكر الغربى بينما استطاع صديقه وزميله (جارودى) القفز خارج الحلقة المظلمة إلى الإسلام.

ويقول الدكتور ماهر عبد القادر : أرفض اتهام العقلية العربية بالغيبية والبيانية بشكل مطلق، فالعقلية العربية تتضمن جانباً تحليلياً نقدياً تأويلياً يعمل العقل فيه حتى فى النص القرآنى.

أما سيطرة البرهان والعرفان فقد جاءت لأسباب تاريخية سياسية وغير مطلقة.

وفي مدة ما أصيبت العقلية العربية بشيء من الجمود بسبب ظروف سياسية أو تاريخية، ولكن لم تكن في يوم من الأيام عقلية غيبية فهذا مرفوض تماماً.

أولاً: الحداثة : دعوة صهيونية ماركسية إلحادية :

تجمع المصادر على أن الحداثة: دعوة إلحادية صدرت في أوروبا في نهاية القرن الماضي ولا تتناول الأدب وحده لكنها تتناول الأحداث السياسية والاقتصادية والاجتماعية، وتطالب بتدمير المجتمع تدميراً كاملاً وإعادة بنائه لأنها تؤمن بأن الماضي سيئ ولابد من تدميره، ولذلك فهي لا تؤمن بالتراث. والحاضر أيضاً - في نظرها بشع وكريه لابد أن تعيش فيه والمستقبل حلم جنين لا شكل له ولكن يتعلقون به، ومن هنا نرى أنها دعوى صهيونية وماركسية وإلحادية لأنها تركزت على نفي الدين، وفيها أن الخطيئة تتساوى مع التوبة.

وأخطر مفاهيم الحداثة أنها تضع الدين في صف الثبات والجمود والتخلف والماضي، بينما تضع مفاهيم العلم والعقل في صف التغيير والتجديد والتقدم، ومن ثم أصبح الدين والتقاليد والقيم من علامات الجمود والتخلف بينما أصبح الهجوم على الدين رمزاً للتعبير الذي يؤدي إلى التقدم.

ثم أصبحت هناك محاولة للانطلاق وراء التحديث والاندفاع وراء الغريب والجديد من غير ضابط، من خلال اندفاعها وراء الأهواء والمطامع، وقد تركزت الحداثة بوصفها الباطنية الجديدة على الفن أساساً، وقدمت مفهومها الخطير في هذا الشأن حيث ترى الحداثة أن مهمة الفن هي هدم القيم والدعوة إلى الانطلاق ثم الانفلات، ودعت أساساً إلى (تجاوز الواقع) و(التغير المستمر).

ففي عرفها أن الفنان لا يكون فناناً إلا إذا شن هجوماً مدمراً شاملاً على كل ما هو «ثابت»، ولن يتحقق ذلك إلا إذا كانت لدينا طاقة إنشائية (ويسمونها إبداعية) متطرفة تبلغ حد الهوس لتقوى بالتخلص من كلْ شيء على المغامرة وارتياد المجهول، وذلك - بزعمهم - حتى تفتح الآفاق أمام الإنسان ليمارس حريته دون قيد أو شرط. وقاعدة ذلك هي : التغير الدائم من أجل التحرر الكامل.

ومن هنا يأتى :

(١) الهجوم على القيم .

(٢) الهجوم على الأخلاق (التى هى جزء من العقيدة الدينية) .

(٣) الهجوم على كل ما يسمى الخوف من الله تبارك وتعالى.

(٤) الجرأة على اللغة العربية لهدم أسلوب القرآن وتأسيس الجملة التوراتية.

ومعنى هذا كله أنها مرحلة جديدة من مراحل هدم الدين والقيم، وكل مرحلة أشد خطراً مما قبلها، فهى فى بلاد العرب والإسلام أشد عنفاً مما دعا إليه جبران وميخائيل نعيمه الذين دعوا إلى مايسمى كذباً وتضليلاً (موت الإله وولادة إله جديد) حسبما يقول الأستاذ المختار حسنى، وهى فى مفاهيم الفكر الغربى وتطور الآداب الأوروبية مرحلة تالية وأشد عنفاً من السريالية والدادية والعبثية واللامعقول.

وهى بفلسفتها المتجددة والمستمرة فى الطغيان والغلو (لا تغلوا فى دينكم غير الحق) أشد خطورة من الليبرالية والعلمانية والماركسية وكل ما عرفته البشرية من مذاهب واتجاهات هدامة، ذلك أنها تتضمن كل المذاهب والاتجاهات الهدامة، وهى لا تخص العطاء الفنى أو النقد الأدبى، ولكنها تعم الحياة الإنسانية فى كل مجالاتها المادية والفكرية على السواء، وهى تمثل رأى أصحابها فى تدمير القداسة ومقاربة الخطيئة وتقديس المدنس **﴿ أفمن زين له سوء عمله فرآه حسنا ﴾ ﴿ مثل كلمة خبيثة كشجرة خبيثة اجتثت من فوق الأرض ﴾**.

ومن هنا فإن كل الدعوات التى:

(١) تعلى من شأن الفلسفة الصوفية (الحلول والاتحاد ووحدة الوجود) هى من الحداثة.

(٢) والتى تهاجم اللغة العربية وتتحدث عن تفجير اللغة فى كتابات ابن عربى والحلاج وغيرهما هى من الحداثة.

(٣) والتى تقدم مسرحيات ومسلسلات تحمل الإثم والفاحشة وتتنكب طريق القيم والأصالة والأخلاق.

ثانياً : الآفة: الحداثة والدعوة إلى الغموض

تحدث عن هذه الظاهرة كثير من الكتاب العالميين فإن الدعوة إلى الغموض ليست دعوة محلية عربية، ولكنها دعوة تقوم على ما يسمى أدباً عالمياً، وإن صفة العالمية فى هذا الأدب تأتى من وجوب السعى إلى الأخذ من الآداب الأخرى باصطناع ما يجد فيها من ظواهر الاستعمال.

أول ما نلحظه من الاتجاه إلى الغموض فى الأدب العربى الذى يسمونه الرمزية (أومئ ولا أصرح).

وذلك بعد اتهام الأدب العربى فى جملته بأنه أدب خطابه .. وصدق : (كأنما أصبح الصدق من علامات التخلف).

وهكذا تجمع الحداثة بين المتناقضات، وأصحابها يركزون شعرهم على المفارقات المعجمية.

وإذا كان هذا شيئا مرفوضاً فى الأدب السوى الأصيل فهو مقبول فى الحداثة، فهم يزعمون أن اللغة العربية والبيان الصريح هو من علامات عجز اللغة على التعبير، وأن على الشاعر (الحدثى) أن يحطم قواعد اللغة، وقد ركز دعاة اللغة العربية بالاتهام، فذلك هو هدفهم الأساسى من كل ما يقدمون، يطمعون فى أن يختفى أسلوب القرآن وبيانه العربى المضئ الذى يتمثل فى حديث الرسول وأحاديث الصحابه وكتابات بلغاء الأدب العربى وأعلامه.

وأخطر دعاواهم فى ذلك نفى الماضى بشكل مطلق من خلال ما يسمونه تفجير اللغة والقضاء على المألوف وإلغاء سيطرة الماضى على الحاضر.

يقول محمد أبو سنة : ولا شك أن الحداثة التى ينادون بها لا تعنى فقط هدم أى قيمة بعبارة يمكن الاستناد إليها، وبالتالى تصبح الحداثة مجرد مغامرات مستمرة فى فراغ شكلى وقد أثبتت عدم صلاحيتها للوطن العربى.

ويمكن أن نقول : أن حداثة الوسائل العصرية لا يمكن تطبيقها على الوجدان والروح الإنسانية لأن التراث الروحى والوجدانى متصل فى كل حلقاته، ولا يمكن القضاء على الماضى بجذوره التاريخية إلا بالقضاء نهائياً على روح الإنسان.

ويقرر الدكتور عمر موسى باشا أن مفهوم الحداثة فى الأدب يعنى حرية الأديب فيما يختص باستخدام اللغة، وأن للأديب الحرية الكاملة فى استخدام اللغة العامية المحلية، ونحن نعترض على إطلاق هذه الحرية مادامت تصدع صرح اللغة العربية،وهل من الحق أن نظلم اللغة الأم ونكبلها لنبنى عوضاً عنها العامية الهجينة، وقد أثبتت التجارب أن الفصحى أطوع فى التعبير من بقية المستويات وأدق فى التصوير وأقدر على التفنن فى الأساليب.

ونحن لسنا فى حاجة إلى لغة دارجة ثالثة كحلقة وسطى بين العامية والفصحى، إذ يكفينا أن نحارب عامية واحدة لا عاميتين اثنتين، لقد بدأت هذه الحرب على اللغة من لبنان منذ سعيد عقل الذى دعا إلى لغة لبنانية محلية تستمد عناصرها اللغوية من الفينيقية والآرامية والسريانية، والغريب أنه يضيف بعض المؤثرات اللاتينية وغيرها، ثم بعثت من جديد على يد (يوسف الخال) بشكل آخر ومنطق آخر فيقول : إن الحركة الشعرية العربية الحديثة اصطدمت بجدار اللغة، ولابد من وثبة جديدة فى عملية الحداثة الحاصلة فكيف نكتب شعراً جديداً فى لغة كلاسيكية ومن هنا أقول : إن جدار اللغة يجب أن يحطمه الشاعر!

ولم يقتصر يوسف الخال فى دعوته إلى تحطيم بنيان اللغة وهدم صرحها وإنما دعا إلى إسقاط حركات الإعراب جملة وتفصيلاً.

وهو يرى ضرورة تخلص اللغة العربية من هذا العبء الثقيل وهو الإعراب، واتخاذ مبدأ الوقوف أسلوباً فى النطق، ويرى أن (الإبداع) فى الأدب العربى يكمن فى هدم صرح اللغة العربية لأن العامية هى الأصل، ويرى أن العامية تستطيع أن تنتج أدباً عظيماً.

ثالثاً : الفن وهدم القيم ..

حددت الحداثة مهمة الفن (وهو يشمل كل فنون الأدب الشعر ـ القصة المسرحية، إلخ) بأنها هدم القيم والدعوة إلى الانطلاق ثم الانفلات كما أشرنا من قبل.

يقول المختار حسنى:إن فنان اليوم لا ينال وسام الحداثة من الدرجة الأولى إلا إذا شن هجوماً مدمراً شاملاً على كل ما هو ثابت، ولا يتحقق له ذلك إلا إذا كانت لديه طاقة إبداعية متطرفة تبلغ حد الهوس لتكون قادرة على المغامرة وارتياد المجهول بصفة مستمرة حتى تفتح الآفاق أمام الإنسان ليمارس حريته دون قيد أو شرط تحت مفهوم جديد هو : «التغير الدائم من أجل التحرر الكامل».

وهو تعبير خاطئ وزائف حيث فتح الباب واسعاً أمام الاعتداء على مقومات الأمة وأخلاقها وقيمها باسم الفن : حيث يعطون الفن مفهوماً عالياً فى الضلال والبهتان: حين يقولون «إن قمة الفن هى التخلص مما هو موروث حيث تتغير علاقات الإنسان مع الكون والحياة، وأول أعمال التمرد هو التمرد على الله تبارك وتعالى الذى رسم للكون والحياة والبشر مفهوماً جامعاً بين الثبات والتغير».

وقد كان جبران خليل جبران فى مقدمة من أرسى هذه المفاهيم فى كتابه (المجنون) حيث توجد قطعة بعنوان (الله) تبارك وتعالى، فيها نفى كامل للعلاقة بين الله والإنسان وتأسيس علاقة جديدة، فى هذه العلاقة الجديدة لم يعد الإنسان عبداً لله ولا خاضعاً له، أى لم تعد علاقة مخلوق بخالق عظيم (كما فى الإسلام). أو ابن بأب (كما فى المسيحية) ولم يعد الله سبحانه (جل وعلا) لا يجئ من الماضى بل من المستقبل، وهكذا أصبح الله والإنسان كياناً واحداً بمظهرين.

وعندهم أن الأخلاق التقليدية (أى الأخلاق الدينية) هى التى تعيش الخوف من الله وتنبع من هذا الخوف، بينما الأخلاق التى يدعو إليها جبران هى التى تعيش موت الإله وتنبع من ولادة إله.

(ويلاحظ أن أدونيس أخذ أفكار جبران فى كتابه المجنون وغيرها وطورها فى كتابه «الثابت والمتحول»).

كما أنه أخذ كل أفكار ومفاهيم الباطنية والمجوس والملاحدة والتصوف الفلسفى، وجددها وأعطاها صورة براقة لإحيائها وإعادة طرحها على شباب المسلمين الذين لم يتشكلوا عقائدياً على نحو سليم، وذلك لخداعهم وطمس قيمهم وسوقهم إلى الإلحاد.

وأية ذلك مقولة «إن فنان اليوم لا ينال وسام الحداثة إلا إذا شن هجوماً مدمراً على كل ما هو ثابت».

وقد نوه أدونيس بالحديث عن جبران بوصفه مؤسس أول رؤيا للحداثة ورائداً أول للتعبير عنها، ومثلث (جبران ـ يوسف الخال ـ أدونيس) هو أخبث الأسماء التى استخدمتها العلمانية بقصد تخريب الإسلام والمسلمين عبر بوابة الفن الجميل، سواء بالهجوم على القيم أو بالجرأة على اللغة العربية، وذلك لتحقيق المحاولة المستميتة التى تملأ قلوب الحاقدين ولن ينالوها أبداً.

(م ... ة هدم أسلوب القرآن الكريم وتأسيس الجملة التوراتية).

مما تنبه له بعض الدارسين وهى صليبية تتستر بالأدب والفن.

ومن ذلك الحقد المجنون على الدولة العثمانية والخلافة الإسلامية واتهامهم لإرضاء سادته الغربيين.

وفى مواجهة القوة التدميرية التى يمتلكها اتجاه الحداثة يجب التكاتف على مواجهة هذا الخطر.

ظاهرة أدونيس

يقول الدكتور مصطفى هدارة: الحداثة نظرية إيديولوجية أساساً لقطع الصلة بالماضى والتراث بصفة نهائية، وعدم إيجاد قاعدة أو قواعد يقوم عليها شكل القصيدة، فهى تنسف البناء القديم ولا تحل محله بناء جديداً، لهذا فنحن نجد أن أبسط أشكالها: القصيدة التى تسمى حرة ـ أى قصيدة التفعيلة التى قد تخلو أحياناً من القافية، كما تتضمن أيضاً قصيدة النثر التى لا ينتظمها أى نظام موسيقى، وليس لها موضوع، لأن القصيدة فى رأيهم لا ينبغى أن يكون لها موضوع وهى صادرة عن (لا وعى) الإنسان، ولذلك تخلو من أى تفكير منطقى، إنما هى مجرد خواطر مبعثرة تشبه أحلام أو خواطر المجانين، ولا يوجد بينها رباط ولا تنظمها فكرة.

ومن الطبيعى أن يظللها الغموض بحيث لا تتواصل مع القارئ، بل إن أهداف الحداثيين الحقيقية ألا يكون هناك تواصل مع القارئ، ولهذا يدعون إلى تدمير اللغة بمعجمها وقواعدها وتراكيبها، ويحاولون أن يضعوا لغة جديدة أو حتى دلالات مختلفة عما يستجد معرفته من ألفاظ اللغة، ومن المؤسف أن هذه الفتنة قد نشرت فى عدد من الشباب لأنها سهلت عليهم مهمة أن يكونوا شعراء،فما أيسر أن يكتب إنسان كلاماً غير مفهوم لا نظام له ولا قاعدة، ويدعى أنه الشعر الخالص الذى لا يفهمه أبناء الجيل الحاضر، أو أن الذين لا يفهمونه ليسوا على المستوى الثقافى اللائق.

والأمر فى ذلك غير صحيح على الإطلاق، لأن الشعر إذا لم يكن تعبيراً عن واقع الإنسان وعن مجتمعه ومشكلاته فلا ينبغى أبداً أن يسمى شعراً، ولذا لم يكن مفهوماً

للقارئ فى جدوى الأدب وهو أصلاً علاقة بين المبدع والمتلقى.

٢ ـ هناك من نقلوا هذه البدعة من الحداثيين الغربيين وهى لا تتفق أبداً مع شخصيتنا وقيمنا ومبادئنا، وليس من الطبيعى أن نجرى وراء النزعات الشاذة التى تظهر فى أوروبا من آن لآخر، فالحداثيون فى أوروبا كانوا نتيجة ظروف سياسية واجتماعية واقتصادية خاصة فيما بين الحربين العالميتين.

وهناك من روح لهذا الاتجاه فى العالم العربى وأهمهم يوسف الخال وأدونيس ولم تكن مجلة شعر (بيروت) غير بؤرة الفساد والإفساد انتشرت فيها سمومهم، ولا يخفى (أدونيس) إساءة المطابقة للحداثة الغربية فى كتبه المختلفة، مثل الثابت والمتحول، وصدفة الحداثة وغيرها.

وكتاب الثابت والمتغير هو رسالة للدكتوراه التى قدمها للجامعة اليسوعية، فى لبنان وكان بإشراف (بولس نويه) الذى كتب له مقدمة هذا الكتاب ورسم له طريقة السخرية من التراث العربى والإسلامى.

والأساس الذى بنى عليه بحثه أن كل ما هو سلفى فهو جامد ينبغى تغييره ونسفه.

وكل ظاهرة فيها إلحاد أو زندقة أو فجور كانت فى تاريخ العرب والمسلمين من أصحاب النزعات الشاذة والمضللة فهى حركة حياة ينبغى أن نبنى عليها ونستخدمها.

ومن العجيب أن أدونيس لم يخف هذه الحقائق فى كتابه فهو يعلى من شأن كل المارقين حتى ابن الراوندى الزنديق.

وهو يدعو للتخلص من التراث جملة وتفصيلاً، ويدعى ادعاءات غريبة على الشعر العربى، وعلى الحضارة العربية، وكان أدونيس إماماً لعدد آخر من الشعراء فى البلاد العربية، ومن المؤسف أن بعض الشباب فى دول الخليج العربى بصفة خاصة قد وقعوا فى أسر أدونيس وهو لقب (على أحمد سعيد) وقد كان علوياً بالإضافة إلى أنه ماركسى معروف فنشره لهذه الأفكار وهذه الآراء وتأييده لاتجاه الحداثة يتسم تماماً مع كل ما تحول إليه وما يضمره من فكر وعقيدة. أ .هـ

جيل الستينات اللعين

كان جيل الستينات اللعين هو بؤرة هذا الخطر الشديد الذى أصاب الأدب العربى والفن والشعر جميعاً، فقد تصدر يوسف الخال وأدونيس ولويس عوض وتلاميذه (صلاح عبد الصبور، وغالى شكرى) وأخذوا ينفثون سمومهم ويضربون بمعاولهم فى جدار الإسلام والفكر الإسلامى والثقافة، ودفعوا الشعر الحر دفعة قوية إلى الأمام ولكنها سرعان ما انهارت وتبين أنها لم تكن أصيلة ولا صادقة.

﴿ أفمن أسس بنيانه على تقوى من الله ور ضوان خير أم من أسس بنيانه على شفا جرف هار فانهار به فى نار جهنم ﴾.

وتوسعت القضايا إلى قصيدة النثر، الحداثة، التصوف الفلسفى، وأساءت الصحافة إلى الأدب واللغة إساءة بالغة، واتجهت وسائل الإعلام إلى بعض الأشخاص وبعض القيم الخاصة بها لتعميقها.

ومعظم هؤلاء الأشخاص ـ على حد تعبير الدكتور هدارة ـ مطعون فى قدراتهم، ومعظم هذه القيم تتنافى مع قيمنا العربية والإسلامية وتكرس معظمها للنموذج الغربى الذى يطغى على أسلوب حياتنا.

وقد احتضنت الصحافة والإعلام هذا التيار وكتابه، وأكثر هؤلاء الحداثيين ـ كما يقول الدكتور شكرى عياد ـ لا يحسن قراءة صفحة واحدة بلغة أجنبية، ولكنه يستمد نماذجه من ترجمات أغلبها مشوه أو من شيوخ الحداثيين الذين لا يجارى أحد فى سعة ثقافتهم، ولكنهم يلبسون أقنعة أجنبية، ويكتبون بالعربية وفى أذهانهم جمهور قارئ أجنبى، هذا التيار ككل تيار فيه المادى الصافى وفيه الزبد الفارغ، أمّا أكثره فغثاء وأكثر ما يشكو منه القراء أنه غير مفهوم وغير مستساغ، وأكثر ما يشكو منه الناس ورؤساء تحرير المجلات الثقافية أن هذا الأدب الحداثى يقتحم الجنس فى كل شئ بفظاظة وإلحاح وغل.

قال أحد رؤساء تحرير الصحف : ماذا أصنع إذا كنت أنا نفسى لا أستطيع أن أحمل هذه الرواية إلى بيتى، ومسألة الجنس ليست إلا مظهراً واحداً لرغبة ممجوجة في تقليد الآداب الغربية.

والإفراط فى الجنس أمر حادث فى الآداب العربية، وقد بدا القوم على عاداتهم فى تغيير الموضات والموديلات يزهدونه ويضيقون به، وأعنى بكونه حادثاً أنه لم يظهر هذا الظهور الفاضح إلا منذ الخمسينيات.

وعرفنا الجنس فى روايات كوليت الفرنسية ولورنس الإنجليزى مبشرة بدين جديد هو دين (اللبيدو) الذى اكتشفه فرويد.

وقال كاتب إنجليزى إن فكرة الجنس فى رواياتى تشغل المكانة التى لا يمكن أن تشغلها فكرة الله (تعالى الله عما يقول علواً كثيراً) بعد أن كانت فى العصور الوسطى، فأنا أدفع بالجنس إلى مرتبة التقديس.

أما أنا فأحسب أن الجنس عندهم ليس إلا نوعاً من الرفض لقيم مجتمعهم، ولكنه رفض أعمى (والرفض يجب أن يتضمن الإيحاء بقيم أفضل).

هؤلاء الذين يحرمون أنفسهم من حقهم فى التفكير المستقل والإبداع المستقل، وخطتهم الكبرى أنهم ينعزلون عن مجتمعهم، فالحداثة كما جاءونا بها نبت غريب لا تسيغه حلوقنا ولا معداتنا، وما أظنهم هم أنفسهم يهضمونه ولكنهم يجعلونه زياً لهم وشارة يتميزون بها عن غيرهم، وقد نجحوا حتى أصبح القارئ العربى سيئ الظن بالأدب كله ولا ثقافه أصيلة بدون أدب أصيل.

ونحن حين نراجع كتابات عابد الجابرى الفلسفية نجد بينها وبين كتابات أدونيس ترابطاً وإن اختلف المنهج. وهو الاهتمام بإحياء التراث الباطنى من الأدب، وكان لإظهار كتاب النفرى ضجة كبرى فقد اهتم به أحد المستشرقين الفرنسيين وقام دعاة الحداثة جميعاً بالاهتمام به ووصفوا كتابه بأنه أهم المؤلفات فى تاريخ الحضارة العربية بل الحضارة الإنسانية، حيث لم يكن ابن النفرى إلا تابعاً للمدرسة الباطنية والتصوف الفلسفى التى قادها الحلاج وابن عربى.

وقدم أدونيس فصلاً عن النفرى فى كتابه (المواقف والمخاطبات) رسم فيه صورة لعالم النفرى الأدبى والفكرى فى محاولة للكشف عن أمور الروح، ويرى أدونيس أن نصوص النفرى تجربة تتجاوز الواقع لتقيم نظاماً للغرض الذى تسكنه، وتصل إلى الكشف عما تحجب وهى بهذا تجربة رموز وإشارات.

لقد كان النفرى مجهولاً حتى كشف عنه المستشرقون، وأخرجوه من الأوراق القديمة واهتموا به وكلفوا رجالهم بإشهاره والحديث عنه لأنهم رأوا فيه طلبتهم ، وما يطمعون فى أن يقدموه للشباب المسلم لتدمير مفاهيمه الإسلامية الأصيلة من فكر أهل السنة والجماعة ولذلك عنى به أدونيس وغيره.

وبالرغم من سقوط مفاهيم الحداثة والشعر الحر واندحار التيار كله فما يزال هناك من يعاودون الكتابة عن أمل دنقل وغيره، أولئك عبيد الفكرة المسمومة التى يحمل لواءها أدونيس، أمثال أحمد عبد المعطى حجازى ودكتور عصفور وغالى شكرى حيث تفسح لهم الصحف الكبرى الصفحات وتفرد لهم المجلات الأدبية.

لا ريب أن هناك قوى كبرى تريد أن تروج لهذا الفكر المسموم حتى يكتب ثمانى رسائل جامعية عن أمل دنقل.

لقد تحولت تلك الأقلام الماركسية لتحارب الإسلام الآن، يرثون تراث لويس عوض، هؤلاء الذين فاتهم القطار فى المرة الأولى يحاولون أن يبرزوا فى ميدان آخر يذهبون فيه إلى أقصى ما يستطيعون من العبثية، ولكن سوف تثبت الأيام هزيمتهم للمرة الثانية.

إنهم ما زالوا يرددون تلك الكلمات الضالة المضلة.

مقولة (على الشعراء أن يحطموا الأغلال : الأغلال هى اللغة الفصحى التى حملت رسالة القرآن من أربعة عشر قرناً) .

وقد عاشت صحف كانت خادمة للماسونية طوال عمرها، وموالية للفكر الغربى وتحصل على معونات من بعض المراكز الثقافية الغربية والمراكز المسيحية وأندية الروتارى والمحافل الماسونية، ومن يقرأ الأعداد الأولى للهلال يرى ذلك واضحاً، وأن ولاءه مع النفوذ الأجنبى كان واضحاً، وكان ولاؤه مع المقتطف والأهرام والمقطم للماسونية وحرباً على الخلافة الإسلامية والدولة العثمانية.

وهذا هو سر بقاء الهلال والأهرام من صحف السوريين فى مصر بعد ذهاب عشرات المجلات والصحف التى أصدرها مصريون، فقد كان المصريون يكتبون عن وطنية وإيمان ويدافعون عن حرية أوطانهم ويقاومون النفوذ الأجنبى ممثلاً فى الثقافة الغربية والولاء الليبرالى وغيره.

ولذلك عاشت هذه الصحف التى كانت لا تعارض النفوذ الاستعمارى بل تؤيده وتسايره وتدافع عنه، وقد تولى أمرها من بعد ذلك عملاء للثقافة الغربية والمحافل الماسونية، وقد عرفت بعضها بإقامة جماعة المثقفين الكبار أمثال توفيق الحكيم وحسين فوزى ولويس عوض ونجيب محفوظ، وبعد أن كانت الأهرام تناصر النفوذ الفرنسى والمقطم تناصر النفوذ البريطاني تحولت كلها مع الهلال وغيره إلى الولاء للثقافة الغربية الماسونية، ولذلك فإن مقولة أحدهم إن بقاء الهلال أو الأهرام كان ناتجاً من التوازن مع العصر ومواكبة الزمن مما جعلهما يعيشان وينموان ويزدهران مقولة باطلة.

ولن ينسى أحد دور جرجى زيدان فى تسميم وجهة التاريخ الإسلامى بروايات الهلال، ولذلك فإن كلمة التوازن ومواكبة العصر تعبيران فضفاضان.

❑ ❑ ❑

لقد سيطر الشيوعيون خلال عقد الستينات على الصحافة والمسرح والإعلام ووجهوه لخدمة الفكر الماركسى سواء فى القصيدة أو القصة أو النقد الأدبى فى محاولة لتدمير المفهوم الإسلامى للفكر والمجتمع والسياسة والاقتصاد.

ولكن سرعان ما تكشفت حقيقة حاسمة وهى رفض الكيان الإسلامى للجسم الغريب وسرعان ما سقطت الماركسية كما سقطت القومية والتجربة الغربية من قبل.

ولقد كان كتاب و شعراء الحداثة فى مقدمة التهجم على القيم والأخلاق والتاريخ الإسلامى، فقد ساروا فى طريق الهدم للغة والتراث والعقيدة والرسالة، على حد تعبير الشيخ عبد الله العقيل ـ يحملون جراثيم الفساد ومعاول الهدم نيابة عن سادتهم الذين يديرون المعركة من وراء الكواليس مكتفين بهؤلاء الذين يحملون الأسماء الإسلامية، ليمارسوا الطعن فى الإسلام وتشويه صورته ومسخ اللغة والشعر، وإحلال المفاهيم والتصورات التى تعلموها من الهدامين والمسيطرين والوجوديين والعلمانيين، فكانت القصص الهابطة والمسرحيات المبتذلة والشعر المنفلت، يخلطون هذا بهالات من التمجيد والتعظيم ليخدعوا العامة وأنصاف المثقفين فكانت القصص الخليعة والشعر الرمزى.

ولم يتوقف الأمر عند البيئة العربية بل امتد إلى دراسات الشباب العربى والمسلم فى البلاد الغربية، ولقد لفت النظر بقوة إلى الترابط بين الهدامين فى البلاد العربية وبين الجامعات الأدبية لنشر مفاهيم الحداثة والكشف والجنس.

هذا بالإضافة إلى رسائل دكتوراه عن مزدك وماني والقرامطة والزنج التي كتبها ماركسيون عرب من أقطار عراقية وسورية تحت عنوان «حركات عدل وحرية على نحو وصفها طه حسين قبل أربعين عاماً.

وفى هذا المجال يتساءل الدكتور محمد رجب البيومى : لماذا اهتمت جامعة جيش بابن الحجاج وأمثاله من الرفقاء : إنه شاعر فى عصر الثعالبى لم تخل قصيدة له من أبشع ما يقال، وله ديوان احتفلت به جامعة جيش فى ألمانيا حيث وزعته فى طلاب الدكتوراه من أبناء العرب والمسلمين.

وفى حرف النون من هذا الديوان (٣٦٠ صفحة) كلها فجور متهتك، وليس فيها من الخيال والتصوير ما قد يشفع لها عند من يزعمون أن الفن للفن، ويرجع هذا إلى أثر الدعوة الصهيونية الماسونية الخاصة بالأعضاء التناسلية، ومحاولة حشد كلمات لأسماء مشهورة مثل القديس كليمان الذى يقول : « أنا لا أخجل من الكلام عن أعضاء الجنس» استجابة لمقولة «بروتوكولات صهيون» فى الدعوة إلى تعويد العرب على الحديث عن أعضائهم التناسلية دون خجل، وهنا يتساءل : لماذا تقدم هذه الجامعات بودلير وغيره ولا تقدم أمثال تولستوى.

فإذا عدنا إلى المجموعة المختارة من نماذج الشعر العربى نجد أبا نواس والضحاك، (والدكتور البيومى يعرف أن أول من اختارها الدكتور طه حسين) إنه تيار أدب اللذة وأدب المجون المتسلط على الأدب العربى لإذاعة وترويج كل ما يتعلق بوصف الشهوات الآثمة.

وهم يبحثون فى الأدب العربى عن نصوص من الهجاء والجنس والغلو فى المدح ووصف للعورات والغزل بالمذكر، ونحن نتابعهم فى هذا دون أن نذكر أن ذلك لم يكن من أصول الأدب العربى الإسلامى، وإنما جاءنا من اداب الأمم السابقة للإسلام فقد كانت هناك جماعات الشعوبية التى تعمل عملها لتدمير القوة التى تحمل لواء الإسلام.

ودون أن نقدر أن أدبنا حافل بالصور الإيحائية والمواقف الحاسمة، وكل هذا نتجاهله ونغضى عنه ونتحيه وراء هذه الصور المسمومة التى يتقنونها



وهم يحاولون وصف الأدب العربى بثلاث نزعات:

(١) نزعة الفخر والاستعلاء (٢) النزعة الإباحية (٣) إن خير ما عند المسلمين إما من أمر الجاهلية أو من الفكر اليونانى والغربى. وهذه كلها مقولات مضللة.

أولاً: إن نزعة الفخر والاستعلاء فى النفسية العربية إنما تمثل انحرافاً جاء الإسلام للقضاء عليه، وباب الفخر فى الشعر العربى يأتى نتيجة غلبة هذه الآفة بعد الإسلام، هذه النزعة التى مازالت تسيطر على الإنسان العربىَ فى مقولة عمر بن كلثوم.

ونشرب ان وردنا الماء صفوا ويشرب غيرنا كدراً وطيناً.

قال رسول الله ﷺ : «إن الله أوحى إلى أن تواضعوا حتى لا يفخر أحد على أحد ولا يبغى أحد على أحد ».

وقد تبعتها نزعة العنصرية والدماء، وقال ﷺ: «إن الله قد أذهب عنكمْ نخوة الجاهلية وتعظيمها بالآباء. الناس من آدم وآدم من تراب».

ثانياً : إن نزعة الأدب الإباحى : الخمر والغزل المكشوف هى نزعة جاهلية قضى عليها الإسلام، وقد عادت مرة أخرى بتأثير الاتصال بالفكر الفارسى والمجوسى القديم.

ثالثاً: إن كل ما فى الجاهلية من أخلاقيات وكرم هو بقية من دين إبراهيم (الحنيفية السمحاء) وليست من أخلاق الجاهلية العربية.

❑ ❑ ❑

ويرد الدكتور رجب البيومى أمر هذا التيار إلى ما كتب فى الحرب العالمية الثانية عن سقوط فرنسا حيث أرجع الكتاب هزيمة الجيش الفرنسى إلى انحلال المجتمع وتهالكه على اللذائذ وإسرافه فى العبث والمجون، حتى أن (رومان رولان) قال فى كلمة ضافية فى هذه المناسبة: إن الأمم الضعيفة الأخلاق الماجنة التفكير فى أدبها وحياتها يتسرب إليها الخمول والاستسلام تسرب الانحلال فى الشجرة النخرة، فإذا لم تتلاف الأمم هذا الداء الوبيل قاضية على جراثيمه الفتاكة سارت إلى الانقراض.

إن الضعف البشرى يمشى فى الأوضاع الاجتماعية والأدبية بعد الحرب الأولى قاضيا على عزة النفوس فغدا الأديب لا ينشد فى أدبه سوى الأغراض الدنيئة، وأمسى الرجل المسئول لا يفكر إلا فى الأغراض الحقيرة» ا. هـ

كما أشار الوزير مارزايك إلى انحدار القصص الأوروبى بعامة والفرنسى بخاصة إلى مستوى الغريزة العارية والشهوة الوضيعة والحب الجنسى الشره، ويمكنكم أن تتأكدوا أننا قد مللنا بل قد اجتوينا هذا الضرب المأفون من الروايات العاطلة السقيمة التى لا تطالعها إلا امرأة سليطة يحبها اثنان أو ثلاثة عدا زوجها الصنديد الذى تخدعه بشتى الحيل، وهكذا فى دائرة بغير انتهاء.

❑ ❑ ❑

فإذا اتجهنا إلى مجال الترجمة وجدنا محاولة مدمرة خطرة تختار أسوأ ما فى الإنتاج الغربى وتترجمه وتقدمه لأبنائنا.

ولقد تعالت الأصوات بشجب هذا الاتجاه حيث إنه لا يحل لنا ترجمة الأعمال التى تختلف مع قيمنا وأخلاقنا والتى تحرمها الشريعة الإسلامية، وإنه من الضرورى حجب مثل هذا العمل ومنع تداوله لما فيه من خروج سافر على كل المبادئ والقيم الإسلامية لما فيه من خطر يتهدد كل بيت وكل أسرة.

ومن هنا فقد أثير فى السنوات الأخيرة الحديث عن الحد الفاصل بين الحرية والفوضى ، وعن الحدود والضوابط التى ينبغى أن تتوقف عندها حرية الكاتب أو المترجم أو الناشر.

يقول أحد الباحثين الإسلاميين: إن الكتابة أمانة والترجمة أيضاً، ومسئولية اختيار الأعمال التى تقدم للمسلمين وخاصة شبابهم ومدى ما تؤثر فى سلوكهم، ويجب أن يكون واضحاً أن هناك فوارق أخلاقية واجتماعية كثيرة بين مجتمع الإسلام والمجتمعات الأخرى، ولابد أن يراعى ذلك فى تقديم المترجمات.

وإن نشر مثل هذه الكتب على العامة أمر خطير لما بها من إباحية وفجور، وخروج على الآداب العامة والحياء العام.

(نذكر هنا قصة من قتل مونيرو تأليف مارلوفاحاس وترجمة حامد أبو أحمد).

وما تضمنته هذه المترجمات من ألفاظ عارية قبيحة ليس فيها أدب وليست لها أى قيمة فكرية، وما فيها من تبذل وإسقاط والتقاط أبشع ما فى الإنسان من صور حيوانية.

وخاصة تعرية الكلمات من لباس الحياء والشرف وما يؤدى إليه من نشر الفساد، وبالذات المواقف المثيرة التى تعصف بالقيم.

يقول الرسول ﷺ: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت».

إن الأدب المكشوف المصحوب بالألفاظ النابية والعبارات الفاضحة أمر لا يرتضيه الإسلام، لا شكلاً ولا موضوعاً.

إن الآداب فى الأمم لها وظيفة أساسية، وهى الارتقاء بقيم المجتمع شيوخاً وشباباً رجالاً ونساءً.

أما ما فى هذه الروايات التى تخدش حياء القراء من الجنسين فهو حرام نشره أو قوله أو التلفظ به.

﴿ إن الذين يحبون أن تشيع الفاحشة فى الذين آمنوا لهم عذاب أليم فى الدنيا والآخرة ﴾.

أما دعوى اشتمال الأدب العربى والفقه الإسلامى على مثل هذه النماذج فهو كلام فاسد، فالفقه الإسلامى لا يضطر إلى التصريح بما يكنى عنه إلا إذا كانت المسألة تتعلق بحكم فقهى لابد من النص الصريح عنه، والحديث فى الفقه له سياق مختلف، أما الشعر العربى فقد يكون فيه بعض الصور التى اقتربت من الأشياء الحسية ولكنها ظلت مكفوفة عن مثل هذا السوء.

أما القول بأن (ألف ليلة) فيها مثل هذا الأدب المكشوف فدعوى باطلة وادعاء كاذب، ومثلنا الأعلى القرآن الكريم الذى عبر عن اللقاء بين الرجل والمرأة بألفاظ كريمة (تغشاها) (إذا لامستم النساء) والأدب العربى ليس حجة علينا فى ديننا (وهذه المرحلة معروفة عندما ضعف الاتجاه العربى وغلب اتجاه التبعية للفكر الشعوبى والفارسى والمجوسى ومترجمات اليونان القديمة.).

ولو سلمنا جدلاً باشتمال الأدب العربى على مثل هذه التعبيرات الشاذة، فالقياس على الفاسد فاسد.

والفقه كالطب لا يدرس لكل الناس لأن به نوعاً من الحياء والخجل ولا يجوز أن نتخير الشرائح الفاسدة فى الآداب الأجنبية، ونقول أن ناقل الكفر ليس بكافر فإن هذا تفكير خاطئ.

وإن فى الآداب العالمية متسعاً لمن يريد أن يعرف أمته بتراث الأمم الأخرى، ولكن التصميم على نقل الفاسد منه فقط هو الخطأ الجسيم، وإن إذاعة هذا الفساد يؤدى إلى الفساد الذى يحطم قيم الشباب فهو ناشر للجنس ومروج له والمروج للإثم آثم.

خامسا: الأدب العربى والاستشراق

كان الاستشراق وراء كل محاولات تدمير مفاهيم الأدب العربى، المستمدة من الإسلام فى محاولة لفرض تفسيرات مستمدة من التراث الجاهلى (الباطنى والإباحى).

(١) وقد تركز ذلك على إحياء شعر الغلمة والإباحة (أبو نواس وبشار).

(٢) كما تركز على إحياء مفاهيم وحدة الوجود والحلول والاتحاد، وإحياء تراث ابن عربى والحلاج والسهروردى.

(٣) كما جرى على محاولة فرض الأسلوب التوراتى على الأدب العربى، وهدم الأسلوب القرآنى على النحو الذى قام به جبران خليل جبران وميخائيل نعيمة.

(٤) كما جرى ذلك فى محاولة فرض شذرات من الأدب الشعبى القديم (الفلكلور) لتحل محل صور البلاغة والبيان القرآنى الذى يحمل الصورة العالية فى الحكمة والسداد، ومحاربة أدب البلاغة.

(٥) كما جرى تدمير مفهوم البطولة الإسلامية بالدعوة إلى نظريات لمبروزو وفرويد وإميل لدوفيج الذى يقوم على التصور المادى.

(٦) كما عهد أمثال يوسف الخال وأدونيس إلى إشاعة المصطلحات المسيحية فى الشعر الحديث والتى جرى وراءها صلاح عبد الصبور وأمل دنقل والسياب.

(٧) محاربة النظم العربى وتحطيم الخليل بن أحمد والأوزان القديمة.

(٨) الدعوة إلى تصور خاطئ يتمثل فى أن العرب فى العصر الأول اعتمدواعلى الفكر اليونانى فى البلاغة والنحو، وكان طه حسين قد أعاد نشر كتاب نقد النثر سواء أكان الكتاب لقدامة أو جمعه من كتاب القاضى ابن عبد البر، وهو الكتاب الذى قلد فيه كتاب الشعر لأرسطو.

(٩) كما جرى إحياء دواوين الغزل المكشوف وكتاب الأغانى ويتيمة الدهر للثعالبى والشعر الإباحى لأبى تمام والبحترى وصفى الدين الحلى فى غزل المذكر.

وقد عبر أدونيس فى كتابه (الثابت والمتحول) أنه يدعو إلى إحياء كل هذا التراث الإباحى والباطنى القديم وتجديده.

يقول : إن الفكر الذى ننادى به هو الصراع بين النظام القائم على السلفية والرغبة العاملة لتغيير هذا النظام وقد تأسس هذا النظام فى أثناء العهدين الأموى والعباسى حيث نرى تيارين للحداثة.

الأول: سياسى فكرى، ويتمثل من جهة فى الحركات الثورية، ضد النظام القائم بدءاً من الخوارج وانتهاءً بثورة الزنج ومروراً بالقرامطة.

والحركات الثورية المتطرفة.

ويتمثل فى جهة ثانية فى الاعتزال والعقلانية الإلحادية فى الصوفية على الأخص.

هكذا يرى أدونيس أن كل ما هو الحقيقة يمثل « فرق الهدم والزندقة التى ظهرت بعد ترجمة الفلسفة اليونانية، هو عنده تيار حداثة ويقول (المهم أن تثور الأمة على قديمها حتى لو كان القديم هو دين الأمة واستقرارها ورجاؤها وأن يكون فى شعوب الأمة خوارج وقرامطة وملاحدة وإباحيون).

وهكذا تكشف هذه الدعوة عن غايتها وأهدافها من إعادة الجاهلية والإلحادية والإباحية وإنكار المثل والأديان والقيم، وكلها مبادئ منصوص عليها فى دستور ووثائق وكتب حزب البعث، ويؤكد الباحثون أن هناك رابطة بين ما أورده أدونيس فى كتاب الثابت والمتحول وبين ما ورد فى المادة السادسة من دستور حزب البعث ممايسمى تحقيق أهداف القومية عن طريق الانقلاب والنضال.

وواضح أن هدف هذه الدعوة إعادة النظر فى أدوات المعرفة ومراجعة القيم التى اكتسبت القداسة بدءاً من أشكال السلطة السياسية والدينية وما يتصل بها من القيم ونقض الثوابت أو إخضاعها للنقد وتحطيم صورة الأدب، ونزع الهالة عن المقدسات وزعزعة سلطة المجرد، وإسقاط الثوابت.

وكل هذا واضح تماماً فى الدعوة التى حملها المستشرقون تحت اسم الأدب، ويأتى هدف القضاء على اللغة الفصحى فى مقدمة الأهداف.

ويقول يوسف الخال (زعيم المدرسة العلمانية الداعية إلى استبدال العامية بالفصحى) فى كتاب دفاتر الأيام: «إذا كانت النظرة إلى الكون والحياة والفن هى ما نسميه الدين، وإذا كان لنا بعد هذا السقوط الذى حل بنا منذ ألف سنة أن ننهض من جديد فعلينا أن ننقد نظرتنا الحاضرة وينبغى تعديلاً لها أو بدلاً منها».

❑ ❑ ❑

لقد عمل المستشرقون وأتباعهم على التركيز على مرحلة ترجمة الفلسفة اليونانية وما تبعها من تحولات فى الأدب والفكر، ويقول السيد أبو الحسن الندوى:

وكان أخطرها بالنسبة للأدب ظهور المقلدين للعجم حيث ظهر أسلوب للكتابة والإنشاء هو بالصناعة الأدبية والوشى والتطريز أشبه منه بالبيان العربى السلسال، وكلام العرب الأولين المرسل الجارى مع الطبع، وغلب عليهم السجع والبديع وغلوا فى ذلك غلواً أذهب بهاء اللغة ورواءها، وقيد الأدب بسلاسل وأغلال، ففقد حريته وانطلاقه وخفة روحه وجماله.

وتزعم هؤلاء (الصابى والفضل بن العميد والصاحب بن عباد ووأبو بكر الخوارزمى وبديع الزمان الهمذانى) الأدب العربى واحتكروه وخضع العالم الإسلامى لنفوذهم ونتيجة للانحطاط الفكرى والاجتماعى الذى أصاب المسلمين، وجاء الحريرى فألف المقامات ـ وهو أسلوب الكتابة المسجعة المختمر ـ ومضى هذا التيار ليسيطر على العقول والأقلام لأنه صادف عصر الجمود والعقم الأدبى وجاء المؤرخون للأدب واعتبروهم أئمة البلاغة (من القرن التاسع إلى القرن الثالث عشر) لا نستثنى منهما إلا عبقريتين اثنتين أولهما «ابن خلدون» وثانيهما «الإمام أحمد عبد الرحيم الدهلوى».

وتناسى هؤلاء ما كتب غيرهم فانصرف الناس حتى الباحثون فيهم عن ذخائر الأدب العربى الثمين، ولم يفكر أحد فى أن يبحث فى كتب التاريخ والسير والتراجم وفى مؤلفات العلماء عن قطع أدبية رائعة تتفوق فى قوتها وحيوتها وسلاستها وسلامها، وفى بلاغتها وجمال لغتها وعلى دواوين أدبية ومجاميع ورسائل أكب عليها الناس واقتنعوا بها، هذا وقد بقيت طائفة من العلماء حتى فى عصور الانحطاط الأدبى غير خاضعين لأسلوب تقليدى فى عصرهم متحررين من السجع والبديع والصنائع والمحسنات اللفظية يكتبون ويؤلفون فى لغة عربية نقية فى أسلوب مطبوع يتدفق بالحياة.

ومثل هذه الكتابة العربية الرائعة : كتابات الغزالى فى الإحياء والمنقذ من الضلال وخطب عبد القادر الجيلى والقاضى بن شداد عن صلاح الدين وشيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه الحافظ ابن قيم الجوزية.

فهنا ترى مثلا رائعاً للكتابة الأدبية العالية يتدفق قوة وتأثيراً وحياة، وذلك هو الأدب الحى الخليق بالبقاء، ولا سبب لذلك إلا أنه كتب عن عقيدة وعاطفة، وهناك شئ آخر هو الآيان وصفاء النفس والاشتغال بالله (تبارك وتعالى) والعزوف عن الشهوات يمنح صاحبه صفاء حس ولطافة نفس وعذوبة روح ونفوذاً إلى المعانى الدقيقة، واقتداراً على التعبير البليغ، ومن ذلك ما نراه فى كتابات الحسن البصرى وابن السماك والفضيل بن عياض.

ومن هنا نعرف كيف حرص الاستشراق على إخفاء هذه النماذج الإسلامية الأصيلة وإقامة منهج دراسة الأدب العربى على هذه المراحل من التبعية.

❑ ❑ ❑

ولعل أخطر ما حاول الاستشراق العمل لتدميره: هو الثقة بالتراث الجاهلى من الشعر العربى الذى أصبح بنزول القرآن مصدراً أساسياً لفهم القرآن وقضاياه.

ومن هنا عمد عدد من المستشرقين إلى هدم هذا البناء والتشكيك فيه فى مقدمتهم دينان ومارجليوث.

يقول دكتور محمد مصطفى هدارة فى بحثه الرائع (فى كتاب مناهج المستشرقين فى الدراسات العربية الإسلامية) (جـ ١) :

لقد هدف مرجليوث إلى التشكيك فى الإسلام بإثارة الشكوك حول الشعر الجاهلى نتيجة لتعصبه ضد الإسلام، وهى المقالة التى أسس على قواعدها الدكتور طه حسين نظرية أفاض فى الحديث عنها فى كتابة (فى الشعر الجاهلى) فآذت مشاعر المسلمين وصدمت فكر العلماء الثقات. وكانت نظرية طه حسين المؤسسة على آراء مارجليوث قوله « إن الكثرة المطلقة مما نسميه أدباً جاهلياً ليس من الجاهلية فى شئ وإنما هى منحولة بعد ظهور الإسلام».

❑ ❑ ❑

ومن أكاذيب المستشرقين ودعاويهم ادعاؤهم أن البلاغة العربية تأثرت بخطابة (أرسطو) وشعره فى نشأتها وتطورها، وفى هذا تعسف عظيم وإنحراف عن المنهج العلمى السليم، وذلك أن العرب عرفوا البلاغة وفنونها قبل أن يترجم كتاب أرسطو وليس فى كتب البلاغة ما يدل دلالة واضحة على هذا التأثر أو النقل الصريح.

ويضاف إلى هذا أن المترجمين والملخصين والشراح اعتمدوا على ما عند العرب من مصطلحات وتعريفات وأمثله حينما ترجموا أو لخصوا أو شرحوا، ولا سيما ابن رشد الذى عقد صلة قوية بين قواعد أرسطو وبلاغة العرب ولكنه لم يوفق.

وقد ضل الفارابى فى كتاب ظنه لأرسطو كما ضل ابن رشد فى ترجمة متناً للتراجيديا بأنها المديح وللكوميديا بأنها الهجاء، ولقد وجدت كل الأعمال التى حاولت خلط البيان العربى بالأدب اليونانى، وجدت نقداً لاضطرابها فقدامة بن جعفر الذى جارى الفكر اليونانى فشل ولم ينجح فى كتابه ومنهجه كل النجاح (نقد الشعر) لأنه أضفى عليه جفافاً لا يقبله الذوق العربى السليم، ووضع حدوداً ورسوماً لا تلائم الشعر العربى، وقد غالى كثير من الباحثين فى تأثره بأرسطو وكتابه (الشعر والخطابه).

❑ ❑ ❑

أما ما نسب إلى الفارابى من مقولة صلة علم النحو العربى بعلم المنطق اليونانى فهى مقالة يكذبها الكثيرون، وفى مقدمتهم عبد الرازق محيى الدين، فإن القول بتأثر النحو العربى بالمنطق اليونانى أمر غير صحيح ولو ذهب إليه الفارابى فمن يعرف النحو العربى ومصادر أخذه وانتزاعه ومهمته فى صون اللسان العربى من الخطأ فى إعراب الكلام ثم يعرف مصادر المنطق ومبادئه ومهمته فى صون الفكر عن الخطأ فى الأحكام يؤمن بأن النحو لا موضوعاً ولا غاية من المنطق فى شئ فليس فى مباحث النحو وشواهده مايرجع فيه إلى قياس منطقى أو يستشهد فيه.

ونسب إلى الفارابى كتاب اسمه (كتاب الحروف) يكشف عن أثر المنطق بالنحو العربى مجاوزاً إلى القول باقتباس النحو من علوم اليونان، وكل ذلك من دعاوى المستشرقين الذين يحاولون نسبة علوم العربية إلى مترجمات اليونان.

فقد نشأ النقد الأدبى عربياً وظل عربياً صرفاً تماماً كما حدث على الصعيد الفلسفى عندما انبهر بعض مفكرى الإسلام أمثال الفارابى وابن سينا وابن رشد بمعطيات الفلسفة اليونانية حتى تمثلوها تمثيلاً أبعدهم عن جوهر الفكر الإسلامى، وحقيقة صراعه مع واقع المجتمع فى ذلك الحين: الأمر الذى ترتب عليه نوع من الاغتراب الروحى العميق.

فكان أن لفظهم المجتمع العربى الإسلامى وأعلن أنهم لا يمثلونه فى شئ، وأنهم دوائر متصلة تعبر عن فكرها الشخصى ومزاجها الخاص.

ولقد تبين بعد ذلك أن أصالة الفكر الإسلامى تلتمس عند غير الفلاسفة بل عند الأصوليين من الفقهاء وعلماء الكلام.

وهو الرأى الذى توصل إليه الشيخ مصطفى عبد الرازق وقامت عليه مدرسة الأصالة فى الفكر الإسلامى.

سادسا: نظرية إسلامية للأدب

بعد أن قطع الأدب العربى هذه المراحل المتعددة وهو يخوض فى أوحال التصور الغربى للأدب يتحتم الأمر أن يكون لنا نظرية فى النقد وتاريخ الأدب، فلا نعيش أسرى التيارات النقدية الوافدة منذ القرن الماضى حتى الآن من خلال الرومانسية والرمزية والسريالية والعبثية والحداثة.

ذلك أن هذه النظريات تدمر شخصيتنا الأصيلة وتهز انتماءنا ونحن نعرف أن هذه النظريات ظهرت فى أوروبا بعد الإحباط الذى أصاب أهلها بسبب الحرب العالمية الأولى مرتبطة بالفساد والانحلال الأسرى الذى عاشته أوروبا.

أما نحن فنأخذ هذه التيارات الأوروبية والنقدية ولا نكاد نعى ما فيها، وفى مقدمة ذلك فكرة الغموض بالمعنى الذى يتجه إليه أصحاب السريالية، وكيف أن الإنسان يكتب من خلال الوعى أو من عقله الباطن.

ولقد تكشف لنا الكثير من خفايا هذه التيارات المدمرة.

وإذا كانت الحداثة هى صاحبة السطوة الآن والسلطان فإننا نعرف أنها دعوة صهيونية وماركسية وإلحادية.

وقد تبين لنا نحن المسلمين أن هذه المذاهب الأوروبية (الكلاسيكية ـ الرومانتيكية ـ الواقعية) هى فى الحقيقة فلسفات، وليست مذاهب، وهى مناقضة لدين الله تبارك وتعالى. إنها فلسفات وجدت أنها تعجز أن تصل إلى الناس عن طريق الفلسفة، ولكنها تصل عن طريق الأدب لأنه أقرب إلى النفوس. ومن هنا فإن المذاهب الأدبية الأوروبية مرتبطة بفلسفات مادية.

وعلينا أن نكون واعين بما وراء هذا الفكر، فالواقعية الغربية تقوم على المادية الجدلية والتفسير المادى للتاريخ.

ومن هنا فإن الإسلام يتصادم مع هذه المذاهب.

فالكلاسيكية فلسفة تمجد العقل،وقد ظهر هذا المذهب بعد سنوات طويلة من ظهور

الرومانسية التى كانت ثورة على العقل وتمجيداً للعاطفة، وقد أشار إليوت إلى هذا المعنى فقال: إن المدرسة الكلاسيكية، بل الإحياء الكاثوليكى ملتزم بنصرانيته (بصفة خاصة الكاثوليكية).

ونحن المسلمين لا نرفض العقل ولا نرفض العاطفة، والشعر العربى زاخر بالعقل والعاطفة وما نرفضه ويتصادم مع الفكر الإسلامى أن يكون توجيه العقل والعاطفة قائماً على فلسفة معينة بالصورة التى تأدت بها إليه.

❑ ❑ ❑

إن الأدب الذى يعبر عنه المفهوم الإسلامى بمثل «النظرة الشاملة» للكون والوجود والحياة ـ وأساسها الأخلاق بوصفها جزءاً من العقيدة مع استمرار وجهة نظر الإسلام تجاه الأدب المستمدة من القرآن والحديث، وشمول النظرة إلى المجتمع وعدم توقفهاعن العبادات.

ومن هنا فإن كل ما يتصادم به الفكر الإسلامى فهو ليس أدباً إسلامياً. ويرفض الإسلام دعوى (الفن للفن) التى تقوم على جمال الشكل سواء كان بناء أو هداماً فإن هذا المذهب يعرى الأديب عن الدين والأخلاق. كما رفض الإسلام مدرسة (اللاوعى) و(السريالية) و(ما فوق الواقع) لأنها كلها مذاهب تعادى الواقع وترد الإنسان إلى غرائزه.

والواقع أن هذه المذاهب مرتبطة أساساً بمفاهيم تدميرية.

فالكلاسيكية : هى تأليه الإنسان.

والرومانسية: هى إغرابه الذاتى.

والواقعية : تمجيد لحظات الضعف.

أما الوجودية : فهى تصوير الانحراف الفكرى أو النفسى.

هكذا تبدو مفاهيم الأدب الأوروبى وهى صادرة عن مصدرين.

أولهما : تأثير الدين المسيحى فى نظرته للإنسان والكون.

ثانيهما : تأثير الوثنية والإباحية اليونانية.

أما الالتزام ففى المفهوم الإسلامى هو منطلق لحياة الإنسان، ومن ثم فهو يستطيع أن

يتحدث فى أى موضوع حتى الجنس ـ بمفهوم الإسلام، والالتزام لا يعفى الأدب من مقاييس الجمال الأدبى، ولكنه يقدم أخلاقية الأدب ويراها أساساً واضحاً .

الأخلاقية ليست حجراً على الإلهام:

والالتزام بمفهوم الإسلام : يجرى فى المضمون وفى الشكل أساساً، وقاعدة الالتزام يجب أن تنطلق من مفهومات الإسلام وأصولنا الإسلامية.

وحرية الأديب فى الإسلام أن يلتزم فى أدبه التزاماً إسلامياً وفق المقاييس التى تنطلق من الكتاب والسنة، ولا بأس من النظر إلى المذاهب الأدبية الغربية للانتفاع بها، فنحن نقرأ المذاهب الأدبية الغربية ونحن وعاة للذين بين أيدينا، وكل ما تخالف ديننا بلا استثناء ومفهوم الالتزام فى الإسلام لا يعنى محاصرة الأديب، بل الالتزام بألا يتخطى أصول الشريعة الإسلامية.

وغاية الفن فى الإسلام: أن لا يخدش الفطرة ولا يناقض أصول الإسلام، أما دلالة المصطلح فهى بين الأدب الإسلامى والآداب الغربية، وتميز المصطلح الإسلامى بالسياق.

وعلى الأديب المسلم ألا يستسلم أمام الضعف البشرى على النحو الذى وقع فيه نجيب محفوظ ويوسف السباعى وإحسان عبد القدوس، ولقد ظهرت فى أدبنا العربى الحديث انحرافات خطيرة إذ لم تعد تقتصر على الغزل الفاحش، وبعض هذه المخالفات أصبحت تقصد محاربة القيم الإسلامية وغزوها بقيم أخرى.

❑ ❑ ❑

ومن هنا فإننا فى حاجة إلى قيام نظرية النقد الأدبى الإسلامى التى تتحدد حسبما أورد ذلك الدكتور حسن جاد:

أن يكون الأديب مسلماً بمبادئ الإسلام وقيمه ومثله فى كل شئ وملتزماً بالإسلام ضابطاً لحريته، وأن يكون الأدب الإسلامى فى خدمة الدعوة ولحمايتها والدفاع عنها وتحريرها من التبعية حيث تقوم المقاييس الإسلامية فى الحرب والسلام وشئون المجتمع وأن يقدم الأخلاقى على الجمالى.

وأن يقدم المفهوم الجامع للتقدم روحياً ومادياً مع التحرر من سموم النظرية الغربية للنقد.

أما قاعدة الصدق الفنى فى الإسلام فهى حسبما صورها أمير المؤمنين عمر بن الخطاب لزهير:

(لا يغالط فى كلام ولا يتبع حواشى الكلام ولا يمدح الرجل إلا بما فيه).

❑ ❑ ❑

والواقع أن مهمة الأدب الإنشائى (ولا أقول الإبداعى) هى تصوير النفس الإنسانية وتحليل الأحداث والتوجهات التى تمر بها حين تتصل بالعاطفة والوجدان ، وخاصة فى مجال العلاقات بين الرجل والمرأة.

فإذا لم يكن التصور الاجتماعى قائماً على مقررات واضحة قوامها: (الأصالة والفطرة) والاعتقاد الواضح اليقين بأن الزواج هو المنطق الوحيد الصحيح للعلاقة بين الرجل والمرأة، فإن هذا التصور تصيبه دخائل كثيرة خطيرة،فالمسلم يؤمن بأنه لا توجد علاقة غير شرعية بين أى رجل وأى امرأة، ويؤمن بأنه لا يجوز التعرف على زوجة الآخر، أو الدخول معها فى عاطفة محرمة، ومن هذا المنطلق ينكر المسلم (انطلاقاً من إيمانه بالله) كل ما يسمى صديق الأسرة أو تبادل الزوجات أو مغازلة زوجة الآخر، أو الرفقة أو البغاء أو مختلف الصور التى لا يقرها مفهوم الأخلاق الإسلامى، وعلى هذا فإن الكاتب المسلم يستطيع أن يصور النفس الإسلامية فى حالة سلامتها وعطبها تصويراً صحيحاً فيقرر سلامة الاتجاه الصحيح ويزدرى الاتجاه المنحرف وينفر منه.

وذلك أن الإسلام يدعو إلى إطفاء نيران الشهوات وذلك بتحريم الاختلاط كما يدعو إلى تبريد العواطف، ويعلى من شأن الوجدان فيدعو إلى التعفف عن إتيان الحرام أو السقوط فى دائرة الفسق والفجور.

ومن هنا نجد أن الكاتب المسلم حين يصور العاطفة والوجدان لا يسرف فى كشف الضعف البشرى ولا يتوسع فى وصف دقائق الأمور المنحرفة، ويعلم أن فى ذلك إغراء للقارئ، وهو عمل محرم لأنه يكون دعوة إلى الفساد والفجور، وهكذا يكون الكاتب المسلم مختلفاً تماماً فى تصوير النفس الإنسانية عن الكاتب الذى يستمد مفاهيمه من الآداب الغربية التى تتسم بظاهرة الإسراف فى الفاحشة والكشف والإباحية.

وقد نشأ فى بلادنا هذا الأدب الذى أطلق عليه (أدب الفراش) نتيجة النقل والترجمة، ونتيجة النفس الإنسانية المنحرفة التى تكتب هذا النوع وتذيعه، ثم جاءت موجة أشد خطورة عن بعض المنحرفين فى ترويج هذا الأدب ومحاولة تصوير المجتمع المسلم بأنه مجتمع منحرف وأن الفساد ظاهرة طبيعية فيه.

إنهم يقولون أن هؤلاء الكتاب يصورون النفس الإنسانية، فأى نفس هذه التى يصورونها: النفس السوية السليمة الغيور المحبة للخير المتحررة من الشر والتى تتسامى عن الإباحيات والحرام، أم النفس الإنسانية المنحرفة الغارقة فى مستنقع الفساد والسوء.

ذلك أن النفس الإنسانية كما وصفها القرآن الكريم قد أوتيت هداها وضلالها

﴿ ونفس وما سواها * فألهمها فجورها وتقواها ﴾.

وهى بين طريقين : طريق الفجور وطريق التقوى.

وهؤلاء كتاب القصة الذى آثروا التبعية، قد اتخذوا طريق الفجور، وأسرفوا فيه وحاولوا تصوير النفس الإنسانية المنحرفة وبالغوا فى ذلك كثيراً، ثم قدموا ذلك على أنه تصور صحيح للمجتمع كله، ولكن هذا لم يكن صحيحاً على إطلاقه..

الفصل السادس
الحضارة

قامت الحضارة الغربية المعاصرة على عنصرين أساسيين:

العنصر الأول: هو العلوم الإسلامية التى نقلها المسلمون إلى الأندلس بعد دخوله فى الإسلام وقيام الجامعات العلمية فى معظم عواصمه ومدنه.

وظهور عصر النهضة فى الغرب بعد ألف سنة تقريباً من الوثنية والرهبانية فى حركة زاحفة ترمى إلى تعلم علوم المسلمين ومسابقتهم فى مجال التجريب والصناعة، واقتحام آفاق الفلك والطب والجغرافيا والبحار فى محاولة للسيطرة والتفوق. وهى الحركة التى وصلت إلى غايتها بعد سقوط الأندلس واندفاع الغرب إلى محاصرة عالم الإسلام وإقامة الأحلاف مع التتار والوثنيين ومسيحيى الحبشة وغيرهم فى مؤامرة خطيرة لوضع الإسلام بين فكى الكماشة.

العنصر الثانى: هو إفراغ كل ما أخذه الغرب من علوم المسلمين وتجاربهم ومعطياتهم فى مجال العلم والحضارة ـ إفراغ ذلك كله فى إطار الفلسفة اليونانية والمعرفة الرومانية والمسيحية الغربية (المنقولة من المشرق بعد تحريفها) .

وحرصهم الحرص الشديد على إبعاد (العقيدة الإسلامية) عن هذه المنظومة الحضارية والثقافية الغربية وربطها بالحضارة الرومانية القديمة وإحيائها بعد انفصال دام أكثر من ألف عام .

والتنكر لكل قيم الإسلام وإقامة مؤامرة الصمت على كل ما أخذ الغرب من الإسلام من علوم وقيم فى مختلف مجالات العلوم الإنسانية والاجتماعية وحجب التراث العربى المنقول إلى جامعات الغرب عن المسلمين بعد ذلك، وإبراز جوانب معينة من التراث الزائف والدعوة إلى إذاعتها.

ومن هنا كان وجه الخلاف بين مفهوم الإسلام للحضارة وبين مفهوم الغرب، ومن هنا كان موقفنا من هذه الحضارة مستمداً من مفهوم الإسلام الذى يتعارض مع هذه الحضارة فى جوانب كثيرة منه، وخاصة فى مجال العلوم الإنسانية والاجتماعية وفى مفهوم (الأخلاق) كقيمة أساسية ثابته ثبوت العقيدة نفسها وكذلك فى مفهوم المال (الحلال والحرام) ومفهوم الأدب والفن (وتغليب الجمالى على القيمى، ومن ناحية مفهوم التقدم ـ وهو فى الغرب مفهوم مادى خالص بينما هو فى الإسلام مفهوم جامع بين المادة والروح).

❑❑❑

وأخطر ما يتعلق بالحضارة الغربية هى محاولتها فرض مفاهيمها على المسلمين وهم أصحاب حضارة لها قيمها ومفاهيمها الربانية التى تختلف تماماً عن مفاهيم الحضارة الغربية.

كذلك فإن الحضارة الغربية وضعت لنفسها هدف السيطرة على العالم وإخضاعه لسلطانها،كما وضعت لنفسها إعلاء العقلية المتسلطة دائماً لخدمة المجموع الإنسانى العام.

فضلاً عن هدفها الخطير فى فرض ظاهرة الاستهلاك على المجتمع العالمى وهو ركض مسعور لتطوير البضائع الاستهلاكية باتجاهات تحكمها عمليات المنافسة والربح وتحقيق أعلى درجات السيطرة على الآخرين، واستنزاف جهودهم وثرواتهم.

وقد جاء التطور العلمى والتقنى فى الحضارة المعاصرة متجهاً نحو التضاد مع الطبيعة والبيئة والحاجات الفطرية للإنسان، هذه الدوافع التى امتلأت بها صدور الأوروبيين مع أوائل القرن السادس عشر تكشف عن شره شديد للسيطرة على العالم ونهبه حتى الحدود القصوى بقصد التمتع بأكبر قدر ممكن من الرفاه المادى واستخدام كل الأساليب البراقة للسلع الاستهلاكية والعمل على تقديم مايثير الغرائز من إشاعة الجنس والمخدرات.

ولم يتوقف الأمر عند هذا الحد بل لقد توخت الحضارة الأوروبية المسيطرة على المدرسة والمحكمة والمصرف وأجهزة الإعلام مناهج الغرب بكل ما تستند إليه من فلسفات وما تحمله من مبادئ ومعايير ومقولات، الأمر الذى أبعد أعداداً متزايدة من المثقفين فى بلادنا عن سياقهم التاريخى وزرع فى عقولهم جرثومة (التغريب) وعدداً لا يحصى من المقولات المشوهة حول الإسلام والتراث والتاريخ والنمط المجتمعى الإسلامى.

❑❑❑

لقد قامت الحضارة الغربية أساساً على مجموعة من الأصول المدمرة:

الأصل الأول : إنكار الصلة بالله تبارك وتعالى (البعد الإلهى).

الأصل الثانى: فصل العلم عن الدين (الانشطارية) والثقة بقدرة العلم على حل كل مشاكل الإنسان.

الأصل الثالث: العنصرية القومية المتعصبة وإعلاء العرق والادعاء بأن الجنس الأبيض هو سيد الخليقة والذى لا يهزم، وهى دعوى باطلة) ومعارضة لمفهوم الإخاء الإنسانى.

الأصل الرابع: أن الحاكم هو صاحب السيادة ومصدر السلطة وليس القانون الإلهى.

الأصل الخامس: قبول الانحلال الاجتماعى تحت اسم الحرية.(وهذا معارض لمفهوم الالتزام الأخلاقى).

الأصل السادس: لا أخلاقية العلم ولا أخلاقية الحضارة.

(وهذا معارض لارتباط العلم بالأخلاق)

الأصل السابع: سيادة «المادية» وهذا معارض لمفهوم التكامل الإسلامى الجامع بين الروح والمادة.

الأصل الثامن: التطور المطلق والنسبية.

(وهذا معارض لمفهوم الإسلام الجامع بين الثوابت والمتغيرات).

الأصل التاسع: الإنسان حيوان ناطق.

(وهذا معارض لمفهوم الإنسان الذى كرمه الله تبارك وتعالى على الحيوان).

الأصل العاشر: جماعية المسئولية.

(وهذا معارض للمسئولية الفردية للإنسان).

وتأتى كل معضلات الحضارة الغربية وأزماتها نتيجة هذا التصور، ومن هنا نشأت ظاهرة (أزمة الحضارة الغربية): التى لم تعد تملك إمكانية حل أزمتها الخانقة، وذلك يعود إلى عقم التربة التى تقف فوقها وفساد الهواء الذى يكتنفها وهى تقفز كالمحبوس من النقيض إلى النقيض، إلى أن وجدت أغرب حل حين اقترح الفيلسوف ألدوس هيكسلى: تعميم المخدر وجعله فى متناول الجميع كالمشروبات الروحية والتبغ وذلك لأنه يغير نهج الإنسان الغربى لتطوير اللذات العارضة.

وفى عديد من المحاولات كان الفشل محققاً:

ـ فشل العلمانية وفشل الخروج على الدين.

ـ فشل الديمقراطية وفشل الدكتاتورية

ـ فشل الرأسمالية وفشل الماركسية

ـ فشل الليبرالية وفشل إلغاء الجماعية:

ـ فشل الحريات وفشل إلغاء الحريات.

ويرجع ذلك إلى الإيمان بالذات وتأليهها وتقديسها وغياب الأساس الثابت.

لقد عجزت الحضارة الغربية عن إعطاء الإنسان ما يطلبه..

عجزت عن الاستجابة لأشواق الإنسان..

❑❑❑

يقول الفيلسوف بيبريم سوركن: إن كل جانب من حياة المجتمع الغربى ونظامه وثقافته، إنما هو فى أزمة طاحنة، إن جسد المجتمع الأوروبى مريض وعقله مريض، ولا تكاد توجد نقطة صغيرة واحدة على جسده إلا ويعتورها الألم، وقد اضطرب جهازه العصبى بجميع أليافه العصبية فلم يعد قادراً على أداء عمله على النحو السديد، فالمجتمع الغربى فى أزمة شاملة والمرض يتفشى فى جسده وعقله، وفى حضارته وثقافته، وفى سلوكه وفى فكره، إن ثقافته الحسية تحتضر وتموت، والأمل يراود فى بزوغ فجر ثقافة مثالية جديدة حيث تعيش أوروبا اليوم فى عتمة وتضطرب خطواتها ويحل عليها ليل بظلامه وكوابيسه المزعجة.

فثمة خطأ جسيم فى بناء الثقافة الأوروبية ألا وهو نظرتها إلى الإنسان وحياته والأحداث الواقعة فى الحياة الأوروبية والأمريكية تبرهن على وجود هذا الخطأ المميت. فقوة العلم تستخدم لإبادة البشر(٦٠ مليون قتيل فى الحرب العالمية الثانية) وتدمير المدن. والتقدم العقلى والعلمى والصناعى لم يقرب الأوروبيين من مثلهم الأعلى وهو السعادة.

صفوة القول إن (قوة العلم) قد سخرت لإبادة الإنسان نفسه، ومعرفته المتنامية أبعدته عن السيادة وعن فهم صدق نفسه وحياته وهذا هو التناقض بعينه ».

❑ ❑ ❑

ويقول (والتر شوبارت) : إن الروح الغربية يتفشى فيها الخوف والقلق وهى شديدة الأثرة، نزاعة إلى الفردية محبة للتنافس، ذلك أن الغرب قد جعل الإنسانية ذات تراث واسع بتفوقه فى الصناعة، ولكنه جرد الإنسان من الروح وسيتفقد الغرب زعامته ويصبح لا يمثل الطراز الإنسانى الغالب، وكثير من ذوى العقول الراجحة يتوقون إلى أن يروا نهاية الثقافة الغربية البالية وهم يشعرون بفقرها وإفلاسها ويتطلعون إلى ثقافة تخلفها.

إن الفرد من خلال هذا النموذج الثقافى لا يعبأ بخلاص روحه، وإنما يهمة فرض سلطانه وتوسيع دائرة نفوذه، وقد نجح الفرد فى تغيير وجه الأرض ولكن هذه الثقافة أخذت تملأ سماءها السحب وتومض حولها البروق وتعصف بها الأعاصير، وأوروبا تنزلق إلى الهاوية وتقترب من النهاية ولا شئ يستطيع دفع هذا المصير المحتوم.

معارضة الفطرة والسبح ضد التيار

تندفع الحضارة الغربية خلال القرون الأربعة الأخيرة فى اتجاه الانهيار فهى أولاً: حضارة الكلاب والطفولة البائسة.

وقد جاء فى التقرير السنوى لمنظمة الأمم المتحدة للطفولة (اليونسيف) ديسمبر ١٩٨٦ أنه يموت أكثر من ٤٠ ألف طفل فى العالم الثالث كل يوم نتيجة لأمراض وسوء التغذية، وأن عدد الأطفال الذين ماتوا فى باكستان والهند أكبر من عدد الأطفال الذين قتلوا فى ٤٦ دولة أفريقية مجتمعة، وأن حالة تغذية الأطفال فى العالم الثالث متدهورة للغاية، وأن معدل موت الأطفال فى ارتفاع.

فإذا قارنا هذا بما يتمتع به الكلاب فى بعض المجتمعات الغربية لرأينا عجباً، لرأينا دولاً غنية تنفق مئات الملايين من الدولارات والجنيهات الإسترلينية على الكلاب، وفى إحصاء أخير أن الكلاب والقطط الأمريكية استهلكت مواد بلغت ٣,٢ مليار دولار، وأن أوروبا انفقت ١٨١ مليون دينار على رعاية الكلاب فى بيوت الأغنياء (بمعدل ٢٠٣ ملايين دولار لنصف مليون كلب).

❑❑❑

فإذا حاولنا إلقاء نظرة على مجتمع الحضارة الغربية وجدنا الإحصائيات الآتية:

تزايد ظاهرة الانتحار فى الغرب، وهذه الظاهرة فى تزايد مستمر منذ عام ١٩٧٥ والانتحار منتشر بين الشباب والشيوخ وتأتى فرنسا بهذا الرقم فى منتصف قائمة الدول الأوروبية تليها المانيا الغربية وبريطانيا أما أكثر الدول التى تعانى من هذه الظاهرة فهى الدنمرك والنمسا وسويسرا فضلاً عن أن ٨ مليون فرنسى يعانون من الفقر.

❑❑❑

ومن ناحية أخرى نرى الحضارة الغربية تفرض على المجتمعات سحابة من الأمراض حيث يصاب ٣ ملايين بالأمراض الزهرية التى أخذت خطاً متصاعداً وارتفع معدل الإصابة الزهرية إلى أكثر من ٢٠٠ فى المائة عند الرجال وخمسمائةعند النساء وأن الأمراض الزهرية تنتشر بين أوساط الشباب الذين تتراوح أعمارهم بين ١٨ و ٢٤ سنة.

ومما يبعث على القلق أن نسبة الفتيات اللواتى لم يصلن إلى سن العشرين قد تضاعفت اصابتهن ثلاث مرات، ويقول الدكتور فولد أن سبب انتشار الأمراض الزهرية يكمن فى التدهور الأخلاقى والانحلال الذى تشاهده المجتمعات الغربية.

❑❑❑

أن الهدف الأساسى للحضارة الغربية فرض (مجتمع الاستهلاك) على العالم وخاصة أفريقيا وآسيا وأمريكا اللاتينية، ولما كان الاستهلاك هو الطابع العام للفرد والعائلة فى أوروبا وأمريكا فإن العالم الثالث يسير فى نفس الخطأ حيث يحاصر المواطن المستهلك بالإعلان الصحفى أينما وجد.

ومن هنا فإن غزو النمط الاستهلاكى لمجتمعنا الإسلامى العربى يسير بخطا مسرعة فى محاولة لاحتوائنا وتدمير ذاتيتنا الخاصة، ومن هنا كانت محاولة الحضارة الغربية فى تصدير نماذجها المدمرة لعالم الإسلام فى محاولة لاستدامة النفوذ والتبعية ومواصلة عملية نهبه وتجريده من ثرواته، وحجزه عن امتلاك الإرادة لإقامة حضارته الأصلية واستئناف مسيرته الحرة.

فهى لا تكتفى بأن تصدر لنا بضائعها المادية بل تعمل على تصدير ثقافتها (ممثلة فى الفنون الهابطة والقصص الجنسية والموسيقى المترنحة والأغانى المدمرة).

بينما تحجب العلوم والابتكارات والمخترعات عن المسلمين العرب.

تلك قاعدة أساسية للحضارة الغربية الاستعمارية، أن تصدر أفلاماً إلى الشرق قوامها الجنس والعنف وأشكال التحلل، التى ترتبط ارتباطاً وثيقاً بتعاطى المخدرات والانغماس فيها هروباً من فقدان الأهداف وانسلاخاً من طاحونة المجتمع الطبقى الذى لا يرحم.

وهكذا يراد للعالم الإسلامى أن يتغذى على نفايات الثقافة الرأسمالية حيث تتساقط فضلاتها لتجتاح البلدان التابعة والموالية، وليس معنى هذا أن الثقافة الماركسية أحسن حالاً، بل هى أيضاً تحمل جراثيم خطيرة مدمرة يبرأ المجتمع الإسلامى منها جميعاً.

❑❑❑

ويستهدف هذا كله إحداث تصور يبسط فيه الجنس الأبيض سيطرته ونفوذه على كل ما سواه.

بدأت هذه المرحلة حينما تحرك الأوروبيون خارج قارتهم واكتشفوا العالم الجديد وأعلنوا ما يسمى (الكشوف الجغرافية) التى هى فى حقيقتها السيطرة الاستعمارية على طريق التجارة إلى الهند والالتفاف حول العالم الإسلامى والسيطرة على البحر الأبيض المتوسط وواصلوا طريقهم لاستعمار آسيا وأفريقيا حيث قاموا بتوسيع نطاق تجارة العبيد السود، وبالرغم مما كتبه جيبون (عن اضمحلال وسقوط الحضارة الرومانية) فإن الحضارة الغربية اليوم تسير على نفس الطريق وترتكب نفس الأخطاء.

قال جيبون فى كتابه (تاريخ وسقوط الإمبراطورية الرومانسية) الذى صدر ١٧٨٨ «إن الثروة والترف كانتا أول مزالق الإمبراطورية للانهيار، وكانت أول وأخطر علامات هذا المنزلق أن الرومان كفوا عن العمل بأنفسهم واكتفوا بالاستمتاع بإنفاق الضرائب الباهظة التى كانوا يجمعونها من الإمبراطورية.

وأن هذه الضرائب كانت تجمع من المزارعين ومن التجار، وكانت تلك كارثة على الزراعة والتجارة فى أمبراطورية واسعة وأن الرومان أخيراً بسبب الترف كفوا عن ممارسة الجندية التى كانت أشهر ما تميزوا به فى بدايتهم واستأجروا قبائل البرابرة الشماليين للدفاع عن الإمبراطورية، فلما رأى البرابرة الثروات الهائلة التى كانوا مكلفين بحمايتها والدفاع عنها تضاءلت فى عيونهم قيمة أجورهم وقرروا الاستيلاء على ماكانوا مكلفين بالدفاع عنه».

❑ ❑ ❑

وكان أخطر ما حاولته الحضارة المعاصرة الاستعلاء بالعنصر وكتابة تاريخ العالم بادئاً باسمهم، وجعلوا الأمم والحضارات تابعة لهم ولم يعترفوا بفضل الإسلام وعلومه وحضارته.

إنهم فى الغرب تعودوا أن يكتبوا التاريخ وحدهم وأن يقرأ الآخرون، بعد الآن سوف يكتب الآخرون التاريخ من وجهة نظرهم وسوف يوضع عفن الماضى كله ذات يوم فى سلالهم بدلاً من الزهور.

(التاريخ يكتبه الأقوياء ويكتبه المنتصرون وستظل الحضارة الغربية تغطى جرائمها) .

والواقع أننا نحن المسلمين والعرب شركاء أصليون فى بناء الحضارة الغربية ـ لا من خلال التراث فحسب، ولكن من خلال جهودنا نحن أيضاً وأن نقول هذا لأولادنا، ولكن تاريخها معنا هو تاريخ العلاقات الوحشية التى اقامتها مع الشعوب المستضعفة التى أقامت بها المعجزة الغربية الحاضرة.

لقد قامت الحضارة الغربية على أساس العلوم الإسلامية ولكنها تبجحت وأعلنت أنها لا تدين لها بشئ ثم قامت على دماء وأقوات الشعوب الأخرى وعلى هذه الشعوب التى نهبت ثرواتها ومقدراتها.

❑❑❑

«إن أبرز معالم الحضارة الغربية المعاصرة أنها تعلن الثورة على القيم الخلقية والدينية ثم على القيم الجمالية، وتحاول إعلاء التنافر على الاتساق، والفوضى على النظام، تحطم المألوف وتصدم العين بالجديد حتى ولو كان قبيحاً».

واليهودى بيكاسو : كان هو البادئ بهذه الثورة، وتجمعت خلفه قبيلة من المريدين والأتباع من كافة مدارس الرسم فى كل بلد ففتح باب الشهوات والإباحيات وتحكم الهوى فى الناس.

«ومن قبل أعلن (كارل ماركس) الصراع على التوافق والتناقض على المصالح والحرب الطبقية على التفاهم والحقد على التواد والتكافل الاجتماعى ألم يبارك تروتسكى الحقد باعتباره الرافعة المقدسة التى سوف تقلب التاريخ.

«لقد أعلنت الحضارة مبدأ المصلحة وأعلنت من القوة وتحكم الهوى فى الناس مما أدى إلى تفكيك العلاقات الاجتماعية.

وحينما تتفتت القيم ولا تعود قادرة على تجميع الناس ينفرط عقدهم بتفكك الأسرة وتنهار أسس كل أنواع العقود الاجتماعية التى تقوم عليها عمارة المجتمع والحضارة»

مصطفى محمود

❑❑❑

أما التقدم المادى الذى يروج له فلاسفة الغرب فهو تقدم ناقص، ليس التقدم فى العلوم المادية فحسب هو المطلوب ولكن فى جميع المجالات الاجتماعية والانسانية، إن العلوم المادية وما ينبنى عليها من تقنيات لاتستطيع وحدها أن تحقق التقدم.

فالتقدم الحقيقى تقدم شامل متوازن فلابد للعلوم المادية والتقنية أن تتحرك فى دائرة من الإيمان تحميها من التدمير والشر من ناحية ومن أن تكون لعنصر واحد من عناصر البشرية دون البشرية جميعاً.

❑ ❑ ❑

إن الإسلام يحرم استخدام معطيات العلوم والتقنية للإفساد فى الأرض واستنزاف ثرواتها وتلويث بيئاتها.

ويتطلب الاستعمال العلمى (التزاماً اخلاقيا) يكون بمثابة الضابط تحول دون استخدام معطيات العلوم والتقنية فى أعمال الهدم التى يعانى منها عالمنا المعاصر.

زغلول النجار

❑ ❑ ❑

ومهما كانت الحضارة الغربية المعاصرة تسبح ضد التيار فقد تحقق أخطر تحد لها وهو سقوط النسل فى الغرب وتثبت الأبحاث والاحصاءات أن الولايات المتحدة الأمريكية لم تزد فى العقد الأخير (عشر سنوات) سوى عشرة ملايين نسمة فقط فى أمة تجاوز عدد سكانها المائتى مليون مواطن وهى نسبة غير مشجعة.

وكان مخطط أمريكا يحدد عام ١٩٧٥ للوصول إلى ٢٤٠ مليون نسمة فإذا به يفشل فشلا ذريعاً فى الوصول إلى هذا الرقم بعد عقد من الزمان.

أما فى روسيا فقد أجريت أكثر من خمسة ملايين جراحة اجهاض سنوياً، هذه الحالات تجرى بطريقة غير مشروعة.

وتفوق حالات الاجهاض الإجبارى فى روسيا عدد المواليد الذى لم يتجاوز ١٤ ألف مولود يومياً حتى بلغ عددهم عام ١٩٨٥. ٥,٣ مليون طفل فقط من شعب مجموع سكانه ٢٨٠ مليون نسمة.

وهذا يعنى أن الشعب السوفييتى على طريق الانقراض حيث نسبة الإجهاض إلى نسبة المواليد ٢ إلى واحد، كما انعكس هذا التحفظ فى التعداد الذى أجرته الولايات المتحدة للمهاجرين من القادرين مالياً إذ أصبح من يملك ٤٠ ألف دولار له حق الهجرة فوراً وقد جرى تبنى الأمريكيين لأطفال فيتنام وشراء أطفال مخطوفين من أمريكا اللاتينية وتأجير الأرحام فى واحدة من أخبث العلاقات الإنسانية، وفى أوروبا صرح هيلموت كول مستشار المانيا الغربية، أنه يخشى اليوم الذى ستصبح فيه ألمانيا بغير ألمان ،وقال آخر إن ألماينا تواجه أخطر أزمة فى تاريخها تتمثل فى تناقص عدد المواليد بنسبة ٦ ٪ سنوياً وهى ظاهرة مدمرة إذا استمرت لعدة سنوات قادمة. كما أن دول السوق الأوروبية المشتركة تواجه أكبر من أى وقت مضى مشكلة نقص المواليد، وأن المؤشر بدأ فى التناقص عن المعدل الطبيعى.

وفى آخر تقرير عن الحضارة الغربية وما حدث للانسان فى الغرب يقول الدكتور مارتن باولى (فى كتابه انسان المستقبل) :

«انهارت سلطة الأسرة ودمرت الوفرة كل الأفكار العظيمة وقضت على نظام الزواج. ويقول: سيتحول الغربى إلى شخص يتمرغ فى المتعة مجرداً من كل رغبة فى العمل، وقد بدأ الانهيار فعلاً فى المجتمع الصناعى بانهيار بنيان الأسرة وسلطة الأب بعد ضعف وانقطاع الصلة بين الأصول والفروع، وبدأت الزوجة تتمرد على الالتزامات التى توثقها الأسرة، وتزايد معدل الطلاق. أما العلاقة بين الآباء والأبناء، فأصبحت تعصف بها الشكوك، وزادت جرائم القتل زيادة كبيرة فضلاً عن ظاهرة الانسحاب من المجتمع وهو انسحاب جماعى من الحياة العامة وتخلٍ عن المسئولية، بل إنه انسحاب لا يقف دونه مجرد اللامبالاة.

وقد أشار الأستاذ اسماعيل الكيلانى فى بحث مستفيض إلى المخطط اليهودى فى محاولة بعث الحس التاريخى والعقائدى وتعميق تعاليم التوراة وتقوية اللغة العبرية.

كما أشار إلى اتجاه اليهود إلى توظيف الأحقاد التاريخية الكامنة فى لاشعور الغربيين على الإسلام والمسلمين واستخدامهم من خلاله فى خدمة أغراض اليهودية وتحقيق مخططاتها.

وقد أشار ليوبولد ڤايس فى كتابه «الإسلام على مفترق الطرق» إلى مايسمى بالاحتقار التقليدى فى الغرب بالنسبة للإسلام والذى أخذ يتسلل فى شكل تخريب غير معقول إلى بحوثهم العلمية حتى:

«أصبح احتقار الإسلام جزءا أساسيا من التفكير الأوروبى» فضلا عن أن المستشرقين الأوائل كانوا نصارى يعملون فى البلاد الإسلامية وكانت الصورة المشوهة التى اصطنعوها من تعاليم الإسلام وتاريخه مدبرة على أساس يضمن التأثير فى موقف الأوروبيين من المسلمين».

والواقع أن محاولة إعطاء التوراة دوراً مرجعيا فى البحوث التاريخية السابقة للإسلام قد تحطم كثيرا فى السنوات الأخيرة وتراجع تراجعا واضحا بعد أن ثبت فساد التفسيرات اليهودية، فضلا عن كشف الباحثين عن زيف مصادر التوراة، وكان أخطر من ذلك كله ماكشفت عنه الحفريات، وآخرها «أوراق دير قمران» من عدم صحة ما أوردته الكتب المقدسة.

وكان القرآن الكريم منذ أربعة عشر قرناً قد كشف ذلك فى وضوح تام فى عدد من آياته الكريمة.

﴿ فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون هو من عند الله ﴾.

وقد شملت أبحاث علماء اللاهوت مجموعة ضخمة من هذه الأخطاء، وكانت مراجعات الدكتور موريس بوكاى بعيدة الأثر فى تأكيد:

«فساد النص التوراتى وصحة النص الإسلامى».

كما كشف الداعية المسلم: أحمد ديدات فى مراجعاته الدقيقة والصحيحة ذلك التعارض الواضح بين أسفار التوراة: العبرانية والسامرائية من حيث عدد الأسفار والنصوص وما يوجد من طبعتين مختلفتين إحداهما فى الكنائس البروتستانتية والأخرى الكاثوليكية والأرثوذكسية، وجاء القرآن شهادة على علماء الغرب أنفسهم بما توصلوا إليه استمداداً من سلامته الخالصة التى لم تصب بأى شبهة حول نصوصه، وهو ماشهد به نولدكه حيث قال إن النص القرآنى يحمل أحسن صورة من الكمال والمطابقة.

ولقد كانت كتابات أقطاب الفكر اليهودى عن الإسلام من أمثال «رودنسون» مليئة بالأخطاء والأحقاد فى نفس الوقت بالرغم من محاولة أن يتبدى به من طابع التحقيق العلمى.

وفى العصر الحديث ومن خلال الكتابات العربية استدل فى مؤامرة تدمير التاريخ الإسلامى: القوميون والماركسيون والشعوبيون، حيث تجددت الكتابة عن الحركات الباطنية كالقرامطة والاسماعيلية ووصفها بأنها حركات تحرر ورفع مظالم.

وقد جاء ذلك على إثر قرارات مؤتمر بلتيمور الذى عقد تحت اشراف الصهيونية عام ١٩٤٢.

وكان أخطر ماحاولت اليهودية العمل على تأكيده بالباطل:

الفصل بين الإسلام وحنيفية إبراهيم عليه السلام «على النحو الذى سجله طه حسين أساسا» وذلك لقطع المسلمين عن ماضيهم وتبرير مقولاتهم التى سفهها القرآن الكريم حيث زعموا أنهم شعب الله المختار وكذلك الحيلولة دون قيام وحدة فكر بين المسلمين «مقولة طه حسين فى أن العرب استغلوا فكرة الوحدة بين أبناء إسماعيل وإسحق.. إلخ..

❑❑❑

عطاء الإسلام للحضارة = إضافة حقيقية

ظل الغرب على مدى أكثر من قرن من الزمان يتجاهل أثر الإسلام فى بناء العلوم والحضارة المعاصرة فى إصرار شديد، يحمل صورة (مؤامرة الصمت)، فإذا أريد الإنصاف قالوا إن العرب حفظوا علوم اليونان ثم ردوها إلى أوروبا ولكن لم تكن لهم إضافة جديدة وكان هذا تجاهلاً لأكبر عطاء حقيقى للإنسانية كلها، وهو إقامة المسلمين للمنهج التجريبى.

ولكن عدداً من الباحثين الغربيين المنصفين اعترفوا بفضل المسلمين والعرب وكشفوا عن حقيقة الدور الذى قاموا به، وكان فى مقدمة ذلك بريفولت الذى يقول: «تقوم مناهج البحث حول واضعى المنهج إلى تصور فاسد محرف لمصادر الحضارة الأوروبية، أما مصدر الحضارة الأوروبية الحق فهو منهج العرب التجريبى، وقد انتشر فى عصر بيكون وتعلمه الناس فى أوروبا تحدوهم إلى ذلك رغبة ملحة.

❑ ❑ ❑

وليست هناك وجهة من وجهات العلم الأوروبى لم يكن للثقافة الإسلامية تأثير أساسى عليها. ولكن أهم أثر للثقافة الإسلامية : فى العلم الأوروبى هو: تأثيره فى العلم الطبيعى والروح العلمى، وهما القوتان المتميزتان للعلم الحديث والمصدران الساميان لازدهاره؛ إن مايدين علمنا لعلم العرب ليس هو ما قدموه لنا من اكتشافهم لنظريات مبتكرة غير ساكنة، إن العلم يدين للثقافة العربية بأكثر من هذا، إنه مدين لها بوجوده كله إن علم النجوم ورياضيات اليونان كانت عناصر أجنبية لم تجد لها مكاناً ملائماً من الثقافة وقد أبدع اليونان وعمموا الأحكام ولكن طرق البحث وجمع المعرفة الوضعية وتركيزها ومناهج العلم الدقيقة والملاحظة المفصلة والبحث التجريبى كانت كلها غريبة عن المزاج اليونانى، إن ما ندعوه بالعلم ظهر فى أوروبا كنتيجة لروح جديد فى البحث وطريقة جديدة فى الاستقصاء: طريقة التجربة والملاحظة والقياس. ولتطور الرياضيات صورة لم يعرفها اليونان، وهذه الروح وتلك المناهج أدخلها العرب إلى العالم الأوروبى».

وقد أشار كثير من الباحثين إلى فضل العرب والمسلمين على الحضارة الأوروبية وكيف دخل مصطلح الجبر إلى اللغة اللاتينية ثم إلى اللغات الأوروبية نتيجة إبداع العرب فى علوم الحساب والرياضيات، وخاصة الفلك والحيل والبصريات والكيمياء والطب، وقال (خوان فيزنيت ختياس) الباحث الأسبانى، إن روجر بيكون قد انتفع من الاختراعات التى قام بها العرب فى هذا المضمار، وذلك عن طريق اطلاعه على الملفات التى تجمت من اللغة العربية فى علم (البصريات)، وأعانت المصادر العربية بيكون فى التوصل إلى صنع العدسات المكبرة وذلك عن طريق لصق طرفى زجاجتين وملء الفراغ المتكون فى داخلها.

وساعد اختراع العدسات على تطور العلوم الأخرى مثل دراسة الحشرات الصغيرة والتعرف على الخلايا النباتية والحيوانية ومكونات التربة وأنواعها.

وفى القرن ١٣ الميلادى توسعت حركة الترجمة من العربية، فشملت مختلف العلوم التى نبغ فيها العرب وخاصة علوم البحار والملاحة والفلك والحيوان والنبات والطب، كما ترجمت الكتب العربية الخاصة بالصناعات الحرفية: الأسلحة والسفن والطواحين الهوائية ونوافير الماء التى تستعمل فى الرى، وكذلك كتب الملاحة التى وضعها عدد من الرحالة والتجار العرب والخاصة بمواسم الإبحار، أوتحديد الاتجاهات والاستفادة من الرياح فى سير السفن.

التحامل على المسلمين:

ولقد أسهمت الدكتورة سجريد هونكه فى هذا المضمار وأنصفت العرب والمسلمين فى عدد من كتبها أهمه «شمس الله تشرق على الغرب» وفى كتابها الذى أصدرته فى العام الأخير ١٩٩٠ .(الله برئ مما يصنعون)

❑ ❑ ❑

لقدكشفت ألف تحامل وتحامل ضد العرب فى الغرب حين كشفت قائمة طويلة من التحاملات والتحريفات التاريخية، كما كشفت عن (الصدمة النفسية للغرب من الإسلام) التى مازالت فى الغرب ومازالت تعتبر منبع هذه التحاملات، والكتاب مساهمة ملتزمة وضرورية لتصحيح الفكر الأوروبى.

تقول الدكتورة سجريد هونكه:

«على الرغم من التوضيحات حول العرب وثقافتهم العالية وتراثهم المنوع الذى أوصلوه لنا وعلى الرغم من مدح أخلاقهم الحميدة وفروسيتهم وتسامحهم الذى أظهرته فى كتبى فإننى متأكدة من وجود تحاملات كثيرة ضد العرب لها جذور عميقة لدى الأوروبيين منذ مئات السنين، بل وإن هذه التحاملات تسيطر عى العلماء والمؤرخين وتنفث السموم فى الصحافة والإعلام وتزيف تاريخ وصورة العربى فى الكتب المدرسية «كما تأكدت من وجود دعاية مركزة شفوية وتحريرية توضح أن آلية الدفاع التى تظهر فى هذه الدعاية موجهة ضد المهاجرين الأتراك الذين يعيشون فى ألمانيا بسبب المعرفة القليلة بالعالم الإسلامى، ضد الإسلام كدين ونبى الإسلام العربى».

«وإن التحاملات القديمة ضد العرب تبرز فجأة مثل ما يقال عن انتشار الإسلام بالنار والسيف وعن تطرف إسلامى يعتبر خطراً على أوروبا وبالتالى يجب مقاومة الإسلام، هذه الحملة الجديدة التى كانت اندلاعاً مفاجئاً لخوف كان منذ مئات السنين، وكان الواجب بحثه تماماً مثل بحث عدم المراعاة المذهلة للأحداث من مؤرخين معتبرين مثل: توينبى وكوشنلر.

ومازال المرء بصدد بعض الأحداث التاريخية: مثل فتح القائد العربى عمرو للإسكندرية ومعركة طولون وبواتيه (كارل مارتل) والحروب الصليبية ـ أن يجد أساطير مرعبة عن العرب ينقلها مؤرخ عن آخر تبث فى الكتب المدرسية والصحف والتليفزيون، باختصار هذه وقائع جرى تزييفها بحيث أصبحت تخالف ما يشتهر به العرب من شهامة وتسامح.

إنه يجرى دراسة هذه التحاملات المزيفة الممتدة والقائمة منذ قرون طويلة على أنها صدمة نفسية وسقطة عميقة لوعى المسيحية الغربية طالما كانت مشتركة بنشاط فى الحروب الصليبية بعد دعوة البابوية لقتال استمر قروناً ضد العالم العربى الإسلامى جرى خلالها وصف المسيحيين بأنهم المقاتلون الربانيون ضد العروبة والكفار، وأعداء الله وبعد الهزيمة الساحقة للمسيحية، وبالتالى إله المسيحيين أمام محمد أصابت المسيحيين هزة تأثرت بها عقيدتهم بإلاههم وثقتهم بالبابا والكنيسة واحترامهم لأنفسهم، وهذه

الهزة سدت الطريق ومنعت لقرون عديدة أى اشتغال بأمور العرب وأى مراجعة أو نظرة إيجابية لتصحيح الصدمة النفسية فى الغرب المسيحى، وتقول الدكتورة سجريد هونكة:

لاحظت فى العشرين سنة الأخيرة تنامى التحاملات ضد الأوروبين لدى الشعوب العربية وخاصة العرب والولايات المتحدة والاتحاد السوفيتى.

والسبب هو الرغبة المتدنية فى الدفاع عن النفس ضد نفوذ الغرباء والتخلص من ذل الاستعمار عن طريق الرجوع إلى الهوية واحترام الذات، وبالتالى عدم السماح لما هو غريب وغير ضرورى وبدون قيمة أن ينشأ، وعدم الانغلاق ضد أى نسمة هواء أو تطور» ا . هـ

❑❑❑

ومن ناحية أخرى ظهر كتاب غربيون يتطلعون إلى الإسلام كمنقذ من الأزمة الخطيرة التى تمر بها البشرية اليوم، وفى مقدمتهم ليوبولد فابس (محمد أسد) وغيره وفى الأخير : الفيلسوف جارودى الذى أعلن إسلامه منذ سنوات والذى يقول:

المستقبل للإسلام أمام إفلاس الحضارات الأخرى، وإن حضارة الانتحار الغربية تقود العالم إلى الهاوية.

إن ما جذبنى الى رسالة النبى محمد ﷺ أنه كان على عكس التعاليم المسيحية التى كانت تفصل ما لقيصر لقيصر ومالله لله، أى تفصل بين الدين والدنيا أما الرسول فكان ينتهج نهجاً آخر إذ يعلمنا الإسلام ما يجب أن نفعله وما يفعله قيصر، وهذا سر تفوق الإسلام.

أن مفهوم الغرب للعلم مقتصر على وضع القوانين للظواهر ومن ثم لا يسأل عن معناها وعن علاقتها بالخالق، وهى حضارة تعانى من أزمة المعنى وتحتضر ليس بسبب غياب الوسائل ولكن بسبب غياب الغايات حتى أنها أصبحت كإنسان له جسم عملاق ورأس طائر .

البعد الإسلامى هو اعطاء معنى للحياة وقد أتى الإسلام بمفهوم الأمة المتسامية وسيكون للإسلام مستقبل باهر كما كان فى ماضيه أيام انهيار وإفلاس الغرب الرأسمالى واشتراكية الاتحاد السوفييتى الشمولية.

إن مفهوم الغرب للعلم يقوم على وضع القوانين للظواهر، ولكن لا يسأل عن معناها ولا عن علاقتها بالخالق.

ان الغرب يسأل دائماً (كيف) وهو لا يسأل (لماذا)، يسأل كيف يصنع القنبلة الذرية وكيف يصل إلى القمر.

إن الحضارة الغربية تعانى من أزمة (المعنى) وتحتضر ليس بسبب غياب الوسائل ولكن بسبب غياب الغايات .

إن الإسلام انقذ العالم من الانحطاط العام والفوضى وان القرآن الكريم أعاد إلى ملايين البشر بعدهم الإنسانى وروحاً جماعية جديدة.

❑❑❑

ويتحدث جارودى عن أسباب هزيمة الحضارة الغربية:

ـ الاقتصاد يسيطر عليه النمو المتمثل فى الرغبة الجنونية فى زيادة وسرعة الإنتاج.

ـ السياسة تحكمها علاقات اجتماعية داخلية وخارجية يسودها العنف عند صدام المصالح والنزوع إلى السيطرة بين الأفراد والأمم.

ـ العقيدة خاوية من التعالى على المادة التى تمثل البعد الإنسانى للإنسان.

حقيقتان كشفت عنهما الصحوة:

أولاً: أن الحضارة الغربية اليوم على طريق الانهيار وأنها ينقصها البعد الآلهى والبعد الأخلاقى.

ثانياً: أن الحضارة الغربية مدينة لما قدمته الحضارة الإسلامية من دور بناء فى إنشاء القاعدة العلمية التجريبية.

ثالثاً: أن يظل المسلمون فى محاصرة وتبعية على النحو الذى قام به الغزو الفكرى.

وقد كشف الحقد الغربى عن أمرين:

(الأول): إنكار دور المسلمين.

(الثانى): حرمانهم من العلوم المتقدمة ليظلوا فى مرحلة الضعف والتخلف والتبعية.

وقد ظهر بما لايدع مجالاً للشك أن هناك تواطؤا متعمدا على محو دور الحضارة الإسلامية وإزالة كل ما يذكر بها بحيث لا يكاد يتحرر كاتب من ربقة التبعية ويجهر بالفضل لذويه حتى نجد كتائب من الأقلام التابعة من الحقدة الذين استخدمهم الاستعمار والكنيسة فى فترات طويلة تهب لتزييف الحقائق الصريحة.

وهكذا كانت الكنيسة ترسل مبشريها إلى بلاد الإسلام بدعاوى باطلة، وحيث أخذ نفر من القسس يدّعون البحث العلمى ويسمون أنفسهم بالمستشرقين ليحرفوا الحقائق السافرة عن الإسلام والقرآن ومحمد ﷺ، كما استطاعوا تكوين فريق عمل من أبناء العرب والمسلمين يبدو كأنهم أشد حماساً لقيادة الهجوم والحقد على الإسلام من أساتذتهم.

رابعاً: اعترف الغربيون أنفسهم أن معركة بلاط الشهداء قد أخرت الحضارة الغربية ثمانية قرون، وأن الأوروبيين لو كانوا قبلوا المد الإسلامى بقيادة عبد الرحمن الغافقى

الذى دق أبوابهم لتغيروا سريعاً وقد اعتبرو كارل مارتل وجولته نصراً وهو هزيمة.

❑❑❑

قال المؤرخ كلوب فاير:

لقد حدثت سنة ٧٣٢م فاجعة ربما كانت من أشأم الفجائع على الإنسانية فى العصور الوسطى، هى الانتصار البغيض الذى ظفر به على مقربة من (بواتيه) أولئك المحاربون من الإفرنج بقيادة كارل مارتل على كتائب العرب المسلمين التى كان يريد أن ينقذها الإسلام العمرانى المتسامح.

خامساً: كتب كثير من الأوروبيين يكشفون عن ظلم أهلهم لمسلمى الجزائر وما قاموا به من فظائع، ومنهم بيرلوتى الذى وازن بين همجية جنود الاستعمار، وبين أهل أفريقيا ليثبت أن هؤلاء المسمين بالبدائيين لهم من تقاليد الرحمة والمودة ماليس للأوروبى المتحضر، وكذلك فعل جارودى بإحصاء مظالم هؤلاء الذين كونوا الإمبراطورية.

كما كشف جارودى عن أن عصر النهضة الأوروبية لم يبدأ من إيطاليا كما يدعون وإنما بدا من الأندلس وجزر البحر المتوسط التى سيطر عليها المسلمون.

سادساً: ماكشف عنه الباحثون الأوروبيون من فساد حركة الحضارة الأوروبية اليوم بما سيؤدى إلى كارثة محققة لقيام الكسب المادى بعيداً عن كل قيم الأخلاق والشرف وحيث ينفق ألف مليار من الدولارات سنوياً على التسليح ويموت خمسون مليون من البشر من الجوع

« جارودى ».

سابعاً: ما كشف عنه الباحثون الأوروبيون من أن الإسلام لا يلغى الديانات السابقة بل يصححها ويردها إلى منهجها الصحيح.

❑❑❑

ومن هنا فإننا يجب أن نصحح مسيرتنا كمسلمين وأن نتحرر تماماً من خداع التبعية ومغريات أهواء الحضارة وأن نكون على وعى بكذب تلك الدعوات التى تتسلط علينا بمقولة الربط بين أدوات الحضارة ونقل الفكر الغربى.

لقد ترددت هذه الدعوى طويلاً على ألسنة زكى نجيب محمود ولويس عوض وراشد البراوى وغيره.

يقول الدكتور محيى الدين صابر: «من الصعب إن لم يكن من المستحيل استيراد الحضارة الحديثة دون استيراد قيمها معها فنحن لا تستطيع استيراد المنتجات التكنولوجية للعالم الحديث دون تبنى نفس القيم التى كانت خلف هذه الحضارة التكنولوجية فالحضارة كل متكامل لا يتجزأ».

وهذه فكرة باطلة، ذلك أن الربط بين أدوات الحضارة وبين الفكر الغربى المادى أمر لم يسبق أن قبلته حضارة ما سواء الحضارة الإسلامية أم الحضارة الغربية، فليس صحيحاً أن يطلب من المسلمين أن يأخذوا الحضارة بفكرها بينما أن الغرب لم يفعل ذلك حين أخذ حضارة المسلمين دون فكرهم، كذلك فلن يقبل المسلمون ذلك المفهوم الغربى للعلاقة بين الدين والعلم، ولا بد أن يقدم المسلمون للحضارة الإسلامية مفهوماً جديداً مختلفاً يعجز التغريبيون والعلمانيون أمثال (فؤاد زكريا ولويس عوض) عن فهمه، فهم ينظرون إلى الإسلام على أنه دين لاهوتى كالمسيحية، ويعجزون عن التفرقة بين الإسلام ومفهوم الأديان فى الغرب، وما يتبعه من تفسير للعلوم والحضارة وغيرها، وذلك تحت تأثير نظرتهم الماركسية أو المادية.

وفى الإسلام: العلم جزء منه وليس منفصلاً عنه.

والإسلام هو الذى أعطى العلم مداه فى إنشاء المنهج التجريبى. والعلم الإسلامى لابد أن يخضع لمفهوم التوحيد الخالص والعدل والرحمة والإخاء الإنسانى.

ويجب أن يعرف الشباب المسلم: أن الثقافة الوافدة التى يتلقاها مدخولة وأن منهج التعليم الذى يتعلمه ما يزال يقصد إلى احتوائه لخدمة النفوذ الغربى وأنه فى حاجة إلى دراسة منهجه الإسلامى الذى ليس مسموحاً به، دراسة خاصة كاملة حتى يبدأ منه

حقيقة، وفى صورة تكشف أخطاء النظريات والمناهج والفلسفات الوافدة التى تطرح فى أفقه، وتحاول تكوين عقله وكيانه وأول كل ذلك أن يفهم الإسلام على أنه منهج حياة ونظام مجتمع، وأن هناك محاولات ترمى إلى تحويله إلى دين لاهوتى ويجب ان يعرف الشباب المسلم أن التجربة التى فرضت على المجتمع الإسلامى خلال أكثر من مائة سنة قد انتهت إلى حقيقة أساسية:

هى إعلان فساد المنهجين الغربيين المتصدرين فى العالم اليوم.

❑ ❑ ❑

والسوال هو: هل يستطيع الغرب وهو يتقدم نحو القرن الحادى والعشرين أن يصحح مساره أم أنه مازال مندفعاً فى طريقه إلى الهاوية.

هل فى استطاعته أن يقضى على غرور الاستعلاء بالعنصر، وهل يستطيع أن يحقق العدل فى توزيع الثروة العالمية، وهل فى استطاعته التحرر من الأحقاد القديمة المترسبة التى سببتها بعض الخلافات العقدية وغيرها، مادام هو الآن يملك من المقدرات العلمية ما يصل به إلى أعلى الغايات، أم أنه عاجز تماماً عن أن يعدل مساره.

وهل هو على استعداد أن يؤمن بالعالمية الإنسانية التى قدمها القرآن للبشرية منذ أربعة عشر قرناً القائمة على العدل والرحمة والبعد عن صراع المعسكرات وبناء القوى الذرية الشامخة أم أنه يندفع إلى مزيد من المطامع والشهوات والأهواء.

❑ ❑ ❑

إن علينا أن نخرج اليوم من أسر التبعية وخداع الإعجاب بالغرب الحاكم الآن والمسيطر بحضارته ونفوذه، ونعلم أنها مرحلة مؤقتة سواء لارتفاعه أم لضعفنا، ولما كنا نحن على الحق فإن علينا أن نستمسك به ونصر عليه ونثبت حتى يأتى نصر الله.

لقد ثبت تماماً فساد مفهوم أن التبعية والاقتباس والولاء للحضارة المنهارة هو منطلق النهوض للمسلمين، فالمناهج الوافدة فى مدارسنا وفى الغرب توحى بأمرين:

أن هذه الأمة متأخرة ومصدر تأخرها هو دينها، وهذا باطل، والأمر الثانى: أن هذه الأمة لا تنهض إلا باقتباس أساليب الغرب وهذا أمر أشد بطلاناً.

ووجه القصور أن المسلم لم يقدم له مفهوم الإسلام كاملاً، ولم يتعرف على أبعاد القيمة الحقيقية للإسلام والأسلوب الذى يجب أن يعمل به المسلم لبناء مجتمعه وحضارته من جديد.

هذا النقص هو مصدر الأزمة الحقيقية للثقافة الإسلامية، وهو موضوع الخطر لأنه يخرج أجيالاً متتابعة وفق مناهج ناقصة أو معدة إعداداً خاصاً بحيث توجه المسلم وجهة الاستهانة بدينه وأمته والإعجاب بالوافد.

ومن هنا فنحن فى حاجة إلى الكشف عن عدة حقائق أساسية لتصحيح هذا الطريق:

أولاً: أن هذه الحضارة الغربية بدأت من الإسلام ثم انحرفت عنه، وأنها الآن فى مرحلة السقوط لأنها خالفت منهج الله تبارك وتعالى واندفعت بأهواء الإنسان ومطامعه، وأن هذه الأزمة التى تحيق بها اجتماعياً واقتصادياً والتى تحيق بإنسان الحضارة ـ مصدرها تجاهل أو حجب البعد الإلهى عن حركتها وقصورها عن السير فى طريق إسلام الوجه لله وعملها على تدمير القيم والإسراف فى تهديد الثروة، والقصور على جانب الاستهلاك والاستعلاء بالقوى الذرية والهيدروجينية فى صراع القوتين.

ومن هنا فنحن فى حاجة إلى عدة أمور نتعرف عليها وندرسها لأبنائنا:

أولاً: أن كثيرا مما قدمته الفلسفات المادية المعاصرة باطل.

ثانياً: أن العلوم التجريبية تختلف فى مناهجها وممارساتها عن العلوم الإنسانية.

ثالثاً: أننا فى حاجة إلى التعرف على جوهر الحضارة الإسلامية ومفهومها الحقيقى.

❑ ❑ ❑

فالحضارة فى مفهوم الإسلام، حضارة أخلاقية تجمع بين الفكر والعمل ولا تقدس الفكر النظرى وحده ولاترفعه فوق العمل كما هو الشأن فى الحضارة اليونانية القديمة،كما أنها تجمع بين الروح والمادة، والعلم والعقل، والدنيا والآخره.

﴿واتبع فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا﴾.

❑ ❑ ❑

ولا مشاحه أن التوحيد هو جوهر الحضارة الإنسانية كما يقول الدكتور اسماعيل الفاروقى فى بحث ضاف له. حيث إن التوحيد هو لب الإسلام وجوهره (١) حيث الفضل بين الخالق وبين خلقه. (٢) تحقيق إرادة الخالق فى كونه. (٣) الالتزام بتتبع إرادة الله وغايته فى الطبيعة وفى المجتمع (٤) الإيمان بدور الإنسان فى هذا الكون تحملاً للمسئولية وتعميراً للكون واستشعاراً لضرورة وحدة الأمة الإسلامية.

هذا هو الجوهر الذى ميز الحضارة الإسلامية عن غيرها بالسبق والأصالة، محاولات العلوم الإنسانية والفنون.

وفى هذا المجال يتقرر أن الحقيقة عالمان: عالم الله تبارك وتعالى وعالم الخلق، عالم الله تبارك وتعالى هو الخالق الوحيد المنزه الصمد، أما عالم الخلق فهو عالم الزمان والمكان بما يحويانه من موجودات وحوادث ثنائية.

ينفصل العالمان بعضهما عن بعض انفصالاً تاماً كونياً ووجوديا حيث لا حلول ولا اتحاد ولا وحدة ولاتجسد، ولا يمكن للمخلوق أن يسمو بنفسه الى مرتبة الخالق وبهذا المفهوم يختلف الإسلام عن الأديان الأخرى ويخالف مفهوم الفلسفة الصوفية ومذاهب الهندوكية ويخالف مفاهيم المصريين والإغريقيين القدماء والطاوية الصينية.

وخطؤها فى ذلك أنها أذابت الدنيا فى الله ﴿ **تعالى عما يقولون علوا كبيراً** ﴾ وإذابته فى مخلوقاته.

كذلك ابتعدت المسيحية كل البعد عن التوحيد عندما ادعت أن الله (جل شأنه) حل فى جسم بشر وتجسم فيه، فأصبح المخلوق خالقاً، وأنها لميزة الإسلام الكبرى أنه ركز على حقيقة العالمين أو الطبيعتين ـ الله الخالق والعالم المخلوق ـ وعلى تمام انفصالهما عن بعضهما البعض طبعاً وطبيعة واصلاً وفرعاً وبداية ونهاية.

ومن هنا فإن التوحيد هو الذى يعطى الحضارة الإسلامية هويتها، وهو الذى يربط بين أجزائها وهو الذى يطبع كل ما يدخل إليها من عناصر .

وهكذا تتضح هذه الحقائق الخمس:

١ ـ عالم الله وعالم الخلق.

٢ ـ لا صلة بين الخالق والإنسان المخلوق إلا عن طريق الوحى الذى أنزل على النبى ﷺ لا عن طريق الاتحاد والحلول أو التأليه.

٣ ـ لعالم الخلق غاية من وجوده : هى تحقيق إرادة الله.

٤ ـ فى الانسان قوة على تغيير نفسه وتغيير مجتمعه وتغيير الطبيعة المحيطة به.

فالعالم كله مبنى على إرادة الله (تبارك وتعالى) وأوامره، أما المسيحية فهى ليست دين توحيد بل هى دين يؤكد تجسد الإله فى الطبيعة، ويعتمد التناقض مبدأ للمعرفة، لذلك لم تتح للمسيحية علوم طبيعية مدى ألف سنة تحكمت فى عقول الناس ولم ينتج المسيحيون العلوم إلا بعد أن تحرروا من (عدم التوحيد) الذى فرضته

عليهم المسيحية، وبعد أن انتقلت إليهم علوم المسلمين.

كذلك حكمت الهندوكية والبوذية آسيا وجنوب شرقها مدى ألف سنة لم يتقدم أهلها إلى مستوى الفكر العلمى ولكن ما أن أسلموا ووحدوا الله حتى حققوا وحققوا وأنجزوا بنفس السرعة.

❑ ❑ ❑

وتختلف إنسانية الإنسان فى الحضارة الإسلامية عن الحضارات الأخرى، فالإغريقية الهته وألهت معه فساده.

والمسيحية أسقطته وجعلته كتلة خطيئة ليقدم لآلهها تفسيراً لصلبه كعملية إنقاذ وتخليص.

والهندوكية صنعته درجات وطبقات من أسفل سافلين حيث لا يرجى أمل إلى طبقة البراهمة المقربين إلا بانتقال روحه من جسد إلى جسد.

أما البوذية فقد حكمت على الإنسان والحياة كلها والوجود كله بأنه شر وفساد.

والإنسان فى الإسلام :

(١) مكلف بإشباع غرائزه وحاجاته عن الطريق الشرعى الصحيح

(٢) مكلف بتنمية موارد البشر

(٣) مكلف بإدراك سنن الطبيعة وسنن النفس وسنن المجتمع.

والتوحيد لا يعرف الرهبنه والانعزال عن الناس، ولا الزهد فى الدنيا ولا التنكر لها، والوازع الأخلاقى يحل التناقض، والفنان المؤمن يؤمن بأن لا شئ فى الطبيعة يحمل صورة الله أو يعبر عنه، ولذلك أبدع الفنان المسلم فن الزخرفة الإسلامية، وهى رسوم تمتد فى جميع الاتجاهات إلى مالانهاية.

وفيه معنى التنزيه ولذلك جاءت فنون المسلمين تجريدية. (إسماعيل الفاروقى)

السير نحو الطريق المنحدر

إن الخطر اليوم يتمثل فى التبعية أو ما يسميه الدكتور مصطفى محمود: السير نحو الطريق المنحدر.

يقول : مازلنا نتبع فى حضارتنا وثقافتنا وأفلامنا وأغانينا وموسيقانا الأوامر والتعليمات التى تأتينا من العواصم الكبرى (لندن ـ باريس ـ نيويورك ـ موسكو) .

ومازلنا نتشرب هذه الحضارة المادية مبهورين ونحذو حذوها نقلد السلبيات والظواهر الإنحلالية فى الفن والسلوك والقطار كله يسير إلى منحدر.

الانهيار سببه ضعف العقيدة والإيمان أو انعدامها، أما مفاهيم الرب العادل والميزان والحساب والبعث والآخرة فهى غير مطروحة فى أذهانهم وهى مرفوضة تماماً ولا اعتبار لها، وعندهم كل شئ نسبى ولا حقيقة مطلقة.

ولا ريب أن (الطوفان) فى سلوك التهالك والتهافت والتدافع على اللحظة وعلى جمع المال وانتهاب اللذات.

إننا يجب أن نأخذ منهم العلم والصناعة والتكنولوجيا ولا نأخذ التبذل والتحلل ومباذل الرقص والشرب والتفسخ الجنسى.

❑ ❑ ❑

ونحن نضع تحفظاً على أخذ العلم والصناعة والتكنولوجيا ذلك هو أن نصهر هذه المعلومات فى إطار مفهومنا الإسلامى، وأن نجعل كل ما نأخذه مادة خاماً نحولها إلى منظومتنا ونوجهها الوجهة الخالصة (التوحيدية) والأخلاقية الإسلامية فليس يكفى أن ننقل العلم والصناعة والتكنولوجيا بمفهومها الغربى.

❑ ❑ ❑

ويذكرنا الدكتور زغلول النجار بمفهومنا الإسلامى للحضارة حتى نجعله نصب أعيننا ونحن نعاود بناء حضارتنا من جديد. يقول : حملت الحضارة الإسلامية لواء المعرفة الإنسانية فى كل منحى من مناحى الحياة العلمية والفكرية (والنظرية والتطبيقية). ولما كانت المعرفة بأيدى المسلمين كانت تنطلق من المنظور الإسلامى الصحيح المبنى على الإيمان بالله تبارك وتعالى وبوحدانية هذا الخالق العظيم وبقدرته على إبداع هذا الخلق وعلى رعايته لهذه الدنيا، فكانت تنطلق من تصورات صحيحة ومن قواعد فكرية صحيحة، تنطلق من إيمانها بوحدة الجنس البشرى (**كلكم لآدم وآدم من تراب**) كما علمنا رسول الله ﷺ فلم نر عيباً ولا حرجاً فى أن نأخذ من الحضارات المجاورة فى قول الرسول ﷺ :

(**الحكمة ضالة المؤمن أنى وجدها فهو أولى الناس بها**). فأخذت الحضارة الإسلامية من الحضارات.

وقد ظلت المعرفة بأيد إسلامية أطول فترة عرفتها البشرية على الإطلاق، فقد ظلت أحد عشر قرناً كاملاً (بينما الحضارة الرومانية لم تعمر أقل من خمسمائة سنة والأغريق أقل من ألف سنة).

وقد حملت لواء المعرفة فى كل مناحى الحياة.

ولكن فى دورة من دورات الزمن تخلف المسلمون، وهذه سنة من سنن الله تبارك وتعالى فى الخلق، فحمل اللواء من لا دين لهم ولاعقيدة حقيقية، على الرغم من أنها تدعى النصرانية واليهودية، فهذه الأمم فى حقيقتها أمم لادينية ولا يوجد عندها تصور لمعنى الألوهية ولالمعنى الرسالة ولا لمعنى الدين، ومن ثم بدأت المعارف تنطلق من منطلقات غير صحيحة وخاصة فى الجانب الفطرى الفكرى وبخاصة فى مجال الدراسات الإنسانية (الاقتصاد والفلسفة وعلم النفس). وبالتالى ضلت ضلالاً بعيداً.

وعندى أن العلوم التى يحتاجها الإنسان احتياجاً مباشراً فى عمارته للحياة على

الأرض في القيام بواجب الاستخلاف فيها تأتى فوق العلوم البحتة والتطبيقية وفلسفة العلوم، أن هناك قانوناً يدرس على كل المستويات فى بعض البلاد العربية والإسلامية، وهو قانون (بقاء الطاقة) وهذا القانون يقول: إن المادة لاتفنى ولا تستحدث من العدم، وكذلك الطاقة فمنطوق هذا القانون كفر واضح.

إذ معنى ان المادة لا تفنى ولا تستحدث من العدم يعنى أنه لا يوجد خلق أزلى، وهذه هى القضية التى بدأ بها المشركون والملاحده فى القرن التاسع عشر ونفاها العلم، فالعلم اليوم جاء ليثبت أن الكون له بداية ويحاول العلماء حسابها بدقة بالغة ويؤكد العلماء أنه لابد أن تكون فى يوم من الأيام النهاية «ان قانون بقاء المادة والطاقة ممكن تصويبه بكلمتين بسيطتين لو أضيفتا إلى القانون لتصحيح مساره فنقول : إنه فى حدود القدرة الإنسانية المادة لا تفنى ولا تستحدث فى العمل».

وبذلك لا تتعارض مع العقيدة لأن قدرة الله تبارك وتعالى لا تحدها الحدود.

إن أكبر أخطاء الفكرة المادية أن الإنسان بدأ يقيس على الله (جل وعلا) بمقاييسه هو وهذه مغالطة كبيرة لأن قدرة الإنسان محدودة للغاية، أما قدرة الله تبارك وتعالى فلا تحدها حدود.

أما الدراسات الإنسانية فالخلل فيها كبير جداً والانحراف فيها هائل، لأنها تتعلق بالإنسان والإنسان إذا نظر إلى ذاته من منظور غير صحيح يفسد فساداً كبيراً ويصل إلى استنتاجات خاطئة بعيدة عن الواقع بعداً شديداً، لكن إذا نظر لنفسه على أنه عبد لإله عظيم خلقه لأداء رسالة محدودة فى هذه الحياة وأنه بعد هذه الحياة سيموت، وبعد الموت سيبعث ويحاسب وسيكون إما فى الجنة أو فى النار، إذا نظر بهذا المنظور لنفسه سيكون مختلفا تماماً.

فالمدنية المعاصرة من مآسيها أنها « تؤله الإنسان وتنسيه خالقه سبحانه وتعالى ومن هنا تكون كل استنتاجاتها فى مجال العلوم الإنسانية مغلوطة تماماً ولا أساس لها من الصحة وتضر أكثر ما تنفع» أ . هـ.

❑ ❑ ❑

ومن هنا فإننا يجب ونحن نعد العدة لاستئناف مسيرة حضارتنا الإسلامية أن نكون حذرين فى المحافظة على ذاتية حضارتنا وطابعها الخاص والمتميز.

وفى عملية التفاعل الحضارى يجب أن نميز بين ما هو مشترك إنسانى عام وبين ما هو خصوصية حضارية.

يقول الدكتور محمد عمارة : على الأمم أن تقف بين ما هو مشترك وخاص فتنقل الأول وتقف من الأمر الثانى موقف الحذر بعد عرضه على مناهجها الأساسية.

وقد أخذت أوروبا من حضارة المسلمين ماله صفة العموم، وما أخذته صهرته فى بوتقتها الأساسية القائمة على الفكر الهلينى والقانون الرومانى والمسيحى.

وكان أهم ما أحدثته، (المنهج التجريبى) ، الذى تجاوز نطاق القياس الأرسطى إلى الملاحظة والاستقراء والتجريب، أما فيما يتصل بالإنسانيات الإسلامية (سياسية واجتماعية واقتصادية) وأنماط الذوق والسلوك والقيم، فقد تحفظ عليه الغرب، ومعنى هذا أن الانفتاح الغربى على الحضارة الإسلامية كان مركزاً على مصادر القوة محافظاً فى نفس الوقت على الهوية والخصوصية الغربية، وقد رفض أبرز خصائص حضارتنا.(التوحيد ـ الوسطية ـ التدين) .

رفضوا هويتنا الحضارية كى يحتفظوا لحضارتهم بهويتها فتمزقت الحضارة الغربية بطابعها المادى.

إنهم سرعان ما خطفوا أسباب القوة فى الحضارة الإسلامية ثم سابقوا المسلمين وغلبوهم وتفوقوا عليهم بعد قليل فى مجال الحرب والسيطرة على البحار ثم تحولوا بعد ذلك لهدم مقومات هذه الحضارة فى بلادها فى محاولة لاحتواء المسلمين داخل حضارتهم.

وقد تميزت الحضارة الغربية (بالطابع المادى: ـ الثنائية ـ الانشطارية) بديلاً عن الوسطية الإسلامية والتوازن.

وقد تميزت حضارتهم بالثنائية التى أخرجت التدين من إطار العقل وأخرجت الدنيا والدولة وعلوم التمدن من إطار الدين، وقسمت الفلاسفة إلى ماديين ومثاليين بثنائية الفكر والمادية.

(مثالية ـ الفكر).

(مادية ـ المادة).

وبالرغم من أنهم حفظوا عقيدتهم ونقلوا حضارة الإسلام فإن إتباعهم من ببغاوات العرب والمسلمين يسلطونهم ليقولوا لنا كيف تنقلوا الحضارة من غير أن تنقلوا فكرها!

❑ ❑ ❑

ويرى كثيرون أن نسبة الحضارة المعاصرة إلى الغرب فيها كثير من التجاوز، يقول الدكتور محمد الفيومى: الحضارة جهد بشرى وإرث إنسانى وتوجيه إلهى، وحين نوافق على نسبة الحضارة إلى الغرب نكون قد جمدنا الأصول التاريخية للحضارة بالقواعد العلمية والتكنولوجية ، كذلك إذا وافقنا على نسبة الحضارة إلى الغرب نكون قد عززنا نظرة الغرب إلى نفسه بأنه متفوق لأنه يدعى السمو العرقى والعلمى على الشرق، ومن هنا يروج كتاب الغرب أن الحضارة نتاج غربى.

وقد كان جارودى من أوائل من قالوا بخطأ نسبة الحضارة الى الغرب لأنها إنجاز عالمى ونسبتها إلى الغرب عرض طارئ إذ إن الحضارة المعاصرة لم تنشأ من فراغ، وإنما ترجع إلى الأصول الأولى للفكر الإنسانى وخاصة الحضارة الإسلامية التى استمد منها الغرب أصوله المعرفية، وقد برزت نظريتان تدينان الغرب:

(١) نظرية التفوق الغربى من حيث النزعة العلمية.

(٢) نظرية التعصب الجنسى العرقى على جميع الشعوب.

هاتان النظريتان لم تلقيا قبولاً علمياً وإن لاقتا رواجاً سياسياً.

الفصل السابع

المجتمع :

الشباب والمرأة المسلمة

كان المجتمع الإسلامى الذى شكله الإسلام ورسم منهجه القرآن الكريم والسنة المطهرة من أكبر أهداف عملية الغزو والإستعمار فى كلتا المرحلتين (السياسية والعسكرية) والثقافية .

وقد حشد النفوذ الغربى الزاحف لذلك خططاً وأنظمة ظهرت أول ما ظهرت فى مقررات الاحتلال البريطانى فى مصر والاحتلال الفرنسى فى تونس والجزائر.

١ ـ فكان أول مادعا إليه ممثلو النفوذ الأجنبى، كرومر ودنلوب فى مصر وزويمر فى الخليج والكردينال لافيجرى فى المغرب إعلان الحرب على اللغة العربية، وإحياء اللهجات الشعبية والتركيز على اللغتين الأجنبيتين : الإنجليزية والفرنسية.

وكانت الحملة تركز أساساً على الأزهر والزيتونة والقرويين باعتبارها معاقل القرآن والفصحى والشريعة الإسلامية.

٢ ـ القانون الوضعى الذى فرض على المجتمعات الإسلامية بديلاً للشريعة الإسلامية التى حجبت من مؤسسات المجتمع كلها: (المدرسة ـ المصرف ـ المحكمة) حيث فرض الربا على الاقتصاد، والعلمانية على المناهج الدراسية، والقانون الوضعى فى حل مشاكل المسلمين، وكان أخطر آثار هذا القانون الوضعى أنه حجب عقوبات الزنا والفساد الخلقى وجعل عمل الفاحشة بالرضا بين مقترفيه.

❑ ❑ ❑

٣ ـ ثم جاءت بعد ذلك نظريات الإجتماع الغربى (الليبرالى والماركسى) التى حاولت أن تجرى على الرجل والمرأة مقياساً واحداً دون النظر إلى اختلاف التكوين البيولوجى بينهما تبعاً لمهمة كل منهم ومسئوليته، ومارسمته برامج المدارس التى عملت على تعليم الذكر والأنثى تعليماً واحداً دون تقدير لمسئولية المرأة فى مهمة بناء الأسرة التى تختلف عن مهمة الرجل فى العمل الخارجى.

ومن هنا لم تعرف المرأة المسلمة حقيقة مسئوليتها وعملها الأساسى كما رسمه القرآن الكريم والشريعة الإسلامية.

وجاءت مخططات بروتوكولات صهيون تحمل منهج العمل لتدمير المجتمع الإسلامى على النحو الذى رسمته أساساً : الفلسفة الماسونية التى قامت على هدم الجانب الأخلاقى من الشباب والمرأة جميعاً والقضاء على طابع الغيرة وتقديس البكارة وحماية الأعراض، وهكذا تكشفت من خلال كل الكتابات والمترجمات فى مجال (المجتمع ومسئولية الشباب والمرأة) عن أن هناك مخططاً بعيد المدى يجرى تنفيذه ومواصلة دعمه وكسب الأتباع له من أساتذة الجامعات وكبار المثقفين ذوى المراكز الكبرى فى مجالات السلطة والحكم فى محاولة لتحقيق الغزو الذى تفرضه الماسونية من خلال مؤسساتها المنتشرة فى جميع أنحاء العالم عن طريق بيوت الشباب والرحلات المشتركة بين الرجال والنساء والإقامة فى الفنادق وتيسير اللقاءات الجنسية بين عنصرى الشباب، وما يرتبط بالمسرح والسينما والرقص ومسابقات ملكات الجمال بما يؤكد تماماً ذلك الهدف الواضح الصريح وهو:

التركيز على الشباب المسلم والمرأة المسلمة فى سبيل هدم بناء الأسرة كمقدمة لتقويض المجتمع الإسلامى.

وهناك ركيزتان لهذا العمل يجب الكشف عنهما :

الأولى : علم الاجتماع ـ فعلم الاجتماع الذى يدرس فى جامعاتنا مأخوذ بكامله من المناهج الغربية، وخاصة الفرنسية حيث كان يدرسه فى أول أمر الجامعة المصرية

مستشرقان هما شتيليه البلجيكى، وهوكرت الفرنسى، وكانا يلقيان محاضراتهما باللغات الأجنبية، ثم تولى ذلك الدكتور على عبد الواحد وافى الذى حاول البحث عن الجذور العربية والإسلامية لهذا العلم ثم تم أنشاء أقسام الاجتماع فى الجامعات المختلفة، فتشعبت فروع علم الاجتماع ومجالاته فلم تعد تصلح أن تكون فرعاً من فروع الفلسفة.

وكان (دوركايم) هو شيخ وإمام هذه المدرسة ومرجعها الأساسى، وترجمت كتبه إلى اللغة العربية وفرضت على الدارسين، ولما كان دوركايم يهودياً ماركسياً يرمى إلى تحطيم صورة منهج علم الاجتماع الإسلامى الذى أرساه العلامة ابن خلدون عرفنا إلى أى حد كان العمل لتعريب الاجتماع الإسلامى، ولقد كان أول من ضرب معولاً فى صرح العلوم الاجتماعية الإسلامية هو الدكتور طه حسين الذى تتلمذ على دوركايم وأعد أطروحته فى فرنسا لمهاجمة ابن خلدون ومتابعة مفاهيم أستاذه على نحو ما هو واضح فى كتابه (فلسفة ابن خلدون الاجتماعية) .

أما دوركايم وليفى بريل ومجموعة المدرسة الاجتماعية الفرنسية فقد سيطرت أيما سيطرة وتبعها كثيرون فى مصر والبلاد العربية (وذلك على النحو الذى تم به تغريب علم النفس أيضاً والعلوم الاجتماعية والإنسانية عن طريق الدكتور عبد العزيز القوصى والساعاتى وغيرهما) .

ومن هنا جاء مفهوم العلوم الاجتماعية والإنسانية فى الفكر الإسلامى تابعاً لمفهوم المدرسة اليهودية الفرنسية التى فصلت الجانب المادى عن الجانب الروحى .

وأقامت منهج العلوم الاجتماعية والإنسانية على مفاهيم الفلسفة المادية الخالصة .

وقد كان هذا نتاج تطورالفكر الغربى بعد انفصاله عن المسيحية، ولكن طرح هذه المفاهيم فى أفق الفكر الإسلامى الجامع بين المادة والروح من شأنه أن يحدث آثاراً خطيرة، وهذا يؤكد الاختلاف العميق بين الثقافات الغربية والثقافة الإسلامية أما فى

مجال العلوم التجريبية المادية فإنه لاخلاف عليها لأنها من جهد البشرية كلها أما بالنسبة للعلوم الإنسانية فإن الأمر يختلف لأنها تدخل فى تكوين الوجدان وأركان بناء الشخصية، وتهيمن على توجيه الفكر والسلوك فى الإنسان، ولذلك يمكن تلوينها وصبغتها بما يتفق مع الميول والأهواء.

ويؤكد الباحثون المنصفون : أنه من الخطأ البين أن ننظر إلى هذه العلوم الإنسانية نظرتنا إلى العلوم المادية من حيث كونها علوماً مشتركة صالحة للتطبيق فى كل زمان وفى كل مكان وفى كل مجتمع، فإن تاريخ أمة ما ليس هو تاريخ أمة أخرى، وليس مناط افتخارها واعتزازها نفس الشيء، كما أنه من الخطأ البين أن يدعى أنه يمكن الاستغناء بحقائق العلوم المادية.

أن قضية العلوم الإنسانية بما فيها من علم الاجتماع قضية من أخطر القضايا بالنسبة لمجتمعنا الإنسانى من حيث إن التعارض فيما بينها وبين المجتمعات الغربية فى الأساس والمبادئ التى ينتمى إليها التصور العام للكون والحياة والوجود تعارض لا يسهل التقريب فيه وإن علم الاجتماع الذى يسود اليوم والذى نتدارسه فى معاهدنا وجامعاتنا علم مبنى على أسس ومبادئ قوامها التصور الغربى الذى يختلف اختلافاً كاملاً عن التصور الإسلامى للكون والوجود، وأن هذا التصور الغربى لعلم الاجتماع فى الغرب يحصر الوجود كله فى الإنسان والطبيعة، ويرى أنه جزء منها، ونوع من أنواعها وأن الطبيعة وجدت نفسها هكذا من غير موجه لها وأن العقل وحده طريق معرفة الحقائق وليس ثمة طريق آخر وليست المثل الأخلاقية والمفاهيم الحقوقية إلا وقائع أو حوادث كالحوادث الطبيعية نشأت وتطورت فهى غير ثابتة والإنسان نفسه إنما هو حيوان اجتماعى مفكر فحسب، وليست النفس الإنسانية إلا مجموعة من الغرائز، هذه الخلفية العقائدية مشتركة بين معظم الاتجاهات المذهبية، إلحادية وغير إلحادية، وإن حاولت الالتحاف بأثواب علمية محايدة لتبدو بعيدة عن سبق التأثر بهذه

الاتجاهات، ولكن هذه الخلفية العقائدية تبدو من خلال الجزئيات والمسائل كقضايا مسلمة وحقائق مصطلح عليها غير قابلة للشك والمناقشة، ولا ريب أن هذه الخلفية العقائدية الغربية تقف على طرف التباين مع مالدى المسلمين والعالم الإسلامى بعامة من نظرة إلى الكون والوجود، وأن العلوم المادية تختلف عن العلوم الإنسانية، وأن ما يقرره الغرب بشأن مفهوم العلوم المادية لا يتفق مع نظرتنا نحن المسلمين.

وقد أجمع الباحثون الذين درسوا على الغربيين على الحذر من مقولات الفكر المادى ـ (عبد الفتاح بركه ـ محمد المبارك) بل إن الدكتور على عبد الواحد وافى حذر من خطر التبعية فقال : لقد أخطأ علم الاجتماع الغربى فى محاولة التخلص من المعوقات التى كانت تحيط بهذا العلم فى نشأته فى الغرب وعلينا أن نحترس من أخذ قضايا العلم من معاهد البحث الغربى باعتبارها حقائق مسلمة، وأن ذلك سوف يترك أثره غير المباشر على نفوس طلابنا وناشئينا باعتبار أن الأسس والمبادئ التى بنى عليها هى مبادئ مسلمة مع أنها تتعارض مع مبادئنا وأسسنا، وهنا يقع التمزق المفتعل بين العقيدة والعلم مما ليس له وجود فى تاريخنا ولا فى تراثنا، ومما لا ينبغى أن يترك له محل فى حياتنا الحاضرة أو مستقبلها المنتظر.

وقد ذهب الباحثون المسلمون فى الغرب إلى محاولة فى الأصالة من أجل وضع نظرة إسلامية أصيلة لعلم الاجتماع ركزت على عدة عناصر أهمها :

أولاً : تثبيت التوحيد ليس كعقيدة فحسب ولكن كحقيقة علمية يسهل إثباتها حيث يعانى المسلمون اليوم مشكلة ممارسة علوم ترتكز على تجاهل المعتقدات الإسلامية.

ثانياً : تفسير التاريخ تفسيراً مرتبطاً بمبادئ (سنة الله فى الكون) وليس مجرد أحداث متتالية بلا أهداف، ويؤدى هذا الفهم أو هذا التفسير إلى تزويد العالم الاجتماعى الإسلامى بما يفتقر إليه من فهم للأفكار والمشكلات المعاصرة العالمية.

ثالثاً : إقامة قاعدة الإنسجام هى المنطلق الحقيقى للتفاعل الإسلامى مع المجتمع:

١ ـ الأصل : الإباحة مالم يرد نص أو تحريم.

٢ ـ الضرورات تبيح المحظورات بقدر.

٣ ـ مسئولية المسلم : فردية وجماعية نحو خالقه .

٤ ـ مسئولية الفرد : بنسبة قدراته وأعماله مرتبطة بأهدافه.

٥ ـ كل علم المسلم حلال إلا إذا لم يقصد به وجه الله تبارك وتعالى .

٦ ـ الروح الإسلامية تعتمد على الاعتدال والانسجام والواقعية والتكامل.

٧ ـ قدم القرآن للمسلمين القدوة الحُسنة فى شخص رسول الله ﷺ.

٨ ـ الاحتفاظ بالذات الإنسانية والطهر والنمو وحمايتها من معوقات الحياة.

لقد كان هدف النفوذ الأجنبى ولا يزال : هو هدم المجتمع الإسلامى وتحطيم قاعدته التى تقوم على الأسرة ، طمعت فى ذلك الماسونية والماركسية، وعملت عملاً شديد الخطورة فى تسليط المغريات والترغيب فى الملذات، ويدخل فى هذا الترغيب فى الغناء والرقص وربط الشباب بالموسيقى والتصوير بحجة أنها مواهب يجب أن تنمى وطاقات يجب الاستفادة منها وتقوم فكرة « حرية المجتمع » على التحلل الخلقى والتفسخ الأسرى باسم الحرية الشخصية، وهى تعد من سمات الحضارة الغربية، وإذا كان الاحتكار وابتزاز الأموال بطرق غير مشروعة باسم الحرية الفردية أو الحرية الجماعية سبيلاً إلى الحضارة فى عرف أولئك الغربيين فإن ذلك يعارض القوة التى ينشدها الإسلام لمجتمعه، ولأن هذه الصفات من الأسباب التى تؤدى إلى انهيار الدول والحضارات (الرومان والفرس).

❑ ❑ ❑

ومن هنا كان ذلك الاختلاف العميق بين فقه الاجتماع الشرعى الإسلامى وبين علم الاجتماع الحديث.

إن الإسلام فريد فى إقامته للمجتمع الإسلامى على فكرة الأمة، وأن هذا المفهوم مستمد من العقيدة الإسلامية ولا نظير له فى المجتمعات الإنسانية قبل الإسلام وبعده، وأن ديناميكية الجماعة الإسلامية هى التعاون والتضامن والتكامل والتناصر، ويتكون نسيج المجتمع الإسلامى من التواد والتراحم والمحبة والتآخى وأن الغذاء والكساء والمأوى هى حقوق للفرد المسلم على إخوانه المسلمين، ومن موارد الزكاة والتكافل الاجتماعى المفروض للفقراء على الأغنياء، ثم اقتصاد الدولة من مال الأغنياء حق التزامها بكفالة حقوق المحتاجين.

❑ ❑ ❑

ولما كان المجتمع الإسلامى مجتمعا متحركا متطورا به طاقات عقائدية هائلة تدفع نحو الأفضل فإنه يرفض الركود والجمود، ولا ريب أن الجمود الملحوظ على غالبية المسلمين فى عصرنا الحاضر هو ظاهرة طارئة يتبرأ منها الإسلام، وقد كرسها الاستعمار بمختلف وسائله لتستقر فى أعماق أوضاعنا (قابلية التخلف) التى حاربها الإسلام العظيم بلا هوادة فى جميع منطلقاته العقائدية.

ان حرية الفرد والمجتمع فى ظل التمسك بالإسلام كفيلة بأن تدفع (الواقع) نحو الرقى والتقدم بصورة صاعدة يظل فيها السعى حثيثاً نحو تغيير الواقع وتغيير الصالح بالأصلح، فلا محل فى ظل الإسلام للخضوع والقناعة بماهو قائم فعلاً حتى ولو كان صالحاً ذلك ليظل يوم المسلمين خيراً من أمسهم ويظل غدهم أفضل من يومهم على طول المدى.

(عن أمير المؤمنين على بن أبى طالب فى هذا المنطلق قوله : من تساوى يوماه فهو مغبون)

❑ ❑ ❑

ومن هنا كانت صيحة اليقظة الإسلامية ودعوتها إلى أسلمة العلوم والمناهج وأسلمة علم الاجتماع أساساً.

وقد أشار الباحثون إلى أن هناك اجتهادات كثيرة قام بها علماء مسلمون معاصرون فى هذا المجال فى مقدمتهم العالم الباكستانى (بشارات على) الذى يقول دكتور محمد كمال إمام : إنه استطاع الوصول إلى تصور إسلامى لعلم الاجتماع مستمد من القرآن الكريم وأن القرآن الكريم كان البداية الحقيقية لوضع نسق فكرى شامل يتعلق بالحقيقة الاجتماعية، وقد تضمن القرآن الكريم بوصفه كتاباً أنزل إلى البشرية جمعاء أول إطار لتنظيم الحقائق المتصلة بمختلف الظواهر الاجتماعية والثقافية والعقلية باعتبارها كيانات كليه ذوات معنى ولم يضع القرآن الكريم الفكر الاجتماعى داخل إطار منظم فحسب، ولكنه صاغ الأساس العلمى الإكسيولوجى للمعرفة الاجتماعية ككل بحيث أخذ مفكرو الإسلام فى ضوء تعاليم القرآن الكريم ومبادئه يتطلعون نحو بحث ودراسة مختلف فروع المعرفة، واستطاعوا أن يصوغوا نسقاً جديداً من المعرفة أطلق عليه (علم المجتمع).

ولقد كانت إسهامات العلماء المسلمين فى هذا المجال مهمة بل ان النشأة الأولى لعلم الاجتماع بدأت فعلاً على يد (ابن خلدون) وليس أوجست كونت، ولم يكن ابن خلدون علماً مفرداً لا سابق له ولا لاحق ـ كما يصوره المستشرقون لإبرازه كاستثناء وليس دليلاً على إبداع العقل الإسلامى، فقد كان ابن خلدون مسبوقاً بالكثيرين من الإمام الغزالى وابن رضوان (فى الشعب اللامعة) وجاء إلينا من بعد كثيرون لعل أشهرهم (ابن الأزرق) صاحب (بدائع السلك) وهو أعظم من كتبوا فى علم الاجتماع السياسى فى الأجيال التالية لابن خلدون ثم المؤرخ المصرى تقى الدين المقريزى الذى لا يزال مغبونا فى تحليل دوره فى علمى السياسة والاجتماع، فقد أضاف إضافات مهمة تجاوز بها أستاذه ابن خلدون.ولقد كشف

كتاب بشارات على : (علم الاجتماع فى ضوء القرآن) كل جوانب هذه المساهمات سواء فى النصوص الإسلامية أو من خلال المفكرين المسلمين بالرغم من أنه اعتمد على مفاهيم ومصطلحات إلا أنه استطاع بروحه الإسلامى وثقافته فى التراث الإسلامى أن يفتح الطريق الصحيح أمام الباحث للوصول إلى علم اجتماع اسلامى.

❑ ❑ ❑

ولقد وضع الإسلام قواعده الراسخة حيث ترتبط العقيدة الاسلامية بالنظام الاجتماعى ودون الفصل بينهما، وحيث لا يعترف الإسلام بأى نظرية عن تطور العائلة على أساس أن المرأة كانت مشاعة فى عهد البشرية الأولى ثم تكونت العائلة بمرور الزمن بفعل عامل اقتصادى إذ إن القرآن يخبرنا أن الأسرة تكونت فى بداية البشرية ولم يخل منها جيل من الأجيال.

وقد فشلت فشلاً ذريعاً كافة النظم المفتعلة وكل محاولة منحرفة للقضاء على الأسرة وكل تجربة تدمير الأسرة سيكون مصدرها الفشل:

﴿يا أيها الذين آمنوا اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحده وخلق منها زوجها وبث منهما رجالا كثيرا ونساء﴾

كما تبين فساد النظرية الوافدة التى تقول بحرية أفراد الأسرة كل فى طريقة أو سيطرة الزوجة على الاسرة دون الرجل، وتبين من خلال إحصاء استغرق إعداده ثلاث سنوات ، أن الأسرة التى يسيطر عليها الرجل بتفكيره وتدبيره أسعد حالاً من الأسرة التى تسيطر عليها الزوجة.



الشباب المسلم

ما يزال الشباب المسلم هدفاً حقيقياً يعمل النفوذ الغربى بعناصره الماركسية والليبرالية والصهيونية على تدميره واحتوائه .

فهو الجيل الذى سيتولى أمر هذه الأمة فى العقود القادمة ولذلك فقد وجهت إليه سهام كثيرة تحاول أن تلتقطه وتجعله تابعاً لأهواء نفسه أولا ولغايات الدول الطامعة والتى تريد أن تظل هذه الأمة غير قادرة على امتلاك إرادتها.

ومن هنا كان من الضرورى العناية بالأجيال الجديدة وشخصية الشباب ضد التيارات المختلفة التى تستهدف احتواءه.

ومن هنا حاجة الشباب اليوم إلى تربية أسرية سليمة ودعاة حكماء يقدمون له المفاهيم الصحيحة لمهمته الحقيقية ولرسالة السماء التى يجب أن يعيش فى خدمة أهدافها.

وأن نحذره من أخطار التيارات الفكرية الوافدة المعادية ومن هنا يتقرر أن التربية فريضة اسلامية لكون الإسلام شريعة الله فى الأرض لتحقيق عبادته فتربية الطفل على أخلاق الإسلام حصن قوى ضد الغزو الفكرى الوافد.

ومن شأن هذا المحافظة على فطرة النشء ورعايته وتنمية مواهبه وقدراته وتوجيه هذه الفطرة والمواهب نحو الخير والإصلاح وأهم ما فى الأمر أن يتقرر تدريس الثقافة الإسلامية كمادة أساسية فى الجامعات والمدارس وتوجيه الأسرة الى القيام بواجبها نحو الشباب وتحصين الصغار من أخطار الفكر الوافد.

ولا ريب أن خلو المناهج الدراسية من الثقافة الإسلامية يخلق فراغاً خطيراً يؤدى إلى الإتجاه نحو مبادئ وفلسفات غربية دخيلة مما يجعل بلادنا خليه للصراع وميداناً للسباحة بين الثقافات والفلسفات شرقية وغربية.

ومن هذا يتحتم تشكيل المناهج الدراسية فى ضوء القيم الاسلامية بما تمليه العقيدة الصحيحة.

ولابد من ايجاد القدوة الحسنة التى يرى فيها الشباب مثلاً عالياً فى التعامل مع الناس والتعرف إلى الحلال والحرام.

❑ ❑ ❑

وأخطر ما يواجه الشباب المسلم :

١ ـ أدوات الترفيه والإعلام

٢ ـ الهوس الكروى

ولقد تطور الآداء فى وسائل الترفيه والإعلام تطوراً خطيراً وكشف عن محاولة هدم واسعة تتمثل فى المسلسلات ذات الأسلوب المنحرف والفكرة المسمومة وتقديم تجارب من الجريمة والجنس من أخطر ما يتلقاها الشباب وكان أثر ذلك واضحاً فى الأحداث والجرائم التى حدثت فى السنوات الأخيرة.

فضلاً عن الحلقات الأجنبية وما فيها من إباحة وسموم وقد كتب كثيرون عن هذا الخطر وحملوا التليفزيون مسئولية نشر الجريمة بين الشباب وقد امتد أمره وبطريقة غير مباشرة ليكون مرجعاً لمحترفى الإجرام من خلال الحلقات البوليسية التى تتفنن فى إخراج أساليب القتل والسرقة وإظهار اللص فى صورة البطل الأسطورى لدى الشباب بينما رجال البوليس هم حفنة من البلهاء وتحولت هذه الجرائم من الشاشة إلى الطبيعة من خلال الجرائم الغريبة على مجتمعنا، والتى نتابعها يومياً فهذه حالة سرقة مع اغتصاب وتشويه انتهى بالقتل وتلك حالة قتل جماعى لم يشهدها من قبل.

وجاء من يطلب من المربين تعليم أولاد المسلمين الرقص وفتحت مدارس لتعليم الفتيات الرقص والكشف عن الأجساد باسم الرياضة.

٢ ـ أما الهوس الكروى فقد كان خطيراً وبعيد الأثر فى افساد شخصية الشباب من خلال تضخيم إعلامى يصل إلى حد العبث وتفقد معه الكلمات دلالاتها.

لم تصبح كرة القدم رياضة وإنما أصبحت سباقا يشبه سباق الخيل ومكاتب الرهان على مباريات كرة القدم تحقق مكاسب ضخمة أصبحت أحدى وسائل المقامرة فى دول الغرب وأصبح اللاعبون أدوات هذه اللعبة.

وانتقلت العدوى إلى لاعبى العالم الثالث.

واتسع تيار الهوس الجارف الذى ينتظم جماهير الكرة وقد كتب أحدهم يقول : أرجح أن كرة القدم لها دور تخريبى بالغ فى شباب مصر وعدتها فى مستقبلها إذ إنها تلتهم التفكير فى حاضرهم المتدنى وغدهم القاتم المظلم فهى تصرفهم عن تدبير الوسائل الكفيلة برفع ما يقع عليهم من قمع وقهر وحرمان من أبسط الحقوق.

ففى عهد الرومان وتحت ظلم الحكم الجمهورى وعندما استعمل الحظر الجموع المتعطلة من سكان روما اقيمت لهم حفلات رياضية يشهدونها دون مقابل لتهدئة خواطرهم واستمرت حتى بلغ عدد المهرجانات الرياضية ١٧٥ يوماً فى السنة وذلك لشغل الجماهير عن واقعها المرير.

❑ ❑ ❑

ويجرى عملية تنشيط همم الشباب وتشكيكهم فى قدرة أمتهم الإسلامية على مسايرة الأمم حضارياً وعلمياً بالتشكيك فى التشريعات الإسلامية ومحاربة اللغة العربية وإثارة النزعات العرقية.

وهكذا تكاتفت المؤامرات لتدمير الشباب وتحوله إلى دمى من الإنحلال والفساد الخلقى.

واستمعت بعض الدول الإسلامية إلى نصائح الصهيونية والماسونية لتركيز الإنحلال والتدمير النفسى والجسمانى والخلقى تحقيقاً لرغبات القوى الكبرى المعادية ومن خلال المخدرات وشبكات الدعارة.

وعملت بعض القوى إلى استدراج بعض الشباب المنحرف لممارسة البغاء فى بعض أماكن اللهو والنوادى الليلية والفنادق الكبرى والأماكن السياحية.

ومن هنا فنحن فى حاجة إلى خطة محكمة تحقق مجموعة من الأهداف:

أولاً : القضاء على الفساد الخلقى والانحلال الاجتماعى المتفشى اليوم نتيجة عجز الشباب عن الزواج.

ثانيا : تربية الأبناء على المنهج الربانى والهدى النبوى وتنقية المناهج التعليمية والتركيز على تعليم أطفالنا القرآن الكريم وقواعد اللغة العربية وتركيز العقيدة والأخلاق من خلال القدوة الحسنة.

وتقديم عظماء التاريخ الإسلامى بوصفهم المثل الأعلى للبطولة الإسلامية، وفى مقدمة هؤلاء عمر بن الخطاب وعمر بن عبد العزيز وهارون الرشيد وعبد الرحمن الداخل والظاهر بيبرس وصلاح الدين ويوسف بن تاشفين ومحمد الفاتح .

الفصل الثامن
المرأة المسلمة
(هدية إلى ابنتى فائزة)

لما كانت المرأة المسلمة هى القذى الذى يملأ عيون النفوذ الغربى والجدار الصلب فى وجه غزوها للمجتمع الإسلامى والقوة القائمة دون مؤامرته الخطيرة فقد عمدت دعوات التغريب والغزو الثقافى والتبشير والاستشراق إلى تحطيم كيان المرأة المسلمة تحت اسم (تحرير المرأة) فى محاولة ضخمة خدعت أجيالاً من المسلمين ثم تكشفت بعد زيفها وآثارها الخطيره إذ كانت ترمى أساساً إلى إخراج المرأة المسلمة من رسالتها ومهمتها وافساد كيانها بالتحلل والسفور والخروج إلى ساحات الرقص والرحلات المشتركة بين الجنسين وبتغذيه فكرها بكتابات الجنس والإباحة فى قصص مكشوف ومسرحيات هابطة ومدارس للرقص والتحلل.

وهكذا بدأت التحديات الخطيرة فى وجه المرأة المسلمة تحاول أن تطوق المجتمع الإسلامى لاحتوائه وتدميره، إيماناً من هذه القوى بأن نقطة الخطر فى بناء المجتمع الإسلامى هى الأخلاق التى هى جزء من العقيدة فإذا أمكن ازالتها أو توهينها أمكن السيطرة على المجتمع من خلال المرأة فالأسرة، لذلك كانت عملية اغراء المرأة المسلمة لتحطيم قيم ومؤثرات الإسلام بشأن مهمتها الحقيقية ووجودها الصحيح من الأسلحة النافذة التى تمثلت فى أربعة أعمال خطرة.

(١) هدم القيم الأخلاقية.
(٢) افساد الأسرة.
(٣) تفريغ التعليم من الإسلام ومن تربية المرأة وفق مهمتها الحقيقية.
(٤) ضرب اللغة العربية.

وكانت مؤامرة تحرير المرأة من أبرز ما عمل له النفوذ الأجنبى بإزاحة الحجاب وإشاعة روح السفور وخلق طابع الاستهانة بالقيم الأخلاقية، ذلك لأن الإسلام فى الحقيقة هو الذى فتح للمرأة باب حريتها وامتلاك ارادتها بعد عصور الظلم

والظلمات ولكن ما كانت تطمح إليه القوى الغازية هو هدم الأسرة وافساد الأجيال ايماناً بأن هذا هو منطلق افساد المجتمع الاسلامى كله.

وقد شهد علماء الغرب على سبق الاسلام لتحرر المرأة تحريراً أصيلاً فأشار كثير من الباحثين (وفى مقدمتهم اكسافييه ارلو) السويسرى الجنسية فى رسالة إلى جريدة جنيف بين فيها : أن الإسلام سبق الغرب بحوالى ألف وثلاثمائة سنة فى الاعتراف بحقوق المرأة عندما منحها حق التملك وأعطاها حقوقاً مادية وسياسية لم تنلها من الغرب إلا أخيراً وبين أنه لا يوجد فى العالم تشريع سبق الإسلام فى تقرير تلك الحقوق مما جعلها حقيقة لا يمكن إنكارها فى الغرب.

وهناك فوارق عميقة فى قضية المرأة بين الفكر الإسلامى والفكر الغربى:

«فالمرأة فى الكفر المسيحى وتعاليمه مخلوق جذاب ولكنه مجرم وهى بطبيعتها خاطئة إلا عندما يحدث معها اتحاد روحى غامض يشبه اتحاد المسيح بكنيسته، هذا الاتحاد هو الذى يباركه الكاهن بينما يرسى الإسلام قواعد العدل الكامل بين الرجل والمرأة. تؤسس المسيحية قواعد تدنى وضع المرأة إذ يقول القديس بولس : إن حواء أكلت أولا من الفاكهة المحرمة ثم أعطتها لآدم بعد ذلك وهكذا لم ينخدع الرجل بينما انخدعت المرأة ووقعت فى الخطيئة والمعصية».

وتأسيسا على هذا الاعتقاد تنظر المسيحية إلى الزواج باعتباره سراً كهنوتياً من أسرار العقيدة والعلاقة الزوجية عندهم تتم من خلال التوحد النفسى والروحى بحيث يصبحان شخصاً واحداً بمباركة الكنيسة والرب.

أما الإسلام فإنه لا يحيط الزواج بهذا النوع من السرية والتقديس لأن تصور الزواج فى الإسلام نابع من اعتبار المرأة نصف المجتمع لها انسانيتها وفاعليتها وأثرها وتأثيرها ولذا كان الربط بين الزوجين هو الميثاق ولا يوجد فى الإسلام شئ اسمه اتحاد روحى بين شخصين وفى مواجهة هذا المفهوم الإسلامى المستقر نجد أن الغرب يروج فكرة الحب المشوه للمرأة التى يكتشفها بعد أن يجرب أكثر من امرأة واحدة ويصدر هذا الحب على أنه هدف الإنسان على الأرض حيث يتحقق الاتحاد الروحى

كهدف نهائى للحياة فرغم مظاهر الحرية المزيفة التى يصر عليها الغرب نجد أن المرأة عندهم تفتقد الإيمان والإطمئنان وهى ضائعة ومهزومة من الداخل.

ولا يكتفى الإسلام بالحث على الزواج واحترام المرأة وصون الحياة الزوجية بل يقف موقفاً حاسماً فى مجال توجيه الإنسان إلى تعميق النظرة للعناصر الأساسية فى العلاقة بين الزوجين.

وذلك بالتأكيد على الجوانب الدائمة التى تمتلك الاستقرار والثبات واستبعاد الأمور الطارئة التى تعيش فى إطار زمان معين أو حالة معينة، إلى جانب ذلك فإن الإسلام بتكامله ورؤيته الواضحة للحياة وأهدافها وتنظيم جوانبها يسمح للمرأة بكل تصرف فى إطار واحد هو أن تكون المرأة انسانة كاملة لا تهدر كرامتها.

أما المبادئ الحديثة فتجند للمرأة كل شئ بهدف تسويقها فالتعرى جائز وبيع الجسد مباح.

والواقع أن الأفكار الغربية عن تحرير المرأة ليست مستمدة من التعاليم المسيحية بل هى أفكار سربتها العلمانية لكسر طوق الصراحة التى تتسم بها تعاليم القديس بولس وقد امتزجت تلك المفاهيم بالتعاليم المسيحية بصورة يصعب فصلها عن بعضها ومن جانب آخر فإن كثيراً من التعاليم التى يدعى المسيحيون أنها إلهية هى فى حقيقتها مستمدة من معتقدات أخرى مثل الهندوكية والبوذية أو لها علاقة واضحة بهذه المعتقدات الوثنية ومن ذلك أنه ليس فى الانجيل قول صريح بتحريم تعدد الزوجات ووجوب الاقتصار على زوجة واحدة وقد بدأت تتسرب مفاهيم المسيحية واليهودية إلى البلاد الإسلامية من خلال التعديلات المتعاقبة لقوانين الأسرة والأحوال الشخصية فيما ينشد فيه المنادون بالتعديلات ويسمونها اصلاحات محايدة فى ضوء الفكر التقدمى والغربى الوافد بدعوى انصاف المرأة وكأن الإسلام لم يعطها حقها ولم ينصفها.

❑ ❑ ❑

لقد كان من أثر دخول الاستعمار الغربى إلى المجتمع الإسلامى تلك المحاولات التى عمدت إلى « تزييف مفهوم الإسلام » وقد تمثل ذلك فى عدة قذائف أطلقها الاستعمار بواسطة أعوانه كان أولها كتاب (المرأة فى الشرق) بقلم مرقص فهمى ١٨٩٤ أى بعد الإحتلال بسنوات قلائل دعا فيه لأول مرة إلى خمسة أهداف :

(١) القضاء على الحجاب.

(٢) إباحة الإختلاط.

(٣) تغيير الطلاق.

(٤) منع الزواج بأكثر من واحدة.

(٥) وهو أخطرها ، إباحة الزواج بين المسلمة وغير المسلم.

وقد أصبح هذا الكتاب قاعدة العمل لكل قوى التغريب التى عملت على تدمير مفهوم الإسلام فى مجال المرأة والأسرة.

ثم جاء قاسم أمين بكتابه الذى فتح طريقاً أمام الغزوة الشرسة تحت اسم (تحرير المرأة) وإن كان قد جاء من خلال (مناورة واسعة وكان قرباناً لرواد صالون (نازلى هانم فاضل) الذى كانت ترسم منه خطط احتواء مصر والإسلام وكان أبرز قادته ورجاله الشيخ محمد عبده وسعد زغلول وقاسم أمين والمويلحى.

❑ ❑ ❑

بطلا تحرير المرأة قاسم أمين وسعد زغلول:

تقول السيدة صافى ناز كاظم : لقد احتضن حزب الأمة دعوة قاسم أمين إلى تحرير المرأة : (الحزب الذى أوعز المستعمرون لتكوينه ليقف فى وجه الدعوة إلى الاستقلال واستئناف الدعاية لها على أوسع نطاق وأنشأوا مجلة السفور لمعاونة زعماء حزب الأمة :

(الهلباوى، جلاد دنشواى، فتحى زغلول رئيس المحكمة المخصوصة التى حكمت بجلد وشنق شهداء دنشواى) وشقيق سعد زغلول وكان تأييد الشيخ محمد عبده

لقاسم أمين واضحاً فقد تردد محمد عبده على صالون الأميرة نازلى فاضل وكان قد اشترك فى دعم دعوة قاسم أمين بالآراء الفقهية التى أوردها فى كتابه.

قال الشيخ مصطفى صبرى شيخ الإسلام فى الدولة العثمانية: دولة الخلافة : أما النهضة الإصلاحية المنسوبة إلى الشيخ محمد عبده فخلاصتها إنه زعزع الأزهر عن جموده على الدين فقرب كثيراً من الأزهريين اللادينيين خطوات ولم يقرب اللادينيين إلى الدين خطوة واحدة كما أنه هو الذى شجع قاسم أمين على ترويج السفور فى مصر .

ص ١٣٣٤/١٣٣/٢٢١ (الجزء الأول من كتاب موقف العقل والعلم من رب العالمين) .

وكان من مضار الشيخ بالإسلام وعلمائه الناشئة بعده أن حملة الأقلام المنحرفين عن الثقافة الإسلامية كما أكبرو الشيخ وآراءه الشاذة أوجدوا له من السمعة الطيبة السامية ما لا يزال طنينه على آذان الشرق الإسلامى.

« ولم تكن تحرير المرأة وسفورها واختلاطها دعوة انجليزية بل دعوة ماسونية يهودية، وقد ظلت محصورة فى نطاق ضيق حتى مظاهرات ثورة ١٩١٩ فالنساء كن يخرجن محجبات وذلك دليل على أن الحجاب لم يحل بين المرأة المسلمة وبين القيام بأخطر الواجبات إلى أن عاد سعد صديق قاسم أمين الحميم من منفاه، حيث أقيم سرادق كبير أمام بيت الأمة وبه مكان خاص للسيدات به ٥٠٠ سيدة من المحجبات بالبراقع البيضاء.

قال صالح الفيومى المحامى الشرعى الذى شاهد الاحتفال : خطب أمام سعد ترحيباً بمقدمه ثلاثة : مطربش لا أذكر اسمه ومعمم هو الشيخ محمد الخضرى وكيل مدرسة القضاء الشرعى وسيده محجبة ترتدى الميرة والبرقع الأبيض وكان عاطف بركات ناظر القضاء الشرعى يقدم كل خطيب عقب نزوله من المنصة ويعرفه باسمه فلما انتهت السيدة المحجبة من خطابها قدمها عاطف إلى سعد زغلول

فقام لها وسلم عليها ثم مد يده فجأة إلى نقابها فنزعه وهو يقول لها :

آما آن لهذه الخرقة أن تبلى وألقى بها إلى الأرض وقوبلت هذه الحركة بتصفيق حار من كثيرين واندفع بعض الشباب إلى المكان المخصص للسيدات فأرغموهن على نزع النقاب وانتهى ذلك الاجتماع بخروج ٥٠٠ من السافرات إلى الشوارع والطرقات ولم تمض أيام على ذلك الحدث حتى كان سعد يخطب فى وفد من السيدات السافرات واعترف بأنه شارك منذ أمد بعيد قاسماً فى أفكاره التى ضمها كتابه الذى أهداه إليه (المرأة الجديدة) هذه الثغرة التى فتحها قاسم أمين وقادها أنصار الماسونية وأذناب الاحتلال من رجال السياسة والدين بالتخريب والتدمير (والمعروف أن سعد زغلول كان من زعماء الماسونية فى مصر (اقرأ كتاب (قراءة اسلامية لتاريخنا الحديث) .

❑ ❑ ❑

وتقول السيدة صافى ناز كاظم

كان قاسم أمين ممن أسهموا بجدارة فى التواء النهضة المصرية عن انبعاثها العربى الإسلامى لتكون نهضة ثقافية اجتماعية صورية مستهلكة لانتاج مصانع الفكر الغربى ونافذة عرض دعائى له تدعو بحماس وترقرق معه الدموع أحيانا لتقليد رجال ونساء ونظام معيشه.

يقول قاسم أمين فى كتابه المرأة الجديدة (فى هذ الطور) :

« نحن لا نستغرب أن المدنية الإسلامية أخطأت فى فهم طبيعة المرأة وتقدير شأنها فليس خطؤها فى ذلك أكبر من خطئها فى كثير من الأمور الأخرى، ثم يقول :

الذى آراه أن تحركنا بالماضى إلى هذا الحد هو من الأهواء التى يجب أن ننهض جميعاً لمحاربتها لأنه ميل إلى التدنى والتقهقر وهذا هو الداء الذى يلتزم أن نبادر إلى علاجه وليس له دواء إلا أننا نربى أولادنا على أن يعرفوا شئون المدنية الغربية ويقفوا على أصولها وفروعها وآثارها.

إذا أتى هذا الحين وأرجوا ألا يكون بعيداً انجلت الحقيقة أمام أعيننا ساطعة سطوع الشمس وعرفنا قيم التمدن الغربى وتيقنا أنه من المستحيل أن يتم إصلاح ما فى أحوالنا إذا لم يكن مؤسساً على العلوم العصرية الحديثة » هذا هو التحول الخطر الذى حدث وبعد أن دافع قاسم أمين عن حجاب المرأة المسلمة فى كتابه الأول (المصريون) وحدثت مؤثرات من الأميرة نازلى فاضل على قاسم أمين مما أدى إلى حدوث متغيرات فى فكر قاسم أمين وظهر كتابه (تحرير المرأة) حيث يناقض المؤلف نفسه ويفترض أن المرأة مستعبدة ومقيدة ولهذا فهى تحتاج إلى الحرية التى تحطم بها هذه الأغلال وكان هذا الكتاب نوعاً من الاعتذار للأميرة نازلى الذى أغضبها كتابه الأول وقبلت الأميرة الاعتذار ودفع قاسم أمين الثمن غالياً فأخذ يتجنى على الحقائق ويحاول أن يلوى عنقها حتى خرج كتابه (تحرير المرأة) .

لقد غير أفكاره القديمة ورأى أن الارتباط بالمدنية الإسلامية يمثل الجهل والكسل والإنحطاط واتجه إلى حجاب المرأة المسلمة وأخذ يحاول أن يدلل على أنه ليس من الإسلام وأن الدعوة الى السفور ليس فيها خروج عن الإسلام الصحيح، وكذلك موقفه من اشتغال المرأة بالشئون العامة وتعدد الزوجات والطلاق وقال أن رأيه ليس بدعة فى الإسلام ولكن فى العوائد وطرق المعاملة التى يحمد طلب الكمال فيها.

ومن أخطر ما يقول: ان الشريعة ليس فيها نص يوجب الحجاب على الطريقة المعهودة وإنما هى عادة عرضت للمسلمين من مخالطة الأمم فاستحسنوها وأخذوا بها وألبسوها لباس الدين وقال أن الحجاب هو تشريع خاص بنساء النبى ﷺ.

مهمة المرأة الحقيقية

توالت خطوات تحرير المرأة بعد أن رفع سعد زغلول الحجاب عن وجه المرأة المسلمة وأخذت مؤتمرات أوروبا التى يعقدها دعاة الماسونية واليهودية تدعو بعض المتصدرات فى مصر أمثال هدى شعراوى وسيزا نبراوى وتوالت الخطوات فأقيم الاتحاد النسائى وحزب بنت النيل وامتدت المعركة إلى أربعة ميادين :

(١) ميدان المرأة (٢) ميدان الزى (٣) ميدان التعليم (٤) ميدان الأدب واللغة.

وتصدى كثير من الباحثين لهذه المحاولة، وكشفوا عن فساد وجهتها وعن أنها مؤامرة تراد بالمرأة المسلمة، ورد على قاسم أمين رجلان من أهم رجال العصر : فريد وجدى، وطلعت حرب، فى كتابين مهمين وكان من أبرز الشعر الذى قيل ما قاله أحمد محرم:

أعزك يا اسماء ما ظن قاسم ... أقيمى وراء الخدر فالمرء واهم
تضيقين ذرعاً بالحجاب وما به ... سوى ما جنت تلك الرؤى والمزاعم
سلام على الأخلاق فى الشرق كله ... أذا ما استبيحت فى الحدود الكرائم

وقد آزر هذه الخطوات كتابات المستشرقين وأتباعهم من دعاة التغريب فى محاولة للادعاء بأن الإسلام لم يقدم للمرأ ة شيئاً ذا بال، واتخذ من ذلك وسيلة للرد على من يزعمون أن الإسلام قد رفع منزلة المرأة الأخلاقية.

وكان فى مقدمة هولاء (نيكلسون) الذى كتب عن المرأة العربية فى كتابه (تاريخ الأدب العربى فى العصر الجاهلى) فرفع المرأة الجاهلية إلى مكانة أعلى وأسمى مما تعرف، وتجاهل كيف صحح الإسلام موقفها بعد أن أزرى بها الرجل وحرمها كل حقوقها.

(٢) كما أنه تجاهل ماكان فى الجاهلية من شرور حاقت بالمرأة، وقد جاء الإسلام لإبطالها فقد كان العرب فى الجاهلية يئدون البنات فحرم الإسلام ذلك الجرم الهائل وندد به أكبر تنديد .

(٣) وكان العرب فى الجاهلية لا يورثون النساء ولا الصبيان وحصروا الميراث فى الرجال حتى جاء الإسلام فأقرّ لها الميراث وجعل أنصبة للزوجة والبنت والولد والأبوين، وكان الجاهليون يرثون النساء كرهاً بأن يجئ الوارث فيلقى ثوبه على زوجة موروثة فأنكر الإسلام أن ترث النساء كرهاً، وكان العرب يعضلون النساء فيمتنعن عن الزواج من بعض القبائل، وكان الزوج إذا كره زوجته يسئ عشرتها حتى تموت كمداً أوتفتدى نفسها بالتنازل عن كل ما أخذت منه.

فجاءت الشريعة الإسلامية فنظرت بعين الرحمةوالرأفة إلى ضعف المرأة الطبيعى وتميز الرجل عليها بالقوة والقدرة على العمل، فأقر لها حقها فى المعيشة والنفقة والقيام بحاجاتها الشخصية ولم يكلفها عمل شئ حتى ارضاع ولدها والزمت الزوج صداقاً يؤديه قبل البناء بها إلا إذا اتفقا على تأجيله.

وجعل الزوجة المسلمة لا تفقد شخصيتها باقترانها بل تظل متمتعة بجميع الحقوق، وسوى الإسلام بين الرجل والمرأة فى المعاملات المالية وطلب العلم».

❑ ❑ ❑

ولقد توالت كتابات بعض المبشرين تحاول أن تخدع المرأة المسلمة عن حقيقة عطاء الإسلام لها وذلك حين أحس المتآمرون أن مؤامراتهم قد كشفت كأن يقول القس (فلان)..

إن المرأة المسلمة دائماً مهانة..

وهذه مغالطة كاذبة، فالإسلام هو الدين الذى كرم المرأة كما لم تفعل أى ديانة أخرى، يجب علينا نحن المسلمين أن نصحح فكرة الغرب عن الإسلام فالإسلام فى نظر كثير من الأوروبيين هو تعدد الزوجات وتبعية المرأة الكاملة للرجل ولم يعرف هؤلاء أن المرأة فى الإسلام تنعم بحقوق لم تنلها المرأة الأوروبية أبداً.

كذلك فقد زيف العلمانيون الحقيقة أمام المرأة: حاولوا إخراج المرأة من البيت وجعلوا حقوق الزوج والأبناء استثناء، وتلك مخاطرة خطرة، ففى حديث رسول الله ﷺ: «نساء قريش خير نساء ركبن الإبل أحناهن على طفل وأرعاهن لبعل ذات يد».

إن المسئولية الأولى للمرأة هى بيتها ولكن الدعاية المضللة تزين خروج المرأة من دائرة الأسرة إلى دائرة العمل بغير تحديد لواجباتها الأصلية وهى حق الأسرة فى تربية الطفل ورعاية الزوج وتدبير شئون المنزل.

❑ ❑ ❑

إن « مهمة المرأة » فى هذه الحياة هى الهدف الأول من تعليمها ومن حركة الحياة. إن الأمان المفقود داخل الأسرة المسلمة فى هذا العصر يتركز فى خروج المرأة للعمل، فهو السبب الرئيسى للتفكك الأسرى.

تقول الدكتورة انشراح الشال : إن عمل الأمهات قد أوجد جيلاً ضائعاً مضطرباً متوتراً يعرف باسم (أولاد المفاتيح) حيث إن لكل فرد فى الأسرة مفتاحاً خاصاً لدخول الشقة أو الخروج مع غياب الوالدين فى العمل الأمر الذى يؤدى إلى حالة تمزق تامة بين أفراد الأسرة.

ففى الوقت الذى يحتاج الطفل والشاب والفتاة فيه إلى من يسمع لهم ولمشاكلهم ومشاعرهم نجد أن الأب والأم مشغولان بأمور الوظيفة خارج البيت الذى أدى إلى افتقاد الأمان فى الأسرة، ومن ثم فإن تفكك الأسرة أدى إلى زيادة الجرائم الأسرية وقد جاء الانحراف نتيجة الفراغ وانشغال الآباء والأمهات بمشاكلهم الخاصة وعدم وجود كبير له سلطة السيطرة والتوجيه بالأسرة وانعدام القيم الدينية التى أدت إلى تفكك الأسرة.

وقد أدت عمالة المرأة إلى حدوث سلبيات عديدة فاقت الإيجابيات، حيث أدت إلى تغيرات كثيرة فى الأسرة وعلى العلاقات الزوجية وعلى تنشئة الأطفال تنشئة اجتماعية صحيحة، وكان لاستقلال المرأة الاقتصادى أثره فى فرض رأيها على الأسرة.

❑ ❑ ❑

كما أدى عمل المرأة إلى انصرافها عن مشاكل الأسرة.

ويرمى إقرار مفهوم الإسلام إلى الوصول إلى حقيقة أساسية وهى اختلاف مهمة المرأة عن مهمة الرجل، وأن محاولة المرأة اقتحام مجال الرجل لن تحقق إلا مزيدا من الاضطراب.

وإذا كان القرآن الكريم قد أعلن عن اختلاف مسئولية الرجل عن مسئولية المرأة من أربعة وعشرين قرناً وأن مصدر ذلك هو اختلاف تكوين الرجل الجسمانى والعقلى عن تكوين المرأة، ومهما حاولت دعوات الإباحيين والعلمانيين التشكيك فى ذلك فإن العلم الحديث نفسه قد أقر هذه الحقيقة وقرر العلماء أن ملايين الملايين من الخلايا توضح : تلك الحقيقة الفاصلة بين الجنسين:

(خلايا الجلد ـ خلايا الشعر ـ خلايا الفم، خلايا الدم ـ حتى خلايا المخ والعظام تنبض بالحقيقة التى يريد بعض الناس اليوم تجاهلها وادعاء مساواة الجنسين، وهم بذلك يصادمون الفطرة فى كل خلية من خلايا الجسم الإنسانى وفى كل ذرة من ذرات تكوينه وفى هرموناته المختلفة بين الذكورة والأنوثه فى تشريحه الجسمانى المختلف ليس فى الجهاز التناسلى فحسب بل فى تكوين العظام وهيئتها وتكون العضلات والأوتار وشدتها، ثم ترتفع الفروق من الجسم إلى النفس ومن الخلية إلى السلوك ومن العظم إلى الفكر ومن الجلد إلى المنزع والرغبة والتوجه، وهكذا.

تفضح الكرموسات دعوى التماثل بين الرجل والمرأة، وقد اكتشف العلماء الأمريكيون أدلة قوية حول وجود اختلافات بيولوجية بين قلب الرجل وقلب المرأة حتى فى أسلوب الإصابة وتطور أمراض القلب، ولاحظ العلماء من خلال أبحاثهم أن أمراض القلب تصيب الرجل عادة فى الأربعين بينما تصاب بها السيدات فى سن الستين، كما توصل العلماء إلى دليل آخر، وأن وجود كميات كبيرة من الدهون تكشف عن إصابة قلب المرأة بالمرض حتى لو لم يصاحبها نسبة عالية من الكوليسترول وهذا الأمر لا يحدث للرجال.

وقال العلماء أن هناك اختلافات فى الكيمياء العضوية ومسام الأوعية الدموية بين الرجل والمرأة »

هذه الاختلافات التى كشف عنها العلم التجريبى تصادق منطق الإسلام فى اختلاف مهمة المرأة عن مهمة الرجل فى الحياة.

وكيف أنه من الخطأ البين أن تعمل المرأة عملاً أو أعمالاً تتعارض مع تركيبها الفسيولوجى والعقلى والروحى.

وأن هذا التركيب الربانى العجيب قد جاء أساساً لحمل مسئولية أساسية هى مسئولية المرأة الأولى وهى بناء الأسرة ورعاية الطفل والمنزل.

❑ ❑ ❑

ويجيء بعد ذلك « حق القوامة فى الشريعة الإسلامية »

وهى من أسس العلاقة بين الرجل والمرأة .

تقول السيدة سعاد إبراهيم صالح : نقصد بالقوامة الدرجة التى منحها الله للرجل على المرأة وذلك فى قوله تعالى:

﴿ **وللرجال عليهن درجة** ﴾وذلك بعد أن سوى بينهما فى الحقوق والواجبات ﴿ **ولهن مثل الذى عليهن بالمعروف** ﴾ وذلك فى قوله تعالى :

﴿ **الرجال قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض وبما أنفقوا من أموالهم** ﴾

فهى ليست استبدادا وتحكما من الرجل، وليست ظلما للمرأة ولا هضما لحقوقها، ذلك أن الإسلام كفل للمرأة من الحقوق مالم يكفله لها أى تشريع آخر، وقرر لها أهليتها الاقتصادية، وجعلها فيها صنو الرجل وقرر لها أهميتها الاجتماعية كما قرر لها أهليتها للعبادة والتكاليف الشرعية، وقد جعل ذلك إقراراً لحقيقة (إنسانية المرأة) .

فالمرأة أخت الرجل إذ تنسب وإياه إلى أب واحد وأم واحدة وهى إنسانة مثله مساوية له فى الإنسانية.

إن جمهور العلماء والمفسرين متفقون على أن كل ما جاء فى القرآن من خطاب

موجه إلى المؤمنين والمؤمنات، وفى مساواة المرأة بالرجل فى الحدود ﴿ **والسارق والسارقة** ﴾ و ﴿ **والزانية والزانى** ﴾ وقوله تعالى : ﴿ **قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم ويحفظوا فروجهم ذلك أزكى لهم إن الله خبير بما يصنعون*وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن** ﴾ (الآية)

كذلك المساواة بينهما فى الأجر والثواب ونتائج الأعمال ﴿ **إن المسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات** ﴾ (الآية)

وأن يقبل حكم الله تبارك وتعالى : ﴿ **وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمرا أن يكون لهم الخيرة من أمرهم** ﴾.

وقد رفع الله تبارك وتعالى عن المرأة أحكاماً خاصة بالتكافل خص بها الرجال :

وأقر الله عاطفة المرأة وعقل المرأة.

فالمرأة تغلب عاطفتها على تصرفاتها، وقرر الإسلام قاعدة قويمة لميزان التفرقة بين الرجل والمرأة فى بعض التكاليف وتوزيع الأعمال:

﴿ **ولا تتمنوا ما فضل الله به بعضكم على بعض للرجال نصيب مما اكتسبوا وللنساء نصيب مما اكتسبن** ﴾.

وجعل الإسلام قوامة الأزواج على زوجاتهم فى الحياة الزوجية ليست مطلقة ولكنها مقيدة بحسن المعاشرة والرعاية والمودة والوفاء والأمانة.

والقوامة هى الدرجة التى رفع الله (تبارك وتعالى) بها الرجل عن المرأة بعد أن سوى بينهما فى الحقوق والواجبات ومعناه ﴿**ولهن مثل الذى عليهن بالمعروف** ﴾ أى الحقوق بينهما متبادله وأنهما أكفاء.

❑ ❑ ❑

ولقد رسم بعض الباحثين قواعد مفهوم التحرر عند المرأة فى الإسلام على هذا النحو :

أولا : إن الإسلام مكن للمرأة من أن تتحرر تحرراً كاملاً باعتبارها عضواً إنسانياً فعالاً.

ثانيا : أن هذا التحرر لا يتحقق إلا بالاستناد إلى معيار الإيمان، وهو معيار تحرر الرجل نفسه، وذلك لأن الإيمان الواعى يكسبها القوة التى تتحدى أى مواجهة.

ثالثاً : أن التحرر لم يكن مجرد انتفاضة فورية وإنما يكون نتيجة حتمية لخلفية تربوية جادة تشمل الرجل كما تشمل المرأة .

إن المعيار الإسلامى بإمكانه أن يرجح كفة امرأة على كفة رجل دون أن يفقد أحدهما خصائصه الذاتية ودون أن يتقمص أحدهما شخصية الآخر.

وهناك فارق بعيد بين مفهوم التحرر فى الإسلام ومفهوم التحرر الفردى الوافد، هذه الحركة التى لم تكن خالصة للحق والتى وصل فساد منطلقها إلى حد أن المرأة أخذت تطالب بالعمل بمبدأ حرية الجنس، وكان هذا المطلب الذى كان معمولاً به فى التشريعات القديمة، وهو الذى جعل المرأة من سقط المتاع وعدها بهيمة من البهائم وهو لا يعنى التحرر وإنما يعنى العودة إلى التشريعات الهمجية التى سادت المجتمعات البدائية.

(محمد التونى)

❑ ❑ ❑

إشاعة الفاحشة

تطورت حركة الغزو الثقافى لقضية المرأة تطوراً خطيراً فى العقود الأخيرة، وخاصة بعد اتساع نطاق المناهج الماركسية والشيوعية وتمكنها من امتلاك منابر الصحافة والمسرح والإعلام على نحوحقق كثيراً من المكاسب فى مجال مقاومة ايجابيات اليقظة الإسلامية التى كشفت كثيراً من أكاذيب دعوى تحرير المرأة، وقد أعان على اتساع نطاق الخطر ما قدمه الفن والمسرح والمسلسلات من مفاهيم وحوارات كان لها أبعد الأثر على الفتيات اللائى نشأن فى بيئات ضعيفة الإيمان حتى ظهرت تلك الظواهر الخطيرة من أمثال تلك التى سألت (اين الله) وتداول كتب الإلحاد وقصص الإباحة.

ولقد كان لترجمة فلسفات الوجودية وقصص سارتر وسيمون دى بوفوار وكامى أثرها الخطير فى إشاعة الفاحشة، وقد جرى كتاب القصة فى مصر والبلاد العربية فى تطور سريع إلى هذا المجال سواء فى القصة (إحسان عبد القدوس ويوسف السباعى) أو فى الشعر الحر (صلاح عبد الصبور ودنقل....).

وقد حملت القصص والقصائد عبارات الاستهانة والاحتقار لقيم المجتمع، وقد تحقق بذلك ما طلبته البروتوكولات حتى تقول :

« يجب أن نعمل لتنهار الأخلاق فى كل مكان فتسهل سيطرتنا، إن فرويد منا وسنظل نعرض العلاقات الجنسية فى ضوء الشمس لكى لا يبقى فى نظر الشباب شئ مقدس ويصبح همه الأكبر إرواء غرائزه الجنسية وعندئذ تنهار أخلاقه ».

وقال أحد أقطاب المستعمرين : «كاس وغانية تعملان على تحطيم الأمة الإسلامية أكثر مما يعمله ألف مدفع فأغرقوها فى حب المادة، ويراد من المرأة أن تكون منطلق شهوات البطل فى تكوين الأسرة ونواة المجتمع البشرى ».



وهكذا تطورت قضية المرأة على نحو غير طبيعى نتيجة دوافع دخيلة وافدة تحاول أن تفرض نفسها على المجتمع الذى يتوجه نحو الإسلام بخطى واسعة حيث يجد أصحاب النفوذ الوافد والغريب فى عدد من المتصدرات أداة طيعة لحملة جديدة حيث يقال : إن الرجل سيطر على المرأة فى الماضى وأنه يحاول ويحارب لاستمرار هذه السيطرة فى الحاضر، وأنه لابد للمرأة إذا أرادت أن تتحرر من هذه السيطرة أن ترد للرجل الصاع صاعين، وأن تسيطر عليه وتستعبده، وهى عبارة الدكتورة نوال السعداوى فى أولى صفحات كتابها عن المرأة بالسؤال الاستفزازى ما هو السبب التاريخى الأول الذى جعل الرجل مسيطراً على المرأة، وهل عرف التاريخ البشرى عصراً لم يسيطر فيه الرجل على المرأة، وهل سيطرة الرجل على المرأة حقيقة قديمة منذ الأزل أم حادث عارض له سبب اجتماعى وبيولوجى.

ويتنكر الذين يسوقون هذه الدعاوى للحقائق الطبيعية والبيولوجية التى طالما أشار إليها الأطباء والعلماء عن الفوارق الدقيقة والعميقة والجذرية بين الرجل والمرأة وبين تركيب المرأة وتركيب الرجل وفقاً لمهمة كل منهما.

بل إنهم يذهبون أحياناً إلى تقحم التاريخ وينسون أن الإسلام هو الذى أعطى المرأة حقوق حريتها، وأن الرجل هو الذى قام بهذا العمل برضاه دون أن يفرض عليه.

وبالرغم من الشبهات المتعددة التى تكشف عن المخطط الكامن وراء هذه الأهواء المندفعة، وتشجيع بعض كبار الصحفيين أمثال مصطفى أمين وجماعته الذين يفتحون أبواب الصحف التى يشرفون عليها لمثل هذه الدعوات المريضة فإن كل ما يقال من دعاوى لا يثبت أمام الحقائق التى جاءت بها الأديان ولا أمام وقائع التاريخ.

ولا ريب أن المحافل الماسونية فى الغرب قد عملت منذ زمن بعيد على استقطاب بعض المتصدرات فى مجال المرأة فضلاً عن المؤتمرات الدولية المشبوهة.

فإذا قيل فى مؤتمر ما : لماذا انخفضت قيمة المرأة عن الرجل فى الأديان، قلنا إن الإسلام قد أعلن صراحة عن حقوق المرأة وأن ما نسب إلى بعض الأديان أو بعض الكتب لا يتفق مع سياق القرآن الكريم الذى تحدث عن الأديان السابقة.

لقد وضعت أمثال سيمون دى بوفوار وغيرها منذ وقت بعيد تلك الخطوات التى يجرى عليها اليوم كاتباتنا من مؤلفة ترويض الرجل إلى (أريد حلاً) .إنهم يرددون تلك السموم الناقعات التى أثارتها سيمون دى بوفوار عشيقة سارتر والتى أعلنت فى القاهرة أنها تهدف إلى كسر (قوامة الرجل) ومعانى أخرى أريد بها تدمير قيم الإسلام مما دخل إلى نفوس بعض فتياتنا ومازال تعمل عملها من خلال تاريخ أسود امتد أكثر من خمسين عاماً من هدى شعراوى إلى سيزانبراوى إلى نوال السعداوى...

إن سيمون دى بوفوار عندما زارت مصر والبلاد العربية كانت تسعى إلى غاية واحدة أن تقنع المرأة المسلمة بقبول العلاقة غير الشرعية أى أن تقبل المرأة المسلمة أن تعيش مع رجل دون عقد شرعى، حياة الزنا والفاحشة تحت اسم حرية العلاقة وعلى سبيل التجربة، علاقة تقوم على شبه من الدعارة تحت خداع الشيطان باسم تجديد اللذة واستمرار العلاقة: علاقة الزناة والفاحشين، إنها محاولة لنقل صورة جريمة الجنس من الغرب إلى بلاد الإسلام لإفساد الحياة الاجتماعية وتدميرها.

وتلك قضية من أخطر القضايا التى حمل لواءها كتاب التغريب الذين يدفعون المجتمع فى جرأة إلى تمزيق القيم والأخلاقيات ويدفعون المرأة إلى أن تخرج إلى المراقص والصالونات وإلى حياة الحرية والانطلاق وهم رجعيون فى بيوتهم لم يتقدموا يوماً واحداً بالمثل لما يدعون إليه، بل إن بيوتهم لم يدخلها أحد وزوجاتهم لم يظهرن فى صور وعمل مكشوف أو سهرة واضحة فلماذا لا يطبقون مايدعون إليه على أنفسهم فى بيوتهم إذا كانوا مؤمنين به حقيقة، وإذا كانوا لا يرضونه لأهليهم فلماذا يرضونه للناس، ولماذا يغشون الناس بدعوتهم إلى الشر ويجرءونهم على الفساد وهم من ناحية أخرى يحافظون على بيوتهم من أن تقع فى الشر والفساد.

❑ ❑ ❑

ولقد كان من أثر ذلك كله أن يرسم الكتاب والقصاصون هذه الصورة المفزعة فقد حاول كبيرهم (إحسان عبد القدوس) أن يعتبر هذه الانحرافات فى المجتمع والتى تتصل بطبيعة معينة على أنها ظاهرة اجتماعية تحول المجتمع إليها، فجاءت

قصصه وقصص جيله تجرد المرأة من ملابسها وتلقيها عارية على السرير تحت الضوء وجعلوها أداة متعة ومن هنا نشأ ما يسمى (أدب الفراش) .

وجاء من يقول أن معظم الأدباء يحتقرون المرأة لدرجة أنهم جعلوها على هامش حياة الرجل وتفرغوا لتصوير الأحاسيس الشاذة للمرأة أو التعبير عن نساء الليل أمثال المازنى، العقاد ، توفيق الحكيم، نجيب محفوظ ، كلهم كتبوا عن المرأة الشاذة.

ولهذا الكلام إجابتان :

الأولى : أن القصة تصوير للجوانب المثيرة وأنه ليس عملاً أصيلاً.

الثانية : أن المرأة العربية فى هذه المرحلة قد خرجت عن الاسلوب الحقيقى للمرأة المسلمة ولذلك فإن هذه الصورة ليست غريبة.

لقد عبر (إحسان عبد القدوس) عن قطاع معين من الفتيات ولا نستطيع أن نقول إن كل الفتيات مشاكلهن هى نفس مشاكل فتيات إحسان.

ولقدكانت كتابات بعض القصاصات عن المرأة أسوأ مما كتب إحسان عبد القدوس : مثلاً جاذبية صدقى ، ولقد كان أدب الفراش ، من بين دعائم المخطط الذى يراد به تدمير المرأة المسلمة والأسرة المسلمة.

لقد باعوا لنا فكرة أن التربية المتحررة وعدم التزمت وأطلاق الحريات الفردية فى كل شئون الحياة هو الحل الوحيد والعلمى لمحاربة الفساد والانحلال وهو الطريق الطبيعى لإنتاج المواطن الصالح الذى لا يعانى من الاضطرابات النفسية التى يخلقها الكبت.

هذه المقولة باطلة فهى مقولة الماسونية وبروتوكولات صهيون وهى جزء من المخطط الذى يراد إقناع الأباء به حتى أن طه حسين أعلن أكثر من مرة فى أكثر من حديث أنه يدع لأبنائه حرية التصرف والاختيار وهى مقولة فرويد.

وينسى قومنا أن مجتمعنا مثل مجتمع الدانمرك والسويد عندما وصل فى الحرية الجنسية إلى أقصاها ظهرت إحصاءات مختلفة توضح ازدياد نسبة الانتحار وتفكك الروابط الأسرية .

وتتحدث الدكتورة سهير القلماوى عن المرأة فى الرواية فتقول: « إن معظم أدبائنا أجبروا فى رواياتهم وقصصهم على التركيز على الصورة غير السوية للمرأة، فالمرأة قد صورت فى أدبنا بشكلين هما: المرأة التى تؤمن بأن جسدها هو رأس مالها وتستغله فيظهر ذلك فى أدب نجيب محفوظ فى صورة (المومس الفاضلة). وفى قصة الجامع فى الدرب. وإما امرأة متحررة كما أظهرها أيضاً فى قصة (بين القصرين).

والمرأة مسئولة عن تلك الصورة التى يرسمها الرجل فهى التى غذت الفكرة الخاطئة عند الرجل بأن قيمتها فى شكلها فقط وليس فيما هى عليه، فمسئولية إظهار المرأة فى صورة مشوهة لها على الأديب والأديبة مناصفة لكل منهما، والنماذج النسائية فى أدب الرجال إما أنها رموز كما فى معظم أدب نجيب محفوظ، أو رمز للغريزة الجنسية أو التمرد والإندفاع نحو الحرية».

❑ ❑ ❑

الحملة على الحجاب:

وتتمركز الحملة التى تقودها نوال سعدواى وجماعة المخدوعين على الحجاب الإسلامى باعتباره الخطر الذى يحطم كل محاولاتهم لتدمير المرأة، ولذلك فقد جعلت رمزها ونداءها : تحرير عقل المرأة من الحجاب.

فى دعوة عريضة إلى إلغاء كافة أشكال التمييز بين المرأة والرجل، وتشمل عدالة توزيع السلطة فى الأسرة وفى الدولة، وقد تجمعت فى هذه الهيئة شظايا من الإلحاد والشيوعية والإباحة ومصادر تمويل من موسسة فورد بدعوى اشتداد سلاح الدين خطورة فى بلادنا بتصاعد القوى الدينية، واتهام القرآن بأنه قلل من حقوق المرأة،

ومضى على هذا الخط أمثال فرج فوده، الذى قال أن الشريعة غير مناسبة لعصرنا وقد عفى عليها الزمن، وأن الحجاب ردة وتخلف عن العصر وعودة إلى الجاهلية، كما دعا محمد سعيد العشماوى إلى تعديل القوانين الوراثية المستمدة من الشريعة وطالب بتساوى المرأة بالرجل فى الميراث وحقها فى الطلاق مثل الرجل، وكانت الحملة على الرجل هى ذروة منطلقات هذه الدعوة .

تقول إحداهن: إن المرأة مقهورة جسدياً من جانب الرجل، وإن عليها أن تطلق طاقاتها الجسدية لتتحدى سلطته وتهدد المجتمع الأبوى الذى يمثل بقاء المرأة مخلصة لرجل واحد، حفاظاً وتكريساً لهذا فإنها تدعوا المرأة إلى الجمع بين التحرر الفكرى والتحرر الجسدى.

وتردد سمر العطار ومنى حلمى وغيرهما كلمات الدعوة إلى المساواة بين الرجل والمرأة ليصبح الاثنان إنساناً دون تفرقة جنسية ونوعية.

ويصل التطرف إلى غايته بمقولة: الحرب على العفة، فصون الجسد الإنسانى وإخلاص المرأة لرجل واحد هو زوجها وكبحها لرغباتها فى سبيل أهداف اسمى، كل هذا يمثل قيوداً على الحرية، وتعرض الجمعية مقابلاً وحيداً لتحقيق المرأة لذاتها هو قهر الرجل. فما دامت المرأة مقهورة حالياً من جانب الرجل فإن عليها أن تتحرر وتقهر الرجل.

وتهدف الجمعية (جمعية تضامن المرأة العربية) إلى أن تصبح المرأة نداً للرجل، والدين لايدخل فى حسابات الجمعية، وقد اتضح من مناقشات الجمعية ان العدو الحقيقى للمرأة ليس الأفكار الرجعية بل هو (الدين)، فهى لا تفرق بين ما هو دين (قرآن وسنة) وما هو اجتهاد، وطالبت إحداهن بحذف خانة الديانة من « البطاقة الشخصية وجواز السفر »

وهذه أخطر محاولة تتعرض لها حركة تحرير المرأة فى العقود الأخيرة من القرن

العشرين الميلادى، وبالرغم من سقوط هذا الفكر كله بعد التعرف على مصادره الصهيونية الماسونية، فإن ذلك يكشف عن إحساس الغرب عن صمود حركة المرأة المسلمة التصحيحية التى كشفت عن زيف دعوة تحرير المرأة منذ سعد زغلول وقاسم أمين إلى اليوم .

كشف زيف الإدعاءات:

أولا : تقول السيدة صافيناز كاظم:

(١) إن نوال السعداوى اسم أصبح شاهداً على افلاس الفكر العلمانى، وشهادة على خواء ما يسمى بقضية المرأة وما يعقبه من تداعيات، ولولا التركيز الإعلامى الغربى على نوال السعداوى لما كان لهذا الاسم وجود فِعْلِى عَلَى مستوى الشارع المصرى والعربى والإسلامى لا يكاد أحد يعرف من هى نوال السعداوى.

لقد التقطت أبواق الدعاية الغربية نوال السعداوى لتصنع فيها بالمبالغة والرتوش رمزاً يحتاجونه ليكون فى تصورهم وثيقة من داخل المجتمع الإسلامى لإدانته بالتشويه المستمر، ولو أننا نظرنا فى كل ما تقوله وتكتبه وتدلى به من أحاديث لوجدنا أنه لا يخرج عن انعكاسات لما هو قائم بالفعل فى الذهنية الغربية منذ أمد طويل للهجوم على القوانين الإسلامية والتنديد بالالتزام الإسلامى، للمرأة فى تسمكها بالزى الإسلامى أو ما يطلقون على الحجاب أو المعايره بالترخيص لرجل بالزواج من أربع نساء وتشويه هذا الترخيص المشروط بالعدل والمحكوم بظروف استثنائية، والتهجم على نعمة حق الطلاق المكفول للرجل والمرأة وإغفال الحكمة من ولاء الإرث فى أن للذكر مثل حظ الأنثيين والاحتجاج على القرار الإلهى بأن شهادة الرجل بشهادة امرأتين.

إن نوال السعداوى لاتقرأ الآية الكريمة من سورة الأحزاب ﴿ **وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمرا أن يكون لهم الخيرة من أمرهم ومن يعص الله ورسوله فقد ضل ضلالا مبيناً** ﴾.

الآية هى محك الإسلام فى أن تكون فاهماً لمعنى كونك مسلماً أو مسلمة بالطاعة الكاملة بلا تردد ولاحرج أو تجريح للأوامر الألهية التى وردت فى القرآن الكريم أو بلغتنا عن طريق السنة، فالمسلم الحق لا يناقش أوامر الله تبارك وتعالى بل يقبل على الطاعة والتقيد بحب وخشية.

(٢) لما ثار الجدل حول الزى الإسلامى قال البعض ممن تصدوا للظاهرة إنها نتيجة ظروف اقتصادية، إن الرد الوحيد يكون فى الطاعة، فيكفى أنه أمر من أوامر الله تبارك وتعالى وأنا واحدة من الملتزمات بالزى الإسلامى أشهد أننى لم أرتد هذا إلا إسلاماً لله وطاعة من دون أن أفكر لحظة فى فائدته أو أسبابه فالطاعة أن تهرع إلى تنفيذ أوامر الله فهى الركيزة والأساس من دون أن يداخل صدرنا أى شائبة من حرج.

وقد دأب أعداء الله على فرش الشباك للإيقاع بالمسلمين فى فخاخ الجدل العقيم حول جدوى القوانين الإسلامية والأوامر الآلهية؛ ليجدوا فى نداءات بعض المسلمين آراء يمكن دحضها وقرائن يمكن التشكيك فيها وإثارة البلبلة بها، مثل تلك التى ثارت حول الزواج والطلاق والحجاب (الذى أفضل أن أسميه الزى الإسلامى).

ومتى وقع المسلمون فى هذه الشباك يجدوا أنفسهم وقد تبددت طاقتهم وضاع وقتهم فى اقناع أعداء المسلمين، وهنا تبين أن هؤلاء الذين نحاول أن نقنعهم بالثانويات ينكرون أصلاً وأساساً رسالة محمد ﷺ ويكفرون بالقرآن الكريم ولا يقبلون حكم الله تبارك وتعالى ويجحدون حقيقة أنه ليس كمثله شئ.

(٣) تقول نوال السعداوى : أنا ضد كل ما يحجب العقل، وهذه كلمات مطاطة لا معنى لها فالقرآن الكريم أولاً يخاطب ذكوراً وإناثاً بنداء ﴿ **يا أيها الإنسان، يابنى آدم، يأأيها الذين آمنوا** ﴾ تكريماً لنا فوق جزئية الاختلاف الجنسى وتأكيداً للقاعدة العادلة فى سورة آل عمران ﴿ **أنى لا أضيع عمل عامل**

منكم من ذكر أو أنثى ﴾، فالقرآن يدعونا إلى الإدراك والتفتح والفهم والتدبر والتعقل (أى إعمال العقل فى الإدراك والفهم) فما دخل حجاب العقل أى منع التردى فى سياق مناقشة حجاب المرأة، إن المرأة حين تغطى جسمها وشعرها تحجت صفتها كأنثى فى مواضع لا يجب أن تبرز فيها إلا صفتها كإنسان.

(٤) تزعم نوال السعداوى أن مديرى المدارس يفرضون على البنات تغطية شعورهن وهذا بفرض كونه صحيحاً فما الخطأ فيه فى بلد اختار الإسلام ديناً للدولة أين القهر المزعوم فى أن يطبق قانون الإسلام على المنتسبين للإسلام.

ثانياً : الدكتورة سعاد إبراهيم صالح

عميدة كلية الدراسات الإسلامية والعربية بالمنصورة.

(١) أولى سلبيات نوال السعداوى:

رفضها الحجاب رفضاً تاماً وقولها إنه نقيض العرى بينما يجعل النقاب المرأة تأمن الفتنة أو النظرة المسمومة: نظرة الشيطان.

والحجاب معناه الواسع والشامل، الحجاب ضد المعصية وضد الرذيلة.

(٢) الإسلام كرم المرأة ابنة وأماً وزوجة وأختاً وأقر لها كثيراً من الحقوق التى كانت مهضومة فى الجاهلية قبل الإسلام، أو فى الأمم الأخرى قبل الإسلام.

بل إن أمم الحضارة والمدنية التى سلبت من المرأة الغربية اسمها واسم أبيها وثروتها، فالمرأة مكلفة كالرجل بالتكاليف الدينية، وتشارك الرجل فى الآراء الاجتماعية ولا تتزوج إلا برغبتها وبإذنها.

والمرأة فى الإسلام ترث وتملك وتتصرف فى ملكها .

(٣) الإسلام لم يحرم المرأة من حق طلب الطلاق عند وقوع الضرر ودفع الفدية والخلع إذا ما أرادت الحصول على الطلاق لأى سبب.

(٤) حق الرجل فى الزواج من أربع هذا مباح وليس بواجب، وهو حق مقيد بالعدل المادى لا العدل القلبى.

أما قولها أن أباها كان يقول لها لا تتركى رجلاً يفسر لك القرآن ولو أن أية لم تطب لكن توقفن عند الإلمام بهـا، إن الدكـتـورة لم تدرك الخطأ الفـاحش فى هذا القول لأن القرآن الكريم دستور الحياة، وهو منهج المسلم بل الإنسانية جميعاً،ولا يملك أحد أن يغيره بما يوافق هواه ولا يملك أى أحد أن يترك بعضه ويأخذ بعضه.

ثالثاً : دكتورة عائشة الفيشاوى.

(١) إن الحكمة الإلهية فى فرض الحجاب ان هذا يرمى إلى تحطيم (هوى) المرأة الدمية التى لا تجد ذاتها وسعادتها إلا فى إبراز مفاتنها وجمالها والتفاف المعجبين حولهـا، وفى هذا التشريع رحمة بقطاع وافر من النساء ، قد لا يتمتع بالمقاييس الموضوعة للجمال، وفيه رحمة بالجميلات لأن كل ما قدم بالمرأة العمر ذبل جمالها وانفض المعجبون من حولها.

(٢)وإن الإسلام حطم فعلاً المرأة الجسد، ورفع المرأة العقل إلى درجة سامقة لا تشرئب لهـا إلا المرأة المؤمنة، وقد اختـار الرسول ﷺ المرأة ذات الدين (تنكح المرأة لأربع : لمالها وجمالها ونسبها وحسبها).

لأن ذات الدين يتبلور فيها العقل الواعى.

وفى غير ذات الدين يتمثل العقل الهابط الراكن إلى الماديات فقط.

وقد ربطت آية سورة النور بين غض البصر وحفظ الفرج والحجاب، فالاحتشام وحده لا يكفى لحماية المجتمع من الرذيلة، بل لابد من التلازم الزمانى بينهما جميعاً:

(غض البصر وحفظ الفرج والاحتشام)

(٣) ركزت نوال السعداوى على الرجل العقل والمرأة الجسد بينما التعبير القرآنى **﴿ قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم ويحفظوا فروجهم ﴾** خطاب مباشر للجنسين، فالمرأة مأمورة بنص القرآن بغض البصر عن الرجل العقل لأن الرجل يشكل فتنة بالنسبة للمرأة .

(٤) إن أفكار نوال السعداوى فى الدفاع عن المرأة لابد من الحذر منها فهى تدعو إلى مبادئ هدامه ظاهرها فيه الرحمة وباطلها عذاب وضياع.

ويتركز حديثها حول قول رسول الله ﷺ عن نساء آخر الزمان الكاسيات العاريات اللائى يحرمن من الجنة .

(٥) أن فى الدين الإسلامى تنظيما للحياة، والحياة بلا دين فوضى لا تطاق وأحكام الله تباك وتعالى فيما يتعلق بالرجل والمرأة أحكام صادره عن الخالق الخبير العالم بالتوجهات النفسية لكل من المرأة والرجل، فالدين كل لا يتجزأ والحلال بين والحرام بين وكون الفرد منا يختار ما يوافق هواه أمر مرفوض.

(٦) إن الإسلام دين لا يفرض المثالية على معتنقيه، بل ينزل إلى أرض الواقع ويعرض القضايا ويحلل الهفوات ويضع الحلول الجذرية الناجحة لها، ولقد زود الإسلام المرأة بالثقة فى النفس ، فالمرأة المسلمة تعقل وتفكر أكبر وأعظم من المرأة الأخرى كفتنة وشهوة، ويصل العقل إلى قمة النضوج فى الأربعين وإن كانت سن اليأس فى الدراسات العلمية فهى سن الأمل فى الإسلام.

❑ ❑ ❑

هكذا واجهت أفكار الماسونية الصهيونية الماركسية فى الهجوم على الحجاب والنقاب فى الإسلام ردوداً حاسمة.

وكانت نوال السعداوى قد نشرت هذه السموم فى المجلات الغربية التى وصفتها بأنها (سيمون دى بوفوار الشرق الأوسط) وقد رددت عليها (كاتى كاترين) بأن الحرية الجنسية فى الغرب كانت عاملاً مهماً جداً فى تنامى ما أسمته الإسلام الإصولى، وقالت إن بعض المتعصبين يخشون العرى والاختلاط مما يدفعهم إلى حماية نسائهم بواسطة النقاب.

وكذب مضلل ما تدعيه نوال السعداوى من أن هناك تحولاً فى المجتمع العربى الإسلامى وتمرد على القيم، وآية ذلك هذه الأصوات الجديدة المؤمنة : عائشة الفيشاوى وسعاد إبراهيم صالح فهذه وغيرها علامات الطريق إلى الله.

المرأة المسلمة والحجاب الشرعى

الزى الإسلامى الشرعى حقيقة واقعة عادت المرأة المسلمة إليها بعد فترة عصيبة عندما قادت سيزا نبراوى مع هدى شعراوى ومن بعدهما أمينة السعيد حملة الهجوم على الحجاب، وهى التى دعت صراحة إلى السفور والعرى بدعوى التحرر، وسوف يذكر التاريخ لهن أنهن مددن حركة العناد مع شريعة الله وغرسوا بذور العادات الغربية وسلوكيات الأوروبيين فى الجسد الإسلامى.

ودفعوا المرأة ضد العمل على ممارسة دورها الأسرى العظيم ودفعوها إلى الخروج إلى العمل العام على حساب مصالح زوجها وأولادها، أما حجاب الإسلام الذى يتجدد اليوم فإنه يختلف عن حجاب الأمس الذى كانت النساء ترتدينه فى أوائل هذا القرن ثم تحررن منه. فالحجاب الأول كان جزءاً من التقاليد حتى أن المرأة المسيحية أيضاً كانت ترتديه، وكان يعنى الفصل بين الجنسين. ويحمل فى طياته فكرة أن المرأة أقل منزلة من الرجل وأن قدراتها العقلية محدودة فى تلك الفترة حيث كان هناك تميز عنصرى واضح.

أما حجاب الإسلام فهو أسمى وأرقى زى عرفته البشرية على امتداد تاريخها، وهو أقدر الأزياء على صيانة المرأة وستر عورتها؛ ولذلك فهو فرض عين على كل مسلمة بلغت سن المحيض ولا سبيل إلى إنكار وجود الحجاب فى عصر النبوة والخلافة، ودلائله مسطورة فى كتب السيرة وليس صحيحاً أن الحجاب خاص بنساء أو زوجات النبى، بل هو عام لكل المسلمات، وهذا ما تدل عليه الآيات الكريمة والأحاديث الشريفة وما أجمعت عليه الأمة الإسلامية.

قالت السيدة عائشة عندما نزلت آية الحجاب، ﴿ **وليضربن بخمرهن على جيوبهن**﴾ إن نساء الأنصار شققن مروطهن فاختمرن بها، وفى حديث آخر أنهن شققنها من قبل الحواشى فاختمرن بها.

وأنه لما نزلت سورة النور عمدن إلى خمورهن (أى الأزر جمع إزار) فشققنها فاتخذنها خمرا.

وعن أم المؤمنين أم سلمة قالت : لما نزلت آية ﴿ **وليضربن بخمرهن على جيوبهن** ﴾ خرج نساء الأنصار كأن على رؤوسهن الغربان من الأكسيه.

ولم يقتصر الأمر على نساء الأنصار بل شمل المهاجرات ولا حجاب فى الإسلام بمعنى الحبس والحجر والمهانة، وإنما الحجاب هنا ما رفع الغواية والتبرج والفضول، وحفظ المحرمات وآداب العفة والحياء.

وليس الحجاب وهما صنعه الفرس والأتراك وإنما هو منهج الله تبارك وتعالى لعباده المؤمنين (عبد الصبور شاهين) .

وفارق بين الحجاب الذى جاء به الإسلام وبين ما جرى فيما سمى بعصر الحريم فلا سبيل إلى التشكيك فى الحديث أو القول بأنه مرسل أو آحاد أو موضوع.

وليس من سبيل للجرى وراء القول بأن المفاهيم والقيم عرضة للتغيير بتغير الظروف الاجتماعية والاقتصادية، وهو تفسير ماركسى فى محاولة للتشكيك فى مصدر الإلزام بهذه القيم، والإدعاء بأنها أعراف وتقاليد غربية عن الإسلام (المستشار أحمد حماد) .

وقد عرف أن أول كتاب ظهر فى مصر يحمل مفهوم الإسلام للمرأة هو كتاب (المرأة فى الشرق) لمؤلفه مرقص فهمى المحامى، الذى دعا إلى القضاء على الحجاب وإباحة الاختلاط وتقييد الطلاق وإباحة الزواج بين الأقباط والمسلمات.

ومسألة تغير الأحكام تبعاً للظروف السياسية والاقتصادية تتعارض تماماً مع الإيمان بخلود الإسلام، وأنه الرسالة الخاتمة، وأن مقتضى خلودها هو استمرار أحكامها دون نظر لتغير الظروف.

ولم يكن زى المرأة المسلمة مجرد مظهر خارجي فحسب، وإنما هو علامة على الطهارة الداخلية والحيلولة دون الاستثارة، وحجاب الأعراض وصون الأخلاق.

يقول الاستاذ محمد نبيل غنايم :

« إن آية : ﴿ **يدنين عليهن من جلابيبهن** ﴾ تدل على أن الحجاب فرض على جميع المؤمنات المكلفات شرعاً،وهن البالغات الحرائر، وهو بالنسبة لهن كفريضة الصلاة والصيام فإذا تركته المسلمة جحوداً فهى كافرة مرتدة عن الإسلام،

وإذا تركته تقليدا للعرف السائد فى المجتمع مع اعتقادها بفرضيته فهى عاصية، والحجاب هو تغطية جميع الجسم ما عدا الوجه والكفين بشرط أمن الفتنة، وأن يكون كثيفاً غير رقيق، وألا يكون زينة فى نفسه أو مبهرجاً،وأن يكون واسعاً غير ضيق لا يشف عن البدن ولا يجسم الجسم ولا يحدد أماكن الفتنة وألا يكون معطراً.

عن النبى ﷺ : إذا بلغت المرأة المحيض لم يرَ منها إلاَّ هذا وهذا. وأشار إلى الوجه والكفين . (رواه أبو داود) .

❑ ❑ ❑

وقد ناقشت الدكتورة ليلى على القاضى عدداً كبيراً من المحجبات وغير المحجبات فى سبيل الحصول على إجابات صحيحة عن أثر الحجاب على سلوك المرأة واتجاهاتها، وقد وصلت إلى النتائج الآتية :

(١) أن هناك علاقة إيجابية بين تحجب المرأة ومستواها الاقتصادى حيث نجد أن المرأة المحجبة تنفق على ملبسها نصف ما تنفقه المرأة غير المحجبة.

(٢) أن المرأة المحجبة تقوم بأدوارها المختلفة بمستوى آداء أعلى من المرأة غير المحجبة، وذلك لاتّباعها ما جاء فى الشريعة الإسلامية من أوامر ونواه.

(٣) قد يرجع تحجب المرأة المصرية إلى التنشئة الاجتماعية والدينية الأولى.

(٤) للرجل المصرى دور فى انتشار ظاهرة الحجاب.

❑ ❑ ❑

لقد كرم الإسلام المرأة حين هداها إلى حماية نفسها من عين الأجنبى وجعل زينتها، لزوجها فى بيتها ورسم لها أسلوباً كريماً فى لباسها وزينتها وجعل غض البصر أساس العلاقة الخارجية بينها وبين الرجل، وجعل لكل ما حرم كشفه من أمرها وما أباحه حكمة عالية.

أولاً : لباس المرأة وزينتها

ثانياً : غض البصر.

ثالثاً : ما يحرم كشفه من المرأة وما يباح.

رابعاً : من يحل لهم رؤية الزينة الباطنية للمرأة

❑ ❑ ❑

إعادة تقييم تجربة المرأة

- هل كان تعليم المرأة على النحو الذى يتم الآن صحيحاً ؟
- تبين عدم قدرة المرأة على التفوق بدون مساعدة خارجية.
- مسئولية تربية الأبناء وخطورة تركها للخدم.
- طموح المرأة إلى المناصب العليا.
- إيراد المرأة ضائع فى المواصلات والملابس.
- الرجل المسلم الشريف لا يطلب أجر امرأته.
- نصيحة إلى الرجال : تزوجوا امرأة البيت.

❑ ❑ ❑

لقد حققت الصحوة الإسلامية خطوة واسعة فى العمل على تدمير تلك المقولة الباطلة التى ظلت تدور خلال أكثر من خمسين عاماً منذ نادى بها مرقص فهمى وقاسم أمين وسعد زغلول، وهى اليوم تمر بمرحلة الامتحان الخطر الذى يستلزم تضافر الجهود لمواجهة المؤامرة التى تريد تدمير الخطوة الجادة التى خطتها المرأة المسلمة فى طريقها إلى الأصالة.

أولاً : علاقات الرجل والمرأة فى المجتمع

تقضى الشريعة الإسلامية بأن الرجل والمرأة يكملان بعضهما البعض ﴿ **بعضكم من بعض** ﴾ ولكن الحضارة الحديثة تدعى عكس ذلك، وعندها أن كلاً من الرجل والمرأة صورة طبق الأصل للآخر،وهو غير صحيح حتى من وجهة نظر الطب والتكوين الخلقى.

وطبقاً لقوانين الشريعة الإسلامية يقتضى أن تختلف دوائر عمل الرجل عن دائرة

عمل المرأة، ولذلك قررت الشريعة الإسلامية من حيث المبدأ أن مجال عمل المرأة هو البيت ومجال عمل الرجل هو خارج البيت، بينما تفرض الحضارة الحديثة أن يعمل كل من الرجل والمرأة فى مجال واحد بدون تمييز أو تفريق.

وقد مارست البلدان الغربية منذ نحو قرن من الزمان المساواة بين الجنسين، وبالرغم من مرور المدة الطويلة لم تتمكن المرأة الغربية من أن تحل محل الرجل فى أى مجال من مجالات اختصاصه.

وأجريت دراسات كثيرة فى البلاد الغربية والولايات المتحدة بصفة خاصة توصلت إلى صحة وجهة نظر الشريعة إزاء المرأة.

وقد أثبتت بأسلوب قطعى أنه لاتوجد هناك فروق سيكولوجية فقط بين الرجل والمرأة، بل إن هناك فروقاً بيولوجية حاسمة تميز بينهما، وهما طبقاً لتصميمها الطبيعى لا يصلحان لعمل واحد. لقد ظلت الأحكام الشرعية بشأن الرجل والمرأة نافذة لمدة ثلاثة عشر قرناً فى جزء كبير من المعمورة ولم تطرأ تعقيدات على نظام الحياة، ولكن مبدأ المساواة الحديث بين الرجل والمرأة قد أفسد المجتمع كله بحيث تشوشت بسببه الحياة الأسرية كلها وظهرت مشكلات كثيرة نتيجة إخراج المرأة من البيت وإقحامها فى الأمور الخارجية وأهمها :

أولاً: مشكلة الأولاد المحرومين من تربية الوالدين

فقد حرم الأبناء فى المجتمع الغربى من تربية والديهم ومن إشرافهم الفطرى بسبب خروجهما معاً للعمل؛ وبالإضافة إلى ذلك ظاهرة ما يسمى (البيوت المنهارة) التى ظهرت بسبب الاختلاط الحر بين الجنسين مما تعددت معه حوادث الانفصال وحرمان أولاد هذه البيوت المنهارة من التربية الفطرية للوالدين، ومن ثم فقد اهتزت شخصياتهم من البداية.

وبذلك ظهر مرض نفسي جديد بين الأبناء سماه الأطباء الأمريكيون (Autism) ويظهر فى الأطفال المتمتعين بالصحة الجسدية ولكنهم يشعرون بالملل ويميلون إلى العنف، وقد فشلت تدابير علماء النفس لعلاج هذه الظاهرة المرضية.

ثانياً : مشاكل الكبار

فبينما يعانى الأطفال الحرمان من حنان الوالدين يعانى الكبار من الأقرباء والأصدقاء المخلصين. وفى فرنسا هناك سبعة ملايين من الكلاب (يبلغ سكانها ٥٢ مليون نسمة) تعيش مع أصحابها كأنها من أقاربهم، ولم يعد غريباً على مطاعم باريس أن تشاهد الكلب وصاحبه يتناولان الطعام على مائدة واحدة، هذا بينما يعزل هؤلاء الناس أنفسهم عن والديهم الكبار فى السن.

لقد انفرط عقد المجتمع الإنسانى كله بسبب تحطم التوازن الطبيعى بين الرجل والمرأة. إن الإنسان فى حاجة فطرية إلى علاقات الأب والأم والأخ والأخت والأولاد. ولكن الإنسان حين لم يجد هذه العلاقات الخالصة بدأ يحب الحيوانات، فهى على أى حال لا تفارق أصحابها ولا تغدر بهم».

ثالثاً : خروج المرأة للعمل

أكدت أطروحة لباحثة مسلمة أن خروج المرأة للعمل أدى إلى الانحلال الأسرى. فهى ظاهرة خطيرة لها آثارها السيئة على مجتمعنا بشكل عام وعلى أطفالنا بوجه خاص وأنه يؤدى إلى التفكك والانحلال الأسرى، ويؤدى إلى حرمان الطفل من عطف الأمومة، وينشئ الطفل على الخوف والضعف والانحراف فى المستقبل. وقد جاء هذا الانحراف نتيجة تجاوز المرأة لأساس عملها الأصيل الذى لا يجوز لها تجاوزه إلا للضرورة الاقتصادية ولمواجهة الضغوط المادية على أسرتها شريطة ألاّ يكون ذلك على حساب بيتها وأولادها.

ولما كان الرجل قويا والمرأة ضعيفة فقد قسم الإسلام العمل بينهما فالمرأة ينحصر عملها داخل منزلها لأن هذا العمل يتلاءم مع طبيعتها كأنثى.

وقد استثنت الشريعة السمحاء فى حالات الضرورة أن تعمل المرأة خارج المنزل، وهذا الاستثناء قد احتفظ بقواعد شتى للمحافظة عليها وعلى أنوثتها، ومن ثم فلا يمكن أن يتحول الاستثناء إلى قاعدة، وعلى المرأة المسلمة أن تذكر أن الأساس هو عملها فى منزلها وتربية أبنائها.

كذلك فإن عمل المرأة يجب أن يتم فى إطار إسلامى بعيداً عن الاختلاط بالرجال فى المجالات التى تتناسب مع إمكاناتها كامرأة وأن تكون هناك حاجة إلى عملها. وأن تكون المرأة المسلمة ملتزمة بتعاليم الإسلام فى الحجاب والنقاب إذا اضطرتها ظروفها للعمل.

رابعاً : تحفظات على تعليم المرأة

(١) يجب أن يكون التعليم النسائى فى إطار القيم الإسلامية والآداب الدينية، فلا يصح للبنت أن تخرج عارية الذراعيين أو الساقين، ولا يجوز أن تكشف عن جزء من جسمها مما حرمت الشريعة الإسلامية كشفه، بل يجب أن يكون هذا التعليم بمعزل عن الذكور وبمنأى منهم حتى يسلم للبنت شرفها وعرضها.

(٢) أن يكون التعليم تعليماً لبناء المرأة فى مهمتها وحياتها، وأن تتفق العلوم مع طبيعة المرأة المسلمة وأنها تمكنها من أداء مهمتها فى تربية الأطفال ورعاية البيت وعلاج الأمراض فى اللحظات الأولى لوقوعها.

(٣) أن تعد نفسها لتفهم دينها ومنهج العبادة الحقة وفقه الطهارة بعيداً عن المغالاة وأن تعرف دورها الذى أعدها الله تبارك وتعالى لأدائه فى بناء البيت المسلم والطفل المسلم.

(٤) أن تعرف الحقيقة الأساسية بأن هذه الصورة التى قدمت لها عن تحرير المرأة هى خدعة كبيرة، وأنها محاولة لإخراج الفتاة المسلمة والمرأة المسلمة من مسئوليتها الأساسية التى أعدها الله تبارك وتعالى لها.

(٥) أن تعد نفسها لتكون قادرة على الصمود أمام مغريات العصر وآثامه حتى تفشل كل المغريات فى احتوائها، وعليها أن تطيع الفطرة الإنسانية ولا تعارضها.

(٦) أن تؤمن بأن جمالها هو للزوج فحسب ومن حقه عليها أن يراها فى لقاء يسره ويشرح صدره وهو وحده الذى تلبس له خير ثيابها وتتعطر .

والمرأة المسلمة تستر جسدها عن الغرباء فجسد المرأة جوهرة محفوظة ومصانة لزوجها وحده.

والمرأة المسلمة ليست بضاعة رخيصة لتعرض نفسها على الناظرين فى الطرقات.

(٧) المرأة مكلفة مثل الرجل فى جميع التكاليف الإسلامية من عبادات وطاعات وعلاقتها بزوجها علاقة تراحم ومشاركة ﴿ **خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها** ﴾ والأم ينبوع الحب والحنان والعطاء والرفق والبذل لزوجها وأبنائها.

واجب المرأة ازاء زوجها إذا نظر إليها سرته وإذا أمرها أطاعته وإذا غاب عنها حفظته فى ماله، وعرضه ومن حق المرأة على زوجها أن يكرمها، والألفة والمشاركة قاعدة أساسية لقوامة الرجل التى حددها الإسلام التى ليست تسلطا ولكنها قيادة لسفينة الأسرة. والحب يكون مع الزوج بعد الزواج.

خامسا: الطفل المسلم

سبق الإسلام جميع النظم العصرية فى تحديد مهمة الآباء فى رعاية الطفل وتنشئته النشأة الكريمة.

أولاً : يقول ابن قيم الجوزية: فى كتابه (تحفة المودود بأحكام المولود) : إن هذا المولود يجب أن تتوافر له الرعاية منذ أن يستقر نطفة فى الرحم حتى يولد وينمو ناشئاً فشاباً ثم راشداً، وهذه الأحكام ينبغى أن تهيئ له أسباب النضج العضوى والصحى والنفسى والعقلى وأهمها الاهتمام الكامل بالأم من جميع النواحى النفسية والصحية، فإذا صلحت هذه الرعاية للأم صلح الطفل الذى سيخرج إلى الحياة .

ثانياً : رفض الإسلام المفاضلة بين الذكر والأنثى، لأن هذا يخالف روح الإسلام وخلقه، ويقرر ابن القيم أنه لما كانت الذكور والإناث نعمة من الله فلابد من اختيار الأسماء الحسنة لهم، كما دعا الإسلام إلى ضرورة الحنو على الأبناء والرقة فى معاملتهم ثم تأديبهم وتعليمهم والعدل بينهم فى العطاء والمنع.

ثالثاً : دعا الإسلام إلى الرضاعة الطبيعية، وأن يقتصر فى أمر تغذيته على لبن الأم وحده إلى أن تنبت أسنانه، وذلك لضعف معدته عن هضم الطعام وقد جعل الله ذلك لحكمته ورحمته بالأم. كما دعا إلى التدرج فى غذاء الأطفال رويداً رويداً لخطورة ذلك على صحتهم مع الاهتمام بنظافة ملبسهم ومأكلهم.

رابعاً : دعا الإسلام إلى أن يكون أول ما يقرع مسامع الأطفال معرفة الله تبارك وتعالى وتوحيده، وأن الله تبارك وتعالى فوق عرشه ينظر إليهم ويسمع كلامهم، وهو معهم أينما كانوا.

خامساً : أن يتم المسلم الرضاعة حولين كاملين كما أشار القرآن الكريم:

﴿والوالدات يرضعن أولادهن حولين كاملين لمن أراد أن يتم الرضاعة وعلى المولود له رزقهن وكسوتهن بالمعروف﴾.وقال إن ذلك حق للمولود إذا احتاج إليه. وأن الأبوين إذا أرادا فطام طفلهما قبل عامين فلهما ذلك بشرط التدرج فى الفطام وعدم مفاجأة الطفل مرة واحدة بل يجب تمرينه.

وأشار ابن القيم إلى ضرورة أن يجنب الطفل كثرة الأكل والشرب، وحذر من أن يمشى الطفل قبل وقته لما يعرض رجله للاعوجاج بسبب ضعفها. كما ينبغى

تنظيم وقت طعام الطفل ونومه.

سادساً : أن يجنب الطفل مجالس اللغو وسماع الفحش ومنطق السوء، وأن يتعود العطاء وعدم الكذب والخيانة، وأن يجنب الكسل وحذر من تمكين الطفل من تناول ما يزيل عقله من مسكر أو مخدر، وأن يبعد عن الطفل كل العوامل التى تؤدى به إلى الميوعة وأن نجعله سوياً مستقيماً.

❑ ❑ ❑

وعندما عرضت اتفاقية هيئة الأمم المتحدة لحقوق الطفل أشار شيخ الأزهر إلى أن الإسلام هو أول من وضع قاعدة حقوق الطفل الإنسانى، واستدرك فى التحفظ على الاتفاقية الدولية لحقوق الطفل باسم الإسلام على ما جاء فى المواد (السابعة والسابعة مكرر والعاشرة والحادية عشرة) ذلك لأن بعض نصوص تلك المواد قد أطلق للطفل حرية التعبير بشتى طرقها ، وحرية الدين كما انها أطلقت حرية التبنى، وهى بذلك قد أغفلت ما يهتدى به المسلمون من حماية للعقيدة والشريعة الإسلامية عملاً على إقرارها واستقرارها فى قلوب الأطفال المسلمين، لا سيما اصطلاح النظام العام الوارد فى المادة السابعة وقال : إن المعميات اصطلاح لم يتفق على تحديد مفهومه ومداه، ولأن القول بحرية الدين للطفل تدعو إلى التحرر والتخلى عن الدين. والإسلام يقرر أن الطفل يتبع خير الأبوين ديناً، ولأن التبنى يرد فى الإسلام على صورتين ممنوعتين إحداهما استلحاق شخص معروف نسبه لغير أبيه والأخرى استلحاق مجهول النسب بجعله ابناً للمقر بنسبه لعله ليس كذلك فى الحقيقة والواقع.

وأشار شيخ الأزهر إلى أن الإسلام حرم التبنى فى هاتين الصورتين بنص القرآن الكريم، ومع هذا فلا يمنع الإسلام من رعاية طفل مجهول النسب بالتربية والتعليم والإنفاق وبالوصية له والهبة إليه؛ كل ذلك مباح دون تغيير لنسبه إن كان معلوماً أو استلحاقه لنسب الغير إن كان غير معلوم؛ ذلك لأن الإسلام دعوة إلى الخير وإلى البر.

وقال المستشار محمد الجندى أن إقرار مصر لاتفاقية حقوق الطفل مع ما يتفق مع الشريعة الإسلامية يؤدى إلى سيادة هذه المبادئ وتطبيقها فى العالم كله من أجل الإنسانية ورفاهية الأطفال فى العالم، لذلك فنحن نؤيد الاتفاقية مع بعض التحفظات.
وقال إن القصد هو الاستجابة لمفهوم الشريعة الإسلامية بشأن رعاية الطفل دون حاجة لإعطائه نسباً مطلقاً غير نسبه الطبيعي.

❑❑❑

ودعا علماء التربية ألا تقتصر برامج الأطفال على الرقص والغناء والعزف، مما يشكل مخالفات شرعية، أو يوسع نطاق الشبهات حيث إن دروس العقيدة لا وجود لها فى برامج الأطفال، وأن القصص الخيالية وأبطال الجمادات تعين الطفل على الكذب، وكذلك الوعظ على ألسنة الطير والحيوان وخاصة الكلب والحمار اللذين استهجنها القرآن الكريم ، إن تقديم برامج الأطفال بالصورة الحالية أحد أسباب انهيار المجتمع الإسلامى فى مصر، فهو لا يمد الطفل بالمعارف الصحيحة والقدوة الحسنة أو التسلية الظاهرة ولايوزع المفهوم الإسلامى على جميع البرامج.

الفصل التاسع
الفن

اتخذت حرب التغريب والغزو الثقافى التى يشنها الغرب والماركسية والصهونية من (الفن) سلاحاً من أعظم أسلحة العصر لتحقيق الخطة كما رسمتها بروتوكولات صهيون وكما أقامتها الفلسفة الماسونية اساسا. واليوم نشاهد هذا الغزو الخطير الذى يحمل اسم الفن وهو يكتسح المجتمعات الإسلامية عن طريق المسرح والسينما ومسلسلات التلفزيون ليطرح فى أفق فكر المسلمين وعقولهم ووجدانهم : تلك السموم الناقعات الخطيرة.

وقد تركز العمل فى هذا المجال بالذات لأخراج المسلمين من الدين ومن الايمان ومن القيم ومن الثقة بالنفس اندفاعا وراء الأهواء والشهوات واللذات وتدمير كل القيم الأخلاقية والروحية فى الكيان الإنسانى، وتحقيق أهداف ماركس وفرويد وسارتر ودوركايم عمليا.

وهؤلاء القادة جميعهم من اليهود الذين رسمت الماسونية لهم خطط عملهم. والهدف هو تدمير هذه الأجيال أخلاقيا وقتل المناعة النفسية والاجتماعية بحيث تصبح عاجزة عن مقاومة الغزو بما تلبست به من انهيار وتحلل وخضوع وتسليم أزاء الغزو القادم .

وقد تعاونت نظريات ودعوات كثيرة فى مجال النفس والإخلاق والاجتماع فى تنمية هذا التيار القائم على التحرر والإباحة.

وكان فى مقدمة ذلك تيار البهائية: الذى دعمته الصهيونية العالمية وبنت له مراكز القيادة فى عكا وفى أمريكا وفى قلب أفريقيا حيث تخدم البهائية الصهيونية لأنها

تسقط التكاليف عن المسلم وتجعله أمامها بالخيار وتبطل إعجاز القرآن وتدعو إلى دمج الأديان فى بعضها البعض .

ويعد التيار الصهيونى الاستعمارى مقدمة لإقامة الحكومة العالمية التى تسيطر على الامم والشعوب والتى يعدهدم الإسلام فى مقدمة أهدافها بعد أن تحقق الآن احتواء كل الأمم، والدعوات وفى مقدمتهم اليهودية والمسيحية .

وقد لعب الجنس الدور الأول فى السينما والمسرح، وكلها تدعو إلى الدعارة بوسيلة او بأخرى وبمقادير دقيقة حتى لاتصطدم مع العقائد والأعراف فالأفلام الرخيصة تدعو إلى الدعارة فى السينما والتليفزيون،كما أن شرائطها تغزو الأسواق وهى تحمل صورا حية للممارسات الجنسية بين الإنسان والإنسان والإنسان والحيوان وغير ذلك.

وليس الأمر قاصراً على السينما بل إن المسرحيات تقوض دعائم المجتمع وتدعو إلى اللهو والمجون، والمجلات تنشر الصور العارية الفاتنة غلافاً لصفحاتها، والمسلسلات التى تدعو إلى حسن الحيلة فى الانتقام والحديث عن الجنس، ومعظم هذه المسلسلات والمسرحيات مأخوذة عن روايات عالمية لمؤلفين من يهود صهيون فضلا عن أن مؤسسى السينما والمسرح فى معظم البلاد الإسلامية من أصل يهودى وإن دان بعضهم بالإسلام تقية.

وتتسع دائرة العمل وتمتد إلى مؤسسات اجتماعية كالخدمة الاجتماعية والعمل الإنسانى وهى تعمل فى الخفاء لخدمة الصهيونية العالمية.

ومن تلك الجمعيات خلفاء الماسونية كالروتارى والليونز وجماعة التسلح الخلقى وجمعية إخوان الحرية وبيوت الشباب وأنصار السلام، وكلها تهدف إلى بناء الإنسان الحر بعيداً عن الدين والسياسة، ورفع شعار البحث العلمى والتربية الحديثة وسياسة التقارب بين الإديان.

❑ ❑ ❑

ومن يراجع تاريخ صناعة السينما فى مصر يجدها قامت أساساً تحت سيطرة الأجانب واليهود خاصة وكانت حريصة منذ اليوم الأول عن أن تقدم نموذج المسلم فى صورة فقيه القرية الذى يعين العمدة أو الاقطاعى على ظلم الفلاحين والكادحين مستخدما بعض الآيات القرآنية بتفسير مغلوط أو فى صورة مدرس الدين الاسلامى واللغة العربية.

كانت هذه صورة المسلم التى قدمها بذكاء المسيطرون على صناعة السينما فى مصر منذ بداياتها،وكان ذلك تنفيذا لخطة محكمة تريد أن ترسخ فى وجدان المشاهد ارتباط النماذج الإسلامية بكل ما هو ظالم أو منافق أوعبيط.

وجاء جيل آخر من السينمائيين المصريين ليستخدم نفس التركيبة التى وجدها جاهزة أمامه فساهم دون قصد فى تنفيذ هذا المخطط الذى يهدف الإساءة إلى الإسلام.

ومن عجب أن نجد بعض من يحملون أمانة الكلمة يصفقون لمثل هذه الاعمال الهابطة وخاصة إذا رأوها تقدم النماذج الشاذة من النصابين باعتبارهم نماذج إسلامية حيث يتصور بسذاجة أن السخرية من هذه النماذج توضع فى حالة رفض التطرف.

وهناك جماعة أخرى كرست كل جهدها للتهجم على الإسلام فإذا وجدوا نموذجا شاذا يناصر الإسلام صرخوا: هؤلاء هم المسلمون.

والحقيقة أن الاسلام ليس له صلة مطلقة بمثل هذه النماذج المنحرفة، وإنه من الظلم البين أن يقدم المؤلف شخصية نصاب يحتال على المواطنين وهو يطلق لحيته أو يظهر بمظهر المتدين حتى يكتمل للتركيبة الدرامية إثارتها.

❑ ❑ ❑

ولقد كتب بعض الباحثين منذرين عن خطر المؤامرة الجديدة (لعبة الفن الحديث) من الصهيونية والماسونية وأمريكا، ومنهم الدكتورة زينب عبد العزيز التى

كشفت عن أهداف هذه المهزلة وتناولتها باعتبارها « ظاهرة » بالنسبة للحضارة الإنسانية والمجتمع المعاصر، ذلك لأن تطوره اتخذ بالفعل شكل ظاهرة تتضافر فيها العديد من التيارات الفكرية والاجتماعية، وهى ظاهرة شديدة الارتباط بالقطبين الأساسيين المحركين للمجتمع ككل وهما الاقتصاد والسياسة. ولم تكن الصلة الاقتصادية وليدة اليوم إلا أنها لم تتسع أبدا بهذا الشكل ولم تتخذ أبدا هذه الحدة مثل ماحدث فى النصف الثانى من القرن العشرين.

فى هذه الفترة التى تعدى فيها تداخل الفن والمال ليخرج من دائرة الفنانين والتجارة ليتوغل فى كيان المجتمع ويمس قطاعات كبيرة من الجماهير.

ويعبر ريمون مولان عن هذا فيقول :

حينما تسوء أحوال البورصة تسوء الأحوال الفنية، إنها حقيقة يقرها تجار الفن ومقتنو اللوحات.

ولعل تعبير (احتكار) يعد أقل إزعاجا حينما ندرك كيف كان الفن الحديث بمثابة ظاهرة ضرورية لضبط خط سير وتنظيم المشاعر الانفعالية والثقافية للمجتمعات التى أنتجته، إذ أصبح (الفن) مجرد أداة تنظيم تخدم الأغراض السياسية.

ففى كل الأزمنة والعصور كان الفن يقوم بدور ما فى المجتمع، ومنذ الحرب العالمية الثانية التى أدت إلى تحولات جذرية فى المجال الفنى وإلى تدفق سيل من الاتجاهات الغربية المبتذلة.

ولا أدل على مدى التخبط فى محاولات الهدم الفنى من ذلك النتاج الغريب لأسماء اكثر غرابة، ومن يحاول فهم هذا التداخل الشديد التعقيد لمسرحيات الفن الحديث سيلحظ تلك الرغبة الجامحة فى التدمير.

وذلك الطموح الذى لفت الأنظار اعتماداً على التخويف والتزييف، ومن أمثلة ذلك مصطلحات (فن الطبيعة ـ الشراسية ـ النفعية، الطرحشية، الجمالية الاولية،

الفن الفطرى، البدائى، العيانى، الخام، الاشكلى، الكهربائى، المتدمر ذاتيا) إلى أكثر من مائتى تصنيف للفن الحديث، وهناك القائمة الكاملة لمسميات هذا السيل الفوار الشبيه بالفقاعات للمذاهب العابرة التى داهمت هذا العصر لتصيب قارئها بالغثيان .

إن هذه التسميات تنم عادة عن عمليات تزييف واسعة للواقع وللكلمات والأفكار والاساليب لإخفاء اللعبة المستترة التى كانت تتم خفية حتى عن معظم الذى ساهموا فيها وانساقوا إليها بحسن نية.

ولاريب أن الاسماء التى عرفت فى أفق عالمنا العربى: هى أردأ الأسماء التى تظهر الآن على أفلام ومسلسلات.

وتصديقا لهذا نسجل كيف اتسع نطاق الصفحات الفنية فى صحفنا ودور جماعات مختلفة من الفنانين فى مؤتمرات كاسحة تشد المشاهدين، ومنها مسابقات ملكات الجمال وجوائز الفن ومهرجان كان.

وتتحدث الدكتورة زينب عبد العزيز حول أجهزة الغش وأساليب التدمير التى تتلفع بالفلسفة النيتشاوية « نسبة إلى الفليسوف نيتشة» ومافيا اليهودية والماسونية وكيف تحرك اللعبة باسم الفن الحديث» .

❑ ❑ ❑

وهكذا تصل دائرة الفن فى مجتمعنا العربى الإسلامى وفى ثقافتنا إلى ذروة المأساة وتحقيق أكبر قدر ممكن من الخطة التى رسمتها بروتوكولات صهيون لتدمير المجتمعات الإسلامية والأسرة المسلمة والشباب والفتيات المسلمات .

ونستطيع أن نقول : اننا ندخل فى مرحلة جديدة خطيرة اليوم (العقد الأخير من القرن العشرين الميلادى) وهو تكاتف قوى الاستعمار والتغريب فى الإطباق على العقلية الإسلامية والوجدان الإسلامى.

فقد حدث تحول خطير فى مجال المسرح والفنون سمته البارزة:

غلبة طابع الإغراء والإثارة على كل ما يتعلق بالمجتمع والفن وذلك إلى جوار الإثارة الصحفية بالخبر والقصة.

ويتحدثون أن دريتون اكتشف أن المصريين كان لهم سبق فى المسرح نتيجة ماظهر أخيرا من لوحات لمشاهد من مسرحية قديمة تسمى إيزيس وأوزوريس، وبها يدللون على سبق المصريين فى مجال المسرح بمفهوم الطقوس الدينية المليء بالمعتقدات الخارجة عن الدين الصحيح .

وفى ذلك مافيه من إحياء للخرافات والأساطير، وهذا يعنى الفخر باسبقية مصر فى خلق مايسمى بالمسرح وتأثر الإغريق بالمسرح المصرى القديم . وما احتوت الظاهرة المسرحية بما يعرف بالصراع والدراما وتعدد الأصوات والحوار، وكيف سبق هذا المسرح الإغريقى مسافة تزيد على أربعة الآف سنة قبل ميلاد التجربة المسرحية القديمة، وأن عطاءات المسرح اليونانى إسخليوس، سوفوكليس، بوربيدس، أرستوفان) ماهى إلا وليدة التأثر العميق بالمسرح المصرى.

❑ ❑ ❑

والواقع أن كل مايقال فى هذا الشأن هو من محاولات إكساب تلك السموم بعداً تاريخياً يجعلنا نحن المسلمين (الذين تحررنا منذ اربعة عشر قرنا من الوثنية والاساطير) نعود إليها من باب الفخر والاستعلاء.

ونحن نعرف أن هذه تجربة ضخمة قديمة قام فيها الفكر اليهودى بربط الجمال باللذة كما فى المزامير والنشيد وجاء أرسطو فربط مفهوم الجمال بالفن، وقال إن سر الجمال الفنى ينبع من محاكاة الفن للطبيعة، ومنذ ذلك الوقت قام الفن عند الإغريق القدامى على محاكاة مايرونه فى واقع الحياة (فالتصوير والشعر والمسرحيات والقصيدة والروايات) ليست سوى مطابقة للأصل الذى يقدمه لنا الواقع، والفنان يستملى وحيه من هذا الواقع، ويرجع اليه فى تصويره، وأساس الفن فى رأى أرسطو

هو المحاكاة، والفن عند أفلاطون ملهاة عبثية باهظة التكاليف، وعنده أن هذه الفنون قليلة النفع فهى من قبيل الألعاب ووجوه التسلية والترفيه عن النفس، وليس لها كبير قيمة فى رأى الناس الجادين، والمحاكاة عند أرسطو ليست محاكاة خالصة أو تقليدا أعمى.

فالشعر يتناول تصوير الناس بصورة خير عما هم عليه او بصور شر مما هم عليه او مطابقة لما هم عليه.

الأول الشعر الجدى والثانى الشعر الهزلى (المأساة والملهاة) وقد امتدت نظرية المحاكاة الى مختلف الفنون وهى نظرية مرتبطة بنظرية التجسيم ومستمدة منها، وهى محاولة لإقامة عالم وهمى فى مواجهة عالم الواقع، وترتبط بهذا قضية الدراما والحبكة المسرحية وأخطر مافيها أنها مخالفة لمفهوم الألوهية فى كمالها واستعلائها على كل محاولة لتقليدها أو لتقديم تصور متفوق .

ومن هنا فقد جاء المفهوم الاسلامى للفن بعيداً كل البعد عن تصوير الطبيعة أو الوقوع فى منزلق تقليدها. وبذلك تحرر من تصوير ما يطرأ عليه الفناء وتحاشى الانخداع بالأساطير الوثنية القديمة، وهذا ما طرأ على ساحة الفن فى العصر الحديث من تجديد خرافات اليونان وأساطيرها، ومن هنا نشأت فى الغرب مذاهب الفن للفن والسريالية، والرمزية، المشبعة بالوثنيات والآلهة.

وهذا ما امتد الى الشعر العربى فظهرت تلك القصائد التى يحيطها الغموض والإبهام باسم إله أو نصف إله اغريقى.

ولكن الفنان المسلم يحس بضرورة الانسجام مع إيقاع الكون عن طريق الخضوع والاستسلام لله عز وجل.

ولا يقر الإسلام ما يردده مؤرخو الفن من أن أرسطو هو الذى جعل الفن تعبيرا عن جهد الإنسان لإكمال الطبيعة، وهو تعبير ساقط صهيونى المصدر فكيف يمكن

للإنسان وهو المخلوق الضعيف أن يسمو ويتعالى ليكمل الطبيعة، هذا مفهوم لايقره المسلمون .

﴿ هو الذي خلق سبع سماوات طباقا ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت فارجع البصر هل ترى من فطور؟ ثم ارجع البصر كرتين ينقلب إليك البصر خاسئا وهو حسير ﴾

فالإسلام لايقر هذا المفهوم مطلقا ولاحاجة له بمثل هذا المنطلق، وهكذا تجددت فى العصر الحديث نظرية المحاكاة لتكون مدخلا إلى العبث واللامعقول واللاانتماء بدلا من أن تقود العصر الى قيم انسانية رفيعة، نرى أصحابه يستميتون لتسجيل إخفاق العصر وإسفافه من حيث التنكر لسائر أنواع القيم الإنسانية.

وقد غلبت على هذا التيار مفاهيم الوجودية والعبثية والعدمية التى ترى الحياة عبثا ولامعقولية، وقد صحبها الشعور بالاغتراب واللاانتماء الذى ساندته الماركسية التى بشرت فى مرحلتها الأولى لضياع الإنسان وانهيار قيمه وظهر ذلك واضحا فى قصص سارتر وكامى وغيرهما الذين أعلنوا إفلاس المجتمع الإنسانى وعجزه عن التقدم مهملا القيم الدينية والأخلاقية التى هى المقوم الأساسى لإقامة صرح الحضارة

وقد تركزت هذه المفاهيم كلها فى الفكر الإسلامى خلال عقد الستينات اللعين حيث بدأت الثورة على القيم الثوابت من الدين والتراث تحت اسم حرية الفن، وقد بدأت تتشكل تلك العصابة التى تعمل على كسر قاعدة الحماية الأخلاقية.

وكان المسرح الماركسى فى الطليعة من أجل الدعوة إلى الواقعية الاشتراكية حيث قدم ملحمة برخت ومسرح العبث والادعاء بأن المسرح القديم يمثل المفاهيم الواقعية البرجوازية، وفى خلال مرحلة التبعية الماركسية أمكن العبث بالتراث والتاريخ العربى والإسلامى.

واستعلى أدعياء الماركسية الذين خططوا حتى يحتكروا النشاط المسرحى وأتاحت لهم التغيرات السياسية فى فترة معينة من تاريخنا أن يسيطروا، وكانت النتيجة الحتمية الغرائز الجنسية (سليمان جميل)

ثانيا: دعا المدمرون إلى مايسمى حرية الفن، وكان على رأس هذه الدعوة رفيق الصبان الذى طالب بكسر قاعدة الحماية الأخلاقية وأضيف إليه آخرون منهم عادل حمودة

وقد كتب رفيق الصبان مقالا فى روز اليوسف تحت عنوان (سينما الفعل الفاضح) يطالب بإشاعة هذا اللون.

ويقرر يوسف شاهين أنهم لايريدون أى قوانين تحكم الفن أو الأدب لا من ناحية الموضوع ولا من ناحية الاداء وانهم يدعون إلى مايسمى تفجير الطاقة الإبداعية واسقاط الحدود والضوابط بما فيها حدود اللغة والجنس والدين.

ثالثا: مسلسلات الحقد والسخرية

انتشرت مسلسلات من نوع خطير تحاول أن تشكل فى الجماهير ذلك الشعور بالحقد أمام الآخرين والعمل على تدميرهم وذلك من خلال : الجريمة والجنس.

رابعا : ظهور طبقة اصحاب الدخول الطفيلية وتأثيرهم على.السينما والمسرح حتى أصبحت جميعها تخضع للذوق الغالب من الطبقة المسيطرة فى المجتمع ومن هنا فإن الفن أو الفكر الذى تقدمه خضع لذوق مفروض وطابع محدود .

ومن هنا فإن سيطرته من شأنها أن تفسد القيم الأساسية الاجتماعية الإسلامية وأهمها البذل والسماحة والحنان والرحمة.

أما الآن فإن هناك من الصراع والتسابق على النهب وامتلاك الثروات بالحرام دون النظر إلى مصادرها ما يغلب على طوابع الخير، وقد أدى ذلك إلى تدهور الأغنية ومن ثم تدهور الحس الجمالى لدى المجتمع بعد استشراء طوفان الأغانى الهابطة والمسفة التى تهبط بالذوق العام، فكلمات الأغانى ذات طابع سطحى وهى كلمات مرصوصة بعيدة عن المشاعر السامية.

وهكذا فإن الأغنية بشهادة أهل الفن أنفسهم (مصطفى عبد الرحمن) منذ عام١٩٧٥ تعيش عصر الهبوط وزمن الضياع الفنى .

وقد رفض المشرفون على الأوبرا إقامة الليالى المحمدية الشعرية بينما يسمحون لجماعات متواضعة بعرض تفاهاتهم، وهذا الانفتاح أدى إلى انسلاخ القصيدة من الذوق العام بعد أن وصلت إلى الدرجة الثالثة فى الذوق، وغلبت الكلمات المسفة لانها تتمشى مع أذواق الانفتاح فى عصر التحلل والرخاوة وفساد الذوق العام وانحطاطه (مصطفى عبد الرحمن).

خامسا: الدعوة الى اتخاذ بيكاسو ـ نيتشة ـ كاليجولا ـ ألبير كامى وغيرهم علامات ارتكاز للفن الجديد.

وهى تحمل الدعوة إلى (تحرر الفنان من عقل العقل واعلاء الهلوسة باعتبارها فى نظرهم ظاهرة طبيعية يفهمها علماء النفس. ويشيدون بلوحات بيكاسو التى تخدش الحياء وتهين أذواق الناس حيث بيعت إحدى لوحاته الإباحية بثمانية وأربعين مليونا من الدولارات، ويدعو بيكاسو إلى إعادة توزيع مواقع الجسم البشرى، وتحمل لهجة وحشية ولغة بدائية بالغة الهمجية مثل لغة سكان الكهوف والغابات، وبمنطق الساحر الأفريقى الذى يتعامل مع الأرواح الشريرة.

سادسا : المسلسل الاجنبى (فالكون كريست)

وهذا من أخطر ما يقدمه التليفزيون ومن أسوأ ما يختار ليعرض على أمة لها قيمها وأخلاقها يقول أحد النقاد: ليس ذنب المسلسل أنه مصنوع بحرفية عظيمة، وأن إيقاعه سريع يخطف الأنفاس وأنه يستخدم المعارك والمهاترات الإخراجية والتمثيلية والتصويرية بشكل يجعل المتفرج العربى يحس بغباء وتخلف.

ويقول: « إننا غافلون تماما عن التخريب الهائل الذى يحدثه مثل هذا المسلسل فى عقول أبنائنا وإن كانت وقائع المسلسل لا تمثل قطاعا حقيقيا فى حياة المواطن العربى عموماً» .

هل ضاقت برامج الفكر الغربى فلم يجدوا إلا هذا الشر والفساد ليقدموه زادا إلى أبنائنا وبناتنا الذين تطحنهم الكآبة ليشربوه.

سابعاً : من أخطر تداخلات الصهيونية فى الفن قصة سالومى التى تقدم على مسارح القاهرة، فهذه الاميرة سالومى التى قدمت أمام الملك هيردو أشهر رقصة فى التاريخ ليقطع رأس غريمها يوحنا الناصرى يقول: لن يكون فى مملكتى بعد اليوم سوى الرقص، الرقص فقط ولا شئ غير الرقص، الرقص فقط ولا شئ غير الرقص، الرقص هو كنة الحياة وكينونتها، عندما يسعد الإنسان فهو يرقص وعندما يتضرع إلى الرب فهو رقص وعندما يحزن فليس أقدر على التعبير عن الحزن من الرقص. الرقص هو كل شئ، ستكون رقصة سالومى. هى نقطة تحول فى تاريخ الإنسانية بأسرها، وهكذا تحاول وسائل الفن ترويج مفاهيم مسمومة تختلف عن مفاهيمنا .

❑ ❑ ❑

فاذا اردنا ان نعرف حكم الاسلام فى الفن والموسيقى والتمثيل عرفنا أن الإسلام لايحرم الفنون تحريما مطلقا ولكنه يضع لها ضوابط محددة يجب الالتزام بها، إن مايؤدى من ذلك إلى حلال أحله وما يؤدى إلى حرام حرمه.

فبالنسبة للغناء إذا كان طيبا من حيث الموضوع، وكانت الكلمات عفيفة وبعيدة عن الإسفاف والمجون، وكانت المعانى شريفة وغير مبتذلة وخالية من الخلاعة واللهو الهابط الذى يزرى بالكرامة ويبعد النفس عن الأخلاق الكريمة فإنه يكون حلالا والإسلام لاينكر خطر النفس من المرح البرئ ولكن بشرط عدم الإسراف.

أما إذا كان الفن مما تحث كلماته على الرذيلة أو يؤدى إلى الفتنة أو إلى ضياع الواجبات الدينية والدنيوية أو فعل المحظورات فإنه يكون حراما .

وإذا كان الرسول ﷺ قد أذن للفتيات الصغيرات أن يغنين ابتهاجا بالعيد ونهى عمر رضى الله عنه عندما همّ بزجرهن فإن ضرب هذا المثل البعيد اليوم بالنسبة

لمانراه ولما يقدم لنا فإن الأمر مختلف اختلافا شديدا، فأين من تلك الصورة الساذجة مانراه من أساليب ووسائل وأدوات وكلمات وماتحمله الكلمات من شهيق وزفير وأهواء .

بالنسبة للتمثيل يتفق الجميع على أنه إذا كان الموضوع هادفا ويحتوى على أغراض وطنية أو أدبية فهو أمر مقبول أما الإثارة الجنسية واللغو الخبيث فإنه مما يبرأ منه.

أما تمثيل المرأة فإذا التزمت بآداب الإسلام فى زيها الذى تستتر به جميع جسدها وتبتعد به عن التبرج والخلوة بالرجال فى البروفات والتكسر فى الأحاديث فلها أن تمثل ولكن ليس أى دور، وإنما دور الأم ودور البطولة التاريخية والأدوار الإنسانية.

٢ـ أما بالنسبة لغناء المرأة فيؤكد العلماء على أن المرأة اذا كانت تغنى فى حدود الكمال أغاني دينية تبعث على الكمال والعفة وبدون تكسر فى صوتها أو اهتزاز فى جسمها يثير الغريزة الجنسية ويكون ظهورها أمام الناس فى صورة محتشمة ملتزمة بالزى الإسلامى فان غناء المرأة هنا يكون حلالا.

ويحظر خلوة الملحن الرجل بالمرأة التى ستغنى لحنه فهو محرم شرعا حتى ولو كانت ستلتزم بكل الشروط السابقة، لأن خلوة الرجل بالمرأة الأجنبية يحرمه الاسلام ويقصر الاسلام غناء المرأة على بنات جنسها، ولها أن تغنى وهى منفردة أمام مثيلاتها من النساء او تشترك معهن فى أداء بعض الفنون بعيدا عن حضرة الرجال.

أما بالنسبة لغناء المرأة أمام الرجال فإن الإسلام لم يأذن لها أن تقرأ القرآن بصوت عال لايسمعه الأجانب ومنعها من أن تؤذن للصلوات وسن لها أن يكون صوتها فى صلاتها بقدر ماتسمع نفسها وأسقط عنها حضور الجمعة والجماعات والجهاد، وأجمع العلماء على أن الصورة التى يقدم بها الغناء حاليا من تخنث وميوعة وتنغيم في الصوت وعرى فاضح وحركات خليعة ورقص مبتذل كل ذلك يرفضه الإسلام ولايرضاه أبدا.

والموسيقى التى لاتخرج عن أصوات كأصوات الطيور ليست من الأمور المحرمة إلا فى حالة واحدة هى أن تكون إيقاعاتها تدعو للرقص أو تغرى الانسان بالشر.

والغناء الجائز شرعا هو مالايدعو إلى إثم ولايدعو إلى رذيلة أو منكر والتمثيل شرطه الابتعاد عن إثارة الغرائز وكشف العورات والخروج عن الوقار والحياء أما إذا تضمن إثارة الغرائز وتهجما على الفضل فإنه لا يجوز » ا.هـ

❑ ❑ ❑

أما مايقدم الآن فى مجال الفن فإنه مما يحاسب عليه: كتاب القصص والمخرجون والممثلون والممثلات، فإن إنشاء قصة حياة ليست موجودة فى الحقيقة من الأعمال التى يرفضها الإسلام لأنها خروج عما أوجده الله تبارك وتعالى، وشأن ذلك هو شأن صناع التماثيل .

أما أثر مايدور فى هذه القصة والمسرحيات والممثلات فهو يوحى بالفتنة والإباحة والإثارة فهو مما يحاسب عليه أصحاب الأقلام والمخرجون، وسوف يكون الحساب عسيرا فليحذر اصحاب الأقلام من أمانة الكلمة ومسئولية الصدارة.

لقد أصبح من الضرورى أن نواجه هذه القضية مواجهة صريحة صادقة. فنحن من خلال مفهوم الإسلام لايمكن أن نقبل مفهوم الغرب الوافد للفن والحضارة على هذا النحو الذى يروجون له والذى ينشرونه بيننا ونحن نعلم أن هناك محاولات دائبة ومؤامرات واسعة تفتح الأبواب بالإغراء والخداع امام أبنائنا وبناتنا للانخراط فى سلك هذه المؤامرة الواسعة، وقد كانوا حريصين على اغراء ابنائنا بعبور البحر لتجنيدهم فى هذه الحطمة.

وكان كل من يذهب إليهم يعود الينا حاملا لواء الصدارة فى هذا المجال، وكم فتحت هذه الخدعة من أبواب الفساد والإباحة، وأضرت من بيوت وهتكت من أعراض، وما هذه الاعلانات المغرية التى تدعو إلى ان يتقدم الشباب لمقابلة العتاة من

رجال الفن والمسرح لمعرفة إلى أى مدى يقبل هؤلاء ـ شبانا وفتيات ـ بالعرى والجرأة وبذاءة القول والاهتزاز حتى يكونوا نجوما جددا، وكم عرفنا من قصص لهؤلاء النجوم وهاته النجوم من مفارقات وتجاوزات وتفريط فى كثير من القيم فى سبيل النجاح والقبول .

ومن وراء هذه المؤامرة كلها قوى عاتية تعمل على هدم مقومات الخلق والدين والعرض فى الأمم وكسب أكبر قدر من الشباب المفرّغ الطلعة الطامح إلى مظاهر الحرية وبريق المال وإغراء الشهرة من مجموعة الشباب الذى فشل فى مجال الدرس والعلم والكد الصحيح للحصول على الدرجة العلمية فإذا بهؤلاء يسبقون الأصلاء وتلمع أسماؤهم ويحصلون على الشهرة والغنى والظهور فتنهدم بذلك المقاييس الصحيحة وترجح كفة المعرفة فى ميادين الهوى والأهواء فتكون أكثر عطاء من ميادين العلم والجد. ولقد كانت هناك كلماتٍ تقال خداعا وتضليلا وكذبا وبهتانا، ومازالت تتردد حتى صدقها الناس، وتلك هى كلمات الفن. وقداسة الفن وكرامة الفن وما كانت هذه الألاعيب فى الحقيقة فنا بمفهوم العلم الصحيح ولكن كل هذا الذى يرى فى هذا المجال إنما هو عملية إضحاك رخيصة تافهة، تستخدم كل وسائل العبث والانحلال والعبارات الرديئة والحركات الضالة فى سبيل إضحاك الناس على نحو ليست له ضوابط أو قيم أو أوضاع محددة.

وهى بذلك تتعارض مع أصول (فن الترويح) الحقيقى الذى يقوم أساسا على السماحة والبراءة والنقاء، والذى يدخل السرور على القلوب الحزينة دون أن يفسد أية قيمة من قيم المجتمع أو يهدم أى ركن من أركان الأخلاق .

والذى نعرفه أن هذه الوسائل من الإضحاك قد بلغت فى هذه المرحلة من تاريخها حداً بالغ الإسفاف والسفه بحيث يخشى منها على الأخلاق الصحيحة وخاصة بالنسبة للفتاة العفيفة، وإن الكلمات التى تتردد والحوار الذى يقوم فى هذه

المسلسلات قد وصل إلى أدنى ما يمكن أن يتناوله الصعاليك والسفلة فى أحط الحوارى .

فإذا أضفنا إلى ذلك سير هؤلاء الذين يقدمون هذا العبث وما يجرى فى حياتهم الخاصة وهو أمر معروف ومكشوف، وجدنا اننا نضع أبناءنا وبناتنا فى جو ردىء تماما ونجد أن محاولة وضع هؤلاء الراقصين والمغنين والممثلين كما يبدو فى الصحف فى صورة النماذج العليا والمثل الرفيعة وإن كلماتهم وإجاباتهم تمثل الحكمة البالغة التى ينخدع بها الشباب الغض الطرى قليل الخبرة والذى لم يعرف أى قدر من الدين أو الايمان عرفت إلى أى حد بلغ مدى الخطر الذى يتهدد الأمة الإسلامية .

والعجيب ان هذه الدائرة المظلمة تحاول أن تحاصر المجتمع كله فلا يقتصر على المسرح أو التلفاز، وإنما تمتد إلى الصحافة والقصة والترجمة، وتقدم فى هذا المجال ما يسمى بالروايات العالمية الحافلة بالسموم المرتبطة بالجنس والجريمة فى وقت واحد على نحو تحس معه بأن هناك مؤامرة مبيتة حيث توصف الأعضاء التناسلية فى جرأة بالغة وما يدور فى غرف النوم مما يسمى بأدب الفراش، وليس هذا بغريب على الامم الغربية التى قد تجده فى بعض فصول الكتب المقدسة ولكنه غريب علينا نحن المسلمين وتتقزز له نفوسنا .

وقد سجل القرآن الكريم: ظهور الفساد فى البحر والبر بما كسبت أيدى الناس، وكيف أن هناك قادة لهذا التيار يدعون الناس اليه ﴿**ويريد الذين يتبعون الشهوات أن تميلوا ميلا عظيما**﴾.

ثم يحذرنا الحق تبارك وتعالى من حيث إن الانسان ضعيف لايحتمل هذه الوجهة التى تدمره ﴿ **والله يريد أن يتوب عليكم ويريد الذين يتبعون الشهوات أن تميلوا ميلا عظيما** ﴾.

إن هناك مفارقة واضحة بين طابع الأمم الغربية التى ورثت هذا التراث المشحون بالاثم والفاحشة والكشف، وقصص الجنس والجريمة والاندفاع نحو اللذات والشهوات حتى حفلت به كتبهم المقدسة فى (سفرى استير وحزقيال) بما حوت من صور اللواط والإباحة فى الادب والفن.

اننا نحن المسلمين لانقر مفهوم الحضارة الغربية فى الفن الإباحى الفاجر الماجن الذى يختلط فيه الرقص بالغناء بالخمر، والاختلاط الفاحش غير المهذب، وحين نقول هذا بكل صراحة نختلف مع الغرب فى مفاهيمه وقيمه التى يريدون أن يفرضوها علينا فالحضارة فى الإسلام لها مفهوم سمح كريم، ، راق، بعيد كل البعد عن الفسق والفاحشة، قائم على الخلق والكرامة وحماية العرض.

ان مفهوم « الترويح » الذى يطلب من الفن يجب أن يرتفع فوق الفسق والفجور والدعارة التى تفرضها هذه المؤسسات القائمة على استباحة الحرمات والمقدسات، وان الإسلام قد وضع حدوداً وحجب صنائع، فحرم على المسلم العمل بها أو قبولا بها فى مجتمعه، ووصف الذين يعملون فيها بأنهم يقبلون الدنية فى دينهم، ويجب أن نبدأ ذلك من المدرسة فلا يفرض الرقص والغناء والتعرى على طالبات المدارس وهن غير راغبات، ولاتوجه المسابقات المغرية لما يسمى (الوجوه الجديدة) لخطف الفتيات البريئات من الأسر المؤمنة الآمنة لتسليمها للعتاة والظلمة الذين يفرضون على كل من تعمل أن تسلم جسدها ونفسها كاملة للمدربين من عتاولة الفن. وأنهم ليحمون هذا المورد بكل ما يمكلون لأنهم يعلمون أنه المنطلق الوحيد لتحقيق آمالهم فى هدم مقومات هذه الأمة وتدمير قيمها، أن هذا المجال مما يسمى بالفن هو المرفأ الأول والأخير لتحقيق غايات الماسونية وبرتوكولات صهيون وعمليات التغريب والغزو الثقافى والسيطرة على العقل المسلم والوجدان المسلم واحتوائهما وتفريغهما من الدين والإيمان واليقين، وملئهما بالشكوك والإباحة والرجس والفسق، وهذا هو سر

فزعهم الشديد وحملتهم الضارية وتكاتفهم على الدفاع عما سموه (قدسية الفن). وهى قدسية الاباحة والفساد فى الحقيقة.

ومن المستحيل أن نقبل دعاوى المدعين بأن هذه المسرحيات ليست إلا من قبيل إضحاك الناس وتسليتهم وتخفيف معاناة الحياة عنهم، أما دعوى أنها مدرسة ومنهج وعمل لتصحيح مسار الحياة ونقد للمجتمع بهدف إصلاحه فهذا كله من الكذب والدعاوى الباطلة التى لم تثبت صحتها مرة واحدة.

إننا نعرف أن القائمين على المسرح لايريدون إلا الكسب المادى ونعرف أن الذين وراءهم يخططون لتنفيذ مقررات بروتوكلات صهيون بهدم المجتمع الإسلامى الذى أشير إليه باسم (مجتمع الجوييم) أى غير اليهود، وفى ضوء هذين الهدفين ترسم المسرحيات ويكتب الحوار دون تقدير لأى قيمة أخلاقية أو فنية.

ويكذب أمثال أنيس منصور وغيره فى دعواهم الباطلة بأن المسرح هو منطلق الإصلاح أو ما يسمونه (العلاج الجماعى). والواقع أن الناس يضحكون على أنفسهم وعلى بعضهم البعض .

إننا مطالبون بالعمل على تحرير الترويح من الفحش، ولاقداسة إلا لقيم العقيدة، وليس للفن قداسة تجعله فوق ضوابط القيم التى جاء بها الإسلام. إن هذه المعسكرات هى التى فتحت أبواب الفساد للمجتمع كله وحاولت ان تحل ما حرمه الله وان تجعل الإباحية وضعا مشروعا.

ومن الضرورى أن ينبثق الفن من عقيدة المجتمع ومشاعره وطوابعه، فالمجتمع المسلم يختلف اختلافا عميقا عن المجتمع الغربى والمجتمع الإغريقى.

الفصل العاشر

المؤامرة على التعليم

بدأت المؤمراة على التعليم فى الوطن العربى والأقطار الإسلامية من قبل احتلال الاستعمار البريطانى والفرنسى « والهولندى والإيطالى أيضا » لهذه البلاد. فقد كانت إرساليات التبشير قد انطلقت وحاولت أن تتخذ لها مراكز على الجبهة الممتدة من أرخبيل الملايو إلى الدار البيضاء، ومن خلال معاهدها أعدت المناهج الاستعمارية التى عملت على هدم الثقافة الإسلامية والعقيدة والتاريخ جميعا.

وقد جاء ذلك باعتبار التعليم فى نظر القوى المستعمرة أخطر المداخل لتدمير حكومات الأمة الإسلامية وقد انتهى الاحتلال بعد ان كون ركائزه ورجاله ومناهجه على النحو الذى يجعل الأمة الإسلامية فى تبعية كاملة.

وكان أخطر ذلك هو توسيع نطاق العلوم النظرية والمعارف التى لا أهمية لها، والاهتمام بالآداب والفنون وحجب العلوم الحقيقية والتطبيقية القادرة على بناء الأمة على النحو الذى يمكنها من الدخول فى دائرة الكشف والابتكار والصناعة، ولكن هذا الأمر كانت هناك محاذير كثيرة للحيلولة دون وقوعه.

وكانت هذه البرامج التى طبقتها البلاد العربية الإسلامية هى نفس المناهج التى أعدتها الإرساليات والمدارس الفرنسية والإيطالية فى بلادنا لاحتواء الشباب المسلم والتبشير بالمسيحية من خلال التعليم والثقافة وتكوين أجيال تفهم الإسلام على أنه دين لاهوتى لا يختلف عن المسيحية أو إخراجهم من مفهوم الإسلام الصحيح على الأقل.

وقد نقلت هذه المناهج إلى التعليم الوطنى مع تعديلات بسيطة لا تخرج عن أن تكون تغطية للأهداف الخفية.

ولقد كانت المعطيات التى تعد لها هذه المناهج والتى وضعت فى دقة وحذر ترمى إلى تكوين شباب مسلم اسما علمانى النزعة لا يؤمن بالإسلام إلا بوصفه دينا عباديا لاهوتيا شأنه فى ذلك شأن المسيحية، وكانت كل الشرائح التى تقدم سواء فى مجالى التاريخ أو الأدب أو الاجتماع أو العلوم الإنسانية والاجتماعية منقولة من مقررات غربية يراد بها توهين حقيقة الإسلام بوصفه منهج حياة ونظام مجتمع، وكانت قوى كثيرة تعمل على نقل المناهج المصرية إلى الأقطار العربية وهى على ما هى عليه من قصور وعلمانية بوصفها أصلح المناهج، وبذلك تتسع دائرة التعليم العلمانى الذى أعده الاستعمار فى الوطن الإسلامى كله، وبوصفها تجربة رائدة يمكن أن تعمم.

ثم جاءت بعد ذلك مرحلة أشد خطورة هى مرحلة منهج شرشر وماتلاها وماصاحبها من مصائب التجهيل باللغة القومية وبتراثها، وعزلها عن العصر الذى تعيشه أمتها وحرمانها ـ وفى قادة تعليمها بالذات ـ من التفاعل مع تراثها القديم ومع إبداعاتها الحديثة ومع علوم العصر وأفكاره ومناهجه العلمية بما يفتح الطريق أمام تخريج اجيال من معلمى اللغة الضعاف فى عملهم وامام تخريج الاجيال العاجزة عن استعمال اللغجة بما يفتح الطريق امام سيطرة غير الموهوبين على تأليف الكتب المدرسية وتقديم النُماذج اللغوية العليا.

تطوير الأزهر: وكان تطوير الازهر الذى تم سنة ١٩٦١ مطمحا استعماريا خطيرا منذ الاحتلال البريطانى ١٨٨٢. حيث كانت المخططات المرسومة تدعو إلى إخراج التعليم الوطنى من قبضة الأزهر أولا وهو ما تم فعلا بالتعليم العام الذى انشأه كرومر، ثم كان باحتواء الأزهر فقد كانت هذه المخططات تقول:

(إذا أمكن تطوير الأزهر عن طريق حركة تنبعث من داخله هو لكانت هذه

خطوة جليلة القدر، وليس من اليسير، تصور أى تقدم مادام الأزهر متمسكا بأساليبه الجامدة، ولكن إذا بدا أن هذا الأمل غير متيسر حقيقة فحينئذ يصبح الأمل محصورا فى إصلاح التعليم اللادينى الذى ينافس الأزهر، وعندئذ سوف يجد الأزهر نفسه أمام أحد أمرين: فإما أن يتطور وأما أن يموت ويختفى)

«كتاب مصر مند كرومر ـ لورد لويد»

ويقول هاملتون جب فى كتاب (وجهة الاسلام):

(مع ان الوحدة الإسلامية قد انتهت من الناحية الرسمية (يقصد بذلك سقوط الخلافة) ومع أن الثقافة القومية أخذت مكانها فى المدارس إلا أن المعاهد الدينية لا تزال قائمة ولا يزال حفظه القرآن ودارسوه كما كانوا لم ينقص عددهم ولم يضعف سحر آيات القرآن وتأثيره على تفكيرهم)

❑ ❑ ❑

ثم جاءت المحاولة الحديثة التى يطلقون عليها اسم (تطوير التعليم) والتى رسمت خطتها فى ضوء معاهدة كامب ديفيد، ويراد بها إزالة الإحساس العقدى نحو الاحتلال الصهيونى الفلسطينى وسيطرة اليهود على بيت المقدس، وواجب المسلمين فى مقاومة هذا الاحتلال كما رسمته الشريعة الغراء من الاحتشاد له تحت لواء الجهاد فى سبيل الله ومتابعة الخطوات التى خطاها العرب من عام ١٩٤٨ ومواجهة للآثار الخطيرة البالغة الخطر فى احتواء الوطن العربى والأمة الإسلامية فيما يطلق عليه امبراطورية الربا من النيل إلى الفرات وفرض النفوذ الصهيونى عليها وتقبله واعطائه القدرة على احتواء الامة الاسلامية.

وهذه مهمة التطوير التى يراد بها تحقيق هدف واحد أساسى هو قبول إسرائيل فى قلب الأمة الإسلامية والاستسلام أمام نفوذها وسلطانها، وذلك بتدمير كل القوى التى تحمل الثقافة والتاريخ والقيم التى تحملها الشرعية الإسلامية فى مواجهة الخطر ومقاومته.

خطة التطوير: ويمكن القول ان خطة (التطوير) التى يجرى تطبيقها هى مرحلة جديدة بعد مرحلة ١٩٦١ التى استهدفت تطوير الأزهر ثم جاءت هذه المرحلة ١٩٨٠ وما بعدها كخطوة تالية لما جرى فى عهد الاحتلال الفرنسى والاحتلال الإنجليزى فى الوطن العربى.

وكانت قوات الاحتلال البريطانى قد استقدمت فى عهد كرومر قسيسا إنجليزيا هو (دنلوب) الذى انشأ دور علم خاصة (التعليم العام) بجانب التعليم الأزهرى، فكان الازدواج فى التعليم ـ تعليم الإسلام فى الأزهر وتعليم علمانى فى المدارس.

ثم خرج الاحتلال بعد أن ركز مخططاته وأتباعه وأهدافه التى رسمت لتنفذ بأيدى الوطنيين أنفسهم، وكانت تقدم بذلك من خلال معهد التربية وخريجيه الذين كانوا ينشرون نظرية (ديوى) ومعاهد الإرساليات والمناهج التعليمية العلمانية التى كان المشرقون عليها يحاربون دون إضافة سطر واحد إلى مادة الدين الذى كان يدرس على أنه صلاة وصيام، وليس على أنه منهج حياة ينتظم جميع مواد التعليم والدراسة. وهكذا ظلت السياسة التعليمية التى وضعها دنلوب سائرة فى طريقها لم تتغير لتحقيق أهدافها.

وهكذا تحققت كل مطامح خصوم الإسلام بتطوير الأزهر ١٩٦١، وفق مارسموه وما أشار إليه طه حسين فى (كتابه مستقبل الثقافة) حين دعا إلى إشراف وزارة المعارف على التعليم الأزهرى وذلك لأن التعليم الأزهرى القديم قد جعل من العسير على الجيل الازهرى الحاضر إساغة الوطنية القومية بمعناها الاوروبى الحديث.

وهكذا تأتى مرحلة التطور الحديث المرتبطة بكامب ديفيد خطيرة اشد الخطورة.

وقد كشف الدكتور جمال عبد الهادى فى كتابه (التطوير بين الحقيقة والتضليل) كيف أن اتفاقية السلام مع اليهود هى مصدر الجناية على التعليم المصرى.

وبالرجوع إلى نصوص الاتفاقية التى توصل إليها اليهود مع الحكومة المصرية ١٩٧٨ نجد أنها تهدف إلى:

إعادة صياغة العقل المصرى ليتقبل ما يسمى بأرض الميعاد حيث تدور نصوص الاتفاقية حول عدة محاور منها.

أولا : ضرورة فتح الحدود أمام إسرائيل وتبادل المعلومات والثقافة والعلوم معها.

ثانيا : ضرورة مراجعة البرامج الدراسية فى كلا الجانبين مراجعة شاملة وفحص ما يدرس فى مصر عن اسرائيل ومايدرس فى اسرائيل عن مصر والعرب وتحديد مايجب حذفه من برامج التعليم الحالية وإضافة المواد الحديثة المرغوب فى دراستها.

ثالثا : ضرورة إزالة المفاهيم السلبية تجاه إسرائيل فى الإسلام، وقد صرح إسحق نافون رئيس الكيان الإسرائيلى السابق فى خطابه فى جامعة بن جوريون أمام السادات فى ١٩٧٩/٥/٢٧ بأن تبادل الثقافة والمعرفة لايقل أهمية عن الترتيبات العسكرية والسياسية. وقال فى خطابه فى مصر بأن أى صياغة أدبية أو دينية تخالف التصورات الإسرائيلية تعد مساسا بالسلام الإسرائيلى، وفى ندوة جامعة تل أبيب ١٩٨٠/٢/١٩ أثار اليهود موضوع ماورد فى القرآن الكريم من اتهامات ضد اليهود. وتناقل هذا فى مطبوعات اخرى بمصر، فقال دكتور مصطفى خليل ليطمئن اليهود:

اننا فى مصر نفرق بين الدين والقومية، ولا نقبل أن تكون قيادتنا السياسية مرتكزة على معتقداتنا الدينية. فرد عليه دافيد فينال قائلا:

إنكم أيها المصريون أحرار فى أن تفصلوا بين الدين والسياسة، ولكننا فى إسرائيل نرفض أن نقول أن اليهودية مجرد دين فقط.

ونشرت صحيفة الرأى الأردنية فى ١٩٨١/٩/١٠ أن بيجن طلب من السادات تغييركتب التاريخ والقرآن الكريم، وذلك عند زيارته لمصر فى ١٩٨٠/٨/٢٥ حيث قال للسادات إنهم لن يرضوا أن يستمر الطلبة فى مصر يدرسون كتب التاريخ التى

تتحدث عن اغتصاب إسرائيل لفلسطين، وكتب التربية الإسلامية التى تحتوى على آيات تندد باليهود وتلعنهم مثل آية ﴿ **لعن الذين كفروا من بنى إسرائيل على لسان داود وعيسى بن مريم ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون** ﴾.

وآية ﴿ **لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا** ﴾

وذكرت الصحيفة أن السادات استجاب لطلب بيجين وأمر باعادة النظر فى المناهج الدراسية.

وقد حذفت موضوعات كثيرة من المقررات الدراسية كالآيات فى الموضوعات التى تحض على الجهاد والشجاعة والدفاع عن الأرض والعرض، وأضيفت موضوعات عن كرة القدم وقصائد نزار قبانى وغيرها.

وظهرت تصريحات لمحاولة تنويم الأمة كالقول بأن حرب العاشر من رمضان هى آخر الحروب وغير ذلك، فى حين لم يطور العدو مناهجه لمصلحة المسلمين بل طور أسلحته الهجومية ومازال ينمى قدراته القتالية لتحقيق مخططه فى قيام إسرائيل العظمى من النيل إلى الفرات.

وقد أعطت الاتفاقية اليهود فرصة نادرة للاختراق والتغلغل داخل مصر، وقد كشف الدكتور إبراهيم البحراوى أن أهداف إسرائيل التى تحاول تحقيقها من غزوتها الفكرية لمصر هى:

- تهويد عقل مصر.
- وتجريد المجتمع المصرى من إرادة الصراع وإيقافه بعيدا عن حالة اليقظة والاستعداد ليكون فى وضع الفريسة السهلة فى اللحظة التى يقرر فيها اليهود شن الحرب.

يحدد الدكتور جمال عبدالهادى أهداف التطوير فيما يلى:

أولا: يسعى التطوير إلى طمس عقيدة الأمة وتذويب هويتها وتغريب تقاليدها.

ثانيا: تضخيم المعلومات النظرية وإهمال الجانب التطبيقى.

ثالثا: العزوف عن برامج التطور الحقيقية التى تنبع من حاجات الأمة وتقاليدها وعقائدها.

رابعا: ارتباط التطوير الحالى بجذور الغزو الفكرى الاستعمارى.

وقد قام التطوير بإدخال موضوعات تغريبية على مناهجنا الدراسية كما قام بحذف فى موضوعات إسلامية وحذف كتب إسلامية بكاملها وفى مقدمتها كتاب التاريخ الإسلامى وقرر بدلا منه تاريخ الفراعنة

وقد شهد الدكتور صوفى أبوطالب رئيس لجنة التعليم بمجلس الشعب بأن مناهج التاريخ شوهت التاريخ الإسلامى وزيفته، حيث وصف بعض الصحابة بأنهم مشيعو الفتنة على الرغم من أنهم من المبشرين بالجنة.

كما حذف دور العرب والمسلمين فى الحضارة الأوروبية.

وان التطوير الجديد نحى القيم والأفكار الإسلامية من المقررات، كذلك فقد ألغى فى مناهج الأزهر مواد التفسير والحديث وألغت وزارة التربية الآيات القرآنية التى تحث على الجهاد وتوجب الحكم بما أنزل الله تبارك وتعالى ووضعت بدلا منها موضوعات تشجع على التعامل مع البنوك الربوية كما تشجع فكرة تحديد النسل التى تروج لها أمريكا.

كذلك فقد ألغيت كتب مقررة مثل عبقرية عمر وقدم بدلا منها طه حسين وتوفيق الحكيم والعقاد إيمانا من اساتذة التطور بأن عبقرية الحكيم وطه حسين تتفوق على عبقرية عمر بن الخطاب وغيره من الصحابة. ومن الواضح أن التغييرات التى

تمت فى مجال التعليم لاتخدم إلا أعداء الأمة من الاستعمار والصهيونية العالمية وقاعدة الاحتلال اليهودى بفلسطين، وذلك منذ (كامب ديفد) وما تلاها من تطبيع وخاصة وأن التغييرات التى طرأت على المناهج انصبت على رفع شأن اليهود وإخفاء سوآتهم وعدوانهم المستمر على ديارنا وإلغاء موضوعات الجهاد والتضحية والشجاعة وغيرها مما ورد فى القرآن الكريم والأحاديث النبوية الشريفة وسير الأبطال، هذا بالإضافة إلى إلغاء اسم (فلسطين) فى معظم الخرائط الجغرافية والتاريخية وإضافة اسم إسرائيل مكانها فى بعض تلك الخرائط.

خطورة المنظمات الدولية:

وهنا تبدو أهمية دور المنظمات الدولية وأثرها فى تدمير القيم الإسلامية فى التعليم وفى مقدمتها اليونسكو ـ وجمعية الإسلام والغرب.

ومما يذكر أن المنظمة العربية للتعليم والثقافة التابعة لجامعة الدول العربية تبنت جمعية الإسلام والغرب والتى تخصصت فى الدس على المناهج والمقررات الدراسية فى العالم الإسلامى والعربى وخاصة مادة التاريخ الإسلامى.

اما مؤسسة اليونسكو فإنها تعمل منذ اليوم الأول على تدمير تميز الاسلام وتحاول ان تحتضن دعوة مسمومة إلى وحدة الأديان أو الثقافات يراد بها القضاء على خصوصية الفكر الإسلامى والثقافة الإسلامية.

يقول الدكتور جمال عبدالهادى: كانت اليونسكو ، منذ انشائها تجنح إلى الفكر الإلحادى الصريح حيث تولى رئاسة اللجنة التحضيرية للمؤتمر التأسيسى الأول (جوليان هكسلى) البريطانى الجنسية الذى وضع فى كتابه عن اليونسكو نظرية اسمها (الإنسانية الارتقائية) لتحل محل الاديان والفلسفات المحلية، وذلك بحجة تذويب الفوارق الثقافية بين الشعوب لتجنب الصراعات الدولية ولما عارضه فى ذلك عدد من دول العالم الثالث وطالبوا بالعدالة فى تمثيل ثقافات الدول انسحبت أمريكا من اليونسكو.

وقال وزير خارجية أمريكا إن الأخطار والايدلوجيات التى سادت المنظمة تضر بمصالح الأمريكان، وهذا دليل قاطع على عنصرية التفكير الأمريكى ورغبته المعلنة فى تسيير سياسة المنظمة وإلا انسحبت منها، وهكذا بدأت اليونسكو بالالحاد وانتهت بالعنصرية.

ومن الأمثلة على تحيز اليونسكو ضد الإسلام المجلد الثالث لدراسة التاريخ الثقافى العالمى الذى تناول تاريخ الإسلام واحتوى كثيرا من الأكاذيب والأباطيل ضد الإسلام، ولما تعالت الأصوات بتصحيح هذه الأخطاء كان موقف المنظمة سلبيا، وقد جاء التقرير الذى وضعته لجنة محايدة لتقرير مايأتى:

أولا : وجود تحريف خطير للحقائق فيما يتعلق بالقسم الإسلامى.

ثانيا : الدهشة من تسمية البحث رؤية لتاريخ البشرية تتمركز حول أوروبا فى المقام الاول.

حقيقة منظمة (الاسلام والغرب)

وقد كشف النقاب عن حقيقة منظمة الاسلام والغرب، وكيف تخصصت فى إفساد مناهجنا الدراسية والتحايل على رفع كل مايتعلق بمواقف البطولة الإسلامية فى الحروب والمعارك مع الصليبيين والاستعمار والصهيونية، وهى تدعو فى برنامجها إلى تحجيم الكتابة عن القضايا الأساسية التى تكشف مؤامرات الاستعمار الغربى والكنيسة والاستشراق والتبشير فتدعو إلى :

(١) على مؤلفى الكتب والمدرسين ألا يسمحوا لأنفسهم بأن يصدروا أحكاما على القيم سواء صراحة أو ضمنا.

(٢) لايصح أن يقدموا الدين على أنه معيار أو هدف.

(٣) أن يجتنبوا الخوض فيما يتعلق من الماضى بالحاضر أو القيم الشخصية التى تتسم بالمفارقات التاريخية.

(٤) فى عرض الأديان يجب عرضها ليفهم منها التلميذ ليس خصائصها الأساسية فقط ولكن أيضا ما يشترك فيه مع غيرها من الأديان على وجه العموم.

(٦) فحص الكتب الدراسية التى قامت بتقديم الظاهرة الدينية على أن يقدم بذلك علماء من مختلف التخصصات وأعضاء من أصحاب العقائد الأخرى، وكذلك من اللادينيين.

(٥) أن تتولى جمعية الإسلام والغرب زمام المبادرة فى مراجعة الكتب المدرسية ويتطلب ذلك من مختلف الأطراف أن يقدموا خطوات يقبلها الجانبان.

وهذه المقررات تعنى أن يستسلم ممثلو الإسلام إلى وجهة نظر ممثلى الفكر الغربى والمسيحى دون أن يكون للطرف المسلم حق الاعتراض على مايقدمه الغرب فى كتبه عن الإسلام.

وقد طبقت هذه المقررات فى بعض الدول العربية ومصر ودول الغرب ومنها أمريكا فانه لا يسمح بتدخل الحكومة سياسيا فى تغيير اى منهج.

فتربية النشء عندهم بعيدة عن أصابع التغيرات السياسية وكل ما حددته جمعية الإسلام والغرب قصد به ما يطلب تنفيذه من طرف واحد هو الطرف العربى الإسلامى.

وكان أكبر أعمال هذه الجمعية فى مصر إلغاء تدريس التاريخ الإسلامى (فى التعليم الابتدائى) وإحلال التاريخ الفرعونى محله أى (محو الحس الإسلامى فى مادة التاريخ وغيرها)

ومعنى هذا أن هناك تيارين أساسيين يعملان لاحتواء المناهج الدراسية فى هذه المرحلة..

الأول: التطوير لخدمة اهداف كامب ديفيد.

الثانى: الحذف لخدمة أهداف جمعية الإسلام والغرب.

ومعنى هذا أن جمعية الإسلام والغرب ايضا هى إضافة جديدة إلى منظمة اليونسكو على نفس الهدف والطريق.

❑ ❑ ❑

والمعروف أن كتب الغرب تحتوى عديدا من التصورات الخاطئة المراد بها خلق تصور بالكراهية فى النفس الغربية تجاه الاسلام.

وقد أشار الدكتور جمال عبد الهادى إلى أن كتب التاريخ الإسلامية التى تدرس فى الغرب تحتوى على هذه الأخطاء :

(١) رد تهمة تأخر المسلمين إلى القرآن فى دعوى باطلة تقول:

المسلمون بين عام ٨٠٠ ـ ١٢٠٠ لم يتعلموا ما كان عليه حال أوروبا فى العصور الوسطى، والدين الاسلامى كان حاجزا للتقدم فالقرآن لابد من طاعته

حرفيا ولايمكن إجراء أى تغيير فى كتاب المسلمين المقدس وبذلك تخلف المسلمون عن ركب التمدن فظلوا قرونا تحت السيطرة أولا على يد الترك ثم الانجليز والفرنسيين.

(٢) الادعاء بأن إسرائيل ايقظت العرب بسبب قيام إسرائيل حيث تلقى العرب هزة عنيفة أيقظتهم وبدا حاليا تغيير جديد فاستعاد العرب سيطرتهم على أنفسهم بوصول اليهود إلى فلسطين، وأدى ذلك إلى تزايد الكراهية والصراع المسلح بصورة من التعصب الذى لم يعرفه عالمنا المتحضر .

(٣) الادعاء بأن النفط هو مصدر وحدة العرب، ويؤسس العرب الآن قوة دولية فتوحدوا على أساس دينى (هو الإسلام) وفى ذات الوقت تكشف لهم مايتمتعون به من قوة مستمدة من وجود مصادر هائلة من النفط فى بلادهم واستغلوا هذه القوة بنجاح جعلهم يشكلون قوة دولية على مستوى الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتى السابق والصين.

وهكذا سارت كتابات التاريخ المقررة فى مدارس الغرب على هذا النحو من التضليل والخداع والحقد والتحيز الواضح ضد المسلمين. بما يكشف أن التوجية اليهودى أساسا هو المسيطر على هذه الكتابات، وفى محاولة لتصوير المسلمين بصورة التعصب والعدوان والإرهاب.

(٤) الادعاء بأن الإسلام يمنع من التقدم، ومن ثم فكيف تشهد اليوم الصحوة فى العالم الإسلامى

(٥) أطلاقهم على المسلم كلمة (محمدى) وليس مسلم

(٦) القول بأن الإسلام معناه الخضوع وأن الهجرة تعنى الفرار.



المؤسسات التبشيرية :

استطاعت القوى الأجنبية تركيز ثقافتها فى مصر والبلاد العربية عن طريق السماح لها بإنشاء مؤسسات وجامعات ومراكز ثقافية الآن يهودية وشيوعية وأمريكية فى مقدمتها جامعة سنجور والجامعة الأمريكية (فضلا عن المستشفيات والمستوصفات) فى محاولة لرد أبناء الأمة عن الإسلام عن طريق الخدمات التعليمية. وقد حدد القسيس الدكتور صيموئيل زويمر مهمة التبشير بأنه ليس التنصير فقط، ولكن أقصى مايجب على المبشر عمله هو تفريغ القلب المسلم من الإيمان وأن أقصر طريق لذلك هو اجتذاب الفتاة المسلمة إلى مدارسنا بكل الوسائل الممكنة لأنها هى التى تتولى عنهم مهمة تحويل المجتمع الإسلامى وسلخه من مقوماته ودينه:

إنكم أعددتم شبابا فى ديار مسلمين لايعرف الصلة بالله ولا يريد أن يعرفها وأخرجتم المسلم من الإسلام ولم تدخلوه فى المسيحية، وبالتالى جاء النشء الإسلامى طبقا لما أراده له الاستعمار، لايهتم بالعظائم ويحب الراحة والكسل ولايصرف همه فى دنياه إلا فى الشهوات.

ومادام المسلمون ينفرون من المدارس المسيحية فلابد ان ننشئ لهم المدارس العلمانية ونسهل التحاقهم بها: هذه المدارس التى تساعدنا فى القضاء على الروح الإسلامية عند الطلاب.

ويقول المبشر جب: لقد تم معظم هذا التطور تدريجيا من غير وعى وانتباه، وقد مضى هذا التطور اليوم إلى مدى بعيد، ولم يعد من الممكن الرجوع فيه، ولكن نجاح هذا التطور يتوقف إلى حد بعيد على القادة والزعماء فى العالم الإسلامى وعلى الشباب منهم خاصة أن كل ذلك كان نتيجة النشاط التعليمى والثقافى العلمانى.

وقد قامت الجامعة الأمريكية فى (بيروت ـ استنبول ـ القاهرة) فى وقت واحد بهدف تركيز قواعد التبشير والانطلاق فى عملية تدمير عقائد المسلمين بعد عزل السلطان عبد الحميد عام ١٩٠٩.

وكانت مدرسة البنات الأمريكية أول هذا العمل وذروته، ثم الجامعة الامريكية التى قيل فى قرار إنشائها العمل لمواجهة الأزهر مواجهة صريحة، وقد حمل لواء هذا العمل مجموعة من المبشرين الذين لبسوا لباس المعلمين والمربين،وقد أعدوا خريجى الجامعة الأمريكية بعناية ليتولوا مناصب القيادة السياسية والاجتماعية فى مختلف البلاد العربية على نفس النمط الذى بدأه كرومر من قبل عندما عمل خلال ربع قرن على تخريج أجيال تتولى القيادة فى مجالات السياسة والتعليم والصحافة (سعد زغلول ـ لطفى السيد ـ عبدالعزيز فهمى) قبل ذلك باكثر من ثلاثين عاما.

وقد أولى المسئولون فى جامعات أجنبية مثل هارفارد (هنرى كيسنجر) الاهتمام بدعوة عشرات من شباب الجامعات فى مصر والبلاد العربية لإعدادهم للمناصب القيادية فى بلادهم وجاءت جامعة سنجور فى السنوات الأخيرة ١٩٨٩ لتكشف عن تنامى هذا التيار التبشيرى المسموم، وصدر قرار تشكيلها (٥ يونية ١٩٨٩) وهو نفس اليوم الذى وقع فيه الغزو الفرنسى على مصر (الحملة الصليبية السابقة) بقيادة لويس التاسع ملك فرنسا حين استولى على دمياط وكان يعد العدة لغزو مصر كلها ولكن الله تبارك وتعالى خذله حيث رد كيده المجاهدون المسلمون بقيادة الملك الصالح ايوب وشجرة الدر وتوران شاه واخذوه اسيرا وحبسوه فى دار فخر الدين بن لقمان.

وقد أطلق على الجامعة المشبوهة اسم سنجور (ومعناها القديس جورج) وهو أحد أبناء المسلمين الذين تلقفتهم مدارس التبشير بالسنغال، وهو طفل صغير واغتالت عقيدته ونصّرته ثم مكنت له بعد ذلك حتى أصبح رئيساً لجمهورية السنغال، واليوم

انشئ باسمه جامعة فى بلادنا وقد كوفئ على تحوله عن الإسلام بإطلاق اسمه على جامعة تقام فى الإسكندرية وقد بدأ مع هزيمة لويس التحول فى العمل من خطة الحروب الصليبية إلى خطة حرب الكلمة التى أعدت لتدمير مفاهيم الإسلام بإخراجه من مفهومه الأصيل بوصفه منهج حياة ونظام مجتمع إلى دين عبادى لاهوتى على النحو الذى قام به التبشير والاستشراق والتغريب من خلال زويمر وجب ودنلوب وغيرهم.

وقد كان فى مقدمة أعمالهم الخطيرة التى مازالت بعيدة الأثر فى مناهج التعليم فى مختلف أنحاء العالم الإسلامى وهى: دائرة المعارف الإسلامية (التبشيرية) ومايتصل بها من مجموعة معروفة من الكتابات: قاموس المنجد الموسوعة العربية الميسرة (فرانكلين) جامعة كولومبيا.

ويتصل بهذا دور الاستشراق الخطير فى تدمير البنية الفكرية والعقيدية والأخلاقية والعمل على تحريف تاريخ الأمة الإسلامية لحساب ثلاث قوى: (١) الكنيسة (٢) الماركسية (٣) الصهيونية.

وكان أخطر تأثير فى العقود الأخيرة هو محاولة تهويد عقل مصر عن طريق الغزو الفكرى، وكمرحلة جديدة من السيطرة والتغريب، وكان العمل فى مجال التعليم هو أخطر المراحل حيث يقوم التبشير بإنشاء المعاهد والمؤسسات التى تضم الشباب المسلم، والتى يقدم فيها الفكر المسلم الذى أعده الاستشراق من أجل (احتواء) الإسلام وإخراجه من مفهومه الجامع الأصيل، والعمل على الحيلولة بينه وبين توجيه الحياة الاجتماعية والسياسية والاقتصادية للمجتمع الإسلامى.

وهو هدف تجمع عليه كل قوى العمل ضد الإسلام: الغرب والصهيونية والشيوعية جميعا.

ويتصل هذا بقضايا أساسية :

(أولا) : افساد مهمة المرأة المسلمة.

(ثانيا) : إفساد الاعلام والتصور الاجتماعى الإسلامى.

(ثالثا) : إفساد مفهوم الاقتصاد وفرض النظام الربوى.

(رابعا) :حجب الشريعة الإسلامية وفرض القانون الوضعى.

(خامسا) : إنشاء مفاهيم تحديد النسل بدعوى الانفجار السكانى.

(سادسا) : مؤامرة اليهود لتمزيق الوحدة الوطنية.

(سابعا) : السيطرة على مناهج الأزهر وتحويلها إلى المنهج العلمانى.

(ثامنا) : سيطرة اليونسكو على مناهج التعليم العام (والأزهرى) .

تسميم المناهج

كان واضحا منذ أن بدأ التعليم العام (العلمانى) المعزول عن مفاهيم الإسلام أن هناك تعارضا فى بعض المفاهيم وأن هناك ازدواجية خطيرة وخاصة مسألة (الدارونية) التى تتحدث عن خلق الإنسان بمفاهيم مضللة تختلف عن قصة خلق القرآن كما جاء بها القرآن الكريم.

ثم جاءت دراسة الفلسفة التى قدمت لأبناء المسلمين تحمل جراثيم الإلحاد إذ تدعو الى التفكير من خلال المحسوس وحده، وكان حرص النفوذ الأجنبى على دراسة الفلسفة لتكون مدخلا إلى الماركسية والبرجماتية والوجودية، وقد حفلت الكتب المقررة وخاصة كتابى الفلسفة والمنطق لطلاب الشهادة الثانوية للدكتور زكى نجيب محمود زعيم الفلسفة الوضعية الملحدة، حفلت بعقائد وافرة مضللة كانت خطرا شديدا على المجتمعات الإسلامية عندما ترجمت الفلسفة اليونانية فى القرن الثالث.

وغاية ما تقدمه هذه الفلسفات إنكار ما وراء المحسوس والذى ترتب عليه أنكار حقائق الوجود الكبرى، وأولها وجود الله تبارك وتعالى، فهل يصح فى منطق العقل والعلم أن تكون الحواس وحدها هى الحكم فى قضية الإيمان بالغيب وهل يعتبر كل مالا يقع تحت الحس غير موجود، هذا مايتساءل عنه الأستاذ على لبن فى كتابه (الغزو الفكرى فى المناهج الدراسية) ويجيب هو على هذا السؤال الذى وجهه فيقول:

إن الإجابة بمنطق العلم الحديث «لا» فهناك مثلا من الأصوات مالا تسمعه الأذن وهذا من نعمة الله علينا والإكان لضربات القلب ضجيج لا ينقطع على

أسماعنا، وكوننا لانحس بها ليس معناه أنها ليست بموجودة، وبالمثل باقى علم الغيب الذى لو قدر وكشف لنا بعضه لصعق الإنسان لأن طاقة حواسه لاتقوى على استيعابه، كما حدث لموسى عليه السلام:

﴿ **قال رب أرنى انظر إليك قال لن ترانى ولكن انظر إلى الجبل فإن استقر مكانه فسوف ترانى فلما تجلي ربه للجبل جعله دكا وخر موسى صعقا** ﴾ وحتى المادة المحسوسة التى لايؤمن ملاحدة العصر إلا بها أثبت العلم الحديث أنها ليست إلا طاقة شكلت وفقا لقوانين معينة، فمن وضع تلك القوانين التى تقف خلف هذه الطاقة.

ويجيب على هذا التساؤل عالم الذرة (أينشتين) الذى يعد أعلم علماء الأرض فى الظواهر الكونية حيث قال يوم أن فرغ من تسجيل نظريته الفذة (النسبية) إن العقل البشرى حين يتأمل هذا الخفاء الكونى يدرك أن وراءه حكمة هى أحكم ما تكون الحكمة، وجمالا هو أجمل ما يكون الجمال:

(إنه الله) تبارك وتعالى:

وفى هذا يقول كريس مويسون رئيس أكاديمية العلوم بنيويورك:

إن المعارف الجديدة التى كشف عنها العالم تجعلنا نعتقد بوجود مدبر جبار وراء ظواهر الطبيعية.

وبذلك جاء تفجير الذرة محطما لكل الفلسفات المادية، حيث أصبح يصادق حقوق العلم التجريبى الذى أخذ يؤمن بعالم الغيب ووجود الخالق القادر القائم وراء هذا الكون يدبره، وأصبح الفلاسفة الماديون يعرفون هذه الحقيقة ولكنهم سادرون فى غيهم يضللون الناس ويسخرون من حقيقة الله تبارك وتعالى.

وأخطر ما فى دعاوى الدراسات الفلسفية:

(١) مهاجمة الدين دون مبرر واضح أو حجة مقنعة، والزعم بأن وسيلة المعرفة الوحيدة هى العقل، والادعاء بأن دول الشرق كانت تستخدم الخرافات والدين بدلا من استعمال العقل.

والحقيقة أن ميزة الإسلام الكبرى أنه لايتعارض مع العقل وأن الأعداء أنفسهم قد شهدوا بذلك، وأن عددا من العلماء فى مقدمتهم روزنتال، وجوستاف لوبون، ومكسيم رودونسون، ورينيه ميليه أجمعوا على أن المسلمين عن طريق قرآنهم هم الذين وضعوا أساس العلوم وفى مقدمتها الطب والكيمياء، وكان من نتيجة ذلك أن دخل الإسلام الكثير من علماء الغرب وفى مقدمتهم فى الأخير رجاء جارودى وأرثر أليسون (رئيس قسم الهندسة الإلكترونية) بجامعة سينتى البريطانية وقد حوت هذه الدراسات الفلسفية أخطاء كثيرة ونظريات مسمومة لا تتفق مع مفهوم الإسلام.

ومن ذلك نتفهم قدرة الله (تبارك وتعالى عما يقولون علواً كبيرا) على الفعل والخلق والقول بقدم العالم فضلا عن قولهم أن الله لايفكر إلا فى ذاته، وهى كلمات موهومة جاءت على لسان أرسطو وغيره وحملها الماديون وكبروها وذهبوا ليقدموها أخيرا لأصحاب مفهوم التوحيد الخالص من المسلمين والعرب لإفساد عقائدهم وأخطر دعواهم هى القول بأن الطبيعة هى التى تخلق وتوجد وتحرك نفسها، وهى مقولة الإنكار لوجود الله تبارك وتعالى، وكذلك من أضاليلهم القول بوحدة الوجود.

أما فيما يتعلق بمحاولة التوفيق بين الفلسفة والدين، فهى محاولة فاسدة اشتغل بها بعض الفلاسفة (الفارابى وابن سينا) وباءت تجربتهم بالفشل فقد رفضها علماء المسلمين وردوا على أخطائها وفى مقدمتهم الغزالى وابن تيمية، بل لقد كشفت الأبحاث أن الفارابى وابن سينا كانا من غلاة الباطنية وأنهما كانا مقدمة لما جاء بعدهم من رسائل إخوان الصفا ومذاهب القرامطة والمزدكية والمانوية، بل إن علماء المسلمين رفضوا انحرافات المعتزلة ومقولة خلق القرآن. وجاء الإمام ابن تيمية فقدم مفهوم القرآن ومنطق القرآن ودحض فلسفة أرسطر تماما فلم تقم لها من بعد قائمة إلا فى العصر الحديث حيث أدخلها النفوذ الغربى (الاستشراق والتبشير) لفتنة المسلمين عن دينهم.

❑ ❑ ❑

ولم يتوقف عمل النفوذ الأجنبى عند هذه الحد بل أوغل فى تدمير الرؤية الاسلامية للعلوم الطبيعية، والعلوم الاجتماعية والإنسانية حيث قدمت هذه العلوم خالية من الإشارة إلى أن الله تبارك وتعالى هو الذى خلق ظواهر الكون كافة، أما الكتب الموجودة الآن على طوال العالم الإسلامى وعرضه فلا تعكس أيه قيمة إسلامية، بل على العكس من ذلك فإن الأسلوب العلمانى المعادى للإسلام هو الأسلوب المتبع فى تدريب رجال الغد وانه لمما يؤسف له أن نجد الإنسان قد وضع ضمن فصيلة الحيوانات وفقا لنظرية دارون المعروفة بنظرية التطور.

كذلك فإنه فى دراسة علم الحيوان يتعلم الطلاب المسلمون حقائق مذهلة حول الحياة والحياة الحيوانية دون إشارة إلى الخالق (تبارك وتعالى) الذى يمدنا بالحياة ويحافظ عليها وكأن هذه الأفعال والأحداث المتعددة والكثيرة التى يزخر بها العالم تحدث بمحض الصدفة أو من تلقاء نفسها وعندما يكتب المعلمون المسلمون كتبا فى هذه المادة فإنهم هم يعمدون إلى الاقتباس من كتب الغرب وهم لا يقتبسون المبادئ العلمية التى لايثار حولها أى اعتراض فحسب وإنما يتبنون آراء كتاب الغرب ووجهات نظرهم، فلم يحاول أى كاتب من الكتاب أن يكترث لتلك الحقيقة التى مفادها أن لنا نحن المسلمين وجهة نظر محددة ومتميزة إزاء خلق الإنسان والكون ، وهى آراء تعتمد على المعرفة الحقيقية والعلم الذى ورد فى القرآن الكريم.

فعلم الحيوان فى صورته الحالية إنما هو نتاج ماوصل إليه هذا العلم وغيره من العلوم الأخرى نتيجة لما بذله الغرب من جهود علمية ولقد انتقل لواء القيادة فى ميدان العلوم الفكرية من المسلمين إلى أبناء الغرب منذ قرابة خمسة أو ستة قرون، وإننا نستطيع ان نعد المئات من النعم التى انعمنا بها على الغرب ولكنا فى نفس الوقت لانستطيع أن ننكر هذه الحقيقة، وهى أننا قضينا سنين عديدة ونحن خاضعون لهم، وحتى اليوم وبعد أن حصلناعلى استقلالنا السياسى لانستطيع أن نحرر أنفسا

على المستوى الفكرى والثقافى، ونتيجة لذلك نجد أن المسلمين اليوم هم من بين أولئك الذين يعيشون على فتات الآخرين.

❑ ❑ ❑

ولا يتوقف الأمر عند مناهج العلوم الطبيعية، أو الكيمياء أوعلم الحيوان وإنما يقتحم كل العلوم التجريبية من موضوعين:

أولا: لا ينسب العلوم إلى الله تبارك وتعالى وأنه مصدرها وهو الذى علمها للإنسان وأن ما فيها من آيات هى من عند الله، وهو سبحانه وتعالى الذى تفضل بكشفها للإنسان الذى استعلى بأنه يعلمها أو أنه استطاع الوصول إليها.

ثانيا: لايربط العلوم بالدور الذى قام به المسلمون فى انشاء المنهج العلمى التجريبى مستمدا من القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة، ومن منطلق ﴿ **قل هاتوا برهانكم** ﴾ وقال تعالى ﴿ **أفلم يسيروا فى الأرض فينظروا كيف بدأ الله الخلق** ﴾

أثر التغريب فى العلوم

ولعل آثار التغريب أشد وضوحا فى العلوم الاجتماعية والإنسانية.

ويقرر الباحثون التربويون المسلمون أن فحص سياسة التعليم منذ عهد الاحتلال إلى اليوم تكشف عن الحقائق الاتية:

أولا: أن سياسة التعليم عندنا عاونت فى كثير من مقرراتها الدراسية على هدم وإضعاف الإيمان بالله واليوم الآخر.

ثانيـــا: شككت الأمة فى دين الإسلام وكونه نظام حياة كاملا صالحا لكل زمان ومكان.

ثالثـــا: شوهت وزيفت تاريخ كثير من الأنبياء والرسل عليهم السلام وإنكار أبوة أدم للبشر.

رابعـــا: زورت تاريخ فلسطين لخدمة مخطط اليهود فى اغتصابها.

خامسا: عملت على تدمير القيم والأخلاق واشاعة الفاحشة داخل جنبات المجتمع عبر مناهج اللغة العربية واللغات الأجنبية وغيرها، عملت وعبر الاختلاط بين الطلاب والطالبات وبدعة تكليف المدرسات للتدريس بمدارس البنين والمدرسين بمدارس البنات.

سادسا: خرجّت أجيالا محرومة من الدراسة التطبيقية الجادة ، التى تربط العلم بالعمل المنتج أجيالا لا تحسن عملا ولا تتقن مهنة ولا تفيد فى حل مشكلات مجتمعها أوحتى مشكلات الأفراد أنفسهم.

سابعا: قطعت الصلة بين الجامعة وكل من قطاع الانتاج والخدمات مما أدى إلى عجز الامة عن اللحاق بركب التقدم التقنى والحضارى الحديث.

ثامنا: حرمت شباب الجامعات من دراسة الثقافة الإسلامية التى تعرفهم بأمور دينهم.

❑ ❑ ❑

وقد جرت تحولات خطيرة فى مناهج التعليم تحت اسم التطوير ترمى فى مجموعها إلى طمس الهوية وتزوير التاريخ كما أحصاها الدكتور جمال عبد الهادى وعلى لبن فى كتابهما: التطوير الحقيقى بين الحقيقة والتضليل: أهمها مايلى:

أولا: إلغاء التاريخ الإسلامى ودراسة التاريخ الفرعونى بديلا عنه وبذلك يحل تاريخ الوثنية الفرعونية محل تاريخ الإسلام.

ثانياً: أضيف تاريخ أوروبا فى القرون الوسطى فى عصور الظلام واقحمت على تاريخ الإسلام.

ثالثاً: الغى تاريخ صلاح الدين وكل مايربط الطالب بوطنه وقيمه وتاريخه واستبداله بموضوعات عن الرقص والغناء وكل مايربط الشباب المسلم بالحضارة الغربية.

رابعا: الغاء التعليقات الإسلامية على كتاب الفلسفة الذى يمثل فكرا مخالفا للتوحيد والقيم الاسلامية ويراد له أن يدرس دون تقديم التحفظات الإسلامية عليه.

خامسا: حذف موضوع أثر الحضارة العربية الإسلامية على أوروبا وترك أثر الحضارة الأوروبية فى مجتمعنا الإسلامى.

سادسا: ادخال على مادة التربية الاسلامية مواد تنظيم النسل وتشجيع الغناء والموسيقى وتحليل ربا البنوك واعتبار الخمر من الممنوعات وليس من المحرمات.

سابعا: ادخال قصص الحب لنجيب محفوظ وألف ليلة وليلة وحذف شجاعة عبدالله بن الزبير والفروسية والشجاعة والجهاد فى سبيل الله.

ثامنا: حذف التوجه الاسلامى فى موضوعات التربية وعلم النفس وإفراد الدراسة للنظرية الغربية ليتعلم عليها معلمو المستقبل فى الأزهر.

تاسعا: إلغاء منهج الدعوة والمجتمع الإسلامى من التعليم الأزهرى.

عاشرا: ادماج مادتى التفسير والحديث مع مادة المطالعة والنصوص ورفع الآيات التى تحث على الجهاد فى سبيل الله.

حادى عشر: حذف إيجابيات الدولة العثمانية وأهمها حماية العالم الاسلامى من الغزو الصفوى الشيعى والغزو البرتغالى الأسبانى الصليبى ثم الأوربى الغربى حيث استنجد بهم شريف الحجاز من الخطر البرتغالى كما استنجد بهم سكان طرابلس وحاكم الجزائر المنتخب من قبل الجزائريين الذى ذهب الى السلطان العثمانى طالبا الدخول فى طاعته وإمداده بأسطول لمقارعة الأسبان وهو ما كان فعلا.

ثانى عشر: فى جانب عوامل ضعف الدولة العثمانية حذف نص: المؤامرات الصليبيبة الصهيونية والإرساليات التبشيرية.

ثالث عشر: حذف دور يهود الدونمة من المؤامرات على السلطان عبدالحميد.

رابع عشر: صوروا الحركات الإصلاحية الإسلامية كالسنوسية والمهدية على أنها ثورة ضد الحكم التركى، وخدمت جهودهم ضد الاستعمار، كما حذف المبدأ الثانى لقيام الحركة السنوسية وهو عدم الفصل بين الدين والسياسة، وحذف أيضا جهاد السنوسية ضد الإيطاليين كما أغفل السبب الأول لقيام الحركة المهدية وهى الرغبة فى قيام دول إسلامية تحكم بالشريعة.

خامس عشر: حذف عبارة (قامت الدول الأوروبية والأمريكية بزرع جسم غريب داخل الوطن العربى هو إسرائيل) .

سادس عشر : حذف التعليقات والتعقيبات التى تمثل وجهة النظر الإسلامية على آراء فلاسفة الغرب لترفع عن الطالب اللبس الذى يمكن أن يحدث له إذا عرضت هذه الفلسفات والتعقيبات وحذف هذه التعقيبات يهدف إلى نزع الانتماء الفكرى والقومى والإسلامى من الطلاب .

سابع عشر: إلغاء دراسة شخصيات فلسفية إسلامية أمثال الحسن بن الهيثم وموضوع الالتزام الخلقى عند فلاسفة الإسلام فى حين ترك الالتزام الخلقى عند فلاسفة الغرب.

ثامن عشر : تحت صورة الكعبة المشرفة حذفت عبارة أن الإسلام هو الذى يمثل القوة الروحية بالنسبة للقومية العربية وحذف عامل تجزئه العالم الإسلامى بوصفه من عوامل ركود البلاد العربية حديثا.

ورفع اسم فلسطين من جميع الخرائط الجغرافية والتاريخية.

تاسع عشر: إقرار قصة غادة رشيد بدلا من عمرو بن العاص وتمجيد غادة رشيد للقائد الفرنسى مينو وتحوى كثيرا من عبارات العشق والهيام والانحراف العقائدى) .

ورفع عبقرية عمر وحياة سعد بن أبى وقاص وأبى ذر الغفارى ليحل محلها توفيق الحكيم وطه حسين وعباس العقاد.

وفى موضوع التآخى بين مصر والسوادن تم حذف عبارة:

(وإن العلاقة العضوية بين مصر والسودان هى وحدة العقيدة والتاريخ) .

العشرون: كتب اللغة الإنجليزية للمرحلة الثانوية تدل على الانحلال والإباحية وهى تدرس للطالب الأزهرى والنصوص مخجلة وفيها فحش وبذاءة وانحطاط خلقى. إلخ إلخ .

❑ ❑ ❑

وهكذا نجد أن الاختراق الإسرائيلى للعقل المصرى قد استطاع أن يحقق نتائج بعيدة المدى.

وقد أشار الدكتور حامد ربيع فى مقدمة كتابه (سلوك السالك فى تدبير الممالك) أن أمريكا أعدت مفهوما يخطط بضرب وحدة الأمة الإسلامية ويدرس كيف يكون العالم الإسلامى بعد عام ٢٠٠٠، هذا بالإضافة إلى مجموعة من مراكز الأبحاث وهيئة المعونة الأمريكية ومعهد دراسات الشرق الاوسط والمركز الثقافى الأمريكى وكلها تعمل فى سبيل تحقيق هذا الهدف.

وقد أشارت الصحف إلى أنه تشكل فى ١٩٨٨ مركز أقامته هيئة الإغاثة الكاثوليكية ووكالة التنمية الأمريكية مهمته تطوير مناهج التعليم، وعن طريقه سيتم رصد كل البيانات والمعلومات المتعلقة بتعلم المصريين فى المدارس الحكومية والجامعات.

وأخطر مايتولى المركز وبشكل علنى وضع المناهج والكتب لمراحل التعليم قبل الجامعى مما يـؤثر على تشكيل عقول الاجيال الجديدة، ويضم هذا المركز ٥٠ باحثا ويجرى التركيز على اللغة العربية بوصفها لغة القرآن الكريم، وقد امتد نشاط هذا المركز الى التعليم الأزهرى قبل الجامعى.

❑ ❑ ❑

وبذلك يمكن القول بأن ثلاث قوى تعمل الآن فى هذا الميدان:

اليونسكو ـ المركز الثقافى اليهودى ـ المركز الأمريكى.

وهى تحاصر العقل الإسلامى حصارا شديدا لتنفيذ المخطط الذى رسمه (التعريب الاستشراق ـ التبشير)

ولم تمر هذه المحاولة دون أن توليها القوى الإسلامية التربوية اهتمامها. فقد شن أساتذة الجامعات هجوما فى مؤتمر عقد لهذا الصدد لتقليل المحتوى العلمى للمناهج الدراسية بمختلف مراحل التعليم وخاصة قبل الجامعى ووصفوها بأنها مريضة وتعانى من مشاكل خطيرة وأكد الأساتذة خلال مناقشات مؤتمر التعليم لكل الجامعيين أن المناهج الحالية تواجه أكبر مشكلة فى إعادة تكوين الولاء للقرآن الكريم والأمة الإسلامية ورفض الأساتذة الاستعانة بالخبراء الأمريكيين فى وضع المناهج الدراسية عن طريق مركز تطوير المناهج وأشاروا إلى أن هذا الوضع يمثل هدما للتعليم، ووضح الأساتذة أن الأمة التى تسمح لدولة بالإنفاق على مناهجها تهمل فى شرفها، وطالب الأساتذة باستعادة القرآن الكريم والسنة إلى المناهج الدراسية وإعادة النظر فى تدريس المواد الدينية بالمدارس والجامعات وطالب الأساتذة بالتوسع فى تدريس المناهج الإسلامية التى تحافظ على الهوية الإسلامية وتغرس القيم الإسلامية فى نفوس الطلاب، وأشار الدكتور محمد على المرصفى إلى أننا فى حاجة للقرآن كمادة متصلة مع الحديث والسيرة النبوية والاخلاق والعبادات. ووصف مايحدث من تطوير مناهج التربية الدينية بأنه ترميم وأعرب المؤتمر عن عدم الرضا عن تعديل مواد التربية الإسلامية وطالب بالعدول عن سياسة الترقيع ومواجهة الأمر بصراحة وموضوعية

وأشار إلى أن الجاليات الإسلامية فى كثير من الدول تعانى من مشكلات التوعية الدينية ويحتاجون إلى كتب ولا يجدون من يمدهم بها.

الصحف ٤ مايو ١٩٩٢.

❑ ❑ ❑

وهنا تتحقق لنا ملاحظتان خطيرتان:

الأولى: سيطرة اليونسكو على مناهج الأزهر.

الثانية: التبعية الواضحة للاتجاه الفرنسى (الفرنكفونية).

والمعروف أن الفرنكفونية هى مشروع استعمارى طموح يحمل منطلقا تثقيفياً ويرمى الى التمكن للغة الفرنسية فى بلاد حوض البحر المتوسط.

وهو بديل لمشروع قديم كان يطلق عليه اسم النزعة المتوسطية التى ترمى إلى ضم مصر إلى الحلف اللاتينى المفروض على الجزائر والمغرب وتونس وبعض الدول الإفريقية وقد كتبت صحف المغرب كثيرا عن هذا المشروع ووصفته بالهزيمة ووصفت اللغة الفرنسية بالانحسار الذى وقع فى أربعين مدينة كندية تخلت عن الفرنسية كلغة للتعامل مع المواطنين رغم الجهود التى تبذلها باريس، وتواجه اللغة الفرنسية انحسارا مستمرا متواصلا برغم الجهود التى تبذلها فرنسا، ويثير هذا الموضوع بعض الكتاب فى المغرب ويبدأون من الفرنكفونية ويقول الدكتور عبد الكبير الحطيبى: لست كاتبا فرانكفونيا، ولا مُسْتَقْبَلَ للفرنكفونية فى بلادها.

والواقع أن فرنسا تحاول أن تتجاهل خطوات الصحوة نحو استعادة الأصالة الإسلامية والمحافظة على التراثية الإسلامية.

ولقد حاولت شن حملة شعواء ضد قرار التعريب الجزائرى فى محاولة لاحتواء الجزائر فى دائرة الفرنكفوتية ولكنها ووجهت بالحقيقة من أن استعمال اللغة العربية فى الجزائر أمر يتعلق بالمحافظة على ذاتيتها.

وقد جاءت جامعة سنجور بالإسكندرية محاولة أخرى فى هذا الاتجاه ولكنها ستكون محاولة فاشلة ولن تحقق أى نتائج ايجابية.

العلم التجريبى

عمل النفوذ الاستعمارى الغربى على حجب المسلمين عن حقائق العلم وعدم تمكينهم من تحقيق أى تقدم فى مجالى التكنولوجيا والاختراعات الحديثة، وعزلهم عزلا تاما عن المعطيات المتقدمة فى مجال الصناعة القادرة على إعطاء الإمة الإسلامية . قدرتها وقوتها وامتلاك إرادتها واستئناف حضارتها على أصول تراثها على النحو الذى عرفته الحضارة الإسلامية بإقامة المنهج العلمى التجريبى الذى انتقل بعد ذلك إلى الغرب، والذى سابقوا فيه المسلمين واستطاعوا تحقيق خطوات واسعة فى مجالى الفلك وعلوم البحار وصناعة الأسلحة الثقيلة القادرة على ردع العدو وحماية الثغور من غارات الأعداء.

ولقد حرص النفوذ الاستعمارى الغربى منذ سيطر على الأقطار العربية والإسلامية على حجب العلوم المتقدمة عنه فى مختلف المجالات ليظل الغرب وحده هو المسيطر على إدوات الحضارة، ولم يتمكن العالم الإسلامى خلال هذه الفترة التى تزيد على قرن ونصف القرن من الحصول الا على الفتات، وظلت كل معطيات العلم المتقدمة فى جميع مجالاته الحضارية والعسكرية محجوبة عن المسلمين، بل إن دولة مسلمة كتركيا التى أعلنت منذ أكثر من سبعين عاما،ولاءها للغرب لم تستطع حتى الآن أن تحقق أى تقدم فى هذا المضمار.

وبالجملة فقد عمل النفوذ الغربى على:

اولا: طمس الدور الرئيسى العظيم الذى قام به العلم الإسلامى فى بناء الحضارة الإنسانية.

ثانيا: عمل النفوذ الغربى على حبس المسلمين علميا فى مجال اللغات الأجنبية وحال كثيرا دون تعريب العلوم.

ثالثا: قدمت المناهج الدراسية فى الكليات المختلفة للطلاب المسلمين مختلف العلوم على انها نتاج غربى كامل دون الاعتراف بالدور الذى قام به العلماء المسلمون فى إنشائها وتطويرها.

كذلك وإن للإسلام موقفا من العلوم التجريبية يختلف عن موقف الغرب، فليس صحيحا ما يذيعه بعض العلمانيين من أن المسلمين يقبلون بالعلم الغربى المعاصر قبولا كاملا بحجة انه يختلف عن الفلسفات والعلوم الانسانية.

وموقف الاسلام من العلم التجريبى يتركز فى أن على منطلقه تخفظات وضوابط خاصة فيما يتعلق بالوجهة والتطبيق.

إذ يصدر العلم الغربى عن استعلاء مضلل حيث ينكر صانع الحياة (تبارك وتعالى) ويضع كلمة (الطبيعة)بديلا عن الالوهية وهذه أكبر أخطائه.

ثم إنه ينطلق من مفهوم المادة فينكر الجوانب الروحية والمعنوية للإنسان والحياة، وبذلك يتجاهل جانبا مهما هو الصلة بين الإنسان وعلومه وبين الله تبارك وتعالى خالق العلوم أساساً وخالق الطبيعةوفاتح آفاق العقل الإنسانى لكشفها واستيعابها فالعلوم التى تدرس للشباب المسلم فى جامعاتنا تنقل من الغرب وتتجاهل صلة هذه العلوم مع النفس المسلمة ومع الله تبارك وتعالى ولا تشير إليه أى إشارة.

وللمسلمين فى منهجهم المستمد من القرآن الكريم والسنة عقائد سياسية حول طبيعة هذا العالم وعلاقته بخالقه تبارك وتعالى.

ولما كان العلم الغربى قد تجاهل الحقائق التى قدمها الدين الحق فقد تصور فروضا منها الصدفة والجبرية ونظرية الانفجار الهائل وغيرها من مفاهيم مغلوطة حيث إن الكون فى مفهوم الإسلام لم يبدأ بالانفجار ولم يتطور بالصدفة ولايقر التطور المطلق.

ولقد كان عجز العلم الحديث عن النظر الى مفهوم الدين الحق (الإسلام) واستعلائه على الدين جماة مصدرا لهذه الفروض المضللة التى كشفت التجارب عن فسادها وعجزها عن تقديم الرأى الصائب الذى يكسب ثقة النفس الإنسانية.

وأخطر هذه الفروض: ماسمى (الحلقة المفقودة) فى نظرية دارون إذ كيف يمكن لنظرية ناقصة بها حلقة مفقودة أن تتصدر مجال العلم وتظل مسيطرة أكثر من مائة عام لو لم يكن من ورائها الملاحدة والصهيونية التى كانت تبحث عن سناد لبروتوكولات صهيون من أجل تدمير الإنسان (الجوييم) غير اليهودى.

ومن هذه النظريات: نظرية خلق الكون ، ونظرية الوراثة، ونظرية حيوانية الإنسان ونظرية الجنس التى قدمها فرويد واعتبرها منطلق حياة الإنسان.

هذه الفروض التى قدمها العلم الحديث حول نشأة العالم ليست أقل خطأ من الفروض التى تصورها الذين كتبوا الكتاب بأيديهم وقالوا: إنه من عند الله.

وفى مواجهة هذه المقولات تقرر آى القرآن فى حسم:

﴿ ما أشهدتهم خلق السموات والأرض ولا خلق أنفسهم ﴾

فليست هناك نظرية الانفجار العظيم ولا نظرية توالد الانسان من الحيوان. ومفهوم الإسلام أن هذا العالم خلق بعد أن لم يكن فليس أزليا ولا أبديا بأى شكل من الأشكال وقد ابتدأ من العدم وسوف ينتهى بقيام الساعة وتبدل الأرض غير الأرض والسموات.

ولقد مضى علماء الغرب فى الطريق الصعب وحاولوا فهم الأمور من منطلق الأسطورة وتراث الانثربولوجيا فأخفقت معطياتهم جميعا.

أخفقت نظرية الطوطمية ونظرية القانون الطبيعى ونظرية دارون.

لقد كانت كل هذه الفروض والتصورات الخادعة توضع موضع العلوم ولا تزال تنقل إلى البيئات الإسلامية على أنها حقائق وعلوم.

والهدف هو فرض مفاهيم الفلسفة المادية التى تحتضن الآن الفكر الغربى كله وترمى إلى محاولة هدم الغيب والنبوة والألوهية أساساً.

يقول الدكتور ضياء الدين سردار فى كتابه (استكشافات فى العلوم الإسلامية) : لقد ثبت أن العلوم الغربية تشكل تهديدا خطيرا للهوية الإسلامية لأنها تعكس القيم الغربية وليس تلك الإسلامية.

ويقول: إن علم الغرب لايهدد العالم الإسلامى فحسب، بل ينسحب تهديده على العالم بأسره. لان الأبحاث والتطبيقات العلمية الغربية مجردة من كل حدود الاخلاق وكل المسئوليات الاجتماعية.

ويقرر الباحثون المسلمون أن هناك فارقا بين العلوم التجريبية ونتائجها الثابتة وبين الفلسفات والمذاهب الاقتصادية والاجتماعية، فقد حاولت هذه المذاهب أن تعتبر نفسها علما للمجتمع على مستوى دقة علوم الطبيعة (التى ساد الاعتقاد بأنها توصلت إلى الحقائق النهائية) عن مظاهر الطبيعة والمادة فى الكون ولكنها فشلت.

ولقد قدم طه حسين مفاهيم دوركايم فى العلوم الاجتماعية على أنها قوانين علمية وفشل فى اثبات ذلك، وقد اتضح فى الحقيقة أنها مقولات جزئية ومؤقتة وليست مطلقة ولا نهائية.

ويؤكد بعض الباحثين أن علماء الانسان فى الغرب عمدوا إلى تصفية ما تبقى من الجوانب الروحية للإنسان وتقريبه ما أمكن إلى المخلوقات الحيوانية تبعا لنظرية دارون حول النشوء والارتقاء، وذلك بالتركيز على جانب الغزائر التى تربطه بالحيوان كما أقام فرويد نظريته فى علم النفس على حيوانية أصل الإنسان التى قال بها دارون.

وبنية الصراع فى الفكر الغربى تقدم على اساس الفصل بين الروح والجسد والعقل والعاطفة حيث يجعلها الاسلام يكمل كل منهما الاخر.

أما الإسلام فإن فكره يقوم على أساس التوازن والتكامل فالإنسان روح وجسد وعقل ووجدان، والإسلام دين ودنيا وعقيدة وشريعة والإيمان علم ظاهر وباطن، وقد تميز الإسلام بالوسطية فى مقابل الجدلية التى طبعت الفكر الأوروبى، وقد جمع الإسلام فى إهاب واحد بين منهج العلم ومنهج الوحى وبين النظرية والتطبيق حيث أقام الإنسان على قاعدة المسئولية الفردية والالتزام الأخلاقى والإيمان بالبعث والجزاء .

فالعلم فى الإسلام يتكامل مع بنيات الفكر الإسلامى ولا ينفصل عنها، ويقوم على أساس الأخلاق والارتباط بالوحى والغيب ويقرر أن مصادر العلم من عطاء الله تبارك وتعالى وأن نتاج العلوم هو للإنسانية كلها وليس لطبقة معينة ويطالب الإسلام البشرية بالعدل والمرحمة ويقرر نظام الزكاة ويرفض استعلاء الإنسان على الإنسان أو استعلاء أمة على الأمم.

وقد حرم الإسلام استهلاك الموارد والمواد الخام وتبذيرها على النحو الذى تقوم عليه مفاهيم حضارة الاستهلاك والترف وتدمير مقومات الحياة على وجه الأرض على النحو الذى يجرى الآن بتدمير طبقة الأوزون.

❑ ❑ ❑

ويفرض الإسلام دستورا أخلاقيا على العلم بحيث يكون للبشرية كلها وليس لأمة دون أمة ولا لقوم دون قوم.

فأخلاقية العلم وعدالته هى حجر الأساس فى بناء مفهوم الإسلام للعلم، ويقرر الدكتور زغلول النجار: أن الحضارة الإسلامية قامت على أسس علمية ويقينية صحيحة، وأنه لا سبيل إلى نهضتنا إلا بتطور علمى وفنى جاد يصاحبه التزام خلقى، وعدم استخدام معطيات العلوم والتقنية فى أعمال الهدم التى يعانى منها عالمنا

المعاصر، والالتزام الدقيق بالإسلام الصحيح والعمل على تطبيقه وإحياء الشعور بالانتماء للأمة الواحدة بين المسلمين.

وعلينا إبراز الإشارات العلمية التى وردت فى القرآن الكريم وإثبات أسبقيتها للعلوم البشرية بآلاف السنين.

والايمان بأن العلوم التجريبية هى قرآنية المنهج وأن الأسلوب العلمى فى التفكير ودوره فى تطوير الحياة ضرورة إسلامية وإبراز إضافات المسلمين للعلوم فى مختلف العصور وتحقيق تراثهم والايمان بان اللغة العربية هى مدخل صياغة الهوية العربية الإسلامية فقد أن الآوان أن تستعيد هذه اللغة الخالدة مكانتها على مستوى مليار ونيف من البشر، وأن اللغة العربية هى الأساس المقبول فى تحديد هويتنا، وتنذر قضية اللغة العربية بمخاطر محققة إذا استمر هذا المنهج فى التعامل مع لغة القرآن الكريم وأهمية الخطر الزاحف الذى يهدد لغتنا فى الصميم ويوشك أن يغرق المجتمع العربى والإسلامى فى مشاكل كثيرة، وأهم المحاذير تلك المحاولات الجادة التى تبذل من جهات متعددة لتحطم مداخل فهم وإدراك مضامين الإسلام والسنة والتى ترمى إلى تغريب مضمون العروبة والقومية.

❑ ❑ ❑

ويحدد الدكتور زغلول النجار عدة حقائق أساسية:

أولا: رغم أن الحضارة الأوروبية بنيت على أساس من العقيدة الإسلامية الا انها انطلقت من منطلق مادى معاد للايمان والغيب، منكر لوجود الله تبارك وتعالى خالق ومبدع هذا الكون، لدرجة أن كثيرا من الدوائر العلمية تشترط ألا ينشر فيها شئ يتعلق بما فوق المادة فتوصل الناس إلى عدة تصورآت خاطئة، وقد انتقل هذا إلى ثقافتنا ومجتمعنا فأحدث حيرة شديدة بين ما آمنوا به وما تعلموه من معارف تدرس إليهم تتحدث باسم العلم فيها ما يتعارض مع ديننا معارضة صارخة.

ومن هنا تأتى ضرورة تصفية كتاباتنا العلمية من كل ما يتعارض مع العقيدة الإسلامية وتأصيل علومنا تأصيلا إسلاميا سليما (إسلمة العلوم الطبيعية) وإعادة صياغة المعارف من منظور إسلامى صحيح، وليس معنى التأصيل الإسلامى أن نهجر هذا الكم الهائل من المعارف التى وصلت إليها البشرية بعد جهاد طويل فقد علمنا رسول الله ﷺ: (أن الحكمة ضالة المؤمن أنىّ وجدها فهو أحق الناس بها).

وكل أمر من أمور هذا الكون تقوم عليه حجة وتدعمه بالبرهان ويؤكده الدليل هو جزء من هذه الحكمة.

ومن هنا تتقرر علاقة العلم بالغيب، وذلك أن هذا الكون الذى نعيش فيه ليس ماديا صرفا ولكنه ملئ بالغيوب، وهذه الأمور الغيبية لاتقع تحت طائلة حس الإنسان ولا عقله لذا فالإنسان يحتاج دوما إلى بيان من الله تبارك وتعالى، ومن هنا كانت ضرورة الدين الذى لايعايش إلا القضايا التى لا يستطيع الإنسان أن يفصل فيها بعقله منفردا للوصول إلى إجابات شافية. أن الأمم الأوروبية فى صراعها مع رجال الدين والكنيسة وحاخامات اليهود لا تؤمن بغير المدرك المحسوس من أمور الكون.

وقد انتحى المنهج العلمى فى زمان الحضارة المعاصرة منحى علميا صرفا ولايؤمن بما فوق المادة ولا يتعامل مع غيرها.

وقد وصل الإنسان إلى عدد من التصورات الخاطئة التى شاعت شيوعا كبيرا فى معارفنا العلمية المعاصرة فضلت وأضلت.

إن أخطر التصورات الخاطئة التى تواجه الغرب هى:

أولا: إنكار الخالق تبارك وتعالى

والادعاء بأن هذا الكون ليس فيه إلا المادة فقط وانه لا دين ولا إله، هذا الاتجاه الباطل يرمى إلى إعادة الناس إلى الجاهلية مرة أخرى.

ومن أخطر دعاوى العلم المادى الادعاء بأزلية المكان والزمان وأن الحياة تكرر نفسها. كيف يكون ذلك والعلم قد قرر بأن الكون سيكون له فى يوم من الأيام نهاية، هذا الكون الذى يقدر عمره بعشرة مليارات من السنين، والأرض بخمسة الآف مليون سنة.

وبينما أقدم أثر للإنسان لا يتعدى خمسين الف سنة، وتؤكد الأبحاث أن النهاية ستجئ وأن الشمس تفقد من طاقاتها كل ثانية ما يساوى ٤,٦ مليون طن فهى إلى فناء.

ثانيا: أما التصور الخاطئ الثانى فهو: أزلية المادة.

وبالرغم من أن العلماء يرون فى صفحة السماء نجوما تولد وتنمو وتصل إلى مرحلة الشباب ثم الكهولة والشيخوخة ثم تنفجر وتتلاشى وأن دعوى (أزلية المادة) تتردد بين صفحات العلوم المعاصرة.

ثالثا: الادعاء بالباطل بأن قوانين المادة هى التى تحكم الكون ؛كيف يكون ذلك والمادة كيان أصم لاعقل له ولا ذاكرة ولاوعى.

رابعا: الادعاء بأن الطبيعة حقيقة قائمة:

وهذه دعوى ينشرها دعاة الفلسفة المادية ويتخذون من كلمة (الطبيعة) مهربا من الإشارة إلى الله تبارك وتعالى وإلى السُّنَن الإلهية فى الكون كوسيلة للادعاء بفوضوية الكون بينما العلم التجريبى يؤكد ان الكون الذى نحيا فيه مبنى بناء يذهل العقول فى دقته واتساعه وإنتظام حركته.

❑ ❑ ❑

كل هذه الادعاءات انطلقت من مجتمعات مشركة ملحدة كافرة حاربت الله تبارك وتعالى وحاربت الأديان ورغم أن العلم فى الحضارة المعاصرة قد بنى على أساس من الحضارة الإسلامية التى نهلوا من علومها، فقد انطلقت الحضارة المعاصرة

من منطلق مادى صرف معاد لمفاهيم الإيمان والغيب والتسليم بوجود الله تبارك وتعالى الخالق المبدع المصور.

ومن ثم أرادوا أن يدوروا بالمعارف العلمية فى إطارها المادى الصرف لإبعادها كل البعد عن الاستنتاجات الكلية العليا التى يمكن أن تربط الإنسان بالله تبارك وتعالى.

من أجل هذا يجب إعادة صياغة كتبنا العلمية وخاصة التى تدرس فى مدارسنا وفق التطور الإسلامى.

❑ ❑ ❑

والواضح أن هناك فروقاً واسعة وعميقة بين مفاهيم الغرب للعالم (سواء اليونانية القديمة ام المعاصرة) وبين مفاهيم الإسلام وأهمهما.

١ـ النقل والوحى والإيمان بالغيب.

٢ـ العقل فى دائرة الوحى.

٣ـ التكامل بين الروح والمادة.

أما عقلانية اليونان التى ورثتها الحضارة الحديثة فهى منكرة للغيب والألوهية والوحى، أما الإسلام فيقر ترابط النقل مع العقل وغلبة النقل على العقل. وتأويل أمور العقل بما يقضيه النقل (الذى هو الوحى).

قال علماء المسلمين: إن العقل لطيفة ربانية لها تعلق بالقلب، وقد ذكر الله تبارك وتعالى (القلب) فى مواضع كثيرة باعتباره موضع الفقه والعقل و(اللب)، ولا يراد به العضو ، إنما يراد به الجوهر والعقل أساسا هو مناط التكليف.

أما الفلسفة اليونانية التى انتقلت إلى الفلسفة العربية فتقوم على تفسير المعرفة تفسيرا عقليا حيث ينفرد العقل فلا يزامله نقل ولاوحى ولا مأثورات وقد أقام القوم مفاهيمهم الفلسفية فى مجتمع وثنى لا يعرف الوحى (النقل) فكان الاعتماد

على العقل وبراهينه هو سند الفلسفة الوحيدة وإذا كانت المعرفة فى الفكر الغربى تقوم على المحسوس والمعقول فإنها فى الإسلام تقوم على الوحى والمعقول والمحسوس.

والقرآن الكريم وهو معجزة الإسلام العظمى وهو النقل إلا أنه جاء معجزة عقلية جسدت الوحدة مع العقل فى الأساس الجامع.

وقد وردت مادة العقل فى القرآن فى ٢٦٧ موضعا منها ٤٩ منها بلفظ المادة (عقل) و١٩ بلفظ (الحكمة) و١٦ بلفظ (اللب) أى الجوهر، فالعقل هو لب الإنسان وجوهره.

وجاءت كلمات (النهى ـ التدبر ـ الاعتبار ـ الفقة ـ الفكر) بمعنى القلب، فالعقل والنقل فى الإسلام يتكاملان وإن كانا فى الفكر الغربى لا يلتقيان، وقد حاولت الفلسفة اليونانية عندما ترجمت أن تؤثر فى مفاهيم الإسلام بالنسبة للدعوة إلى تقديم العقل على النقل، وإعلاء العقل وتبنت بعض مفاهيم الفلسفات السابقة مثل خلق القرآن.

ولكن هذه الموجة ما لبثت أن انهزمت تحت ضربات الغزالى وابن تيمية وقد عقد ابن تيمية مصالحة بين العقل والنقل وحكم بضرورة الوفاق والاتفاق ما بين صريح المعقول وصحيح المنقول.

ولكى يتمكن المسلمون من بناء منهجهم الأصيل فى العلم والحضارة يجب تحرير كل المترجمات التى تعتمد على مفهوم الغرب فى الفلسفة والعلم وتحرير الدراسة الإسلامية من الازدواجية التى تجمع بين اللادينية والانفصال عن مفهوم العقيدة والإيمان بالله تبارك وتعالى والغيب والوحى.

ويجب تصفية هذا التعارض المتركز فى عديد من القضايا :

أولاً : مذهب الخلق ونظرية دارون

ثانياً : وضع مصطلح الطبيعة بديلاً عن الله تبارك وتعالى.

ثالثاً : مفهوم التوحيد ـ بالنسبة لعلم الكلام والفلسفة والمنطق.

رابعاً : مفهوم العقيدة واختلاف المفهوم مع التصوف الفلسفى.

خامساً : مفهوم العلوم الإنسانية وخطأ تطبيق مناهج العلوم المادية عليها .

كذلك يجب أن نحدد موقعنا من أشياء كثيرة :

أولاً : قصة النزاع بين العلم والدين وهى قضية لا تخصنا، فقد جمع الإسلام بين علوم الدنيا وعلوم الدين.

ثانياً : إقرار منهج عالم الغيب عن طريق الوحى، إلى حوار منهج العلم ذلك أن الإسلام ربط العلم بإرادة الله وفق التوجهات القرآنية والسنن الشرعية كما ربط العلم والتعلم بسلوكيات الإسلام.

فالعلم الإسلامى ملتزم بعدة أسس راسخة:

أولاً : أخلاقيات العلم

ثانياً : الارتباط بالوحى والغيب والإيمان الأكيد بأن مصادر العلم هى من عطاء الله تبارك وتعالى وليست استعلاء من أمم أو دول.

ثانياً : نتاج العلوم الإنسانية هو لكل بنى الإنسان وليس لطبقة معينة أو دولة معينة.

رابعاً : يطالب الإسلام البشرية بعدالة توزيع الثروة ويقرر أن فقر الفقراء يعود إلى سوء توزيع الثروة .

القسم الثانى

اقحام الفكر الغربى فى أفق الفكر الإسلامى

إقحام الفكر الغربى فى أفق الفكر الإسلامى
(مدخل)

إن خطة (احتواء الإسلام) ومحاولة تزييف الفكر الإسلامى وإخراجه من مفهومه الأصيل الجامع بوصفه : (منهج حياة ونظام مجتمع) قد تواصلت مؤامراتها على مدى هذا التاريخ الطويل ولم تتوقف منذ ترجمت الفلسفة اليونانية وتجددت فى العصر الحديث بإحياء المذاهب الهدامة والفلسفات المادية وطرحها فى أفق الفكر الإسلامى من أجل إخراجه عن جوهره وذاتيته وطابعه المميز بوصفه الدين الخاتم للبشرية والنص الموثق الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه وكلمة الله تبارك وتعالى النهائية للإنسانية إلى يوم الدين.

ولقد عمد قادة الفكر الغربى (من باحثين ومستشرقين ومبشرين) سواء كانوا أولياء الكنيسة أو أتباع وزارات الاستعمار (ما عدا القلة القليلة) إلى دعم هذا المخطط الخطير والانتقال به من مرحلة إلى مرحلة، وكلما استطاع المسلمون كشف الزيف ودحض الشبهات تحولت القضايا إلى صور جديدة لمحاولة خداع أجيال جديدة وذلك حتى يبقوا المسلمين دائماً فى موقف الدفاع عن النفس، ولكن المسلمين تجاوزوا هذه المرحلة فى مطالع القرن الخامس عشر ،وأخذوا فى إعداد البدائل الإسلامية وعملوا فى مجال التأصيل الإسلامى وأسلمة المناهج والعلوم والمصطلحات وخطوا فى ذلك خطوات واسعة، ولذلك كان علينا أن نرصد هذه القضية ونحررها تماماً.

وتتمثل خطة احتواء الفكر الإسلامى فى محاولتين خطيرتين.

الأولى : (اقتحام) الفكر الإسلامى من ثلاثة جوانب :

(١) العقيدة، والسيرة السنة، والفقه.

(٢) اللغة العربية ـ التاريخ ـ التراث الأدبى، الثقافة.

(٣) الحضارة ـ المجتمع ـ المرأة ـ الفن ـ التعليم ـ العلم، وقد أوفينا القول فى هذا المخطط.

والآن ننتقل إلى المحاولة الثانية وهى (إقحام) الفكر الغربى فى أفق الفكر الإسلامى فى مجال مقارنات الأديان والفلسفات والعلوم الاجتماعية ومصطلحات الفلاسفة والقومية والديمقراطية والماركسية وأخطرها مفاهيم الفكر اليهودى الماسونى.

الفصل الأول

مقارنات الأديان

أعلن الفكر الغربى الحرب على المسيحية منذ اليوم الأول، واختلف معها وعاداها ودعا إلى دين جديد هو دين البشرية.

ومصدر ذلك كان الخلاف الذى وقع بين العلم والمسيحية أو بين العلم والكنيسة حين اكتشف العلم أن بعض ما ورد فى الكتب المقدسة لم يكن مضبوطاً أو مقبولاً بمقاييس العلم والبراهين الحسية.

ولكن الفكر الغربى لم ينظر إلى الإسلام فى تجرد أو باعتباره ديناً مختلفا عن الأديان السابقة، بل حكم عليه دون دراسة أو إمعان نظر، فقد كان الفكر الغربى قد أوغل فى النظر إلى الأديان كلها فأنكرها جميعاً من خلال اعتناقه للفلسفة المادية التى تنكر الغيب والوحى، ولو أنه أمعن النظر فى الإسلام لوجد فيه شيئاً مختلفاً عما رأى فى المسيحية أو الأديان القديمة.

وكانت المسيحية (الغربية) التى عرفها الغرب مختلفة تماماً عن المسيحية المنزله على عيسى عليه السلام، بعد أن دخل عليها كثير من التحريفات والمفاهيم التى جعلها تفقد طابعها كدين ربانى منزل، نزل به الروح الأمين على عيسى عليه السلام كآخر الأديان التى أنزلت على بنى اسرائيل ،ومن هنا كان ارتباطه بالتوراة ووضعه بوصفه ديناً سماوياً بين رسالة موسى والرسالة الخاتمة التى جاء بها محمدﷺ والتى جاء عيسى عليه السلام مبشراً بها.

﴿ الذين يتبعون الرسول النبى الأمى الذى يجدونه مكتوبا عندهم فى التوراة والإنجيل ﴾ .

فالمسيحية :

(أولاً) : دين فى حلقة الأديان السماوية وليس آخرها.

(ثانياً) : إنه دين جاء لبنى إسرائيل وحدهم وليس ديناً عالمياً.

(ثالثاً) : إنه جاء بالإنجيل مكملاً للتوراة ومبشراً بالرسول الخاتم.

(رابعاً) : أنه أعلن أن عيسى عليه السلام رسول الله وليس إلهاً ولا ابن إله.

(خامساً) : إنه لم يصلب ولم يكن تكفيراً عن خطيئة آدم، ومن هنا فإن المسيحية حين انتقلت إلى أوروبا على يد (بولس) تغيرت كثيراً. وقد استتبع ذلك التحول محاذير كثيرة انتهت بالإيمان بثلاثة مفاهيم غير صحيحة هى : الصلب والتثليث والخطيئة.

وقد نقلت هذه المفاهيم من الأديان الوثنية القديمة.

أما مسألة الأب والابن والروح القدس فقد أخذت من أديان المصريين القدماء فى الثالوث الفرعونى وكانوا قد استخدموا شعار الصليب واعتبروه علامة الحياة، وعنهم نقل المسيحيون الغربيون هذه الرموز.

١ ـ **أما التثليث** فقد كان دخيلاً على المسيحية التى جاء بها عيسى عليه السلام.

قال الدكتور وليم أولسكى فى كتابه :

« Egypt and the wonders of the Land of the pharoas »

يقول : إن قدماء المصريين كانوا يعتقدون بأوسيرس كاعتقادنا نحن الآن بالمسيح تقريباً، وبأنه ولد بالروح وكان مع والده ووالدته إلهاً واحداً بثلاثة أقانيم، وأنه بعد ما قتل وقطع جسمه عاش ثانية.

وقد تمادى المؤلف حتى قال : إن الديانه المسيحية ما هى إلا نوع مما كان يعتقد القدماء ووضع على نسق أحدث وأكثر تهذيباً. واستشهد إثباتاً لأقواله بصور وكتابات قال إنها موجودة ليومنا هذا فى (أنس الوجود) بأسوان. وطبع تلك الكتابات فى كتابه وعلق عليه شروحاً (المقتطف ـ أكتوبر ١٩٠٥).

وقالت المقتطف تعليقاً : فى كتابات المصريين القدماء عن (أوسيرس) أشياء كثيرة بعضها يشبه ما جاء فى تاريخ السيد المسيح، وبعضها يشبه ما جاء فى تاريخ أى إنسان كان ومن المحتمل أن بعض من تنصروا من المصريين الأقدمين أدخلوا بعض معتقداتهم فى الديانة المسيحية أو فى تعاليم الديانة المسيحية، ولكن ذلك لا يدل على أن الديانة المسيحية مشتقة من الديانة المصرية لأن المخالفات والمناقضات بينهما كبيرة جداً،ولا يرى القس (ساس اللاهورى) فى الآثار المصرية ما ينقص معتقد المسيحيين فى أصل ديانتهم، وإن صح ما يدعيه هؤلاء .

٢ ـ **أما عن الخطيئة** : فيقول أحد الباحثين :

إن جوهر العقيدة النصرانية كلها يرتبط أصلاً بفكرة (الخلاص) . أى خلاص البشر من خطيئة آدم التى ورثوها من أبيهم جيلاً بعد جيل بدون تكفير لها حتى جاء المسيح (والإله فى صورة الإنسان) كمايدعى النصارى ليكفر عن هذه الخطيئة الموروثة بتقديم نفسه طائعاً مختاراً على الصليب، ومن ثم فكل من يريد الخلاص من هذه الخطيئة ماعليه إلا أن يؤمن بأن المسيح هو المخلص، وهذه خلاصة العقيدة النصرانية، ومحور بل قطب الدائرة فيها وهو معتقد كل الطوائف على الإجماع.

٣ ـ **أما عن الصليب:** فتروى كثير من المصادر أن الصليب كان شعاراً وثنياً فى الأصل، وشاع استعماله فى معظم بلدان الشرق الوثنية فى الحقب الخالية، ولم يتخذ المسيحيون الصليب شعاراً رسمياً إلا فى أوائل القرن الرابع بعد الميلاد (الهلال م ٢/٤٢). ويقول المستشار محمد عزت الطماوى :

قال الأنبا (أرد وارسيوس) فى كتابه عقيدة المسلمين :

إن القرآن ينفى قتل المسيح وصلبه، ويقول إنه ألقى شبهة على غيره فغلط اليهود فيه وظنوا أنهم قتلوه.

وإن . ـا قاله القرآن كان موجوداً عند طوائف نصرانية منهم وكانوا يعتقدون أن المسيح وهو ذاهب لمحل الصلب ألقى شبهه على سمون السيرانى تماماً والقى شبه سمون عليه ثم أخفى نفسه ليضحك على مضطهديه اليهود فإنهم قرروا أن أحد الحواريين صلب بدل المسيح.

وقد صرح إنجيل برنابا باسم الذى صلب بدلاً من المسيح وإنه (يهوذا) أحد التلاميذ الذى خان أستاذه وتآمر عليه مع أعدائه.

كما قال الأستاذ أرنست دى بولس الألمانى فى كتابه الإسلام : أى النصرانية الحقة: بأن جميع ما يختص بمسائل الصلب والفداء هو من مبتكرات ومخترعات (بولس) ومن شابهه من الذين لم يروا المسيح وليس من أصول النصرانية الأصيلة.

إن بولس الذى لم يتتلمذ على المسيح أصلاً ولم يره فى حياته اندس بعد ذهاب المسيح ضمن تلاميذه وتمكن بمكره وتحايله حتى وثقوا به، وهو الذى ابتدع شعار الصليب فى مواعظه » ا . هـ

❑ ❑ ❑

ولقد كشفت أبحاث الباحثين عدة حقائق أساسية:

أولاً : أن الدين الذى جاء به السيد المسيح هو : لخراف بنى إسرائيل الضالة، وأنه حلقة من حلقات رسالات السماء التى أنزلت على بنى اسرائيل، ومن هنا كان الإنجيل تالياً للتوراة.

ويشهد على ذلك مقولة السيد المسيح:

« ليست مملكتى فى هذا العالم »

ثانياً : أن هذا الدين تغير كثيراً بعد السيد المسيح وكان بولس اليهودى الأصل الذى تنصر وقاد مسيرة المسيحية هو الذى أحدث تلك التغيرات الكثيرة بما نقله من الأديان الوثنية.

ويقول (جارى هيلسر) بعد إسلامه: إن الطقوس والمراسيم الدينية التى يمارسها أغلبية المسيحيين فى العالم اليوم لا تمثل ديانة السيد المسيح وإن ما يسجله الكتاب المقدس وخاصة العهد الجديد من أقوال للسيد المسيح إنما يتصف بالضآلة والضحالة، لأن هذه النصوص مجرد إدعاء واضح محدود (حول) قدسية وألوهية السيد المسيح.

وأن ما ورد فى الكتاب المقدس (العهد الجديد) من إثبات وبرهان حول ألوهية وقدسية السيد المسيح إما غير كاف أو يتصف بالغموض واللبس.

والمسلمون وحدهم هم الذين يمثلون رسالة السيد المسيح وتعاليمه الحقة.

ثالثاً : كشف كثير من الباحثين عن خطأ مقولة (الآب) وقرر بعضهم أن لفظ (الآب) بمد الهمزة يعنى اسم الله، وهى كلمة سريانية أو كلدانية وتحقق ذلك فى كتاب « الإنجيل والصلب للأب عبد الأحد داود» والكلمة تختلف عن كلمة (أب) بدون مد الهمزة التى تعنى والد .

ويؤكد القرآن الكريم رفعه منزلة المسيح عليه السلام ويقول رينان فى كتابه « حياة المسيح » :

« إن بنوة المسيح لله التى نطق بها المسيح بنوة مجازية لمعنى أن الله (تبارك وتعالى) يعامل المسيح كما يعامل الوالد ولده بالبر والشفقة والإحسان.

إن البنوة التى نطق بها المسيح بنوة إكرام وتعظيم، لا بنوة نسب وأولاد، فإذا فهمت المسألة على هذا الوجه رجع الناس إلى التوحيد الخالص.

رابعاً : بشارة عيسى عليه السلام عن بعثة محمدﷺ: يقول المستشار محمد عزت الطماوى :

بشر المسيح بنى إسرائيل بقرب بعثة محمد ﷺ خاتماً للأنبياء والمرسلين، وأنه سيكون من ذرية إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام وليس من بنى إسرائيل ودعوته

ستكون للعالمين ولما بشرهم بذلك نفر الإسرائيليون من دعوة المسيح وكلامه حتى انتهى بهم الأمر أن تواطأوا مع الحاكم الرومانى لإقليم مدينة القدس بعد أن أفهموه أن تلك الدعوة تعنى طرد الرومان منها، فظاهر على قتله واتخذوا من أحد مريديه عينا عليه يرصد حركاته وتنقلاته ويخبرهم بها.

وجاءت قوة من الرومان للقبض عليه يتقدمهم الجاسوس، فألقى الله شبهه على الجاسوس الخائن فقبض عليه وتمت محاكمته وصدر عليه الحكم بقتله وصلبه أما المسيح فقد نجا .

وفى إنجيل يوحنا (الإصحاح السادس عشر) نقرأ قول السيد المسيح عليه السلام : أما متى جاء ذلك (روح الحق) فهو يرشدكم إلى جميع الحق لأنه لا يتكلم عن نفسه بل كل ما يسمع يتكلم به ويخبركم بأمور آتية (يوحنا ١٣/١٦) .

وقد أطلق الإنجيل على هذا الشخص الذى تحدث عنه السيد المسيح فى إنجيل يوحنا اسم (المعزى) أو المريح وكلا الاسمين ترجمة للأصل اليونانى لكلمة (PEROLYTOS) والمعنى الصحيح : المحمود ـ المشكور ـ الأحمد.

ويستطرد إنجيل يوحنا فيخبرنا بأن المسيح عليه السلام كان قد وضع صفات وشروطاً معينة تنطبق على هذا النبى الذى سيأتى من بعده والذى أطلق عليه اسم (روح الحق) وهذه الشروط هى :

ـ أن المسيح لابد أن يرحل قبل أن يبعث هذا النبى.

ـ أن النبى لن يتحدث من نفسه بل سيوحى إليه ماسيقول.

ـ أن التعاليم التى سيأتى بها هذا النبى سوف تمكث إلى الأبد.

ـ أن هذا النبى سوف يكرم عيسى عليه السلام ويشهد له وينصفه.

(إنجيل يوحنا ١٦ ،١٣/ ١٤).

وجاء الإسلام فاعترف برسالة عيسى عليه السلام وكرم أمه ونفى عنها ما رمتها به اليهوديه وكان له الأثر البارز فى إصلاح المسيحية وقد حاول المفكرون المسيحيون أن يقولوا أن تطور المسيحية وأساليب انتشارها من ذاتها دون أن ينسب للإسلام فضل فى إزاحة ما لبس بها من الأوهام.

وكان ما أنكره الإسلام وذاع فى أوروبا وتأثر به لوثر قد أمد الفكر المسيحى بنور جديد فقد رفض لوثر سلطة الكنيسة المطلقة ودعا إلى الحد من سلطتها الطاغية، إذ إن انقسام الدولة الرومانية إلى دول صغيرة قد أوقع التنافر بين ملوكها ورؤسائها وجعل البابا ذا سلطان على جميع هذه الدول المسيحية ولا سلطان لحاكم سياسى عليه، وترتب على ذلك أن كان اختيار البابا بناء على رأى المجامع الكنسية وحدها دون أن يكون لأمير ما صوت فى انتخابه على حين أن البابا صاحب هيمنة فعلية على جميع المسيحيين ومن بينهم الملوك والأمراء، فتمت له بذلك سيطرة مطلقة لا تتيح لأحد أن يعارضها بنقد.

وقد احتجزت الكنيسة لنفسها الحق فى فهم الكتب المقدسة وتفسيرها كما يشاء رجالها دون أن يجرؤ أحد من أتباعها على مخالفة أو تعقيب، وجاهر لوثر بأن البابا لا يزيد عن كونه كبير المسيحيين الواعظين وليس خليفة المسيح الذى لا يخطئ أبداً، وقد نزل الإنجيل ونزلت الكتب المقدسة للناس جميعاً لهم أن يقرءوها وأن يفسروها بمنطقها الواضح دون رقابة كنسية تصادم العقول الصحيحة فى اتجاهها.

وقد سبق مارتن لوثر إلى ذلك جماعة الغالدين فى القرن ١٢ التى نشأت فى محيط قريب الصلة بالفكر الإسلامى.

وكان ذلك كله من أثر الإسلام الذى حد من سلطة الكنيسة ومهاجمة صكوك

الغفران، وكان ما جهر به لوثر من انكار العشاء الربانى ليستحيل الخبز إلى جسد المسيح والخمر إلى دمه المسفوك.

وأعلن لوثر أن البابا لا يستطيع أن يرفع عن الإنسان قصاص الخطيئة وإنما يعلن أن خطاياه مغفورة من الله.

وأعلن أن كل رسل البابا وأتباعه الذى يبيعون صكوك الغفران يخطئون فى قولهم أن العفو البابوى ممكن أن يحرر الإنسان من الخطيئة وأن على البابوات أن يمتنعوا عن الانغماس فى المتع واللذات ويقللوا من مظاهر الأبهة والعظمة.

❑ ❑ ❑

ومنذ زحف الإسلام إلى الأندلس ظهر تأثير المسلمين فى النظم الحربية والسياسية واضحاً بحيث كان روجار ملك صقلية قريب الصلة بمستشارين إسلاميين وكان فردريك الثانى يعيش عيشة شرقية تكاد تكون عربية.

وقد سجل التاريخ أن مارتن لوثر الذى أطلع على مفاهيم الإسلام وبعض نصوص القرآن هو الرجل الذى صدع وحدة الكنيسة الرومانية واستطاع أن ينشئ مذهباً نصرانياً جديداً هو البروتستانتية الذى تتبعه عدة من الأمم مثل ألمانيا وانجلترا ومعظم الشعب الأمريكى وبالرغم من الدور الضخم الذى قام به لوثر فإنه لم يستطع أن يتخذ أى قرار بالنسبة للقضايا الثلاث :الصلب والتثليث والخطيئة.

❑ ❑ ❑

ومنذ عبر الإسلام إلى قلب أوروبا حين أنشأ الجامعات فى عواصم الأندلس ومنذ توطن فى أسبانيا وجنوبى فرنسا وإيطاليا وجزر البحر الأبيض المتوسط ومنذ فتح

المسلمون نابلى وجنوه وتغلبوا على رومية فى القرن التاسع وهو يبث علوم الإسلام فى أوروبا، وقد أخذ المسيحيون علوم المسلمين وحرصوا ألا يأخذوا العقيدة ثم لم يلبثوا أن حاربوا المسلمين بالعلوم التى حصلوا عليها فما أن سقطت قرطبة حتى اندفعت أسبانيا والبرتغال لمحاصرة العالم الإسلامى.

وبدأت عملية الاستعمار الخطيرة التى سيطر فيها الغرب على كل مقدرات البلاد الإسلامية فى نفس الوقت الذى أنكروا فيه فضل الإسلام، كما صادروا الموسوعات وجمعوا التراث ونقلوه إلى بلادهم.

وكانت الكنيسة قد واجهت توسعات الإسلام بحقد شديد بالرغم من موقفه الكريم من السيد المسيح والسيدة مريم وبالرغم من عطائه الوافر فى مجال العلوم التجريبية، فقد دفع المسيحيون القوى الإسلامية فى معركة بلاط الشهداء وأخروا وصول الحضارة إلى أوروبا سبعة قرون.

ثم لم تلبث الكنيسة أن عقدت عزمها وأثارت الحروب الصليبية وزحفت قوى ضخمة إلى بلاد المسلمين فى ثمانى حملات تحت ستار تخليص قبر المسيح، وعندما سيطرت أوروبا على بلاد المسلمين أعلنت روسيا نفسها حامية للأرثوذكسية وأعلنت فرنسا نفسها حامية للكاثوليكية، وكذلك أعلنت إنجلترا نفسها حامية للبروتستانتية.

لقد جاوز الغرب المسيحية إلى الفلسفة المادية وتنكر للدين جملة بعد أن اختلف مع الكنيسة فى تفسير الكتاب المقدس ومجموعة المفاهيم المتعلقة بالصلب والتثليث والخطيئة، وهاجم كتاب التنوير الغربى الفكر المسيحى هجوماً شديداً،وبلغ بهم العنف فى الخصومه القول بأن البشرية ليست فى حاجة إلى الدين، وأنها قد بلغت رشدها وأن العقل والعلم هما بمثابة دينها الجديد.

وقد حملت الدارونية هذه المفاهيم بالرفض الكامل للدين واتخاذ العلم ديناً والادعاء بأنه ـ أى العلم ـ قادر على أن يوجه البشرية، ونشأت تبعاً لذلك مفاهيم الفلسفة المادية التى استشرت واتسع نطاقها.

وقد نشأت فلسفة كاملة فى مجال المادة تحمل تصوراً كاملاً للكون والحياة والمجتمع حملتها مذاهب العلوم الإنسانية والاجتماعية (النفس والمجتمع والأخلاق) على النحو الذى قدمها : به ماركس وفرويد وسارتر ودوركايم.

وانحسرت المسيحية فى الكنائس بعد أن كشف العلم المادى كثيراً من الأخطاء التى حوتها الكتب المقدسة التى كتبت أساساً بأيدى الأحبار والرهبان والتى لم تكن منزله من السماء.

وتلك قصة قائمة بذاتها : هى قضية الكتاب المقدس (العهد القديم والعهد الجديد) وكيف واجهها المفكرون فى الغرب سواء فى مجال الأدب أم فى مجال العلم أم فى مجال اللاهوت.

وقد كُتِبَتْ فى ذلك كتب كثيرة كان آخرها ما كتبه ستة من كبار رجال الحقائق التى كشف عنها العلم خاصة فيما يتعلق بخلق الإنسان وخلق الكون والتقديرات الخاصة بالعصور والأزمنة (ويراجع فى هذا كتابا الدكتور موريس بوكاى) ولما أعلن رجال العلم كذب المعلومات التى وردت فى الكتاب المقدس قامت قيامة الكنيسة وأنشأت محاكم التفتيش لمعاقبة الملاحدة والزنادقة وعاقبت ثلاثمائة ألف أحرق منهم اثنان وثلاثون ألفا أحياء منهم العالمان برونو وجاليليو اللذان اهتديا للحقائق عن طريق علوم المسلمين، ومع ذلك فإن الغرب لم يكف عن تصدير المسيحية الغربية إلى بلاد الإسلام فى مخطط عريض واسع رصدت له الملايين الكثيرة فى

مختلف ميزانيات الدول المسيحية الأوروبية وذلك تحت اسم التبشير (الذى هو تعبير مهذب للتنصير).

وبالرغم من زيف المفاهيم التى تقدمها المسيحية وتعارضها مع الفطرة ومع العلم ومع ما كشف عنه القرآن الكريم من كتابات مختلطة.

﴿ فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم ويقولون هو من عند الله﴾

بالرغم من هذا صدر الغرب النصرانية إلى بلاد المسلمين تحت أبواب من الإغراء والحاجة، ومن خلال المعونات والطعام والأدوية والمستشفيات، واستغل حاجة فقراء المسلمين فى قلب أفريقيا وفى جنوب شرق آسيا فأقام كنائس شاهقة ومؤسسات ومدارس ومستشفيات، واضطرت الحاجة المسلمين إلى قبول هذه المعونات بدعوى أنها مرسلة إليهم من السيد المسيح فى الوقت الذى رافق المسيحية فى التبشير قوة الاستعمار وسلطانه بعد أن استولى على هذه المناطق سواء منها الاستعمار البريطانى أم الفرنسى، بل لقد استطاع هذا النفوذ أن يبنى كنائس ضخمة فى أقطار إسلامية ليس فيها مسيحى واحد ،كما فعل فى ليبيا والإمارات وبعض دول الخليج.

وكأنما أراد النفوذ الغربى أن يضع المسلمين بين مخافتين :

الأولى : بين مناهج تدرس فى المعاهد والجامعات تثير الشبهات حول مفاهيم الإسلام وقيمه وتقدم مفاهيم الفلسفة المادية الغربية كأساس للعلوم والثقافة وكمصدر للسياسة والاقتصاد والاجتماع فى محاولة للقضاء على مفهوم تكامل الإسلام بوصفه منهج حياة ونظام مجتمع .

الثانية : وبين حملات تبشيرية مكثفة عن طريق الإرساليات ومعاهدها والمستشفيات والكنائس والصحافة والإعلام والترفيه، وأهم ما تدعو إليه هو التحرر من

القيود والتحلل والانطلاق فى محاولة لتدمير قيم الإسلام الأخلاقية، ولم يتوقف المسلمون عن المقاومة فى المجالين.

وقد دحضوا كل مفاهيم الفلسفة المادية وكشفوا زيفها وواجهوا حملات التبشير بمناظرة كبار الدعاة إلى المسيحية.

(فى القديم رحمة الله الهندى (كتاب إظهار الحق)وفى الحديث مناظرات أحمد ديدات).

هذا وقد تأكدت حقائق القرآن فيما يتعلق بكل قضايا التاريخ القديم وكشفت زيف دعاوى اليهود والنصارى، ونزلت التوراة عن مكانها الذى حاول الغرب رفعها إليه واعتبارها مصدراً للتاريخ القديم بعد أن كشف زعماء الفكر اللاهوتى كثيراً من زيوفها كما كشفت الحفريات أشياء كثيرة.

وقد أدى هذا الإنجاز الضخم الذى قام به علماء المسلمين فى العصر الحديث فى مواجهة الإعصار الهائل مع تنامى الإسلام سلماً ودخوله مناطق كثيرة فى القارات الخمس ـ أن يفكر الغرب فى منطلق جديد يحاول به خداع المسلمين وكسب شهادات من أعلام المسلمين للمسيحية، باعتبارها أحد الأديان المنزلة، وذلك لإيقاف الزحف الغربى إلى الإسلام، فكانت دعوتهم إلى الحوار بين الإسلام والمسيحية.

❑ ❑ ❑

وظل خوف الغرب من الإسلام ممتداً لا يتوقف فى مختلف معطيات الفكر الغربى:

أولاً : المناهج فى الغرب تحمل الحقد للإسلام ولا تعترف بفضله على الحضارة وتنتمى إلى حضارة اليونان والرومان ولا تعتبر الإسلام وإلا ناقل لها .

ثانياً : غرس بذور الحقد فى مناهج التعليم الأوروبية ضد الإسلام وتعليمه لأبناء المسلمين القادمين لها فى بعثات ليكونوا سناداً لها فى بثه فى المسلمين مرة أخرى.

ثالثاً : ضرب الموجة الجديدة التى تقذف بالإسلام فى الغرب والتشويش عليها والعمل على الحصول من علماء المسلمين على شهادات بأنه لا فرق بين الإسلام والمسيحية.

رابعاً: ظهور الإسرائيليات المعاصرة التى تطعن فى الإسلام والعلماء الذين كانوا رواد الحضارة الإسلامية وعمدها وإنكار الدور الإسلامى نهائياً

خامساً : غرس كيان غريب فى قلب العالم الإسلامى يفصل المشرق عن المغرب ويؤخر التقدم.

سادساً : محاولات ضد الأمة بواسطة أبنائها عن طريق احتواء الأقليات والعناصر الكارهة للعروبة والإسلام.

❑ ❑ ❑

ومن ناحية أخرى يخشى الغرب عودة المسلمين إلى منهجهم وتراثهم وتاريخهم، ولذلك ترتفع الصيحات المفزعة إذا رأوا ذلك .

لقد رسموا للمسلمين والعرب خطة تحويل واحتواء ومضوا فيها قدماً قوامها السيطرة على المناهج الدراسية والصحافة والثقافة، وقد خرجت عشرات من المؤمنين بذلك والعاملين به.

ولكن متى انكشفت هذه الخطة فقد انهار هذا البناء، ويبقى على المسلمين التماس منهجهم الأصيل.

الفصل الثانى
مخططات التبشير والاستشراق والحوار

وضح الهدف وضوحاً بيناً : إنه حصار الإسلام واحتواؤه.

فلقد كان هدف الحروب الصليبية فى الأساس هو حصار الإسلام وإيقاف زحفه، ولكن قرنين كاملين من الحملات الصليبية لم يحققا الهدف واستطاع الإسلام دحر هذه القوى المتجمعة لحصاره ووصل أصحاب الغزوه الخطيرة بعد أن اقتحموا دار الإسلام وزحفوا فى كل اتجاه وبعد أن عملوا على إيقاف امتداد الإسلام نفسه إلى الغرب وتقديم منهجه، ووجهوا الضربات فى كل اتجاه، وجدوا أنفسهم غير قادرين على هزيمة الإسلام، وهنا تفتق فكرهم إلى خطـــة أخرى هى (إعلان حرب الكلمة) وذلك بتدمير مفهوم الإسلام نفسه وتزييفه وإخراجه من مضمونه الحقيقى وتحويله عن أشياء كثيرة :

أولاً : تحويله عن مفهوم الجهاد : تلك الفريضة الماضية إلى يوم القيامة والادعاء بأنها الجهاد الأصغر بينما الجهاد الأكبر هو جهاد النفس من خلال حديث لم يصح عن الرسول.

وهذا ما أخذت به طوائف البهائية والقاديانية غيرها.

ثانياً : تحويله عن مفهومه فى أنه نظام مجتمع ومنهج حكم وتطويعه ليكون ديناً عبادياً بمفهوم اللاهوت فى الديانة المسيحية بحيث يتقلص وجوده وينحصر فى المسجد.

وبذلك يستطيع النفوذ الغربى السيطرة على مختلف مجالات المجتمع الإسلامى السياسية والاقتصادية والتربوية.

وهذا بالضبط ما أشار إليه هاملتون جب فى كتابه (وجهة الإسلام) عندما تحدث عن (التغريب) الذى كان الغرب فى الثلاثينيات دائباً على تحقيقه بغرض فرض هذه المفاهيم على الفكر الإسلامى والمجتمع الإسلامى من خلال مؤسستين كبيرتين هما :

مؤسسة التبشير ومؤسسة الاستشراق.

ثم تطور نطاق الغزوه التغريبية واتسع حيث فوجىء قادة الغزو بحركة اليقظة الإسلامية التى استطاعت أن تحقق انتصارات حقيقية بعد سقوط الخلافة، حيث كان دعاة التغريب يرون أن قيداً كبيراً قد انفك عن الأمة الإسلامية حين غلبت عليهم فكرة الدولة القومية التى تحول دون العودة إلى الوحدة الإسلامية، أو الجامعة الإسلامية مما أعطى مؤسسات التبشير منطلقاً جديداً من خلال تدمير مناهج التربية الإسلامية وفرض مناهج الإرساليات التى استحدثت ثلاثة مواقع أساسية فى استانبول وبيروت والقاهرة، من خلال رهبان الكاثوليكية والبروتستانية الذين كانوا يستمدون مفاهيمهم من أساس مرسوم ثابت مركز هو فلسفة الماسونية التى كانت حريصة على تفريغ المجتمع الإسلامى من الحصانة الأخلاقية التى جاء بها الإسلام لحراسة حركة الحياة والمجتمعات.

وكان المخطط قد بدأ أولى خطواته على طريق (حرب الكلمة) بانتقاء عدد من القساوسة والرهبان الذى يتمتعون بالقدرة على الجدل والحوار لاقتحام تراث الإسلام والبحث عن وجوه التشكيك وضرب النصوص، والبحث عن الثغرات من أجل تقديم تصور جديد للفكر الإسلامى يقوم على صورة خادعة من الموضوعية والمنهج العلمى لخداع الشباب عن دخائل الحقد والكراهية.

وكان أخطر ما قصدوا إليه إحياء تراث الفكر الباطنى والوثنى وما كتبه إخوان الصفا ودعاة المزدكية والمانوية والأفلاطونية والغنوص المسيحى وإحيائه وتجديده ودفعه مرة أخرى إلى الحياة الفكرية ليثير الشبهات والبلبلة ويعمل على إضعاف القيم الأساسية للإسلام فى محاولة لتدمير بنية الفكر الإسلامى القائمة على التوحيد الخالص والوحى والغيب والمفهوم الجامع المتكامل للروح والمادة والعقل والقلب فى سبيل إقامة منهج حياة ونظام مجتمع متحرر تماماً من الفلسفة المادية.

منهج الاستشراق فى حصار الفكر الإسلامى

كان الاستشراق هو (الأداة) الخطيرة لضرب مفاهيم الإسلام وقيمه والتشكيك فى خصوصيته الذاتية وتدمير الأسس التى قام عليها بوصفه منهج حياة ونظام مجتمع وبحسبانه قائما على منهج المعرفة الإسلامى الجامع بين الوحى والغيب من ناحية والعقل والمحسوس من ناحية أخرى.

ويمكن تصوير هذه المحاولة الخطيرة على النحو التالى :

أولاً : الطعن فى الشريعة الإسلامية والادعاء بأنها ليست إلا صورة معدلة من القانون الرومانى ووصف الفقه الإسلامى بالقسوة فى الأحكام.

ثانيــاً : الطعن فى السنة وإحياء خلافات الفرق والصراع بين المذاهب .

ثالثــاً : الحملة على القرآن الكريم والإدعاء بأنه من كلام الرسول ﷺ وتأويل نصوص القرآن تبعاً لما يقتضيه العقل والمنطق مع إنكار الوحى والبعث واتهامه بالتناقض وبأنه موضوع .

رابعــاً : إعطاء العقل وأحكامه حق النظر فى العقيدة وأصول الدين.

خامساً : محاولة إخضاع قضايا الغيب إلى التجربة والمشاهدة

سادساً : مقت أهل السنة والتهوين من شأنهم ورميهم بالتعصب وضيق الفكر.

سابعاً : اعتبار هزيمة الفرق المنحرفة فى القديم والجديد (وخاصة المعتزلة) وانتصار أهل السنة نكسة تاريخية وضرراً بالإسلام وعاملاً من عوامل التخلف والجمود.

ثامنـاً : الإشادة بالتصوف الفلسفى والصوفية الغالية (ابن عربى والحلاج وابن سبعين والسهروردى) .

تاسعاً : الدعوة إلى منهج إخوان الصفا الذى يقول : إن الشريعة دنست بالجهالات واختلطت بالضلالات ولا سبيل إلى غسلها وتطهيرها إلا بالفلسفة.

عاشراً : المبالغة فى رفع شعار (حرية الفكر) على حساب العقيدة الإلهية.

حادى عشر : محاولة تصوير المجتمع الإسلامى فى القرون الفاضلة مجتمعاً ماجناً لاهياً عابثاً (وذلك على النحو الذى كتب به طه حسين عن شعراء الزندقة) .

ثانى عشر : الاعتماد على مصادر فى البحث غير موثوق بها كالأغانى وألف ليلة .

ثالث عشر : الطعن فى السنة وحرب التراث ومهاجمة اللغة العربية فى قواعدها ورميها بالقصور والدعوة إلى الكتابة بالعامية بدلاً من الفصحى وخلق فجوة بين بيان القرآن وبين لغة الكتابة العصرية.

رابع عشر : اعتبار الحملة الفرنسية مصدر يقظة عربية اسلامية ووصف المرحلة السابقة لها على أنها فترة الإنحطاط وذلك عكس الحقيقة الأساسية التى تقول أن زحف الحملة الفرنسية على مصر كان من أجل تحطيم النهضة الإسلامية التى بدأها علماء أجلاء: الجبرتى الكبير، محمد بن عبد الوهاب، الزبيدى، الشوكانى.

خامس عشر : تقديم مفاهيم زائفة للجهاد.

سادس عشر : نشر آراء مسمومة ترمى إلى تصوير الشعر الجاهلى على أنه شعر منحول وضع بعد الإسلام للتشكيك فى أثره العلمى فى تفسير كلمات القرآن.

سابع عشر : الدعوة إلى القومية فى مواجهة مفهوم الوحدة الإسلامية والدعوة إلى الديمقراطية فى مواجهة الشورى الإسلامية والدعوة إلى الماركسية فى مواجهة العدل الاجتماعى.

ثامن عشر : وصف الحركات الهدامة فى التاريخ الإسلامى بأنها حركات حرية وعدل.

تاسع عشر : تحريف النصوص وبترها أحياناً وليّ أعناقها لتخدم أهدافهم

عشرون : إخضاع تاريخ الإسلام لمفهوم المسيحية وتفسيراتها ثم إخضاعه لتفسيرات المادية الغربية ثم التفسيرات الماركسية.

واحد وعشرون : الاهتمام بدراسة الفتن الأهلية والخلافات المذهبية ومظاهر الانقسام والتفسخ.

ثانى وعشرون : محاولة القول بأن محمداً ﷺ يملك حدساً قوياً وتصوراً خلاقاً، وأن الوحى والنبوة ما هى إلا نوع من النشاط الذهنى غير العادى، وهى دعاوى مضللة لا أصل لها.

❑ ❑ ❑

وقد أكدت الأبحاث المنصفة أن المستشرقين غير مؤهلين للحديث عن الإسلام لافتقارهم إلى كل خصائص الأمانة العلمية، وذلك بسبب تعصبهم التاريخى الصليبى على الإسلام وافترائهم على نبيه ﷺ وإنكارهم الوحى المنزل عليه وعجزهم عن إدراك المجاز القرآنى وجهلهم باللغة العربية وأسرار بلاغتها فضلاً عن مواقفهم المنحازة فى تأييد اليهود والصهيونية ضد الإسلام.

وكان اليهود قد كثفوا أنفسهم ليصبحوا عموداً فقرياً فى حركات الاستشراق الأوروبية النصرانية التى سبقت وتلت الحروب الصليبية، وكانوا هم الكشافة الذين يتقدمون الغزاة المستعمرين فى بلادنا حتى أن جولد سيهر وهو يهودى مجرى أصبح زعيم علماء الإسلاميات فى أوروبا.

وبذلك التسلل اليهودى كشف اليهود أنهم فرضوا أنفسهم على الحركة

الاستشراقية كلها لا الحركة اليهودية فحسب؛ يقول المستشرق المسلم (ليوبولد فابس) محمد أسد: إن أبرز المستشرقين الأوروبـيـين جعلوا من أنفسهم فريسة للتحزب غير العلمى فى كتاباتهم عن الإسلام، ولذلك يظهر الإسلام فى تلك الكتابات ليس على أنه موضوع بحث علمى بل على أنه متهم يقف أمام قضاته يلتمسون الأدلة الباطلة لإدانته، وقد تمثل بعضهم دور المحامى المقتنع بإدانة المتهم ولكنه يلتمس له الرأفة باعتبار الظروف المخففة.

وتشبه طريقة المستشرقين طريقة محاكم التفتيش فى أوروبا فى القرون الوسطى حيث كانت كل دعوى تبدأ باستنتاج متفق عليه من قبل قد أملاه عليها تعصبها لرأيها.

كذلك يختار المستشرقون شهودهم حسب الاستنتاج الذى يقصدون إليه مبدئياً، فإذا تعذر عليهم عمدوا إلى كتمان الشهادة أو تحريفها أو تأويلها.

ونتيجة هذه المحاكمة صورة مشوهة للإسلام تواجهنا فى جميع ما كتبه مستشرقو أوروبا.

هذا التشوية الشامل والمتعمد للإسلام فى دراسات المستشرقين إنما يهدف به بوجه عام إلى صد الناس جميعاً عن الإسلام وتشكيك المسلمين فى دينهم وتنفيرهم منه ومحاولة ردهم عنه.

﴿ود كثير من أهل الكتاب لو يردونكم من بعد إيمانكم كفارا حسدا من عند أنفسهم ﴾ (الآية)

وقال ﷺ : لا تسألوا أهل الكتاب عن شئ فإنهم لن يهدوكم وقد ضلوا، وإنكم إما أن تصدقوا بباطل وإما أن تكذبوا بحق وإنه والله لو كان موسى حياً بين أظهركم ما حل له إلا أن يتبعنى. (رواه الحافظ أبو يعلى).

❑ ❑ ❑

وقد كشفت حقائق تاريخية من أسرار البابوية ضد الإسلام أن الرهبانية جندت رهباناً لتهديم الحضارة الإسلامية فأسلموا ، يقول الدكتور عمر فروخ :

إن انحسار الاستعمار الرومانى الأوروبى البابوى عن بلاد المشرق الإسلامى أرهب البابوية ودفعها بعد فشل الحروب الصليبية إلى شن حرب ثقافية سلاحها تشويه وبلبلة أساس المدارك الحضارية فى الإسلام، ومن هذا المنطلق بدأ الرهبان الكاثوليك بنقل الكتب العربية إلى اللغة اللاتينية بهدف فهم واقع الحضارة العربية كمدخل إلى اتخاذ الطرائق إلى تقويضها.

ولكن هنا حدثت المعجزة حيث إن عددا من الذين جندتهم الكنيسة للهجوم على الإسلام من خلال الثقافة أصبحوا جنوداً مدافعين عن الثقافة الإسلامية، بل إن الكثير من أولئك الرهبان والمترجمين قد أسلم فعلاً بفضل الحضارة الإسلامية الكامنة فى الكتب العربية وإلى ذلك فإن أكبر ضربة تعرضت لها الكنيسة الكاثوليكية فى تاريخها والتى جاءت مع ثورة لوثر البروتستانتية كانت غير بعيدة عن استنجاد مؤثرات الحضارة الإسلامية نفسها، مما لا شك فيه أن مارتن لوثر أخذ أشياء كثيرة عن الإسلام منها (١) الاستغناء عن مقام البابوية (٢) والقول بأن أعمال الإنسان هى التى تنجيه يوم القيامه وليس مجرد إيمانه بالمسيح (٣) إبطال الرموز الدينية بعد ما كانت النصرانية الكاثوليكية ترى فى النصوص والتراتيل الدينية شيئاً من الحضور الإلهى (٤) إبطال سلطة رجال الدين فى غفران الذنوب، فإنه تبارك وتعالى هو وحده الذى يغفر الذنوب .

❑ ❑ ❑

وقد قام الدكتور سالم أحمد اليافعى إبان عقد مؤتمر الطب الإسلامى فى استانبول ١٩٨٤ بحرق أطراف غلاف كتاب (دائرة المعارف الإسلامية) لاحتوائه على معلومات تهاجم الإسلام والتراث الإسلامى وتمس القرآن الكريم وسيدنا

محمداً ﷺ وأشار إلى أن هذا الكتاب هو تأليف مجموعة من المستشرقين اليهود والنصارى المتخصصين فى تشويه صورة الإسلام، ودور الأطباء والعلماء المسلمين فى الحضارة الإسلامية من خلال المقالات التى كتبوها فيه.

وأضاف : أن عملية حرق الغلاف كانت عبارة عن رمز من قبل المؤامرة وبداية لقطع العلاقات مع المستشرقين الغربيين والأفكار الغربية الهدامة وبداية لانطلاق الأطباء والعلماء المسلمين لكتابة تاريخ الطب والحضارة الإسلامية من منظور أصيل، وكذلك رداً على قيام الطبيب الأوروبى (باراسلوس) الذى قام بحرق كتب الفيلسوف ابن سينا فى مدينة بازل بسويسرا عام ١٥٢٧.

❑ ❑ ❑

وبالجملة فإن مهمة الاستشراق الأساسية هى خدمة النفوذ الغربى لفرض المصالح الغربية على العالم الإسلامى، وأن يكونوا عيون أوروبا الناظرة إلى عقول وسكان الشرق الإسلامى والعمل على تحطيم وحدة المسلمين العامة وإثارة الشبهات حول ذاتية الإسلام وتكامله وتحطيم مجتمعه.

ومحاولة الادعاء بأن الإسلام كان مرحلة، وأنه كان وليد بعض الظروف.

بدأت عمليات التبشير بمدارس الإرساليات التى أنشأتها الجاليات الأجنبية فى البلاد العربية والإسلامية، والتى تركزت فى العواصم الكبرى : القاهرة - وبيروت - استانبول، والتى خرجت عدداً كبيراً من المثقفين ذوى الولاء للفكر الغربى سواء الفرنسى أو الإنجليزى، وكان ذلك مقدمة للبعثات التى أرسلت من البلاد العربية والإسلامية إلى عواصم الغرب.

وقد تركز التبشير فيما بعد على أفريقيا وجنوب شرق أسيا فى محاولة لإدخال الوثنيين فى المسيحية والحيلولة بينهم وبين قبول الإسلام، ومن هنا فقد ارتبط التبشير أساساً بالنفوذ الاستعمارى الغربى، واستطاع العمل فى حضانته والاستعانة بعناصر من أصحاب الأديان الأخرى على إغراء بعض الشباب المسلم للدخول فى المسيحية تحت تأثير الحاجة أو الفقر أو الطموح إلى تولى المناصب القيادية فى بلادهم.

تقول بنجمين فيلنى (فى محاضرة بالجامعة الأمريكية فى ١٩٥٧/١٠/٢٠): الحق أن هذه مؤسسات (الجامعة الأمريكية فى القاهرة وبيروت والقسطنطينية) لعبت الدور الرئيسى فى تنمية الفكر الشخصى فى طلابها الذين تمكنوا من قيادة حركة القومية، (ومن المهم أيضاً أن نعرف أن النفوذ التربوى الوحيد الذى تعرض له الطلاب العرب فى القرن الماضى كان النفوذ الغربى) وقد قال لورد بلفور: « المبشرون هم ساعد الحكومات المستعمرة ، وعضدها فى كثير من الأمور الهامة ولولاهم لتعذر على الحكومات أن تذلل كثيراً من الصعاب »

ولقد كان الشرق الأدنى مطمح أنظار جماعة أخرى من الناس تنشد أن تنجز عن طريق الكلمة ما عجز أجدادها عن تحقيقة عن طريق السيف، تنفذ فى إنقاذ مهد المسيح وإخضاع العالم كله للمسيح، إن هذا الحلم المسيحى قديم قدم المسيحية ذاتها، وهو يستمد وحيه الدائم من الوصية العظمى كما حملها أول المبشرين من الرسل (متى) حين قال : « اذهبوا وتلمذوا جميع الأمم وعمدوهم باسم الأب والابن والروح القدس وعلموهم أن يحفظوا جميع ما أوصيتكم به».

وهذا هو المنطلق الحقيقى لعملية التبشير التى ترمى إلى تنصير العالم والقضاء على كل دين غير النصرانية.

غير أن الحقيقة النهائية لهذه التجربة الطويلة تؤكد أن الجهود التبشيرية المسيحية لم تحقق فشلاً ذريعاً فى أى مكان كما حققت فى مواجهة الإسلام ومن هنا كان

تراجعها إلى الدعوة إلى تشكيك المسلمين فى الإسلام بهدف إخراجهم منه دون إدخالهم فى المسيحية، ويرجع فشلها إلى ما تحمله (المسيحية الغربية) من تناقضات وعجزها عن العطاء الحقيقى، وأن الإسلام هو مسيحية وزيادة، كما قال الشيخ محمد عبده ومن هنا كانت محاولة الربط بين المسيحية والنفوذ الاستعمارى على النحو الذى تجرى عليه الأمور فى شرق أفريقيا وغربها.

❑ ❑ ❑

وإنه يتحتم علينا لكى نقاوم التبشير الغربى فى المجتمعات الإسلامية أن نكون على بينة من أهدافه ومخططاته وتحولاته، ونعرف أنه يهدف أساساً إلى إخراج المسلمين من الإسلام وليس إدخالهم فى المسيحية، والعمل التبشيرى لم يعد فى العصر الحديث مقصوراً على مجالات المستشفيات والهيئات الفقيرة المحتاجة إلى الطعام أو الدعوة بالإغراء والخداع فى الحوارات والمناقشات، بل إنه أصبح الآن عملاً أوسع مدى، وقد استطاع عن طريق الموارد الضخمة التى توضع تحت تصرفه أن يقتحم مجالات كثيرة خاصة مجالات الثقافة والمسرح والسينما والصحافة ووسائل الإعلام والتسلية فى أسلوب ماكر خفى مضلل يجب أن نكون نحن المسلمين على وعى به حتى لا نقع فى شراكه، ولاريب أن التبشير عمل سياسى بالدرجة الأولى، ويستهدف قطع الطريق على امتداد الدعوة الإسلامية وخاصة بالنسبة للجاليات التى تعيش فى الغرب وبعيداً عن المجتمعات الإسلامية العريضة.

فهم يرون أنه من الضرورى إثارة الشبهات حول الإسلام حتى لا يدخله الغربيون الذين يبحثون الآن عن السلام ليحقق الأمن النفسى الذى لا يجدونه فى مجتمعاتهم فلا يجدونه والذى يتطلعون إليه فى ظلال الإسلام، ومن هنا ارتبطت خطة التبشير فى المجتمعات الإسلامية الجديدة فى الغرب بإدخال مفاهيم الفرق الضالة والدعوات

الهدامة حيث يركزون على البهائية والقاديانية والباطنية والتصوف الفلسفى، وكل مايتصل بالحلول والاتحاد ووحدة الوجود، وعناصر أخرى من البوذية كالنرفانا أو مفاهيم الهندوكية والفكر الوثنى على إطلاقه .

ولا شك أن المؤتمرات والندوات التى عقدت وتعقد لدراسة هذا الخطر ضرورية فى حشد القوى وكشف أبعاد المؤامرة، ولكنها لا تكفى وحدها فى صد هذا التيار ولابد من أن تقدم الهيئات الإسلامية الكبرى دعاتها ينطلقون إلى هذه المواقع لكشف الخطر وتوعية المسلمين الجدد بهذه الأخطار حتى يتحرزوا منها ويكون اتصالهم مقصوراً على أهل السنة والجماعة وحدهم فهم أصدق الناس فى تبليغ الإسلام.

ومما يذكر أن عدداً من كبار دهاقين التبشير الغربى قد تحركوا فى السنوات الأخيرة إلى مختلف المناطق الإسلامية ذات الحساسية فى محاولة لدعم عمليات التبشير وفى مقدمة هذه المناطق شرق أفريقيا وغربها وجنوب شرق آسيا، كما يلاحظ أن المبالغ الضخمة التى توردها ميزانيات دول الغرب فى باب التبشير قد تضاعفت إزاء الشعور بخطر الصحوة الإسلامية وفى محاولة لإيقاف تيار الدعوة الإسلامية، وضعت مخططات تحت عنوان (تنصير العالم الإسلامى) وأنجلة العالم الإسلامى كما طبعت ملايين عدة من الكتاب المقدس ووزعت فى مناطق متعددة واستغلت أحداث كثيرة لاحتواء ملايين الأطفال المسلمين لنقلهم من بيئاتهم وإدخالهم فى المسيحية، كل هذا يجرى فى الوقت الذى يتحدث فيه البعض عن (الحوار) بين الإسلام والمسيحية، وهو ما لا يمكن التسليم به ولابد أن تعلن القوى الغربية أيقاف عمليات التبشير كلية.

وليعلم هؤلاء أن هذه المحاولات كلها لن تصل إلى نتيجة ما ولن تستطيع أن توقف خطوات تنامى الصحوة الإسلامية التى تقدم للعالمين منهج الله تبارك وتعالى الذى تتطلع البشرية اليوم إليه لإنقاذها من ويلات المادية والإباحية ومن أخطار التسلط والنهب والسلب للثروات الإسلامية، وصدق الله العظيم :

﴿ إن الذين كفروا ينفقون أموالهم ليصدوا عن سبيل الله فسينفقونها ثم تكون عليهم حسرة ثم يغلبون ﴾.

والواقع أننا فى أشد الحاجة لكشف هذه المخاطر أمام شبابنا المسلم فى بلادنا حتى يكونوا على وعى كامل بأبعاد المؤامرة التى رسمها النفوذ الغربى منذ سنوات طويلة لاحتواء الأمة الإسلامية والسيطرة عليها وامتصاص مواردها وصهر أهلها فى بوتقة الحضارة الغربية المنهارة، فهم يخشون أن يمتلك الإسلام زمام الأمور بعد انهيار المذاهب الغربية (الليبرالية والماركسية) على السواء وهو ما توقعه خبراء السياسة الغربية العالمية منذ عام ١٩٠٧ حين انكشفت لهم عوامل بدء انهيار النفوذ الغربى على النحو الذى كشفه المؤرخ جيبون حين كتب كتابه الخطير، (سقوط الإمبراطورية الرومانية) ومن هنا كانت فكرة إدخال عنصر غريب بين قارتى آسيا وأفريقيا فى محاولة لعدم تمكين المسلمين والعرب من إقامة حضاراتهم : هذا العنصر الغريب هو إسرائيل التى أقامت رأس جسر فى قلب الأمة الإسلامية بالسيطرة على فلسطين وبيت المقدس.

ولكن الإسلام الذى تحاول أن تعتوره المؤامرات الخطيرة من استشراق وتبشير وتغريب وغزو ثقافى سيظل قادراً على مقاومة ذلك كله صامداً كالطود لن تنال منه هذه الأخطار. وسوف يستطيع بالإيمان الوثيق بمنهج الله تبارك وتعالى أن يستعيد ما فقد منه، وأن يقيم مجتمعه الأصيل، وعلى الشباب المسلم أن يكون واعياً لهذه المؤامرة الخطيرة وأن يكون قادراً على الإفلات من براثنها.

حول التبشير

احتشدت قوى الكنائس الكاثوليكية والبروتستانتية فى أفريقيا وجنوب شرق آسيا فى محاولة لضرب الإسلام فى معاقله واحتواء أتباعه فى مجالين: (١) بين الشعوب الإسلامية التى تتكلم اللغة العربية. (٢) فى البلاد الإسلامية التى لها لغات غير العربية.

وهم يعملون فى مجالات عدة : ترجمة الإنجيل إلى لغات هذه البلاد، وضع الكتب، والصحف ، البث الإذاعى ومدارس الإرساليات والجمعيات الخيرية واستغلال حاجة أهل تلك البلاد بسبب الفقر والحاجة وعجزهم عن فهم الإسلام فهماً صحيحاً.

وبعد الحرب العالمية الثانية، أخذت الولايات المتحدة فى قيادة تحرك تبشيرى لا ينتمى أصلاً إلى رجال الكنائس (كما يقول وليم سليمان) لقيادة مجلس الكنائس العالمى وقيادة (جون رالى موط) عملاً بخطة استعمارية : هى إبعاد الدين عن الحياة فى البلاد الإسلامية من كل مشاركة أو اقتراب فى الحياة السياسية والاجتماعية والاقتصادية، إلى عزل الدين عن حياة المسلم عزلاً تاماً وفصل المسلم بالتالى عن حقيقة دينه، وكان هذا هو همهم الأول قبل اهتمامهم بالتبشير للدين المسيحى، وفق نظرة مغايرة للدين المسيحى حيث انهارت بعض مقومات الحضارة الأوروبية القومية ــ وهزيمة الأرثوذكسية والروسية القيصرية. وقد بدأت القوى التبشيرية تحدث تغييراً جذرياً فى مخططاتها وفى المناخ اللاهوتى المسيحى خاصة فى الولايات المتحدة التى أعلنت عن إله الغرب الجديد الذى أطلق عليه اسم العلمانية . Seculaliosm

الإعلان عن عبادة هذا الإله الذى كان يعبد فى الخفاء فصارا يعبد جهاراً.

وشكلت الولايات المتحدة لجنة برئاسة الفيلسوف الأمريكى أرنست هوكنج وكل أعضائها ليسوا من رجال الدين.

وقاموا برحلات إلى آسيا وأفريقا وخرجوا بتقرير يؤكد أن الرجل الغربى أصبح أقل ثقة فى وحدانية الإنجيل المسيحى، وليس من حق الرجل الغربى أن يفرض على ورثة الأديان الكبرى الأخرى شيئاً ليثبت فى النهاية أكثر من خرافة غربية، ومن ثم فقد بدأ فى أوساط اللاهوت هجوم صريح على الألوهية بكل مظاهرها فى المسيحية، وانتشر تيار فكرى يجعل نقطة بدايته موت الإله، وينادى بمسيحيه لا دين فيها » ا . هـ

وكان نيتشه عام ١٩٠٠ قد أعلن أن الأسطورة المسيحية لم تعد قابلة للتصديق وبدأ العلمانيون الغربيون يتجهون نحو العالم غير المسيحى بدين مؤلف من تعاليم من صنع البشر لأن فيها دعوة إلى التسامح والحرية وإعلاء شأن العقل وبعض التعاليم الإنسانية والأخلاقية التى تجمع البشر من كل لون وعرق ودين. ومعنى هذا الكلام أن هناك تحولا فى التبشير المسيحى تقوده الولايات المتحدة، وتسيطر عليه الصهيونية التى حاولت منذ وقت بعيد احتواء الديانة المسيحية حين استطاعت إستصدار براءة اليهود من دم المسيح ورفع ما كان يوجه إلى اليهود فى الصلوات من أدعية.

❑ ❑ ❑

كذلك فقد تكشفت فى السنوات الأخيرة خطة سرية بتمويل ضخم لتنصير العالم الإسلامى ، يقول التقرير :

إن رغبة الغرب فى فرض النفوذ على العالم الإسلامى بمفهومه الجغرافى والاستراتيجى لتحقيق أغراض السيطرة الاقتصادية ونهب ثروات المسلمين، ومن أجل

ذلك كان العمل لإسقاط الخلافة ككيان سياسى يضم جميع الدول الإسلامية، ثم يقسم الوطن العربى لمناطق نفوذ بعد اتفاقية سايكس بيكو وتصريح بلفور ١٩١٧ غير متكافئة مع بلدان العالم الإسلامى، مع ضرب أى محاولة للوحدة الإسلامية تستهدف استحداث تنمية شاملة للعالم الإسلامى، واستغلال أمثل للثروات الهائلة التى تملكها البلدان الإسلامية، ويتمثل ذلك فى الغزو الثقافى بهدف سلب المسلمين هويتهم الإسلامية وتحقيق (التغريب) للقيم الاجتماعية السائدة لتشويه شخصية الفرد المسلم.

وفى سبيل إقامة استراتيجية غربية ثابتة للعالم الإسلامى ما زالت الذاكرة الغربية تحتفظ للمسلمين ـ وخاصة الأتراك والدولة العثمانية ـ أنهم فى يوم من الأيام طرقوا أبواب فيينا واستولوا على القسطنطينية، ومازال هذا التصور الغربى باقيا يحمل ذكريات الصدام بين الغرب والإسلام فى الحروب الصليبية.

قال البارون دى كارافو: أعتقد أن علينا أن نعمل جاهدين على تمزيق العالم الإسلامى وتحطيم وحدته الروحية مستخدمين من أجل هذه الغاية الانقسامات السياسية والعرقية : دعونا نمزق الإسلام لنجعله عاجزاً إلى الأبد عن صحوة كبرى.

وفى سبيل تحقيق ذلك يجرى خداع الغرب للمسلمين بدعوى احترام حقوق الإنسان وتقديس الديمقراطية، بينما يستخدم الغرب حقوق الإنسان لأقصى درجة داخل بلاده فى حين يدعم النظم الدكتاتورية فى العالم لخدمة مصالحه، ومن أكبر الأكاذيب التى يروجها الغرب أنه يصدر فى تعامله مع العالم الإسلامى من موقف علمانى لا علاقة له بالدين، والحقيقة أن الغرب يصدر عن خلفية صليبية على وجه التحديد.

وقد وضع الغرب مخططاً يعتمد على أساليب غير تقليدية لضرب العالم الإسلامى حيث يقول ادوارد سعيد: إن أوروبا تعلمت من تجربة الحروب الصليبية ومن تجربة التتار أيضاً اللتين قامتا على المواجهة المسلحة أن الأمة الإسلامية لا تؤتى من هذا الطريق لذلك بدأت خطة جديدة طويلة النفس تقوم على دراسة العالم الإسلامى (الشرق) للتعرف على أسباب قوته ونقاط ضعفه فى بنيانه وكان (الاستشراق) هو الأداة الفعالة التى هيأت لأوروبا المعلومات وقدمت المشورة لهجمة جديدة عمادها الكبير الدس والتسرب إلى مصادر القوة والوحدة والصمود والأسرة والأخلاق والقيم لتخريبها من الداخل وفى هدوء واستغلالها والنفخ فيها لإثارة القلاقل وتحريك الفتن بين بلدان العالم الإسلامى. إن القوى الغربية نفسها كانت وراء قيام العديد من التيارات والاتجاهات الشيوعية والعلمانية داخل عالم الإسلام، ودعمت الداعين إلى هذه المذاهب الإلحادية وذلك ليكون بديلاً محلياً لملء الفراغ الذهنى (الأيدلوجى) فى المنطقة الإسلامية خوفاً من أن يملأه الإسلام الحنيفى.

إن أسلوب التبشير والتغريب هو محاولة الغرب لفرض النصرانية وتقاليد الحضارة الغربية على شعوب الأمة الإسلامية مما يؤثر على النسيج الاجتماعى والثقافى.

وقد استطاع التبشير فى (أندونيسيا) أن يسيطر على ٦٠ فى المائة من المؤسسات التعليمية، وأن ٤ ملايين مسلم فى أندونيسيا قد ارتدوا عن الإسلام نتيجة التبشير.

إن هدف التبشير (التنصير) هو القضاء على الإسلام والسيطرة على معاقله الرئيسية . ويركز المبشرون على إقامة المدارس والكليات فى عالم الإسلام بهدف تنصير المسلمين.

يقول هاملتون جب : إن المدارس قوة لوضع الناشئين تحت تأثير التعليم المسيحى أكبر من أى قوة أخرى، ثم إن هذا التأثير سوف يستمر حتى يشمل أولئك الذين سيصبحون يوماً قادة لأوطانهم.

ويركز المبشرون على إقامة المراكز العلاجية كوسيلة وستار للنشاط التبشيرى، ويقول بول هاريسون فى كتابه (الطبيب فى بلاد العرب) : إن الطبيب المبشر وجد فى بلاد العرب ليجعل رجالها ونساءها نصارى ومن وسائل التبشر دفع الشباب المسلم إلى الفجور والمعصية، قال س . م من دعاة التبشير : إن من علامات التحضر أن يعرف الرجل وتعرف المرأة الرقص الغربى وأن يمارساه بالفعل.

ويقول آخر : أن العفة والبكارة إنما هى من علامات التأخر. وقد دخل التبشير فى محاولات أخرى تساعده على التوغل فى قلب الجماعة الإسلامية لقلبها من الداخل وهو مجال (الخدمة الاجتماعية) ومجال الفن والصحافة ومجال الرياضة، وفى بيوت الشباب وفى الرحلات الجماعية والحفلات التى تقام فى المدارس وتحديد النسل مخطط تبشيرى وترويج الدعوة إلى تحديد النسل محاولة لمنع المسلم من القدوم إلى الحياة كلية، وطبقاً لذلك فإن عدد المسلمين سيتناقص فى هذه الدولة حتى يصبحوا أقلية فى خلال أربعين سنة بعد أن كانت ٩٠ ٪ ، والكنيسة تعتبر أن تحديد النسل لغير المسلم جريمة، وأن المسلمين وحدهم يجب أن يتوقفوا عن الإنجاب وعلى المسلمين الذين يملكون ٧٥ ٪ من احتياطى النفط وأكثر من ٢٥ ٪ من الغاز الطبيعى ويملكون معادن هائلة ولديهم أكثر من ٢٠٠ مليون فدان مزروعة تشكل ١١ ٪ من مساحة الأرض المزروعة فى العالم ولديهم ٢٩٤ مليون فدان غابات، من أجل هذا كله يجرى حصار المسلمين وتدمير مقوماتهم وقد عقد فى أكتوبر ١٩٧٨ مؤتمر تحت عنوان : (مؤتمر أمريكا الشمالية لتنصير المسلمين) تم فيه وضع استراتيجية ومجموعة من القرارات السرية تهدف إلى تنصير المسلمين وتخريب

عقيدتهم وتغيير الأنظمة الاجتماعية والسياسية فى عقيدتهم، و تم رصد ألف مليون دولار لتنفيذ هذه الاستراتيجية السرية، مع نشر إحصائيات مزورة عن ضعف امكانياتها وفشل خططها لتنويم المسلمين وشل حركتهم عن العمل .

يجرى هذا فى مواجهة الفشل الذى يواجه التبشير المسيحى فى بلاده وإفلاسه حيث إن ٢٢٣٢٤ كاهناً خلعوا الزى الكهنوتى وطلبوا إعفاءهم من العمل بالكنيسة وهبط عدد القسس خلال عشر سنوات إلى ١٤٩٩٨ بنسبة ٦٧ ٪ ونقص عدد الراهبات ٥٠ ألف راهبة وتشكو الكنائس من انعدام رغبة الشباب .

بل لقد جاوز التبشير نطاق الكلمة إلى ميدان السيف، فى جنوب السودان ونيجيريا وزنجبار حيث كان الفاتيكان وراء حركات التمرد فى أوغندا، وقد أسقط (عيدى أمين) بتمويل خاص من كهنة المعبد » ا . هـ

قال زويمر : إن الطريق إلى مكة يبدأ بالخليج، وإن الوصول إلى الخليج سيفتح أمامنا آفاقاً عديدة فى الشرق، هذا ويحدد المبشرون عام ٢٠٠٠ موعداً لتمسيح أفريقيا وأن تنصير أندونيسيا سيتم فى ٥٠ عاما وأن المسلمين وحدهم هم هدف المبشرين فى جنوب أفريقيا العنصرية.

ويركز التبشير على إحياء الزنجية فى أفريقية وإبعاد الأفارقة عن كل ما هو عربى وإسلامى، والكنيسة ترحل أكثر من مليون طفل أفريقى إلى أوروبا لتوزيعهم على الأديرة الكنسية فى أوروبا.

كذلك عمل النفوذ الاستعمارى على إعطاء الفرصة للقاديانية للتغلغل فى دول سيراليون وكينيا وموريشيوس ومدغشقر،بالإضافة إلى نيجيريا التى تعتبر أكثر تعداداً سكانياً فى أفريقيا.

كما دخلت الأحمدية القاديانية إلى بعض الدول الأفريقية تحت مظلة الاستعمار، واستطاعوا تثبيت أقدامهم واصطياد الشباب المثقف عن طريق الفرق الرياضية والتركيز على الطبقات الفقيرة.

أما الغزو الثقافى الإذاعى فإنه يتركز فى ٢٧ مؤسسة وهيئة إذاعية مسيحية ويعتبر راديو الفاتيكان أحد أهم هذه الإذاعات المسيحية فى العالم، ويعمل بثلاثين لغة وهناك إذاعة للكنيسة السودانية فى منروفيا بليبريا.

ويؤكد كثير من الباحثين أن أخطر أهداف التبشير الظاهرة الآن هى حجب النصارى عن الحقائق التى تنكشف يوماً بعد يوم عن صدق المعطيات الإسلامية، وذلك بحجب حقائق الإسلام عنهم وإطلاعهم على ما فيه من نقائص وتناقضات مزعومة وتحذيرهم من خطر الاستسلام لهذا الدين والبحث عن نقاط ضعف فيه وإيرادها والزعم بأنه دين مأخوذ من النصرانية واليهودية والانتقاص من قيمة ومن قدر نبيه ﷺ.

وهذا الهدف فى نظرنا أكبر أهمية من تنصير المسلمين، وهو الهدف الظاهر ويتصل الخطر بالتدريس الجامعى، وبالترجمة من اللغات الأجنبية إلى العربية ومن إحياء التراث على طريقة تزييفه. ومن حجب المخطوطات الإسلامية التى تحقق للمسلمين خطوة فى طريق بناء مجتمعهم وحضارتهم .

❑ ❑ ❑

ولا شك أن أبرز أهداف التبشير والاستشراق هو الغزو الثقافى والتغريب وهو لباب مدارس الإرساليات وعقدة مناهجها، وهو المخطط الذى يجرى تنفيذه فى المناهج العربية والإسلامية فى معاهد الأقطار العربية اليوم (وفى مقدمتها مصر).

وأبرز هذه الأهداف :

أولاً : تزييف المناهج الإسلامية وتحطيم مقومات العقيدة والقيم التى قدمها الإسلام وذلك بالتشكيك فيها أو تزييفها.

ثانياً : تشجيع الجماعات المتبنية للمذاهب الهدامة مثل النصرانية والقاديانية والبهائية والدعوات الباطنية التى تتخذ من الإسلام ستاراً للطعن فى الإسلام.

ثالثاً : اقتحام مناهج الأزهر والمعاهد الإسلامية (الزيتونة والقرويين) لإخراج مناهجها من الأصالة وتغريبها.

رابعاً : العمل على اختراق صفوف المسلمين عن طريق غزوهم بالأفكار المسمومة التى تزعزع العقيدة.

خامساً : القضاء على نواحى القوة فى الإسلام وتوجيه القوى الغازية إلى ضربها.

سادساً : تشجيع أبناء المسلمين على التعليم فى المعاهد التبشيرية بحجة أنها أرقى.

سابعاً : إحياء الفكر الباطنى والوثنى والفلسفة المادية والتصوف الفلسفى والغنوصى المسيحى وشعر الزنادقة وكتابات الحلاج وابن عربى وألف ليلة والأغانى ورسائل إخوان الصفا ووحدة الوجود والحلول والاتحاد وشعر أبى نواس وزنادقة عصره .

ثامناً : محاولة تزييف التاريخ الإسلامى.

تاسعاً : إشاعة روح الانحلال والقصص الجنسى والإباحيات لتدمير الحصانة الأخلاقية الإسلامية.

حول الحوار

جاءت الدعوة إلى الحوار بين المسيحية والإسلام من منطلق غربى أساسى فى مرحلة من المراحل التى أصبح فيها الإسلام وهو يمتلك قوة مادية جديدة يحرص الغرب على السيطرة عليها وهى النفط.

وفى وقت تزايدت فيه الدعوة إلى حاجة العالم الغربى إلى الإسلام كمنقذ له من أزماته بعد أن تهاوت النظم الاقتصادية والغربية والماركسية وبرز دعاة فى الغرب يرون أن الإسلام قادر على تقديم الحلول الاجتماعية والنفسية لمواجهة أخطار الإلحاد والإباحة وسقوط المجتمع الغربى فى أتون الصراع.

ومن هنا كانت الدعوة إلى الحوار تستهدف تحقيق هدف التقارب مع المسلمين دون التنازل عن أى وضع قائم فعلاً وكان المطمح الأكبر هو الحصول من علماء المسلمين على اعترافات بأن المسيحية دين سماوى كالإسلام تماماً،وأن الفوارق بينهما هى فوارق تاريخية مع تجاوز الخلافات الواسعة وبخاصة فيما يتعلق بالصلب والتثليث والخطيئة.

ولكن أخطر ما اعترض الحوار فى الحقيقة هو إصرار الغرب على تنفيذ مخطط التنصير الذى تعتمد له فى ميزانيات دول الغرب أرقام ضخمة فى سبيل إخراج المسلمين من الإسلام فى مناطق كثيرة من البلاد الإسلامية.

ولقد عقدت عدة مؤتمرات ضخمة وموسعة فى أجزاء مختلفة من البلاد الإسلامية دون أن تحقق أى تقدم صحيح، فقد توقف الجانب المسيحى عن الاعتراف بالإسلام اعترافاً كاملاً، وحاول البحث فى الجوانب الهامشية كالأخلاق

وخلود الروح، وكانت المحاولة تجرى فى طريق التقارب بين الأمم المتدينة فى سبيل الوقوف فى وجه الإلحاد والشيوعية.

ولذلك فالمعتقد الآن بعد أن تهاوت الشيوعية أن لا يجد دعاة الحوار سنداً صحيحاً لدعوتهم التى حدد المسلمون لها شرطاً واحداً هاماً هو إيقاف حركة التبشير والتنصير التى تؤازر قوى الاستعمار والنفوذ الغربى مخططاتها وتغدق عليها بالإنفاق والتركيز على المناطق الإسلامية فى حركة التنصير وليس على المناطق التى يسكنها الوثنيون مما يكشف أهداف العملية كلها التى تحاول أن يقوم على خداع المسلمين عن حقيقة ما يجرى.

❑ ❑ ❑

ويقول الدكتور محمد المبارك : أنه فى مؤتمر قرطبة طالب المسلمون بإيقاف التبشير فى البلاد الإسلامية وتحديد موقف الحكومات العربية الواقعة فى الجزيرة العربية والتى تسمح بإقامة مؤسسات تبشيرية وتشييد كنائس فى بلد ليس فيه مسيحيون، بل كيف نسمح لمستشفيات تبشيرية فى بلاد إسلامية.

والحكم الشرعى يقرر أنه لا يجوز إقامة الكنائس فى الجزيرة العربية، وهناك نص : أنه لا يجتمع فى جزيرة العرب دينان، وهى وصية الرسول ﷺ قبل وفاته وكانت النتيجة أن أجلى عمر بن الخطاب نصارى نجران وأعطاهم مقابل أرضهم أراضى فى أماكن أخرى خارج الجزيرة، وقد أعلن كثير من علماء المسلمين الاعتراض على صيغة الحوار، يقول الدكتور إبراهيم الكيلانى : لأن هذه الصيغة تجعل المسيحية نظير الإسلام فى جلسه مشتركة مما يجعل بعض الناس يعتقدون أن هذا دين حق وذاك دين حق أيضاً.

إن الدول الغربية غير الإسلامية تسعى إلى تخدير المسلمين باسم الحوار، وهى من الفاتيكان إلى غيره تمضى فى خطة تبشيرية تنصيرية للمسلمين من أندونسيا إلى أفريقيا.

ومثل هذا الحوار إنما هو من باب ذر الرماد فى العيون، والواقع أن تجربة المؤتمرات التى عقدت خلال السنوات العشرين الماضية تؤكد أن فكرة الحوار لا تجدى لأن أصحابها يريدون أن يحصلوا من المسلمين على اعتراف بالمسيحية دون أن يقدموا هم أى اعتراف بالإسلام أو الرسول أو القرآن، إن فكرة الحوار لن تجدى مع هؤلاء الذين قال الله تبارك وتعالى فى حقهم

﴿ ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم ﴾ .

وإذا كان هناك بيان مشترك فلماذا لايعترف بمكانة الإسلام كدين؟ ولماذا تجند أمريكا وأوروبا مئات القساوسة كل عام وترسلهم للتبشير فى أفريقيا بطرق ملتوية.

وهكذا نجد أن الغرب المسيحى الحاقد على تنامى الإسلام وتوسعاته ونمو صحوته لم يكتف بحركة التغريب والاستشراق والتبشير بل أضاف إليها حركة الحوار والإبراهيمية.

وإذا كانت أوروبا والغرب تعتمد المذهب العلمانى وهو اتجاه معاد للدين ـ أى دين ـ فإن أثر ازدهار المذهب العلمانى المعادى للدين لا يعين على تحقيق الحوار الصحيح بين الإسلام والغرب.

وفى نفس الوقت الذى تتحدث فيه الكنيسة عن الحوار تعد خططا منظمة ومستمرة ولم تتوقف عن تنصير المسلمين وتشكيكهم فى دينهم والادعاء بأنه المسئول الأول عن تخلف المجتمع الإسلامى فى العصر الحديث. وقد عقدت فى السنوات الأخيرة مؤتمرات موسعة تحت عنوان أنجلة العالم الإسلامى وتنصير جميع مسلمى العالم .

ولا ريب أن الخطة كلها ترمى إلى خداع الأوروبيين الذى تجرى بينهم اليوم محاولات صادقة لفهم الإسلام فهماً صحيحاً،وذلك بتقديم شهادات من أعلام المسلمين بأن المسيحية دين منزل كالإسلام، إذن فلماذا التحول عنه، فى نفس الوقت الذى يخفى فيه الجانب المسيحى أى محاولة للحوار حول التثليث أو الصلب أو الخطيئة، وإذا وضعنا ظاهرة تنامى الشعور الدينى الإسلامى موضعه الصحيح نجد أن الكنيسة حاولت عن طريق الحوار تقليص هذا الدور وربما وجدت فيه كسباً يعوض ما قدمته عن طريق عجز الاستشراق والتبشير فى تحقيق نتائج ايجابية، ذلك أن شعوراً بالقلق كما يقول المستشار محمد عزت الطهطاوى يتملك رجال الكنيسة من الوجود الإسلامى الجديد فى حزام عريض يقطع وسط أفريقيا بدءاً من سيراليون على المحيط الأطلسى وانتهاءً بالساحل السودانى المحاذى للبحر الأحمر (على حد تعبير الهراليد تربيون أغسطس ١٩٨٥) ومن العجيب أنه فى نفس الوقت الذى يسعى فيه الفاتيكان إلى حشد رجاله وعقد مؤتمرات فى عواصم الإسلام يعلن عن بدء التنصير الثانى فى أفريقيا، أو الهجمة التنصيرية الثانية، وتقدم وكالات الأنباء خططاً جديدة لأنجله العالم الإسلامى (الأنجلة التحول إلى الإنجيل) ولتصفية الإسلام فى أندونسيا خلال خمسين سنة.

❑ ❑ ❑

الحملة على القرآن الكريم

ليس من المبالغة فى شئ أن نقول إن (القرآن الكريم) ـ بوصفه كتاب الله الخاتم الذى لم ولن يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ـ كان الهدف الأساسى والأكبر للحملة على الإسلام. ومن هنا كانت تلك الحملة الضارية عليه من قوى متعددة : من قوى اليهودية والمسيحية والشيوعية جميعاً، بوصفه النص الموثق الباقى على الزمان ما بقى الزمان بعد أن أصاب الكتب القديمة كلها التزييف والتحريف بشهادة أهلها وبوصفه المنار الثابت المستعلى على كل المنارات والذى تسطح كل القوى المعادية فى إسقاطه واطفاء نورة **﴿ يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون ﴾**

يقول العالم المسلم محمد أسد (ليوبولد فابس) إن الغربى لا يستطيع أن يتقبل نظرية القرآن فى أن الحياة وحدة كاملة لا يمكن تجزئتها، وأن مشاكل الجسد والجنس والاقتصاد ومشاكل الصلاح الفردى والعداله الاجتماعية هى مشاكل مرتبطة ارتباطاً وثيقاً مع مساعى الإنسان وآماله فى حياة رضية بعد الموت.

ويقول محمد أسد : إن الأسباب الرئيسية لعدم توفر التقدير الكافى للقرآن (١) : تلك الصفة التى تميز القرآن ـ جذرياً ـ عن سائر الكتب المقدسة. (٢) هذه الصفة هى تركيزة على أهمية العقل باعتباره الطريقة الوحيدة التى تفضى إلى الإيمان.(٣) إصراره على ترابط المجالات الروحية والمادية والاجتماعية للنشاط الإنسانى، أى ارتباط عمل الإنسان اليومى وسلوكه الدنيوى بحياته الروحية ومصيره.

وهكذا فإن عدم تقسيم القرآن للحياة الإنسانية إلى قسمين : روحى ومادى يجعل من الصعب على الذين نشأوا فى ظل ديانات أخرى تشدد عادة على عنصر خارق للطبيعة، وتزعم أنه لابد أن يكون موجوداً فى كل تجربة دينية أصيلة، ومن هنا فإن العقل الذى اعتاد على قرن التجربة الدينية بنشوة الانفعال الوجدانى إزاء الأشياء الخفية المستترة بعيداً عن إدراك الحس والعقل، هذا العقل تتولاه الحيرة حين يجد نفسه فى مواجهة المفهوم القرآنى الذى يتولى مهمة الدليل ، ليس فقط للحياة الروحية فى الآخرة ولكن للسعادة فى الحياة الدنيا بكل مجالاتها المادية والروحية والاجتماعية.

❑ ❑ ❑

ويرى الكثير من الباحثين أن تجاهل المستشرقين المصادر الأولية (القرآن والسنة) يرجع إلى أنهم لا يريدون معرفة الإسلام كما هو بل كما تريده الكنيسة - يقول دكتور إدوار سعيد: إن تجاهل الاستشراق لمعنى القرآن وماذا يظن المسلمون أنه يعنى أو كيف يفكرون أو يتصرفون فى مواقف على أن تعاليم القرآن والإسلام قد عرضت بصورة ترضى المسلمين ترجع إلى أن هناك تخطيطاً استشراقياً يهدف إلى صياغة إسلام جديد، إسلام مسيحى يفتقد ركائزه الثابتة ويضمن الحفاظ على ضياع المسلمين وتخلفهم الحضارى.

ويقول إيتان دينيه : إنه من المتعذر بل من المستحيل أن يتجرد المستشرقون من عواطفهم وبيئتهم ونزعاتهم المختلفة وقد بلغ تزييفهم لسيرة النبى والصحابة مبلغاً يغشى على صورتها الحقيقية من شدة التحريف فيها.

ويرى بعض الباحثين أن طريقة الاستشراق هى تحديد قضايا تخدم فكرته ثم البحث عن العناصر التى يعتمد عليها سواء عن طريق بتر النصوص أو البحث عن الروايات الباطلة .

قال: « كانوا يتبنون فكرة مسبقة ثم يجيئون إلى وقائع التاريخ لكى يستلوا منها ما يؤيد فكرتهم ويستبعدوا مادون ذلك من هذه الأمور :

ـ التشكيك فى فكرة عالمية الرسالة والادعاء بأن ذلك جاء بعد الهجرة (ولكن الآيات التى نزلت فى مكة عن عالمية الرسالة تكذبهم)

٢ ـ الإدعاء بأن النبى كان يرمى إلى نشر عقيدة التوحيد وليس إقامة نظام سياسى.

كذلك فإن تكشيف المؤامرات على القرآن ترجع إلى الحرص على حجب موقف أساسى للقرآن الكريم وهو الكشف عن تحريف اليهود والنصارى للكتب التى نزلت عليهم، ولقد عمل القرآن فى أكثر من موضع على تصحيح ما دخل التوراة والإنجيل من تزييف وتحريف.

﴿ قراطيس تبدونها وتخفون كثيراً ﴾.

﴿ فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون هو من عند الله ﴾. وقد عمدوا إلى بث كثير من الشكوك حيال النص القرآنى باعتبار أن القرآن هو مصدر الفكر الإسلامى وموجهه وهو الذى شكل العقل الإسلامى ودفعه إلى ارتياد مسالك العمل وطرق العمران ومن ذلك دعوتهم إلى تغيير ترتيب القرآن للقضاء على روعة هذا النظم وبلاغته وعذوبته التى تهز كل قلب مهماً تكرر سماعه. وقد بذل المستشرقون جهدهم لتغيير معالم العقيدة الإسلامية الأصيلة والفكر الإسلامى ولكنهم باءوا بالفشل والخسران المبين، وقد تم منهج الإسلام كاملاً قبل أن ينتقل الرسول ﷺ إلى الرفيق الأعلى : **﴿ اليوم أكملت لكم دينكم ﴾**

وقال الرسول : «تركت فيكم ما أن تمسكتم به لن تضلوا بعدى أبداً : كتاب الله وسنتى».

ومعنى هذا أن كل ما ترجم من فلسفات فيما بعد ذلك لم يغير شيئا، وقد وقف العلماء المسلمون إزاء فلسفات اليونان والوثنيات كلها موقف كشف الزيف وإحقاق الحق لأنها لا تتفق مع جوهره : « التوحيد الخالص ».

الفصل الثالث
الفلسفات والعلوم الاجتماعية والإنسانية

أولا : الفلسفة اليونانية

ثانيا : الانتقال من الوحى إلى العقل

ثالثا : الفلسفة الغربية المعاصرة

رابعا: أخطاء الفلسفة المادية

خامسا: الفلسفة المادية والعلوم الإنسانية

سادسا: سقوط نظرية دارون

أولا : الفلسفة اليونانية

كان مجال الفلسفة أخطر المجالات التى استطاع النفوذ الغربى أن يطرح فيها مفاهيمه المادية تحت اسم العلم ويخدع بها الشباب المسلم الذى يدرس مادة الفلسفة فى المدارس الوطنية، وهى التى تتعارض مع عشرات المواضع مع العقيدة الإسلامية، وعندما تجرى محاولة لتعديل هذه المناهج كما حدث فى السنوات الماضية ١٩٨٨ عندما تكشف فساد المنهج الذى وضعه الدكتور زكى نجيب محمود ودعا الدكتور أبو الوفا التفتازانى لتعديل هذا المنهج قامت قيامة الماركسيين والعلمانيين على هذه المحاولة بدعوى أنها ـ أى المحاولة ـ ستحول دون تحرر العقل وإقامة أسس العقلانية. ومعنى هذا أن دراسة الفلسفة فى مدارس البلاد العربية هى عمل مقصود وخطير يرمى إلى إعداد هذا الشباب ليكون قابلاً لاعتناق المفاهيم الماركسية والعلمانية وأنه عندما تقدم له مفاهيم الإسلام فى الفلسفة الغربية سيكون ذلك خسارة كبرى للعلمانيين والتغريبيين، ولذلك فهم يرون فى ذلك تعتيما على عقول الأجيال الجديدة والحد من نمو مداركهم الفلسفية والعلمية وكأن حماية شبابنا من هذه التيارات الهدامة هو الخطر الذى يراه هؤلاء على كيانهم ووجودهم، ويصفونه بأنه ضد الاستنارة والحقيقة أنه ضد الإيمان بالله تبارك وتعالى الذى لا تعترف به الفلسفة المادية وتضع عبارة (الطبيعة) بدلاً منه.

والحقيقة أن الفلسفة كما تصورها الإغريق وتابعها الفكر الغربى الحديث إنما هى محاولة لوضع تصور وهمى وخيالى للجوانب الغيبية التى قررتها الأديان المنزلة من الألوهية والغيب والوحى والبعث، ومن أحكام تحدد العلاقة بين الخالق والمخلوق وبين الإنسان والمجتمع.

ولقد فرضت الفلسفة الأغريقية والغربية على نظم التعليم فى بلاد المسلمين منذ وطأت أقدام القوى المستعمرة والمسيطرة حتى استطاع الفكر الإسلامى أن يستخلص مفهوما سليما هو ما اورده الشيخ مصطفى عبدالرازق، فقد كشف علماء المسلمين زيف الرابطة بين الفكر اليونانى والمفهوم الإسلامى والأول قائم على علم الأصنام اليونانى أما الإسلامى فهو قائم على التوحيد الخالص.

وقد قرر الإسلام أن وسائل المعرفة لا تتوقف عند العقل والمحسوس وحدهما، وإنما أضاف إليهما الوحى والغيب، فالمسلمون لا يفردون العقل بأنه الوسيلة الوحيدة، ولكنهم يضيفون إليه الوحى المنزل ويرون العقل فى ضوء الوحى ويربطون بين العقل والنقل ويجعلون العقل خاضعاً للنقل (أى الوحى).

وقد جاء القرآن الكريم كاشفاً فساد المنهج البشرى وداحضا لتوجيهات الفلسفات القديمة من مقولة أنه تبارك وتعالى خلق العالم وأدار له ظهره، أو أنه يعلم الأصول ولا يعلم الجزئيات،ولقد وقف الإسلام موقفاً واضحاً أمام غنوص الشرق (فارسياً أو هنديا) كما وقف أمام غنوض الغرب (الأفلاطونية المحدثة) موقف العداوة والبغضاء يجادلها أشد مجادلة ويجاهدها أعنف جهاد.

ولقد كانت المحاولة التى قام بها بعض المشائين المسلمين (الفارابى، ابن سينا) للربط بين مفاهيم الفلسفة اليونانية وبين التوحيد الإسلامى محاولة فاشلة لم تلبث أن وئدت وتصدعت لأنها حاولت الجمع بين متناقضين.

ويمكن القول فى وضوح إن الفلسفة اليونانية ووليدتها الفلسفة الحديثة لم تكن إلا محاولة لهدم الدين واتهامه بأنه يعوق التقدم الإنسانى، وهى المحاولة التى تطرحها كل الأيدلوجيات العلمانية والمادية والوثنية.

وأعتقد أنه قد آن الأوان أن يعيد المسلمون النظر فيما يقدمه لهم الغرب من نظريات فالمعايير العلمية تؤكد فساد جميع ما يطرحه الغرب فى مجال الفلسفة أو مجال العلوم الإنسانية وأن كل محاولة لتقديم نظرية جديدة لا تلبث قليلاً حتى يعتورها الفساد وتحاصرها التغيرات المتلاحقة فإذا بها عاجزة عن العطاء، ذلك لأنها هى فى الأساس من الفكر البشرى الذى لا يستطيع أن يقدم نظرة عالمية أو إنسانية وإنما يخضع دائماً للهوى والغرض، ويكون فى مكان رد الفعل العاجز عن العطاء خارج عصره أو بيئته، وليس كذلك المنهج الربانى القادر على العطاء فى كل العصور والبيئات.

❑ ❑ ❑

لقد احتاج اليونان الفلسفة لمحاولة تفسير الطبيعة والكون ونظامه بما أقاموا من أساطير وحكايات وخيال، فى موضع الغيب الذى يجهلونه، هذه الفلسفة التى عاشت منذ نهاية القرن السادس قبل الميلاد، حتى منتصف القرن الخامس من الميلاد وكان أبرز المتصدرين لهذه المحاولة (أرسطو) الذى حاول البحث فى الوجود من حيث هو وجود وضم بحثه علوماً شتى فى الطبيعة والنفس والرياضة والإلهيات والأخلاق والسياسة والشعر والخطابة، ثم توالت عصور الرواقية والأبيقورية.

وقد قامت الفلسفة اليونانية على مبدأ تعدد الآلهة ولم يكن فكرهم أكثر من تهذيب وتنسيق للفكر البشرى الوثنى القديم الذى عرفته مصر وبابل والفيديا الهندية والبرهمية وكنفوشيوس، وقد تنازعت الفكر اليونانى صورتان **أولاهما** : عقلية علمية **وثانيتهما** : صوفية عرفانية سارت بخطين متوازيين على ما بينهما من تنافر وتباين.

وكانت الآلهه الأوليمبية تحب وتعشق وتفسق وتتصارع، وكانت هناك ديانة باخوس إله الخمر وعشرات الآلهه الأخرى.

ولما نزلت المسيحية وعبرت إلى أوروبا صورتها البشرية خفت صوت الفلسفة ثم لم يلبث الغرب أن وقع فى خلاف عميق مع المسيحية والكنيسة بعد أن أعلن رجال العلم شكهم فى المعلومات التى وردت فى الكتاب المقدس، هناك قامت قيامة الكنيسة وأنشأت محاكم التفتيش لمعاقبة الملحدين والزنادقة (عاقبت الكنيسة ثلاثمائة ألف أحرق منهم اثنان وثلاثون ألفا أحياء منهم برونو وجاليلو).

وما لبثت أوروبا أن ارتدت إلى الفكر اليونانى الوثنى القديم فى محاولة لهدم الدين جملة وإحلال العقل مكانه، وقد تباينت منازع هذه المدارس وكلها لا تؤمن بالله تبارك وتعالى وترى فى الإنسان حيواناً ناطقاً،وهى لا تقر بالقيم الروحية أو الخلقية وتتنكر تماماً للوحى والغيب ولا تؤمن إلا بالمحسوس، وهكذا حدث فى الغرب أخطر حادث فى الحضارة القديمة كلها وهو الانفصال بين الدين والعلم وقيام مفهوم الفصل بين الدين والسياسة، وقد حاول الغرب نقل هذه التحديات التى واجهته فى خلافه مع المسيحية والكنيسة إلى أفق الفكر الإسلامى بعد سيطرة الغرب على بلاد المسلمين.

وظهر التفسير المادى للوجود الذى يقول بأنه ليس ثمة فى العالم إلا المادة وقوانين تطورها،وأن العقل أسمى نتاج المادة والعالم لم يوجد إلا اتفاقاً أو مصادفة.

كما ظهر التفسير المادى للتاريخ الذى يقوم على أساس أن نمو الحياة البشرية (فردية وجماعية) تتوقف على الظروف المادية والاقتصادية وأن الصراع بين الطبقات هو الذى يحكم مسيرة التاريخ.

وقد غلب على الفلسفة الأدبية الحديثة فى مدارسها ومذاهبها الإلحاد الصريح نتيجة الغرور بتقدم العلوم المادية والصناعات فى أوروبا .



ولما ترجمت الفلسفة اليونانية إلى اللغة العربية فى القرن الثانى من الهجرة كانت منطلقاً لتطورات خطيرة بعيدة الأثر فى الفكر الإسلامى، فقد كانت عملية الترجمة نفسها محاولة تغريبية واسعة النطاق لأن الذين قاموا بالترجمة هم السريان النصارى الذى أدخلوا الى الترجمة كثيرا من مفاهيمهم، ثم جاء فرسان الفلسفة اليونانية وهم الفارابى وابن سينا والكندى وإخوان الصفا فأحدثوا خلطا شديدا إذ ترجمت كتب منسوبة إلى أرسطو باسم أفلاطون وحاول الفارابى إضفاء صفة التصور الأرسطى لمفاهيم أفلاطون أو العكس على ما بينهما من خلاف، فقد كان اتجاه أرسطو علمانياً عقلانياً بينما كان اتجاه أفلاطون باطنياً صوفياً.

وقد كشفت مترجمات الفلسفة اليونانية عن نزعتين متضادتين : النزعة الأبيقورية التى ترمى إلى اقتناص اللذات، والنزعة الرواقية التى تدعو إلى التقشف، وهناك نزعتان متضادتان أخريان : هما الجماعية والفردية حتى ليقف أرسطو مع الفكر الليبرالى وأفلاطون مع النزعة الماركسية.

وأذاعت الفلسفة اليونانية مفاهيم الأغريق فى الإباحة والكشف عن الشهوات، وكان لهذا آثاره على المجتمع الإسلامى بعد ترجمة الفلسفة اليونانية، وظهر أثره فى كتابات الكتاب وشعر الشعراء.

والواقع أن المسلمين لم يقبلوا من الفكر اليونانى كثيراً فهم لم يقبلوا الأدب (الأودسة والإلياذه) ولم يقبلوا التشريع، وقبلوا العلوم، أما الفلسفات فقد فرضت فى مرحلة الشعوبية (المأمون).

وقد رفض الإسلام مفاهيم المنطق اليونانى ورفض فكر أرسطو المادى ومذهبه ورفض تخريجات ابن سينا والفارابى وكشف عن زيفها وارتباطها بالحلاج وابن عربى وغيرهم، ورد مفكرو الإسلام منذ اتصالهم بفكر الفرس واليونان على الثنوية والدهرية، ورد الغزالى على ابن سينا والفارابى وقال إن الفلاسفة أرادوا أن يزنوا كل

شيء بميزان العقل، وأن يوفقوا بين الحكمة والشريعة، فكان الدين فى يدهم أداة خادمة للفلسفة حتى انفضح أمرهم وبالغوا فيما أرادوه وأصبحوا خطراً على الدين والأخلاق.

وكان خطرهم على الدين أنهم اعتقدوا فى أنفسهم التميز على اترابهم ونظرائهم فرفضوا وظائف الإسلام والعبادات واحتقروا شعار الدين واستهانوا بالشرع وحدوده، وكان مصدر كفرهم زعمهم أنهم سمعوا بأسماء هائلة كسقراط وبقراط وأفلاطون وأرسطو وأمثالهم، وكانوا على رزانة عقولهم وغزارة فضلهم منكرين للشرائع والنحل جاهدين لتفصيل الأديان معتقدين أنها نواميس مؤلفة وحيل مزخرفة، أما خطر الفلسفة على الأخلاق فيرجع إلى إنهم أهملوا احكام الشريعة فشربوا الخمر وأعرضوا عن الصلاة، وقالوا مع ذلك أنهم أدركوا حقيقة النبوة، وعلموا أن صاحبها يرجع إلى الحكمة والمصلحة وأن المقصود من تعبدهم ضبط عوام الخلق وتقييدهم عن الاسترسال فى الشهوات، فإذا ترفع الإنسان عن طبيعة العوام سقط عنه التكليف وكشف عنه الغطاء.

وقد ذهب المشاءون من الفلاسفة العرب إلى تمجيد أرسطو وإكباره ووصفه بأنه المعلم الأول وأعلوا من شأنه وجعلوه رائداً لكل العلوم الفلسفية، وقد تصدى لذلك علماء المسلمين من أمثال الشافعى وابن حنبل والغزالى وابن تيمية.

فقدكشف علماء الإسلام زيف منهج الفلسفة اليونانية وحذروا من مخاطرها على مفهوم التوحيد الخالص، وذلك منذ اليوم الأول لترجمة الفلسفات فى القرن الثانى الهجرى.

فقد أعلن الإمام الشافعى أن اللغة العربية لها منهج يختلف عن أرجانون اليونان وهاجم ابن حنبل فتنة خلق القرآن وقال إنها منقولة من الفكر اليهودى، أما الغزالى فقد دحض مفاهيم (الفارابى وابن سينا) وكذب مقولتهم فى عدة مواضع. وجاء ابن تيمية فنقض منطق أرسطو وأعلن منطق القرآن.

لقد كانت محاولة المشائين المسلمين (الفارابى والكندى) ترمى إلى التوفيق بين العقل والنقل، التوفيق بين ما قالته اليونان بصفة خاصة فى فلسفتهم وما نزلت به العقيدة الإسلامية من شرائع وعقائد ولكن الأمر لم يكن بهذه السهولة، فقد كان هناك تضاد فى الوجهة بين الفلسفة اليونانية القائمة على علم الأصنام وبين الإسلام القائم على التوحيد الخالص، فى نفس الوقت الذى أمكن الملاءمة بين المسيحية وفلسفة أرسطو فى المحاولة التى قام بها القديس توماس الأكوينى حيث أصبح مذهبه مذهباً رسمياً للكنيسة الكاثوليكية منذ ذلك الحين، وأقامت الكنيسة محاكم التفتيش للتنكيل بأصحاب الآراء والنظريات العلمية الجديدة، وكانت مخالفة أرسطو خروجاً على العقائد المسيحية وجاء إنجاز العلوم الطبيعية فى عصر النهضة وكانت قاعدة العلم التجريبى معارضة لفكر أرسطو كلية واستفاد علماء الغرب من نقد المسلمين لفكر أرسطو، ومن العجب أن حاول النفوذ العربى إعادة طرح أرسطو على الفكر الإسلامى مرة أخرى فى العصر الحديث، وقام لطفى السيد بدور كبير فى الردة عن مفهوم الإسلام متجاهلين دور المسلمين فى بناء المنهج التجريبى. ولقد أسقط العصر كله فى الغرب منطق أرسطو الذى أصبح يطلق عليه المنطق الصورى الذى كان همة فى تكوين صيغ وصور كلامية يعتبرها بمقاييسه قواعد صحيحة وإن خالفت الواقع المحسوس الملموس.

وعادت البشرية إلى قواعدها سالمة وهى أن المنطق فى مجموعه من البدهيات والمسلمات فى كل عقل تخضع لها العقول بغير حاجة إلى تعقيدات أرسطو، وهكذا لم يكن أرسطو معلماً للعرب والمسلمين كما كانت دعواهم، بل لقد كانت الثورة على أرسطو هى البداية الحقيقية لنشأة الفكر الإسلامى الحديث لا تعصباً ولكن التماساً لروح هذه الأمة التى حيل بينها وبين النماء بعد أن صبت فى قوالب جامدة غريبة عليها، ولا شك أن محمد إقبال هو المفكر الإسلامى الأول فى

العصر الحديث الذى حاول إرساء معالم جديدة فى الفلسفة الإسلامية ولم يتم له ذلك إلا فى إطار من الخلاص من سيطرة الفكر الأرسطى (عفت الشرقاوى)

❑ ❑ ❑

ثم جاءت محاولة الشيخ مصطفى عبد الرازق علامة على الطريق الصحيح لتأصيل الفكر الإسلامى، وذلك بما أورده فى كتابه (التمهيد لتاريخ الفلسفة الإسلامية) فقد أبان أن التوحيد والتصوف بابان من أبواب الحياة العقلية فى الإسلام، وأنهما على اتصال بالبحث الفلسفى الخالص، بل رأى أن علم أصول الفقه ضرب من مناهج البحث فى التشريع الإسلامى نبت فى ظل الإسلام وكنفه.

فقد أعلن الشيخ مصطفى عبد الرازق أن علم الكلام وعلم أصول الفقه دليلان على الفكر الفلسفى فى الإسلام، وبذلك تكون الفلسفة الإسلامية ذات استقلال نظرى عن فلسفة الإغريق فإذا كان الفارابى وابن سينا وابن رشد يعدون من تلاميذ الفلسفة الإغريقية فإنهم لا يمثلون الفكر المستقل فى الإسلام وأنما يمثله واضعو علم الأصول الفقهى وأساتذة علم الكلام ممن فلسفوا وسائل النظر الفكرى فى الإلهيات وماوراء الطبيعة فلسفة تؤيد الوجهة القرآنية فى مصدرها الصحيح.

وقال إن جمهرة المستشرقين فى القرن التاسع عشر قد استولت عليهم نزعات التعصب الدينى والتحزب الجنسى فوقفوا من الفلسفة الإسلامية وأهلها موقف عداء، وكان عليه أن يعرض آراءهم فى أمانة العالم ونزاهته، ثم يعقب عليها بتنفيذ أقوالهم وبيان وجه الخطأ فى تعسف الأحكام.

وتحدث عن نظرية التحزب الجنسى التى قال بها (آرنست رينان) أول من زخرف نظرية الأجناس وكساها ثوباً علمياً وزعم أن الجنس السامى، ومنه انحدر العرب لم يخلق بطبيعة التفكير الأصيل المبكر بل إن العرب فى زعمه لم يستوعبوا الفكر الأصيل الذى نقلوه من اليونان إلى لغتهم فأتلفوه بشروحهم وشوهوه بتعليقاتهم .

وهكذا استكشف الشيخ مصطفى عبد الرازق النواة الأولى للنظر العقلى الإسلامى، فقرر أن القرآن الكريم قد ذكر الحكمة التى عرفها العرب، وكانت شرفاً لأهلها وأثنى عليها ثناء شجع توجيه النظر العقلى عند المسلمين فى عهدهم الأول، وكان الاجتهاد بالرأى فى الأحكام الشرعية بداية النظر العقلى عند المسلمين وقد نما وترعرع فى رعاية القرآن الكريم ونشأت فيه المذاهب الفقهية.

❑ ❑ ❑

وهكذا نشأت مدرسة الأصالة الإسلامية بعد أن حاول النفوذ الأجنبى رد المسلمين إلى فلسفة أرسطو ومنطق اليونان، وبعد أن فشلت محاولات القدامى فى التوفيق بين العقيدة الإسلامية والفلسفات القديمة حيث بدا أنها محاولة الجمع بين متناقضين.

ولكن النفوذ الغربى لم يتوقف عند هذا الحد، بل ذهب إلى أبعد من ذلك فى إحياء الوثنيات والفلسفات المجوسية ولم تتوقف عند ما لدى اليونان، بل أوغل فى إحياء ما لدى الفراعنة والهنود والفرس من غنوصية وهندوسية ومجوسية مما جاء الإسلام ليظهره على الدين كله وليكشف فساد هذه النحل جميعاً، إلا ملة واحدة هى ما كان عليه إبراهيم عليه السلام: الحنيفية السمحة القائمة على التوحيد الخالص والتى جاء محمد ﷺ لإحيائها.

وقد ترجمت فى العصر الحديث أشياء كثيرة منحرفة رفض المسلمون فى العصر الأول ترجمتها لأنها تتعارض مع مفهومهم الخاص بالتوحيد، وفى مقدمة ذلك الملاحم اليونانية القديمة بما تحمل من إباحيات وسوءات.

ثانيا: الانتقال من الوحى إلى العقل

سيطرت الفلسفة اليونانية ممثلة فى أرسطو وأفلاطون على الفكر الإسلامى، أما أرسطو فكان مقدمة لكل الأفكار المادية التى تعتمد على المنطق والقياس الأرسطى، ومنها انطلقت كل الأفكار الإلحادية أما أفلاطون فكان مصدراً لكل الأفكار التى أذاعت بها المدارس الباطنية الإشراقية والمتصلة بالتصوف الفلسفى.

ولقد كان الأثر الأفلاطونى واضحاً فى رسائل الفارابى (أهل المدينة الفاضلة) وأكثر مؤلفات ابن سينا مستنبطة من مصنفات أفلاطون، وكذلك رسائل إخوان الصفا وما جاء فيها حول الفيض والعقول العشرة والإشراق وقد انتقلت الأفلاطونية إلى فلاسفة الإسكندرية: فيلون وأفلوطين وغيرهما ثم انتقلت من العربية إلى اللغات الأوروبية.

وقد واجه ابن تيمية أغلب مفاهيم أرسطو وحمل على منطقه حملة شديدة فى كتاب (نقض المنطق) وسخر من الذين يقولون لا براهين إلا ما يكون المنطق طريقها لما فى ذلك من غمز بالصحابة والتابعين الذين يعتبر المناطقة أن علومهم ظنية.

وقد أثبت ابن تيمية أن المنطق من علوم الصابئة وهو دخيل على العلوم الإسلامية وقال إنه ليس هناك افتقار إلى المنطق أصلاً ومايزعمه المنطقى بالمنطق فى أمر الحد والبرهان فقاقيع، وقد أغنى الله عنها كل صحيح الذهن، ولقد تمت الشريعة وعلومها،ويقرر ابن تيمية أن العقل وحده ليس كافياً للوصول إلى حقائق الدين بل لابد من الاستعانة بالنقل، ويرى أن المعتمد عليه فى ذلك هو الكتاب والسنة، ومعنى ذلك أن يكون العقل فى ذلك تابعاً لا متبوعاً ومن اعتمد على العقل وحده كان كحاطب ليل.

وقد كان من أخطر آثار الفلسفة اليونانية ظهور المذاهب الفلسفية الإسلامية كالمعتزلة والتصوف الفلسفى.

وكان للمأمون أثر واضح فى هذا الاتجاه الخطير فهو الذى احتضن القائلين بخلق القرآن وتولى أمرهم من بعده المعتمد والواثق ـ يقول الآستاذ أحمد تسوكى : إن المأمون يمثل حلقة فى مسلسل الفتنة الخطيرة التى تسللت بهدوء تام وبرودة متناهية إلى العقل الإسلامى وافدة عليه من العقل اليونانى الهلينى وذلك بقصد فصل العقل الأول عن مجاله الحقيقى ومزجه ودمجه نهائياً ضمن المعلومات والأفكار والتصورات التى انشغلت بها العقلية الهلينية، ثم حولها فلاسفتها الذين جعلوا الحسن ما يكون فى العقل **أولاً** ثم فى الشرع **ثانياً** إلى مبادئ أساسية ثابته وقواعد فكرية راسخة لايجوز الخروج عنها وإلا عد مروقا أو جنوناً فى أحسن الأحوال.

إن المأمون كان يمثل حلقة بارزة وخطيرة لأن خالد بن يزيد بن معاوية الأموى ـ كما يذكر ابن النديم فى الفهرست ـ كان يسمى حكيم آل مروان وكان فاضلاً فى نفسه له همة ومحبة للعلوم، خطر بباله الصنعة فأمر بإحضار جماعة من فلاسفة اليونانية ممن كان ينزل مدينة مصر وقد تفصح بالعربية وأمرهم بنقل الكتب فى الصنعة من اللسان اليونانى والقبطى الى العربية وهذا أول نقل كان فى الإسلام من لغة إلى لغة.

ثانياً : أن المأمون شخصية سياسية إكتملت فيها كل الشروط المطلوبة لتحويل الشخصية العربية من مجال الوحى إلى مجال العقل أى من نطاق أمور تلقاها هذه الشخصية من الله (تبارك وتعالى) بواسطة رسوله المصطفى الأكرم محمد ﷺ إلى نطاق أمور تستمدها هذه الشخصية من العقل البشرى أى من مصدر مهما علا شأنه وسمت درجته ومكانته فإنه يظل مصدراً مخلوقاً أوجده الله سبحانه وميز به الإنسان وفضله به على العالمين تفضيلاً.

وهو بذلك مخلوق غير معصوم بحال من الأحوال فهو تلحقه الآفات ويقع فى الزلات وعرضة للأوهام الرديئة والأفكار الخارجة عن حد الاستقامة والاستقرار والاعتدال فى الحياة.

وهو معرض للنقصان بحسب عدد بنى الإنسان .

فشخصية المأمون مؤهلة تأهيلاً لذلك الانتقال بشخصه العربى من دائرة العمل بالوحى إلى دائرة الانقياد بالعقل والعمل به، فأمه جارية فارسية من كورة باذغيس فى مقاطعة خراسان (أى أنه بخلاف أخيه الأمين الذى كان كلا أبويه هاشمياً) وهذا العامل ـ أى انتماء المأمون الى الفرس من جهة الأم لابد أن يعمل عمله ويؤثر أثره فى شخصية المأمون فى توجيه منحاها العقلى وتكوينها الثقافى والفكرى والدينى والمذهبى .

وهناك عوامل أخرى دفعت المأمون دفعاً إلى تنمية العقل وإعلاء دوره على الوحى وإلى تزكية التكوين العربى فكرياً ووجدانياً بالمؤثرات العقلية معتاضاً فى ذلك عن تزكية هذا التكوين بمقدماته ومؤثراته الأساسية الأولى التى كونها كتاب الله تبارك وتعالى وسنة رسوله المصطفى ﷺ.

إن النقلة كانت خطيرة الشأن إلى درجة بدا معها التحول بمثابة مؤامرة تألبت فيها عدة قوى فكرية ومذاهب غازية كان هدفها الأول والأخير الإغارة على الوحى الإلهى الذى اختصت به أمة محمد ﷺ » ا . هـ

والمعروف أن المسلمين لم يقبلوا الأدب اليونانى (الأوديسة والإلياذه) ولم يقبلوا الشرائع وقبلوا العلوم أما الفلسفات فقد فرضت فى مرحلة الشعوبية (المأمون) .

وقد رفض الإسلام مفاهيم المنطق اليونانى وفكر أرسطو المادى ورفض تخريجات ابن سينا والفارابى وكشف عن زيفها وارتباطها بالحلاج وابن عربى وإخوان الصفا كما رفض أبو نواس ومفاهيم المجوسية القديمة، وقد أفسد القياس الأرسطى للعلوم

وعمل على تجميدها وكان لسيطرة المنطق الأرسطى على علم الكلام وآداب البحث والمناظرة الأثر الكبير فى قصور كل منهما عن أداء المهمة المنوطة على الوجه الأكمل، كذلك فقد رفض الإسلام نظريات الفيض والعقل الفعال والجوهر والعرض والعقول العشرة وكلها من مفاهيم الوثنية اليونانية.

❑ ❑ ❑

لقد حاول النفوذ الغربى فرض أرسطو على الفكر الإسلامى مرتين : فى عصر الترجمة، وكان تأثيره وتأثير الفلسفة اليونانية بالغاً، وخطيراً حتى استطاع علماء المسلمين التخلص منه وإرساء مفهوم الأصالة الإسلامية امتداداً من الشافعى إلى ابن حنبل إلى الغزالى ومن ثم إلى ابن تيمية وابن القيم. وفى العصر الحديث جرت المحاولة مرة أخرى من خلال أسلوب ماكر خبيث إذ إنه بعد أن كشف المسلمون زيف منهج أرسطو ومنطقه وجاراهم الأوروبيون فى كشف هذا الزيف واعتمدوا المنهج التجريبى الإسلامى أساساً لحضارتهم جاء النفوذ الأجنبى من خلال جامعة القاهرة لإعلاء شأن أرسطو مرة أخرى وحجب المنهج التجريبى الإسلامى فى دعوة عريضة بأن أرسطو هو المعلم الأول، وجاءت دراسة ابن سينا والفارابى وغيرهما محاولة جديدة لتأكيد هذا الاتجاه المسموم، وكان لابد من وقفه أمام (الاعتزال) والمنطق الصورى وعودة إلى علم الأصول الذى قدمه الشافعى بديلاً عن الفلسفة وما كشفه الغزالى من إلحاد الفلاسفة وأخطائهم، ثم جاء ابن تيمية فحطم منطق أرسطو تحطيماً وكشف عن منطق القرآن، ولكن دعاة التغريب والنفوذ الغربى مايزالون يحملون حملات الحقد الشديد على الغزالى وابن تيمية ويمجدون أرسطو ويعدونه المعلم الأول.

وكانت الجامعة المصرية قد تغربت فى علومها فقدم المستشرقون مفاهيم الأدب مستمدة من النظريات المادية التى تعتبر الإنسان حيواناً ناطقاً، وفى مجال الفلسفة قدموا مفاهيم اليونان وفى مجال علم النفس قدموا مفاهيم فرويد.

وكان الشيخ مصطفى عبد الرازق قد أعلن أن الفلسفة الإسلامية تبدأ بالإمام الشافعى وكتابه (الرسالة)، وسار وراء ذلك تلاميذه وفى مقدمتهم على سامى النشار وتكشفت حقائق كثيرة فى عودة إلى الأصالة وسقط أرسطو سقوطاً شديداً.

أما أفلاطون فقد كتب الفشل على تجربته فى إقامة المدينة المثالية، ورغم فشل أفلاطون فى تطبيق نظريته فقد حاول بعض مفكرى العصر الحديث أن يطبقوها مرة أخرى بصورة محورة فكانت تجربة ماركس، وكان ذلك الفكر الماركسى الشيوعى الذى هبط بالإنسان إلى الدرك الأسفل وجعله عبداً للمادة بعد أن كان سيداً.

لقد حاول أفلاطون أن يطبق نظريته السياسية فى مجتمع أثينا مرتين : فى خلال خمس وعشرين سنة بيد أنه رغم موافقة أحد الملوك على تنفيذ فكرته فقد فشل فى تطبيقها عملياً فشلاً ذريعاً، وفى المحاولة الأخيرة نفى وأسر ولولا أن رآه أحد أصدقائه وعرفه وأعتقه لظل مسجوناً إلى أن مات.

ومن العجب أن يحتضن هذه الأفكار مسلم مثل الفارابى، ويتجاهل النموذج الربانى الذى قدمه القرآن الكريم للمسلمين، ولكن لا ضير فقد كشفت الوثائق أن الفارابى وابن سينا كانا يعملان مع جماعة القرامطة.

ثالثا: الفلسفة الغربية المعاصرة

لما أعلن رجال العلم كذب المعلومات التى وردت فى الكتب المقدسة عن الكون والخلق قامت قيامة الكنيسة وأنشأت محاكم التفتيش وعاقبت ثلاثمائة ألف أحرق منهم اثنان وثلاثون ألفاً أحياء منهم برونو وجاليلو. ومن هنا تحول الفكر الغربى من الفكر المسيحى إلى الفكر اليونانى القديم الذى جرى إحياؤه وصب العلوم التجريبية فى إطاره.

وحدث الانفصال بين الدين والعلم وبدأ ظهور مذهب الإنسانيين القائم على الاعتداد بالعقل والعناية بالعلم وتطبيقه.

وتشكل اتجاهان: أحدهما الاتجاه العقلى (ديكارت) والاتجاه التجريبى (بيكون). وبدأ التفسير المادى للوجود، والتفسير المادى للتاريخ، ومنذ بدأت الفلسفة الغربية المعاصرة فى أواخر القرن التاسع عشر، وقد أعلنت على مدارسها ومذاهبها الإلحاد الصريح نتيجة الغرور بتقدم العلوم المادية والصناعات فى أوروبا.

وقد كان ذلك يعنى أنه ليس ثمة فى العالم إلا المادة وقوانين تطورها والعقل أسمى إنتاج المادة، والعالم، لم يوجد إلا اتفاقاً أو مصادفة، والتفسير المادى للتاريخ يعنى أن نمو الحياة الإنسانية (فردية واجتماعية)يتوقف على الظروف المادية والاقتصادية وأن الصراع بين الطبقات يتحكم فى سير التاريخ.

وهكذا سارت الفلسفة الأوروبية المعاصرة والحديثة فى خط الابتعاد عن الدين والاعتداد بالعقل والعناية بالعلم المادى.

وكان المذهب الوضعى الذى دعا إليه أوجست كونت وأتباعه دوركايم وليفى بريل فى إطار مدرسة علم الاجتماع الحديث هو أخطر مفاهيم الفلسفة المادية، وأهمها أن الجريمة فطرة وأن الأسرة ليست من الفطرة، والهدف الحقيقى للوضعية المنطبقة هو تقويض أركان العقيدة الدينية.

وفى مجال الفلسفات النفسية والاجتماعية والأخلاقية ظهرت مفاهيم خطيرة تقوم على النسبية فى الأخلاق ولا ترى الأخلاق جزءاً من الدين ولكن تراها جزءاً من العادات والتقاليد.

أما الفلسفات النفسية كالوجودية فترى أن الوجود الإنسانى مجرد عبث، وقد نشأت الوجودية نتيجة التشاؤم الذى ساد المجتمعات الأوروبية فى أعقاب الحرب العالميةالثانية.

أما فى مجال التحليل النفسى فقد كانت نظرية فرويد من أخطر ما طرحته الفلسفة المادية فى هذا المجال، إذ اعتقدت أن الجنس هو (العامل الأساسى) فى تصرفات الفرد، ولم تعترف بالعوامل الأخرى.

وهكذا نجد أن أغلب مفاهيم الفلسفة مناقضة للدين أساساً ومناقضة للإسلام، فهى تنطلق من الإلحاد وهى ظلمات بعضها فوق بعض.

وكان أخطر ما فى ذلك كله هو أنها أصبحت مقررات فى الجامعات (فى كليات الآداب وأقسامها، النفس والاجتماع) ليس بوصفها نظريات فلسفة تخطئ وتصيب ولكن بوصفها علوما وحقائق، وأخطر ما فى ذلك أنها تصطدم بمفاهيم الإسلام فى العقائد وعلوم الاجتماع والأخلاق والنفس الإسلامية.

وهذه هى الحقيقة الأولى التى يجب أن يعرفها الشباب المسلم : أن هذه النظريات هى مقولات عقل بشرى قاصر، محاصر من خلال عصره وبيئته ومن خلال التحديات التى تواجهه، وهى قد تخطئ وتصيب، ولكنها ليست علوماً حقيقية أو حقائق علمية يمكن قبولها أو الإقرار بها وهى إن صلحت فى بيئة غربية فإنها لن تصلح فى بيئة وضع الإسلام قواعد مجتمعها منذ أربعة عشر قرناً.

ومن هنا نشأت الازدواجية الفكرية وحدثت أزمة التناقض والتعارض بين حقائق الإسلام ومجتمعه، وبين المفاهيم الوافدة المطروحة.



ومن هنا فإن كتب الفلسفة المقررة على مدارسنا وجامعاتنا تحاول أن تفرض المفهوم الغربى للحياة والعقيدة على نحو يختلف تماماً مع مفهومنا الإسلامى، فضلاً عن أنه ينقل إلينا مصطلحات أوروبا العلمية التى تمس الإسلام فى صميمة وتعصف بإيمان الشباب المسلم.

ومن أخطر هذه المقررات نظرية الاتجاهات الثلاثة:

التفكير الدينى ـ التفكير الفلسفى ـ التفكير العلمى.

وترى هذه النظرية أن التفكير الدينى هو الخاضع للأهواء والميول، وهذا يرمى إلى زعزعة الحقائق الدينية، ويؤدى هذا التصور أن يعتقد الشباب المسلم أن التفكير الدينى مبنى على الخرافة فلا يرد الأسباب إلى مسببها ولا تتقيد بمنطق النظر والاستدلال وتعاليم البابوية، وأنها لا تصلح للتطبيق فى جو الإسلام ومفاهيمه، ولقد كان الإسلام منذ نزوله دين البرهان والدليل والنظر الصائب والتجربة، ولذلك فإن هذه النظرية حين تعرض يجب أن ترد إلى أصلها وهو أفق الفكر الغربى فى صراعه مع الفكر اللاهوتى، أما وصف الفكر الدينى فى النظرية الغربية بأنه مفاهيم العصور البدائية بمعتقداتها من سحر وخرافات وأساطير فليس صحيحاً على إطلاقه، ذلك لأن الفكر الدينى فى الحقيقة هو ثمرة دعوات الأنبياء والرسل، أما هذا الفكر الوثنى فهو فكر الخارجين على النبوات والداعين إلى فكر طفولة البشرية الذى جاءت الأديان للقضاء عليه وكشف زيفه.

ونحن المسلمين نؤمن بأن البشرية بدأت موحدة، ورافقت مسيرتها رسالات الأنبياء جيلاً بعد جيل، ولذلك فإن هذا الحصار المسموم من الفكر البشرى لم يقبله الدين الحق بل حمل عليه وكشف زيفه.

وأخرج الناس جيلاً بعد جيل من الظلمات إلى النور، سواء فيما يتعلق بعبادة الأصنام أو تأليه البشر أو بالخرافات التى دعت إلى إقامة أحفال الخمر والفسوق من أجل باخوس وغيره.

ومفهومنا الإسلامى يتمثل فى مرافقة النبوءات بدعوة الحق للبشرية من أولها يجعلنا نكذب دعوى الفكر الغربى من أن هناك عنصراً أسطوريا خرافيا يشمل حقيقة محددة، سبقت الأديان الثلاثة مما يدعى البعض من أن التوحيد بدأ باليهودية وهو قول مضلل غير صحيح.

ولكن ما نؤمن به أن البشرية كانت بعد عصر أى نبى ترتد إلى الوثنية وتعود إلى تجميع الأساطير والخرافات حتى يأتى رسول جديد يجدد دعوة التوحيد وعبادة الله الواحد الأحد، وقد استمر هذا حتى أصبحت البشرية مؤهلة للرسالة العالمية الخاتمة: رسالة الإسلام .

أما الفلسفات فقد كانت ذريعة بعض العقول على تصور الجوانب الغيبية والخفية ومحاولة وضع تصور لها، وقد جاء الإسلام بمنهج كامل للميتافيزيقا حرر المسلم تماماً من الخضوع لهذه المفاهيم.

ولكن الغربيين فى خصومتهم وجهادهم وحربهم للكنيسة والمسيحية عمدوا إلى وضع هذا التصور، ولم يقفوا عنده بل ذهبوا إلى أبعد من ذلك فدعوا إلى دين البشرية (الهومنيزم) وحملوا لواء الدعوة إلى وحدة الأديان من خلال البهائية أو القاديانية.

وهم فى كل محاولاتهم للتصورات الفلسفية هذه والنظريات التى طرحوها سواء منهم الغربيون أم الماركسيون لم يكونوا على إلمام صحيح وعلم كبير بمفهوم الإسلام، ولو عرفوه لوفروا على أنفسهم كثيراً مما أجهدوا أنفسهم فى تصوره، ولو كانوا صادقين فى فهم الإسلام لما وصفوه بأنه مأخوذ من اليهودية أو المسيحية (ولعرفوا مدى الفوارق العميقة بينه وبينهما)، فقد كانت هناك فوارق عميقة بين مفهوم اللاهوت فى الغرب ومفهوم الإسلام الجامع بين الدين والدنيا من خلال تنظيمه علاقتين للإنسان: علاقة مع الله تبارك وتعالى وعلاقة مع الناس ولوجدوا أن

الإسلام قد وضع منذ أربعة عشر قرناً الحل الأوفى بكل القضايا سواء التى تتعلق بالميتافيزيقا أو بالمجتمعات والحضارات ولو أخلصوا النية لوجدوا فيها خيراً مما يحاولون رسمه من فكر بشرى لا يستطيع أن يواجه متغيرات المجتمعات والبيئات والعصور.

❑ ❑ ❑

ويقرر كثير من الباحثين المنصفين أن كتب الفلسفة فى المرحلة الثانوية تشيد ببعض المذاهب الفلسفية وهذا يفصل الطالب عن الانتماء لدينه ويلاحظ فى كتب الفلسفة أن هناك انحرافات شديدة فى تفضيل بعض المذاهب الفلسفية والإشادة بها، وهذا ما يجعل الطالب غير شاعر بالانتماء لدينه وعقيدته، ويرجع هذا إلى أن القيادات الاستعمارية صاغت هذه المناهج بطريقة تسلب عزة الأمة الإسلامية وكرامتها ودينها وتجعلها موالية لمبادئ الأعداء، ولذلك قام الاستعمار البريطانى بتعيين القس دنلوب مستشاراً لوزارة المعارف وبيده السلطة الفعلية حيث أسس مناهج مدارس جديدة تعلم الفلسفة المادية ولا تعلم الدين إلا تعليماً هامشياً فى ذاته وفق مخطط لإخراج المسلمين عن الإسلام الصحيح.

ورافق هذا تجميد الأزهر وإطلاق الإرساليات وإضعاف منهج الدين واللغة العربية وتشويه التاريخ الإسلامى وتخريج مدرسين على مذهب ديوى وتأخير خريجى الأزهر، والهدف هو حجب شعور الأبناء بالولاء للأمة الإسلامية الواحدة ذات الرسالة الخاتمة وهى الإسلام.

وقدكان لعملية التفريغ التى أحدثتها المناهج الوافدة أن جعلتهم مؤهلين لقبول أفكار معادية للإسلام مثل الشيوعية والعلمانية.

بل إن الماركسيين يرون أن تعليم الفلسفة المادية فى المدرسة المصرية ضرورة لأنها هى مفتاح الدخول فى الماركسية، وعندما جرى تعديل مناهج الفلسفة تعالت صيحاتهم بالمطالبة بالإبقاء على الفلسفة المادية .

كذلك فقد أدت دراسة الفلسفة المادية فى المدرسة الوطنية (فى الوطن العربى) منطلقاً لسهولة الانحرافات الخلقية لعدم وجود الوازع الدينى والعقائدى ولعدم معرفة الحلال والحرام والثواب والعقاب .

كذلك حجب تقدير الوالدين واحترامهم.

إن العودة إلى الأصالة والتماس منهج الإسلام فى التربية والنظام الاجتماعى هو المنطلق الحقيقى:

(١) لإعداد المواطن للاستخلاف فى الأرض من خلال مفهوم عبادة الله تبارك وتعالى.

(٢) للتعارف بين المسلمين ودين الدول الإسلامية.

(٣) إعداد المواطن للتمكن فى الأرض، إننا فى أشد الحاجة إلى التفرقة الواضحة بين الأديان السماوية وبين الفلسفات.

رابعا : أخطاء الفلسفة المادية

إن هدف الفلسفة المادية التى تتصدر اليوم الفكر الغربى كله ترمى إلى محاولة هدم العنصر الأصيل من عناصر المعرفة الإنسانية وهو :

« هدم النبوة والغيب »

ومن هنا كان عملها الأساسى العمل على التحرر من قيد الدين، وكان أكبر أخطارها دراسة منهج الطبيعة والبيلوجيا وعلم الإنسان، وكل ما يتصل بخلق الكون وخلق الإنسان من خلال تصورات خاطئة أساسها : « نظرية دارون » التى لم تكن فى يوم من الأيام حقيقة علمية، وإنما كانت فروضاً عقلية تقوم على حلقة مفقودة ماتزال مفقودة بعد مائة سنة، ولقد تضافرت قوى كثيرة ترمى إلى هدم الدين وإنكار الألوهية والوحى والنبوة والغيب من أجل دعمها وإقرارها باعتبارها التفسير المادى للوجود حيث تقرر أن العالم لم يوجد إلا اتفاقاً أو مصادفة فلا خلق ولا خالق (تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً).

لقد قامت الفلسفة المادية أساساً على الطابع المادى ومعارضة الدين ومقاومته أساساً وتعميق العنصرية والإقليمية والقوميات وتحريف مفهوم التاريخ والنفس الإنسانية والأسرة والمجتمع.

ولقد وقفت الفلسفة الأوروبية المعاصرة عاجزة عن إصلاح أدواء العصر وكانت أحد الأسباب الرئيسية لتفشى هذه الأدواء والأوجاع، فنزعتها المادية وإباحتها للبغاء والممارسات الجنسية خارج رباط الزواج واحتفالها باللذات الجسدية والشعارات الحسية كل ذلك أورث العصر عدداً مهولاً من التشوهات المناقضة للقيم العقلية والخلقية وفسخ الأسرة وجنى على الملايين من أبناء السفاح، ثم عادت الفلسفة

تحاول أن تلعق الجراح حيث لم يعد هناك مخرج غير الاستسلام للخطوط المادية الحسية الإلحادية كما يقول كاربل ورينيه روبو لقد قدمت العلوم المادية قوى هائلة للإنسان ولكنها لم تزوده ـ وليس بوسعها أن تزوده ـ بالقيم العليا إذ يتحتم أن تضبط تلك القوى وأن توجهها وأن تسخرها لصالح الإنسان.

ومعنى هذا أن المنهج الإسلامى القرآنى الملتزم هو وحده القادر على تقديم طوق النجاة للبشرية فهو الذى يملك القيم العليا الأخلاقية الكفيلة بصياغة الإنسان النبيل الذى يؤثر أخاه الإنسان على نفسه لا الذى يبادر إلى سلبه.

فالإسلام وحده هو القادر على صون العدالة الاجتماعية وإرسائها على أسس عقدية معينة وضمان الالتزام بها.

والإسلام حين يرفض المادية الحسية الإلحادية والنسبية، وكل المذاهب المبنية عليها لا يعارض العصر ولا يخرج عليه، وهناك فى قلب أوروبا ذاتها من يقرر ذلك .

❑ ❑ ❑

لقد عملت الفلسفة المادية المعاصرة الى اكتشاف القوانين التى تتحكم فى الكون لمعرفة أسراره ظناً منهم أنهم قادرون على فك طلاسمها، ولكنهم بعد الجهد وصلوا إلى دائرة مفرغة، وقد عادوا مع دورانها إلى نقطة البدء حيث ينحنى جبروت العقل أمام أسرار اللانهائية فاعترفوا جميعاً بعجزهم عن التحدى والمواجهة أو بالإيمان الضبابى المقنع أو الواضح بلا أقنعة.

يقول الدكتور رشدى فكار : فى كتابه (نهاية العمالقة) :

أنه كان هناك تطلع الى العمالقة كقدوة وكمثال بالنسبة لإنسان باحث عن الحقيقة، ثمة علامة استفهام كانت تلوح دواماً بعد قراءتى لأفكار متعددة لحضارة الغرب، انطلاقاً من الفكر الماركسى والوجودى والتصورى، أين الذات وإلى أين تسير وما هى الغاية وما سر الوجود وحقيقة الخلق والخالق.

كان التعامل فى البداية مع (سان سيمون) أحد فلاسفة القرن ١٩ ، وبالطبع له إسهاماته المتعددة : القانون الأساسى للكون ومبادئ الجيولوجيا إلخ ويتميز عن باقى العمالقة فى مواجهة العقيدة لأنه كان يتصدى لظهورها وأصولها فهو كأحد امتدادات المعرفيين رأى الدين من منظور الاحتكار الكنسى أى التى تتكلم باسم الله، وانتهى هذا العملاق إلى أن الهدف فى النهاية، كيف يمكن للدين أن يتعامل مع العلم بمعنى أن هناك إلهاً يتمثل فى قوة الطبيعة وهذا ما وصل إليه أنشتين فهو يقول أن هناك إلهاً يدير الكون دون تدخل، فهو يحجم دور الوسطاء ولذلك فإن سيمون أول من انحنى فى النهاية بعد أن كان أول من هاجم الدين فى شبابه ثم عاد فى النهاية ليعلن أن الدين والعلم كليهما ضرورى لسعادة الإنسان والمجتمع.

لقد انحنى سيمون للاعتراف بقدرة العقيدة وأصالتها فى الإنسان .

ونحن إن كنا نقبل ما قاله الدكتور رشدى فكار على أنه تطور فى فكر الفلاسفة الماديين لا ننسى أثر ما قاله سان سيمون فى كتبه التى وصلت إلى كل مكان، والتى أشقت وشككت العشرات بل المئات فى المرحلة الأولى والتى لا تزال موجودة وتدرس فى الجامعات وتقرأ فى المكتبات.

❑ ❑ ❑

لقد أثمرت (المنهجية العلمية) فى الغرب (وهو مصطلح مضلل) تحت خداع فلاسفة استطاعوا أن يضعوا الفكر البشرى القديم فى أثواب عملية براقة فكانت الوجودية والفرويدية والماركسية التى تقوم على مقررات من النظريات العلمية التى لم تكن قد أصبحت حقائق علمية فأغرت الكثيرين، حتى إذا تقدم منها الفلاسفة والمفكرون اقتراباً شديداً تبينوا فسادها ووجدوها من الداخل فارغة جوفاء .

وكان عليهم إما أن يكشفوا هذا الخداع أو يتحولوا عنه وقد كتب الكثيرون فى هذا أمثال كولن ولسون وغيره.وتحول عنها الكثيرون بعد أن عرفوا ضلالها وكذلك كانت تجربة التحليل النفسى خدعة فرويد الكبرى، فقد حاول فرويد أن يقدم رؤيا عقدية كاملة (أى يقدم ديناً جديداً للبشرية) كما حاول ماركس أن يقدم منهجا عقدياً كاملاً.

وخرج كثيرون من التجربة كما صورها رشدى فكار بالانتحار أو بالإسلام.

لقد جاء المنهج العقلى ليستعمل فى خداع الناس نحو الهوى، ولكن ذلك لم يدم طويلاً فإن المنهج العقلى كشف فساد الكتب المقدسة وأكاذيب الصلب والتثليث وأفسح الطريق للعقل إلى الإيمان عن طريق الرؤية القرآنية.

(كشف ذلك ليوبولد فابس فى عديد من كتبه (بعد إسلامة) كما كشف ذلك روجيه جارودى بعد إسلامه.

ومعنى هذا أن حصيلة الثقافة الغربية لم تجد فى مكوناتها على ازدحامها وكثافتها ما يمنح بعض العقول الكثيرة القناعة والتوازن واليقين، وقد كشف كولن ولسون فى كتابه سقوط الحضارة واللامنتمى أن كبار المفكرين والفنانين والأدباء والفلاسفة هناك لم يقدروا على التحقيق الذاتى فى إطار ثقافتهم تلك، بل لم يجدوا أوليات التوازن واليقين فى خضم هذه الثقافة المتلاطم العميق.

كان هناك نزوع الإنسان إلى الماورائيات (أى الغيب بالتعبير الإسلامى) يريد أن يتجاوز العالم إلى الكون، والنفاذ من جدران المادية إلى الروح فى سبيل أن يصل إلى الإله، إنهم يطلبون العقيدة التى تلبى نزوعهم الكبير.

إن الفلسفة المادية ترفض الغيب والروح وتنكر السماء وتحارب وجود الله سبحانه ، إنها تحصر الإنسان فى النطاق الضيق إنه يريد إنسانا وليس حيوانا اجتماعيا، إنسانا وليس إرادة ميكانيكية أو رقما مضافا إلى رقم أو ترساً فى آلة» ا . هـ

لقد وضح أن هناك فارقاً واسعاً عميقاً بين العلم وبين الفلسفة وبين العلوم الإنسانية، ولقد تبين أن (المادية التاريخية) لم تمارس تجربة ولا عايشت مختبراً إنما هى رؤية فلسفية تجاوز الظن والتخمين لم تبلغ عتبات اليقين. يقول سوليفان إنه ليخيل لصانعيهم وتلاميذهم إن ينعتوها بالعلمية ويعتبروها حقائق نهائية.

لقد قطعت الفلسفات المادية الحياة الإنسانية عن مفهومها الخلقى والروحى وهبطت إلى حضيض الشهوات والأهواء.

لقد قطعت صلة الإنسان عن منبع الإيمان وشغلته بالمطالب الرخيصة التى تحرفها العواطف الإنسانية (التطهر والعفاف) والاهتمام بالمحسوسات المادية وبالجوانب الظاهرة التى تمثل الثروات والمواد البراقة من الحياة الدنيا، ودون أن يكون لها أى قيمة للمثل الخلقية والفضائل الإنسانية.

❑ ❑ ❑

إن أخطر ما فى الفلسفة المادية هو موقفها من الخالق تبارك وتعالى.

إن اخطر ما يهدم المنهج العلمى الغربى هدماً شديداً وتثير كل أسباب الاضطراب والخوف واليأس والاضطراب ويخلق هذه المفاهيم المدمرة من العبثية والقلق والانحلال والتمزق الداخلى والضياع واحتقار الحياة واليأس والتشاؤم ، كل هذا مرجعه إلى تجاهل مفهوم الخالق وإنكار وجود الله تبارك وتعالى والمسئولية الفردية الإنسانية نحوه جل شأنه وذلك فساد وجهتهم فى تأليه الطبيعة بديلاً عن الله تبارك وتعالى.

هذا المفهوم المغلوط للنظرية المادية هو الذى يصبغ جميع النظريات والعلوم والمفاهيم بصبغة مظلمة.

وهو الذى يفرض على منهج المعرفة (المعطوب) طابعه الانشطارى بينما يقدم الإسلام منهج الإيمان بالله تبارك وتعالى وتكامل العلم ونظرية المعرفة الإسلامية التى

تجمع بين العلم والدين وتوائم بين الروحية والمادة وتحقق التكامل بين العقل والوحى.

وعطاء الإسلام هو الذى يحول بين الإنسان وبين السقوط فى هوة التشاؤم والتمزق إيماناً بأن ما فاته فى الدنيا سوف يسترده فى الآخرة، فالإسلام يعطى مناعة ضد الهزيمة فى الحياة ومفهوم المنهج فى الفكر الإسلامى يقوم على الدليل والبرهان ومحاربة الظن، إن كل هذه المذاهب المطروحة على الساحة تتسابق إلى تقديم بديل عن قدرة الله تبارك وتعالى وسلطانه وهيهات.

حيث إن المدرسة الاجتماعية الفرنسية (دور كايم) ترجع الأمور لسلطان المجتمع وحاكميته، بينما ترى المدرسة الماركسية إن الأمور ترجع إلى الاقتصاد ممثلة فى الصراع الطبقى ونتائجه المحتومة.

أما الطبيعيون فينسبون الى الطبيعة الخلق والحركة وكل شئ .

❑ ❑ ❑

(٢) كذلك فإن من أخطر آفات الفكر الغربى : الانشطارية والفصل بين القيم فقد ظلت الفلسفة تفصل بين العقل والوجدان.

وفصل فرويد بين العقل والجسم، وفصل بين علم الجسم البيولوجى وبين علم النفس السيكولوجى.

فإذا جاء صوت يقول بالإنسان المتكامل الذى يحمل العقل والوجدان ويتشكل أساساً من الروح والمادة (قبضة الطين ونفخة الروح).

لم يقبل ذلك أحد.

وهكذا تأتى فكرة تجزئة الإنسان وتمزيقه إلى وحدات معزول بعضها عن بعض متناقضة مع الفطرة الإنسانية، إذ إن الإنسان فى مفهوم الإسلام غير قابل للتجزئة

والفصل، وملكاته متعاونة متكاملة، وقد أدى ذلك الفصل الى تضخيم النزعة المادية والنزعة الإباحية وضمور النزعة الدينية والأخلاقية.

والواقع أن المادية تحجب العطاء الروحى والمعنوى الذى له أبعد الأثر فى تفسير التاريخ وفى المواقع الفاصلة وفى الانتصارات الضخمة والتغيرات الواسعة التى قامت من أجل فكرة وعقيدة وإيمان.

أما العقل المسلم فيجمع بين الجسد والروح بعيداً عن الإفراط والتفريط أما العقل المادى فيعجز عن إدراك حقائق الكون والحياة.

(٣) الفلسفة الغربية ترى أن الثقافة ثمرة الفكر أى ثمرة الإنسان بينما المدرسة الماركسية ترى أن الثقافة ثمرة المجتمع ولكن الإسلام بنظريته الجامعة يجمع بين الإنسان والمجتمع والفرد والجماعة فى إطار واحد متكامل، إن مفهوم التكامل الإسلامى يحول دون أزمات البحث حول ما إذا كانت الثقافة نظرية فى السلوك أو نظرية فى المعرفة.

(٤) عجزت الفلسفة الغربية المادية:

(أولاً) عن استيعاب العصور والبيئات وتصورها فى حدود مرحلة من عصر أو بيئة.

(ثانياً) عجزها عن العطاء الإنسانى التام ، فسرعان ما يصيبها العطب نتيجة متغيرات الزمن والبيئة.

(ثالثاً) وضوح طابع الهوى والمطامع البشرية الخاصة.

(رابعاً) عجزها عن الاستجابة لأشواق النفس الإنسانية فضلاً عن عجزها فى بيئاتها الأصيلة.

(٥) يرفض الإسلام إعلاء العقل وإفراده بالنظر وإعطاءه مسحة القداسة فالعقل أساساً ليس بمعزل عن العّى والحصر.

والعقل فى الإسلام مقيد بالوحى، وإذا كان العقل يخطئ ويصيب فإن الوحى يعصمنا من الخطأ، لذلك يجب دائماً تصحيح ما وصل إليه العقل على أساس ما جاء به الوحى.

وعقائد الإسلام لا تتعارض مع العقل، وقد عرض القرآن عقائد الإسلام على العقل ودعا إلى مناقشتها ليميز الحق من الباطل ودلل عليها بالأدلة الدامغة.

ودعوة الإسلام العقل إلى النظر والاعتبار ﴿ **فاعتبروا يا أولى الأبصار** ﴾ لاتعنى أن العقل يتقدم الشرع لأن ملكات الإنسان ومنها العقل الاستدلالى محددة لأن العقل لا يكون فى كل حالاته بمعزل عن الهوى أو العاطفة.

ويرى الإمام ابن تيمية: أن العقل وحده ليس كافياً للوصول إلى حقائق الدين، بل لابد من الاستعانة بالنقل، ويرى أن المعتمد عليه فى ذلك هو الكتاب والسنة.

ومعنى ذلك أن يكون العقل فى ذلك تابعاً لا متبوعاً.

ومن اعتمد على العقل وحده كان كحاطب ليل.

وقد حمل ابن تيمية على منطق أرسطو وسخر من الذين يقولون إنه لا براهين إلا ما يكون المنطق دليلها وطريقها لما فى ذلك من غمز بالصحابة والتابعين الذين يعتبر المناطقة علومهم ظنية، وقد أثبت ابن تيمية أن المنطق من علوم الصابئة وهو دخيل على العلوم الإسلامية وقال إن الأحكام الشرعية ليست فى افتقار إلى المنطق أصلاً وما يزعمه المنطقى بالمنطق من أمر الحد والبرهان فقاقيع فقد أغنى الله تبارك وتعالى عنها كل صحيح الذهن، ولقد تمت الشريعة وعلومها.

ولقد ظل الفكر الإسلامى فى مختلف عصوره قائماً فى إطار الاتجاه الأصيل الذى يربط بين العقل وأحكام الوحى، فكان علماء التوحيد حريصين على إثبات ما جاء به الوحى من عقائد بواسطة النظر العقلى.

وتأكيد ما قرره ابن تيمية من موافقة صريح المعقول لصحيح المنقول .

وكان الربط بين الوحى والعقل أول قاعدة اسلامية.

إن انطلاق العقل فى الغرب فى اتجاه معاد للدين هو رد فعل لاضطهاد الكنيسة للعلم.

وقد تأكد أن مفاهيم الفلسفات والعلوم الغربية مناقضة للإسلام فهى تنطلق من الإلحاد وأغلب مفاهيم الفلسفة الغربية الحديثة والمعاصرة تسير فى غير اتجاه الدين.

(٦) لا يقر الإسلام مقولة الفلسفة المادية بأن البشرية كانت وثنية، ولم تعرف التوحيد إلا باليهودية، كما لا يقر نظرية فريزير بأن الدين تطور من عبادة الأب إلى عبادة الطوطم إلى عبادة قوى الطبيعة إلى عبادة الأفلاك إلى عبادة الأصنام حتى وصل الى عبادة الله الواحد الأحد. والقرآن الكريم الذى واجه جميع العبادات الوثنية قبل الإسلام يقرر أن هذه العبادات كانت موجودة جميعاً فى أقطار مختلفة وفى فترات متباينة، وأن الدين الربانى كان يأتى لتدمير هذه المفاهيم المغلوطة ثم تعود هذه المفاهيم كرة أخرى وتتوالى الأديان فى دحض هذه الوثنيات حتى جاء الإسلام بوصفه الرسالة الجامعة الخاتمة.

خامسا: الفلسفة المادية
والعلوم الإنسانية والاجتماعية.

هناك ثلاثة مناهج مختلفة : العلوم التجريبية (وهذه مكانها المعامل) الفلسفات المادية : وهى فلسفة وليست علماً وهى تقوم على نظريات بشرية وفروض عقلية تخطئ وتصيب وليست حقائق علمية مقررة، وهناك العلوم الإنسانية والاجتماعية وهى نوع من الفلسفة المادية أيضاً ولكن لا تخضع فى دراستها للمنهج التجريبى.

وللإسلام مع كل من المناهج الثلاثة موقف واضح مختلف، أساسه أن مفاهيم الإسلام تقوم على التكامل بين الروح والمادة، أما هذه المناهج فتقوم على المادة وحدها.

ويمتد هذا إلى علوم التاريخ والأدب واللغة والنفس والاجتماع والأخلاق والتربية. وفى ضوء مفهوم الإسلام الجامع تنكشف هذه المناهج والنظريات عن ثغرات وتجاوزات وأخطاء.

❑ ❑ ❑

أساساً فإن نظرية المعرفة فى الإسلام تقوم على ثلاثة عناصر: العلم والعقل والوحى، ولقد قامت نظرية المعرفة فى الفكر اليونانى على أن الإنسان مفطور على معرفة حقائق الكون والحياة من ذات نفسه، ودون أية مساعدة خارجية (وقد تقبل هذه النظرية المشاؤون المسلمون وفى مقدمتهم ابن سينا، وجاء ابن طفيل فحاول أن يثبت ذلك فى قصته (حى بن يقظان) التى تقول أنه وقد ألقى به فى جزيرة مجهولة فقد استطاع أن يصل بالملاحظة والتفكير الى أن يدرك بنفسه أرفع حقائق الطبيعة وما وراء الطبيعة) .

وهذا تجاوز خطير لابن طفيل لم يقبله المفكرون المسلمون ودحضوه، لأنه يتعارض مع الدين ومهمته التى أرسل الله تبارك وتعالى بها الأنبياء فهذه النظرية لا يقبلها الإسلام .

وقد قرر الإسلام أن الإنسان غير مؤهل لتحصيل المعرفة على النحو الذى يعتقده هؤلاء الفلاسفة ولكن عن طريق مصدر أعلى هو « الوحى ».

فالعقل البشرى هو أداة الإدراك الوحيدة فى الإنسان وأن الحواس وسائله إلى المعرفة.

ونحن نؤمن بأن الله تبارك وتعالى خلق الكائنات لتعرفه وتسبح بحمده، والغاية التى اختارها الله تبارك وتعالى هى « عمارة الأرض ».

ومصدر المعرفة هو العلم الإلهى، فقد بعث الله تبارك وتعالى الرسل بالمعارف التى تثرى حياة الإنسان وترده عن المفاسد والمهالك وهى معرفة الله تبارك وتعالى ومعرفة عالم الغيب والإيمان به ومعرفة عالم الشهادة ومعرفة النفس البشرية قدراتها ومعرفة مهمة الإنسان والسعى فى الأرض وعمارتها.

ولقد كان مفهوم المعرفة الإغريقى هو الذى أسقط الفلسفة الإغريقية وقدم المنهج التجريبى الذى قامت عليه الحضارة الإسلامية، والذى انتقل بعد ذلك إلى أوروبا، إلى أن اعترف (بيكون) بأن المعرفة التى قدمها العرب لعلومهم هى الحقيقة.

« إن دورة الحضارة تخضع لسنة من سنن الله تبارك وتعالى العاملة فى ملكه، ومن ثم فلا توجد قوة على ظهر الأرض تستطيع منعها حين تبدأ حركة الدورة التالية، ودور الغرب يتمثل فى الإضافة أما الأساس فقد وضعه الإسلام».

فالحضارة إيمان بمفهوم التوحيد الخالص (لرد الأمور إلى مصدرها) وأخلاقية العلم والحضارة.

❑ ❑ ❑

إن أكبر أخطاء المسلمين والفكر الإسلامى هو الوقوع فى أسر العلوم الطبيعية أولاً ثم فى مخططات الغرب السياسية سواء فى الخضوع للغرب أو الشرق، كذلك فقد استعانت الحكومات الاستعمارية ببعض العلوم الإنسانية وبخاصة (الأنتربولوجيا) الاجتماعية فى توطيد أركان الاستعمار على نحو ما كان يحدث فى المستعمرات البريطانية فى أفريقيا، حيث كان يجرى العلماء دراسات خاصة بين القبائل والشعوب الخاضعة لحكمها لتزيد من قبضتها عليهم، ومن شأن هذا أن يلقى ظلالاً كثيفة على ادعاء الكثيرين من المثقفين بالعلوم الإنسانية بأنهم يتوخون الموضوعية فى دراستهم وبحوثهم.

ومن هنا يجب ان يكون هناك تفرقه واضحة بين أصحاب العلوم الطبيعية وأصحاب العلوم الإنسانية ـ والاجتماعية .

واذا تقرر أن علم الاجتماع الغربى قد عكس إيدلوجيا الفكر الغربى، وكذلك علم الاجتماع الماركسى فقد سقط تماما مفهوم الموضوعية وسلامة المنهج وتحرره من التبعية.

ومن هنا فقد تقرر أن العلوم الاجتماعيه ليست علوما مجردة خالصة لوجه العلم والحقيقة ولكنها علوم ذات مضامين إيدلوجيه وتبعية سياسية فى النهاية .

وإن الباحث فى هذه العلوم من حيث إنه إنسان لا يمكنه أن يتخلى عن انتماءاته الإيدلوجية وتوجيهاته الفكرية والسياسية والعقدية .

ولما كان من المحال أن تخلص العلوم الإنسانيه من الأحكام القيمية والانتماءات الإيدلوجية والتوجهات الفكرية فإلى أى قيم وأيدلوجيات وعقائد ينبغى أن يتوجه باحثونا.

هل يولون وجوههم شطر المعسكر الشرقى بفلسفته الماركسية وماديته التاريخية أم يولون وجوههم قبل المعسكر الغربى ومذاهبه الفلسفية من برجماتية ووجودية ووضعية؟ .

ومن هنا كانت دعوة الفكر الإسلامى إلى الأسلمة : أسلمة العلوم الإنسانية والاجتماعية .

وهى دعوة الى التحرر من التبعية الفكرية الأجنبية لتحل محلها دعائم قوية ذات جذور ضاربة فى أعماق ثقافتنا، ولكن اكتشف بعض الباحثين عندنا أن النظريات الاجتماعية الغربية قاصرة وملفقة ولا تعطى أشواق النفس المسلمة، فلماذا لا نحاول تقديم نظريات بديلة تستمد قيمها من عقيدتنا الصحيحه ؟.

إن الدعوة إلى الإسلام لا تعنى الانغلاق الفكرى كما يتوهم خصومها، فهى ليست معادية للمنهج التجريبى أساسا بل هى تضعه فى موضعه الصحيح من حيث إنه وسيلة تعين على الفهم توطئة للتحليل والتفسير وصولا إلى الإصلاح .

لقد اعترف بعض أقطاب علم الاجتماع الغربيين المعاصرين (لنديرج وواتركن) بأن علم الاجتماع لايزال عاجزا حتى اليوم عن تقديم الحلول العملية لمشكلات العالم الاجتماعية، فلماذا نوصد بابا أمام من يحاول إخراج هذه العلوم من أزمتها .

وما الغريب فى دعوة أصحاب منهج الأسلمة إلى أن هذه العلوم يجب أن تستند إلى العقيدة (أو الايدلوجية) الإسلامية وأن ترتوى من منابعها الصافيه .

أفمن أسس هذه العلوم على عقيدة صحيحة راسخة خير أمن أسسها على إيدلوجيات تشكوك فى صحتها .

يقول تعالى : **﴿ أفمن أسس بنيانه علي تقوى من الله ور ضوان خير أم من أسس بنيانه على شفا جرف هار فانهار به ﴾** .

إن مفهوم لفظ الدين عند غير المسلمين مخالف لمفهومه فى الإسلام

﴿ فمن يبتغ غير الإسلام دنيا فلن يقبل منه ﴾ إن الإسلام دين متكامل جامع، تشمل تعاليمه تنظيم حياة الإنسان فى الدنيا وتدبير شئون المجتمع فى هذا العالم.

إن قصور الأديان الأخرى وعجزها عن تقديم حلول لمشكلات الإنسان النفسية والاجتماعية والاقتصادية قد أدى إلى ظهور (العلمانية) وهى الدعوة إلى فصل الدين عن أمور هذا العالم وإن كان هذا له مايبرره فى الغرب فإن فى الأمة الإسلامية تقليداً أعمى إذ كيف يتسنى للمشتغلين بالعلوم الإنسانية فى هذه الأمة أن يطرحوا جانب (الشريعه الإسلامية) ومصادرها وفى مقدمتها كتاب الله وسنة رسوله حيث توجد الحلول لكثير من المشكلات والامراض النفسية.

كذلك فإن كتاب الله تبارك وتعالى وسننه تعين على الفهم الصحيح بنشأة الدين، وهو تصور يختلف عن تفسير أوجست كونت الذى زعم أن تطور العقل البشرى مر بثلاث مراحل (دينية وميتافيزيقية ووضعيه) .

أما التفسير الإسلامى فهو مباين تماما لهذا الترتيب إذ التوحيد هو الأصل وهو دين الفطرة الذى كان عليه آدم أبو البشر ثم طمست عقيدة التوحيد شيئا فشيئا ليحل محلها الشرك والتعدد والوثنية .

كذلك فقد تطرق القرآن والسنة إلى ميدان الاقتصاد والمعاملات التجارية حيث فتح الإسلام باب التجارة وأغلق باب الربا ، وحدد نظام المواريث والزكاة وأوجه إنفاقها (بتصرف عن بحث عبد الفتاح أحمد فؤاد).

الأساس الأخلاقى للفكر والمجتمع الإسلامى

أقام الإسلام الأساس الأخلاقى الثابت بثبات العقيده للمسئولية الإنسانية وهى دعامة العلوم الإنسانية والاجتماعية .

وكان ذلك فى مواجهة الفلسفة المادية التى تضم قاعدة النظريه النسبية، فالأخلاق فى الإسلام ليست تابعة للمناخ أوالعصر بل هى وحى إلهى سامٍ ليس من نتاج

البشر ولا من وحى أفكارهم، إنه استجابة لواجب أمر به الدين وفرضته الشريعة .فالأخلاق فى الإسلام تختلف عن الأخلاق الوضعية منبعها التقوى ومحورها العقيده وسبيلها مخافة الله تبارك وتعالى.

وتتميز الأخلاق الاسلاميه بأنها الخير المطلق، وتحيط بها رقابة شاملة نابعة من الدين والضمير، من أجل تحقيق الصالح العام لمجموع المسلمين فى المجتمع الإسلامى .

❑ ❑ ❑

أما الغرب فقد راح يقيم الأخلاق على دعائم القوة حين نادى بأن الأخلاق المادية لا يقدر عليها العبيد وإن للضعفاء والمترفين أخلاقا لا تليق بالأقوياء (نيتشه)، وهكذا رد الفضائل إلى القوه ورد الرذائل إلى الضعف .

كذلك قد اعتبر المنفعة المادية أساس الأخلاق ومبعثها، وجعل الدافع للسلوك الانسانى هو اللذة والألم (مفهوم الأبيقورية)

❑ ❑ ❑

ومن هنا كانت (الفلسفة النسبية) هى السند الفكرى الأخير والمرجع النهائى لكل التيارات المناوئة لمبدأ (الثبات الإسلامى) فى العقيده والشريعه والأخلاق والنظم (وضعيه منطقيه ، أوماركسية ، أو وجوديه أو برجمانية) .

فالنسبية تزعم أن الحقائق العلمية والقيم الخلقية والمبادىء التشريعية والنظم الاجتماعية والسياسية كلها تتبدل وتتغير بتغير الزمان، فما كان حقا بالأمس لا بد أن ينقلب باطلا اليوم أوغدا، وما كان عدلا لدى اليونان قبل قرون من الزمان يستحيل أن يظل كذلك إلى اليوم لا فرق فى ذلك بين قانون وضعى وشريعة دينية.

وبهذا التصور الشامل للفلسفة النسبية يقرر أنصار التجديد أن الشعر المقفى واللغة

الفصحى والعمارة الإسلامية والشريعة الإسلامية والعقيدة الإسلامية إلخ كانت صالحة لعصر النبوة والراشدين، ولكنها لا يمكن أن تصلح لنا اليوم، ولا مفر أمامنا من أحد أمرين ، إما نقل نظائرها الأوروبية العصرية وإما التخلف عن العصر والفناء تبعا لذلك .

لقد ولدت النسبية فى حجر السوفسطائيين الذين صاغوها فى العبارة المشهورة (الإنسان معيار كل شيء بمعنى أنه هو الذى يحدد الحقائق العلمية والقيم الخلقية وبوسعه أن يعدلها أويلغيها أو يستبدل غيرها بها) وهى نظرية وجدت معارضة ولكنها بعثت فى الفكر الفلسفى الأوروبى الحديث ولعل (نيتشه) أول من عبر عنها بأسلوبه الخطابى الزاعق وتبنتها المذاهب الفلسفية المادية، وفى الفكر الإسلامى الحديث وجدت ترحيبا من أنصار التجديد الذين نشطوا فى الترويج لها بوصفها البوابة الفكرية الواسعة للنقل من أوربا (دكتور أحمد عبد الرحمن)

❑ ❑ ❑

وقد قام الدكتور عبد الله دراز بدراسة هذه القضية فى بحثه المستفيض عن الأخلاق الإسلامية، حيث أجرى مقارنة النظرية الاخلاقية القرآنية ببعض النظريات الغربية فلم يترك نظرية اخلاقية مهمة عند مفكرى الإسلام وفقهائه ومتكلميه وفلاسفته ومتصوفيه ولا عند فلاسفه الغرب منذ اليونان حتى اليوم ولا أسفار العهدين القديم والجديد لليهودية والمسيحية إلا المَّ بها مقارنا ذلك كله بنظرية الأخلاق فى القرآن الكريم، وقد أقنعته جولاته هذه بأن نظرية الأخلاق فى القرآن تفوق كل نظريه أخلاقيه فى غيرة .

قال الدكتور دراز (رحمه الله) إننا حين نقلب مؤلفات علم الأخلاق العام التى كتبها علماء غريبون نلحظ فيها فراغا هائلا عميقا لصمتها المطلق عن علم

الأخلاق القرآنى فهى تؤرخ باختصار أو إفاضة المبادىء الأخلاقية فى الوثنية الاغريقية ثم فى الديانتين اليهودية والمسيحية ثم تقفز فجأة إلى العصور الحديثة فى أوربا .

❑ ❑ ❑

ميز الدكتور دراز فى النظام الأخلاقى بين فرعين : النظر والتطبيق، ففى مجال التطبيق يتميز بثلاث خصائص :

(١) أنه جمع ما تفرق من ذلك فى الحكمة القديمة فهو استمرار لها ولكنه أرحب منها لأن جمع القانون الأخلاقى ككل وليست هذه الحقيقه أثمن الخصائص ولا أصلها .

ولكن الأصاله تبدو أوضح وأقيم فى الخصيصتين الثانية والثالثة.

(٢) أما الثانية فهى توفيق القرآن الكريم الى تقديم الدروس المختلفة وتقريبها بحيث صاغها مع تنوعها فى وحدة لا تقبل الانفصام .

ونزع عن الشرائع السابقه ما فيها من تطرف فى ظاهر الأمر ، إفراطا أوتفريطا وأطلق التعادل فى ميزانها ودفعها جميعها فى جانب واحد، ثم نفخ فيها من روح واحدة فصار من حقه أن ينسب إليها مجموع هذه الأخلاق .

(٣) والخصيصية الثالثة: أن القرآن اكمل ما فى الحكمة القديمة من نقص فهو لم يكلف بحفظ ذخائر الإسلام ودعمها، ولا بالتوفيق بين وجهاتها المختلفة وتوحيدها بل زادها رفعة وجمالا وأضاف إليها فصولا جديدة كانت تنقصها وبذلك ختم القرآن العمل الأخلاقى .

ومن هنا نعرف معنى الحديث النبوى الشريف : (إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق)

فالجديد فى الإسلام أوالقرآن هو هذا التتميم لا إنشاء كل فضيلة مـن جـديد إذ إن كثيرا من الفضائل كانت معروفة ومسلمَة قبل الإسلام ولكنها كانت متفرقة ومتضاربة وناقصة .

وميزة الأخلاق الإسلامية : أنها أخلاق عملية وهى بناء عضوى حقيقى تتعاون فيه كل العناصر ويمتزج فيه المثالى بالوافع العملى الصلد وصرامة الإطار تسير مع المرونة فى المضمون جنبا إلى جنب فيشتركان معاً فى حفظ النظام وفى تحقـيق التقدم .

وقد اتجه الدكتور دراز إلى القرآن وحده حيث تقوم النظرية الأخلاقية الإسلامية على أساس الإلزام الأخلاقى فلا مسئولية حيث لا إلزام، وإذا عدمت المسئولية فلا يمكن أن تسود العدالة، وتولد المسئولية من الإلزام فلا معنى للالزام الا إذا كان الإنسان مكلفا بأن يقوم بأشياء وأن يقدم حسابا عنها، وهذا فى حدود المسئولية الانسانية : والمسئولية دينية واجتماعية وأخلاقية محضة .

وشروط المسئولية أنها شخصية، وأنها معلومة فلا مسئولية عما يجهل وأنها اختيارية وهناك ترابط بين الإلزام والمسئولية وبين الجزاء والعقوبات، كما وضحها القرآن : وهى الحدود والجزاء الآلهى. الإنسان مكلف وهو كائن ناقص ، ولكنه قابل للكمال فلا بد له من العمل، وهو مسئول عن عمله، ووجوده صراع دائم مع كل الشرور .

❑ ❑ ❑

وهكذا فالإسلام يقر الالتزام الأخلاقى ويرفض النسبية: التى تحاول أن تجعل من الأخلاق ذات الأصل الثابت الأصيل المستمد من ثبات الإسلام ـ تجعل بينها وبين العصور ربطا يعبر عن قيمها وتطبيقها .

الحرية بين مفهوم الإسلام ومفهوم الفلسفات المادية :

الحرية الحقيقية هى حرية الإسلام التى تتمثل (أولا) فى أن للإنسان قدرته على الاختيار وهو أمر يشعر به ضرورة ولكن ليس قادراً بإطلاق لأنه يحس من نفسه ذلك. ويتمثل (ثانيا) فى أن يرتفع الإنسان بنفسه فوق شهواته ونزواته التى يكون عبداً لها .

والإنسان فى الإسلام لا يكون حراً بالمعنى الحقيقى للحرية إلا إذا ارتفع عن شهواته وأهوائه بإرادته، أى بعقل حر. واستشعارنا بأن الله تبارك وتعالى معنا دائما هو العلاج الحاسم لكل أنواع القلق، وليس ممارسة الحرية التى تدعو، اليها الفلسفات المادية (الوجوديه مثلا) .

وفى الإسلام حقائق أساسية : أهمها أن وجود الإنسان له هدف وغاية ﴿ **أفحسبتم أنما خلقناكم عبثا وأنكم إلينا لاترجعون** ﴾ ﴿**أيحسب الإنسان أن يترك سدى**﴾ والعالم بما فيه الإنسان محكوم بقوانين طبيعية فلا محل للفصل التام بين وجود الإنسان والوجود الخارجى، فمن الواضح أن الإنسان لا يعيش فى فراغ وإنما يعيش فى العالم .

والواضح أن الإنسان ليس حرا بإطلاق فإرادته ليست خارقة للعادة وإنما هى إرادة محدودة .

وان قيم الأسرة التى ينشأ فيها الإنسان أوقيم المجتمع الذى يعيش فيه لهما من الفاعلية المباشرة وغير المباشرة فى سلوك الإنسان ما لا يمكن أن ينكر أويقلل من أهميته .

وقد نبهنا القرآن الكريم إلى أن الإنسان هو كائن ضعيف من حيث إن إرادته محدودة ويقوى على أشياء ولا يقوى على أشياء أخرى ﴿ **وخلق الإنسان ضعيفا** ﴾

بل إن الإنسان لايكون على نفس المستوى من القوة فى مراحل حياته كلها **﴿ الله الذي خلقكم من ضعف ثم جعل من بعد ضعف قوة ثم جعل من بعد قوه ضعفا وشيبة يخلق ما يشاء ﴾** .

والقرآن الكريم ينبهنا إلى أن للإنسان إرادة ، ولكن هذه الإرادة محدودة، وفى القرآن الكريم آيات توحى بأن الإنسان مختار : **﴿ وقل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر ﴾** وإن هناك آيات أخرى توحى بأن الإنسان خاضع دائما لقوة أعلى **﴿ وما تشاءون إلا أن يشاء الله ﴾** وليس ثمة تعارض بين النصوص التى توحى بالاختيار والنصوص التى توحى بالجبر، فكل مجموعة منها تعبر عن جانب من جوانب علاقة الإنسان بربه (مجبور) إذا نظرنا إليه فى الوجود الأعم، و (مختار) إذا نظرنا إليه فى نطاق وجوده الخاص الذى تمتد إليه قدرته واستطاعته .

وحقيقية مجموع الاثنين معا: (دائرة حريته داخلة فى دائرة أكبر هى دائرة القدر الآلهى) .

وليس هناك جبرية مطلقة وليس هناك اختيار مطلق، وقد عالج القرآن ما يحس به الإنسان الحائر من قلق، وبين لنا أن جهاد النفس هو العلاج الحاسم له، فالنفس بطبيعتها تميل إلى تحقيق نزواتها وشهواتها فهى تأمر الإنسان بالإقدام على هذا التحقيق : إن النفس لامارة بالسوء) .

ويحث الإسلام على جهاد النفس **﴿ والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا ﴾**

﴿ وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوي فإن الجنة هى المأوى ﴾ .

والإسلام بهذا ينبهنا إلى أننا حتى لانستسلم لشهواتنا وضعف نفوسنا ونزواتنا فإننا نصل إلى التوازن النفسى والاستقرار النفسى المضاد للقلق. وهذا أحد معانى الحرية فى الإسلام .

فالقلق مرحلة يجب أن يتجاوزها الإنسان إلى الإيمان بشيء، وهو بهذا يخرج من معاناة الضياع الى نوع من الاستقوار النفسى أواليقين، ولذلك يجد الإنسان فى الإيمان بالله تبارك وتعالى راحة نفسية تدفعة إلى العمل الإيجابى، فليس فى الإيمان بالله قلق نفسى أو حزن نفسى أو يأس، أو ما شابه ذلك، وهكذا نرى أن استشعارنا الإيمان وبأن الله معنا دائما هو السلاح الحاسم لكل انواع القـلق الممكنـه » أ.هـ (عن بحث لعالم مسلم)

هذه المفاهيم تدحض مفاهيم سارتر وتصورات الوجودية وتكشف عن الفارق العميق بين الحرية فى الإسلام بالمقارنة مع الفلسفة المادية والفكر الوجودى .

كذلك يختلف مفهوم (التقدم) بين العلوم الإسلامية والعلوم الاجتماعية الغربية، فالتقدم فى الغرب تقدم مادى صرف ، لا يتوقف أمام أى حاجز أما فى الإسلام فهو مترابط جامع بين المفهوم المادى والمعنوى بحيث لا يضحى بالمعنوى من أجل المادى .

وكذلك يختلف مفهوم التقدم فى الإسلام عن مفهوم التقدم فى الغرب حسبما يقول العلامة مسمر ـ إن تقدم العلوم فى الغرب فى وقتنا هذا حدث رغما عن الدين. أما فى الإسلام فالعكس من ذلك، أى أن الإسلام لا يستطيع أن يبقى على قيد الحياة إلا بانتشار العلوم، فإن بين الإسلام والعلوم رابطة كلية والغربى إذا صار عالما ترك دينه .

❑ ❑ ❑

نظرية الحق والخير والجمال هى نظرية مستمدة من التثليث المسيحى : فالحق هو المنطق – والخير هو الأخلاق ، والجمال هو الفن، ومفاهيم المنطق والأخلاق والفن والفلسفه الماديه منحرفة اشد الانحراف .

سادسا: سقوط نظرية دارون

قرر العلماء التجريبيون وفى مقدمتهم العالم الفرنسى (بوستر) :

أن ما قام به دارون وأتباعه فى تفسير أنواع الحياة تفسيراً تطوريا ليس إلا مبنيا على ظنون وأقيسة لوجود بعض التقارب والتماثل فيما بين هذه الأنواع، وينقصهم فى الحكم أى أساس علمى أوقانون طبيعى أو شهادة من التجربة والاختيار : ان نظرية التطور نظرية غير وافيه » أ.هـ

النفس فى ضوء التصور الإسلامى

القرآن الكريم هو المصدر الأصيل للمفاهيم الخاصه بسلوك الإنسان المسلم، ويضم القرآن مبادىء وقوانين السلوك الإنسانى.

والدراسات النفسية جزء من الإسلام لأن الإسلام، منهج حياة ومصدر للثقافة والفكر والحضارة وسمته البارزة عدم الفصل بين العلم والدين .

والابتلاء من سنن الله تبارك وتعالى فى الكون، والإيمان بقضاء الله وقدره يحمى المسلم من الانهيار عند الابتلاء ويصونه من القلق والاكتئاب. على عكس النظريات الحديثه التى تصور الإنسان وكأنه فريسه للظروف والعوامل المختلفة. تقول الدكتورة إلهام مصطفى أبو بكر: إن فى نظريات علم النفس الغربى ما يتعارض مع الإسلام، وفيها ما يتفق معه . والخلاف حاد حول ما هو متعارض مثل التصورات ـ النابعة من نظريات دارون والنشوء والارتقاء فقد ابتدع دارون نظريته هذه وادعى فيها إن الإنسان حيوان متطور وخلص إلى إن كل شيء فى الكون يتطور وهذه الفكرة تصادم قناعات الإسلام .

وعيـ، هذه النظريات طابعها المادى، حيث لم تصل إلى الطبيعة الروحية المتضمنة الإيمان بالله تبارك وتعالى، ولهذا أصبحت نظريات علم النفس قاصره على العقل والحس، وأبعدت النفس لأن النفس لا تخضع للتجربة والقياس، وهذا هو تفسير إهمال علم النفس الحديث للنواحى الروحية والتعمق فى النواحى الفسيولوجية .

وتكاد تجمع الأبحاث الجادة عن أن نظريات علم النفس لا تتفق مع قيم الإسلام الثابتة والقوانين الأخلاقية التى نزل بها القرآن وتتساءل الدكتورة إلهام مصطفى : عن العوائق أمام التزام علم النفس بالتصورات الاسلامية: ويقول إن أهم العقبات هو المنهج الذى يقوم على التجربة والقياس والملاحظة، فنظريات علم النفس الحديث لا تقبل التصورات الغيبية التى يؤمن بها المسلمون ويعتبرها العلم الغربى مجرد تأملات قابلة للأخذ والرد .

لقد أسقطت النظريات الحديثة الروح تماما وبعضها تشكك فى النفس، ونتيجة لهذا الإهمال نجد أن الإنسان الغربى يعانى أزمات معنوية (وفى أمريكا اليوم ستة مرضى نفسيين من كل عشرة أشخاص) بينما يجد الإسلام عناية خاصة بالنفس حتى أن كلمة نفس وردت فى القرآن أكثر من ثلاثمائة مرة.

وقال ود ديرت: بأن علم النفس فقد روحه ثم فقد عقله ثم شعوره ثم لاشعوره، ولم يبق له إلا السلوك الظاهر، ومن هنا فإن الأمر يتطلب تأصيل مفاهيم علم النفس وتقديم مقررات الإسلام وليس التمويه بتغطية العلوم المادية بتصورات إسلامية مغلوطة ومن الخطأ الادعاء بأن هناك علاقة بين القرآن وبين نظرية فرويد، فقد تأكد أن علم النفس الحديث هو من نتاج الحضارة الغربية الملحدة وإن لاعلاقه بين الإسلام وبين هذا التصور العلمانى الصرف .

❑ ❑ ❑

ويتحدث الدكتور مصطفى محمود عن النفس المؤمنة : فيقول .

إن المؤمن لايعرف شيئا اسمه المرض النفسى لأنه يعيش فى حالة قبول وانسجام مع كل ما يحدث له من خير وشر، هو كراكب الطائرة الذى يشعر بثقة كاملة فى قائدها وفى أنه لا يمكن أن يخطئ لأن علمه بلا حدود ومهارته بلا حدود فهو سوف يقود الطائرة بكفاءة فى جميع الظروف، وسوف يجتاز بها العواصف والحر والبرد والجليد والضباب، وهو من فرط ثقته ينام على كرسيه ويتنفس فى اطمئنان، وهذا هو نفس إحساس المؤمن بربه الذى يقود سفينة المقادير ويدير مجريات الحوادث، ويقود الفلك الأعظم ويسوق المجرات فى مداراتها والشموس فى مطالعها ومغاربها فكل ما يجرى عليها من امور مما لا طاقه له به هى فى النهايه خير .

فإذا مرض ولم يفلح الطب فى علاجه قال فى نفسه، هو خير، وإذا احترقت زراعته من الجفاف فهو حدث وسوف يعوضه الله خيرا منها وإذا فشل فى حبه قال: الحمد لله . وإذا أفلست تجارته قال: الحمد لعل الله قد علم أن الغنى سوف يفسدنى .

كل الأمراض النفسيه التى يتكلم عنها أطباء النفوس لها عنده أسماء أخرى : الكبت اسمه تعفف ، والحرمان رياضة والاحساس بالذنب تقوى والخوف من الله وحده عاصم من الزلل، والمعاناة طريق الحكمة، والحزن معرفة والأرق مدد من الله لمزيد من الذكر، والندم رجوع إلى الحق والآلام بأنواعها الجسدى والنفسى هى المعونة الإلهية التى يستعين بها على غواية الدنيا واليأس والحقد والحسد أمراض نفسية لا يعرفها ولاتخطر له على بال، والغل والثأر والانتقام مشاعر يتخطاها بالعفو والصفح والمغفرة .

وعلم نفس فرويد وأرلر وغيرهما من علماء الغرب يقف عاجزا امام أبواب هذه النفس لمؤمنة، ولا حاجة لهذه النفس الكاملة إلى ترهات فرويد وعقده وكوابيسه لأنها تخطت الفلك الفرويدى وتخطت النفس الحيوانية التى يتحدث عنها فرويد وارتفعت بإيمانها إلى فلك آخر (نورانى) لا يعرفه علم النفس الغربى .

والأصنام المعبودة مثل المال والجنس والجاه والسلطان تحطمت ولم تعد قادرة على تفتيت المشاعر وتبديد الانتباه فاجتمعت النفس على ذاتها وتوحدت همتها .

والإحساس بالمعية مع الله تبارك وتعالى لا تفارقها، فهى فى أمن دائم رغم هذا القتال المستمر لأشباح الهزيمة ولقوى العدمية فى داخلها) أ . هـ

الفصل الرابع

أولا : الفرق الضالة

إحياء الفكر الباطنى والوثنى والفلسفة المادية والتصوف الفلسفى والغنوص المسيحى وشعر الزنادقة وكتابات الحلاج وابن عربى وألف ليله ورسائل إخون الصفا والأغانى: هذا الفكر الباطنى يتقدم إلى دائرة أوسع من الشعر إلى الحداثة ومن العرفان إلى البرهان

الفكر الباطنى:

يعد مخطط العمل لإحياء الفرق الضالة والدعوات الهدامة من أكبر ميادين العمل للتغريب والغزو الثقافى فى العصر الحديث، وهو جزء من محاوله النفوذ الأجنبى الذى يرمى إلى تزييف منهج الإسلام الصحيح وإخراجه عن مقوماته الأصيلة فى محاولة لفرض تصور منحرف وزائف لا يستطيع المسلمون معه تحقيق إقامه المجتمع الإسلامى على أساس منهج أهل السنة والجماعة وهذه هى الحرب المعلنة منذ اليوم الأول على عقيدة الإسلام ونظامه السياسى والاجتماعى والاقتصادى .

لقد كان احياء الفرق الضاله وإعادة بعثها من جديد أول هذه الاخطار، فقد عملت قوى الاستشراق والتغريب على إحياء هذه الفرق وإعاده تقديمها من جديد من خلال عدة أعمال :

(١) إعادة طبع بعض الكتب القديمة التى تحمل هذه السموم كطبع كتب الحلاج وابن عربى وإعاده طبع كتاب الفتوحات المكية.

(٢) إعداد أطروحات ودراسات جامعيه تناقش الفرق الضالة كالقرامطه والمزدكيه والمانوية على انها حركات حريه وعدل اجتماعى.

(٣) عقد مؤتمرات لتزييف التاريخ الإسلامى وإحياء هذه الفرق الضاله وإعادتها إلى الحياة.

ففى عام ١٩٤٢ عقد مؤتمر للتاريخ أطلق عليه مؤتمر بلتيمور، جمع له حشد من المستشرقين اليهود فى محاولة لوضع خطة لتزييف التاريخ الاسلامى وكان المؤتمر محاولة مستأنفة لتجديد خطة الاسرائيليات التى يعرفها كل من قرأ التاريخ الإسلامى القديم وعرف كيف جرت المحاولات لتزييفه وفى ضوء هذا المؤتمر ظهرت مؤلفات كثيره عملت على إحياء الفرق الضالة.

(٤) حرص النفوذ الأجنبى على احتضان النحل المتوزعة فى البلاد العربية (كالنصيرية والدروز).

(٥) احتضن النفوذ الأجنبى فرقتين جديدتين : هما البهائية فى فارس والقاديانية فى الهند وقد حملت كل منهما سموم الفرق القديمة وشبهاتها وكانتا تهدفان إلى تدمير مفهوم الإسلام الأصيل.

(٦) إحياء الفكر الباطنى والشعوبى والفلسفى عن طريقين: (١) عن طريق نظرية الحداثه فى مجال الأدب، (٢)وعن طريق الفلسفه، بتقسيم الفكر الإسلامى إلى ثلاث قوى هى: العرفان (الفكر الباطنى)، والبرهان (الفكر الفلسفى)، والبيان وهو الذى يوجد أساسه فى الدين، وقد عّد فى مؤخرة الركب وأعلى من شأن العرفان والبرهان، لأنهما يمثلان الفكر الفلسفى الغنوصى والفكر الفلسفى اليونانى.

❑ ❑ ❑

لقد كان من أكبر أهداف التغريب والغزو الثقافى عن طريق مو سستيه (التبشير والاستشراق) إحياء الدعوات الهدامة القديمة (الباطنية ـ الرافضة) ،والفرق الحديثة: البهائيه والقاديانية (الأحمدية) والهومنزم (دعوى الماسونية) والعلمانية والقومية والإباحية

وكانت محاولة احياء الماضى الفرعونى والإغريقى والجاهلى والغربى وتمجيده وبعث الأساطير وإعادة صياغة الوثنيات والفلسفات السيريانية والمجوسية والباطنية وإحياء عشتروت وزيوس وباخوس بهدف :

(أولا) : هدم التصورات الإسلامية وإخراجها عن مفاهيمها الاصيلة

(ثانيا) : التشكيك فى هذه المقولات الإسلامية ومحاولة إخضاعها للمفهوم الماسونى الوثنى القديم والحديث الذى يختلف عن مفهم التوحيد الإسلامى

(ثالثا) : التزييف والتلفيق المتعمد لهذه البطولات والمواقف وإخضاعها إلى مقاييس ومفاهيم العلوم الاجتماعية.

وقذ كان من الضرورى العمل على كشف المخططات الوافده التى تعمل للقضاء على الشخصيه الإسلامية لنشر الإلحاد والانحلال الخلقى.

ومن ذلك دعوة تحديد النسل والاختلاط بين الجنسين ودعوة العامية واستبدال الحروف العربية بالحروف اللاتنية.

وأغلب هذه الفرق تقول بالحلول وتؤول القرآن وكانوا خير عون للمستعمرين وقد استغلوا فى القديم والحديث ضد الجماعة الإسلامية، يكيدون لهم ويفتكون بهم وقد استغل الاستعمار هذه الفرق وأمدها بالقوة حتى رفعت الباطنية رأسها ورأس أحد قادتها (أغاخان) على جميع مسلمى الهند وتكلم باسمهم وترى روح الاستعمار واضحة فى البهائية والبابية والقاديانية (٢) كذلك عمد التغريب والغزو

الثقافى ى إحياء الشعوبية القديمة (ويطلق لفظ الشعوبية) على كل من ناهضوا العرب ى القديم والحديث فى الشرق والغرب، وكانوا ينقضون قدر حضارتهم وتاريخهم لأغراض فى نفوسهم بمضمون أن الغض من شأن العرب هو انتقاص للإسلام نفسه، قال الإمام الجوزى: الباطنية قوم تستروا بالإسلام ومالوا إلى الرفض، وعقائدهم وأعمالهم تباين الإسلام بالمرة، فمحصول قولهم تعطيل الصانع وإبطال النبوة والعبادات وإنكارهم البعث، ولكنهم لا يظهرون هذا فى اول أمرهم بل يزعمون أن الله حق وأن محمداً رسول الله وأن الدين صحيح ولكنهم يقولون ذلك سر غير ظاهر وقد تلاعب بهم إبليس فبالغ وحسن لهم مذاهب مختلفة ولهم ثمانية اسماء

[الباطنية ـ الاسماعيلية ـ السبعية ـ البابكية ـ المحرة ـ القرامطة ـ الخرمة ـ التعليمية)

وقد خرج من الحركه الباطنية التى قادها (حسن الصباح) منذ تسعه قرون فئتان من الحشاشين : هما الدروز والنصيرية، حيث سكن الدروز جبل العرب، وسكن النصيريون الجبال التى سميت باسمهم وهى المتاخمة للبحر الأبيض المتوسط ومنها القرامطة التى بحثها عدد كبير من المؤرخين، وكان الطبرى (٣١١ هـ) أول من بحث الحركة الباطنية فى الإسلام ثم جاء عريب بن سعد القرطبى فوضع ذيلا للطبرى عن قرامطة البحرين، وربط بين الحركتين الاسماعيلية والقرمطية المنسوبة إلى عبد الله بن الأشعث .

وانتشرت الدعوة فى اليمن والمغرب وفارس وخراسان وبين النهرين.

وكشف المؤرخون عن قيام الدولة الفاطمية فى بلاد المغرب ٢٩٦ هـ وصلة القرامطه بالفاطميين كما كشفوا العلاقة بين القرامطة والزنج.

❑ ❑ ❑

ويتحدث المستشرقون عن الفرق السياسية فى الإسلام وعن المنطق والكلام والتصوف الفلسفى والباطنية والقرامطة والزنج وإخوان الصفا، ولا يتحدثون مطلقا عن الباحة الواسعة الحافله بالفكرة الأصيلة: باحة أهل السنة والجماعة لأن هذه الفرق جميعا تعتمد الفلسفه اليونانية والغنوص المسيحى وتتسم هذه الفرق بخاصية (التأويل الباطنى) والقول بأن القرآن له ظاهر وباطن، ووحده الوجود والحلول والاتحاد والعقول السبعة.

ومن هنا نعرف لماذا أحب الاستشراق: الفارابى وابن سينا لأنهم يجددون الفكر اليونانى ويطرحون فى أفق الفكر الإسلامى سموم الإلحاد تحت نفس العناوين التى خضعت لها النصرانية واليهودية.

ولقد طرح الكتاب التغريبيون هذه المفاهيم فى الفكر الإسلامى بمجرد عودتهم من الغرب، فيكتب طه حسين عن الفكر اليونانى والإغريق وفضلهم على الفكر الإسلامى وأعلن أن قاده الفكر البشرى من اليونان. كما فتح الدكتور زكى مبارك بابا واسعا أمام فكرة وحدة الوجود، وكذلك عنى كل الذين كتبوا بالفارابى وابن سينا والفكر الإغريقى وقد كشفت الأبحاث فى السنوات الأخيرة عن تبعية الفارابى وابن سينا إلى الباطنية وإلى القرامطة وخدمتهما لأهدافها، وأن هناك من تابع ذلك بقوة من أمثال : ابن عربى والحلاج والسهروردى وابن سبعين، وكل هذا اهتم به كتاب التغريب وأفاضوا فيه وكتبوا عنه مسرحيات وشعراً فى العصر الحديث، كما فعل السياب والبياتى وصلاح عبد الصبور، ومن كتابات الفارابى وابن سينا تروج هذه النظريات فى الاتحاد والحلول ووحدة الوجود، حتى يرون ان الله تبارك وتعالى جل شأنه ـ هو هذا العالم المادى وهم يرفضون مفهوم الإسلام فى الثنائية التى تفصل بين الله تبارك وتعالى وبين العالم، ومن هنا جرت فلسفات الاتحاد والحلول وتناسخ الأرواح.

❑ ❑ ❑

نحن الآن فى موقف مفارق واضح وعميق يرمى إلى إدخال مفاهيم الفلسفة اليونانية ،إحياء خطوات المشائين المسلمين من ناحيه وإحياء مفاهيم التصوف الفلسفى وإحياء خطوات الباطنية إلى وحدة الوجود والحلول.

وقد تبين بعد دراسة طويلة للفكر الاستشراقى ودوائر المعارف الغربية أن الهدف الأساسى هو تقديم تفسير كنسى ومسيحى وباطنى للمفاهيم التى تشترك فيها الاديان والعقائد، وخاصة ما يتعلق منها بالألوهية والغيب والوحى، فقد حرص الاستشراق المسيحى على إحياء الفكر الباطنى القديم الذى اختلط باليهوديه والمسيحية والذى انشأ الفكر الماسونى، وذلك من أجل (احتواء) الإسلام وتفريغه من عناصر التميز الخاصة به، وتدمير أقوى مقوماته وهو أنه دين ودولة .

وكذلك العمل على حجب الرابطة بين رسالة إبراهيم الحنيفية وبين رسالة الاسلام من تحول المسيحية واليهودية إلى دينين قوميين واختلافهما مع الترابط الزمنى والتواصل العقائدى بين الأديان كلها فى طريق واحد للوصول إلى الرسالة الخاتمة، وذلك فى تعتيم واضح ومغالطة مكشوفة حتى لا تظهر الفجوة التى أحدثها التحول الخطير والانحراف عن التتابع الأصيل للأديان باعتبار أن المسيحية آخر رسالات الله إلى بنى إسرائيل (وأنها ليست دينا مستقلا) وأنها هى التى حمل رسولها البشرى بانتقال الدعوة الربانية إلى محمد ﷺ وفرع إسماعيل بعد أن عجز فرع إسحاق عن القيام بالأمانة، وكذلك موقفهم من تصوير الاسلام لأهله على أنه دين لاهوتى قاصر على العلاقة بين الله (تبارك وتعالى) والإنسان، وهذا ما تكشف عند دوائر المعارف الأجنبية المكتوبة بأيدى النصارى واليهود من المستشرقين رغبة فى إزالة التميز الإسلامى الخاص، الذى يعطى الإسلام طابعه الفريد الذى جذب إليه كبار المفكرين من مختلف الجنسيات .

□ □ □

إن الدعوة الإسلامية اليوم يجب أن تقدم منهجا للفكر الإسلامى يقوم على تحرير العقيدة وإقامه مفهوم التوحيد الخالص بعيدا عن الخلط مع (١) علم الكلام والاعتزال (٢) الفلسفة، والتصوف الفلسفى ويلتمس هذا المفهوم من القرآن الكريم والسنة على النحو الذى عرفه المسلمون قبل ظهور الخلاف، وهى بذلك تعمل على التحرر من كل مفاهيم الفرق والنحل والدعوات التى تأثرت بالفلسفة اليونانية من ناحية وبالفكر الغنوصى الفارسى من ناحية أخرى إيمانا بأن القرآن الكريم والسنة المطهرة قادران على تقديم تصور كامل جامع مستمد منها دون حاجه الى منطق اليونان او مذهب الاعتزال أو التصوف الفلسفى.

ومن هنا فهى تضع هذا الفكر المنشور الآن فى معاهد التعليم الدينى موضع النافلة التى قد يدرسها الباحثون للإلمام بأدوار تاريخية مضت وانتهت، اذ لاحاجه للمسلمين اليوم بالعودة إلى دراسة هذه الصراعات والاختلافات المذهبية والعقائدية التى كانت مرتبطة بالسياسة وظروف الحكم فى فترات مختلفة والتى يجب أن تنتهى بانتهائها.

ولقد كان واضحا تماما أمام الدعوة الإسلامية أن هذه المذاهب والنحل من قرامطة ومزدكية ومانوية لا يمكن أن تدرس فى صلب العقيدة الاسلامية ولكنها تدرس فى إجمال بالغ فى مجال الدعوات الهدامة، ولقد جرت المحاولات على تقديم العقيده الإسلامية على هذا النحو المضطرب من أجل الحيلولة دون وصول المسلمين إلى جوهر التوحيد الخالص والثقة بأن المنهج الذى قدمه الإسلام هو وحده الذى استوعب مفهوم العقيدة الصحيحة المحررة من كل عوامل الاضطراب.

ولقد كان الإسلام فى مختلف العصور قادرا على إلا يعلى من شأن أحد العنصرين: العقل أو الوجدان وكيف عجزت المحاولتان اللتان حاولتهما المعتزلة والصوفية من الانفراد بالتصور الإسلامى عن وصول غايتهما أو تحق الحق بأن

الإسلام جامع بين العقل والقلب والروح والمادة والثوابت والمتغيرات والدنيا والآخرة ومن هنا فإن محاولة بعض الباحثين المسلمين التوسع فى عرض هذه النحل والدعوات وتفصيلها هو من الأعمال الخطيرة التى تحول دون الوصول إلى المنابع الأصيله للإسلام وأنه متابعة للخطه المسمومة التى قام بها الاستشراق من أجل تصور الإسلام على أنه (عقلانية إسلامية) أو (إشراقية غنوصية) وهذه الخطة التى جرى عليها بعض الكتاب الإسلاميين بحسن ظن منهم أنها عمل أساسى بينما هى فى الحقيقة محاولة خطيرة تصيب المفهوم الأصيل فى النفوس بالضباب والشك، وكذلك تقف الدعوة الاسلامية موقفا مجردا من تاريخ الاسلام فتنظر إليه فى ضوء مقررات الإسلام وتفرق بينه وبين منهج الإسلام نفسه بوصفه « التجربة البشرية » التى تقوم على الخطأ والصواب والتى تتمثل فى مجموعها فى العمل الكبير الذى قدمه المسلمون إيمانا بالله تبارك وتعالى وبذلا للنفس والمال فى سبيل قيام هذا المجتمع الممتد من حدود الصين إلى حدود نهر اللوار فى أقل من ثمانين عاما.

ولذلك كانت محاوله تصور هذا التاريخ على انه لم يكن إلاصراعا بين الأمراء والحكام أو مؤامرات وخلافات هى محاولة باطلة وحصيلة قام بها الاستشراق والغزو الفكرى من أجل الحيلولة دون تمكين التاريخ الاسلامى من إعطاء الثقة الحقيقية بعظمة الإسلام نفسه.

وفى هذا المجال يجرى بعض الكتاب الاعلاء من شأن العنصر العربى واتهام العناصر التركية والفارسية بأنها كانت مصدر تراجع الحضارة الإسلامية أو إيجاد صراع بين العرب والترك والفرس بإحياء خلافات قديمة قد انتهى أمرها ولم تعد هناك مدعاة لإحيائها من جديد.

ثانيا: سقوط البرهان

(الاعتزال)

حاول الفكر الباطنى الوثنى القديم أن يجدد نفسه عن طريق أطروحة تقسم الفكر الإسلامى إلى ثلاثة: البيان والعرفان والبرهان، مع إعلاء العرفان والبرهان والتقليل من شأن (البيان)، ووصفه بأنه مقولات الدين ومقولة العوام، مع أن (البيان) فى تقدير الباحثين الاصلاء هو لباب الإسلام القائم على القران الكريم والسنة المطهرة ومانشأ منهما وتفرع من علوم . أى أنه هو حجر الأساس فى الإسلام ، أما ما دخل على الإسلام من علم الكلام والاعتزال ومعطيات الفلسفة اليونانية (وهو ما سمى البرهان) أو ما دخل على الإسلام من التصوف الفلسفى وهو ما يسمى (العرفان) فقد سقط كلاهما.

وفى الحق أن الإسلام (بوصفة المنهج الربانى الأصيل) لا يقر التصور الفلسفى الوافد من الفكر اليونانى والفارسى والهندى جملة، فهو تصور أريد به وضع صورة للألوهية والكون وعلاقة الناس بربهم وبأحداث الحياه المطر والرعد والبرق وجعل لكل أمر من هذه الأمور (إلها).

ولقد كان هذا الفكر قد تجاوزه علماء المسلمين عند ترجمته، وكشفوا عن فساده واضطرابه وعجزه عن العطاء وتعارضه مع مفهوم التوحيد الخالص، ولكن قوى النفوذ الأجنبى تحاول اليوم إحياء هذا الفكر تحت اسم (الحداثة) أو(العرفان والبرهان) أو الذين يقدمونه من جديد تحت أسماء البهائية والقاديانية: لخدمة الهدف الكبير الذى كان الاستعمار والنفوذ الأجنبى والصهيونية أخيرا يعملون على إحيائه فى الدعوة إلى إلغاء فريضة الجهاد أو تفسيرها تفسيرا باطلا أو إغراق الشباب

المسلم بالترف والتحلل عن طريق وسائل الترفيه وغيرها، فى محاولة للقضاء على القوة المعنوية المتمثلة فى إيمان الشباب المسلم بالجهاد فى سبيل الله وبذل النفوس رخيصة فى اعلاء كلمه الله تبارك وتعالى، وتحرير الأوطان والردع والمرابطة فى الثغور وقد بدأت حركة الفكر الباطنى منذ وقت باكر وامتدت حتى اليوم، وكان عبد الله ابن سبأ اليهودى قد أدخل اليهوديات والإسرائيليات إلى الإسلام وبث سمومها فيه وفى رجاله.

وقد انتقلت هذه الأفكار حتى استقرت فى الإطار المعتزلى الذى كان شيخ المعتزلة أبو الهذيل العلاف يدرسه، ومنه انطلقت فكرة خلق القرآن وهى فكرة يهودية أصلا ونسبا، ويروى ابن الأثير فى تاريخه أن أول من نشر فكرة خلق القرآن هو لبيدبن الأعصم الذى كان يقول بخلق التوراة ثم أخذها أتباع عبد الله بن سبأ وحين أعلن المأمون عن فكرة خلق القرآن وتحزب لها وربط بينها وبين القول بالتوحيد حتى قال: لا توحيد لمن لم يقل أن القرآن مخلوق (رسالة عصر المأمون جـ٢ لفريد رفاعى) وخلاصة هذه السطور أن المؤامرة على نقض الوحى الإلهى إلى خاتم المرسلين والأنبياء محمد ﷺ بدأت أول مابدأت على ايدى اليهود وأن هؤلاء اليهود لم يجدوا من وسيلة يحاولون بها هدم الملة الاسلامية سوى ما توحيه إليهم شياطين عقولهم المتهافته من أفكار واهية ومزاعم باطلة.

على أن علاقه اليهود بالعقل الإغريقى ليست مجهولة كما قد يعتقد، وقد أرادوا أن يكرروا ويعيدوا للاعتقاد الإسلامى ـ وهو فى أوجه وذروته اعتماداً على القرآن والسنة ـ نفس ما فعلت اليهودية حين اصطدمت تعاليمها التوراتية المزيفة مع العقل الإغريقى الذى بدا للأحبار اليهود أكثر حكمة ورزانة وتوافقا .

ولكى تدعم اليهودية حكمتها التوراتية حاولت (خاصة على يد ارسنو بولوس) التوفيق بين ما لليهود وللإغريق وحسب ما يذكر الدكتور محمد البهى فى كتابه

«الجانب الالهى فى التفكير الإسلامى» فإن الطابع اليهودى غلب عليه إما التزييف فى النسبة إلى الإغريق فقد أورد الفلاسفة كما أورد آراء الشعراء اليونانيين من التوراة وهكذا بناء على نمطه فى التوفيق يجب أن يكون فيثاغورس وسقراط وأفلاطون قد أخدوا جميعا من التعاليم الموسوية ثم يضيف قائلا: وربما كان استوبولوس هو أول من وفق بين دين سماوى وبين الفلسفة الإغريقية، وربما كان أيضا، أول من زيف فى نسبة الكتب الفلسفية، وربما كان أخيرا أول من رد التعاليم الفلسفية إلى مصدر دينى سماوى، فالمؤامرة إذن كانت مؤامرة (يهودية ـ هلينية) مزدوجة أو مشتركه وربما كان المأمون واعيا بها وبخلفياتها وأبعادها، وربما لم يحط بها علما فاليد اليهودية الخفية كانت تعمل فى مجال التآمر المكشوف أو المستور على الوحى الإسلامى بالذات، لكى تنتهى هذه اليد الآثمة إلى بسط الهيمنة على المسلمين بنقض اعتقادهم وتزييفه وتشويهه وبهدم أركانه الأساسية ودعائمه الأولى هدما لا يستثنى العمل فيه بمعول من المعاول ، وفى مقدمتها معول (العقل) الذى هو طبيعة فى الإنسان وركيزة فى الوجدان وهو دليل الأدلة إلى الحقيقة ومرشد النفس إلى النهج وهاديها على السبيل السوى، وحاديها على الصراط المستقيم (احمد تسوكى) .

كانت هذه الفلسفات المسمومة قد تشكلت فى ضوء ترجمة الفلسفة اليونانية وفلسفات الفرس واليهود، وكانت فارس من قبل مركز المجوسية المزدكية والبابكية والراوندية والمانوية، وهى دعوات تدعو إلى إباحة الملكية العامة فى النساء والأموال وتعتقد بالحلول والتناسخ وتجيز الإباحة فى النساء والإقبال على المتعة واللذة.

ولما تعمق المعتزلة فى دروس الفلسفة تطرفوا فى عقائدهم وأقوالهم وأدخلوا إلى الإسلام مسائل رآها المسلمون بعيدة عن روحه متنافرة مع عقيدته فثارت الريبة فى سلامة عقيدة المعتزلة وصحة إيمانهم ورأى الناس منهم سوء القصد والسعى إلى هدم أركان الدين، يقول زهدى جار الله (مؤرخ المعتزلة) .

كان المعتزلة قصيرى النظر حين آثاروا بقلة تبصرهم وسوء تصرفهم عامة الشعب وألبوا عليهم جمهور الأمة واستنفروا رجال الحديث بالنيل منهم ورميهم بالكذب والتزوير وثانيا بقطع أرزاقهم ومنعهم من أعطيات التدريس، بل هاجموا الحديث نفسه ولم يعتبروا أكثره ، وخاف العلماء أن يأتى وقت يندثر فيه الحديث ولا يبقى لرواته لزوم أو قيمة فأصبحوا ألد أعداء المعتزلة.

آمن المعتزلة بأنهم وحدهم على صواب وأن غيرهم على خطأ وراحوا يزدرون من يخالفهم فى الرأى من أهل السنة ويدعونهم الحشوية ثم تمادوا فرفضوا شهاداتهم وحكموا عليهم بالكفر وبعضهم أجاز قتل المخالفين غيلة وأباح أموالهم غصبا.

وكان أكبر خطئهم أنهم هدموا أعظم ركن من أركان مذهبهم وهو حرية الفرد فى اختيار افعاله، لقد احترموا العقل البشرى فإذا هم يفرضون مذهبهم على الناس فرضا.

كان المعتزلة ينقسمون على أنفسهم فتشعبت آراؤهم فافترقوا عقائديا إلى ٢٢ «فرقه ثم تقسموا جغرافيا إلى مدرستين : البصرة وبغداد، واشتد الصراع بينهما حتى أن أحد المؤرخين يعدهم بأنهم لا يجتمع اثنان من رءوسهم على أمر واحد فى الدين وجاءت الضربة القاضية لهم بانشقاق الإمام أبو الحسن الأشعرى الذى تربى على يد شيخ المعتزلة الجبائى. فقد انتصر الأشعرى على أستاذه الجبائى فى مناظرة شهيرة دارت حول نظرية وجوب الأصلح لله تبارك وتعالى، وكان ذلك إعلاناً بإفلاس المعتزلة .

فالأشعرى يمثل نقطة التحول فى تاريخ الفكر الإسلامى حين يراوح بين العقل والنقل وقد أدرك أن الهوة بين أهل السنة فى اتساع وازدياد ووجد حركة الحنابلة تستعيد قوتها وأدرك أن الاعتزال صار إلى زوال، فأزعجته هذه الحقيقه المروعة ولذلك تقدم إلى العمل فتنكر للمعتزلة وأعلن انفصاله عنهم ورجوعه إلى حظيرة السنة حيث

اتخذ طريقا وسطا بينها وبين مذهب المعتزلة وصادف هذا العمل قبولا لدى العامة ماعدا الحنابلة، وكان يستهدف وحدة الأمة وحقن دمائها وكانت حملة المعتزلة قد اشتدت على الفقهاء والمحدثين، حتى لم يسلم من حملتهم فقيه معروف أو محدث مشهور، فكرههم الناس ونسوا خيرهم وفضلهم ودفاعهم عن الإسلام وتصديهم للزنادقة، ولم يذكروا إلا إغراءهم بامتحان العلماء واعتداءهم على الإمام أحمد بن حنبل فلما جاء الخليفة المتوكل أخذ فى نصرة السنة وتنكر للمعتزلة فدخلوا دور الضعف والاضمحلال وفى عام ٢٣٧هـ ضرب المتوكل ضربته الكبرى حين أعلن سخطه على المعتزلة وهذه عاقبة الإسراف فى البطش واحتقار عقيدة الأمة واستخدام العلم فى مجال الفكر .

ظهر الأشعرى فى العراق فى مطلع القرن الرابع الهجرى ، فعلماء السنة الأقدمون كانوا يتشبثون بالنقل ولا يقيمون وزنا للعقل فى أمور الدين، أما المعتزلة فقد ذهبوا بعيدا فى تقدير العقل والاعتماد عليه حتى اهملوا النص وتحاملوا على أهل الحديث، فعمل على التقريب بين وجهتى النظر فالأشاعرة هم أهل النقل والعقل معا عملوا على التقريب بين المذاهب المتعارضة والتخفيف من غلوائها والتهذيب من طرفيها حتى تلتقى فى تيار واحد معتدل يحافظ على عقيدة الأمة، وقد جمع الأشعرى بتعبير الغزالى بين الشرع المنقول والحق المعقول، وهكذا سقط فكر البرهان الذى هو الاعتزال

إن المحاولة التى تجرى اليوم لإعلاء ما يسمى البرهان (أحد شطرى الفكر الباطنى) هى محاولة المدرسة الفلسفية المادية الحديثة إلى إحياء الاعتزال بصورة جديدة اسمها (العقلانيه) .

وتهدف هذه الدعوه المدعاة إلى:

أولا : المغالاة فى تحكيم العقل البشرى وتقديمه على الدين (الوحى) وإعطاء

العقل وأحكامه اعتبارا فوق الاعتبار بنصوص الوحى الثابتة عن الله تبارك وتعالى.

ثانيا : الذهاب إلى تفسير الإسلام - فى عقيدته وأصوله - تفسيرا عقلانيا ماديا دون اعتبار لدلالات اللغة وأصول الدين ومفاهيم النصوص وعمل المسلمين وإجماعهم.

ثالثا : الذهاب إلى تفسير الوحى والدين والنبوءات والغيب والمعجزات والقدر على مقتضى المفاهيم العقلية البشرية المحدودة والكشوفات العلمية المحدودة والنظريات الغربية المادية.

ومن خلال دعوة بعض العلمانيين بما يسمى تجديد الأفكار والمفاهيم الإسلامية بما يساير العصر (عصر التنوير والمدنية والتقدم العلمى)وبدعوى ما يتفق مع مقررات العقل البشرى ولكى ينجح هذا الاتجاه كان لابد من البحث فى تراث الإسلام نفسه، وقد وجد ذلك فى الفرق العقلانية المنحرفة القديمة التى كانت تعلن (تحكيم العقل فى الدين) وأهمها المعتزلة وإخوان الصفا وبعض الفلاسفة.

ومن تلك الاتجاهات (فصل الدين عن الحياة وعن الدولة) وعن العلم تقود ذلك مجموعات من القوميين والحزبيين والاشتراكيين والرأسماليين وسائر المنحرفين.

إن دعوتهم هى محاوله إعطاء العقل وأحكامه حق النظر فى العقيدة وأصول الدين كليا وجزئيا.

وهم يعملون على : **«أولا»** على إكبار العقل وتقديمه على النص فيما لا مجال للرأى فيه وإخضاع الثانى للأول وما يتبع ذلك من تأويل النصوص وتحريفها .

«ثانيا» المبالغة فى رفع شعار الحرية الفكرية وإن كان على حساب العقيدة الإلهية.

ولما كان أصحاب الفرق القديمه قد تتلمذوا على اليهود والنصارى واليونان والمجوس والوثنيين، كذلك فإن العقلانيين المحدثين تتلمذوا على المستشرقين الغربيين

ورثة الفكر (اليهودى والنصرانى والوثنى واليونانى) وتدعو هذه الطائفة المحدثة إلى تفسير القرآن تفسيرا عقلانيا حديثا دون اعتبار تأويل السلف والصحابة ودون التقيد بالمصطلحات الشرعية والقواعد الأصولية ودلالات اللغة للقرآن والسنة والنزوع إلى الرمرز والمجازات والتعبيرات الفلسفية والصوفة مما درج عليه فعلا أصحاب النصوص الفلسفية والباطنية.

ومن هذا تمجيد كتاب العلمانية والماركسية المحدثين للفرق المنحرفة القديمة كالقرامطة والحلولية وإخوان الصفا، أما الفرق التى رفعت لواء القداسة للعقلية بجدارة واستوعبت كثيراً من اثار الفلاسفة وأهل الكلام وأعداء الرسل والوحى » وكانت أخطر مقولات المعتزلة والتى جددها الشيخ محمد عبده :

اذا تعارض العقل والنقل وجب التأويل لما يقتضيه العقل ، فأولوا نصوص القرآن تبعا لم يقتضيه العقل والمنطق (وقد رد هذا الدعاء عن الشيخ محمد عبده بعض المدافعين ولكن لم نجد تحت أيدينا نص معارض لماذكر عنه).

وقد ادعى دعاة الاعتزال فى العصر الحديث أنه لو كان الاعتزال قد انتشر فى البلاد الإسلامية لما حصل الارتجاع والانتكاس والجمود كما اعتبروا هزيمة الفرق المنحرفة فى القديم والجديد وأنتصار أهل السنة نكسة تاريخية وضرراً بالاسلام وعاملا من عوامل التخلف والجمود، ومن المسلمين الذين مجدوا الاعتزال : أحمد أمين ، محجوب بين ميلاد ، فاروق الدملوجى ، محمد عمارة أما أحمد زكى أبو شادى فى كتابه (ثورة الإسلام) فهو يعتز بإخوان الصفا كما يعتز بهم الدكتور محمد غلاب وزهدى حسن جار الله.

وقد كان لاخوان الصفا دور خطير، فقد قالوا إن الشريعة الإسلامية دنست بالجهالات واختلطت بالضلالات ولا سبيل الى غسلها وتطهيرها الا بالفلسفة.

لقد حاول بعض المفكرين التماس مفهوم المعتزله فى أول العصر الحديث بعد أن

درس ذلك لتلاميذ الشيخ جمال الدين وتأثر به محمد عبده والعقاد وإقبال وقد مضوا شوطا ولكن ذلك لم يحقق الوصول إلى الفهم الأصيل، وكان هذا الاتجاه مرحلة على طريق الأصالة والعودة إلى المنابع وقد تبين أن المفهوم القرآنى هو وحده القادر على العطاء ولابد من التماسه وهو مادعا إليه الإمام حسن البنا، وكشف عن عجز الأساليب الأخرى فى تحقيق الهدف رجوعا إلى مفاهيم السلف الصالح والتماسا للأصالة، حيث قال الإمام الغزالى ان الاعتزال كالدواء يعطى للمريض أما القرآن فإنه كالطعام يحتاج إليه كل إنسان.

وقد دعا الإمام الغزالى فى بحثه (إلجام العوام فى علم الكلام) يطالب أهل الرأى من العلماء والمفكرين وولاة الأمور بإبعاد ذوى المعارف المحدودة الساذجة عن الخوض فى علوم العقائد خوفا على سلامة فطرتهم من دوامات القلق والحيرة ومزالق الشطط والضلال أما خواص الدارسين فقد دعاهم الى عدم الخوض فيها حماية لعقيدة التوحيد ورعاية وحراسة مبادئها أمام تيارات الجاحدين ومناظرات المضللين من غير المسلمين».

ومن هنا فإن الدعوة إلى جعل الفلسفه عامة للجميع كما يدعو اليه المبطلون فى عصرنا هذا: هذه الدعوة مدمرة خطيرة لأنها فى أقل ما تتركه : تترك الريبة والشك فى النفوس النقية البسيطة، لقد كانت ترجمة الفلسفة اليونانية بمثابة رياح سوداء شديدة الظلمة مرت بالأمة الإسلامية فكانت مصدر كل الهزائم التى وقعت لها من بعد، وكانت شديدة التأثير على كل صاحب فكر وقلم، فكل التعقيدات التى نراها فى المعرى وأبى تمام والمتنبى وغيرهم إنما ترجع إلى أثر الفلسفة اليونانية.

ولم يكن (الاعتزال) كما يدعى المستشرقون مصدر قوة بل كان مصدر ضعف، فقد ترك المسلمون مفهومهم الجامع بين العقل والروح وأعلوا شأن العقل والكلام فى المنطق والفلسفة فى حياتهم فأصابهم نتيجة ذلك شر كثير.

ثالثا: سقوط العرفان
(التصوف الفلسفى)

كذلك فقد سقط هذا الاتجاه المنحرف الذى أطلق عليه فى السنوات الأخيرة عبارة (العرفان) وبسقوط هذا الاتجاه يكون قد سقط الفكر الباطنى واعتدل الميزان بالتوازن بين العقل والنقل. (والنقل هو الوحى) لقد جرت فى السنوات الأخيرة دعوات وكتابات وأطروحات فى جامعات المبشرين لإعلاء شأن القرامطة وإخوان الصفا والحلاج وابن عربى، وهذا الجناح المنحرف كله، ووصفه بأنه دعوة إلى التقدم والعصرية وأنه منطلق الحداثة بل لقد اعتبرت هذه الدعوة كل الكتابات الخارجة الإباحية التى عرفها التراث العربى بعد اتصال الأدب العربى بالفكر الفارسى والوثنى والمجوسى، اعتبرت هذه الدعوات كلها مصادر التقدم التى يجب إحياؤها وإعاده نشرها وترويجها من ابن الراوندى إلى أبى نواس وبشار إلخ.

وهكذا استعلت الدعوة إلى إبتعاث الباطنية تحت مسميات جديدة تعيد نشر تراث الإسماعيليه والقرامطة وإخوان الصفا والحشاشين لتنضم إليها فى الحديث البابية والبهائية والقاديانية.

وكلها تسعى لتحقيق هدف موحد هو إقامه دولة باطنية عن طريق التغلغل فى المجتمعات الإسلامية واحتلال المراكز والاماكن الخطيرة والمؤثرة فى الوطن العربى والعالم الإسلامى.

هذه الفرق تسعى الى تجديد وسائلها وتغيير معالمها لتلائم العصر الذى تظهر فيه عن طريق الدراسات المختلفه لنفسية المجتمعات التى تستهدفها ونشر مبادئها فى المناطق النائية عن العواصم، ويسيطر التصوف الفلسفى على هذا الاتجاه (العرفان) كما

يسيطر الاعتزال على الاتجاه الآخر (البرهان) ويعمل على الإشادة بالصوفية الغالية (ابن عربى ، ابن الفارض ، ابن سبعين ، السهروردى ، الحلاج)

وتجرى محاولات لإحياء هذا التراث الباطنى على أوسع نطاق.

فالدكتور محمد أركون المسئول عن الدراسات الإسلامية بالسربون يتعاون والدكتور إبراهيم مدكور ـ مع مجمع اللغة بالقاهرة على إخراج كتاب الفتوحات المكية لابن عربى فى بضعه وثلاثين سفرا لنشر فكر ابن عربى الذى تحتاج إليه أوروبا هذه الأيام.

وقد عرف أركون بكراهيته للإسلام ونشاطه المحموم، ضد العرب والمسلمين. يقول الشيخ محمد الغزالى : إن السعى لإحياء أفكار ابن عربى جزء من تضليل أمتنا وتعتيم الرؤية أمامها إذ إن قلب ابن عربى ـ كما وصف نفسه (دير لرهبان وبيت نيران وكعبة أوثان) إنه تثليث وتوحيد، ونفى وإثبات، لقد اودع السجن فى أيام العصر الايوبى، ولكن أصدقاءه نجحوا فى تهريبه وإعادة إطلاقه وأعان على إطلاقه من يريد أن يبقى مع غيره من زعماء الباطنية يفتنون الجبهة الداخلية وينشرون الخرافات القاتلة لعقائدنا وأخلاقنا، واليوم مع اشتداد وطأه الغزو الثقافى يراد إحياء ابن عربى مع الدور الذى تقوم به فرنسا اليوم فضلا عن أن دوائر المعارف الغربية تنسج الأكاذيب عن تاريخنا وعقائدنا، يقول لاروس: إن محمداً كان كردينالاً لا يطمح فى أن يتولى منصب البابوية فلما عجز عن تحقيق ذلك اختلق دينا جديدا يشبع أطماعه.

❑ ❑ ❑

يرجع ابن تيمية ضلال الصوفية القائلين بالحلول والاتحاد والقائلين بسقوط التكاليف عن بعض الناس إلى أصلين الأول: فهمهم لمعنى الوجود فمن قائل أن الموجود واحد، فالوجود الواجب للخالق ، هو الوجودو الممكن للمخلوق (كما يقول بذلك ابن عربى وابن سبعين وابن الفارض).

ثار ابن تيميه على مناحى الصوفية ومناهجهم وآرائهم وخاصة على ابن عربى

وابن سبعين وابن الفارض ومن لف لفهم، ونعى على ابن عربى بوجه خاص تلك الآراء التى يرى ابن تيمية أنها فلسفة يونانية خالصة، ويقول فى رساله (الفرقان بين الحق و الباطل) وهؤلاء كان من أعظم ضلالهم مشاركتهم للفلاسفة وتلقيهم عنهم فإن ذلك القول من بعد الناس عند الاستدلال مما جاء به الرسول فإن الرسول بعث بالبينات والهدى يبين الأدلة العقلية، ويخبر الناس بالغريب الذى لا يمكنهم معرفته بعقولهم وهؤلاء المتفلسفة يقولون لم يعد الناس علما بخبره ولابدلالته وإنما خطاب خاطبا جهوريا ليصلح به العامة فيعتقدوا فى الرب والميعاد اعتقادنا بنفعهم وإن كان كذبا، وحقيقه كلامهم أن الأنبياء تكذب فيما تخبر به للمصلحة فامتنع أن يطلبوا من خبرهم علما وإذا لم تكن اخبارهم مطابقة للمخبر فكيف يثبتون أدلة عقلية على ثبوت ما أخبروا، ولهذا لا يعتنون بالقرآن ولا بتفسيره ولا بالحديث ولا بكلام السلف وأن تعلموا من ذلك شيئا فلأجل تعلق الجمهور به ليعيشوا بينهم بذكره، ذلك لاعتقادهم بموجبه فى الباطن (عبد العزيز المراغى)

وقد كتب ابن تيمية إلى الشيخ نصر المنجى بمصر رسائل يكشف فيها عن عقيدة ابن عربى وابن الفارض وابن سبعين ويتقدم إليه أن يعدل عن مسايرة هذه العقائد ومسايرة المتخلين عن الأوامر والنواهى ويشرح له التوحيد الحق ويبطل له الحلول والاتحاد وينبهه إلى عواقب انتشار هذه الأقوال وخطرها على الإسلام، ويبين له أن هذه بدع لم يأت بها كتاب ولا سنة (إلى أخره)

يقول السيد أبو الحسن الندوى: كان من أعظم ما فعله ابن تيميه أنه كان يرد مذهب الشيخ محيى الدين بن عربى فى وحدة الوجود بكل صراحة وإعلان، فقد كان له جماعة كبيرة من الأتباع والأنصار فى مصر والشام، كما كانت طائفة كبيرة من العلماء والمشايخ يعتبرونه عارفا كبيراً ومحققا جليلا وإمام مشرب التوحيد والشيخ الأكبر الذى لا يدانيه احد وكان يرى ابن تيمية أن تحقيقات ابن عربى...

والهاماته تعارض تماما تعاليم الأنبياء عليهم الصلاة و السلام وتخالف تعليم التوحيد الذى جاء به كل نبى فى عصره، وقام بتفسيره الأخير وإكماله مثبتا النبى محمدﷺ والذى يستفاد بكل إيضاح من الكتاب والسنة وبلغنا بالتواتر اللفظى والمعنوى وكان الشيخ محيى الدين ابن عربى قد توفى ٦٣٨هـ (قبل ولادة ابن تيمية بثلاث وعشرين سنة) وكانت مؤلفاته متداوله بين الناس وبخاصة الفتوحات المكية وفصوص الحكم اللذين نالا إعجاب الأوساط العلمية أما ابن تيمية فكان قد درس الفلسفة والتصوف والإشراق بتأمل ودقة ومن بين ما قرأ من الكتب كان هذان الكتابان، أيضا إنه يقتطف فى مؤلفاته عبارات من هذين الكتابين ويرد عليهما الأمر الذى يدل على أن دراسته لمثل هذه الكتب كانت مباشره وعميقة، وكان قد توصل بها إلى نتيجه أن التوفيق بين ما جاء فى هذه الكتب من أفكار وآراء وبين تعاليم النبوة مستحيل، إنه يقول وهو يتحدث عن مذهب الشيخ ابن عربى :

يقولون: (ابن عربى وأتباعه) ان الوجود واحد، ويقولون: أن وجود المخلوق هو وجود الخالق ، لا يثبتون مَوْجودَيْنِ خَلَقَ أَحَدُهُما الآخر، بل يقولون: الخالقُ هو المخلوق، والمخلوق هو الخالق، فأما الوجود فلا تتصور أن يكون فيه رب وعبد وخالق ومخلوق وداع ومجيب، وأن الوجود لما فاض مع الأعيان فنظر فيها، حصل التفريق من جهة الأعيان كتفرق النور فى الزجاج لاختلاف ألوانه، وينقلون: أن الذين عبدوا العجل ماعبدوا إلاالله، وأن موسى أنكر على هارون لكون هارون أنكر عليهم عبادة العجل، وأن موسى كان بزَعْمِهِمْ من العارفين الذين يرون الحق في كل شيء، بل يرونه عن كل شيء، وقد رد ابن تيمية هذه الترهات جميعا وكشف عن زيفها.

وقد كشف العلماء المعاصرون عن حقيقة التفسير المنسوب لابن عربى فيقول الدكتور محمد كركب : إن هذا التفسير ليس هو تفسير للقرآن الكريم حسب اصطلاح المفسرين المسلمين فهو تأويل باطنى بعيد عما يحمله اللفظ القرآنى من معانى الهداية الربانية الحقة، فصاحبه يتعمد التحريف والتدليس باستغلاله للمعانى الواسعة للألفاظ يوجهها كيف يشاء فتارة يجعلها على الحقيقة وتارة على المجاز حسب غرضه من التأويل، فيقصر فى شرح آيات وفى تأويلها ويطيل فى أخرى ويضرب صفحا عن عدة آيات فلا يفسرها ولا يؤولها، ويحاول إنكار القرآن كوحى من عند الله بواسطة جبريل عليه السلام، كما يحاول تفصيل الكتب السماوية الاخرى عليه ويفضل بيت المقدس على بيت الله الحرام ويعرض بالرسول وبصحابته وأمته

وقد حدد الباحث أماكن التحريف فيه والتقصير فى التأويل والشرح والأغراض المقصودة وتعمد الدس والتدليس باستغلال المعانى الواسعة للألفاظ مع إبراز ما فيه من المثيرات الخارجة عن الإسلام وتعمده تشكيك عوام المسلمين فى عقيدتهم وشريعتهم

وقد تبين أن التفسير المنسوب إلى ابن عربى ليس لابن عربى، ولا هو تفسير بالمعنى الصحيح وإنما أريد به بث التشكيك فى العقيدة والشريعة وأنه خطر يجب محاربته والوقوف فى وجهه

❑ ❑ ❑

ويرى بعض الباحثين أن الفكر الباطنى لم يندثر، فإن له بقية باقية تحافظ على مضمونها وإن تغيرت الاشكال والأساليب والأسماء(كالبهائية والبابية والقاديانية والباطنية والبهرة والإسماعيلية والدروز والنصيرية) .

وهى مسميات جديدة للحركة الباطنية القديمة وإن ظهرت فى ثوب جديد يروج للفكر الباطنى القديم على انه يمثل (**الفكر الحر والعقلانية والحداثة**).

وبعض هذه المذاهب تظهر بصفة خاصة بين أهل التصوف غير السنى ذلك أن الفكر الباطنى قد تغلغل فى فكر التصوف ابتداء من القرنين الخامس والسادس الهجريين ومن ذلك أن يقدس شيخ الطريقة ويمنح من الصفات التى منحتها الباطنية لأئمتهم.

وآيه خطرهم هو اهتمام المستشرقين والشيوعيين والعلمانيين وأترابهم ـ فى العصر الحاضر ـ واسماؤهم معروفه ومشهورة حيث يعتبرونهم رعاة حركه من حركات التحرر والإصلاح ويصورنها على أنها حركات تقدمية تنشد العدل الاجتماعى والحرية والمساواة ولكن هدفها المضمر هو تقويض دعائم المجتمع الإسلامى وهدم مفهوم التوحيد الخالص ومفهوم أهل السنة والجماعة.

❑ ❑ ❑

وعلى الجمله فإن علوم العرفان التى تسربت مع الموروث الجاهلى :

المانويه، الصابئة (الهرمسية) نسبة إلى الإله اليونانى هرمس ، الأفلاطونية الجديدة، هذه الفلسفات التى تقوم على العرفان والغنوص بتقديم تصور زائف عن طريق التصوف الفلسفى والتفسير الباطنى للقرآن والفلسفات الإشراقية بصورة عامة والفكر الشيعى والإسماعيلى.

وكذلك الاتجاهات العقلانية مثل التنجيم والسحر والطلسمات ، أما علوم البرهان فهى المنطق وعلم الكلام وإعلاء العقل وتقديسه فهو يجمع بين علم المنطق والرياضيات والإلهات ويقوم على الملاحظة التجربيية والاستنتاج العقلى.

وهو منهج للمعرفة استمد اساسه من المنطق الارسطى الذى ظهر استخدامه عند

المعتزلة ووصل إلى أعلى حالات الغلو عندما قالوا عن الله تبارك وتعالى ما يجب ومال يجب ويدخل فى هذا رسائل اخوان الصفا والحلول والاتحاد ووحدة الوجود ومفاهيم المدرسه الهرمسية الافلوطينية.

ولقد ترددت هذه الفاهيم: العرفان والبرهان فى كتابات ابن سينا نقلا عن ارسطو واعادها فى العصر الحديث عابد الجابرى وغيره حيث يقفون من جوهر الإسلام موقف الانتقاص تحت اسم (البيان) وحيث يضعون فيه كل تراث نوابغ الاسلام وعلمائه مالك والشافعى وابن حنبل وأبو حنيفه وابن تيميه والغزالى والخوارزمى وجابر بن حيان، كذلك فقد ذهبت القوى التغريبيه إلى انشاء مذاهب جديدة من الدعوات الهدامه فى مقدمتها البهائية والقاديانية حتى أنت مستشرقا كبيرا هو (براون) يصفها بانها حركات تجديد فى الاسلام.

وتقدم البهائية والقاديانية دعاوى القرامطة واخوان الصفا الى توحيد الاديان واحياء تراث ما قبل الإسلام واحياد التراث الفلسفى الصوفى المنحرف (الحلاج وابن عربى وابن سبعين) والاهتمام بالشعر الاباحى (ابو نواس وبشار) والادعاء بان القرن الثانى الهجرى كان عصر شك ومجون واحياء للشعر المنسوب إلى الخيام واحياء اخوان الصفا والزنج والقرامطه وكتاب الاغانى والف ليلة.

وتقوم دراسات كثيرة فى مجال اطروحات الجامعات بأقلام ماركسية لتكشف عن القرامطة مرة أخرى وتضعها فى يد القارىء.

وقد فرض قرمط على اتباعه نظاما ماليا اجتماعيا اقرب ما يكون الى الشيوعية وقد زحفوا إلى مكه فدخلوها وقتلوا اهلها ونهبوا الحجر الاسود واستمرت حركه القرامطة زهاء قرنين كاملين وامتدت الى سواد الكوفة وباديه الشام،ومنطقه الاحياء فى البحرين.

وقد اعتبرت الباطنية رسائل اخوان الصفا رسائل مقدسه فى مرتبة القرآن الكريم

ويزعم احد دعاتهم العصريين (الدكتور حسين الهمزانى) وهو من الإسماعيلية ان القران الكريم كتاب الله ورسائل اخوان الصفا كتاب الأئمة وتقر الرسائل بوجود علوم سريه توارثها اهل البيت وتدعو الى امام مستور

وتقوم مفاهيم اخوان الصفا على الفلسفه الأفلوطينية وما يسمى الفيض والعقل والفعال الفعل والنفس الكلية.

ومن مفاهيم القرامطة واخوان الصفا تتشكل مفاهيم البهائية والقاديانية، وقد أولى هذه المفاهيم المسمومة مستشرقون تخصصوا فى ذلك واوقفوا انفسهم عليه فى مقدمتهم ما سنيون وجولد سيهر وهنرى كوبان فقد جمعوا هذه المقولات من جديد وقدموا للمسلمين فى العصر الحديث بما يختلط فيه من فلسفات يونانيه وغنوص فارسى واشراق ومجوسية.

ثم اتصل هذا بالنبش عن اهل العشق والمجون والعبث وأصحاب الفتك بالاعراض وتقديمه من جديد على النحو الذى قام به طه حسين فى كتابه حديث الاربعاء واحمد امين فى فجر الاسلام فى محاولة لتصوير المجتمع الإسلامى فى القرون الفاضله مجتمعا ماجنا لاهيا عابثا .

الفصل الخامس

العلمانية ـ القومية ـ الديمقراطية ـ الماركسية

فى سبيل تدمير الوحدة الإسلامية الجامعة، طرح الفكر الغربى ايدلوجيات اربع خطيره:

(العلمانية ـ القومية ـ الديمقراطية ـ الماركسية).

❑❑❑

كان الهدف الاكبر للنفوذ الاستعمارى الغربى هو هدم الوحدة الاسلامية الجامعة، ولذلك كان تركيزه على التآمر علي الدوله العثمانية بوصفها الدولة الجامعة للمسلمين: العرب والترك والتى تحمل لواء الخلافة الإسلامية فكان هدم الخلافة الاسلامية مطمحاً كبيراً لأوروبا والغرب والمسيحية والكنيسة.

ولذلك فقد حرص منذ بدأ احتلال الاقطار الإسلامية والعربية فى العمل على فصل القطر عن الدولة الجامعة ودعا إلى اقامة دوله قومية تستمد كيانها ووجودها من مفاهيم تاريخيه قديمه سابقة على الإسلام من اجل تدمير الرابطة الإسلامية الجامعة

كذلك فقد عمد الى حجب نظامها السياسى والاجتماعى والاقتصادى المستمد من الإسلام وكان أول ما حجب الغاء القوانين الإسلامية التى تحكم المجتمعات واحلال القانون الوضعى كذلك قد عمد إلى السيطرة على الاقتصاد وتطويعه للاقتصاد الربوى.

كما عملت القوانين الجديدة على الغاء الحدود الإسلامية فانفتح الباب واسعا أمام الجريمة والاباحة وتعرضت بذلك الاسره المسلمة والمجتمع المسلم لأخطار شديده وادخل الغرب إلى بلاد المسلمين الخمر والنساء العاريات والمراقص ودور

المقامرة والدعارة وكان لذلك ابعد الاثر فى تدمير الوحدة الجامعة مما حال دون التقاء الاقطار العربية المسلمة أصلا والتى تجمعها وحدة العقيدة واللغة والقيم والتقاليد.

❑ ❑ ❑

كانت التجربة الغربية فى بلاد المسلمين معارضة لطبيعة تكوين الأمة الإسلامية وكشفت الاحداث المتوالية ذلك الصراع الشديد بين المفاهيم الأصيلة التى تكونت عليها العقلية الإسلامية وبين تلك السموم الدخيلة فقد جاءت التجربة الغربية فى بلاد الإسلام معارضته لطبيعة تكوين هذه الأمة التى تشكلها الإسلام منذ اربعه عشر قرنا من وجوه كثيره وان كانت فى بعض مظاهرها تخدع الذين لا يعرفون جوهر الاسلام بالمقارنه بين الديمقراطية الغربية والشورى الإسلامية وبينهما فروق بعيدة وخلافات عميقة.

لقد جاءت الديمقراطية الغربية إلى بلاد الإسلام على سبيل القسر والتحكم ولم تكن عن رغبه طواعية فقد فرض النفوذ الاجنبى بالاحتلال السياسى والعسكرى هذا النظام بعد ان عطل منهج الشريعة الإسلامية الذى عاشت الأمه الإسلامية فى اطاره عمرها كله.

ولم يكن هذا النظام الوافد البديل الا عاملا من عوامل تهديم المجتمع الإسلامى وضربه فى الصميم، فقد فرض عليه القانون الوضعى ونظام الربا واباح فيه اسلوبا من التعامل قريبا من الاباحية وحمى التفسخ واتاح لكل عوامل الفساد ان تنمو فى ظل القانون وحمايته.

فضلا عن النظام السياسى الذى لم يكن الا مظهرا كاذبا يحمل طابع الديمقراطيه وحكم الشعب بينما يضمر فى اعماقه تسلط الفرد ومن العجيب ان يشهد كتاب الغرب بأن الديمقراطية اللبيرالية الغربية قد فشلت فشلا ذريعا فى بلادها

ومع ذلك فقد نقلت إلى أفق العالم الاسلامى لتلقى مزيدا من الفشل.

يقول مؤلف كتاب الثورة العقائدية : أن الليبرالية السياسية لم تنم نمواً طبيعيا فى أية بلاد اسلامية وان بعض المحاولات التى جرت لنقل الليبيرالية الاوروبية فى القرن الراهن الى بعض البلاد الإسلامية فد فشلت

ويبرر المفكرون المسلمون هذه الظاهره بان القرآن دين ديمقراطى فى جوهره كما ينطوى على « مساواة الناس ولم تنص عليه من شورى قبل تقرير الامور ولما يؤكده من اجماع ويصر عليه من ضرورة خضوع الحاكم للشرع.

والواقع ان الاسلام لا يقيم نظاما بشريا يسمى مبدأ (سيادة الأمة) ولكنه يقيم نظاما ربانيا يسمى (تطبيق حكم الله واقامة المجتمع الربانى) .

ولذلك فإن الاسلام حين يأخذ بمبدأ الشورى لا يهدف الى تحقيق مـا يســمونه (مبدأ سيادة الامة) فإن التشريع الإسلامى فى الحقيقة هو التعبير الاصيل عن ارادة الامة وان الحاكم فى الاسلام إنما يهدف إلى ان يكون لهذه الاحكام السلطة العليا، وان محاوله جعل الأمة صاحبة سلطة السيادة إنما هى محاولة مضللة لاخفاء وضع هذه السيادة فى يد القصر او الدكتاتور او لم يهدف القيصر او الدكتاتور الى ان يتخفى وراء هيئة نيابية منتخبة من الشعب؟.

وليس هذا فى نظر رجال القانون الغربيين الا مجرد رموز أو صورة تخفى وراءها سلطة ديكتاتورية مستورة وراء ما يسمى «الاستفتاء الشعبى» ويقول الفقهاء الغربيون اليوم : ان مبدأ سيادة الامه لا يكفل منع الاستبداد او الاستئثار بالسلطة المطلقة ولقد تلاءم مبدأ سيادة الأمة مع الانظمة الدكتاتورية فهو لا يمنع الاستبداد بل هو خطر على الحرية لانه ليس من شأن هذا المبدأ ان يهدف إلى وضع قيود أو حدود على سلطان السلطة التنفيذية أو السلطة التشريعية ولقد وصلت الديمقراطية الغربية اليوم إلى مرحلة الفشل والهزيمه والانهيار بعد ان اقتحمتها الاخطاء من كل ناحية.

ولم تعد الشعوب فى الغرب تثق فيها او تجد فيها نظاما صالحا ولم تعد احزاب الغرب تستطيع ان تنال ثقه الناس.

وقد كتب كثيرون امثال (توينبى) وغيره يكشفون عورات هذا النظام وفساده ونتائجة الخطيرة فى الاضطراب الاقتصادى والتحلل الاجتماعى والفساد الاخلاقى وتوسيع الهوة بين الفقراء والاغنياء.

وعندما ننظر الى احدى الدول الاوروبية الديمقراطية نجد ان ٤٨ فى المائه من ثروتها فى قبضه ٧ فى المئه من مجموع المواطنين.

وانه بينما تسلمت ارملة آخر من فقد حياته فى عمال المناجم اثناء عمله ٦٧٥ دولارا تعويضا عن حياه زوجها حقق لورد كارنجتون مدير الدولة السابق لشئون الطاقة ما يساوى ٩٣٢ الف دولار حفنة واحدة.

وقال دزرائيلى منذ مائه عام: ان بريطانيا امتان تقع كل منهما تحت مؤثرات مختلفه وتحكمها اخلاقيات متباينه ولا يجمعها فكر مشترك ولا حتى فى المشاعر بل مجتمع للفقراء ومجتمع للاغنياء يطفحان بروح الصراع الطبقى العميق.

ومن هنانجد الخطر كل الخطر فى ذلك الجيل الذى يؤمن بتفضيل قيام النظام الديقراطى الغربى بديلا عن النظام الإسلامى: هذا الجيل الذى لم يتعرف إلى مفهوم الإسلام تعرفا صحيحا مع التفريق الواضح بين الشورى الإسلامية والديمقراطية الغربية بعد أن حدث خلط كبير بينهما.

ذلك أن الإسلام يجعل السيادة للشرع لا للشعب او لفرد او جماعة.

﴿ فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لايجدوا فى أنفسهم حرجا مما قضيت ويسلموا تسليما ﴾ [النساء : ٦٥]

فالسلطة التشريعية هى لله وحده تبارك وتعالى فلا يجوز للناس ان يشرعوا اما السلطة فهى بين يدى امير المؤمنين ونظرة الاسلام الى الحكم : هى اين يكون الحاكم نائبا عن الامه فى بعض ما تعاقدت معه على تنفيذه.

فالحاكم فى الاسلام نائب عن الامه فى تنفيذ احكام الشرع عليها لان السلطان للامة اصلا تعطيه بالانابة عنها لمن تراه كفؤا على القيام باعباء وتنفيذ احكام الشرع

ومن هنا فقد بطلت تلك المحاولة التى تهدف إلى تطويع الإسلام تحت اسم الشورى إلى مفهوم الديمقراطية على الطريقة الحديثة : ذلك أن ذاتيه الإسلام تعلو على المقارنة وعلى المسلمين تطويع مجتمعاتهم لنظام الإسلام وأن يعلموا أن الديمقراطية الحديثة تختلف اختلافا عميقا وجذريا عن الإسلام.

❑ ❑ ❑

ولقد سجل كثير من الباحثين المسلمين عوامل فساد المنهج البشرى الذى فرضه النفوذ الاستعمارى على الاقطار العربية والإسلامية.

قال الدكتور محمد عبد الله العربى عن تجربته الخاصة : ادركت كما ادرك غيرى من علماء اوربا انفسهم اكثر من ثلاثين عاما كانت من أهم اسباب ما حاق بها ومازال يحيق بها من ويلات وكوارث وشقاء شامل من هذه النظم الاوروبية وما فيها من اضطراب وتناقض لانها من تفكير البشر وصنع الشر الذى لا يرون الا ما هو مكشوف لهم فى فتره محدودة من الزمن وفى قطاع محدود من الارض ، رؤيا فيها كل قصور الانسان وانفعالاته العابرة وشهواته الجامحة، فتفكيره من أجل ذلك لامناص من أن يكون تفكيرا جزئيا وتفكيرا وقتيا ومن هذه النقطه يقع الاضطراب فى التمييز بين الحق والباطل فيكون الباطل حقا فى عصر ويكون الحق باطلا فى عصر آخر تبعا لأمزجة الحكام وأحيانا المحكومين

لقد احتجبت حضارتنا الإسلامية امام غزو حضاره اجنبية وكان تقليدنا لما خبث فيها اسرع من اقتباسنا لما صلح منها فشبابنا لا يدرسون فى الجامعات الا النظم السياسية والاقتصادية كما تعرفها اوروبا وتشريعاتها الوضعية فى شئون الحكم والاقتصاد والاجتماع تحتذى حذو التشريعات الاوروبية وننهج على منوالها فيما تحرمه وفيما تبيحه.

وفى سياستنا الاقتصادية والمالية اقتبسنا نظمهم المصرفية الربوية التى سيطر من خلالها اليهود على الاقتصاديات العالمية وفى سلوكنا الاجتماعى اصبحنا نقلة مجونهم وازيائهم ومباذلهم الفاجرة ثم تقاعسنا فى نفس الوقت عن ابتكاراتهم وكشوفهم العلمية

هذه هي الحقيقه التى تكشفت فى العالم الاسلامى، فمنذ وقت طويل عندما اخذت اليقظة الإسلاميه تدحض زيف الدعاوى الوافدة فى مجال السياسة والاجتماع والاقتصاد والقانون وتلح الحاحا شديدا على مدى الاخطار التى واجهتها المجتمعات الإسلامية منذ ان خضعت للتجربة الغربية ومدى الآثار التى ترتبت عليها في اجيالها المتوالية فكان لابد ان تصل الامور الى غايتها بإزاحه هذه التجربة فى بعض الاقطار الاسلامية كباكستان وايران والكشف عن اثارها التى تتمثل فى فرض مجتمع الفجور والربا على الأمة الإسلامية.

والحقيقه انه بعد اكثر من مائه عام من فرض النظام الغربى (الديمقراطية السياسية + النظام الربوى فى مجال الاقتصاد + القانون الوضعى فى مجال الاجتماع) فإن التجربة قد فشلت فشلا ذريعا وما يعتقد أحد أن المسلمين يرغبون فى اعادة تطبيق مجتمع الاستهلاك والانحلال والفساد الغربى على مجتمعهم بحيث لا تفهم الدولة العصرية الا حرية الفجور والخور وسيادة اليهود عن طريق النظام الربوى العالمى.

ثانيا: القانون الوضعى والاقتصاد الربوى

خضعت مصر والبلاد الإسلامية لقانون نابليون أكثر من مائه عام وحجبت الشريعة الاسلامية وراء القانون الوضعى الذى فرض عليها ومرت خلال ذلك مراحل جرت فيها محاولات لتعديل القانون وعقدت مؤتمرات من اساطين القانون فى الغرب شهدت بعضها للشريعة الإسلامية وانها مصدر للقانون العالمى وانها كذلك مستقلة عن القانون الرومانى وافضل منه.

ولكن القوى الاستعماريه ومن يؤازرها من رجال التغريب كانت عاملا على ضرب هذا التيار والنيل منه ، فقد كان ابرز اهداف النفوذ الاجنبى هو ضرب الشريعة الإسلامية والحيلولة دون تطبيقها وكذلك آزرت القوى الماركسية وذات الولاد الصهيونى حجب الخطوات الايجابية نحو الشريعة وكتب عدد من المستشارين ابحاثا ضافيه عن تقنين الشريعة فى مقدمة هؤلاء على منصور وعبد الحليم الجندى وجمال المرصفاوى ومأمون سلام وحسن منصور وغيرهم ومحمد صادق فهمى.

واصدر عدد من المستشارين والقضاة احكاما قضائية على اساس الشريعة الإسلامية واعد فعلا عدد من القوانين فى صيغته الإسلامية ولكن ذلك توقف فجأة وحجب عن السير فيه نتيجه بعض الضغوط الخارجية.

وتحدث خبراء الشريعة الإسلامية والقضاة والمستشارون الذى عملوا فى القضاء عن الاثار التى ترتبت على تطبيق القانون الوضعى فى بلادنا واهم هذه النقاط :

اولا : اخطر مثالب القانون الوضعى هو هدم الاخلاق والقضاء على الاعراض فان جميع الجرائم الخلقية سواء ما نص عليه فى قانون العقوبات أو فى قوانين خاصة

مثل جر م الزنا وهتك العرض وتعاطى الخمور والاتجار بها تفتح الباب واسعا أما فساد المجتمع فجريمه الزنا هى فى الشريعة الإسلامية كل اتصال محرم بين رجل وامرأة سواء ك ن احدهما متزوجا او كلاهما ، اما فى القانون فهو خيانه العلاقة الزوجية ومن ثم فهو لا يقع الا من الزوج وقد اختلفت القوانين الوضعية بشأن تلك الجرائم مذاهب ثلاثه

(١) مذهب يعتبر الخيانة الزوجية فعلا مؤثما كالقانون الانجليزى والقانون الروسى.

(٢) مذهب اعتبرها جريمه يعاقب عليها دون تفريق بين الزوج والزوجة كالقانون الألمانى.

ومن هذه القوانين الاخيره القانون المصرى نقلا عن القانون الفرنسى وقد اختلفت جريمة كل من الزوج والزوجة اختلافا بينا سواء فى الاركان المكونة للجريمه او فى العقوبة فهى بالنسبة للزوج لا تزيد عن الحبس ستة أشهر بينما تصل بالنسبه للزوجة إلى سنتين.

ثانيا : ليس عيب القانون الوضعى محصورا فى جرائم الاخلاق على الزنا وحده وانما هناك جرائم نكتفى منها بذكر جريمتين: (الأولى هتك العرض اذا وقع برضا الطرفين فلا جريمة إلا إذا وقع الفعل على قاصر ولم يتجاوز سن الثامنة عشرة، ومعنى هذا أن الانسان إذا بلغ الثامنة عشرة فهو حر فى عرضه مع انه يعتبر قاصرا على تصرفاته المالية الحاصلة قبل بلوغة سن الرشد وهو فى الحادية والعشرين: أى أن القانون كان حريصا على المال أكثر من حرصه على العرض.

أما الجريمه الثانية فهى جريمة الاعتياد على ممارسة الدعارة وهي جريمه لاتكمل الا بالاعتياد على ممارستها وان يكون ذلك مقابل اجر ورغم ان جريمه الدعارة جريمة تخضع للعرض والطلب فان القانون لا يعاقب العاهر او المومس الا إذا تكرر منها الفعل

وكان ذلك لقاء اجر أى انه لا عقاب على من ضبطت تمارس الفاحشه بلا اجر لمجرد المتعة ولو تكرر ذلك عده مرات. واخيرا فانه لا عقاب على الرجل الزانى مع مومس مهما كانت حالته اعزب ام متزوجا او غير محصن، بل ان القانون يعتبره شاهداً فى قضية الدعارة.

وقد أصبح واجبا بعد صدور الدستور فى مادته التى تنص على أن الشريعة الإسلاميه هى المصدر الرئيسى للقانون فى مصر ان يمتنع عن تطبيق اى نص من القوانين القائمة على مخالفة الشريعة كنصوص الفوائد الربوية والمراهنات والعاب القمار والميسر والمعاملات المخالفة للشريعة.

ثالثا : القانون الوضعى يستجيب دائما للمتغيرات الاجتماعية ولو كانت أمراضا وانحرافات تصيب المجتمع ومن الاستجابة لانحرافات المجتمع كالشذوذ الجنسى واللهو وشرب الخمر وفى ذلك خطر كبير على المجتمع اذا تحطم اى سياج او اطار من القيم والمعنويات التى تحفظ المجتمع من التدهور والدعوة الى هذا التدهور بفلسفته باسم الحرية والاراده العامه للشعب وانه مصدر السلطات.

أما النظام الإسلامى فأنه يحيط المجتمع بسياج محكم واطار يمنعه من التدهور والانحطاط ويحفظ عليه قيمه ومبادئه فيظل المحظور محظورا والحلال حلالا وفى ظل النظام الاسلامى لا تبديل لاصول الحياة الاجتماعية وذلك مع المرونه الكافية فى فروعها وبذلك يظل المجتمع صلب العود مستقيم الظهر قوى البنيان.

ومعنى هذا ان القوانين الوضعية تتصف بخصيصة تعايش بها الفساد وتتبناه مهما بلغ من النزول والاسفاف بينما تتصف الشريعة بخصيصه حافظة تحمى المجتمع من التدهور والنزول (مصطفى كمال وصفى).

وبالجملة فإن القانون الوضعى هو قانون بشرى على من اهواء الانسان ويبرز مطامعة وشهواتة وفارق كبير بين القانون الوضعى وبين القانون الربانى السماوى وعرفت المسيحية الاخلاق والوصايا والأخلاق الفردية وحدها التى تحولت من بعد ذلك إلى الليبرالية.

اما الإسلام فقد عرف الربط بين الفرديه والجماعية ، وجعل الى جانب الاخلاق العقدية والمعاملات على نمط فريد لانه من صنع الحكيم الخبير وماتزال الحضارة الغربية والمجتمع الغربى المسيحى ينقل من الشريعة الاسلامية حيث : حقق الانسان حقوق المرأة وحق الجار، مسائل الزواج والطلاق والميراث.

❑ ❑ ❑

منذ سيطر النفود الأجنبى على مصر والبلاد العربية والاسلامية فقد وضع يده على خيوط الاقتصاد الوطنى جميعا وحولها الى مصارفه وخزائنه وجعلها سداداً للديون التى كان قد اقترضها الحكام وأهل النفوذ وكانت مؤامرة الاستدانة دائما مقدمة للاحتلال والسيطرة وقد حفظ التاريخ الحديث ثلاثة مؤامرات على خديو مصر اسماعيل وعلى شاه ايران وعلى باى تونس كانت مقدمه للسيطرة الاستعمارية والاقتصادية على هده الأقطار وقد تبع هذه السيطرة توجيه الاقتصاد وجهة غربية خالصه باستنزاف مصادر الثروة فى البلاد الإسلاميه بابخس الاسعار وفتح اسواق تجاريه للمنتجات الواردة من البلاد المسيطرة وتمكن مجموعات من الاجانب من السيطرة على الاسواق والمواد الاساسيه والقيام بعمليات المراباة للتجار والزراع وتحت تاثير المغريات الوافده وفى مقدمتها الخمور والراقصات والمنتجات الكمالية.

وهكذا صنع النقد الاجنبى نظاما ربويا اقتصاديا مسيطرا تتحرك فيه التجارة والزراعة والصناعة فى البلاد خلال فتره الاحتلال

ولا ريب ان احتواء الاقتصاد الاسلامى وسيطرة الدول الغربية والاشتراكيه عليه هو من اخطر العقبات التى تحول بين المسلمين وبين امتلاك ارادتهم وتكوين مجمتعهم القادر على الحركة على استثمار مواردهم الواسعه الموجودة الان فى البنوك الاجنبية والتى هى سناد حقيقى للاقتصاد الغربى دون انتفاع المسلمين اصحابها بها اساسا لبناء حضارتهم الحديثة

وهكذا نجد أن المسلمين خسروا منهجهم الاقتصادى الاصيل الذى علمهم اياه القرآن وطبقة المسلمون أربعه عشر قرنا وسيطر عليهم النظام الربوى العالمى بكل مخاطره واثاره ومضاره واندفعوا وراء الاستهلاك والترف ومظاهر الحضاره وكلها عوامل تدمر الشخصية وتقتل منه عناصر التماسك وتجعلها خاضعه متحللة منهارة غير ان حركه اليقظة الاسلامية قد كشفت للمسلمين مدى الاخطار التى تحيط بالاقتصاد الإسلامى لوقوعه فى براثن الربا وسيطرة الدول الغربية عليه والاثار المترتبة على ذلك فضلا عن غضب الله تبارك وتعالى وعقابه ومن ثم انطلقت صيحة الامتناع عن الادخار إلا فى المصارف الإسلامية .

وقد كشفت حركه اليقظة الاسلامية هذا النظام الربوى وكشفت عن سمومه واخطاره حيث يتكامل خطره مع القانون الرضعى والتعليم العلمانى وفساد معطيات الحضارة ووسائل التسلية والترفيه.

ثالثا: القوميات في مواجهة الوحدة الاسلامية

اخطر الحركات التى واجهت العالم الإسلامى ومزقتة إلى قوميات وأقليات تحت أسماء مختلفة فى ردة خطيرة من وحدة العقيدة إلى فرقة العناصر، فهناك الأجناس: : العرب والترك والفرس، وهناك الأوطان: العراق وسوريا ومصر، وهناك المذاهب: السنة والشيعة والدروز، وهناك الأديان: الإسلام والمسيحية، كل هذا أثارته حركة القوميات وفتحت أبوابه لصراع رهيب ضخم كان النفوذ الأجنبى يستهدفه لتفكيك وحدة المنطقة فلم يكن المسلمون قبل هذه المؤامرة يعرفون إلا أنهم مسلمون قبل أن يكونوا عربا وغير عرب أو ذوى أوطان كأن يكونوا مصريين أو سوريين أو عراقيين وكذلك كان شأن المسيحيين فى هذه الأمة ولهم مكانهم وحمايتهم وأعمالهم فى أمن للعقود التى عقدها الرسول مع بنى نجران وعمر مع المسيحيين فى القدس، ولكن المؤامرة كلها كان لابد ان تبدأ من هذه النقطه لأنها النقطة الأولى القادرة على تمزيق هذا الكيان الموحد وغرس كيانات أخرى فى المنطقة كالصهيونيه واثارة الأجناس والدعوة إلى المطالبة بأوطان مستقلة، ولقد اصطنع النفوذ الأجنبى محاولات كثيرة ودعوات متعددة: منها الاقليمية والعنصرية والقومية وذلك حتى لا تلتئم الجراح وحتى لا تعود الوحدة الإسلامية بأى صورة مرة أخرى .

ولا ريب ان تلك الصراعات الشعوبية الدفينة التى تأججت منذ مطالع تسلط النفوذ الاستعمارى على البلاد الإسلامية هى التى يعزى إليها هذا القدر الهائل من الكراهية والتعصب الذى يمثل فى علاقات العناصر المختلفه وخاصة ما يدسه من مؤامرات تشعل الفتنة بين الطائفتين مما لم يكن معروفا قبل ذلك.

❑ ❑ ❑

وجاءت الدعوة إلى القومية بمفهوم الغرب تحمل المفهوم العلمانى على النحو الذى طبقته تركيا بعد ان سقطت الخلافة العثمانية.

وقد أشار زويمر إلى هذا الهدف بوصفه مصدر التدمير الكبير فقال: أن أول مايجب عمله للقضاء على الإسلام هو ايجاد القوميات فنجحت أكبر نجاح بل كان من المسلمين من نشروا هذه الافكار وعملوا على اذاعتها وقد بدأت فكرة القومية فى العالم الإسلامى بعد ان تعالت فى الدولة العثمانية صيحة الطورانية وتتريك الاجناس مما حدا بالعرب الى رفع لواء العروبه غير أن سقوط الخلافة دفع العرب إلى التمسك بالعروبة على انها وحدة أصغر ولما أحس النفوذ الأجنبى أن للعروبة مفهوما إسلاميا وأنها حلقة فى عقد ومرحلة إلى الوحدة الاسلامية سلط عليها دعاة القومية الغربيين يحملون نظرية تفريغها من مضمونها الإسلامى وجعلها مفهوما علمانيا خاليا من الفكر والعقيده والأساس الإسلامى.

وقد حمل لواء القومية العربية مسيحيو لبنان بهدف اسقاط كل تنظيم سياسى يجعل لنظام الاسلام وجودا حقيقيا وتعالت دعوات الاقليمية والفينيقية والفرعونية لتفسر مفهوم العروبه الصحيح بوصفها من ثمرات الاسلام وبأن حركتها فى دائرة الإسلام

ولقد خطت القوميه العربية خطوات واسعه وشغلت الناس فى الخمسينات ومابعدها ولكنها لم تستطع أن تحقق شيئا وعلت من جديد كلمة الوحدة الإسلامية حتى قالت جريدة لوموند الفرنسية : امام الزحف الإسلامى لم تعد القومية العربية تتمتع بالتأثير الذى كانت عليه منذ عشرة أو عشرين عاما عندما كانت أى محاولة تثير حماس الجماهير من الرباط حتى بغداد وحيث يتردد الآن القول فى الدوائر

الإسلامية المتشددة بأن القومية العربية هى أمر اختلقه مسيحيو الشرق فى منتصف القرن التاسع عشر وحتى الستينات عندما ارادوا التصدى للاسلام باعطاء الجماهير مسكن الحماس الشعبى.

ويرى الكثيرون أن فكره القومية العربية بمفهومها الليبرالى إنما طرحها الاستعمار الغربى فى أوائل هذا القرن رافعا شعار العلمانية لتفريق الامة الإسلامية وتصفيتها بعد أن أعيته الحيل فى ذلك، وقد نجح فى ذلك إلى حد كبير ومانراه اليوم من تفرق ارائهم وانهزام دوله ما هو الا ثمرة هذه الفكرة الرائدة (محمود رشوان).

وقد علق المستشرق هاملتون جب على حركة القومية فقال ان الذين تصدروا حركة القومية نبذوا فى نفس الوقت الجزء الأكبر من وجهة نظر الإسلام الأولى وقبلوا بدلا منها اراء الغرب السياسية الحديثة واضطروا فوق هذا إلى أن يقبلوا أصول هذه السياسة ولواحقها فيما يختص بتكون الدولة وماهية القانون ووظيفته وحقوق المشتركين فى الوطن وواجباتهم

وكان من أبرز معالم دعوة العلمانيين لتزييف مفهوم العروبة المترابط مع الإسلام محاولة رفع فكرة القومية إلى نوع من العقيدة فى مواجهة العقيدة الدينية الإسلامية فى نفوس أصحابها وتحل هذه محلها.

ومن هنا كان خطأ الغلاة القائلين بتقديس الأمة العربية ووصفها بأنها تجربة رحمانية أو عقيدة ومحاولة اعطاء المعنى القومى طابعا فلسفيا لاهوتيا صوفيا على هيئه المزامير والتراتيل الكنسية التى يراد بها اغراء الشباب العربى مع الاهتمام بالجاهلية ووصف النبى محمد ﷺ بالعبقرية والالهام وتجاهل صفته الأولى الحقيقية وهى النبوة فضلا عن اثارة الأحقاد مع الفرس والترك فى محاولة لاستمرار تمزيق الأمة الاسلامية.

وقد تبين أن هذه المحاولة بما أوتيت من نفوذ وسلطان فإنها لم تحقق شيئا. وصدق

كانتول سميث حين قال: إن تاريخ الشرق الحديث يدل على أن القومية المجردة ليست القاعدة الملائمة للنهوض والبناء ومالم يكن المثل الأعلى إسلاميا على وجه من الوجوه فلن تثمر الجهود.

ويقول محمد اقبال : إن الإنسانيه لن تستريح أبدا مادامت تسودها هذه النظرية المشئومة التى تقطعها اربا اربا بحيث لا يكاد الصدع يلتئم أبدا.

و يرى الاستاذ محمد رشاد خليل ان دعوة القومية العربية كانت حربا على الأمة العربية المسلمه ومنها دعوة الناصرية والبعث، هذا الشرك المنصوب لاصطياد السذج باسم حقائق التاريخ : حقيقه النوايا المستترة وراءها فالعروبة تعنى ما كانت تعنيه الشعوبية فى القديم.

وقد نشأت القومية العربية (العروبية الحديثة) نشأة مريبة فى حجر مدراس الارساليات (الفرنسية والامريكية) ذات الاهداف التبشيرية الاستعمارية وعلى أيدى المسيحيين المارون السوريون خاصه وعملت على تنمية الاهتمام ببعث الحضارات القديمة التى ازدهرت فى البلاد المختلفة التى يشغلها المسلمون اليوم وكان للكلية السورية الانجيلية دورها فى بعث النعرة العروبية وهى التى اصبحت الان (الجامعة الامريكية) فمن هذه المدرسة خرجت كل رءوس الثعابين التى نفثت سمومها فى الشام ومصر تحت ستار القومية العربية واول جمعية سرية كان اعضاؤها من المسيحيين اللبنانيين وكان هدفها الأساسى التفرقة بين العرب والترك وكانت تستهدف احداث انقلاب داخلى ضد الإسلام والجماعة الإسلامية تحت ستار الخدمة التعليمية مجندة فى هذا العمل أبناء الطائفة المارونيةوكانت مقولتهم المضللة إن الإسلام نفسه تراث شأنه شأن الشعر الجاهلى واللغة العربية.



وقد كشفت الأبحاث الجادة التى قام بها باحثون محايدون : نظرية القومية العربية التى طرحت فى أفق الفكر الإسلامى كانت بمثابة مؤامرة استهدفت (تمزيق الوحدة الإسلامية: السياسية والاجتماعية والفكرية).

وانها كانت اخطر المحاولات لتمزيق عقد الأمة الإسلامية التى كانت مترابطة تحت كلمة التوحيد.

كانت الدعوة إلى القومية بمثابة دعوة إلى الاقليمية اولا فى الاقطار التى لها تاريخ قديم سابق للإسلام وكانت من ناحية اخرى محاولة لفصم عرى العروبة والإسلام.

فقد استعملت كلمة القومية بمفهوم الاقليمية فى مصر بإسم الفرعونية وفى سوريا بإسم الفينيقية وفى العراق بإسم الآشورية والبابلية وفى المغرب بإسم البربرية.

وتركزت حول هذه الدعوى دراسات مضللة قام بها مستشرقون يتبعون وزارات الاستعمار فى فرنسا وانجلترا مستهدفين احياء هذه النحل التى قضى عليها الاسلام حين جاء قاطعا ذلك الارتباط القديم الذى يفرق بين اجتماع أمة الإسلام وبين ارتباطها وتاريخها ولغاتها القديمة.

ولقد كان أول عمل بدأت به الارساليات التبشيرية تحقيق توصية (هرتزل): الدعوة إلى العروبة تهدف تمزيق وحدة العرب والترك فى ظل الدولة العثمانية، ثم ظهرت الدعوة إلى القومية التركية تحت اسم الطورانية عن طريق حزب الاتحاد والترقى بهدف اخراج تركيا من طابعها الإسلامى فلما نجح حزب الاتحاد والترقى فى الوصول إلى الحكم أخذ يعمل على تتريك العناصر ـ ومنها العرب ومن هنا بدأت المعركة القومية عروبة فى مواجهة الطورانية.



غير أن الاستعمار والنفوذ الأجنبى عمد إلى طرح مفهوم للعروبة مستمد من مفهوم القوميات الغربية استشرى أمره وحاول أن يقضى على ترابط العروبة والإسلام ولم يقف الأمر عند هذا الحد، فإن الفكر الوافد حاول أن يطرح عدة نظريات لتمزيق وحده الفكر الاسلامى ويحول دون التئام العرب والمسلمين فى كيان موحد.

وبدأت حركة القوميات التى لم تكن فى حقيقتها إلا دعوة إلى الإقليمية وكان الهدف أساسا هو فصل القومية العربية عن الإسلام كفكر وفلسفة ومنهج حياة وفصل العرب عن الأمة الإسلامية بمفهوم مركب من إعلاء العنصر والدم والعرق.

وهكذا حملت النظرية الغربية فى القومية ثلاثة محاذير ضخمة:

اولا : طابع الاستعلاء الجنسى المغلق فى وجه الأمم الإسلامية.

ثانيا : طابع الانعزال الكامل عن التاريخ والتراث والمقومات الإسلامية.

ثالثا : خلق وجود معاصر منفصل تماما عن الاسلام وعن العالم الاسلامى متصل بالغرب فى تفسيراته وقيمة وطوابعه.

وبهذا حملت القومية أخطر التحديات للإسلام ومنهجه والجماعة الإسلامية كلها، ذلك أن أصحاب هذه الدعوة لم يكفهم أن يقولوا كلمتهم اليوم ولكنهم حاولوا أن يقيموا لها تاريخا طويلا بعيد المدى يسبق ظهور الاسلام ويمتد بعده ولا شك إن تلك المحاولة كانت باطلة وزائفة ذلك لأنه لم يكن هناك إلا تاريخ واحد هو تاريخ الأمة الإسلامية والعرب جزء منه ولم يكن هناك مايفرق بين العرب والمسلمين خلال ذلك التاريخ الطويل الذى كان العرب والترك والفرس والهنود فيه كلا متكاملا.

ولا ريب أن تفسير التاريخ الإسلامى تفسيرا قوميا كان مضللا وكاذبا حيث لم يكن هناك انفصال بين الاسلام والعروبة الا بعد الاحتلال الاجنبى وانفصال الدولة العثمانية عن العرب.

كذلك فقد كان هدف دعاة القومية أن يفصلوا العرب عن الفكر الإسلامى وعن الامتداد الإسلامى وأن يخلقوا كيانا عربيا جاهليا يعود بالعرب إلى كنعان وارم واحياء هذا التراث القديم بعد أن سيطر الفكر الإسلامى أربعة عشر قرنا كاملة على هذا العالم الواسع واستوعب فى أعماقه كل فكرة صائبة ونظرة صالحة من ذلك التراث القديم.

واذا كانت بعض الظروف قد افسحت المجال لطرح النظرية القومية الواحدة حيناً فإنها لم تلبث أن تكشف فسادها وغرابتها على الروح الاسلامية وأنها ليست منبعثة من وجودنا وليست تمثل فكرنا أو كياننا او جوهر قيمنا.

ان اخطر ما وقع فيه هؤلاء الدعاة جميعا أنهم صدروا عن مفهوم واحد تشكل فى اطار المجتمع الغربى ومفهاهيمهم الغربية وفاتهم اختلاف العلاقه بين الغرب والمسلمين وبين مفهوم الاسلام كعقيده تختلف عن المسيحيه فى انها ليست نظرية لاهوتية أو علاقة بين الله تبارك وتعالى والفرد ولاصله لها بأنظمة المجتمع كما فاتهم ان الاسلام عقيدة ومنهج حياة ولأن القائمين بالدعوة كانوا غريبى الفكر فقد فاتهم فهم حقيقة الاسلام الجامعة بين الدين والدولة، وبين الدين والمجتمع وانه حضارة وثقافة ومنهج حياة.

وبالجملة فإن دعاة القومية الوافدة قد جانبوا الأصالة والفهم العميق للإسلام والعروبه وكانت محاولتهم فى فرص مفهوم غريب دخيل وافد محاولة مبتسره شأنها شأن المحاولات التى فرضت على الفكر الإسلامى من قبل ومن بعد وقد أعلنت جميعها فشلها بالكامل كالديمقراطية والاشتراكية والوجودية وغيرها.

ويصدق على هذا دارسان غربيان أولهما : ارنولد توينبى الذى يقول فى كتابه [المسيحية بين أديان العالم]: إن الشيوعية والقومية هما العدوان اللدودان إذ هما شكلان مختلفان لموضوع فاسد ألا وهو عبادة الإنسان لنفسه ويقول الفريد كنتول سميث: إن القومية المجردة ليست هى القاعدة الملائمة للنهوض والبناء ومالم يكن المثل الأعلى إسلاميا على وجه من الوجوه فلن تثمر الجهود وتاريخ الشرق الأولى يدل على ذلك.

بل ان مستشرقا آخر ينصح قومه بالتخلى عن طرح هذه النظرية لفسادها : ذلك هو «البرت حورانى» الذى يقول: ليست القومية نظاما فكريا متكاملا ولكنها نقطة بداية تنظيم المجتمعات المتحدة فان الشرق العربى قد وصل الى مرحلة مابعد القومية.

وهذه حقيقة مضيئة فان السنوات الاخيرة قد كشفت عن فساد منطلق القومية وعجزها عن أن تحقق شيئا بل إنها قد سجلت على نفسها ذلك الأثر السيئ العميق الذى أخر نمو الوحدة الاسلامية التى هى الطريق الأصيل للالتقاء الجامع تحت لواء العقيدة والمنهج وقد تبين أن القومية أيدلوجية غربية كانت فى اتباعها بالغرب تستهدف تحطيم الوحدة المسيحية الجامعة التى كانت تشكل اطارا عاما فى الغرب منذ اليهوديه التى كانت تعيش فى أحياء الجيتو دون أن تختلط بالحياة الاجتماعية الغربية وقد رأت الدولة الأجنبية التى طرحتها فى أفق العالم الإسلامى انها يمكن ان تمزق وحدة العالم الإسلامى ولقد كانت القومية الطورانية: قومية لادينية تدعو إلى أمجاد طوران أما القومية العربية فقد قادها لورنس عميل المخابرات البريطانية والصهيونية معا وأسلمها إلى مجموعة من دعاة التغريب وتلاميذ الاتحاد والترقى العربى.

وكان كتابها يحملون العداء لكل ما هو إسلامى، وقد اختلفوا فى كل شئ واتفقوا على شئ واحد هو رفض الاسلام (عقيده وتاريخا) وحضارة، وأعلنوا

عداوتهم للتراث والأمجاد التاريخية والفحص وحين أعلنوا ان مقومات القومية هى اللغة والتاريخ فاتهم ان اللغة هى الفكر وان التاريخ لا يفصل بين العروبة والاسلام وان الإسلام جنسيه ووطن بكل معنى الكلمه لها ركائزها من اللغة والمشاعر المشتركة ووحدة الهدف.

وان الإسلام هو الذى حمى الوطن العربى من الصليبيين بعد أن اقاموا أربع إمارات صليبيه لهم على ساحل الشام فجاء صلاح الدين المسلم الكردى لينتشل العروبة من وهدتها وقد أكمل هذا الدور قطز وبيبرس وهما من المسلمين لا العرب. لقد جاء صلاح الدين الكردى والمماليك الذين حموا الأرض العربية من التتار وقضوا على بقيه معاقل الصلبين وفى الجزائر التى وصفها الفرنسيون بانها فرنسا الجنوبية كان الاسلام وليست اللغة العربية هى التى حمت الامة مائة وثلاثين عاما بعد أن تحطمت اللغة والثقافة ولولا القرآن ماكانت هناك قوه فى الأرض تستطيع أن تحمى اللغة العربية فى الأرض الجزائرية بعد أن ظلت تتعرض لحرب منظمة مدى قرن وربع قرن من الزمان ولا ريب أنه حيث يسقط الإسلام يسقط العرب وأن العرب بغير الإسلام لاشئ فهو الهدف الذى شكلهم وأقامهم كأمه وهو الذى رفع أعلامهم على مشارف القارات الثلاث.

لقد سقطت تلك المحاولات الى كانت تستهدف ان تجعل القومية بديلا عن دين الله ورسالة محمد صلى الله عليه وسلم لأنها أرادت أن تفرغ العروبة من محتواها الإسلامى (امة وعقيدة) وارادت ان تقيم قومية حاقدة منفصلة مغلقة عن الأرض الإسلامية كما هى مغلقه عن قمم الإسلام نفسه : فيها المفهوم المادى الوثنى وفيها أحقاد الأمم إذ إن مفهوم الإسلام لا يفصل بين الدين والدولة ولا يعرف حكومة آلهية ولا يعرف تفرقه بين الناس على أساس من العنصر أو العرق.

وبالجمله فالفكرة القومية كانت تياراً من تيارات الغزو الثقافى تستهدف طعن الوحدة الإسلامية بعد أن سقطت دعاوى الوطنيات والأقليات وكانت مهمتها تفريغ. القضية السياسية والاجتماعية بوجه عام من المحتوى الإسلامى وإحلال فلسفه أخرى وعقيدة أخرى محل عقيدته واستبدال رابطة أخرى برابطته لعزل الشعوب الإسلامية بعضها عن بعض عزلا نهائيا بحيث تكون صلة بعضها ببعض كصلة أى شعب من الشعوب الأخرى التى تدين بالوثنية والماركسية وبذلك تنسف الجسور التى تصل بين الشعوب الاسلامية.

ولقد كان طرح فكرة القومية العربية بمثابة عامل التمهيد لطرح فكرة القومية الصهونية ومجالا لظهور منهج أشبه بالدين يحل محل الإسلام ويقوم على مفهوم الاشتراكية ويأخذ مفهوم الماسونية فى الحرية، أى أن الهدف الحقيقى هو إحلال القومية محل الإسلام وأن يصبح العرب بين خيارين إما الشيوعية وإما القومية المادية الوثنية وقد ابعد المنهج الأصيل وهو الإسلام الذى يقاوم زيف الشيوعية والذى تعجز القومية مهما أوتيت من قوة أن تحققه وهو تركيب مفتعل معارض للفطرة الإنسانية مجاف لطبيعة الحياة وقد سموا هذا الخليط الزائف عقيدة قومية.

الفصل السادس

الوحدة الإسلامية

إن سقوط الوحدة الإسلامية جاء مع دعوات الإقليميات والقوميات ولن تعود هذه الوحدة إلا عن طريق وحدة الفكر التى تقوم أساسا على بناء تصور إسلامى أصيل مستمد من المنابع وقائم على فهم محرر من تبعية الفلسفات الوثنية والمادية والإباحية سواء منها الفلسفة اليونانية أو الفلسفة الغربية المعاصرة.

وقد كشفت محاولة الاقتباس التى قام بها بعض المفكرين المسلمين أضراراً بالغة وآثاراً خطيرة فقد كانت هذه الأفكار فاشلة فى موطنها الأصلى فأصبحت أشد قابلية للفشل عند نقلها إلى محيط إسلامى مختلف.

كان العرب قبل الإسلام قبائل متصارعة وجعلهم الإسلام قوة متآلفة الاوهم اليوم يمرون بنفس التجربة ولقد دفعتهم القومية إلى الصراع وألحقت بعضهم بالغرب وبعضهم بالشرق ولن يردهم إلى الأصالة إلا الإسلام الذى جمع المسلمين تحت لواء واحد فى أيام المحن والأزمات.

والفكرة العربية لم تكن فى يوم من الأيام هدفا نهائيا، بل هى مرحلة نحو الوحدة الاسلامية لقد ثبت بعد هذا الجهد الضخم الذى بذل لتحقيق الوحدة العربية فشل هذه الوجهة لأنه لم يبدأ عن طريق الأصالة، ولقد ظن كثيرون أن الوحدة العربية غاية فى ذاتها على حين هى مرحلة على الطريق: طريق الوحدة الإسلامية، ومن ثم فقد كانت المحاولات التى قادها دعاة القومية معوقا لهذه الوحدة عن أن تتخذ طريقها الصحيح.

ولقد دل تاريخ الشرق الأدنى ـ فى تقدير مثل ألفريد كانتول سميث ـ على أن القومية المحررة ليست هى القاعدة الملائمة للنهوض ولم يكن المثل الأعلى إسلاميا على وجه من الوجوه فلم تثمر الجهود البتة.

وعوامل التكامل والوحدة بين أجزاء الأمة الإسلامية لاتزال تمثل عنصر القوة القادر على لم الشمل وتلاقى العناصر.

فالأمة الإسلامية تمتلك أربعة عناصر رئيسية:

(١) القوة الاقتصادية: ممثلة فى المواد الخام ولا تزال ثروات الأمة الأسلامية بكراً حتى الآن رغم ما تعرضت له من استنزاف منذ بداية الاستعمار الحديث.

(٢) الموقع الاستراتيجى: حيث تقع أمتنا فى منطقة تمثل حزاما بالنسبة للكرة الأرضية وتتحكم فى طرق المواصلات البرية والجوية وبالتالى تتحكم فى التجارة العالمية.

(٣) القوة البشرية : المسلمون يمثلون ثلث سكان العالم ويملكون أعلى معدل للنمو فى تعداد السكان وهو معدل يفوق كل معدلات النمو فى العالم وقد يتضاعف فى مدة قليلة بحيث يزيد المسلمون على ثلثى سكان المعمورة.

(٤) كذلك فإن الإسلام يمثل قوة روحية حافظت على وحدة العالم الإسلامى على حين تقوم النصرانية على عقيدة التثليث وهى عقدية غير مقبولة لدى العقل الحديث أما اليهودية فهى ديانة خاصة باليهود ولا يمكن أن تقدم حلولا لمشاكل العالم ، أما الشرعية فتقوم أساسا على الفكر المادى

❑ ❑ ❑

كانت قضية الجنسية عن المسلمين من الأمور الداخلية فى إطار الإسلام بوصفه عقيدة وجنسية فى نفس الوقت وأن كل مسلم فى أقصى أقطار الأرض أخ لكل مسلم فى أدناها ولكن النفوذ الأجنبى من أجل تمزيق الوحدة الإسلامية أثار قضية

الجنسية وأثار الشبهة فى ارتباطها بالإسلام على النحو الذى وقع فى الغرب من الفصل بين القومية والدين، ولم يتوقف عند حد إثارة الشبهة حول العناصر: العرب والترك والفرس إلخ بل ذهب إلى أبعد من ذلك إذ حاول أن يجعل لهذه القوميات تاريخا سابقا على الإسلام فكان ذلك من إحياؤه: الطورانية فى تركيا (بما يتصل بها من زعامة الذئب الأكبر) والكسروية فى إيران (بتاريخها الطويل المتصل بالدولة الساسانية وقورش وقمبيز وداريوس).

وبذلك دخلت المعركة بين المسلمين فى مجال العنصرية والقومية وحول هذا المعنى اتسع نطاق البحوث حول الوحدة الإسلامية وحول الخلافة الإسلامية على النحو الذى قدمه جمال الدين الأفغانى ومحمد عبده ورشيد رضا والكواكبى .

ثم كانت محاولات المارونية فى القضاء على الجماعة الإسلامية بالتآمر مع الغرب على دولة الخلافة .

لقد بدت قضية الوحدة العربية أو القومية العربية عاملا مؤثرا للوقوف فى وجه مخطط الاتحاديين ـ لا الدولة العثمانية ـ وفى إثارة روح العنصرية بإعلاء الطورانية والدعوة إلى تتريك العرب وفرض اللغة التركية عليهم وما صاحب ذلك من صراع. ولكن سرعان ما تلقف التغريب والنفوذ الخارجى هذه القضية لتعميق القومية كهدف للفصل بين المسلمين والعرب من ناحية دين العرب وبعضهم وبعض من خلال إحياء تاريخ قديم سابق للإسلام.

ثم استعلى هذا الاتجاه من خلال الأحزاب التى حملت لواءه وعندما اتجهت موجة القوى العربية للاتحاد تحت لواء القومية العربية:

١ ـ ألغيت مادة دين الدولة الرسمى الإسلام من الدستور.

٢ ـ فرض مفهوم اشتراكى غربى علمانى على كل ما يتعلق بالتعليم والحكم والاقتصاد والقانون.

وبذلك كانت القومية العربية فى موقف المعارض معارضة تامة لمفهوم الإسلام الجامع الذى يعتبر العروبة حلقة من حلقاته والذى يدعو الى أن يقوم نظام عربى ليحمل لواء الفكرة الإسلامية استكمالا لحلقاتها الثلاث: (الوطنية ـ القومية ـ الإسلامية).

ولكن دعاة القومية العربية كانوا يحاولون أن يجعلوا الإسلام مرحلة من مراحل العروبة وحلقة من حلقاتها على حين يثبت التاريخ أن العرب لم يتجمعوا فى كيان واحد إلا بظل الإسلام.

لقد كانت تجربة الوحدة العربية تجربة دامية مريرة سرعان ما سقطت وخلفت من بعدها آثارا بعيدة المدى ولقد كشفت عن حقيقة أساسية: هى فساد المخطط نفسه الذى قام على مفهوم علمانى غربى استعار التجربة القومية الغربية فعجز عن أن يحقق الهدف لأنه كان يتطلع أساسا إلى (أيدلوجية) قوامها المفهوم القومى على حين أن هذا المفهوم يعجز عن أن يعطى «أيدلوجياً» صالحة لاقامة نظام اجتماعى وسياسى واقتصادى.

لقد كان واضحا أن الغرب يريد أن يعلى شأن القومية والإقليمية ومفهوم العنصرية والدماء والأعراق ليجعل معه وسيلة إلى تمزيق الوحدة التى أقامها الإسلام على أساس العقيدة والفكر بعد أن أسقط مفاهيم الصراع القائم على الدماء والعناصر وإن كان قد اعترف بالقوميات والأمم ودعاها إلى التعارف والالتقاء دون الصراع والخلاف.

وليس الإسلام بغير العرب إلامنهل الثقافة والقيم الاجتماعية التى دعت إليها الأديان كلها وجاء الإسلام خاتما ليصهرها فى قالب عالمى إنسانى جامع ولقد كانت هناك تجاوزات لم يتنبه لها الدعاة إلى القومية العربية حين أرادوا صياغة تاريخ عربى على حين ليس للعرب فى الحقيقة تاريخ خاص بهم بعد الإسلام وحتى سقوط الدولة العثمانية.

فتاريخ العرب وتراثهم بعد ظهور الإسلام هو تاريخ الإسلام وتراثه الذى ساهمت فيه جميع العناصر والإسلام فى العروبة ـ كما قال مسيحى معروف ـ علاقة دين للمسلم وثقافة وحياة قومية لغير المسلم.

وقد كشفت حركة اليقظة الإسلامية محاذير الدعوة إلى القومية العربية بمفهوم الغرب وجاءت التجربة لتؤكد مسارها وضرورة العمل على تعديل النظرة القومية من داخل مفهوم متكامل جامع قوامه الإسلام والقومية فيه مرحلة وليست حركة منفصلة والإسلام دليلها وقوامها.

ولقد كان الطريق واضحا أمام العرب والمسلمين إلى الخروج من التبعية وتجاوز الأزمة ولكنهم اتبعوا من هدوهم إلى المنهج الغربى كمنطلق لبناء مجتمعهم وحياتهم من جديد.

كان أولا : النظام الرأسمالى الديمقراطى الليبرالى وكانت تجربته مريرة من خلال فرض منهج غريب لمنهجهم الربانى وهو مالم يقبله المسلمون يوما وسرعان ما ارتفع صوت الدعوة الاسلامية بالحق.

كانت التجربة قد بلغت ذروتها فى سيطرة النفوذ الغربى ثم جاءت مؤامرة تمكن الصهيونية من فلسطين لتزيد الشكوك فى سلامة العلاقة بين العرب والمسلمين من ناحيه وسلامة المنهج الإسلامى الذى رفع لواء المقاومة والجهاد فى سبيل تحرير الأرض وبناء منهج الله تبارك وتعالى من ناحية أخرى.

ولكن النفوذ الأجنبى كان المد البديل الذى سيطر واقصى أصحاب الحق حتى لايعود منهج الله تبارك وتعالى إلى المجتمع ومنذ ذلك اليوم والمعركة الدائرة وكلها هى فى عبارة واحدة: عدم تمكين منهج الله من التطبيق فى أرضه مرة أخرى بعد أن حجبه النفوذ الغربى منذ أكثر من مائة عام كما أسقط الخلافة: علاقة الوحدة

الإسلامية حتى لا يمكن إقامتها من بعد.

ومن ثم وضع العالم الإسلامى فى بوتقة قوامها أربعة عناصر: القومية والعلمانية والماركسيةوالصهيونية.

وما زالت هذه العناصر الأربعة تتفاعل خلال أكثر من قرن من الزمان من أجل احتواء المجتمع الإسلامى حتى لا يعود إلى أصوله الأصيلة ولا خلاف على أن سيطرة الصهيونية باتفاق القوتين هو أخطر امتحان يواجه الأمة الإسلامية خلال الأربعين سنة الأخيرة وهو المؤثر الحقيقى لمختلف القضايا والوجهات والتحركات.

❑ ❑ ❑

وبعد فإن سقوط الوحدة الإسلامية جاء مع إعلان دعوات الإقليميات والقوميات ولن تعود هذه الوحدة إلا عن طريق وحدة الفكر التى تقوم أساسا على بناء تصور إسلامى أصيل مستمد من المنابع وقائم على فهم متحرر من تبعية الفلسفات الوثنية والمادية والإباحية سواء منها الفلسفة اليونانية أو الفلسفة الغربية المعاصرة ولقد كشفت محاولة الاقتباس التى قام بها بعض المفكرين المسلمين أضراراً بالغة وآثار خطيرة فقد نقلت أفكار لم تكن فى حقيقتها إلا ردود أفعال لأوضاع خاصة فى بيئاتها وقد كانت هذه الأفكار فاشلة فى موطنها الأصلى فأصبحت أشد سواءا عندما نقلت إلى محيط إسلامى بختلف عنها تماما.

إن أكبر العوامل القادرة على إعادة وحدة المسلمين هى وحدة الفكر الإسلامى ذلك أن المنطلق الحقيقى للأمة الإسلامية إلى وحدتها ووسطيتها هو العودة إلى منهجها الربانى الأصيل فقد كانت دعوة التوحيد موحدة لها محررة لموقفها من حيث أنها الأمة الوسط التى كانت خير أمة أخرجت للناس ولن يجمعها إلى محور الوحدة إلا إجماعها الفكرى والثقافى أساسا حول مفهوم الإسلام بوصفه منهج حياة ونظام

مجتمع فهو وحده القادر على تحطيم تلك الدوائر المغلقة التى تعمل على حبسها فى إطارات القومية والإقليمية والطائفية والعنصرية.

ومن خلال منهج أصيل للتربية الإسلامية يكون المنطلق الحقيقى لبناء العقل المسلم والوجدان المسلم الذى يستطيع أن يقيم قوانينه الاجتماعيه والاقتصادية على تشريع الإسلام.

وفى مقدمة ذلك تحرير المناهج التعليمية والثقافية المعاصرة من معطيات الفلسفات المادية والوثنية وإعادة النظر فى مذهب التفسير المادى للتاريخ ونظرية دارون ومفهوم فرويد للجنس ومفاهيم دوركايم ونسبية الأخلاق ووضع مقدمات للعلوم التى تدرس فى جامعاتنا توضح دور المسلمين الذين قاموا به فى بناء هذه المناهج.

ولابد أن يحاط ذلك كله ببناء الإيمان واليقين والتقوى فى نفوس المسلمين بحيث يستهينون بالعقبات التى توضع أمامهم لتأخير وصولهم، أى امتلاك إرادتهم وتحول دون وحدتهم وإن العودة إلى الله تبارك وتعالى هى وحدها السلاح القادر على اقامة وحدة المسلمين والإيمان بأن هناك مخططا واسعا يرمى إلى إخراج الإسلام من ذاتيته الخاصة وإخراج المسلمين من مفهوم الإسلام الجامع الصحيح.

كذلك فإن علينا حماية وجودنا من نظريات الفصل بين الماضى والحاضر أو احتقار التراث أو تفسير التاريخ الإسلامى تفسيرا ماديا أو ماركسيا أو النيل من بطولات المسلمين أو امتهان الصحابة بتحويلهم إلى سياسيين محترفين.

وقد ثبت أنه لا توجد ثقافة عالمية يشترك فيها جميع البشر وأن الثقافة مرتبطة أساسا بالعقيدة والأديان والتاريخ واللغة.وتأكد أن فكرة التقدم وفكرة التطور وفكرة المتغيرات لها فى مفهوم الإسلام تصور جامع بين الروح والمادة مما يختلف اختلافا واضحا عن مفهومها فى الفكر الغربى.

وفى مجال العلوم تبين أنها لا يمكن أن تؤخذ مع الغرب إلا بمثابة مواد خام يشكلها المسلمون فى دائرة مفهومهم للعلم والحضارة فلسنا نريد أن نحتوى فى دائرة التكنولوجيا العالمية فنصهر فيها ونكون جزءا من كل النظام العالمى والاقتصادى المنهار.

وذلك لأن لنا فى الإسلام مفهوما مختلفا تماما بعيدا عن الاحتكار والربا والعنصرية وعن إعلاء الجنس الأبيض أو السيطره على الآخرين وأننا لسنا مستعدين لأن نحتوى فى حضارة تلفظ أنفاسها الأخيرة.

الفصل السابع
الماركسية فى عالم الاسلام

كانت الماركسية إحدى الأيديولوجيات التى حاول النفوذ الغربى فرضها على الأمة الإسلامية لتكون بديلا عن منهجها الأصيل الربانى المصدر وقد قام على الدعوة إليها قادة من اليهود مما يوحى بالرابطة الجذرية بين الصهيونية والماركسية فضلا عن أن ماركس من اليهود أساسا.

وقد جاءت الماركسية بعد أن اقحمت الرأسمالية (الديمقراطية ـ الليبرالية) لتكون بمثابة رد فعل على استعلاء أصحاب المصانع والأثرياء ولتحمل وجهة النظر المواجهة من حيث دعوة الديمقراطية إلى العروبة والاقتصاد الحر ودعوة الماركسية إلى الجماعة والاقتصاد الموجه وقد وجدت فى العالم الإسلامى أصداء واسعة نتيجة ظروف الفقر والحاجة.

وقد اصطرعت الرأسمالية والماركسية فى أفق العالم الإسلامى فكانت كل النظم الدكتاتورية والجمهورية تحاول أن تأخذ بالنظام الماركسى على حين بقيت النظم الملكية فى إطار الرأسمالية.

ولقد اتخذت بعض الأقطار العربية والإسلامية من النظام الماركسى منطلقا اقتصاديا واجتماعيا وسياسيا لها وظنت أنها تستطيع أن تحقق مجتمعا قائما على العدل الاجتماعى ولكن سرعان ما فقدت حرية الديمقراطية ولم تحقق العدالة.

وقد وجدت الماركسية فى إقطار العالم الإسلامى معارضة شديدة رغم محاولات البعض الدعوة إلى ما يسمى اشتراكية الإسلام.

وتنقسم النظرية الماركسية إلى ثلاثة محاور:

أولا : إنكار وجود الخالق والأديان.

ثانيا : الصراع الطبقى.

ثالثا : العجز عن إغناء الفقراء مع العمل على افقار الأغنياء. لقد عاشت الأقطار الإسلامية التى ارتضت الماركسية فى ظلمات وكآبة فقد اجتاحتها رياح السموم فعمها الفقر وأقفرت من الخبرات التى كانت غارقة فيها من قبل، وشهدت انحسار الأنهار وتزايد الأعاصير التى حبستها الظلامية الحقيقية التى لم تعرفها بلاد التوحيد إلا منذ شاء لها حكامها وقادتها اتخاذ هذا النظام الأسود الكئيب.

❑ ❑ ❑

وكانت النظرية الماركسية قد وضعت من خلال العقل البشرى القاصر المحدود الذى يتصرف فى حدود التحديات التى تواجهه فى عصر محدود وبيئة محدودة وقد انطلقت من نفس يهودية حاقدة على المجتمع الإنسانى كله فكانت نقمة ماركس ضد المجتمع الرأسمالى الذى كان ينقم على اليهودية كدين وشعب معا، وبعد أن أخذت طبقة مستغلة جديدة تنافسهم فى الثراء أراد له الفناء فضلا عن مطالعته للتاريخ البشرى وقد كانت نماذجه انتقائية وفق ما يطابق النظرية التى وضعها أساسا ثم بدا يجمع لها الأمثله من التاريخ ولم يكن العكس ـ وهو الصحيح ـ أن يبدأ بدراسة وقائع التاريخ التى يمكن أن تسلمه إلى النظرية. ومن أخطائه:

(١) تأكيده ثورة الطبقة العاملة وأنها لا تكون إلا عنيفة ودموية إذ ينفى عنها الصفة السلمية تماما.

(٢) اقتصار نظريته على المجتمعات المصنعة وحدها.

(٣) اعتبار أن الصراع بين أفراد لا تشغلهم إلا المادة ومن أجل المادة يجب أن يصل إلى الاقتتال حتى الفناء وهو مالم يحدث.

وأخطر ما فى الماركسية: فكرة الصراع الطبقى وفسادها وقد سقطت كل تنبؤات ماركس واستطاعت القوى العاملة أن تصحح وضعها دون صراع أو ثورة مع تفادى الوقوع فى الماركسية وقد جاءت النتائج مخالفة تماما لتوقعاته وأولاها قيام الثورة فى بلد زراعى متخلف كروسيا.

❑ ❑ ❑

كذلك فقد حاولت النظرية الماركسية أن ترسم للكون والخلق نظاما بشريا (فى محاولة ليكون دينا للبشرية) يقوم على مفهوم مادى صرف وينطلق من فكرة الصراع الطبقى ولكنه عجز عن العطاء فسرعان ما اصطدم بالمتغيرات.

وقد اكتشف الباحثون أن النظرية الماركسية اعتمدت على مقولة من العلوم التجريبية ثم ثبت تحولها وسقوطها بعد أن تغيرت المقولة العلمية.

❑ ❑ ❑

أما بالنسبة للتجربة العلمية فقد قال «سانتا جو جاربللو» الشيوعى الإسبانى: إن الطبقة البروليتارية والتى ادعى ماركس أنها ستتولى الحكم بعد الثورة مضطهدة ومستغلة من قبل طبقة جديدة لم يتنبأ ماركس بها أبدا : هذه الطبقة تمارس الامتيازات للطبقة البرجوازية فى المجتمع الرأسمالى، كذلك فقد تخلت كثير من الأحزاب الشيوعية فى بلدان أوروبا الغربية عن الكثير من مراحل النظرية الماركسية وفى مقدمتها ضرورة الثورة الدموية من أجل الاستيلاء على السلطة ثم مرحلة دكتاتورية البروليتاريا.

يقول الدكتور مصطفى محمود : لم تكن الاشتراكيه العلمية اشتراكية ولم تكن علمية وإنما كانت تلفيقا فلسفيا وفكرا يهوديا صنفه ماركس، وأورد به العالم مورد حمامات دم، وصراعات رهيبة بين يمين ويسار، وقد استنزفت طاقات الشباب وضيعت أمما ودمرت اقتصاديات وأوقعت الشعوب فى شباك عنكبوت من الأكاذيب.

لم تكن الاشتراكية العلمية إلا المحضن الخبيث الذى خرجت منه هذه السلالة من السفاحين من لينين إلى ستالين إلى بريا، الذين حولوا أوروبا الشرقية إلى زنزانة وسجن وساحة إرهاب وميدان للرعب تقطع فيه الألسن وتقصف الأقلام وظلت الأكاذيب تتناسل وتتوالد تحت حراسة جديدة من قوة السلاح وفى رعاية قبضة فولاذية من القوة المطلقة لا تتراخى.

أتاحت الفرصة التى أعطيت للماركسية فى بلادنا العربية وخاصة فى مصر والسودان وسوريا بسيطرتها على الإعلام أن تضرب ضربات قاسية فى جدار الإسلام بمعول هو أشد عنفا من معول الليبرالية والعلمانية التى كان الغرب يحملها خلال أكثر من سبعين عاما ويرجع ذلك إلى أن الماركسيين بإنكارهم للغيب جملة وسخريتهم من كل حقائق الألوهية والنبوة والغيب قد اكتسبوا جرأة خطيرة فى إثاره الاتهامات حول القيم الأساسية للإسلام وخاصة أبحاثهم التى ظهرت على أيدى بعض الماكسيين من العرب والمسلمين عن القرآن الكريم واتهامه بأنه نص بشرى ونظرية التفسير المادى للتاريخ وهى تلك الحملة الجائرة الموجهة للدين جملة وما يتصل بها من مفاهيم الإلحاد وفلسفته ومفاهيم الإباحية.

ولما كانت هذه الخطة قد بدأت أساسا فى الغرب فى مواجهة المسيحية فإنها حين امتدت إلى عالم الإسلام استغلت كثيرا من نصوصها ودعاواها فى محاولة لخداع وتضليل للاسلام بوصفه منهج حياة ونظام مجتمع يختلف كل الاختلاف عن

مفهوم الدين اللاهوتى الغربى إذ يجرى الاتهام للدين عموما وللإسلام حصوصا بأنه مصدر التخلف.

وقد كان اتساع نطاق الصحوة الإسلامية وإقبال مفكرى الغرب وخاصة الماركسيين منهم على فهم الإسلام عاملا من العوامل الخطيرة التى ألهبت مشاعرهم ودفعتهم إلى مزيد من العنف والتطرف فى نقد الإسلام واتهامه والسخرية بمقوماته والتهكم على بطولاته.

وقد ضاعف ذلك للمرة الثانية سقوط الماركسية نفسها وهزيمة الشيوعية فى بلادها التى طبقتها أكثر من سبعين عاما مما حمل الماركسيين على مضاعفة حملاتهم واندفاعهم الحاقد المشين مما يرونه خطرا على وجودهم وظنا منهم أنهم قادرون على النيل من الإسلام فى غفلة خطيرة عن مدى الفارق البعيد والعميق بين المنهج الربانى والمنهج البشرى.

ويتجلى غرورهم الخادع فى ظنهم أنهم قادرون على تغليب منهج البشر على منهج الله تبارك وتعالى وبالرغم من ظهور عشرات الثغرات التى كشفت عن فساد التجربة التى استغلت لأن تكون فى مستوى المنهج الربانى وسقوطها مرة واحدة، كل هذا لم يعط لهذه القلة المغرورة الحاقدة. العبرة ومازالت مخدوعة مضللة بما تسميه المنهج العلمى والجدلية المادية والجبرية.

إنها محاولة لنقل الفكر الإسلامى إلى دائرة الفكر المادى الماركسى وإشاعة الشبهات والشكوك حول كل مقوماته الإسلامية وخاصة ما يتعلق بالتوحيد والغيب من خلال عشرات المذاهب الوافدة والدخيلة المبثوثة على الساحة سواء أكانت الحداثة أم البنيوية أم العبثية. وأغلب ما تركز عليه هو التراث القديم حتى لا تكشف هجومها على القرآن والسنة فى أول الأمر ثم تتطرق من ذلك إلى التشكيك فى

المصدر الإلهى للقرآن والوحى والإسلام وإدخال الشكوك واللبس واعتماد مفاهيم الماركسية والمادية التاريخية وغيرها وقد استقطبت هذه المحاولة مجموعة من الماركسيين الذين اختفوا من ساحة الفكر الماركسى السياسى وحاولوا الظهور فى ميدان العلم والتاريخ أمثال محمد اركون وعايد الجابرى وطيب تزينى، وحسين مروة، وحسن حنفى، وهشام حعبط، ومحمد حبوس وأدونيس من خلال التطرق إلى إثارة الشكوك من جوانب مختلفة وذلك فى محاولة لإعلاء شأن الجوانب الشعوبية والباطنية التى حمل لواءها خصوم الإسلام واتباع الفلسفه اليونانية سواء فى مجال الفلسفه (ابن سينا والفارابى) أو فى مجال التصوف الفلسفى والفكر الباطنى (ابن عربى والحلاج وابن سبعين) أو غيرهم من أمثال المزدكية والبابكية والقرامطة وإعادة طرحها من جديد على أنها فكر ثورى أو بحمل الدعوة إلى العدل والحرية وذلك ما قام به أمثال حسين مروة، والجابرى.

كل هذه الكتابات تتجاهل الأصول الإسلامية الإيجابية للفكر الإسلامى المستمدة من القرآن والسنة وتركز على كتابات خصوم الإسلام فى مختلف العصور فى سبيل عرضها بصورة جديدة وإحيائها.

فى عام ١٩١٨ صدر مرسوم فى الاتحاد السوفيتى بفصل الكنيسة عن الدولة والمدرسة وتصفية وجود الكنيسة فى مواجهة الثورة البلشفية وتعهد قادة الثورة بأنهم سيحققون لأتباعهم ماوعدت الأديان بتحقيقه بعد الموت فى العالم الآخر وقالوا إن الأديان تعد أتباعها بجنة فى العالم الآخر ونحن نعد بجنة فى هذا العالم، هنا على الأرض، والآن وليس فيما بعد، وبدأ يومئذ تدريس الأفكار المادية والتباهى بالإلحاد وكان المنطق الذى يساق إليه هؤلاء. أن الدين يخدر النفوس عن ضرورة تغيير الأوضاع وأنه يؤدى مع الشعوب دور الأفيون وبالتالى فهو سبب تخلف الشعوب.

ومرت ٧٢ سنة وأفلس البلشفيك فى تحقيق الجنة التى وعدوا بها على الأرض وقدموا بدلا منها طوابير لملايين الجوعى الذين ينتظرون لشراء الطعام، كما فشلوا فى الوقوف فى وجه الفطرة السليمة التى تتجه للإيمان.

وكان الغلو فى إنكار الدين وألوهية الله وحده هو مقتل الماركسية والخنجر الذى نفذ إلى قلبها، فقد أنكرت كرامة الإنسان واعتبرته ترسا فى آلة، وكان فهم التطور على أنه تطور مطلق والتنكر للثوابت الأساسية فى نظام الكون والمجتمع والحضارة وهى أيضا مقتل الماركسية والاشتراكية جميعا.

لقد كانت هذه المرحلة تحمل محاولة خطيرة لفرض نظام الإلحاد على العالم كله وقطع الصلة بالأديان المنزلة وذلك فى سبيل خدمة الهدف الذى رسمته الصهيونية أساسا لفرض سلطانها ونفوذها على العالم بمحو العلاقة بين الإنسان وخالقه وقد تحطمت الآن هذه المحاولة بعد أن زعزعت إيمان الكثيرين وأزعجت كل ذى لب، ودفعت المثقفين فى الغرب إلى البحث عن الدين الحق.

ولا شك أن الخروج من مأزق الماركسية الآن لن يكون لحساب الرأسمالية أو الصهيونية أبدا وإنما سيكون لحساب الدين الحق الذى يستطيع أن يملأ القلوب إيمانا وأمنا ويقدم للنفس الإنسانيه السكينة والأمن.

ولقد نشأت الاشتراكية من رحم الرأسمالية ثم صارعتها حتى انهزمت بعد سبعين سنة فقد عجزت الماركسية عن إصلاح نفسها واعتبرت منهجا له قداسة النبوات فى الوقت الذى ثبت أن النظرية البشرية عارضت الفطرة والعلم والتاريخ وأن ماركس تعمد التماس أحداث معينة ليبنى عليها نظرية كان قد حددها مسبقا ثم بحث لها عن النصوص.

ومن أجل عدم اتساقها مع الفطرة والعلم وحقائق الحياة لم تلبث إلا قليلا حتى أصابها العطب واضطر المتمسكون بها إلى تعديلها بالاضافة والحذف بل لقد اضطروا إلى اخفاء جوانب منها كانت قد استحدثتها من بعض مظاهر العلوم التجريبية التى تجاوزتها الأبحاث فيما بعد.

ولقد كان استعلاؤها وغرورها فى إنكار الحقائق وخاصة حقيقة الدين المنزل وأثرة فى المجتمعات والحضارة وحركة الأفراد وإقامة منهج حضارى هو «علم الإلحاد» أمرا مخالفا لطبيعة النفس الإنسانية وكان اعتماد مفهوم الصراع الطبقى مخالفا لكل مفاهيم البشرية والنفس الإنسانية التى كانت تعتمد التوافق و الالتقاء وحلول روح التكامل بين القيم والتوازن بين الأوضاع.

إن ماركس فيما يسمى علم الاقتصاد الماركسى لم يكن على تمام الالمام بتاريخ الاقتصاد البشرى واعتمد فى مساحات واسعة منه على تخمينات ظنية.

❑ ❑ ❑

إن أبرز الحقائق فى علاقة علماء الإسلام بالماركسية هو الرفض والإحساس بالعجز والضعف والقصور إزاء منهج ربانى عالمى هو الإسلام وهو نفس موقف المسلمين من الليبرالية ومن القومية.

وفى خلال الصراع بين الليبرالية والشيوعية ظهرت علامات خطيرة من التحول:

كانت الشيوعية تطمع فى أن تقضى على الدين كله وتفرض الدكتاتورية والصراع الطبقى على العالم، وكانت الرأسمالية تطمع فى أن تحول العالم كله إلى سوق مالية تستعبد فيها الشعوب وتقضى على مفاهيمها وقيمها ولكن حدث أن ظهرت فى خلال الصراع علاقات جديدة:

١ ـ أهمها الانبعاث الدينى كظاهرة عالمية.

٢ ـ سجل الإسلام يحتوى قدرا ضخما من الانتصارات فى أجواء الغرب نفسه.

٣ ـ انهيار الأيديولوجيات الماركسية حين طبقت فى العالم الإسلامى.

٤ ـ عجز الاستشراق والتبشير عن استيعاب المؤمنين وانهيار مخططه.

٥ ـ عودة المسلمين إلى منابعهم بعد أن ظن الغرب أنهم قد نسوها ودخلوا دائرة الانصهار فى الغرب.

❑ ❑ ❑

لقد كانت الماركسية هى الوجه الآخر للحضارة الغربية التى قامت أساسا على الاستعمار ونهب ثروات الأمم وتدمير وجود الإنسان واستغلاله واستعباده وقد قامت فى مواجهة الراسمالية وخدعت الناس بالعدل والمساواة ثم تبين أن العقل اليهودى من وراء الرأسمالية والماركسية على السواء وأن القوتين خاضعتان لقوة أخرى مسيطرة من وراء الحكومات والنظم.

لقد جاءت الماركسية لتمثل أشد تطورات الفكر المادى عنفا وتطرفا بعد أن مر فى مراحل متعددة حتى جاءت الماركسية لتقدم أخطر مفاهيم الحرب على الأديان وعلى الفطرة وعلى الطبيعة البشرية من خلال الصراع الدموى والحكم الدكتاتورى واستباحة كل قيم الأخلاق وآداب المجتمعات وأصول الروابط بين الأمم.

❑ ❑ ❑

ويؤكد أقرب الناس صلة بالحركة الشيوعية أن الشيوعيين ماكانوا يدعون إلى استقلال حقيقى ولكن كانوا يقصدون إحلال الهيمنة السوفيتية محل الهيمنة الأمريكية ـ كما يقول الأستاذ عادل حسين ـ وإذا كان القصد تحقيق العدل

الاجتماعى فإننا نقول إن النظام الشمولى الذى بشروا به لم يحقق ما يدعون وأكثر من ذلك فإن الدعوة للعدل الاجتماعى ودعم الفقراء لا يتطلب الإلحاد والكفر بالله تبارك وتعالى كما تدعو فلسفتهم (المادية الجدلية) وقد كان الوصول إلى الحكم يتطلب فى النظرية الشيوعية قيام ثورة دموية عنيفة ومن هنا كان اعتزازهم باللون الأحمر ومعنى هذا أن الحل الصحيح عندهم هو فى الإرهاب الجماعى المنظم.

لقد خاب أمل ثلاثين دولة أفريقية فى الشيوعية: منها غانا وتنزانيا وزامبيا وأنجولا وموزمبيق وأثيوبيا وهى كلها عندما أرادت أن تستقل وتتحرر اختارت.الماركسية التى تحدثت عن الطبقة الفقيرة وانكسار اعناق الدول الاستعمارية التى تعيش على ثروات أفريقيا على حين أن الشعوب صاحبة الثروات تقف جائعة تعيش على فتات الموائد الأوروبية والأمريكية.

هذه الدول عليها ديون قدرها ٢٧٠ ألف مليون دولار لا تستطيع سدادها، لقد ضللت الشيوعية زعماء الدول الفقيرة وجاء الزعماء فضللوا شعوبهم.. قال جورباتشوف:

لقد أسرفنا فى الوعود وأسرفنا فى استخدام اللون الوردى لكل شئ وأخيرا لم تعد لدينا أكاذيب جديدة، كانت الشعوب ضحايا أكاذيب.

إن أخطر ما منيت به الصهيونية فى هذا العقد الأخير من القرن العشرين الميلادى هو سقوط ربيبتها وصناعتها الشيوعية التى أعدتها لتكون الوجه الآخر للصهيونية فى استيلائها على البشرية وتتناثر الدعاوى المضللة بأن الشيوعية لم تسقط وإنما تمر بأزمة والواقع أن الشيوعية قد سقطت منذ أكثر من ثلاثة عقود ولكنها كانت تعانى حشرجة الموت فقد سقطت فكرا وتجربة ونظاما للبشرية تطبيقا للقانون الإلهى الذى لا يتخلف.

﴿ فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض﴾

سقطت لأنها كانت تحمل فى طياتها عوامل سقوطها واندثارها لقد كانت الشيوعية (الماركسية) ضد الفطرة وضد الطبيعة الإنسانية وضد العلم والفكر وضد المجرى العام للتاريخ الإنسانى، ولذلك نجد مشاهير المفكرين فى الغرب قد رفضوها رفضا تاما.

قال برتراند راسل: إن عناصر الفلسفة الماركسية التى استمدت من هيجل كلها غير علمية.

قال جون كينز : إن كتاب «رأس المال» الذى جمع فيه كارل ماركس مذهبه الاقتصادى كتاب مبتذل رفض النظرة الماركسية للتاريخ.

وأرنولد توينبى رفض الماركسية كتفسير ومذهب للتاريخ وكثيرون نفوا عن الماركسية صفة العلم.

❑ ❑ ❑

فليس من الغريب أن تسقط الماركسية ولكن من الغريب أن تبقى، وإذا كانت الماركسية قد سقطت اليوم فإن الفرويدية والوجودية ومفاهيم علم الاجتماع (دور كايم) وغيرها قد سقطت جميعها وقد تكشف مدى خطئها وفسادها واضطرابها دائما وجاءت الماركسية اليوم لتؤكد أن الفكر البشرى الذى صنعته عقول وأهواء مفكرى الغرب السكارى بخمرة الاستعلاء والتحرر والاندفاع وراء الشهوات والأهواء والمطامع والجرأة على الله تبارك وتعالى وتشجيع المنكرين والمفكرين له ولأنبيائه وكتبه قد سقط تماما ولم يعد يستطيع أن يحقق أى سعادة للنفس الإنسانية ولا طمأنينة لها ولا إيمان.

وقد تأكد أن هذه المفاهيم جميعا مصدرها التلمود والتوراة التى كتبها الأحبار والتى صدرت عن حقد اليهود على البشرية كلها وطمعهم فى السيطرة عليها وإذلالها وفرض إمبراطورية الربا على العالمين.

العلمانيــة

كان الهدف الضخم للسيطرة على الفكر الإسلامى والمجتمع الإسلامى يتركز فى فرض مفهوم العلمانية التى تعنى فصل المجتمع عن الدين جملة فالعلمانية فى القاموس الإنجليزى هى النظرية التى تقول إن الأخلاق والتعليم يجب أن ينفصلا عن الأسس الدينية.

وتقرر دائرة المعارف البريطانية أن العلمانية حركة اجتماعية تهدف إلى نقل الناس من العناية بالآخرة إلى العناية بالدنيا.

على حين يقوم مفهوم الإسلام على أساس أن تكون الدنيا مزرعة للآخرة وبالجملة فالعلمانية تهدف أساسا إلى عزل الدين عن التأثير فى الدنيا فى جميع النواحى السياسية والاقتصادية والاجتماعية والأخلاقية والقانونية وغيرها.

ومعنى هذا أن العلمانية : تفصل عن الإسلام جانبه الاجتماعى والسياسى والعلمى وتبقى عليه بوصفه دين عبادة، وإقرار هذا المفهوم هو أخطر تحد يواجه الإسلام فى المجتمعات الحديثة.

والواقع أن هذه القضية لم تكن يوما من الأيام قضية الإسلام، الذى تشكل أساسا جامعا بين الروح والجسد والعقل والقلب والدنيا والآخرة بوصفه منهج حياة ونظام مجتمع، وإنما هى قضية المجتمع الغربى مع المسيحية والكنيسة بوصف المسيحية (الغربية) دينا لاهوتيا خالصا.

ولقد رأى الغرب أن أخطر سلاح يحارب به الإسلام والمجتمع الإسلامى هو فرض مفهوم العلمانية عليه.

ولقد كانت محاولة فرض العلمانية على المجتمع الإسلامى وعلى التعليم والدين والسياسة والاقتصاد من أخطر التحديات التى واجهها الإسلام بل لقد أشارت بعض الدراسات إلى أن العلمانية تمثل نظاما أساسيا فى الماسونية، والعلمانية فى الترجمة تعنى اللادينية.

ولقد طرحت العلمانية فى أفق الفكر الإسلامى ـ عد سقوط العالم الاسلامى تحت نفوذ الغرب ـ بهدف حجب الشريعة الإسلامية عن التطبيق وتقديم القانون الوضعى ونظام الربا ونظام التعليم اللادينى بديلا عن نظام الإسلام الجامع والهدف هو إقصاء المفهوم الإسلام عن المجتمع والسياسة والاقتصاد.

وبمعنى أوضح فإن العلمانية هى إقصاء القيم الفكرية والروحية التى جاء بها الدين الحق عن الحياة الاجتماعية وتحرير الفرد والمجتمع من الالتزام الدينى والمسئولية الأخلاقيه بهدف دفعه إلى التحرر الخارج على حدود الله تبارك وتعالى.

ولقد كانت العلمانية هى الركيزة الأساسية لكل دعوات هدم الوحدة الإسلامية الجامعة كالإقليمية والقومية ودعوات الأجناس والعروق والدماء ذلك لأن هذه الدعوات إنما تقوم فى سبيل كسر الروابط الروحية والفكرية التى جمعت بين الأجناس والأمم المختلفة تحت لواء واحد مع اختلاف الفوارق اللونية والعروق والتى جاء الإسلام لقطع تلك الأصول القديمة وهدمها من فينيقية وفرعونية وآشورية وبابلية وصهرها فى وحدة فكر أساسية هى «لا إله إلا إله» وكلكم لآدم وآدم من تراب.

وتعتمد العلمانية على مصدر واحد للمعرفة هو العقل وهى بذلك أقل قوة من مفهوم المعرفه الإسلامى الجامع بين العقل والوحى والإيمان بالغيب وهى بذلك تقف على الطريق المضاد لكل دين من الأديان، والعلم بمفهومه الصحيح برئ من هذا المصطلح المنسوب إليه.

وفصل الدين عن الدولة نظرية «صهيونية تلمودية» عمل اليهود على تنفيذها فى فرنسا بعد الثورة الفرنسية وفى مختلف أنحاء أوروبا لـدحر النفـوذ المسيحى الكنسى الذى كان يرسم حدودا لليهود فى أزقتهم وحواريهم ويحول بينهم وبين الوصول إلى النفوذ السياسى أو الاجتماعى.

وفى الشرق كان أول من ابتدع فصل السياسة عن الدين ونادى بها مصطفى كمال أتاتورك وكان وراء ذلك دفع من الاستعمار الذى غذى هذه الأكذوبة وعمل على اشاعتها وكانت الخلافة فى نظره حجر عثرة يجب التخلص منها ولا يمكن التخلص منها إلا بالتخلص من العقيدة الإسلامية نفسها لاقتلاعها من نفوس أصحابها وقد سلخ أتاتورك تركيا الإسلامية عن العقيدة الإسلامية بقانون وبرنامج وضعت خطواته فى محافل أوروبا الماسونية، ولم يكن ذلك عن ارادة الشعب التركى العميق الإسلام الذى لم يلبث أن عاد سريعا إلى أحضان الإسلام ثم حاول ذلك بعد سعد زغلول وحكام إيران وبعض بلدان آسيا.

❑ ❑ ❑

ولما كان الاسلام دين دولة ونظام مجتمع وقد امتزج الإسلام بالمجتمع الإسلامى امتزاجا كاملا عقديا وعضويا لا سبيل إلى نزعه فقد شكلت هذه الأمة على هذا النحو ولن يستطيع أحد أن يغير فطرته، والإسلام دين دولة وحضارة فلا يمكن فصله عن الدولة من حيث إنه يعطنا المبادئ الإنسانية العامة.

أما المسيحية فإنها كدين عبادى فإنها لا تتعارض مع العلمانية، وأما الإسلام فإنه يتعارض كليا وجزئيا مع هذا المفهوم وكذلك فإن الدعوة إلى العلمانية تعنى تعطيل الإسلام عن التطبيق وإقصاءه عن التأثير فى حياة المسلم. ولقد حاولت قوى الاستعمار والتغريب تدمير المجتمع الإسلامى بإقصائه عن شريعته وفرض القوانين الوضعية عليه وتحويله إلى نظام الربا فى الاقتصاد وإلى مناهج التعليم الوضعية فى مجال التربية وذلك كله بهدف خلق أجيال تابعة تبعية كاملة للفكر الغربى تمتلك

مقاليد الأمور فى مختلف مجالات القياده الفكرية والسياسية وكأن لعملية إسقاط الخلافة وتحويل الدولة العثمانية إلى دولة إقليمية علمانية أبعد الأثر فى العالم الإسلامى كله وفى البلاد العربية وإيران وغيرها.

❑ ❑ ❑

إن مصطلح العلمانية لم يوجد فى التراث الفكرى العربى القديم. وإن معنىsecaler لا يعنى فى قاموس السياسة غير معنى واحد هو (لا دينية) وقد جرى الناس على ترجمتها إلى علمانى أو مدنى وهى تسميات مهذبة لتسمية اللادينية تحاول أن تستر بشاعتها بأشياء سائغة مقبولة ومن الواضح أن كل ماليس دينيا وهو لادينى، ولعل أوجز تعبير عربى عن هذه الحقيقة فى الإسلام هو قول أحد الباحثين الغربيين:

الإسلام ليس دولة دينية ولا هو دين للدولة وإنما الإسلام دين وهو فى نفس الوقت دولة (مؤلف كتاب الجزيرة العربية) .

ويقرر برنارد لويس أنه لا توجد فى الإسلام مصطلحات تميز بين المقدس والدنيوى أو بين الروحى والزمنى لأنه لايقبل حتى ولا يعرف الانفصام الذى تعبر عنه هذه السلسلة من المتضادات التى تؤدى إلى الانشقاق والصدام بين الكنيسة والدولة وبين البابا والإمبراطور وبين الله والقيصر.

وقد كان المستعمر الأجنبى الغربى الذى يحتل أقطارنا لا يخفى ارتياحه لهذه العلمانية بل كان يشجعها ولأن ذلك كان يؤدى إلى تفريغ مفهومنا الإسلامى من أصالته وروحه.

الفصل الأخير
نحو أفق جديد

واجهت الأمة الإسلامية كل محاولات احتوائها وحصارها وبعد أن عجز الغرب عن السيطرة من طريق الحروب الصليبية بدأ فكره فى «حرب الكلمة» وحاصر الدولة العثمانيه أكثر من مائة عام فى محاولة للقضاء على كيانها واسقاط الخلافة فى مؤامرة خطيرة بدأت باستعادة الأندلس ١٤٩١ وانتهت بإقامة حصار عسكرى يضع الأمة الإسلامية بين فكر «الكماشة» وذلك منذ أن زحفت قوات إسبانيا والبرتغال لحصار الجزائر والمغرب والاندفاع نحو الخليج العربى فالهند فإندونسيا فى مؤامرة خطيرة تولتها فرنسا وإنجلترا بعد ذلك وانتهت بإدخال الدولة العثمانية فى الحرب العالمية الأولى حليفه لألمانيا لهزيمتها وتقسيم ميراثها بين فرنسا وإنجلترا بعد أن استولت بريطانيا قبل ذلك على الهند وهولندا على الملايو.

وكان من أخطر ما ضمته المؤامرة وعد بلفور الذى أعطى للصهيونية العالمية حق إقامة وطن قومى فى فلسطين من خلال نبوءات زائفة من امتلاك أرض فلسطين ومن أجل إقامة كيان فى قلب الوطن الإسلامى يرمى فى النهاية إلى إقامة هيكل سليمان والدولة الصهيونية من النيل إلى الفرات.

وقد جاءت كل عمليات تدمير الكيان الثقافى الإسلامى من خلال الاستعمار والرأسمالية والقومية والماركسية كوسيلة للسيطرة على الوطن الإسلامى والحيلولة دون أهلية المسلمين وبين امتلاك إرادتهم، وجاءت الصهيونية لتعلن أنها الوريث الوحيد للاستعمار الغربى وقد اتخذت من الماركسية منطلقا لتحقيق أهدافها، وكانت الماسونية قد استطاعت أن تسيطر على كثير من المواقع عن طريق إقناع بعض

المسلمين للدخول فيها.

واتسع نطاق العمل من خلال مفاهيم العلوم الاجتماعية والإنسانية فظهرت الوجودية والفرويدية ومفاهيم دارون ودوركايم وسارتر الذين أعلنت بروتوكولات صهيون أنهم من اليهود وأنهم يؤدون دورهم فى اهتمام شديد لتدمير الإنسان الجوييم (من غير اليهود) والعمل على هدم الأسرة المسلمة والمجتمع المسلم وفتح الطريق أمام الشهوات والكشف والإباحية وإدخال الشباب المسلم فيها لتدميره وتحطيم عوامل المناعة والمقاومة التى تواجهها من المجتمعات الإسلامية اليوم هذا فضلا عن الأخطار التى أحدثتها الصهيونية فى السيطرة على الاقتصاد العالمى وفرض نظام الربا والعمل على حجب الشريعة الإسلامية وفرض القانون الوضعى.

وقد تبين أن الصهيونية كانت من وراء جميع مخططات التغريب والغزو الثقافى والشعوبية التى اتسع نطاقها فى العقود الأخيرة وخاصة بالدعوة إلى القوميات والعمل على إعلاء شأن الفرق والطوائف وإثارتها وإحداث الصراعات المختلفة بين العرب والفرس وبين المسلمين والنصارى وبين الموارنة والعرب.

وتعمل الصهيونية من خلال القوى الاستعماريه الظاهرة والخفية على فرض نفوذها على الوطن الإسلامى سواء بالقوة أو التآمر أو بالاستقطاب مع القضاء على روح الجهاد والمقاومة التى رسم الإسلام منهجها فى حالة اعتداء العدو على أرض الإسلام وذلك باحتواء مناهج الدراسة ورفع كل ما يصل منها بالمواقف الحاسمة التى قام بها أبطال المسلمين أمثال خالد بن الوليد وصلاح الدين الأيوبى وقطز وبيبرس والعمل على استقطاب المفكرين والعلماء بقبول مفاهيم تحديد النسل والعمل على احتواء الصحوة الإسلامية وضرب القوى الإسلامية بعضها ببعض.

ولقد ثبت أن دعاوى اليهود عن حقهم فى فلسطين ليست إلا أكاذيب باطلة

فهم ليسوا أساسا أحفاد إبراهيم وإسحق ولكنهم من يهود الخزر ومن القبيلة الثالثة عشرة التى لم تعرف دين موسى أساسا ويقول الدكتور إبراهيم البحراوى إن المخطط الإسرائيلى يهدف إلى التاثير على المواطن المصرى بقبول إسرائيل نفسيا وتاريخيا وإنهم يعملون على كسر الحاجز النفسى بين العرب واليهود وما يتصل بها من عمليه اقتحام العقل العربى المسلم.

وقد استطاع اليهود بعد توقيع معاهدة كامب ديفيد أن يحدثوا شرخا كبيرا فى جدار الحاجز النفسى بينهم وبين العرب وقد نفذوا من هذا الشرخ الى محاولة تحقيق هدفهم الأساسى.

ويجرى كسر الحاجز النفسى تمهيدا لإقناع العرب بقبول الأمر الواقع واعتبار الكيان الصهيونى فى فلسطين حقيقة يجب التعايش معها للوصول فى نهاية الأمر إلى تحقيق الحلم اليهودى بالسيطرة على المنطقة العربية الإسلامية كلها وبسط نفوذ الإمبراطورية اليهودية من النيل إلى الفرات.

ولكن الإسلام يمنع المسلمين من قبول الأمر الواقع ويحذرهم من خطر الأعداء ويدعوهم إلى الثبات والصمود والمرابطة فى الثغور.

ولا شك أن المسلمين قد وعوا الدرس تماما وأنهم يعرفون أن الشيوعية والصهيونية يلتقيان على نشر الإباحية وهدم القيم والفضائل. بتنسيق وارتباط بين الفكر الصهيونى والفكر الشيوعى.

فهدف الصهيونية هو السيطرة على العالم كله سياسيا واقتصاديا تحت زعم أنهم شعب الله المختار.

وفى بروتوكولات صهيون: إننا نقرأ فى شريعة الأنبياء أننا مختارون من الله لنحكم الأرض وقد منحنا العبقرية كى نكون قادرين على القيام بهذا العمل وقد رد القرآن

عليهم فقال: ﴿ بل أنتم بشر ممن خلق ﴾.

وقد تقدم رجال اليهود فرسموا المنهج الذى يعمل على تدمير القيم [دوركايم ـ ماركس ـ فرويد].

قال حب : إن الهدف هو حمل العالم الإسلامى على الحضارة الغربية لهدم وحدة الحضارة الإسلامية التى تقوم عليها وحدة المسلمين لأن كل قطر يتجه إلى اقتباس مايلائم ظروفه وعندئذ تتعدد الأساليب فى الاقتباس.

وبعد فهذه صيحة تحذير إلى القلوب الغافية.

لقد جاء القرآن الكريم بالمنهج والأسلوب والحوار الربانى الذى يجب أن تلتمسه البشرية وتتحرك فى اطاره فلا يغلبها عليه غالب أما كل ما تلوكه البشرية اليوم وبعد أربعة عشر قرنا من نزول القرآن فإنه لغو شديد الاضطراب لايزال يتردد ويتشكل فى أساليب جديدة وأوضاع مختلفة ولكنه لايزال فى أعماقه هو نفس الفكر البشرى القديم الذى حاكته القوى الضالة بكل مافيه من وثنية وإلحاد وإباحية وأهواء مضللة مما جاء القرآن أساسا لتدميره وتحطيمه ولكنه لايزال يجمع بمكر أولئك الفلاسفة الماديين الإباحيين ومن خلال تآمرهم وما توحى إليهم أهواؤهم ليضعه مع صور جديدة براقة تسمى نفسها معاصرة وليست قديمة بدعوى الاستعلاء على القديم والماضى والتحرر من قيود الجحود والتخلف، ومازال ذلك كله يمثل تلك الوثنيات التى شكلها الإنسان عى مدى العصور لمواجهة دين الله الحق وقد جمعها اليهود فى هذا العصر وشكلوها على هيئة علوم وأعطوها طابعا براقا مغريا لخداع الجوييم عن دين الله الحق وعن نهجه الصحيح وعن طريقه المستقيم.

وسوف يظل القرآن قادرا على الاستعلاء بالحق والسلطان بقوة الله ليدمر هذا الطاغوت يوما بعد يوم حتى لايبقى إلا ضوء الحق ونور الوحى. هذا وبالله التوفيق.

المؤلف انور الجندى..

* يعمل فى حقل الدعوة الإسلامية منذ عام ١٩٤٦ ومن اوائل الصحفيين الإسلاميين وقد عمل بالصحافة العامة ثم بالصحافة الإسلامية وكتب فصولا فى مختلف المجلات الإسلامية فى العالم الإسلامى.

اشترك فى عديد من المؤتمرات الاسلامية التى عقدت فى :

الرياض ـ مكة المكرمة ـ الجزائر ـ المغرب ـ جاكارتا ـ الأردن ـ الخرطوم.

دعى إلى المحاضره والزيارة فى جامعات الإمام محمد بن مسعود وجامعة العين بالإمارات.

قدم موسوعة مقدمات العلوم والمفاهيم الإسلامية فى الفكر البشرى.

قدم موسوعة (معلمة الإسلام وتضم مائة مصطلح فى الفكر البشرى فى ضوء الإسلام.

هذه هى الموسوعة الثالثة التى قامت على نشرها دار التراث الإسلامى.

كان الموضوع الرئيسى الذى أولاه اهتماما منذ أكثر من أربعين عاما يدرس كتبه ويراجع دعائمه ويوجه مختلف قضاياه هو الغزو الفكرى والتغريب.

ولد عام ١٩١٧ فى مدينة ديروط من أعمال محافظة أسيوط ودرس فى عدد من المعاهد مادتى التجارة والصحافة واتصل بجامعات مختلفة فى الشرق والغرب وأحرز عددا من الدبلومات.

صدر له عن مكتبة التراث الإسلامى:

١ ـ سموم الاستشراق فى الفكر الإسلامى.

٢ ـ تاريخ الإسلام فى مواجهة التحديات.

٣ ـ تيارات وافدة ونظريات مسمومة تخاطب الإسلام. (هذا الكتاب)

[تحت الطبع]

١ ـ كسر طوق الحصار عن الإسلام والفكر الإسلامى.

٢ ـ تحفظات على كتابات العلمانيين المعاصرين.

الفهرس

القسم الأول
نظريات مسمومة معاصرة
تحاصر الإسلام

الباب الأول
خطة احتواء الفكر الإسلامى

الباب الثانى
اقتحام الفكر الإسلامى
(اللغة - التاريخ - التراث - الأدب)

مطابع التراث الإسلامى
رقم الإيداع : ٩٣/١٠٩١٩
الرقم الدولى : ٤-١٥٢-٢٦٠-٩٧٧